أنا مدينة العلم وعلي بابها

في ظلال

نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الرابع

وثّق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة

دار الكتاب الإسلامي

www.haydarya.com

في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الرابع

وثق أصوله وحققه وعلق عليه
سامي الغريري

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢٧٦٦٠
التاريخ/ ١٥/١٠/٢٠٠٦

BP
٣٨/
/٢٦
٦ق
ق١٩.
٤٠

النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب .... فى ظلال نهج البلاغة (ج ٤)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر................................ دارالكتاب الاسلامي

الطبعه .... الاولى ١٤٢٥هـ. ق / ٢٠٠٥م

المطبعه................................ مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٦ – ١٠٠ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 100 - 6

الترقيم الدولي (ج ٤): ٩ – ١٠٤ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 104 - 9

فهرس الموضوعات

اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٢ ـ ١٥

لَمْ يُولَدْ... فِقْرَة ١ ـ ٣: ١٥

كَانَ وَلَمْ يَكُن مَعَهُ شَيء...فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٢٠

لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا...فِقْرَة ٦: ٢٧

الدِّين تَسْلِيَة، وَرَفَاهِيَة: ٢٩

إِخْوَان الإِمَام...فِقْرَة ٧: ٣١

لَا يَمُوْت عَلَىٰ الْحَقِّ إِلَّا اَلْمجَاهِدُون: ٣٤

اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٣ ـ ٤٣

الله وَالْقُرْآن.. فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٣

بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٧: ٤٩

أعلىٰ الْأصوَات فِي نَهْجِ اَلْبَلاَغَة: ٥٢

الْإِنْسَان اَبنُ اَلدُّنْيَا: ٥٧

هَل نَهْج اَلْبَلاَغَة مَنْحُول؟ ٥٩

اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٤ ـ ٦١

الأَثْرَمُ: ٦١
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٥ ـ ٦٣
الله وَمُحَمّد...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٦٣
مَذْهَب دِيكَارت: ٦٥
مَنْ تَفكّرَ أَبْصَر...فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٦٩
لاَ بِنَاءً مِنْ غَيْرِ بَانٍ...فِقْرَة ٥ ـ ٧: ٧٢
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٦ ـ ٧٧
فِي صِفَاته تَعَالىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٤: ٧٧
أَنْشَأَ الدُّنْيَا وَفَنَاؤُهَا...فِقْرَة ٥ ـ ٨: ٨٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٧ ـ ٩٧
حُكْم الصِّغَار: ٩٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٨ ـ ١٠٣
كَيْفَ بِالْمَوْت وَاعِظاً: ١٠٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٨٩ ـ ١٠٧
فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ: ١٠٧
الْإِيمَان: ١٠٨
الْهِجْرَة: ١١٥
سَبَب الْهِجْرَة: ١١٥
أَمْرُ أَهْل الْبَيْت: ١١٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٩٠ ـ ١١٩

ظُلْمَة القَبْر...فِقْرَة ١ ـ ٣: ١١٩
بَادِرُوا الآجَال بِالأَعْمَال...فِقْرَة ٤ ـ ٦: ١٢٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٩١ ـ ١٢٧
لاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَىٰ... فِقْرَة ١ ـ ٣: ١٢٧
التَّقْوَىٰ: ١٣٠
دَارُ حَرَبٍ وَ سَلَبٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٥: ١٣٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٩٢ ـ ١٣٧
مَا بَيْنَ اللهِ وَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ وصَدَاقَة...فِقْرَة ١ ـ ٢: ١٣٧
الْمَلَائِكَة، وَالْأَنَانِيَة: ١٤١
الفَرْق بَيْنَ الشَّيْطَان وَإِبْلِيس: ١٤٢
فِي كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودٌ لإِبْلِيسَ...فِقْرَة ٣ ـ ٥: ١٤٥
لاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ...فِقْرَة ٦ ـ ٨: ١٥٠
مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ...فِقْرَة ٩ ـ ١١: ١٥٩
لاَ حَقّ ولاَ إِنْسَانِيَة إِلّا عِنْدَ الأَغْنِيَاء! ١٦١
بَيْت الله الْحَرَام... فِقْرَة ١٢ ـ ١٤: ١٦٤
الْعِبَادَةُ رِيَاضَةٌ نَفْسِيَّةٌ...فِقْرَة ١٥ ـ ١٧: ١٧٥
الْإِسْلاَم وَالتَّسَامُح: ١٨٠
الْأَذَىٰ فِي سَبِيلِ اَلْحَقّ...فِقْرَة ١٨ ـ ٢٠: ١٨٠
النِّعْمَة بِرَسُولِ الله...فِقْرَة ٢١ ـ ٢٣: ١٨٥
إِسْرَائِيل: ١٨٧

غَانْدِي وَعُلمَاء ٱلْمُسْلِمِينَ: ١٩١
الإِسْلاَم أَمْنٌ وَأَمَان...فِقْرَة ٢٤ ـ ٢٥: ١٩٤
النَّبِيّ وَعَلِيّ فِقْرَة ٢٦ ـ ٢٧: ٢٠٠
الإِمَام عَلِيّ: ٢٠١
النَّبِيّ وَالشَّجَرَة...فِقْرَة ٢٨ ـ ٣١: ٢٤٤
الْخَوَارِق وَالمُعْجِزَات: ٢٤٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩٣ ـ ٢٥١
هَمّام وَصِّفَات الْمُتَّقِين...فِقْرَة ١ ـ ٤ ـ ٢٥١
قُوَّةً فِي دِينٍ...فِقْرَة ٥ ـ ٨: ٢٥٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩٤ ـ ٢٦٥
ٱلْمُنَافِقُونَ...فِقْرَة ١ ـ ٣: ٢٦٥
النِّفَاقُ: ٢٦٨
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩٥ ـ ٢٧٣
بَاب الله مَفْتُوحٌ لِلجَمِيع...فِقْرَة ١ ـ ٣: ٢٧٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩٦ ـ ٢٨١
بَادِرُوا الْفَوْت: ٢٨١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩٧ ـ ٢٨٥
مُؤَاسَاة عَلِيٍّ لِلنَّبِيّ: ٢٨٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩٨ ـ ٢٩٩
التَّقْوَىٰ دَوَاءٌ...فِقْرَة ١ ـ ٣: ٢٩٩

الْإِسْلاَم...فِقْرَة ٤ ـ ٦: ٣٠٤
مَنْ هُو الْمُشَرِع؟ ٣٠٦
الْقُرْآن...فِقْرَة ٧ ـ ٨: ٣١٢
اَلْخُطْبَةُ ـ ١٩٩ ـ ٣١٧
الصَّلاَة وَالزَّكَاة...فِقْرَة ١ ـ ٤: ٣١٧
الزَّكَاة: ٣٢٢
الْأَمَانَة: ٣٢٤
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٠ ـ ٣٢٧
مُعَاوِيَةَ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ: ٣٢٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٠١ ـ ٣٣١
يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ: ٣٣١
لاَ تَخْشَ لَوْمَةُ لائِمٍ: ٣٣٢
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٢ ـ ٣٣٧
عِنْدَ دَفْن بَضْعَة الرَّسُول صلى الله عليه وآله: ٣٣٧
فَاطِمَة عليها السلام: ٣٣٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٣ ـ ٣٤٩
الدُّنْيَا وَالْآخِرَة: ٣٤٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٤ ـ ٣٥٣
تَجَهَّزُوا لِلرَّحِيلِ: ٣٥٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٥ ـ ٣٥٥

مَع طَلْحَة وَالزُّبَيْر...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٥٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٦ ـ ٣٦٧
لا تَكُونُوا سَبَّابِينَ: ٣٦٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٧ ـ ٣٧١
نَسْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ٣٧١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٨ ـ ٣٧٥
كُنْتُ أَمِيراً فَأَصْبَحْتُ مَأْمُوراً ٣٧٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٠٩ ـ ٣٧٩
الْعَلاَءُ وَأَخُوه عَاصِمَ: ٣٧٩
لاَ سَلْبِيَة فِي الْإِسْلاَم: ٣٨٠
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢١٠ ـ ٣٨٥
الأَحَادِيث: ٣٨٥
كَلاَمٌ ذُو وَجْهِين...فِقْرَة ٥: ٣٩٠
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢١١ ـ ٣٩٧
حَوْلَ الكَوْنُ...فِقْرَة ١ ـ ٤: ٣٩٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢١٢ ـ ٤٠١
المَقَالَة الْعَادِلَة: ٤٠١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢١٣ ـ ٤٠٥
تَعْظِيم الله تَعَالىٰ: ٤٠٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢١٤ ـ ٤٠٩

إِنَّ لِلْخَيْرِ أَهْلًا...فِقْرَة١ ـ ٣: ٤٠٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢١٥ ـ ٤١٥
لله الْحُجَّة: ٤١٥
لاَ إِيمَان بِلا خَوْف مِن الله: ٤١٦
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢١٦ ـ ٤١٩
الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّة ١ ـ ٢: ٤١٩
الثَّوَاب تَفَضُّل لاَ اَسِتْحقَاق: ٤٢١
النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ الجُهْدِ... ٣ ـ ٤. .... ٤٢٤
كَرَاهِيَة الإِطْرَاء..٥ ـ ٧: ٤٢٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢١٧ ـ ٤٣٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢١٨ ـ ٤٣٧
فَظَائِع أَصْحَاب الْجَمَل: ٤٣٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢١٩ ـ ٤٣٩
قَتْلَىٰ قُرَيْشٌ: ٤٣٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٠ ـ ٤٤١
صَاحِبُ التَّقْوَىٰ: ٤٤١
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٢١ ـ ٤٤٣
اَلتَّكَاثُرُ..فِقْرَة١ ـ ٢: ٤٤٣
اَنْقَطَعَتْ الأَسْبَاب...فِقْرَة٣ ـ ٥: ٤٤٨
لِلْمَوْتِ غَمَرَات...فِقْرَة ٦ ـ ٧: ٤٥٢

ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٢ ـ ٤٥٧
ذِكْر الله سُبْحَانَهُ...فِقْرَة١ ـ ٢: ٤٥٧
حَاسِب نَفْسك...فِقْرَة٣: ٤٦١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٣ ـ ٤٦٥
مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ...فِقْرَة١ ـ ٢: ٤٦٥
الله يُمْهِلُ وَلاَ يُهْمِل: ٤٦٧
أُسْلُوب أَهْل الْبَيْت: فِي التَّربِيَة: ٤٧٠
رُبَّ نَاصِح مُتَّهَم...فِقْرَة٣ ـ ٤: ٤٧٠
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٤ ـ ٤٧٥
الإِمَام وَأَخُوه عَقِيل...فِقْرَة١ ـ ٢: ٤٧٥
الإِمَام وَالْوَافِدُون عَلىٰ مُعَاوِيَةَ: ٤٧٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٥ ـ ٤٨٣
أَعُوذ بِاللهِ مِن الفَقْر: ٤٨٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٦ ـ ٤٨٧
الْدُّنْيَا: ٤٨٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٧ ـ ٤٩٣
ٱلأُنس بِالحَبِيب: ٤٩٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٨ ـ ٤٩٧
للهِ فُلاَن: ٤٩٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢٩ ـ ٥٠١

حَوْل بَيْعَة الْإِمَام: ٥٠١
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٠ ـ ٥٠٣
الْعَمَلُ يُرْفَعُ..فِقْرَة١: ٥٠٣
مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَتَىٰ وأين تَمُوْت؟ ٥٠٦
بِالْجَدِّ وَالِاجْتِهَادِ..فِقْرَة٢: ٥٠٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣١ ـ ٥١٣
الرَّسُول: ٥١٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٢ ـ ٥١٥
حَوْلَ الْمَال: ٥١٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٣ ـ ٥١٩
حَوْل اللِّسَان: ٥١٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٤ ـ ٥٢٥
الطَّوِيل وَالقَصِير: ٥٢٥
الْإِنْسَان وَالْعُلُوم: ٥٢٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٥ ـ ٥٢٩
تَأْبِين الرَّسُول الْأَعظم: ٥٢٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٦ ـ ٥٣٣
حَوْلَ الْهِجْرَة: ٥٣٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٧ ـ ٥٣٥
حَوْلَ الْعَمَل والبَطَّالَة: ٥٣٦

ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٨ ـ ٥٣٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٣٩ ـ ٥٤٥
أَهْل الْبَيْت: ٥٤٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٤٠ ـ ٥٤٩
مَا يُرِيدُ عُثْمَانَ إِلَّا أَنْ أَكُون جَمَلًا: ٥٤٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٤١ ـ ٥٥٧
حَوْلَ الْجِهَاد: ٥٥٧
نِعْمَة النَّوْم: ٥٥٩
فَهْرَس الْمُوضُوعَات ٥

الخطبة
-١٨٢-

لَمْ يُولَدْ... فِقْرَة ١ ـ ٣:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَ عَوَاقِبُ الْأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ، وَ نَوَامِي فَضْلِهِ وَ امْتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَ لِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَىٰ ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَ لِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَ نَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَ الْقَوْلِ. وَ نُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وَ أَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَ خَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وَ أَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَ عَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَ لاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً[1].

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، وَ لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً. وَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ، وَ لا زَمَانٌ، وَ لَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَ لا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلا سَنَدٍ. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ، وَ لا مُبْطِئَاتٍ، وَ لَوْ لا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَ إِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، وَ لا مَسْكَناً لِمَلائِكَتِهِ، وَ لا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَ الْعَمَلِ

الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ(٢). جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ. لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَ لاَ اسْتَطَاعَتْ جَلاَبِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ. فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَ لاَ لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقَاعِ الْأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ، وَ لاَ فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ، وَ مَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَ مَا تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ، وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ! وَ يَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ، وَ مَقَرَّهَا، وَ مَسْحَبَ الذَّرَّةِ، وَ مَجَرَّهَا، وَ مَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، وَ مَا تَحْمِلُ الْأُنْثَىٰ فِي بَطْنِهَا(٣).

اللُّغَة:

النَّوَامِي: الزَّوَائِد. والامْتِنَانِ: الإِنْعَامِ. والطَّوْلِ: الْفَضْل. وَخَنَعَ: خَضَعَ.
ومُوَطَّدَاتٍ: مُثبتَات فِي مدارها. ومُتَلَكِّئَاتٍ: مُبطئَات كما فسرها الإمام بالعطف عَلَيْهَا. والطَّوَاعِيَةِ: الطَّاعَة. لاوأَعْلاَم: العَلاَمَات. والفِجَاج: الطُّرق بَيْنَ الجِبَال. الادْلِهْمَامُ: الظُّلمة الشَّدِيدة. والسُّجُفِ: السُّتر. الجَلاَبِيبُ: الثِّيَاب.
والحَنَادِسِ: اللَّيالِي المُظلمة. والدَّاجي: المُظلم. السَّاجِي: السَّاكن. اليَفَاع: كلّ ما ارتَفع من الأَرْضِ، وغُلاَم يَافع: نَاهز البُلُوغ. والسُّفع: الجِبَال. والجَلْجَلة، صَوْت الرَّعْد. وتَلاَشَتْ: اضْمحلّت. والمَسْحَبَ، وَالمَجَرَّ: مَكان السَّحب، والجرّ.

الإِعْرَاب:

الَّذي صِفَة لله، وإِلَيْهِ خَبَر مُقدَّم، ومَصَائِرُ الخَلْقِ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، والجُملة صِلة

المَوْصُول، ولِشُكْرِهِ أدَاءً أي ويَكُون الحَمْدُ أدَاءً لِشُكْرِهِ، ومُثلهُ مَا بَعدهُ، ومُؤَمِّلٍ صِفَة لرَاجٍ، ومثلهُ ما بَعدهُ، ومُوقِناً حَال، وكَذَلِكَ مَا بَعدهُ من المَنصُوبَات، ومُوَطَّدَاتٍ، وقَائِمَاتٍ، وطَائِعَاتٍ أَحْوَال، وآدْهِمَامُ فَاعِل يَمْنَعْ، وضَوْءَ مَفْعُول، والْمَصْدَر من أَنْ تَرُدَّ مَفْعُول آسْتَطَاعَتْ.

الْمَعْنَىٰ:

(**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَ عَوَاقِبُ الْأَمْرِ... إِلىٰ مَزِيدِهِ مُوجِباً**). أَسْبَغَ سُبْحَانَهُ عَلىٰ عِبَاده نِعَماً لا يُحِيط بِها الإحْصَاء، وأعَادهُم إِلَيْهِ لِيَجْزِي آلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَىٰ، وآلَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُوا، ومن حَسْنَات العَبد عِند الله شُكر المُنعم، وحَمده عَلىٰ فَضلِهِ، وإِحْسَانه، مَع العِلم بأنّ شُكر المُنعم دَين يَجب الوفَاء بِهِ بِحُكم الْعَقْل، ويُشِير إِلىٰ ذَلِكَ قَوْل الإِمَام: «قَضَاءً، وأَدَاءً» ولكن تَقَدست أسماؤه، يُثِيب عَلَيْهِ كأنّه نَدبٌ، وإِحسَان، وكَذَلِكَ الْتَّوْبَة من الذَّنبِ حَتمٌ، وإِلزَام، ومَع هَذَا يُثِيب عَلَيْهَا سُبْحَانَهُ كأَنَّهَا إِحسَان لا إِلزَام. والسّر أنّه تَعَالىٰ حَلِيمٌ كَرِيمٌ. وتَجدُر الإِشَارَة إِلىٰ أنّ مَن عَرف النِّعْمَة بِقَلبه فَقد شَكَرها، ولكن الشُّكْر الكَامِل لا يَكُون إلّا بالفِعْل، والتَّضحِية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

(**وَ نَسْتَعِينُ بِهِ آسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَ الْقَوْلِ... إلخ**) يُريد الإِمَام بقَوْله: مُؤَمِّلٍ، ووَاثِقٍ، ومُؤْمِن وتَائِبٍ، ورَاغِبٍ، ومُجْتَهِدٍ، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ من الأوصَاف، ويُريد بها أنّ الاِسْتِعَانَة باللهِ حقّاً هِي أنْ لا نَخَاف مَع الله شَيْئاً، ولا أحداً، وأنْ نُطِيعَه بإخلَاص

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٩٢.

قوْلاً، عَمْلاً، ونَرجع إِلَيْهِ وحدَه فِي كلّ شَيء فهُو المَصْدَر، والْغَايَة، ومَا عَداه طَرِيق، ووَسِيلة: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ مَن قَال لله في صَلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] فَهُو كَاذب فِي دَعوَاه إِذَا خَنَع لِعَبدٍ مِثله مُتوسلاً بهِ فِي حَاجَة لهُ، مُؤمِناً بأنّه ٱلسَّبِيل الوَحِيد لقضَائها، ونَجَاحِها.

(لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، وَ لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً... إلخ) لَوْ كَان للهِ أبٌ لكَان مخلوقاً، لا خَالِقاً، ومُمكناً، لا وَاجباً، وكَان أبُوه مُفضلاً عَلَيْهِ، وشَرِيكاً لهُ في العَظْمَةِ، والجَلال، وأيضاً لو كَان للهِ ولدٌ لكَانَتْ لهُ صَاحِبَة، وكَان شأنهُ شأن الآبَاء يُشِيخ، ويَهرم، ثُم يَمُوْت، ويورّث الأَوْلاَد، والأحْفَاد!.. وتَجدر الإشَارَة إِلىٰ أنّ اليُونان يَعبدُون جَمَاعَة من الآلهة، تُحبّ، وتَعشق، وتُعالج، وتَنكح، وتَلد العَدِيد من الآلهة غَيْر الشَّرعِيين... وأيضاً كَانَتْ تَكذب، وتَخدع، وتَحسد، وتَحقد، وتَصطاد، وتُحارِب، وتَركب عَربات التَّرفِيهِ، والنُّزهة... ومَع هَذَا فَهِيَ تَخلق، وتَرزق، وتَرسل الصَّوَاعِق فتُصِيب بِها مَن تشَاء.

(وَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ، وَ لاٰ زَمَانٌ) وإلّا كَان حَادثاً يَفْتَقِر وجُوده إِلىٰ عِلَّة فَاعِلة، وقِيل: «الْوَقْت جُزء مُن الزَّمَانُ، والزَّمَانُ أَعْم مِنْهُ». ومَع هَذَا يَجُوز أنْ يَكُون الْمُرَاد بِهما واحداً، والعَطْف للتفْسِير (وَ لَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَ لاٰ نُقْصَانٌ) وإلّا كَان مُتغِيراً ومَحلاً للحوَادث (بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاٰمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ) بخَلق الكَوْن، ونظَامه المُحكم الثّابت (فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاٰ عَمَدٍ). خَلق الكُواكب، وأودَع فِيها قَوَانِين تَفعل فِعلها، تُؤثر أثرها،

(١) إبْرَاهِيمَ: ٥٢.
(٢) ٱلْفَاتِحَة: ٥.

ومِنْهَا قَانون الجَاذبية فِيها ، وفِي جَمِيع الأَجْسَام (قَائِمَاتٍ بِلاَ سَنَدٍ) عَطف تَفْسِير، وتَقَدَّم مِثلهُ[١].

(دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ، وَلاَ مُبْطِئَاتٍ). خَلق سُبْحَانَهُ أجرام السَّماء عَلىٰ وضع خَاص حَجماً، وهيئةً، ووضَعها في أمَاكنها عَلىٰ وِفق ٱلحِكْمَة، والهَندسَة الكَوْنِيَة، ولتُؤدِّي الغَرض المَنشُود كمَا أرَاد الله سُبْحَانَهُ، وكنّىٰ الإِمَام عَن تَمَاسك الكَوَاكِب، ومَا يَترتَب عَلَيْهَا من الآثار المَنشُودة، كنّىٰ عَن ذَلِكَ بالطّائعات المُذعنَات تَبعاً للآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢].

(وَلَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ) لَو لَم تَكُن السّموات فِي قُدرتِهِ، وقَبضته لكَانَتْ خَارجة عن أَمْرِه، ومَلكاً لغيره (وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ) لأنّ الله سُبْحَانَهُ لا يُسكن عِبَاده فِي غَيْر مُلْكِه، وفِيهِ إيمَاء إلىٰ أنْ عَلىٰ بَعْض الكُواكب حَياة، وخَلائق (وَلاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ) يَدل هَذَا أنّ لله خَلقاً يُسجلُون أَقْوَال الْعِبَاد، وأفعَالِهم، ويَصعدُون بها إِلىٰ السَّماء، قَال تَعَالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]. ومن أَنْكَر ذَلِكَ فقَد أَنْكَر مَا يَجهل.

(جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الأَقْطَارِ). بَعْض الكُواكب لا يَصل نُورها إِلىٰ الأَرْضِ، لِأَنَّهَا تَبعُد عن الأَرْضِ مِئات الملاَيين من

---

(١) أنظر، الشَّرح المُفصل فِي ٱلخُطبَة: (١) (مِنْهُ ﷺ).

(٢) فُصِّلَتْ: ١١.

(٣) ٱلإِنفِطَار: ١٠ ـ ١٢.

السِّنِين الضّوئِية، وسُرْعَة الضّوء (١٨٦/٠٠٠) مِيل فِي الثَّانِيَة، وبَعْض الكُوَاكب يَصل نُورها إلىٰ الأَرْضِ دُونَ أنْ تَرَاها العَيْن المُجَرَدة، ونَوْع مِنْهَا يَصل نُوره إلىٰ الأَرْضِ، وتَراه العَيْن، ويقُول عُلَمَاء الفَلك: إنّ عَدد النّجُوم الّتي تَراها مِن مُوضع واحدٍ من الأَرْضِ ـ يَبلغ مَا بَيْنَ (٢٥٠٠ و ٣٠٠٠) نَجم، أمّا الّتي تَراها المنَاظِير الحدِيثة فَيزِيد عَددها ألف مِليُون، والمَنَاظِير الحَدِيثة ترىٰ عَلىٰ بُعد (٥٠٠) مِليُون سَنَة ضَوئِية، ورُبَّمَا تَطورت إلىٰ ألف مِيلون أو أَكْثَر[1].

وفي النَّهَار يَطغىٰ نور الشّمس عَلىٰ ضوء النّجوم فتُخفِيه، وتُضيء النّجوم بأوضح رؤية في لَيْلَة لِيلاَء مع صَفَاء الجو، وإذَنْ فاللَّيْل المُظلم لا يَمنع ضُوء النّجوم، والقَمَر بل عَلىٰ العَكس يُزِيده تَلألُؤاً. وإلىٰ هَذَا أشَار الإِمَام بقَوْله: (لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ٱدْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ... إلخ) أمّا قَوْله: «أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ». فَيُشِير إلىٰ الآيَة: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2]. (فَسُبْحَانَ مَنْ لاٰ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلاٰ لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقَاعِ الْأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ... إلخ). تَقَدَّم هَذَا مَرّات، ولا غَرض من الإِعَادة، ومن مَسْحَبَ الذَّرَّةِ، ومَسْقَطَ الْقَطْرَةِ إلّا التّأكِيد بأنّ الله قَد أحَاط بكلّ شيء عِلماً كِي يَستشعِر الإِنْسَان الخَوْف من رَبّه.

كَانَ وَلَمْ يكُن مَعَهُ شَيء...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

وَ الْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ

---

(١) أنظر، القُرآن وإعجازه العلمي لمُحَمّد إسْمَاعِيل إبرَاهِيم: ٧٢ و ٧٤ و ١٤٨.

(٢) النّحْل: ١٦.

إِنْسٌ. لاٰ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، وَ لاٰ يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَ لاٰ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَ لاٰ يَنْقُصُهُ نَـائِلٌ، وَ لاٰ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَ لاٰ يُحَدُّ بِأَيْنٍ، وَ لاٰ يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، وَ لاٰ يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ، وَ لاٰ يُـدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، وَ لاٰ يُقَاسُ بِالنَّاسِ. اَلَّذِي كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً، وَ أَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً، بِلاٰ جَوَارِحَ وَ لاٰ أَدَوَاتٍ، وَ لاٰ نُطْقٍ وَ لاٰ لَهَوَاتٍ، بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْـمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ، وَ مِيكَائِيلَ، وَ جُنُودَ الْمَلاٰئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَـحُدُّوا أَحْسَـنَ الْـخَالِقِينَ: فَـإِنَّمَا يُـدْرَكُ بِالصِّفَاتِ، ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَ الْأَدَوَاتِ، وَ مَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلاٰ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَ أَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ(٤).

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَىٰ الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ الْـمَوْتِ سَـبِيلًا، لَكَـانَ ذَلِكَ سُـلَيْمَانَ بْـنَ دَاوُدَ عليه السلام، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ، مَعَ النُّـبُوَّةِ وَ عَـظِيمِ الزُّلْـفَةِ. فَـلَمَّا آسْتَوْفَىٰ طُعْمَتَهُ، وَ آسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِـنِبَالِ الْـمَوْتِ، وَ أَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَ الْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَ وَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ. وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَ أَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَ أَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَ أَطْفَئُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وَ أَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَ هَـزَمُوا بِـالْأُلُوفِ، وَ عَسْكَـرُوا الْـعَسَاكِـرَ، وَ مَـدَّنُوا الْمَدَائِنَ(٥)!

اللُّغَة:

كُرْسِيُّه تَعَالىٰ: عِلمه، والْمُرَاد بِهِ هُنا الشّيء المَعلُوم لهُ. وعَرْشه: مُلْكِه، وتَدبِيره.

والنّوَال : الْعَطَاء . والأَزْوَاج : الأَمْثَال . والجَوَارِح : الأَعْضَاء . ولَهَوَاتٍ : جَمع لَهَاة ، وَهِيَ لحْمَه فِي أقصىٰ سَقف الْفَم . وحُجُرَاتِ : جَمع حُجرَة أي غُرفة . ومُرْجَحِنِّينَ : جَمع مُرْجَحِن أي مَائل ، أو خَاضع . مُتَوَلِّهَةً مِن الوَله ، وهو الوَجد ، والحُزْن ، والحَيرَة ، والخَوْف . والرِّيَاش : اللِّباس الفَاخر . وأَسبَغَ : أَتمّ . وطُعْمَتهُ : مَا أكله .

الإِعْرَاب:

لَفظ «أَيْنَ» يُسأل بِهِ عن المكَان ، فإنْ أردتَ مَكاناً خَاصاً بَنَيتَهُ عَلىٰ ٱلْفَتْحِ ، وإنْ أردتَ أي مكان أعربت . والَّذِي كَلَّمَ صِفَة لله ، أو خَبَر لمُبْتَدأ محذُوف أي هُو الَّذِي كَلَّمَ ، ومُرْجَحِنِّينَ حَال ، وكَذا مُتَوَلِّهَةً ، وعُقُولُهُمْ فَاعِل مُتَوَلِّهَةً ، والمَصْدَر من أَنْ يَحُدُّوا مَنصوب بِنزع الخَافض أي حَارت عُقُولُهُمْ في حَدّهِ تَعَالىٰ ، أو خَافت من ذَلِكَ . ذَوُو نَائب فَاعِل ليُدْرَك .

المَعْنَىٰ:

(وَ الْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ) . لا شَيء في الأَزَل إلّا الله ، لأنّ كلّ مَا عَداه فَيض منهُ ، ومُتأخر عنهُ بمَا فِي ذَلِكَ عَرْشه أي مُلْكِه ، وكُرسيّه أي الأَشْيَاء المَعلومَة لهُ ، كمَا قُلنا في فِقْرَة اللُّغَة ، ولَيس من الضّرُوري أنْ يَكُون المَعلوم ، والمَملوك لله سُبْحَانَهُ مَوجُوداً في الأَزَل بوجُوده ، لأنّه عِلَّة لمشِيئتة الّتي تَعلقت بوجُود الشّيء فِي حِينه المُتأخر عن الذّات لا المُقارن لهَا (لا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ ، وَ لا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ) . الوَهم تَصور ، وكَذَلِكَ الفَهْم ، والفَرق

بَيْنَهُما أنّ الوَهم تَصور بلا ضابط، وقِياس، والفَهم تَصور بمقَايِيس، وضُوابط، وتَقَدَّم أَكْثَر من مَرّة إنّ الذّات القُدسية لا تُدرك بكنْهها بل بأفعَالها، وآثارها، وإنَّهَا فَوق التّصور وهَماً كَان أم فَهماً، وهٰذا مَعْنَىٰ قَوْل الإِمَام البَاقر عليه السلام: «كلّمَا ميزتمُوه بأوهَامكُم فِي أدق معانيه فهُو مَخلوق مثلكُم مَردُود إِلَيْكُمْ»[1].

(وَ لاٰ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ) لأنّ ذَاته بمَا هِي تُحيط بكلّ شيء وقُدرة، وتَقَدَّم مِثلهُ[2].

(وَ لاٰ يَنْقُصُهُ نَائِلٌ). إنّه يُعطي بِلا حسَاب، وخَزَائنه عَلىٰ مَا هِي، لا فَرق أنْفَقَ، أو لَم يُنفق لِأَنَّهَا تُستمد مِن قُوّةٍ لا حدّ لهَا ولا نهَاية، والخَزَائن الّتي تَنقص بالإنْفَاق تَمتلىء بالكَسب، والجمع مِن هُنا وهُناك (وَ لاٰ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَ لاٰ يُحَدُّ بِأَيْنٍ، وَ لاٰ يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، وَ لاٰ يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ، وَ لاٰ يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، وَ لاٰ يُقَاسُ بِالنَّاسِ). إنّه تَعَالىٰ قُوّة عُليا فُوق الطَّبِيعَة، عَالِمة قَادِرة، لا يَقع عَلَيْهَا حسّ، ولا تَدخل فِي دَائرة المُشاهدة، لِأَنَّهَا ليسَت بمَادَّة كِي تُنظر، وتُلمس، وتَفتقر إِلىٰ حَيّزٍ، ومكَانٍ، وإذَا عَجزت الْعُقُول عَن إدرَاكها فكَيْفَ تُدركها الحوَاس، وتُقاس بالنّاس!. إنَّهَا تَخلق بكَلِمة «كُن» لا بآلة، ومُزاولة، وتُدبر بقَوَانِين تُودعها فِي الكَائنات لا بجوَارِح وأدوَات.

(الَّذِي كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً، وَ أَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً، بِلاٰ جَوَارِحَ وَ لاٰ

(١) أنظر، بحَار الأَنْوَار: ٦٦/٢٩٣ ح ٢٣، توحيد الشّيخ الصّدوق: ٥٩، شرح أُصول الكَافِي: ١/٢٣، حق اليَقِين: ١/٤٧، حلية الأَوْلِيَاء: ١٠/٣٧٤، الشّفا بتعريف حقُوق المُصطفىٰ للقَاضي عيَاض: ١/٢٤٥، تَأريخ دِمشق: ٦٦/٦٠، ولكن يَنسبه إِلىٰ الشّبلي نقلاً عن ٱلرّسَالَة القُشيرِية للقُشيري: ٣٠١، ولكن عِند المُراجعة لَم أعثر عَلىٰ هَذَا القَوْل فِي ٱلرّسَالَة.

(٢) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (١٧٨). (مِنْهُ رحمه الله).

أَدَوَاتٍ . . . إلخ) أي خَلق الكَلاَمِ فِي الشَّجَرَة فَسَمعَه مُوسَىٰ ، كَما في الآيَـة : ﴿فَلَمَّآ أَتَـٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] فَمِنَ ٱلشَّجَرَةِ مُتَعَلِّق بنُودِيَ ، فٱلشَّـجَرَة بـالنِّسبَة إلىٰ مُوسَىٰ كالاِسْطِوانة بالنِّسبَة إلينا مَع الفَرق البَعيد ، لأنّ الَّذي نَسْمَعه من الاِسْطِوانة خَارج مِن فَمٍّ ، ومُسجل بآلة ، والكَلاَم الَّذي سَمعهُ مُوسَىٰ حَلَّ فِي ٱلشَّجَرَةِ بمُـجَرد الإِرَادَة القُدسِية (بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ ، فَصِفْ جِبْرِيلَ ، وَ مِيكَائِيلَ ، وَ جُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ . . . إِلىٰ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) . لاَ تُحاول المُحال بوصف الله تَحـدِيد ذَاتـه . . . وإنْ أَبـيت إلّا الفُـضُول ، والتّمحل فَنحنُ نُهُون عَلَيْكَ ، ونَكتفِي مِنك أنْ تَصف جِبْرِيل ، أو غَيْره من المَلاَئكَة الَّذين عَجزوا عَن وصِفه تَعالىٰ ، وهُم أقرب إلَيْهِ مِنكَ ، وأَعْلم ، وإذَا عَجزتَ عَـن وَصف المَخلُوق فأنتَ عَن وصفِ الخَالِق أعْجز .

(فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ، ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَ الْأَدَوَاتِ ، وَ مَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ) الغَرض وَاحد مِن ٱثْنَيْن : إمّا أنْ تَكُون لهُ أعـضَاء ، وهَـيئة مـن الهَـيئات فَتحدَه بِها ، وإمّا أنْ يَكُون لهُ أجل يَنتهِي بنهَايته فَتعرفه بِهِ ، والله سُبْحَانَهُ لا حَدّ ، ولا نِهَاية ، ولا شِكل ، وهَيئة (فَلاَ إِلَهَ اِلاَّ هُوَ ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلاَمٍ) أي أنّ العِـلم والْعَمَل بدِين الله ، وحلالِهِ ، وحرَامه هُدىٰ ونُور لا تَضر معهُ أية صِفَة يَراها النّاس نَقضاً ، وظلاَماً كالْفَقر ، وقِله الرِّجال ، والأَنْصَار (وَ أَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ) . المُـرَاد بِظُلْمَتِهِ تَعالىٰ حِجَاب الجَهْل ، والمَعْصِيَة بَيْنَ الله ، وعَبده ، والمَعْنَىٰ أنّ الجَـهْل بـدِين

(١) ٱلقَصَص: ٣٠.

الله، أو العِلم بِهِ بلا عَمل ضَلال، وظُلم لا يُجدي مَعه أي وصف يَراه النّـاس نُـوراً وكَمالاً كالجَاه، والْمَال، ومن أجل هَذَا قَال الإمَام: «الْغِنَىٰ وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ»[١].

(أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْـمَعَاشَ) أَعْطَانَا الله نِعَماً لا يَبلغها الإحْصَاء، مِنْهَا اللِّـبَاس الفَـاخر، والطَّـعام، والشَّراب، فَعلينا أنْ نُعطِيه من أنْفُسنا مَا أحبّ، وإنْ كَرهتْ (فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَىٰ الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ). جَمع لسُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ٱلْمُلْكِ والنُّبوَّة، وسَخر لهُ الرِّيح، والطَّير، والإنْس، والجِنّ، فَـبنُوا لهُ مَـا أرَاد هَـياكـل، وتمَاثِيل، وجِفَان كالجَوَابِي، وقدُورٍ رَاسِيات... وما ٱنْقضت أَيَّامه حَتَّىٰ لُفّ بِخرْقَة ودُفنَ فِي حُفرة، ذَهب سُلطانه مَع الرِّيح الّتي كَان يَمتطِيها فِي غَدُوهِ، ورَوَاحه.

(أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَ أَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَ أَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ؟). قَال أَصْحَاب التَّوَارِيخ: «إنّ الْعَمَالِقَة يُنسبُون إلىٰ عِمْلاَق ٱبن إرم بن سَام بن نُوح»[٢]، وإنّه كَان لهُم

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٤٥٢).

(٢) وقيل: هُم من الْعَرَب العَاربة. بنو الْعَمَالِقَة، وكَـانوا بِـبَابل فَـغلبتهم عَـلَيْهَا الفُـرس، فَٱنـتقلوا إلَىٰ تُهـامة بالحجَاز، ثُمّ تفرقوا فِي الحجَاز، والبَحرين، وعمَان، والجَزِيرة، والشَام. قَال الطَّبَرِيّ: كانوا عَرباً، ولِسَانهم عَربِي، وكَانَ منهم ملوك الْعِرَاق، والجَزِيرة، وجبابرة الشَام (الكنعانيُون) وفراعنة مِصْر. وتكَرّر فِي التّوراة ذكر قتالهم لليهُود. قَال بوست: (الْعَمَاليق شعب قوي ذُكرا أوّلاً فِي قِصَّة كَدر لعومر (سفر التّكوين: ٧/١٤) ولا يَعْرف أصلهم، وعدّهم بلعام أوّل الشَعوب. أُنظر، تَفْسِير الطَّـبَرِيّ: ٣٣٨/٦، الإخـتصاص للشَـيخ المُفيد: ٢٦٥، بحَار الأَنْوَار: ٥٧/١١، فَتح البَـاري: ٢٧٨/٦، الفَـائق فِي غـريب الحـديث للزّمخشري: ٤٠١/٢، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٩٣/١٠، الأعلام للزّركلي: ٨٨/٥، تَارِيخ ٱبن خلدون: ٢٧/٢، التّيجان لِٱبْن هُشَام: ٤٦، صبح الأَعْشَىٰ: ٣١٣/١، قاموس الكتاب: ١١٢/٢ مـن كـتابه أبـو

سُلطان فِي الْيَمن، والحِجَاز، ومَا تَاخم ذَلِكَ من أقَالِيم، وقَد أخنَىٰ عَلَيْهِمْ الَّذي أخْنَىٰ عَلَىٰ هِتلر، ومُوسُولِينِي. قَال المَسعُودِي: «بَغَوا فِي الأَرْضِ فَسلط الله عَلَيْهِمْ ملوك الأَرْضِ»[1]. وأيضاً سَلط الله عَلَىٰ هَؤُلآء المُلُوك من أفْنَاهم، وكَذَلِكَ يُسلط سُبْحَانَهُ علىٰ خُلَفَاء هِتلر، ومُوسُولِينِي، وعَلىٰ كلّ بَاغية، وطَاغية ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

(أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَ أَطْفَئُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ... إلخ). قِيل: الرَّسّ اسم بِئر، وإنّ أصْحَابه إذَا جَاءهم نَبِي ألقُوه فِيها. فأرسل الله عَلَيْهِمْ رِيحاً عَاصفة مُلتهبة سَلقت أبْدَانهم، وإنّ الأَرْضِ قَذفتهم بمُواد كَبرِيتِية مُتقدَة فَذَابت أجْسَامهم، ودَمرت مَدَائِنهم[3].

⇐ الهَوْل، معجم قبائل العَرَب عُمَرَ رضا كحالة: ٢/٨٥٣، قَلب الجزيرة لفؤاد حَمْزَة: ٢١٦، البداية والنّهاية: ١/١٧٥.

(١) أنظر، تأريخ الطَّبَرِيّ: ١/١٤٠ طَبْعَة الاشتِقَامَة.

(٢) فَاطِر: ٤٣.

(٣) أنّهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يُقَال لها: شاه درخت. وكَانَ يافث بن نوح غرسها علىٰ شفير عين يُقَال لها روشاب، كَانَتْ نبعت لنوحعليه‌السلام بعد الطّوفان، وإنّما سموا أصْحَاب الرّس، لأنّهم رسّوا نبيّهم في الأَرْض، وذَلِكَ بعد سليمان بن داودعليه‌السلام، وكَانَ لهم اثنتا عشرة قرية علىٰ شاطىء نهر يُقَال له «الرّس» من بلاد المشرق، وبهِمْ سُمّي ذَلِكَ النّهر. وقيل: هم الّذِين يَبتدعُون الْكَذِب، ويوقعونه في أفواه الرّجال. وقيل: هم من رَسَّ بين الْقَوْم وأفسد. وقيل: هي اللّواتي باللواتي ـ أي المُساحقات وهن الرّسيات. وذكر ابن الجوزي في زاد الْمَعَاد: ٦/ ١٥، خَمسة أَقْوَال:

أحدهما: أنّهم قَوْم كانوا يعبدون شجرة فبعث الله تَعَالىٰ إِلَيْهِمْ نَبِياً من ولد يهوذا بن يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيها فهلكوا. (وهذا قَوْل الإِمَام عليّعليه‌السلام).

والثّاني: أنّهم قَوْم كَانَ لهم نَبِي يُقَال له حَنْظَلَة بن صفوان فقتلوا نَبِيّهم فأهلكهم الله. (هذا قَوْل سعيد ⇐

لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا..فِقْرَة ٦:

وَ مِنْهَا : قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا ، وَ أَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا ، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا ، وَ التَّفَرُّغِ لَهَا ، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا ، وَ حَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا . فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا ٱغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ ، وَ ضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ ، وَ أَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ . بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ ، وَ أَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَ أَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ، وَ حَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا . لِلّٰهِ أَنْتُمْ ! أَ تَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمُ ٱلسَّبِيلَ(٦) ؟

اللُّغَة:

الْجُنَّة ـ بضم الجيم ـ الوقَايَة . والعَسِيبِ ، عَظم الذَّنَب . والجِرَانِ من البَعِير : مُقَدَّم

⇐ بن المُسيب).

والثّالث : أنّهم كانوا أَهْل بئر ينزلون عَلَيْهَا ، وكَانَتْ لهم مواش ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله إِلَيْهِمْ شُعيباً فتمادوا في طغيانهم ، يقول فانهارت البئر فخسف بِهِمْ ، وبمنازلهم . (هذا قَوْل وهب ٱبن مُنبه) .

والرّابع : أنّهم الَّذين قتلوا حَبيباً النّجار قتلوه في بئر لهم ، وهُو الَّذي : ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يٓس : ٢٠ . (وهذا قَوْل السّدي) .

والخامس : أنّهم قَوْم قتلوا نَبِيّهم ، وأكلوه ، وأوّل من عمل السّحر نساؤهم . (هذا قَوْل ٱبن السّائب) .

أُنظر ، تَفْسِير القُرطُبي : ٢ / ١٠٠ و : ١٥ / ١٩ ، تَفْسِير ٱبن كثير : ٣ / ٣٣١ ، الدُّر المنثور : ٥ / ٧١ ، فتح القدير : ٤ / ٧٨ ، تأريخ دمشق : ١ / ١٢ ، البداية والنّهاية : ١ / ٢٦٢ ، قَصَص الأَنبِيَاء لِابن كثير : ١ / ٣٧٦ ، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد : ١ / ٣٤٨ ، مَجْمَع البحرين : ٢ / ١٧٥ و : ٤ / ٧٥ ، بحار الأَنْوار : ١٤ / ١٥٣ ، فتح الباري : ٨ / ٣٧٧ ، شرح أُصول الكَافِي : ٦ / ٢٩٤ ، مَعَانِي الأَخْبَار للشّيخ الصّدوق : ٤٨ ، ثواب الأَعْمَال للصّدوق : ٢٦٨ ، علل الشّرائع للشّيخ الصّدوق : ١ / ٤٣١ .

عُنقه، يُقَال: ألقِ البَعِير جِرَانِه، أي بَرك. فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا: لَم تَجْتَمِعُوا.

الْإِعْرَاب:

بِجِرَانِهِ البَاء زَائِدَة، وجِرَانِهِ مَفْعُول أَلْصَقَ، وبَقِيَّةٌ خَبَر لِمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هُـو، ويَجُوز أنْ تَكُون خَبَراً ثَانِياً لهُوَ مُغْتَرِبٌ، وللهِ أَنْتُمْ اللاَّم للتَّعَجُّب.

الْمَعْنَى:

(قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا). يُرِيد الإِمَام عليه السلام بِهَذا الوَصف الْمُـؤْمِن العَـارِف، ولا يُرِيد إِمَاماً غَائِباً، أو وَلِياً حَاضِراً، والْمُرَاد بِٱلْحِكْمَةِ هُـنا مَخَـافة الله، كَـمَا جَـاء فِي الحَدِيث «رَأْس ٱلْحِكْمَة مَخَافَة الله»[1]. أمّا جُنَّة ٱلْحِكْمَة فَقد فَسرها الإِمَام بِقَوْله: (وَ أَخْذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا). أي عَمل بِمُوجبها، وذَلِكَ بأَنْ يُخْـلص الخَائِف لله، ويَتكل عَلَيْهِ وحدَه، ويُفوض الأَمْر إِلَيْهِ كلّه، ويَعمل بكلِّ ما أَمَر بـهِ، ويَنتَهِي عن كلّ مَا نُهِي عنهُ (وَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا) أي بأَحْكَامها، ومَوَاردها (وَ التَّـفَرُّغِ لَهَا) الانْصِرَاف عن الفُضُول، والخَوَاض فِيمَا لا طَائِل تَحتَه.

(فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَ حَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا). «ٱلْحِكْمَة ضَالَّة الْمُؤْمِن يأخذها أين وَجدها»[2]، ومن أَقْوَال الإِمَام: «خُذِ ٱلْحِكْمَة أَنَّى كَانَتْ فَإِنَّ

---

(١) أنظر، مُسْنَد الشّهاب: ١/١٠٠ ح ١١٥، تَفْسِير ٱبن كَثِير: ١/٣٢٣، نوادر الأُصول في أحَادِيث الرَّسول: ٣/٨٤، شُعب الإِيمَان: ١/٤٧٠ ح ٧٤٣، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٢/٢٧٠ ح ٣٢٥٨، فيض القـدِير: ٣/٥٧٤، كشف الخَفَاء: ١/٣٧٢ وص: ٥٠٧ ح ١٣٥٠.

(٢) أُنظر، سُنَن التِّرمِذي: ٥/٥١ ح ٢٦٨٧، سُنَن ٱبن ماجه: ٢/١٣٩٥ ح ٤١٦٩، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة:

⇔

ٱلحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ ـ أي تتحرك ـ فِي صَدْرِهِ حَتَّىٰ تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَىٰ صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ »[1] . (فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا ٱغْتَرَبَ الإِسْلامُ) . إذا كان الإِسْلاَمُ غَرِيباً بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ فالمُؤْمِن أيضاً يكون غَرِيباً بَيْنَهُم ، كما هو الشَّأن في عَصرنا حَيْث يُسخر أَكْثَر أبنائه من المُحافظِين عَلىٰ دِين الآبَاء ، والأجْدَاد .

(وَ ضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ ، وَ أَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ) أي أنّ الْمُسْلِم المُخلص يَكُون بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين كالبَعِير الَّذي أَلصَقَ نَحرهُ في الأَرْضِ ، وضَرَبَها بِذَنَبِه ، وَلا يَسْتَطِيع فِي شَيء سوىٰ ذَلِكَ (بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ) . الضَّمِير فِي حُجّتهِ وأنْبِيَائِهِ لله تَعَالىٰ ، والمَعْنَىٰ أنّ ذَاكَ الْمُسْلِم المُغْتَرِب هُو بَقِية الَّذِين يَحتَج بِهِمْ سُبْحَانَهُ عَلىٰ خَلقهِ ، وٱمتدَاد لأَنْبِيَاء الله ، وَرُسُلِه .

الدِّين تَسْلِيَة، وَرَفَاهِيَة:

(أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ . . . إلخ) . وعَظَ الإِمَام أَصْحَابه بمَوَاعِظ الله ، وأَنْبِيَائه بأُسْلُوب العَلِيم الحَكِيم ، ووَعظهُم ، وبَالغ فِي النَّصِيحَة لا لِمَنْفَعة شَخْصِية ، ولا حُبّاً بالكلاَم ، أو إظهاراً للمَقْدَرة ، أو لأَنّ الوَعظ مُجرد وَظِيفَة كَخُطْبَة ٱلجُمُعَة فِي المَسْجِد ، أو خُطْبَة الأحد فِي الكَنِيسَة ، بل

⟸ ٢٤٠/٧ ح ٣٥٦٨١ ، مُسْنَد الشّهاب : ٦٥/١ ح ٥٢ ، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب : ١٥٢/٢ ح ٢٧٧٠ ، فيض القدِير : ٥٤٥/٢ ، لِسَان المِيزان : ١٣٥/٤ ، تهذيب التّهذيب : ١٣١/١ ح ٢٧٠ ، التدوين في أخبار قزوين : ٩٥/٤ ، تَارِيخ بَغداد : ٢٥١/٨ ، صَفوة الصّفوة : ٣٨/١ ، المَدخل إلىٰ السُّنن الكُبْرَىٰ : ٤٤٧/١ ح ٨٤٤ ، تَفْسِير ٱبن كَثِير : ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر ، نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلحِكْمَة (٧٩).

لشعُورِه بأنّه مَسْئُول عَنهُم أمَام رَبّه، وضَمِيره... ومَع هَذَا صَمُوا الآذَان، ونَفَضُوا الأَيْدِي، وهُم عَلىٰ يَقِين مِن نُصح الوَاعِظ، وثِقَةٍ بِعلمِه، ودِينِه.

ولاَ عَجَب! فَقد وَعظ نَوْع قَومَه فقَالُوا لهُ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[1]، وأيضاً وَعَظ إبْرَاهِيمَ قومَه: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾[2] وحَاوَل بَنُو إِسْرَائِيلَ صَلب السَّيِّد المَسِيح، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3]، وحَاولت قُرَيْش قَتل مُحَمَّد ﷺ.

والَّذِين قَتَلهُم قَوْمهُم مِن الأَنْبِيَاءِ لا يَعلم عِدتهُم إلاّ الله... والذَّنب الوَحِيد هو الوَعظ، والإِرْشَاد.

وآمن النَّصَارىٰ بِعيسَىٰ، وقَالُوا: دِينهُم هُو دِين الإِنْسَانِية، والمَحَبَّة، ثُمّ ظَهرت هَذِه المَحَبَّة من قَبلُ فِي جَرَائِم محَاكِم التَّفتِيش، وفِي المَذَابح الصَّلِيبِية، وظَهرت من بَعد فِي هِيرُوشِيما، وكورِيا، وأفرِيقيا، والهِند الصِّينِية. واليَهُود آمنوا بمُوسىٰ وإنّه بُعثَ لمحَاربة البَغْي فِي شَخص فِرْعَوْنَ الَّذي كَان يَستعبد رِجَالهم، ونِسَآءهم، ويُذبح أطفالهم... وتَمثل إِيمَان اليَهُود بِرِسَالَة مُوسَىٰ فِي فظَائِع إِسْرَائِيلَ بِفلسْطِين... وأيضاً آمن المُسْلِمُون بمُحَمّد ﷺ، وإنّه الخَاتم لمَا سَبق، والفَاتح لمَا آسْتقبَلَ، وإِنّ الإِسْلاَم هُو دِين القُوَّة، والحَيَاة، ودِين العِلم، والحضَارة، والتَّعاون

(١) ٱلشُّعَرَاءِ: ١١٦.

(٢) ٱلأَنبِيَاءِ: ٦٨.

(٣) ٱلنِّسَاءِ: ١٥٧ ـ ١٥٨.

علىٰ الْبِرِّ، والخَيْرِ، وظَهر كلّ ذَلِكَ جَليّاً فِي تناحر ٱلْمُسْلِمِينَ، وجَهلهم، وٱنحطَاطهم وذُلهم، وهوَانهم... حَتَّىٰ عَلىٰ الأذل الأحْقر.

والسِّر أنّ الدِّين شَيء، ومُمارسته شَيء آخر، إنّه مُجرد فِكـرة، ونَـظرِية عـند المُنتسبِين إلَيْهِ، أو شعَائِر، وكلمَات جُوفاء لا تَعني شَيْئاً، أو عَادة، وتَقلِيد، أو تَسلِية وتَرفِيه، أو مَا شِئت من التَّعبِير عَلىٰ أنْ تَدع كَلمة التّجاوب، والتَّفاعل بَيْنَ الدِّين والمُنتسبِين إلَيْهِ... حَتَّىٰ الَّذِين يَعلو صُراخهم من أجل الدِّين، ويَتباكُـون عَـلَيْهِ، وتَشهد أفْعَالهم، أو عَلىٰ أكْثَرهم، أو الكَثِير بأنّهم بَلا دِين.

إِخْوَان الْإِمَام...فِقْرَة ٧:

أَلاٰ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَاكَانَ مُقْبِلًا، وَ أَقْبَلَ مِنْهَا مَاكَانَ مُدْبِراً، وَ أَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الْأَخْيَارُ، وَ بَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لاٰ يَبْقَىٰ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لاٰ يَفْنَىٰ. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ ـ وَ هُمْ بِصِفِّينَ ـ أَلاّٰ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَ يَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ ـ وَ اللهِ ـ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَ أَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَ مَضَوْا عَلَىٰ الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَ أَيْنَ ٱبْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَ أَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَ أَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَـلَىٰ الْمَنِيَّةِ، وَ أُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَىٰ الْفَجَرَةِ!

قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ:

أَوِّهِ عَلَىٰ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَ تَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَ أَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَ وَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ.

ثُمَّ نَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ :

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ ! أَلاَ وَ إِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا ، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَىٰ اللهِ فَلْيَخْرُجْ(٧) !

اللُّغَة:

أَزْمَعَ : عَزَمَ . والرَّنْقَ : الكَدَر .

الإِعْرَاب:

قَلِيلاً صِفَة لمفعُول محَذُوف أي بَاعُوا مَتَاعَاً قَلِيلاً ، مَا ضَرَّ «مَا» ٱستفهَام للإنْكَار ، ومَحلها الرَّفع بالاِبْتِدَاء ، وإِخْوَانَنَا مَفْعُول ضَرَّ ، المَصْدَر مِن أنّ لا يَكُونُوا فَاعِل ، وأَوَّهِ ٱسم فِعل بِمَعْنَىٰ أتوجَع .

الْمَعْنَىٰ:

(قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَ أَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً) . أَدْبَرَ الضَّلاْل الْجَاهِلِيَّةِ ، وأَقْبَلَ الْهُدَىٰ ٱلنُّورِ فِي عَهد رَسُول الله ﷺ ولمّا حَكَم مُعَاوِيَةَ الشّام ، وصَار لهُ رِجَال وأتبَاع أَدْبَرَ الْهُدَىٰ ، والرّشاد ، وأقبل الضَّلاْل ، والْفَسَاد .

قَال ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد : «روىٰ أبو عَبدالله البَصري فِي كِتَابه «نَقض السُّفيانية» عَلىٰ الجَاحظ أخْبَاراً كَثِيرة تَدل عَلىٰ أنّ مُعَاوِيَةَ في دِينه ، وروىٰ أحمَد بن أَبِي طَاهر في كِتَاب «أخْبَار المُلُوك» : إنّ مُعَاوِيَةَ سَمع المؤذن يقول : «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ . فقَال : لله أبُوك يَا ٱبن عبد الله ! لقَد كُنتَ عَالي ٱلْهِمَّة ، ومَا

رَضِيت لِنَفسك إلاّ أنْ يُقرن ٱسمَك بِٱسم رَبّ العَالمين»[١]. قَاس مُعَاوِيَةَ نَفس رَسُول الرَّحْمَة عَلىٰ نَفسهِ فخَاطبه بمَا يهتز لهُ العَرش.

(وَ أَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الْأَخْيَارُ، وَ بَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لاٰ يَبْقَىٰ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لاٰ يَفْنَىٰ) يُشِير بهَذا إِلىٰ إِخْوَان لهُ في الدِّين، وأنّهم ذَهبوا إِلىٰ رَبّهم راضِين مَرضِين، وكنّىٰ عن ٱنْقضَاء أجَلهم بالعَزم عَلىٰ الرَّحِيل إلىٰ الله، لأنّهم آثرُوا الْآجِلَةِ علىٰ العَاجلة، والْبَاقِيَة عَلىٰ الفَانِية، وبَعد قليلٍ يَذكر أسمَاء بَعضهم (إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ ـ وَ هُمْ بِصِفِّينَ ـ أَلاَّ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ إِلىٰ... بَعْدَ خَوْفِهِمْ). ٱسْتُشْهِدَ بَعْض إِخْوَان الْإِمَام بِصفِّين فِي سَبِيل الله فقَال: هَنِيئاً لهُم، لقَد ٱسْترَاحوا من المَأزق الحَرج الَّذي أُعانِيه من تَفرق الكَلمَة، وشتَاب الرَّأي... إنّهم الآن في جِوار رَبّهم يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ[٢]:

جَاورتُ أعْدَائِي وجَاوَرَ رَبّهُ ... شَتان بَيْنَ جِوارِهِ وجِوْارِي

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبلَاغَة: ١٠١/١٠، بحَار الأَنْوَار: ٢٠٢/٣٣، كِتاب صِفِّين: ٢٠١/٤، طبعة الحَديث بِمِصْر. وَقَالَ لِلْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَة: بَعد أنْ ذكر ملك أبِي بَكْر، وعُمَر، وعُثْمَانَ، وأنّهم هَلكوا فهلك ذِكرهم: وإنّ أخَا هَاشم! يُصرخ بِهِ في كلّ يَومٍ خَمس مَرّات: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ، فأي عَملٍ يَبْقَىٰ مع هذا؟ لا أُم لك... لا، والله إلا دَفناً دَفناً. أُنظر، الموفقيات للزُّبير بن بَكار: ٥٧٧، مروج الذّهب: ٤٥٤/٣، شَرح نَهج ٱلْبلَاغَة: ١٢٠/٥، ولمَا سَمه المأمون بالخَبَر أمر بلعنه كمَا جَاء في الطَّبَرِيّ: ٢٨٤/١٠، ومروج الذّهب: ٤١١/٤.

(٢) هَذَا البَيْت مأخوذ من مَرثِية عَليّ بن مُحَمّد بن نَهد التّهامِي، أبو الحَسَن، شَاعِر مَشهور من أَهْل تُهَامة، زَار الشّام، والعِرَاق، وولي خِطَابة الرّملة، ثُمّ رَحل إلىٰ مِصْر، مُتخفياً، فَعلمت بِهِ حكُومة مِصْر، فأعتقل ٢، وَحُبس فِي دَار البنُود، ثُمّ قُتل سِراً فِي سجنه سَنَة ٤١٦ هـ، قَال أبن خلكان: لهُ مَرثِية فِي وَلده، وكَانَ قَد مَات صغيراً، وَهِي فِي غَاية الحَسَن. أنظر، وفيات الأعْيَان: ٣٧٨/٣ تحت رَقم «٤٧١»، الأعلام للزّركلي: ٣٢٧/٤، سير أعلام النُّبلاء: ٣٨٢/١٧ و: ٤٠٠/١٩، البَداية والنّهاية: ٢٥/١٢، تَاج العروس: ٢١٥/٨.

لا يَمُوْت عَلَىٰ الْحَقِّ إلاّ ٱلْمجَاهِدُون:

(أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ) الْقَوِيم؟ (وَ مَضَوْا عَلَىٰ الْحَقِّ؟) أي قاتَلوا مِن أجل الْحَقّ، وقُتلوا فِي سَبِيله، مَهما شَككت فإنِّي لا أشك أَبَداً فِي أنّ مَا مِن أحدٍ يَمُوْت، ويَمضي عَلىٰ الْحَقّ إلّا إذَا جَاهد الطُّغاة، أو كَان عَلىٰ نِيَّة جِهادهم... ولَيْسَ مِن الضَّرُورِي أنْ يُجاهد بالسَّيْف، فجَهاد كُلٍّ بِحسبَه. فالتَّشهِير بِالظَّالِمِ، وإذَاعة أهدَافه، وأسوَائه جِهاد، وكَذَلِكَ الوقُوف بجَانب الْمُجَاهِدِين، والتَّحَسُس بأنّهم عَلىٰ حَقٍّ، ومِن الْجِهَاد أيضاً الأعِرَاض عَمّن طَغىٰ، وبَغىٰ، والكَف عن تَأيِيده، وٱنْتخَابه لِمنصَب من المَناصب. قَال الرَّسُول الأعْظم ﷺ «من مَاتَ وَلَمْ يَغزُ، وَلَمْ يُحدث نَفْسَه بِغزْوٍ مَاتَ مِيتَة جَاهْلِية»[1] وَهَذَا الحَدِيث يَحملُ فِي ثَنَايَاه الدَّلِيل عَلىٰ صِحته، يُعزِزه قَوْله، عزَّ مَن قَائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[2].

وكَلِمَة «إِنَّمَا» حَصَرَت الإِيمَان بِهَذه الأرْكَان، ومِنْهَا الْجِهَاد بالنَّفسِ، والْمَال، فهُو تَمَاماً كالإيمَان باللهِ، وَرَسُوله. ولا بُدّ من الإشَارَة إِلىٰ أنّ الكَدح فِي سَبِيل الأَهْل والعَيان، والدّفاع عن الْمَال الحَلال، وبَذل الجُهد فِي طَلَب العِلم، وكَبح النَّفس عن الحرَام، كلّ أُولَئِكَ جِهاد فِي سَبِيل الله، وأفضل أنوَاع الْجِهَاد كَلِمَة عَدلٍ عِند إمَام جَائر»[3]. أمّا ٱلْحَجّ فقد كَان جِهَاد كلّ ضَعِيف في عَصر الْجَمَل، والدَّواب لا فِي

---

(١) أنظر، مُنْتَهىٰ المَطلب للعلامَة الحِلي: ٢/٨٩٨، السُّنَن الكُبْرَىٰ للبيهقي: ٩/٤٨، شَرح صَحِيح مُسْلِم للنَووي: ١٣/٥٦، كَشف الْخَفَاء: ٢/٢٨٠ ح ٢٦٢٢، تَفْسِير آبن كَثير: ١/٢٥٩.

(٢) ٱلْحُجُرَات: ١٥.

(٣) أنظر، كنز الْعُمّال: ٣/٦٤ ح ٥٥١١ و ٥٥١٢ و ٥٥١٤، الجَامِع الصَّغِير: ١/٨١، الخِصَال: ٦٥، التَّهذِيب: ⇔

عَصر الطِّيارَة، والسِّيارَة.

(أَيْنَ عَمَّارٌ؟) بن يَاسر، أسْلَمَ هُو، وأبُوه، وأُمّه، وكَان الْمُشْرِكُون يَخرجُونهم إلىٰ مَسِيل مَاءٍ فيهِ الحصىٰ، ويُسمىٰ الأبْطح، فإذَا حُمِيت الرَّمضَاء عَذبُوهم بحرِّها، ومَرّ النَّبِيّ ﷺ ذَات يَوْمٍ، وهُم يُعذَّبُون. فقَال صَبراً آل يَاسر: فإنّ موعِدكُم الْجَنّة، فمَات يَاسر فِي العذَاب، وهُو أوّل شَهِيد فِي الإِسْلاَم، وطَعن أبو جَهل أُمّ عَمَّار فِي المكَان الحسَاس، وقِيل رَكَله بِرِجلهِ حَتَّىٰ مَاتت، وَهِي أوّل شَهِيدة فِي الإِسْلاَم، أمّا عَمّار فعذَّبُوه بالتَّغرِيق فِي الْمَاء تَارةً، وبوضع صَخرة عَلىٰ صَدره أُخرىٰ... ولكن الله أرجأ قَتله إلىٰ يَوْم صِفِّين، لِيميِّزَ بقتلهِ الْفِئَة الْبَاغِيَةُ عن الْفِئَة الْمُؤمِنَة الْعَادِلَة[1].

(وَ أَيْنَ ٱبْنُ ٱلتَّيِّهَانِ؟) وٱسمه مَالك، وهُو صَحابِي جَلِيل[2]، ولهُ العَدِيد من

← ١٧٨/٦، غُرر الحكم: ٨٩٥٧، مُسْنَد أحمد: ١٩/٣، سُنن ابن ماجه: ١٣٢٩/٢ ح ٤٠١١، سُنن أبي داود: ٢٣٥/٢ ح ٤٣٤٤، سُنن التِّرمذي: ٣١٨/٣ ح ٢٢٦٥، سُنن النسائي: ١٦١/٧، المُستدرك لِلْحَاكِم: ٥٠٦/٤، مَجْمَع الزّوائد: ٢٧٢/٧، فتح البَاري: ٤٤/١٣، تُحفَة الأَحْوَذي: ٣٢٨/٦، المُصنَّف لِابن أبي شَيبة: ٣٤٧/١١ ح ٢٠٧٠، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٤٣٥/٤ ح ٧٨٢٤، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٣٥٣/٢، المُعْجَم الأوسط: ٥٢/٧، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٢٨٢/٨.

(١) أنظر، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٤٣٢/٣ ح ٥٦٤٦ و٥٦٦٦، مَجْمَع الزّوائد: ٢٩٣/٩، الْمُعْجَم الأوسط: ١٤١/٢ ح ١٥٠٨، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٧٦٩/٢٤، شعب الإِيمَان: ٢٣٩/٢ ح ١٦٣١، تهذيب الكَمَال: ٢١٦/٢١، تَاريخ بغداد: ١٥٠/١ رقم «٦» و: ٣١٤/٣ و: ٣٤٣/١١، الاسْتِيعَاب: ١٥٨٩/٤ ح ٢٨٢٢، الطَّبَقات الْكُبْرَىٰ: ٢٤٩/٣ و: ١٣٦/٤، الإِصَابَة: ٢٦٦/٤ رقم «٥٠٣٤ و٥٧٠٨» و: ٦٣٩/٦ رقم «٩٢١٤» و: ٧١٢/٧ رقم «١١٣٣٦»، تهذيب الأسماء: ٣٥٢/٢ و٤٤٦، علل الدّار قطني: ٣٥/٣ ح ٢٧٢، السِّيرَة النَّبوِيَّة: ١٦٢/٢.

(٢) أبو الهَيْثَم مَالِك بن التَّيِّهَانِ بن عَتيك بن عَمْرُو بن عبدالأعلم الأنْصَاري الأوسِي، كَانَ أوّل مَن بَايَعَ رَسُول الله لَيلَة العَقبة وحضر الحُرُوب مَع الرَّسول ﷺ وشَهد صِفِّين مع الإِمَام عَليّ ﷺ وقُتل فيها. (أنظر →

السَّوَابِق والمَنَاقب، مِنْهَا: أنّه أوّل من بَايَعَ رَسُول الله من الأَنْصَار لَيْلَة العَقَبة، وقَبل الْهِجْرَة[١]. ومِنْهَا: أنّه كَانَ أحد النُّقباء الَّذِين آختارهم الأَنْصَار لَيْلَة العَقبة.

⇐ الدّرجَات الرّفيعة في طَبقَات الشّافعية: ٣٢٠ بَدْرِيّ، وأنظر، ترجمته في أُسد الغَابَة: ٤ / ٢٧٤ و: ٥ / ٣١٨، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٣١٩، الإِصَابَة: ٤ / ٢١٢، الاِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٤ / ٢٠٠).

(١) كَان النّبيّ يَعرض نَفسَه عَلىٰ القبائل، وفي أحد المَوَاسم آلتي بِستة من الخَزرج ولمّا كَلمهُم أسلموا، فجَاءوه في العَام التّالي ومعهم مِثلهم، وبَايَعَ الاِثنا عَشر النّبيّ عِند العَقبة، وتُسمىٰ هَذِه بَيْعَة العَقبة الصُّغرىٰ، وعَادوا في العَام الَّذِي يَليه مع آخرين، وبَلغ الجَمِيع سَبعِين، وبَايعوا النّبيّ عِند العَقبة أيضاً عَلىٰ السّمع، والطّاعَة في اليُسر والعُسر، وتُسمىٰ هَذِه بَيْعَة العَقبة الْكُبْرَىٰ. (مِنْهُ ﷺ).

والبَيْعَة لُغةً: صَفق اليَد عَلىٰ اليَد، وَهِي عَلاَمَة عَلىٰ وجُوب البيع، وأَصْبَحت فِي الإِسْلاَم علاَمَة مُعاهدة المُبَايع للمُبَايع لهُ أنْ يَبذل لهُ الطَّاعَة فِي مَا تقرّر بَيْنَهما. ويُقَال: بَايعه عَلَيْهِ مُبايعة: عَاهده عَلَيْهِ. وقد ورد في الْقُرْآن الكَريم قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (ٱلْفَتْح: ١٠).

إنّ أوّل بَيْعَة في الإِسْلاَم هِي بَيْعَة العَقبة الأُولىٰ، أخبر عَنْها عبادة بن الصّامت وَقَالَ: وافىٰ موسم ٱلْحَجّ من الأَنْصَار أثنا عشر رَجُلاً مِمَّنْ أسلم منهم في الْمَدِينَة، وَقَالَ عبادة: بَايعنا رَسُول الله ﷺ بَيْعَة ٱلنِّسَاء وذَلِكَ قبل أنْ يَفترض علينا الْحَرْب، علىٰ أنْ لا نُشرك بالله شَيْئاً، ولا نَسرق، ولا نَزني، ولا نَقتل أولادنا، ولا نَأتي ببهُتان نَفتريه من بَيْنَ أيْدِينَا وأرجُلنا، ولا نَعصيه في مَعروف، فإنْ وَفيتم فلكُم الْجَنَّة، وإنْ غَشيتم من ذَلِكَ شَيْئاً فأخذتم بحدّه في الدُّنْيَا فَهُوَ كفّارة له، وإنْ سَترتم عَلَيْهِ إلىٰ يوم الْقِيَامَة فأمركُم إلىٰ الله عزّ وجلّ، إنْ شَاء عذّب، وإنْ شَاء غَفر. (أُنظر سيرة آبن هُشام: ٢ / ٤٠ ـ ٤٢).

أمّا آبن الأثير في: ٢ / ٦٧ ذَكر في الهَامش تَعليقاً علىٰ سيرة آبن هشام بأنّهم سَبعة وسَابعهم عُقْبَة بن عامر. ومنهم أسعد بن زرارة بن عدس أبو أُمَامَة، وعوف بن الحرث بن رفاعة وهو آبن عَفراء، كلاهما من بني النجّار، ورافع بن مالك بن عجلان، وعامر بن عبد حارثة بن ثعلبة بن غنم، وكلاهما من بني زريق، وقطبه بن عامر بن حديدة بن سواد من بني سلمة، وعُقْبَة بن عامر بن نائي من بني غنم، وجابر أبن عبدالله بن رياب من بني عُبَيْدَة.

وشهدها من الأُوس أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان ـ مالك ـ حليف بني عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة حليف لهم فأنصرفوا عَنْه، وبعث ﷺ معهم مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدّار، وأمَرَه أنْ ⇐

ومِنْهَا: أَنّه شَهد بَدْراً وغَيْرها مع رَسُول الله ﷺ[١]. ٱسْتُشْهِدَ بصِفّين مع الإِمَام[٢].

(وَ أَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟) هو خُزَيْمَة بن ثَابت الأَنْصَاري من الأوس، «شَهِد خُزَيْمَة بَدْراً ومَا بَعدها من المشَاهد، وكَان مع عَليّ حَرْب الجَمَل، وصِفّين، فلمّا قُتل عَمّار قَال: سَمعتُ رَسُول الله ﷺ يَقول تَقتل عَمّاراً الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، ثُمّ سَلّ سَيْفه فقَاتل حَتّىٰ قُتل»[٣]. وجَعَل رَسُول الله شهادته بشهادتين وقَد غَلب عَلَيْهِ هذا الاِسم، وقِيل فِي سبَب ذَلِكَ: إنّ أعرَابِياً بَاع فَرساً لرَسُول الله ﷺ ثُمّ نَدم، وأنْكر البَيع، وَقَالَ للرَّسُول: أين شَاهدك عَلىٰ البَيع؟ فشهد خُزَيْمَة بأنّ الأَعْرَابِي بَاع فَرسه

⇐ يقرئهم الْقُرْآن، وهو أوّل من تَسمّىٰ بالمقرئ. (أُنظر صَحِيح البُخَاريّ: ٤ ـ ٦ / ٧٠ ط دار إحياء التّراث العَرَبي بيروت). أُنظر سيرة ٱبن هشام: ٢ / ٤٩، المناقب لِابْن شهرآشوب: ١ / ١٨١، البحار: ١٩ / ٨، الكَامِل لِابْن الأثير: ٢ / ٩٨.

(١) أُنظر تَأْرِيخ الطَّبَرِيّ: ٦ / ٢٨، مروج الذّهب: ٢ / ٤٣٤، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١ / ٤٣٣، الكَامِل: ٣ / ١٦٢، البداية والنّهاية: ٧ / ٢٧٥، و: ١ / ٤٧٤ الطبعة الأُولىٰ، و: ٥ / ١٩١ تحقيق أبو الْفَضْل، الغدير للأميني: ٢ / ٣٦٢. وقيل إنّ عدد البَدْرِيين الّذين قُتلوا مع عَليّ عليه السلام بصِفّين ١٠٠. كما ورد في وَقْعَة صِفّين لنصر بن مزاحم: ٢٣٨ الطّبعة الثَّانِيَة بِمِصْر. ولكن في الطبعة الثَّانِيَة تحقيق عبدالسّلام هَارُون / المؤسسة العَرَبِية الحديثة / منشورات مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي النّجفي ـ قم وردت العبارة في: ٢٣٨ بعد أنْ أورد كَلَام مَالك الأَشْتَر رضي الله عنه هكذا: وأعلموا أنكم عَلىٰ الحقّ، وأنّ الْقَوْم عَلىٰ البَاطِل يُقاتلون مع مُعَاوِيَة، وأَنْتُمْ مع البَدْرِيين قَريب من مئة بَدْرِيّ ومن سوىٰ ذَلِكَ من أَصْحَاب مُحمّد ﷺ أكْثر ما مَعَكُمْ رَاياتٌ قد كَانَتْ مع رسول الله ﷺ، ومع مُعَاوِيَة رَاياتٌ قد كَانَتْ مع ٱلْمُشْرِكِين علىٰ رسول الله ﷺ... وأُنظر شرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١ / ٤٨٤ ط مِصْر قديم، و: ٥ / ١٩١ ط مِصْر بتحقيق مُحمّد أبو الْفَضْل.

(٢) قُتل بصِفّين سَنَة (٣٧ هـ). أُنظر أُسد الغَابَة: ٤ / ٢٧٤، و: ٥ / ٣١٨، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٣١٩، الإِصَابَة: ٤ / ٢١٢، الاِسْتِيعَاب بهَامش الإِصَابَة: ٤ / ٢٠٠.

(٣) تَقَدَّم ٱستخراج الحَدِيث.

لِلنَّبِي. فَقَالَ لهُ النَّبي أكُنتَ حَاضراً عِند البَيع يا خُزَيْمَة ؟. فقَال: لا يَا رَسُـول الله، ولكن هل أُصدقك بمَا جِئت بِهِ عن الله، ولا أُصدقك عَلىٰ هَذَا الأَعْرَابِي الْخَبِيث ؟. فقَال لهُ النَّبي ﷺ: شهَادتك شهَادة رَجُلين[1].

(١) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٠٣٣/٣ ح ٢٩٥٢ و: ١٧٩٥/٤ ح ٤٥٠٦، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٢١/٢ ح ٢١٨٧، مَجْمَع الزّوائد: ١٨٢/٧ و: ٣٢٠/٩، سُنن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ: ٤١/٢ ح ٢٢٠٣ و: ٦٦/٧ ح ١٣١٨٢ و: ١٤٥/١٠، سُنن النَسائي: ٣٠١/٧ ح ٤٦٤٧، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٥٣٨/٤ ح ٢٢٩٣٣، شرح مَعَاني الآثَار: ٤٣/٣، مُعتصر المُختصر: ٢٦/٢، مُسْنَد أحمد: ١٨٨/٥ ح ٢١٦٨٣ و٢١٩٣٣ و٢١٩٣٥، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣٥٩/٢ ح ٣٦٠٤، فتح البَاري: ٢٤/٦ ح ٢٦٥٢، صفوة الصّفوة: ٧٠٣/١، الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ: ٣٧٩/٤، الإِصَابَة: ٢٧٨/٢ ح ٢٢٥٣، تَهذيب الأسماء: ١٧٧/١ ح ١٤٧، تُحْفَة الطَّالب: ٢٩٠/١، المُحلىٰ لِابْن حَزم الظَّاهِري: ٣٤٨/٨، نيل الأوطار للشّوكاني: ٢٧١/٥.

ولَسْنَا بصدد بَيَان ردّ المؤرّخ الْكَبِير أبي جعفر محمّد بن جرير الطَّبَرِيّ في تَأرِيخه: ٣ حوادث سَنَة (٣٧هـ) ومَا بعدها، ومَا تَبعه المُؤرّخون من بَعده بأنّه بَدّل وغيّر اسم الْصَّحَابِي الجَلِيل الَّذي شَهد بَدْراً ومَا بعدها، وسَبب تَسميته بذِي الشَّهادتِين لأنّه شهد للنَّبي ﷺ عَلىٰ يَهودي فِي دَين قَضاه ﷺ فقال: كَيف تَشهد، ولَمْ تَحضره، ولم تعلمه ؟ قَال: يَا رَسُول الله نَحْنُ نصدّقك علىٰ الوَحي من السّماء فكَيف لا نُصدّقك علىٰ أنّك قَضيته ؟ فأنفذ ﷺ شهادته وسمّاه «ذَا الشَّهادتِين» لأنّه صيّر شهادته شهادة رَجُلين، كمَا ذَكر ذَلِكَ أَهْل السِّير، والتَّأرِيخ كالإِصَابَة: الرّقم ٢٢٤٧، وجنىٰ الجَنّتين: ١٦٠، وغَيْر ذَلِكَ بدّله الطَّبَرِيّ في تَأرِيخه إِلىٰ رَجُل آخر اسمه خُزَيْمَة بن ثابت الأوسي شَهد بَدْراً، أو أُحُداً وهو غَيْر خُزَيْمَة الَّذي قُتل في صِفّين مع الإِمَام عَليّ ﷺ بل قَالَ: أنّه مَات زمن عُثْمَان. وهَذِه من مُختلقات سَيف وهو يُحرّف، ويُصحّف، ويقلّب، ويختلق أُمّة من الْصَّحَابَة، والتّابعين، ورواة الحَدِيث، وقَادة الْفُتُوح، والشُّعَرَاءِ، وعَدداً كَبيراً من أماكن، وكُتباً سياسية، وأراجيز كمَا فَعل فِي أُسطورة القَعْقَاع الَّتي أشرنا إِلَيْهَا سابقاً، وعبدالله بن سبأ وسماك بن خرشة الَّذي زعمه غَيْر أبي دُجانة، وبرة بن يَحنس الخُزاعي مُرادفاً لاِسم الْصَّحَابِي وبر بن يحنس الكلبي وغَيْرهم، ومن أراد المزيد فليراجع كتاب العلّامة السَّيِّد مرتضىٰ العسكري فِي كتابيه: عبدالله بن سبأ وأساطير أُخرىٰ: ١ و٢، وخمسون ومئة صحابي مُختلق: ١ و٢.

(وَ أَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَىٰ الْمَنِيَّةِ ، وَ أُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَىٰ الْفَجَرَةِ) . كَانَ مَعَ الْإِمَامِ فِي صِفِّين (٢٨٠٠) من الصَّحَابَة ، مِنهم (٨٧) من البَدْرِيين و (٩٠٠) مِمَّنْ شَهد بَيْعَة الرِّضوَان الّتي أَشَارت إِلَيْهَا الآيَة : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ

↔ وخُزَيْمَة هَذَا هو الَّذي قَاتل مع عَليّ عليه السلام يوم الجَمَل، والَّذي أنكره الطَّبَرِيّ أيضاً، وقاتل مع عَليّ عليه السلام يوم صِفِّين لأنّ قِصَّة ٱستِشْهَاده مع عَليّ عليه السلام مَنقصه لبَني أُمَيّة لأنّه من مشاهير أَصْحَاب رَسُول الله صلى الله عليه وآله ومن مفاخر الأوس. وهو من رواة حَدِيث عَمّار «تَقْتُلُه الفِئَةُ البَاغِيَةُ». أُنظر الطَّبَقات لِابن سعد: ٣ / ٣٥٩، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١ / ١٧٠، الاِسْتِيعَاب: ١ / ١٥٧، مُسْنَد أحمد: ٥ / ٢١٤، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣ / ٣١٦، المُوضّح للخطيب: ١ / ٢٧٧. وأُنظر أيضاً الرِّوَايَات الّتي خلقها الطَّبَرِيّ: ١ / ٣٠٩٥ ـ ٣٠٩٦، والخَطيب في المُوضّح: ١ / ٢٧٥، وٱبن عساكر بترجمة خُزَيْمَة بسنده عن سَيْف من مخطوطات المكتبة الظّاهرية بدمشق: ٥ رقم ٣٣٧ ورقة ٣٠٢ و٣٠٣. وقارن أيضاً مع ما رواه اليَعقوبي في تَأرِيخه: ٢ / ١٧٨، ومروج الذّهب: ٢ / ٣٦٦، والفُتُوح لِابن أَعْثَم: ٢ / ٢٨٩. وفي تَأرِيخ الإِسْلَام للذهبي: ٢ / ١٧١ شهد مع عَليّ يوم الجَمَل ١٣٠ بَدْرِيّاً ومنهم خُزَيْمَة (رضي الله عنه) ووَقْعَة صِفِّين: ٩٢ وذكر منهم خُزَيْمَة رضي الله عنه وقارن بين خُزَيْمَة الحَقِيقي وخُزَيْمَة المُختلق في الإِصَابَة: ١ / ٤٢٥ رقم التّرجمة: ٢٢٥١ و ٢٢٥٢. وأُنظر شرح النّهج لِابن أبي الحَدِيد تحقيق أبو الفَضْل: ١ / ١٠٩، وٱبن الأثير في الكَامِل: ٣ / ٨٤، وٱبن كثير في تَأرِيخه: ٧ / ٢٣٣، وٱبن خلدون في تَأرِيخه: ٢ / ٤٠٧. وأُنظر كَذَلِكَ أَصْحَاب العُيُون والاقلام المأجورة مجلّة الأزهر: ٣٢/العدد ١٠ / ١١٥٠، و: ٣٣ /العدد ٦ / ٧٦٠، ومجلّة «راهنمائي كتاب» الفَارِسّيّة طبع طهران السَّنَة الرّابعة العدد: ٧/٦٩٦، والعدد: ٨/٨٠٠، والعدد: ٩/٨٩٤.

وقد رَثته ٱبنته ضَبيعة بنت خُزَيْمَة بن ثابت ذي الشّهادتين:

عيْن جودِي عَلَىٰ خُزَيْمَة بالدمْ ... ع قَتيلِ ٱلأَحْزَاب يومَ الفُرَاتِ
قَـتلوا ذَا الشّهـادتين عُتوّاً ... أدرَك الله مـنهمْ بـالتّراتِ
قَـتلوهُ فِي فـتيةٍ غَـيْر عُـزْلٍ ... يُسْرِعُون الرُّكوبَ للـدعْوَاتِ

إِلىٰ آخر الأبيات، أنظرها في وَقْعَة صِفِّين: ٣٦٥ و٣٦٦، وشرح النّهج لِابن أبي الحَدِيد: ٢ / ٢٨٠، أُسد الغَابَة: ٣ / ١٢٤ و ٢٨٢، الإِصَابَة: ٢ / ٢٨٠، و: ٤ / ٢١٣، مروج الذّهب: ٢ / ٢٨٤ ط الأندلس، الاِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٢ / ٢٦٨ و ٣٩٥، و: ٤ / ٢٠١، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ٢٧، أُسد الغَابَة: ١ / ٣٠٣.

ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1]، وكَان الْصَّحَابَة قَد تعَاهدُوا عَلىٰ الْمَوْت مَع الإِمَام، وقُتل منهم غَيْر قَليل، وأرسلت رُؤُوسِهم مع البَرِيد إِلىٰ الأَشرَار، والفُجار[2] (أَوِّهِ عَلَىٰ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَ تَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَ أَمَاتُوا الْبِدْعَةَ). يَتأوَّه الإِمَام ويَتوَّجع عَلىٰ الصَّفوَّة من الْصَّحَابَة الأَخْيار الَّذِين عَملوا بكتَاب الله، وآستنُّوا بسُنَّة رَسُول الله، وآستُشْهِدَوا بصِفِّين في سَبِيل الله.

(وَ وَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ) وآقتَدُوه بأروَاحهم مُغتبطِين مَسرُورِين، لأنّهم رَأوا في قَائدهم أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عِلم رَسُول الله، وأمَانته، وهَدية، وسِيرته. قَال أحمد عبّاس صَالح: «كَان عَليّ وَاسع الشَّعبِية، لأنّه آمتداد لرَسُول الله ﷺ، وإنْ كَان مُعَاوِيَةَ آستطاع أنْ يَختار من بَيْنَ أَنْصَار عَليّ مَن لَديه قَابلِية الخِيانَة بحُكم الوَضع

(١) ٱلْفَتح: ١٨.

٢) صِفِّين: مَا بَيْنَ أعَالي العِرَاق، وبلاد الشَام، تِلك ٱلبَلدَة ٱلتي خلّدها التَّأرِيخ، وتِلك ٱلحَرْب ٱلتي آستنفدت من الدّم المهراق مئة يوم وعشرة أيّام، بَلغت فيها الوقائعُ تِسعين وَقْعَةً. كَانَتْ حَرباً ضَروساً، أو شكت أنْ تُفني ٱلْمُسْلِمِينَ، وتذهب بمجدهم، وتمحو آثارهم، فَمَا كَاد المُسلمون يَنزلون عن خيلهم بَعد وَقْعَة الجَمَل سَنَة ٣٦ هـ، حَتَّىٰ آعتلَوْها مَرةً أُخرىٰ في حَرْب صفّين، لخمس مضين من شوال يوم الأربعاء من تلك السَّنَة، وكَانَ الباعث عَلَيْهَا كالبَاعث علىٰ حَرْب الجَمَل وهو حُبّ الدُّنيا، والعدَاوة للرَّسُول، وأهْل بَيْتِه ﷺ، ولو كَانَتْ هَذِه الحَرْب في نصرة الإِسْلاَم لجرت علىٰ الإِسْلاَم خَيْراً كَثيراً بقدر ما جرت عَلَيْه من الضّرر أو أكثَر. (أنظر، أعيان الشّيعة: ١/ ٤٦٥، معجم البُلدان (صفّين)، وَقْعَة صِفِّين لنصربن مزاحم تحقيق وشرح عبدالسّلام محمّد هَارُون الطّبعة الثّانِيَة منشورات مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي النَّجفي /المؤسّسة العَرَبية الحديثة: ١٣١، والفهرست لِابْن النَّديم: ١٣٧ و ١٤٤. وأنظر آبن خلّكان: ١/ ٥٠٦، الطَّبَرِيّ في تَأرِيخه: ٥/ ٢٣٥، و: ٦/ ٢ ـ ٤٠، المعارف: ٣٦، الإشتقاق: ١٥٢، وشرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ١/ ٢٨٧، وغَيْرهم كثير.

الطَّبقي، والمَصْلحَة الطَّبقِية»[1].

(لْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا). روي أنّ هَذِه ٱلخُطْبَة آخر خُطب الإمَام، وإنّه كَان قَد صَمم عَلىٰ العُودَة إلىٰ صِفِّين لحَرْب مُعَاوِيَة مَهما كَلفهُ الأَمْر، فحثّ أَصْحَابه عَلىٰ الْجِهَاد، وأخبرهم بِعَزمه، وَقَالَ لَهُم: (فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَىٰ اللهِ فَلْيَخْرُجْ) فٱستجَابَ لهُ من ٱسْتجَاب، ولكن شَاء الله سُبْحَانَهُ أنْ يُرِيحَهُ من هُمُوم النّاس، وشِقَاقهم، ونفَاقِهم، فٱختارهُ إِلَيْهِ قَبل أنْ يَستأنف الحَرْب.

(١) أنظر، كتَابه «اليَمِين واليَسَار فِي الإِسْلَام»: ١٦٥.

الخطبة

ـ ١٨٣ ـ

الله وَالْقُرْآن.. فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ. خَلَقَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَ اسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَ سَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ، وَ هُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَ لِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَ لِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَ لِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا، وَ لِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَ أَسْقَامِهَا، وَ حَلاَلِهَا وَ حَرَامِهَا، وَ مَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ، وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَ نَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَ هَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَ لِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً[1].

فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَ صَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وَ أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ـ ﷺ ـ وَ قَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَ جَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَ آيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَ سَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ

وَاحِدٌ[٢]. وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَىٰ عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَ لَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَ إِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَ تَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَئُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَ حَثَّكُمْ عَلَىٰ الشُّكْرِ، وَٱفْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ.

وَ أَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَىٰ، وَ جَعَلَهَا مُنْتَهَىٰ رِضَاهُ، وَ حَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَٱتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَ نَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَ تَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَ إِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لاٰ يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَ لاٰ يُثْبِتُونَ بَاطِلاً[٣].

اللُّغَة:

مَنْصَبَة: مَن النَّصَب، وهُو التَّعب. وَهَجَمَ عَلَيْهِ: ٱنْتهىٰ إِلَيْهِ بَغْتَةً، ومُعْتَبَرٍ: مَن الاِعْتِبَار بِمَعْنَىٰ الاِتْعَاظ. والتَّصَرُّفِ: الاِنْتِقَال مِن حَالٍ إِلىٰ حَال. والمَصَحّ: من الصِّحَة ضِدّ السُّقم، والمَرض. وٱسْتَحْمَدَ: طَلَب الْحَمْد.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن «أَنْ» المُضمَرة بَعد اللاَّم فِي لِيَكْشِفُوا مُتَعَلِّق بَبَعَثَ، وكَذَلِكَ لِيُحَذِّرُوهُمْ، وَلِيَضْرِبُوا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ، وَلِيَهْجُمُوا.. إلخ. وآمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ كلّها أخْبَار عَن الْقُرْآن.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ) بآيَاته لا بِذَاته (مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ) الْبَصَر، وإلاّ كَانَ محْسُوساً

(وَ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ) . أَبَداً لا جُهد ، وإرْهَاق ، بل ولا جُولة فكرٍ ، لا شَيء إلّا الإرَادَة وحدَها (خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ) ولا تَفْسِير لهَذه الْقُدْرَة إلّا بمَا شَاء كَان ، ومَا لَمْ يَشأ لَمْ يَكُن ، كمَا هو شَأن الكَمَال المُطلق (وَ اسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ) قَهَر بسُلطانه كلّ عَزيز ، وعَنيد (وَ سَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ) أي لا يَثْلِمُهُ الْعطَاء . . . وإلّا فلا عُظماء بالنِّسبَة إلَيْهِ تَعَالىٰ ، ولا رُؤسَاء (وَ هُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ ، وَبَعَثَ إِلَىٰ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ رُسُلَهُ ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا ، وَ لِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا ، وَ لِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا ، وَ لِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا) . خَلَق الْعِبَاد ، وأسْكَنَهُم فِي مُلْكِهِ ، وأرسَل إلَيْهِمْ مُعلمِين ، ومُرشدِين يَأمرُونهم إلىٰ الصَّالحات ، وفِعل الخَيْرَات .

(وَ لِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَ أَسْقَامِهَا ، وَ حَلَالِهَا وَ حَرَامِهَا) .

المُرَاد بالْهُجُوم هُنا الْبَيَان بأُسلوب تَقْشعِر مِنهُ الجلُود ، وتَلِين لهُ الْقُلُوب ، وذَلِكَ بأنْ يَكشف الْأَنبِيَاء للنّاس عن حَقِيقَة الدُّنْيَا ، وأطوَارها ، وعَاقِبة مَن رَكَن إلَيْهَا ، وأنْ يَضربُوا لهُم الْأَمْثَال من حَياة الأُمم المَاضِية ، والقرُون الخَالية ، ويُبينُوا لهُم أنّ الله سُبْحَانَهُ يختبرهُم بحَلالِهِ وحَرَامه ، وأيضاً يُبينُوا لهُم (وَ مَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ ، وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَ نَارٍ ، وَكَرَامَةٍ وَ هَوَانٍ) . كُلُّ امْرِىء بمَا كَسَبَ رَهِينٌ ، إنْ خَيْراً فَخَيْر ، وإنْ شرّاً فَشرّ (أَحْمَدُهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَىٰ خَلْقِهِ) . الْإِمَام يحمد الله حَمداً يَكُون بِهِ عِند الله مَرضِياً ، ومحمُوداً ، لأنّه عَلىٰ وِفق مَا أحبّ سُبْحَانَهُ ، وأرَاد .

(وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً) . المُرَاد بالْقَدرِ هُنا إيجاد الشَّيء عَلىٰ وَضع خَاص كَمّاً وكَيْفاً ، والْمَعْنَىٰ أنّ مَا من شيء كَبُر أمْ صَغُر يَصدر عَن اللهِ عَبَثاً ، أو سَهواً ، بل عَن عِلمٍ ، وإرَادَة ، وعَلىٰ مُقْتَضىٰ الحِكْمَة ، والْمَصْلحَة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ

لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]. (وَ لِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا) لا يَتَقَدَّم عَلَيْهِ، ولا يَتأخر عنهُ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[2]. (وَ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً) أي أنّ كلَّ أجَلٍ إلىٰ ٱنْتِهَاء. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[3]. ومِن أَقْوَال الْإِمَام: «إنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ. فَمَهْلًا، لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا. فَـإِنَّمَا نَـفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِكَ!»[4]. فَقَد جَعَل لغَايَة الوَقْت وَقْتاً.

(فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ). يَأمُر بِالخَيْرِ والصَّلاح، ويَزجـر عـن الشّرِّ والـفَسَاد (وَ صَامِتٌ نَاطِقٌ). يَكُون التَّعبِير باللّفظ، والكتَابة، والإِشَارَة، وبالرَّسم، والرَّقص، والمُوسيقىٰ، والنَّحت، وبالآثار، والأفْعَال، وَهِي أسْبَق من اللّفظ، واللّفظ أسْـبَق من الكتَابة، فالطّفل يَتكَلَّمُ قَبل أنْ يَكتُب، والْقُرْآن صَامت حَيْث لا صَوْت لهُ يَقرع الْأَسْمَاع، وهو نَاطق، لأنّ لُغته هِي نَفس اللُّغَة المَلفوظة، وقَـد دُونت عَـلىٰ نِـظام وأُصول يَعرفها كلّ قَارىء تَمَاماً كمَا لو سَمِعَهَا بأُذنِـيه (حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ). يَحتـج سُبْحَانَهُ بالْقُرْآن عَلىٰ عِبَاده، لأنّه يَحمل فِي ثَنايَاه البُرهان عَلىٰ أنّ كلّ مَا فيهِ حَقّ، وصِدق.

(أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ). الضَّمِير المُـستتر فِي أَخَـذَ الله تَـعَالىٰ، وضَـمِير «عَـلَيْهِ» لِلخَلق، وضَمِير مِيثَاقه لِلْقُرْآن، والْمَـعْنَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ أَخَذَ عَلىٰ عِبَاده بوَاسـطَة نَبِيّه الكَرِيم أنْ يَعْملوا بالْقُرْآن (وَٱرْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْـفُسَهُمْ). أرْوَاح الْـعِبَاد كـلّها فِي

(١) ٱلطَّلَاق: ٣.
(٢) ٱلْحِجْر: ٥.
(٣) ٱلرَّحْمَـٰن: ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلَاغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٣).

قبضَة الله رَهينَة عَلىٰ الوفَاء بِحَقه تَعَالىٰ، وطَاعته فَمن أدىٰ هَذَا الحَقّ كَاملاً سَلِم، ونَجَا مِن غَضب الله وعَذَابه، ومِن قَصَّرَ، وأهْمَل فهُو مِن الهَالِكِين (أَتَمَّ نُورَهُ، وَ أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ). أَتَمَّ، وَأَكْمَلَ عَطف تَفْسِير، وكَذَلِكَ نُورَهُ، ودِينَهُ، والمَعْنَىٰ أنّ فِي القُرْآن الكَرِيم تِبيَّان كلّ شَيء يَصلح البَشرِية، ويَحل مِشكلاتها.

(وَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ـ صلى الله عليه وآله ـ وَ قَدْ فَرَغَ إِلَىٰ الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَىٰ بِهِ). بُعِثَ مُحَمّد صلى الله عليه وآله إلىٰ البَشرِية جَمْعَاء بالهُدَىٰ، ودِين الحَقّ، وبَعد أنْ أنْهىٰ مُهمته هَذِه عَلىٰ وَجهها آختَاره الله إلىٰ جِوَارِه، ورِضْوَانه (فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ) كالإِيمَان بِعَدلِه وَرَحمته، وتَنزِيهه عَن الشِّرك، والظُّلْم، وإنّه عَلىٰ كلّ شَيء قَدِير، وغَني، وخَبير... إلىٰ مَا جَاءَ فِي كتَابه تَعَالىٰ مِن صِّفَات الكَمَال، والجَلاَل (فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَ جَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَ آيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ). بَيّنَ، جلَت حِكْمَته، فِي كتَابهِ وعَلىٰ لِسَان نَبِيّه جَمِيع مَا يُحبّ، ومَا يَكْرَه، ونَهَىٰ عَن هَذَا، وأَمَر بِذَاك (فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ). المُرَاد بِمَا بَقِيَ مَا لاَ نَصّ فيهِ، وحُكمَه لا يَتغير، فهُو حَلاَل يَرضىٰ الله بِفعلِه إنْ لَمْ يَكُن فيهِ ضَرر، وفسَاد بِجِهَة مِن الجِهَات، وإلّا فهُو مُحَرّم يَسخط الله عَلىٰ فَاعِله، ويَغضب.

(وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَىٰ عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) مَاكَان حَرَاماً فِي عَهد رَسُول الله فهُو حَرَام الآن، وإلىٰ آخر يَوْم، وكَذَلِكَ الحَلاَل، وتَقَدَّم مِثله[1].

(وَ إِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَ تَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ).

---

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَة (١٧٦). (مِنهُ رحمه الله).

الأحْكَام وَاحدة، وأدْلتها وَاحِدة، وعَلىٰ الخَلَف أنْ يَسِير فَتوىً، ودَلِيلاً عَلىٰ سِيرَة السَّلف الصَّالح من الْعُلَمَاء. وإنْ قَال قَائل: ولمَاذا كلّ هَذَا الضّغط عَلينا مِن السَّلف، والدّورَان فِي فَلكهم؟ قُلنا فِي جوَابه: الضّغط هُنا للدِّين، والحَقّ، لا للسَّلف، والدّورَان إنّما هُو فِي فَلكه لاَ فِي فَلكهُم، وإنْ انْحَرفُوا فِي الدِّين، والحَقّ مِلنَا عَنْهُم، وقَد روىٰ أَهْل الْبَيْت عليهم السلام عَن جَدهم صلى الله عليه وآله: «إنّ مَا خَالف كِتَاب الله فهُو زُخرُف... وإنّه لا قَول بلاَ عَمل، ولا عَمل بلاَ نِيَّة، ولا نِيَّة إلّا بإصَابَة الكِتَاب، والسُّنَّة»[١].

(قَدْ كفَاكُمْ مَئُونَةَ دُنْيَاكُمْ) أي مَهد لَكُم الطَّرِيق إِلىٰ ٱلرِّزْق، ودَلَكُم عَلَيْهِ بالحثّ عَلىٰ الْعَمَل بشتىٰ الأسَالِيب، مِنْهَا قَوْله: ﴿فَانتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٢]. ومِنْهَا قَوْله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[٣]. (وَ حَثَّكُمْ عَلَىٰ الشُّكْرِ، وَٱفْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ). أنْعَم سُبْحَانَهُ عَلىٰ عِبَاده، وأرَاد مِنْهُم أنْ يَسْتَشعِر نِعَمه، وعطَاءه بِقُلُوبِهِمْ، ويَشكرُوه عَلَيْهَا بألسِنَتهم، ويَخضَعوا بالرّكُوع والسّجُود بَيْنَ يَدِيه، وأنْ يَطِيعُوه فِي كلّ ما يَفعلُون ويَتركُون، والغَرض الأَوّل والأخِير من ذَلِكَ كلّه هُو التَّربية، والتَّنشئة عَلىٰ الخضُوع للهِ وَحده، ولاَ لأحدٍ من النّاس، والاِعْتصَام بِهِ تَعَالىٰ لا بِغَيره، وأخذ الحَقّ مِن كتَاب الله وسُنَّة نَبِيّه.

---

(١) أُنظر، الكَافِي: ١/٦٩ ح ٣. وَسَائِل الشّيعة: ٢٧/١١٠ ح ٣٣٣٤٥. المبسُوط للطّوسي: ١/٨٠. المهذب: ١/٨٧. نهايَة الإحكام: ١/٣٩٥. التّذكرة: ١/١٠٣. الذّكرىٰ: ١٦٤. الدّروس: ١/١٥٩. الْبَيَان: ١/٧٧. المحَاسِن للبَرقي: ١/٢٢١.

(٢) ٱلجُمُعَة: ١٠.

(٣) ٱلْمُلك: ١٦.

(وَ نَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَ تَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ... إلخ). لا أحد يملك مع الله شيئاً حتَّىٰ نفسه، فهو وحده تعالىٰ المالك القاهر لكلّ شيء، والعالِم بكلّ شيء... ونحنُ نعلم ذلك بلا ريبٍ، وأيضاً نعلم أنّ لله شرعاً نافذاً، وإنّه تعالىٰ يُحاسب، ويُعاقب، ومع هذا نقتحم حِماه، ونتجاوز حدوده، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٧:

وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ ﴿مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[2] مِنَ الْفِتَنِ، وَ نُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَ يُخَلِّدْهُ فِيمَا ٱشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَ يُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ ٱصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَ نُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَ زُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَ رُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ، فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَ يَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَ يُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَ أَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَىٰ سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَ قَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْإِرْتِحَالِ، وَ أُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ[4]. وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

أَ فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَ الْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَ الرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَ قَرِينَ شَيْطَانٍ! أَ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً

---

(١) ٱلأحزاب: ٧٢.

(٢) ٱلطّلاق: ٢.

إِذَا غَضِبَ عَلَىٰ النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ ، وَ إِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ[٥] !

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَ نَشِبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّىٰ أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ . فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ ! وَ أَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ ، وَ فِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ . فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ ، وَ أَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَ اسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ[٦] ، وَ أَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَ خُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، وَ لاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١] وَ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٢] . فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ، وَ لَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ، اسْتَنْصَرَكُمْ : (وَ لَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) . وَ اسْتَقْرَضَكُمْ : ﴿وَ لَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ . وَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٣] . فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَ أَزَارَهُمْ مَلاَئِكَتَهُ ، وَ أَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً ، وَ صَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَىٰ لُغُوباً وَ نَصَباً : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٤] .

---

(١) مُحَمَّدٍ : ٧.

(٢) ٱلْحَدِيدِ : ١١.

(٣) هُودٍ : ٧.

(٤) ٱلْحَدِيدِ : ٢١.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَ اللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي وَ أَنْفُسِكُمْ، وَ هُوَ حَسْبُنَا وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ(٧)!

اللُّغَة:

الْيَفَنُ ـ بفتح اليَاء، والفَاء ـ المُسِنّ الّذِي بَلغ مِن عُمره أقْصَاه. ولَهَزَ: خَالَط. والْقَتِيرُ: الشَّيب. غَلِقَ الرَّهنُ: عَجزَ الرّاهن عَن ٱفْتكَاكَه فِي الأَجَل المَضْرُوب. والحَسِيسَ: الصَّوْت الخَفِي. والنَّصب: التَّعَب، واللَّغِبُ أَشدهُ، وتُطلق عَلَيْهِ كَلِمَة الإِعْيَاء.

الْإِعْرَاب:

جَزَعاً مَفْعُول مِنِ أجْلهِ لتَوَثَّبَت. وَاللّهَ اللّهَ نُصب عَلىٰ التَّحْذِير أي أُحَذِّرُكُم أو خَافُوا الله، وعَمَلاً فِي قَوْله «أَحْسَنُ عَمَلاً» تَمْيِز، وتَكُونُوا مَجْزُوم لأنّه جوَاب بَادِرُوا، أَبَداً نُصب عَلىٰ الظَّرفِيَة، والْمَصْدَر مِن أَنْ تَلْقَىٰ مَجرُور بمن مَحْذُوفة أي صَان أجْسَامهُم مِن لقَاء التَّعَب، والإِعْيَاء.

الْمَعْنَىٰ:

(مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ). مَن خَاف مقَام رَبّه ونَهىٰ النَّفس عَن الْهَوَىٰ، ويَبتَعد تِلقَائِياً عَن المزَالِق، والمهَالِك، ومِنْهَا الْفِتَنِ، وأسْبَابها (وَ نُوراً مِنَ الظُّلَمِ) الْهَوَىٰ يَكْسِف نُور الدِّين، والْعَقْل، والوَرع يَكبح الْهَوَىٰ، ويَردعهُ عَن تجَاوز الحُدُود، وعِندئذٍ يَنْتَفع المُتورع، والمُتقي بنُور عَقْله، وإيمَانه (وَ يُخَلِّدْهُ فِيمَا ٱشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَ يُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ ٱصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ،

وَ نُورُهَا بَهْجَتُهُ ، وَ زُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ ، وَ رُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ) . الْمُرَاد مِن «ظِلُّهَا عَرْشُهُ» حيَاة الْأَمَان ، والاِسْتقرَار ، ومِن «نُورُهَا بَهْجَتُهُ» الفَرح ، والمسَرَة ، والْمَعْنَىٰ : إنّ من يَتق الله يَأمن فِي الدُّنْيَا من شَرّ الْفِتَنِ ، ولهُ فِي الْآخِرَة مَا تَشتَهِي الأنْفُس ، وتَلذ ٱلْأَعْيُن فِي صُحبة الْأَنْبِيَاء ، والصَّالحِين ، والمَلاَئِكَة المُقربين .

(فَبَادِرُوا الْمَعَادَ ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ . فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ، وَ يَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ ، وَ يُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ) . الْأَيَّام تَمُرّ كالرِّيح ، وتَأخذ مَعَهَا أعْمَاركُم وأعَزّ الْأَشْيَاء عَلَيْكُم ، فلا تَضيعُوا مِنْهَا ثَانِيَة باللّهو ، والأَبَاطِيل ، وبَادِرُوا اللّحضَات بِالْتَّوْبَة ، والْعَمَل الصَّالح ، فإنْ الله لا يَضيع أجر من أَحسن عَملاً (فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) . أَنْتُم الآن فِي فُسحَة مِن الْعُمُر يُمكنكُم أنْ تَعملوا ليَوْمِ الفَزَع الْأَكْبَر ، وإنْ لَم تُبَادِرُوا الْفُرْصَة ذَهبت كمَا ذَهَب أَمس مِن الْعُمُر ، ونَدمتُم حَيْث لا يَنفع النَّدم ، وأصَابَكُم مَا أَصَابَ الَّذي قَال ـ من قبل ـ لمَا جَاءه الْمَوْت : ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[(١)] . (وَ أَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ ، عَلَىٰ سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَ قَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْإِرْتِحَالِ ، وَ أُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ) . ومِثله تَمَاماً مَا جَاء فِي النَّهج : «أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَة دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ»[(٢)] .

أَعلىٰ الأَصوَات فِي نَهْجِ ٱلْبَلاَغَة:

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَىٰ النَّارِ ، فَٱرْحَمُوا نُفُوسَكُمْ ، فَإِنَّكُمْ

(١) ٱلْمُؤْمِنُون : ١٠٠ .

(٢) أنظر ، نَهْج ٱلبَلاَغَة : ٱلْحِكْمَة (٢٠٣).

قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا) . لا تَكَاد تَمُرّ خُطْبَة مِن خُطَبِ النَّهج إلّا وَتقرَأ فِيها وَاحداً من ثَلاثَة ، أو اثْنَيْن ، أو هِي مُجتمعة :

ذِكر الله سُبْحَانَهُ بالحَمْد ، وتَعظِيمه بأَسْمَائِهِ الحُسنىٰ ، وصِّفَات الكَمَال .

وذِكر رَسُول الله ﷺ ، والثَّنَاء عَلَيْهِ بالمَقَام المَحمُود عِند الله ، وبمَا أسدَاه لِلْإِنْسَانِية مِن نُورٍ وهدَاية .

والثّالث الحَدِيث عن الدُّنْيَا وغُرُورهَا ، والمَوْت وسَكرته ، والقَبْر ووحشَته ، والحَشر وأهوَاله ، والحِسَاب ونقَاشه ، والعَذاب وشِدَّتِه ... فأي مَوْضُوع يَتحدث عَنهُ يَنتقل منهُ ـ فِي الْغَالِبِ ـ إلىٰ التَّحْذِّير ، والتَّخوِيف من الدُّنْيَا والآخِرَة مَعاً .

شَرَحتُ أوّل خُطْبَة تَضمنت هَذَا المَوْضُوع ، شَرَحتُ وفَسَرتُ بمَا تَهيأ لِي من صِيَاغة ، وتَركِيب ، وجَاءَت الثَّانِيَة ، وفِيها نَفس المَوْضُوع بأُسلوب آخر ، فشَرحتها بأُسلوب آخر ، ثُمّ الثّالِثَة والرَّابعة ... إلىٰ عشرَات ، فوقفتُ حَائِراً : هَل أُكرر مَا سَبق ، كَمَا فَعل غَيْرِي من الشَّارحِين ، أو أُحيل عَلىٰ مَا تَقَدَّم ، أو أشرَح بأُسلوب عَاشر ، أو حَادِي عَشر؟ ومِن أين؟ «فأفْنِيتُ علاقِي ، فكَيف أقُول ؟»[1] .

---

(١) هَذَا عَجز بَيْت مِن الشّعر ذَكر قَصته ابن عساكر فِي تَأريخ دِمشق : ٦٦/٦٢ ، عَن منجُوف بن حبر ، قَال : مَررت بدَار الزُّبَيْر ، فإذَا مَوْلىً لهُم يُكنىٰ أبَا رِيحانة ، وكَان يَخضب بالحناء ، والكَتم . فَسلمتُ عَلَيْهِ ، وجَلستُ إلَيْهِ ، فمرّت بِهِ جَارِيَة عَلىٰ ظهرها قِربة ، فقَام إلَيْهَا الشّيخ ، وَقَالَ : وأخذ القِربة من عَلىٰ ظَهرها ، ووضَعها عَلىٰ ظَهره ، ثُمَّ رَفعت عقيرتها وَهِي تَقول :

فُـؤادِي أسِير لا يُـفك ، ومُـهجتِي	تَـقضىٰ وأحْـزَانِي عَـلَيْكَ تَـطول
ولِي مُقلة قَرحي لطـول أشتِياقها	إلَـيك فأجْـفَان عَـلَيْكَ همُـوم
فَـديتك! أعـدَائي كـثير لشـقوتِي	عَـلَيْكَ وأشـيَاعِي لديك قَـليل
وكُنتُ إذَا مَـا جِـئتُ ، جِـئت لِعِلَّة	فأفْـنِيت عـلاقِي ، فكَـيف أقُـول ؟

وقَد أُكرر مَع التَّلخِيص، أو أُحيل، أو أتكَلف، وأتعَسف.

إنّ فِي كتَاب الله العَدِيد من المَوْضُوعَات، ومِنْهَا الدُّنْيَا وزُخرُفها، والجَنَّة ونَعِيمُهَا، والنَّار وجَحِيمها، وكَذَلِكَ نَهْج الإمَام، كمَا أشرتُ فِي المُقدِّمَة، ولكن التَّخوِيف من عَذَاب الله هُو أَعلىٰ الأصوَات فِي خُطَب النَّهج، وأكثَرها قَسوَةً وحمَاساً، ومَا التَّخوِيف والتَّحْذِير من الدُّنْيَا إلّا وَسِيلة لاتِقَاء عَذَاب الله... إنّ صَوْت النَّهج وهُو يَتحدث عَن هَذَا يَهزُك من الأعْمَاق، وتحس معهُ كأنّك فِي قَلب الجَحِيم، والسّرّ أنّ الإمَام يُشارك النّاس، كلَّ النّاس، فِي آلامِهم، ويَشفق عَلَيْهِمْ من نَار الله، وهُو أعْلم بِها، وبحقِيقَتها حَتَّىٰ كأنّه يُقاسِيها، ويُعانِيها، وهُو فِي ٱلْحيَاة الدُّنْيَا.

بهَذا وَحده نَجد التَّفْسِير الصَّحِيح لكلِمَات الإمَام اللاَهِبَة، وهو يَتحدث عن غَضب الله، وعذَابه.. إنّه يَشفق عَلىٰ هَذَا الجِسم الضَّعِيف، والجِلد الرَّقِيق، تُدْمِيهِ العَثْرَة، وتُؤلِمُهُ الشَّوْكَة، وتُحرِقُهُ حرَارَة الشَّمس فكَيْفَ يَكُون حَاله إذَا أُقدت النَّار من فَوقِهِ ومن تَحته؟. يُسخرها مَالك المُوكَل بها، ويَزجُرها بِغَضبه فتَرمِي بِشَرر كالقَصر كأنّه جِمَالَةٌ صُفْر... وهُو إلىٰ هَذَا ضَجِيع أحجَار من الكبرِيت، وقَرِينَ لشَيَاطِين الجِنّ وَالإنْس... نَار وأحْجَار، وشَيَاطِين... إلىٰ مَا يَفُوق التَّصور. ولِمَاذا كلّ ذَلِكَ؟.

⇐ قَال: فطَرَب الشَّيخ فَوقع إلىٰ الأَرْض، وآنشقت القِربَة. فقَالت: يَا أبَا رِيحَانة! مَا هَذَا جَزائِي مِنك، فقَال لَهَا: مَا دَخَل الضَّرر إلا عَليَّ. ثُمّ دَخل السّوق فَنزَع قَمِيصه فَبَاعه، وآشترىٰ لهَا قِربَة ثُمّ ملأها. فَلقِيهُ زَيد بن الْحَسَن العَلوي، فقَال: أبَا رِيحَانة أحسَبك مِمَّنْ قَال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ ٱلْبَقَرَة: ١٦. قَال: يَاسيدي أرجوا أنْ أكُون مِمَّنْ قَال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ ٱلزُّمَر: ١٧ـ ١٨. وقيل: غَيْر ذَلِكَ كما جاء فِي الأعلام للزركلي: ١٨٣/٨.

الجوَاب:

إنّه قَليلٌ، ويَسِيرٌ، ويَنْبَغِي أنْ يُضاعف أضعَافاً كَثِيرة لِمَنْ أفْسَد عَلىٰ النّاس حيَاتهم، ونَهب أقوَاتهم، وألقىٰ بقنَابله عَلىٰ الآمِنِين، ولوَّث الجو ودَم الإِنْسَان، وآلحَيَوان بقنَابله النّووِية وتفجِيرها... وحَتّىٰ الزّرع، والأشجَار والصّخُور، والأحْجَار تَأثرت بهَذه السّمُوم، وآختَل التّوازن الطّبِيعِي بَيْنَ الكَائنَات فِي كَثِير مِن المنَاطق، وقَالَ أَهْل الاِخْتِصَاص: سَتَعُم الكَارِثة العَالم بكَامله، إنْ تكَرّرت هَذِه الجَرِيمَة، وآستمَرت.

(أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ.. إلخ). خَصّ الإِمَام الشّيخ الفَانِي بالسُّؤال عَن حَالهِ حِين تحاصره النّار من كلّ جَانب تُشوِي لَحمَه، وتُحرِق عَظمَه، خَصّه بهَذا السُّؤال لقِيام الحُجّة عَلَيْهِ من نَفْسَه، وتَرَاكُم عِلله، وأوْجَاعه (فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وَ أَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَ فِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ... إلىٰ وَ لاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا). إذا كَانَتْ عَاقِبة التّسوِيف، والإهْمَال هِي النّار فَعَلىٰ كلّ عَاقل أنْ يَسعىٰ فِي تَحرِيره، وفِكاك رَقبته من العَذاب بِعفّة بَطنه، وفَرْجَه عن الحَرَام، وبالسّعي والجِهَاد فِي سَبِيل الصّالح العَام، ومِن يُجَاهد مِن أجل الحَقّ، والعَدَالة يَأخذ من الله والنّاس مِمّا يُعطي.

(قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] أي إنْ جَاهدتُم يَداً وَاحدة، وصَبرتُم صَبر الأحْرَار يَنصُرْكُمْ الله عَلىٰ عَدُوّه وَعَدُوّكُم،

(١) مُحَمَّدٍ: ٧.

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ فِي جِهَادِهِ وقتَاله، أمّا إذَا تَنَازَعْتُمْ، ونَكَصْتُمْ عَن الجِهَاد فإنّ الله يُخَذلكُم، ويُذْهِب رِيحُكُمْ... أيضاً إنْ عَمْلِتُمْ فِي الحَقل، أو المَصنع، أو المَتجر، أو المَكتب يَرْزُقُكُم مِن فَضْلِهِ، وهَكذَا كلّ مَن سَار عَلَىٰ سَبِيل أنْتهَت بِهِ إلىٰ غَايتها، وحِين سَار الْمُسْلِمُون عَلىٰ طَرِيق الشَّهادَة كَتب الله لهُم السَّعَادة، ولمّا سَارُوا عَلىٰ طَرِيق الْجُبْن، والشّتَات كَتَب عَلَيْهِمْ الذّل، والاِنْحطَاط.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. لا غِنىٰ إلّا مِن اللهِ، وبِاللهِ، فهُو سُبْحَانَهُ مَصْدَر الْجُود والفِيض، يُعطي مَن سَأله، ومَن لَمْ يَسأله تَفَضُّلاً منهُ كَرَماً، ولكن يَشترط عَلىٰ مَن أعْطاه أنْ يُنفق مِن مَال الله عَلىٰ المُعْوَزِين مِن عِيَال الله لمُجرد الاِمْتِحَان، والاِخْتبَار تَمَاماً كمَا وَهَب الإنْسَان الْقُدْرَة، والحُرِّيَّة لِتظهَر الأَفْعَال الّتي بِهَا يَستحق الثّوَاب، والعقَاب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[2].

(فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ... إلخ).
هَذَا تَفْسِير، وتَأكِيد لمَا تَقدَّم فِي نَفْس ٱلْخُطْبَة، وهُو قَوْله: ﴿مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[3].... وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا ٱشْتَهَتْ نَفْسُهُ... فَٱسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ إلخ).

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٤٥.
(٢) ٱللَّيل: ٥ ـ ١٠.
(٣) ٱلطَّلَاق: ٢.

وخُلَاصته: لَنْ تَنالوا الفُوز بجِوَار الله، وَرُسله، وزِيَارة مَلَائِكَتَهُ، وسَلامة الرُّوح، والبَدن من العَذاب، والأتْعَاب إلّا بالسّير عَلىٰ الطَّرِيق السَّوِيَّ، والْعَمَل الشَّرِيف، وكَفّ الأَذَىٰ عن النّاس، الوقُوف عِند حدُود الله، وَحرَامه.

الإِنْسَان ٱبنُ ٱلدُّنْيَا:

وَتَسْأَل: إنّك أشَرتَ قَبل لحظَة إِلىٰ أنّ أعلىٰ صَوْت فِي نَهج ٱلبَلاَغَة هُو التَّحْذِير مِن ٱلدُّنْيَا، ولا شَكّ فِي ذَلِكَ، ولكن الإِنْسَان ٱبن الأَرْضِ، وجُزء من الطَّبِيعَة، وَهِي تَفرض عَلَيْهِ أشْيَاءها، وأغْرَاضها، ولا مَفَرّ إلّا أنْ يَتأثر بِها، ويَسمَع لَهَا وَيطِيع.. حَتَّىٰ النَّبَات، وٱلحَيَوَان، والجَماد تَتأثر بالطَّبِيعَة مَعَهَا، وتأخذ مِنْهَا اللّون، والحَجم، والحَركة، والسّكُون، أي كَائن يَسْتَطِيع الخرُوج من عَالمه، ووَاقعه مَهما كَانَتْ طَاقته، وقُدرته، والإِمَام أعرَف النَّاس بهَذه الحَقِيقَة، وقَد أشَار إِلَيْهَا فِي كَثِير من أَقْوَاله، ومِن ذَلِكَ قَوْله: «النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا وَ لَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَىٰ حُبِّ أُمِّهِ»[1]. وإذَنْ فبأي شَيء تَجمع بَيْنَ قَوْله هَذَا وقَوْله: «أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَ تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَ رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَ تَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَ تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَ لاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ»[2]... «أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَىٰ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٠٣).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١١١).

بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَىٰ مَهْلَكٍ!»[1]؟. وأمثَال هَـذَا فِي كـلاَم الإِمَـام طـوِيل وكَثِير.

الجَوَاب:

أوّلاً: إنّ قَوْله: «لَا يُلَامُ» لَيْسَ مَعناهُ لا يُكلَّف، وإنّما هُـو مُجـرد بَـيان لِسَـببِ الحُبّ.

ثانِياً: أجَلْ، لا مَفَرّ من مطالبِ ٱلْحَيَاة إلّا بالْمَوْت... وعَلَىٰ الإِنْسَان أنْ يَسعىٰ لهَا سَعيها، ومَن قَصر، وأهمَل فهُو مَسْئُول عَن تَقصِيره، ومَمقُوت عِند الله، والنّاس، وقد اشتهر عن الإِمَام قَوْله: «اعْمل لدُنْيَاكَ كَأنّك تَعيش أَبَداً ـ أي مع الأجـيَال إِلَىٰ يَوْم يُبعثُون ـ وأعْمل لآخِرتك كأنّك تَمُوت غَداً»[2]. ومَن آيَات الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَاتَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[3]. وَقَالَ الرَّسُول الأعْظمﷺ: «لَيْسَ خَيركُم مِـن تَرَك ٱلْحَيَاة، وطَبِيعتها لِغَيره»[4]. ولا يَختلف اثنان من عُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِينَ في وجُوب السّعي للرّزق وسدّ الْحَاجَة... والحَرَام هُو الكَسب غَيْر المُشروع، والعَيش عَـلىٰ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٦).

(٢) أنظر، تحرير الأَحْكَام لِلعلاّمة الحِلي: ٢/٢٤٩، تَفسِير القُرطُبي: ٤/٣٥، مَن لاَ يَحضُره الْفَقِيه: ٣/٩٤ ح ٣٥٦، مَعَاني الأَخْبَار للنَّحاس: ٦/٣٠٥، وَسَائِل الشّيعة: ١٧/٧٦ ح ٢، فَيض القَدير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٢/١٦، كَنز الْعُمَّال: ٥/٥٨١، تنبيه الخَوَاطِر: ٢/٢٣٤.

(٣) ٱلْقَصَص: ٧٧.

(٤) أُنظر، كَشف الْخَفَاء للعَجلوني: ٢/٢٢٠ ح ٢١٣٩، ذكر أخبار إصبهان: ٢/١٩٧، الفِردَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣/٤٠٩ ح ٥٢٤٩، عِلل ابن أبي حَاتم: ٢/١٢٤ ح ١٨٦٧، حلية الأَوْلِيَاء: ١/٢٧٨.

حِسَاب الآخرِين ، وبهَذا يَتبَيَّن مَعنا أنْ الدُّنْيَا الّتي ذَمهَا الإمَام وحَذَر مِنْهَا هِي الدُّنْيَا الحَرَام ، هِي الرُّوح العُدْوَانِية . وقَد أوضحنا ذَلِكَ فِيمَا سَبق أَكْثَر من مَرّة .

هَل نَهج ٱلْبَلاَغَة مَنْحُول؟

خَتَم ٱبن أبِي ٱلْحَدِيد شَرحه هَذه ٱلخُطْبَة بكلاَمٍ طوِيل ، ومِن المُفِيد أنْ نُلخصه بمَا يَلِي :

قَال قَوم أعْمَت العَصَبِيَّة أَعْيُنُهُم : أنّ كَثِيراً من نَهج ٱلبَلاَغَة مَنْحُول ، بَعضهُ يُعزىٰ إلىٰ فُصحَاء الشِّيعَة ، وَبَعضهُ الآخر إلىٰ الشَّرِيف الرَّضِي ، ومَن تَأمَل النَّهج وَجَده كلّه مَاءً وَاحِداً ، ونَفْساً وَاحدة ، وأُسلوباً وَاحداً ، كالْقُرْآن الكَرِيم ، أوّله كأوسَطه ، وأوْسَطه كآخره ، وكلّ سُورَة مِنْهُ ، وكلّ آية مُماثِلة لِغَيْرها فِي المَآخذ ، والمَذْهَب ، والفَن ، ونَهْج ٱلبَلاَغَة كَذَلِك ، ولَو كَان بَعضهُ مَنْحُولاً ، وبَعْضَه صَحِيحاً لَم يَكُن كَذَلِكَ ... ولَو فَتحنا هَذَا البَاب لَم نَثق بقولٍ مَنقُول عَن رَسُول الله ، أو عَن أبِي بَكْر وعُمَرَ ، ولا عَن أحدٍ من الأَئِمَّة ، ولوَجَب الشّك فِي جَمِيع الكُتب ، والدَّوَاوِين ، والخُطْب ، والرَّسَائل[1] .

---

(١) أنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أبِي ٱلحَدِيد : ٦٩/١ ومَا بَعدها و : ٥٤٦/٢ طَبْعَة الحَلبِي ، و : ١٢٧/١٠ وما بَعدها . وقَد أفردَ العَلاّمة الشّيخ هَادي آل كَاشف الغطاء كِتاباً فِي (٦٦) صَفحة حَوْلَ الكتَاب ودَفع الشُّبهات عنهُ بَعد نقلها . وأنظر شَرح مُحَمّد عَبْدَه ، وكَذَلِكَ الأُستاذ حُسين بستانه أُستاذ الأدب العَربِي فِي الثّانوية المَركزية (سَابقاً) تَحت عنوان «أدب الإمَام عَليّ ونَهج ٱلبَلاَغَة» وتَعرض للأَوْهَام الحَائمة حَوْلَ النَّهج ، ونُشر فِي العَدد الرّابع من أعداد السَّنَة الخَامسة من مَجلة الإعْتِدَال النَّجفية . وكَذَلِكَ نَشر العَلاّمة هِبة الدِّين الشّهرستاني تأليفاً حَوْلَ أعتبار مَا فِي النَّهج ومَحَله من الرّفعة تَحت عنوان (مَا هُو نَهج ٱلبَلاَغَة) طبع صيدا . «بتصرف» عَن الغَدِير للعَلاّمة الأَمِيني : ٢٠٠/٤ .

الخطبة

-١٨٤-

الأَثْرَمُ:

اَسْكُتْ قَبَحَكَ اللهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلًا شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ، حَتَّىٰ إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

اللُّغَة:

الأَثْرَمُ: مَن كُسرت سِنه مِن أصْلها. وضَئِيلاً: حَقِيراً صَاغِراً. ونَعَرَ: صَاح وصَوَّتَ. وَنَجَم: ظَهر وطَلع.

الإِعْرَاب:

شَخْصُكَ فَاعِل «ضَئِيلًا» وصَوْتُكَ فَاعِل «خَفِيّاً».

الْمَعْنَىٰ:

كَان البُرج بن مسهر شَاعِراً خَارِجِياً[1]، وفِي ذَات يَوْمٍ سَمعه الْإِمَامﷺ يَقول:

---

(١) هو البُرج بن مسهر بن الجُلاس بن وَهب بن قَيْس بن عُبَيْد بن طريف بن مَالك بن جَدعاء بن ذُهل بن ⇐

«لاٰ حُكْمَ إلاَّ للهِ، فقَال لهُ: (ٱسْكُتْ قَبحَكَ اللهُ يَا أَثْرَمُ). ٱتخَذ أَصْحَاب الْجَمَل، وصِفِّين قَمِيص عُثْمَانَ لِبَغيِهم، أمّا الْخَوَارِجِ فٱتخذُوا قَوْل: «لاٰ حُكْمَ إلاَّ للهِ» شِعاراً لِمُروقهم، وفِي ٱلْخُطْبَة (٤٠) أَوْضَح الإِمَام أنّ لله التَّشرِيع، وأنّ عَلىٰ الأَمِير التَّنفِيذ، وشَرحنا ذَلِكَ مُفصلاً. ولا جوَاب لهَذا السَّفِيه إلّا لَعنة الله، واللاَعِنِين.

(فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلًا شَخْصُكَ... إلخ). إنّ للحَقِّ أهلاً لا يَشغلهم عنهُ شَاغل، وللبَاطِل أهلاً يَهتف بِهِمْ فَيستَجِيبُون، ومَا ظَهر هَذا السَّفِيه الأَثْرَم أي أثَر للحَقِّ فِي قَولٍ، أو فِعلٍ... حتّى إذَا ٱرتَفع صَوْت الْبَاطِل لبّىٰ وظَهر عَلىٰ المَسرح... وهكذا لا تَظهر أَسْمَاء الرُّعَاع، والصَّعالِيك إلّا حِين يَختَل النّظام، وتَسود الْفِتَن، والمظَالِم، ويَنتشر الْقَتْل، والسَّلب.

❖ رومان بن جُنْدُب بن خَارجه بن سَعد بن قطرة بن طِي بن داود بن زيد بن يَشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب ٱبن قحطان، شَاعِر مشهور من شُعراء الْخَوَارِج، نائِيْ بشعارهم بحيث يَسمعه أَمِير الْمُؤمِنِينَ عليه السلام فزجره. أُنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٣٠/١٠، الأعْلام للزّركلي: ٤٨/٢، بُلُوغ الأرب للآلوسي: ٢٩٩/٣، الحماسة للتبريزي: ١٨٦/١ و: ٨٥/٢.

الخطبة

-١٨٥-

الله وَمُحَمّد...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاٰ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَ لاٰ تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَ لاٰ تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَ لاٰ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَىٰ قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَ بِاَشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لاٰ شَبَهَ لَهُ. الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَ اَرْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَ قَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَ عَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ، وَ بِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَ بِمَا اَضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَىٰ دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لاٰ بِعَدَدٍ، وَ دَائِمٌ لاٰ بِأَمَدٍ، وَ قَائِمٌ لاٰ بِعَمَدٍ. تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لاٰ بِمُشَاعَرَةٍ[1]، وَ تَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لاٰ بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّىٰ لَهَا بِهَا، وَ بِهَا اَمْتَنَعَ مِنْهَا، وَ إِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ اَمْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَ لاٰ بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَ عَظُمَ سُلْطَاناً.

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَ أَمِينُهُ الرَّضِيُّ، ﷺ ـ أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَ ظُهُورِ الْفَلَجِ، وَ إِيضَاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وَ حَمَلَ عَلَىٰ الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا، وَ أَقَامَ أَعْلاٰمَ الاِهْتِدَاءِ وَ مَنَارَ الضِّيَاءِ، وَ جَعَلَ أَمْرَاسَ

الْإِسْلاَمِ مَتِينَةً، وَ عُرَىٰ الْإِيمَانِ وَثِيقَةً[٢].

اللُّغَة:

المِيعَاد: وَقت الْوَعْد، أو مَـوْضِعه. والْمُـرَاد هُـنا الْـغَايَة. والْمَـرَائِي: المَـرئِيَات والمَنظُورَات. والْفَلَجِ: الظَّفر. والْمَنْهَجِ: الطَّرِيق الوَاضح. وصَادِعاً: مُبلِّغاً. والْمَحَجَّةِ: جَادة الطَّرِيق أي وَسَطه. وأَمْرَاسَ: حِبَال. وعُرْوَة الشّيء: مَقْبِضه.

الْإِعْرَاب:

عَلَىٰ أَنْ لاٰ شَبَهَ «أَنْ» مُخففة، واسمها ضَمير الشّأن أي أنّه لاٰ شَبَهَ، ومُسْـتَشْهِدٌ خَبَراً لِمُبْتَدَأ محَذُوف أي هُو مُسْتَشْهِدٌ، وشَأْناً تَمْيِيز، ومِثلهُ «سُلْطَاناً».

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاٰ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ) أي الحَوَاس (وَ لاٰ تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ) وَهِي الأمَاكن (وَ لاٰ تَرَاهُ النَّوَاظِرُ) أي الْعُيُون، وعَطفها عَلىٰ الشُّواهد من بَـاب عَـطف الخَـاص عَـلىٰ العَـام مـثل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[١]. (وَ لاٰ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ) جَمع سَاتر، والسِّر أنّ الشَّوَاهِدُ، والْمَشَاهِدُ، والسَّـوَاتِـرُ ـ مِـن لوازم المَـرئِيَات، والمَسـمُوعات، والرَّوَائِـح، والمَـذَاقَـات والمَلمُوسات، والله مُنَزَّه عَن ذَلِكَ كلّه.

---

(١) ٱلبَقَرَة: ٩٨.

(الدَّالِّ عَلَىٰ قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَ بِٱشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لاٰ شَبَهَ لَهُ). الحَادث لا يَحمل فِي طبِيعَته السَّبب الكَافِي لوجُوده وإلّا كَان وَاجب الوجُود، وهُو خِلاف الفَرض، وإذَنْ فَلا بُدّ لوجُوده مِن سَببٍ خَارج عَن ذَاته، كمَا هُو الشّأن فِي كلِّ حَادث، وإذَا لَمْ يَكُن السَّبب المُوجِب مَوجُوداً بِنفسه ٱحتَاج إلىٰ غَيْره... ولا مَفرّ من الاِنْتهَاء إلىٰ سَببٍ ضَرُوري الوجُود يَكُون سَبب الْأَسْبَاب وإلّا بَقِي كلّ شَيء طِي الكِتْمَان. وتَقدَّم ذَلِكَ[1]. (وَ بِٱشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لاٰ شَبَهَ لَهُ). كلّ مَخلوقَات يَجمعها قَاسم مُشترك، وهُو أَنَّهَا لَمْ تكُن مِن قَبل، ثُمّ حَدثت وكَانَتْ، ويَسْتَحِيل أنْ يَكُون مُبدعها مِن نَوْعها وشَكلها، وإلّا لَزِم أنْ يَكُون الشّيء عِلَّة لِنفسه. وتَقَدَّمَت هَذِه الجُملة بحرُوفها فِي ٱلْخُطْبَة (١٥٢).

(الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ) لأنّه لا يُخلف المِيعَاد لِحُكم الْعَقْل بِقُبح الْكَذِب، والخَلف (وَ ٱرْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ) لحُكم الْعَقْل بقُبح الظُّلْم (وَ عَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ). أمضىٰ حُكمه عَلىٰ جَمِيع خَلقه بالْعَدْل إيجَاداً وتَكلِيفاً، وثُواباً وعِقاباً (مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ) كقَوْله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2]. وأشَرنا إلىٰ وَجه الاِسْتدلال فِي شَرح قَوْله: «الدَّالِّ عَلَىٰ قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ».

مَذهَب دِيكَارت:

(وَ بِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَ بِمَا ٱضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَىٰ

(١) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٥٢). (مِنْهُ ﷺ).
(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠.

دَوَامِهِ) . مَا مِن كَائن فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ـ غَيْرَ الله ـ إلّا وفِيهِ جِهة نَقص ، فالجَماد تَنقُصه ٱلْحَيَاة ، والنَّبات يَنْقُصُهُ الشُّعُور ، وٱلْحَيَوَان يَنْقُصُهُ الْعَقْل ، والْإِنْسَان يُفنىٰ ، ويَزُول ... بالإضَافَة إلىٰ أنّ كلّ مُمكن يَفْتَقِر إلىٰ سَببٍ مُوجب لتكوِينه ، ووجُوده ، وبقَائه ، وٱستمرَاره ، ويَسْتَحِيل أنْ يَكُون السَّبب الأَوَّل للإيجَاد ، والاِستمرَار نَاقصاً من الجِهات ، بل لا بُدّ أنْ يَكُون كَاملاً من كلّ وَجه ، وأنْ يَكُون كَماله ذَاتياً لا مُكتسباً ، وإلّا كَان السَّبب من نَوْع المُسبب ، ومَن البَداهة أنْ الشّيء لا يَكُون عِلّة وسَبباً لنَفسه .

ويُومىء هَذَا إلىٰ مَذْهَب الفَيْلَسُوف الفَرنسِي «دِيكَارت» الَّذي ٱستَنتَجَ مِن إدرَاكه لنفسه أنّه نَاقص ومَحدُود ، ومَعْنَىٰ هَذَا ـ عِند دِيكَارت ـ أنّ فِي ذِهنه فِكرةً سَابقة عَن الكَامِل المُطلق القَائم بذَاته ، ولَوْلا هَذِه الفِكرة لاِستحَال عَلَيْهِ أنْ يَتصُور النّاقص ، لأنّ الأَشْيَاء تَتميز بأضْدَادها ، والفِكرة عن الكَامِل لَمْ تَحدث جُزافاً ، وبلاَ سَبب ، والْإِنْسَان لَمْ يُوجدها فِي ذِهنه ، وإذَنْ فالّذي أوجدَها هُو الكَامِل بذَاته من كلّ وَجه ، أي الأَزَلِي الأبدي العَلِيم بكلِّ شَيء القَادر عَلىٰ كلِّ شيء . (وَاحِدٌ لاٰ بِعَدَدٍ) . لِلْوَحْدَةِ أَقْسَام .

مِنْهَا : الْوحْدَة بالجِنس ، والنَّوْع .

ومِنْهَا : الْوحْدَة بِالزَّمَان ، والله مُنَزَّه عن ذَلِكَ كلّه ، فهُو وَاحد بوجُوده ذَاتاً في الأَزَل والأبد ، ووَاحد فِي كَماله المُطلق من كلِّ وَجه ، ولَيس كمثلهِ شَيء ، أمّا صِّفَاته فَهِيَ بكَاملها موجُودة بوجُود واحد (وَ دَائِمٌ لاٰ بِأَمَدٍ) . لا أَمد ولا نِهاية لوجُوده ، ومن هُنا يَصح التَّعبِير عنهُ باللاَمُتناهِي (وَ قَائِمٌ لاٰ بِعَمَدٍ) أي لا سَبب لوجُوده خَارج عن ذَاته .

(تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَةٍ). الْمُرَاد بِالمُشَاعَرَة هُنا الإدرَاك المُباشر، والْمَعْنَىٰ أنّ الْعَقْل يُدرك وجُود الله بآثاره وتَوسط مَبدأ العِلّية ـ مَثلاً ـ إذَا رَأيْت إنْسَاناً يَكتب فإنّ عَقلك بوجُود الكَاتب مُعتمَداً فِي حُكمِهِ هَذَا عَلىٰ رُؤية الْبَصَر وَحدَها بلا تَوسط مُبدأ العِلّية، أو غَيْره، وتَسمىٰ هَذِه الْمَعْرِفَة بَديهية، ووجْدانية، وتَجريبية، وهَذِه الْمَعْرِفَة لا يُمكن تَصُورَها فِي حقّه تَعالىٰ.

أمّا إذَا رَأَيْت كِتَابة ولَمْ تَر الكَاتِب فإنّ عِقلك يَحكُم وبِجُوده الكَاتب مُعتمداً عَلىٰ رؤيَة الْبَصَر للكتَابة، وعَلىٰ مَبدأ العِلّية مَعاً، ولَيس عَلىٰ رؤية الْبَصَر وحدَها كَما لو رَأَيْت الكَاتب بالذّات، ومِثلهُ حُكم الْعَقْل بوجُوده تَعَالىٰ، تَرىٰ الْعَيْن الخَلق، والآثَار فِيحكُم الْعَقْلُ بوجُود الْخَالِق، والمُؤثر اَستنَاداً إلىٰ مَبدأ العِلّية. ومِن أنْكَر وجُود الله لا يَعترف بهَذا المَبدأ، ويَزعم أنْ تَتابع الحوَادث لا يَدل عَلىٰ أنّ السّابق عِلّة لِلاَحق... وجُوابنا أنّ الْعُلَمَاء كَانوا ومَا زَالوا يُلاحظون الحوَادث، ويَستنتجُون من تَكرار وجُود اللاَحق مع السَّابق والتّرابط بَيْنَهما فِي الوجُود، يَستنتجُون من ذَلِكَ قوَاعد كُلية يَنتقلون من العِلم بِها إلىٰ مَعرفة مَا كَانوا يَجهُلون، ولَوْلاَ مَبدأ العِلّية لكَان هَذَا الاِستنتَاج جَهلاً، وضِلاَلاً.

(وَ تَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لاَ بِمُحَاضَرَةٍ). الْمُرَاد بالمَرائِي، والأَشْيَاء المَرئية، وبالمحَاضرة الحضُور، والحلول، والْمَعْنَىٰ أنّ مَا تَرَاه من الكَائِنات يَدل عَلىٰ وجُود الله، ولكن وجُوده تَعَالىٰ غَيْر مُتحد مع وجُود الكَائنات، كَما يقول أَصْحَاب وَحْدَة الوجُود، بل مُستقل عَنْهَا، وأسمىٰ مِنْهَا، وأرفَع (وَ لَمْ تُحِطْبِهِ الْأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّىٰ لَهَا بِهَا). إنّ الله سُبْحَانَهُ لا يَتجلىٰ للعقُول بذَاته، بل بآثاره، فضَمِير «لَهَا» يَعُود للأَوْهَام ـ أي الْعُقُول ـ يَعُود لَهَا لفظاً ومَعْنَىً أمّا ضَمِير «بِهَا» فإنّه يَعُود للآثَار مَعْنَىً،

وللأَوْهَام لفظاً لوجود العَلاقة بَيْنَ الأثَر، والمؤثر.

(وَ بِهَا ٱمْتَنَعَ مِنْهَا). إنّ الْعُقُول نَفسها هِي الّتي حَكمت، وجَزمت بأنّ ذَاته تَعَالىٰ لا تَتجلىٰ للعقُول، وإنّ الَّذي يَتجلىٰ هو الآثَار (وَ إِلَيْهَا حَاكَمَهَا). وإنْ زَعَم ذو عَقل سَقِيم بأنّ ذَاته، تَباركت أسماؤه، تتجلىٰ للعقُول ـ حَاكمه إلىٰ ذِي عَقل سَلِيم (لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ ٱمْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَ لاٰ بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَ عَظُمَ سُلْطَاناً). الله سُبْحَانَهُ كَبِير وعَظِيم شَأناً وجَلالاً، وسُلْطَاناً وكَمالاً، لاَ طُولاً وعَرضاً، وعُمقاً وشَكلاً.

(وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَ أَمِينُهُ الرَّضِيُّ، ﷺ). ٱختَاره الله لنَفسَه، وٱرتضَاه أَميناً علىٰ وَحيه (أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ) أي أنّ الْعَقْل يَلزم بكلّ مَا جَاء بِهِ مُحَمّد ﷺ لأنّه لخَيْر الإِنْسَان جَمعَاء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. وَقَالَ الرَّسُول ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّم مَكَارِم الأَخْلاَق»[2]. (وَ ظُهُورِ الْفَلَجِ) أرسَل الله مُحَمّداً لإعلاء كَلِمة الحَقّ (وَ إِيضَاحِ الْمَنْهَجِ) وهُو الطَّرِيق الْقَوِيم السَّلِيم (فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا). مُؤدِياً لَها عَلىٰ أكمَل وَجه (وَ حَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالّاً عَلَيْهَا) شَهد التَّاريخ أنّ ٱلْمُسْلِمِينَ نَجحُوا فِي علومٍ شتىٰ، وإنّ الحضَارة الحَديثة ثَمرة مِن ثمَار علوم ٱلْمُسْلِمِينَ، والْفَضْل الأَوّل لمُحَمّد ورِسَالَة مُحَمّد ﷺ. (وَ أَقَامَ أَعْلاٰمَ

(١) الأَنْبِيَاء: ١٠٧.

(٢) أُنظر، بداية الْمُجْتَهِد: ٢/٣٢١، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ١٠/١٩٢، تُحْفَة الأَحْوذي: ٥/٤٧٠، نظم درر السّمطين: ٤٢، كنز الْعُمّال: ١١/٤٢٠ ح ٣١٩٦٩، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٥/٢٠٩، كشف الْخَفَاء: ١/٢١١ ح ٦٣٨، مَكَارِم الأَخْلاَق للطبرسي: ٨، مَكَارِم الأَخْلاَق لِابْن أَبِي الدُّنْيَا: ٦، مُسْنَد الشهاب: ٢/١٩٢ ح ١١٦٤، تكملة حاشية ردّ المحتار: ١/٢٣٤.

الاِهْتِدَاءِ وَ مَنَارَ الضِّيَاءِ) عَطف تَفْسِير عَـلىٰ «وَحَمَـلَ عَـلىٰ الْمَحَـجَّةِ دالًّا عـلَيْها» .
(وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلاٰمِ مَتِينَةً ، وَ عُرَىٰ الْإِيمَانِ وَثِيقَةً) . أَقَام مُحَـمّدﷺ دِينه عَـلىٰ أمتَن الأُصول ، وأقوىٰ الأرْكَان ، وإذا تَخلف الْمُسْلِمُون كأَكْثَر مَا يَكُون التَّخلف فإنّ العيب فِيهِمْ ، ولَيْسَ فِي دِينهم .

مَن تَفكرَ أَبْصَر...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

وَ لَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ ، وَ جَسِيمِ النِّعْمَةِ ، لَرَجَعُوا إِلَىٰ الطَّرِيقِ ، وَ خَـافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ، وَ لَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ ، وَ الْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ ! أَ لاٰ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ صَغِيرِ مَا خَلَقَ ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَ أَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ ، وَ فَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ ، وَ سَوَّىٰ لَـهُ الْعَظْمَ وَ الْبَشَرَ ! اُنْظُرُوا إِلَىٰ النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا ، وَ لَطَافَةِ هَيْئَتِهَا ، لاٰ تَكَادُ تُـنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ ، وَ لاٰ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا ، وَ صُبَّتْ عَلَىٰ رِزْقِهَا ، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَىٰ جُحْرِهَا ، وَ تُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا . تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا ، وَ فِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا ، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ ، بِوِفْقِهَا لاٰ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ ، وَ لاٰ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ ، وَ لَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ ، وَ الْحَجَرِ الْجَامِسِ[٣] ! وَ لَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْـلِهَا ، فِـي عُلْوِهَا وَ سُفْلِهَا ، وَ مَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا ، وَ مَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَ أُذُنِهَا ، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً ، وَ لَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً ! فَتَعَالَىٰ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَىٰ قَوَائِمِهَا ، وَ بَنَاهَا عَلَىٰ دَعَائِمِهَا ! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ ، وَ لَمْ يُعِنْهُ عَلَىٰ خَلْقِهَا قَادِرٌ . وَ لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاٰلَةُ إِلاّٰ عَلَىٰ أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَ غَامِضِ اخْتِلاٰفِ كُلِّ حَيٍّ . وَمَـا الْجَلِيلُ وَ اللَّطِيفُ ، وَ الثَّقِيلُ وَ الْخَفِيفُ ، وَ الْقَوِيُّ وَ الضَّعِيفُ ، فِي خَلْقِهِ إِلاّٰ سَوَاءٌ[٤] .

اللُّغَة:

الْبَصَائِرُ مَدخُولة: طَرأ عَلَيْهَا خَلل. والْبَشَرَ: جَمع بَشَرَه، وَهِي ظَاهر الجِلد. الصَّدَر ـ بفتح الدّال ـ الرُّجُوع بَعد الورُود. والوِفْق ـ بكَسر الواو ـ ما يُوافق ويُلائم. والصَّفَا: الأمْلس. والجَامِسِ: الجَامِد. والشَّرَاسِيفِ: جَمع شُرْسُوف ـ بضم الشّين ـ طَرف الضّلع اللّين المُشرف عَلىٰ الْبطْن.

الْإِعْرَاب:

كَيْفَ دبّت «كَيْفَ» فِي مَوضع الحَال، ومَكْفُولٌ بِالرَّفع خَبَر لمُبْتَدَأ محذُوف أي هِي، وبالنَّصب حَال وعَجَباً مَفعُول مِن أجله لَقَضَيْتَ، وتَعَباً مَفْعُول بـهِ لِـلَقِيتَ، وسَوَاءٌ خَبَر الجَلِيلُ ومَا بَعده.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَ جَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَىٰ الطَّرِيقِ، وَ خَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ). إذَا حَركت عَقلك نَحو الكَوْن العَجِيب، ونَظَرْت مَا فِيهِ مِن إحْكَام، وتَدبِير ـ فإنّك، لا مَحَالَةَ، تَفهم وتُدرِك من قُدرة الخَالِق مَا يَدلُّك عَلىٰ عَظَمَتِهِ، ويَملأ نَفسَك هَيْبَةً، ورهبَةً من سَطوتهِ، وحسَابهِ، وجزَائه (وَ لَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَ الْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ) لا تَرىٰ إلّا لَذّة عَاجِلة، ونَشوَة عَابِرة.

(أَلا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَ أَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ... إلخ). مَا مِن شَيء فِي الكَوْن كَبُر أمْ صَغُر إلّا وهُو آيَة عَلىٰ وجُود الله، وعَظَمَتِهِ، وإنّه وَاحد لا شَرِيك لهُ فِي خَلقهِ وصِّفَاته، وقَد ضَرب الإِمَام مَثلاً عَلىٰ عَظَمَتِهِ تَعَالىٰ بأَصْغَر

مَخلوق يَدب عَلىٰ الْأَرْضِ، وهو النَّمْلَةِ الّتي تُوجد فِي غُرفتِي وغُرفتك، وفِي رُؤُوس الْجِبَال، والحَدِيقة، والصَّحراء وغَيْرِها، وتَذهب إِلىٰ رِزقها المَكفُول لَهَا بـالسَّعي، وتَهْتَدِي إِلىٰ مكَانه الَّذي أودَعه الله فيهِ تَمَاماً كَمَا يَهْتَدِي الْإِنْسَان إِلىٰ مَحـل طـعَامه وشَرابه، تَهْتَدِي النَّمْلَةِ إِلىٰ رِزقها ببَصَرها وبَصِيرتها، أو بِغَرِيزتها أو بالإِلهَام، كـمَا نَقول نَحْنُ. كلّ ذٰلِكَ بهدَاية بَصِير قَدِير.

ومِن جُملة مَا قَرأتُ أنّ فِي بَعْض الفصُول يَكثر طعَام الأسْمَاك فِي جَانب خَاص من المُحيط الأطْلَسِي، وإنّ الأسْمَاك فِي هَذَا المُوسم تَأتِيه من كلّ جَانب، وتَقطع مِئَات الأمْيَال، وإنّ الفِيرَان تُلقِي بِنفسهَا فِي البَحر طَلباً لهَذا الرِّزْق!. وفِي كِتَاب «الظَّاهِرة الْقُرْآنِية» لمَالك بن نَبِي: إنّ النَّمْل الأمْرِيكِي يُغادر مسَاكنه قَبل اندلاَع الحَرِيق فِيها بلَيْلَة، وإنّ فِي جنُوب قَسْطَنْطِينَة نَوْع من الحَيَوَانات القَارضَة تَبرح أمْكنتهَا قَـبل الكوَارث الطَّبِيعِية، فَهل هَذَا مِن بَاب الصّدفة، أو إنّ حِكْمَةَ الله سُبْحَانَهُ أعْطَت لِهَذه المَخلوقَات وغَيْرها مَا أعْطت لِـلإنْسَان؟ (وَمَـا الْـجَلِيلُ وَ اللَّـطِيفُ ـ أي الْكَـبِير والْصَّغِير ـ وَ الثَّقِيلُ وَ الْخَفِيفُ، وَ الْقَوِيُّ وَ الضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إلاَّ سَوَاءٌ) فِي القَوَانِين الثَّابتة الرَّاسخة الّتي تَشمل، وتَعم جَمِيع الخلاَئق عَلىٰ تَباينها، واخْتلافها حَـجماً وطَبِيعة وشَكلاً، وهل مِن تَفْسِير لِهَذه الْوحْدَة إلّا بإرَادَة حَكِيمَة وَاحدة، وقُـدرة وَاحدة، وإنّ خَالِق النَّمْلَةِ هُو خَالِق النَّخْلَة، كمَا قَالَ الإمَام؟

وكَتَب أَهْل الاِخْتصَاص كَثِيراً عَن النَّمْل وتَـدبِيرها، وادّخَـارها، وتـعَاونها، ونظَامها المُحكم فِي الإقْتِصَاد، والاِجْتمَاع، وكلّها تَبعث الدّهشَة، وتَدل بوضُوع عَلىٰ إرَادَة حَكِيم قَدِير، وأعْجَب مَا فِي النَّمْل عَلىٰ الاِطلاَق مَا حكَاه سُبْحَانَهُ عَـن نَمْـلَةِ سُلَيْمَان في قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ

وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ﴾[١] ومَكَان العجب أنْ تَشفق هَذِه الذَّرَّة عَلىٰ قومها مِن بَأس الجنُود الَّذِين جَاسوا خلاَل الدِّيَار... وأنْ لا يَشعر إنْسَان عَاقل بآلاَم قَوْمه، وأنْ يَبِيعهم بِثمنٍ بَخس لعَدُوّه وعَدُوّهم يمتص دِماءهم، ويَسلب أقوَاتهم، ويَهلك الحَرث والنَّسل!.

وفِي بدَاية الخَمسِينَات مِن هَذَا القَرن آضْطَر الاِسْتعمَار بضغط من حَركات التَّحرر أنْ يَخرج بجُنُودِهِ مِن مُستعمراته، ولَكِنَّهُ بَحث عن نَوْعٍ جَدِيد من الاِسْتعمَار يكُون أَكْثَر أَمناً، وأَقَلّ كُلفَة، وآهتدىٰ إِلىٰ الخَونة من أبنَاء البِلاد، فأقَام مِنهم قوَاعد لسِيطرته، وآستغلاَله... وشَهد هَؤُلاَء المَارقُون عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ ـ بهَذه الصَّفقة الغَادرة ـ أنّهم أَصْغَر من النَّمْلَةِ، وأحْقَر.

لاَ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ...فِقْرَة ٥ ـ ٧:

وَ كَذَلِكَ السَّمَاءُ وَ الْهَوَاءُ، وَ الرِّيَاحُ وَ الْمَاءُ. فَآنْظُرْ إِلَىٰ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ، وَ النَّبَاتِ وَ الشَّجَرِ، وَ الْمَاءِ وَ الْحَجَرِ، وَ آخْتِلاَفِ هَذَا اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، وَ تَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَ كَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَ طُولِ هَذِهِ الْقِلاَلِ وَ تَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَ الْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَ جَحَدَ الْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَ لاَ لِإِخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَ لَمْ يَلْجَئُوا إِلَىٰ حُجَّةٍ فِيمَا آدَّعَوْا، وَ لاَ تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وَ هَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ[٥]!

وَ إِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَ أَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ

---

(١) آلنّمل: ١٨.

قَمْرَاوَيْنِ، وَ جَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَ فَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَ جَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَ نَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَ مِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، وَ لَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّىٰ تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَ تَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وَ خَلْقُهَا كُلُّهُ لاٰ يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً(٦).

فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي ﴿ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا ﴾[1]، وَ يُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَ وَجْهاً، وَ يُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً وَ ضَعْفاً، وَ يُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَ خَوْفاً! فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ، أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَ النَّفَسِ، وَ أَرْسَىٰ قَوَائِمَهَا عَلَىٰ النَّدَىٰ وَ الْيَبَسِ، وَ قَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَ أَحْصَىٰ أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَ هَذَا عُقَابٌ. وَ هَذَا حَمَامٌ وَ هَذَا نَعَامٌ. دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِٱسْمِهِ، وَ كَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ. وَ أَنْشَأَ ﴿ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[2] فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَ عَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَ أَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا(٧).

اللُّغَة:

الْقِلَالِ: جَمع القُلَة ـ بضم القَاف ـ الجَبَل وأعلىٰ كلّ شيء. وأَوْعَوْا: مِن الوَعِي، وهُو الحِفظ، والتَّدبّر. وقَمْرَاوَيْنِ: مُضيئِين. والسَّوِيّ: الكَامِل لا عَيب فيهِ. والمِنْجَل: آلَة مِن حَدِيد يُحصد بِها الزَّرع، والمُرَاد بِمِنْجَلَيْنِ هُنا رِجْلا الجَرَادَة لاِعْوجَاجِهما كالمِنْجَل. والنَّزَوَات: الوَثبَات. والدِّيَم: جَمع الدِّيمَة، وَهِي مَطر يَدُوم فِي سكُون بلا رَعْدٌ وبَرقٌ. والجُدُوبِ، والجَدْيب، والمِجْدَابُ: المَاحِلُ، والجَدْبُ،

(١) ٱلرَّعْد: ١٥.

(٢) ٱلرَّعْد: ١٢.

والمَحْلُ، وَالْفقْر بِمَعْنَىٰ.

الإِعْرَاب:

كَذَلِكَ خَبَر مُقَدَم، والسَّماء مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، والْقِلَالِ عَطف بَيان مِن هَذِهِ، والْوَيْلُ مُبْتَدَأ، ومَا بَعده خَبَر، يَكُونُ: تَامة، وبِنَاءٌ فَاعِل، ومِنْ غَيْرِ بَانٍ صِفة لِبَنَاء، وطَوْعَاً فِي مُوضع الحَال أي طَائِعاً، ومثلهُ سِلْماً أي مُسَالِماً، ورَهْبَةً مَفْعُول مِن أجْلِهِ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ... إلخ). كلّ ذِي بَصر، وبَصِيرة إذَا نَظَر إِلىٰ أية ظَاهرة مِن ظوَاهر الكَوْن خَشع، وآمَن بِعظمة المُبدع، والمصُور، إمّا إيمَاناً إيمَان العجَائز لا يُفلسف، ولا يَسأل إلّا قَلبه الَّذي يَشع بِٱلنُّورِ، ويَسخر من الفَيْلَسُوف والمُتفلسف فِي هذَا البَاب... وألف طُوبىٰ لِمن يَملك هَذَا الْقَلْب، وإمّا إيمَاناً قَائماً عَلىٰ أنّ الْعَقْل لا يُمكن أنْ يَتصُور هَذَا الكَوْن العَجِيب وسمائه، وقَانونه ونظَامه، دُونَ أنْ يَكُون وَرَاءه حِيٌّ قَيُوم خَلق فسوّىٰ، وقَدّر فهدىٰ.. إنّ المَادَّة صَمَّاء عَمْيَاء لا رُوح فِيها ولا شعُور، ولا أغرَاض لها ولا غَايات، ويَسْتَحِيل أنْ تَتحرك مِن غَيْر مُحرك، فكَيْفَ يُنسب إِلَيْهَا الخَلق والإِبْدَاع، والتَّنظِيم والتَّدبِير؟.

(زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلاَ لِإِخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ... إلخ). علىٰ المزَابل والقَذَارَات، وإِنَّهَا هِي خَلقت الإِنْسَان فِي أحسن تَقوِيم، وجَعَلت لهُ السَّمع والْبَصَر، والفُؤاد، وكلّ الطّاقات الّتي صَعدت بهِ إِلىٰ ٱلْقَمرِ، وفَعل بِها المُعْجِزَات!.

ولا أَدري: هَل ٱعتمدَ هَؤُلآء الزَّاعمُون عَلىٰ التَّجرِبَة والمُشاهدة، أو عَلىٰ حقَائِق

الْعَقْل ونَظرياته ؟. ورَدّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بقَوْله: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[1]. ومَا مِن أحدٍ ادعىٰ أنّه خُلق مِن غَيْر شَيء، أو قَال: أَنَا خَلقتُ نَفسِي والكَوْن، لا فَرق بَيْنَ مَن زَعمَ أنّه كالنَّبَات، وبَيْنَ من قَال: أنّه خُلق مِن غَيْر إرَادَة قَادرة ومُدبرة، وإنّه هو خَلق نَفْسَه والكَوْن بمَا فيهِ.

(وَ إِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ... إلخ). ضَرب الْإِمَام مَثلاً عَلىٰ عَظمة الله سُبْحَانَهُ بأَصْغَر مَخلوق مِن دُنْيَا الحَيَوَانات، أو الحَشرَات الّتي تَدُب عَلىٰ الأَرْضِ، وَهِي النَّمْلَةِ، ثُم ضَرب مَثلاً بأَصْغَر مَخلوق مِن دُنيَا مَا يَطِير، وهُو الجَرَادَة الّتي تُحيرُ الألبَاب بِسَمْعها، وبَصَرها، وفَمها، ونَابِيها، ورِجلِيها، وإلهَامها، وكَيْفَ يَخافها الزَّارعُون عَلىٰ زَرعِهم، وحقُولهم مع أنّ حَجمها لا يَبلُغ الاِصْبع الصَّغِيرة الدَّقِيقة... ولَو خَرجنا مِن دُنيَا مَا يَدُب عَلىٰ الأَرْضِ، ومَا يَطِير فِي الهوَاء ـ إلىٰ دُنيا مَا يَسبح فِي المَاء، ومَا فيهِ من عجَائِب، ومنهُ إلىٰ دُنيَا النَّبَات والحشَائِش، وحَجْمهَا، وأورَاقها، وَورُودها، ورِيحها، وطَعمها، ومِنْهَا إلىٰ غَيْرها مِمّا لا يَبلغه الاِحصاء ـ لو فَلعنا ذَلِكَ لاِمْتَد الحَدِيث عَنْهَا سَنوات دُونَ أنْ نَبلغ الْغَايَة ونَصل إلىٰ النّهَاية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

فَمَن الّذي خَلق فسوّىٰ وقدّر فهدىٰ ؟ المَادَّة العَمْيَاء، أو الصّدفة الهُوجَاء، أو النّشُوء والاِرْتقَاء. وإنْ قُلتَ: الأَسْبَاب الطّبِيعِية، قُلنا: إنّ الله أودَع هَذِه الأَسْبَاب

(١) الطُّور: ٣٦.
(٢) لُقْمَانَ: ٢٧.

فِي الطَّبِيعَة، وتَقَدَّم ذَلِكَ مُفصلاً.

(فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي ﴿ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[1]).

الْمُرَاد بالسّجُودِ، وتَعفِير الخـدُود هُـنا الخـضُوع، وبـالطُّوع، والكُـره، والسِّـلم، والخَوْف انقِياد الأَشْيَاء كلّها لأمرِ الله فِي شَـتىٰ الأَحْـوَال لا فِي حَـالٍ دُونَ حَـال، وقَوْله: أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ، والأَجْنَاس أي بكلِّ شَيء عِـلماً، وقَـوْله: وَأَرْسَىٰ قَوَائِمَهَا، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَنْشَأَ ٱلسَّحَابَ، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا ـ كِنَايَة عن قُدرته تَـعَالىٰ وعِلمه، وحِكمَته، أمّا ذِكر الغُرَابُ وَالعُقَابُ ـ طَائِر من الكوَاسِر ـ والحَمَامُ وَالنَّعَامُ ـ فإنَّه لمُجرد التَّمثِيل، والاِستِشْهَاد عَلىٰ الْقُدْرَة، والْحِـكْمَة الإلهِـية، والْـقَصْد الأَوَّل، والأخِير هو أنْ نَعلم ونُؤمن بأنّه لا إله إلّا الله العَزِيز الحَكِيم، والقَدِير العَلِيم.

وقُلنا فِيمَا سَبق ونُكرر أنّ مُجرد العِلم، والإِيمَان باللهِ لا يُجدي شَيْئاً إلّا مَع الْعَمَل الصَّالح، قَال الإِمَام الصَّادق عليه السلام: «الإِيمَان عَمل كلّه، والْقَوْل بَـعْض ذَلِكَ الْـعَمَل، بِفَرض من الله بَيّن في كِتَابه، واضح نُوره، ثَابتة حُجّته، يَشهد لهُ بِهِ الكِتَاب... ولا يَثبت لِلْإِنْسَان إِيمَان إلّا بالْعَمَل»[2].

---

(١) ٱلرَّعْدِ: ١٥.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٢/٣٩ ح ٧، دَعَائِم الإِسْلاَم: ١/٤، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١١/١٤٩، بِحَار الأَنْوَار: ٦٩/٢٣ ح ٦.

الخطبة

-١٨٦-

فِي صِّفَاته تَعَالىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٤:

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَ لاٰ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَ لاٰ إِيَّاهُ عَنَىٰ مَنْ شَبَّهَهُ، وَ لاٰ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لاٰ بِاَضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لاٰ بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لاٰ بِاَسْتِفَادَةٍ. لاٰ تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَ لاٰ تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَ الْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَ الاِبْتِدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاٰ مَشْعَرَ لَهُ، وَ بِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاٰ ضِدَّ لَهُ، وَ بِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاٰ قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَ الْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَ الْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَ الْحَرُورَ بِالصَّرَدِ[1] مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لاٰ يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَ لاٰ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَ إِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَ تُشِيرُ الْآلاٰتُ إِلَىٰ نَظَائِرِهَا. مَنَعَتْهَا «مُنْذُ» الْقِدْمَةَ، وَ حَمَتْهَا «قَدُ» الْأَزَلِيَّةَ، وَ جَنَّبَتْهَا «لَوْلاٰ» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّىٰ صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَ بِهَا اَمْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَ لاٰ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَ الْحَرَكَةُ، وَ كَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَ يَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَ يَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ!

إِذاً لَتفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَ لَتجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَ لاَمْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ ، وَ لَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ ، وَ لاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ . وَ إِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ ، وَ لَتحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ ، وَ خَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ(٢) . الَّذِي لاَ يَحُولُ وَ لاَ يَزُولُ ، وَ لاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ . لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً ، وَ لَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً . جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ ، وَ طَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ النِّسَاءِ . لاَ تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ ، وَ لاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ ، وَ لاَ تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ ، وَ لاَ تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ . وَ لاَ يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَ لاَ يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ . وَ لاَ تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَ الْأَيَّامُ ، وَ لاَ يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَ الظَّلاَمُ ، وَ لاَ يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَ لاَ بِالْجَوَارِحِ وَ الْأَعْضَاءِ ، وَ لاَ بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَ لاَ بِالْغَيْرِيَّةِ وَ الْأَبْعَاضِ . وَ لاَ يُقَالُ : لَهُ حَدٌّ وَ لاَ نِهَايَةٌ ، وَ لاَ انْقِطَاعٌ وَ لاَ غَايَةٌ ، وَ لاَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ(٣) . لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ ، وَ لاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ . يُخْبِرُ لاَ بِلِسَانٍ وَ لَهَوَاتٍ ، وَ يَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وَ أَدَوَاتٍ . يَقُولُ وَ لاَ يَلْفِظُ ، وَ يَحْفَظُ وَ لاَ يَتَحَفَّظُ ، وَ يُرِيدُ وَ لاَ يُضْمِرُ . يُحِبُّ وَ يَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ، وَ يُبْغِضُ وَ يَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ . يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ، لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، وَ لاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ ، وَ إِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَ مَثَّلَهُ . لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً ، وَ لَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلٰهاً ثَانِياً .

لاَ يُقَالُ : كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ ، وَ لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ فَصْلٌ ، وَ لاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَ الْمَصْنُوعُ ، وَ يَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَ الْبَدِيعُ(٤) .

اللُّغَة:

صَمَدَهُ: قَصَدَه. تَوَهَّمَهُ: تَمَثَّلَهُ. وتَرْفِدُهُ: تَعِينَهُ. الْمَشَاعِرَ: الحوَاس، وتَشْعِيرَها جَعَلها تَشعر وتَنفَعل. الحُرُورَ ـ بضم الحَاء ـ الرِّيح الحَارة. والصَّرَدِ: البَرْد. والمُتَعَادِيَات: المُتَضَادَات. المُتَدَانِيَاتِ: المُتَمَاثِلاَت. ولَهَوَاتٍ: جَمع لهَاة، وَهِي لَحمَة فِي سَقف الْفَم.

الْإِعْرَاب:

فَاعِلٌ خَبَرَ لمُبْتَدأ محَذُوف أي هُو فَاعِلٌ، ومثله مُؤَلِّفٌ، وأَنْ لاَ مَشْعَرَ أي أنّه لا مَشْعَر، و«مُنْذُ» لاِبْتدَاء الزَّمَان، و«قَدْ» للتَّقرِيب، و«لَوْلاَ» لاِمتنَاع شَيء عِند وجُود غَيْره، وكلّ كَلِمة مِن هَذِه الثّلاَث فَاعِل لِلفعل الّذي قَبله عَلىٰ الحكَاية ودَلِيلًا مَنصُوب بِنزع الخَافض أي لَتَحوّلَ إِلىٰ دَلِيل.

الْمَعْنَىٰ:

كلّ مَا ذَكَرَه الإِمَام هُنا مِن صِّفَات الله سُبْحَانَهُ، تَقَدَّم مِرَاراً بالحَرف، أو بالْمَعْنَىٰ، ولذَا نُوجز في الشَّرح مَا أمكَن (مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ). إذَا قُلتَ: كَيْفَ فُلَان؟ فإنّكَ لاَ تَسْأَل عَن ذَاته، بل عمّا يَعرض لهَا من الأَحْوَال كالعُسر واليُسر، والصّحة والسُّقم، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ الذَّات المَسْئُول عَنْهَا محَل للأحدَاث، وإنَّهَا تَتغير، وتَتبدل مِن حَالٍ إِلىٰ حَال... والله سُبْحَانَهُ وَاحد وكَامل من كلّ وَجه يَسْتَحِيل فِي حقّهِ التَّغيِير والتَّحوِيل، لأنّه فُوق الأَشْيَاء، وخَالِق الأَحْوَال والأحدَاث، قَال الرَّسُول

الكَرِيمﷺ : «الكَيْفَ مَخلوق ، والله لا يُوصف بخَلقه»[١] ، وَقَالَ الإِمَام الصَّادقعليه السلام : «مَن نَظر إِلىٰ الله كَيْفَ هُو فقَد هَلك»[٢] .

(وَ لاٰ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ) . كلّ صُورة تَرسمها فِي خَيَالِك فَهِيَ صُورة لِجسم يُرىٰ ، ويُحس وإلّا آستحَال الرَّسم والتَّشخِيص ، وهل يُوجد ظلّ وشَبح لغَيْر المَادَّة ؟ . والله سُبْحَانَهُ مُنزَّه عن ذَلِكَ . قَال المُلا صدرا : «إنْ كَان مَا تَصُورته لذَات الله مُطابقاً للوَاقع يَلزم أنْ يَكُون الله جِسماً مَحدُوداً ، وهُو مُحال ، وإنْ لَمْ يُطابق فهُو كَذب ، وسُراب»[٣] (وَ لاٰ إِيَّاهُ عَنَىٰ مَنْ شَبَّهَهُ) . لأنّه لا شَبيه لهُ ، ولاَ ضِدَّ (وَ لاٰ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ) . كلّ الإشَارَات بِشتىٰ أنواعها لا تَكُون إلّا للمَحسُوسَات ، والله فُوقها ، ومُنزَّه عَنْهَا ، وفِي كَلِمات أَهْل الْبَيْت : «إنّ أوْهَام الْعُقُول أَدَق مِن أبْصَار الْعُيُون ، وأوْهَام الْعُقُول لا تُدرِك الله فكَيْفَ بأبْصَار الْعُيُون»[٤] ؟ .

(كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ) . الْمُرَاد بِالْمَعْرُوفِ بِنَفْسِهِ المَعْلُوم بذَاته ، وحَقِيقَتَه لا بأفْعَاله ، وآثَاره ، ومن البَداهة أنّ مَعرفة الشّيء بِكُنهه ، وحَقِيقَته تَتوَقف عَلىٰ

---

(١) أُنظر ، توحيد الشّيخ الصّدوق : ٣٩٨ ، شرح أُصول الكَافِي : ١٥٩/٣ ، بصائر الدَّرجَات : ٥٢١ ح ١ ، الكَافِي : ٩٤/١ ح ٩ ، الفصول المُهمة في أُصول الأَئِمَّة للحر العاملي : ١٧٦/١ ح ١٣ ، بِحَار الأَنْوَار : ٣٣٢/٣ ح ٣٦ ، قَصَص الأَنبِيَاء للرَّاوندي : ٢٨٢ ، مَجْمَع البَحرين : ٩٠/٤ .

(٢) أُنظر ، الكَافِي : ٩٣/١ ح ٥ ، المَحَاسِن للبَرقي : ٢٣٧/١ ح ٢٠٨ ، وَسَائِل الشّيعة : ١٩٥/١٦ ح ٥ ، الفصُول المُهمة في أُصول الأَئِمَّة للحر العَاملي : ٢٥٠/١ ، بِحَار الأَنْوَار : ٢٦٤/٣ ح ٢٤ .

(٣) أُنظر ، ٱلْحِكْمَة المتَعَالِيَة (الأسفار) لصدر الدِّين مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الشّيرازي ٱلْمَعْرُوف بـ(مُلا صَدرا) ، أو صَدر المُتألهين : ٢٢٣/٦ .

(٤) أُنظر ، الكَافِي : ٩٩/١ ح ١٠ و ١١ ، أَمَالي الشّيخ الصّدوق : ٤٩٥ ، توحيد الشّيخ الصّدوق : ١١٢ ح ١١ و ١٢ ، الإِحْتِجَاج للطَّبرسي : ٢٣٨/٢ ، بِحَار الأَنْوَار : ٢٩/٤ ، مُسْنَد الإِمَام الرِّضا : ١٧/١ ح ١٠ ، مَجْمَع البَحرين للطّريحي : ٣٠٥/١ .

مَعرفَة العنَاصر الّتي تَكوّن مِنْهَا، ومَعْنىٰ هَذَا أنّ المَعرُوف بالذَّات، والْكُنه مُركب، والمُركب مُفتقر إِلىٰ أجزَائه وإِلىٰ من يُؤلف بَيْنَهَا أيضاً، فيَكُون والحَال هَذِه، مُمكن الوجُود (وَ كُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ). إذا كَان الشَّيء لا يَحمل فِي طَبيعَته سَبب وجُوده فهُو مُفتقر إِلىٰ عِلّة لأصل وجُوده وحدُوثه، ولِبقَائِه، وآستمرَاره (فَاعِلٌ لاٰ بِاضْطِرَابِ آلَةٍ) بزل بِكَلِمة «كُن».. هَذَا، إِلىٰ أنّه خَالِق الآلات، والخَالِق لا يُوصف بِخَلقه (مُقَدِّرٌ لاٰ بِجَوْلِ فِكْرَةٍ). هَذَا من بَاب السَّالِبة بإنْتفَاء المَوْضُوع، كَمَا يَقُول أَهْل المَنطق، حَيْث لا فِكر من الأَسَاس كِي يَتأمل، ويُفكر في النَّظرِيات، والتَّطبِيقات: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1].

(غَنِيٌّ لاٰ بِاسْتِفَادَةٍ) بَل بذَاته، كَمَا هُو الشَّأن فِي وَاجب الوجُود (لاٰ تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ) لأنّ الزَّمَان يَزُول، ويَتغير، والصَّاحِب مُعتبر بصَاحِبه (وَ لاٰ تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ) لأنّه غَنِيٌّ بالذَّات، وخَالِق الأدوَات، والخَالِق يُوصف بخَلقه (سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ). لأنّه قَبل كلّ شَيء بِالأَزَلِيّة، ومِنْهُ كلّ شَيء بالاِفتقَارِ، والعِلِّيَة (وَ الْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَ الاِبْتِدَاءَ أَزَلُهُ). الله هُو الْأَوَّل بالوجُوب والقِدَم، وإذَنْ فهُو مُنزَّه عَن العَدم من قَبلُ ومن بَعدُ (بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاٰ مَشْعَرَ لَهُ). خَالق الاِنْفعَال لا يَنْفَعل، لأنّ الخَالِق لا يُوصف بخَلقِهِ (وَ بِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاٰ ضِدَّ لَهُ). كلّ مَن لهُ ضِدّ يُنازعَه، ويُزاحمه فهُو مَخلوق نَاقص يَفْتَقِر إِلىٰ خَالق كَامل لا يُضَادّه، ويُزاحمه شِيء وإلّا كَان مَخلُوقاً (وَ بِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاٰ قَرِينَ لَهُ). وأيضاً من كلّ لهُ مَساوٍ، ونَظِير فِي شَيء فهُو لا يَمتاز عَن شَرِيكه فِي ذَلِكَ

(١) الأَحزَاب: ٣٨.

الشَّيء، ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّهما يَستمدَان هَذَا التَّشابه بِهِ مَصْدَر وَاحد لا شَبِيه لهُ وقَرِين.
وبِكَلِمة ثَانِيَة: إنّ الَّذي خَلق الأشبَاه، والأَضْدّاد لا شَبه له، ولا ضِدَّ، الخَـالِق لا يُوصف بِخَلقه.

(ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَ الْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَ الْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَ الْحَرُورَ بِالصَّرَدِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا) هَذِه أمثلة للمُتضَادَات، والمُتشَابهَات، وإنّه تَعَالىٰ قَد جَمع وأَلّف بَيْنَ الأَضْدّاد، وفَرّق وبَاعد بَيْنَ الأشبَاه، ذَاكَ الاتِصَال، وَهَـذَا الانْـفصَال، وهُما يَدُلان عَلىٰ قُدرته، وعَظَمَته، وإنّه فُوق الأَضْدّاد، والأشبَاه، وإنْ قَال قَائِل: إنّ حَركة المَادَّة هِي الّتي فُصِّلَتْ الشَّبِيه عَن مِثله، وجَمعت الضِّدّ إلىٰ ضِدّه قُـلنا فِي جُوابه: إنّ الله سُبْحَانَهُ هُو الَّذي خَلق المَادَّة، وأودَع فِـيها الحَـركة الّـتي تُـوصل وتَفصل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]. (لاٰ يُشْمَلُ بِحَدٍّ) أي لا يَكشف عَن ذَاتِهِ، وحَقِيقَته تَعَالىٰ أي تَعرِيف بَالِغاً مَا بَلغ من التَّـطوِيل، والتَّـفصِيل، لأنّ مـن شُرُوط الحَدّ التَّعرِيف أنْ يَكُون مُساوِيَاً للمَحدُود والمُعَرَف، وذَاته تَعَالىٰ لا أوّل لهَا ولا آخر، فكَيْفَ تُحد وتُعرف بالمَحدُود والمُباين؟.

(وَ لاٰ يُحْسَبُ بِعَدٍّ) أنّ الله وَاحد لا بِقِسْمَةٍ وكَثْرَةٍ، بـل بِـعَدم المَـثِيل، والنَّـظِير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]. (وَ إِنَّمَا تَـحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْـفُسَهَا، وَ تُشِيرُ الْآلاَتُ إِلَىٰ نَظَائِرِهَا). الْأَدَوَات، والآلاَت شَيء وَاحـد، والمُرَاد بأَنْـفُسَهَا أَجْنَاسُهَا وأَنْوَاعُها، والمَعْنَىٰ أنّ الحَوَاس تَكُون طَرِيقاً لِمعرِفة الشَّيء المَحسُوس، أمّا غَيْر المَحسُوس فَلا طَرِيق للعِلم بوجُوده إلّا العَقْل بِسبب الآثَار ومَبدأ العِلِّيَّة (نَعتُهَا

(١) ٱلفُرقَانِ: ٢.
(٢) ٱلشُّورَىٰ: ١١.

«مُنْذُ» الْقِدْمَةَ، وَ حَمَتْهَا «قَدُ» الْأَزَلِيَّةَ، وَ جَنَّبَتْهَا «لَوْلاَ» التَّكْمِلَةَ !) هَاء التَّأنيث فِي الأَفْعَال للأدوَات، والآلاَت، أو لجَمِيع المَخلوقَات بِقرِينة السِّياق، والْمَعْنَىٰ أنّ كـلّ حَادث يُقَال فِي حقّه: وجِد مُنذ كَذا، وقَد كَان بَعد أنْ لَم يَكُن، ولَوْلاَ الحدُوث مَـا سَاغ وجُود ««مُنْذُ، وقَدُ» كَمَا أنّ وجُودهما يَمنع من القِدَم، والْأَزَلِيّة، وأيضاً وجُود «لَوْلاَ» يَمنع من الكَمَال، والتَّمام. وبالتَّالِي فَلا تَجرِي فِي حقِّهِ تَعَالىٰ كَلِمَة «مُنْذُ، وقَدُ، ولَوْلاَ» بالْمَعْنَىٰ الَّذي أشرنا إِلَيْهِ.

(بِهَا تَجَلَّىٰ صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ) أي بالأدوَات، والحَوَاس، أو الخَلق والآثَار تَدرك الْعُقُول وجُود الله بضَمِيمَة مَبدأ العِلّيَة (وَ بِهَا ٱمْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ) ضَمِير «بِهَـا» يَعُود إِلىٰ الْعُقُول الّتي حَكَمَت، وجَزمت بأنّه تَعَالىٰ لا يُدرَك بالحِس، وسَبق الكلاَم عن ذَلِكَ فِي العَدِيد من الخَطب، ومِنْهَا قَوْل الإِمَام: «تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَةٍ» وقَوْله: «وَبِهَا ٱمْتَنَعَ مِنْهَا»[1].

(وَ لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَ الْحَرَكَةُ). لا يَتصف سُبْحَانَهُ بالسّكُونِ والحَـرَكَةِ لأمُور:

١ ـ (وَ كَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ). إنّه تَعَالىٰ خَالق الحَرَكَة والسُّكُـون، والْخَالِق لا يَتصف بخَلقه بِحُكم البَدِيهة.. وقَوْله: يَعُودُ... وَيَحْدُثُ... عَطف تَفْسِير عَلىٰ قَوْله: يَجْرِي عَلَيْهِ.

٢ ـ (وَإِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ) لَو جَرىٰ تَعَالىٰ عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ لكَانَتْ ذَاته مُتغيرة سَاكِنَة تَارةً، وطُوراً مُتحركة، ولا تَارَات وأطوَاراً لله سُبْحَانَهُ.

---

(١) أنظر، ٱلخُطْبَة: (١٨٥). (مِنْهُ ﷺ).

٣ ـ (وَ لَتجَزَّأَ كُنْهُهُ) أي اتصف بالحَرَكَة والسُّكُون حَقِيقَته تَعَالىٰ مُركَبَة مِنْهُمَا والمُركب مُفتقر لأجزَائه، ولفَاعِلٍ يُؤلف بَيْنَهمْ، والله غَني بالذّات وغَيْره مُفتقر إِلَيْهِ.

٤ ـ (وَ لاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ). الله قَدِيم أَزَلاً، دَائِم أَبَداً، والمُركب حَادث وجُوداً، وإلىٰ أجلٍ.

٥ ـ (وَ لَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ). المُتحرك يَنتقل مِن وَضعٍ حَاضر إِلىٰ مُسْتَقْبَل، والحَاضِر يَصِير مَاضياً، والمَاضي يُدْبر فيكُون وَرَاء، والمُسْتَقْبَل يَقتَحم فيكُون أمَاماً، والله مُنَزَّه عن الإقبَال والإدبَار، والتَّغير مِن حَالٍ إِلىٰ حَال، وعَن الجِهات، والأَوْقَات.

٦ ـ (وَ لاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ). السُّكُون نَقص لأنّه مَوْتٌ وعَدم، والحَرَكَة الْتمَاس للكمَال، والله كَامل بالذّات، وكمَاله مُطلق من كلّ وَجه (وَ إِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَ لَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ) أي أنّ السُّكُون والحَرَكَة هُما مِن العَلاَمَات الدَّالة عَلىٰ وجُود الصَّانع، والمُؤثر حَركةً وسكُوناً، ولَو اتصفَ بِهما خَالِقهما ومُوجُودهما لاَنعَكَس الأَمْر، وصَار المُؤثر أثَراً، والخَالِق مَخلوقاً، والمَدْلُول عَلَيْهِ بالآثَار دَلِيلاً (وَ خَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ). الله أجَل وأرفَع من أنْ يُؤَثّر فِيهِ، ويَفعل بِهِ غَيْرَه مَا فَعل هُو بِغَيْره، كَيْفَ؟ وهَل يَخلق الفِعْل فَاعِله، والبَنَّاء من بَنَاه؟.

(الَّذِي لاَ يَحُولُ وَ لاَ يَزُولُ، وَ لاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ). إنّه تَعَالىٰ مُنَزَّه عَن قَبُول التَّغيرَات... أَبَداً لا يَحدث فيهِ شَيء كَان مَعدُوماً، ولا يَعدم منهُ شَيء كَان مَوجُوداً... إنّه يُحيي الأموَات، ويُميت الأحيَاء، وهُو حَيّ دَائم لا يَمُوت (لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَ لَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً). لَو جَاز أنْ يَكُون سُبْحَانَهُ وَالِداً لجَاز

أيضاً أنْ يَكُون وَلَداً ، وإنْ قَال قَائل : إنّ آدمَ وَالِد لغَيره ، ولَيْس وَلَداً لأحَد ـ قُلنا فِي جَوابه : إنّ آدمَ تَوّلد من الأَرْض بقُدرة الله ، وإنْ لَم يَتوَلد بالتّنَاسُل المَعْرُوف... هَذَا ، إلىٰ أنّ آدمَ مَحدُود بِدَايَةً ونهَايَةً . تَعَالىٰ الله عَنْ ذَلِكَ عِلوّاً كَبِيراً . تَقَدَّم مِثله مَع الشَّرح مُفصلاً[1] . (جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ ، وَ طَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ) . لأنّه غَنِي بذَاته عَن كلّ شَيء .

(لاَ تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ ، وَ لاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ ... إِلىٰ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ) . ذَات الله لا تُدرَك بِحسٍ ولا بِعَقلٍ ، ويُدرك وجُوده تَعَالىٰ بمنطق الحِسّ والعَقْل مَعاً : فالأَوّل يرىٰ الخَلق والآثَار ، والثّانِي يَحكم بوجُود المُؤثر مُستند لمَبدأ العِلّيَة ، وذَاته جَلَّ وعَلا هِي قُوَّة عُليا وَرَاء الطَّبيعَة ، ولَيْسَت مِن جِنْسها فِي شَيء ، إنّهَا دَائِمَة سَرمَدِية لا بِدَايَة لهَا ولا نهَايَة ، لا يَحوِيها أو يَحملها شَيء ، بل هِي فَوق الأَشْيَاء ، ولَو حَملها أو حوَاها شَيء لمَالت بحَركَاته يمنَةً ويَسرَةً ، وعلُواً وانْخفَاضاً ، وأيضاً هِي قُوَّة عَالِمة وحَكِيمَة ، وقَادرة عَادلة ، تَفعل وتُشرّع ، وتُثِيب وتُعاقِب ، وتَسمع الشَّكوىٰ ، وتَكشفها إنْ شَاءت .

(لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ ، وَ لاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ) . إنّه تَعَالىٰ مَع الأَشْيَاء ، وغَيْر بَعِيد عَنْهَا ، لأنّه خَالقها ، ومُدبرها ، وعَالِم بأَحْوَالها ، ولأَنّهَا تَفتقر إلىٰ رَحمتِه وعنَايته ، ولَو تَخلىٰ عَنْهَا لَحظَة لَم تَكُن شَيْئَاً مَذكُوراً ، وهُو سُبْحَانَهُ بَعِيد عَن الأَشْيَاء بذَاته الغَنِية عن كلّ شَيء ، وصِّفَاته الّتي لَيسَ كَمِثْلها شَيْءٌ (يُخْبِرُ لاَ بِلِسَانٍ وَ لَهَوَاتٍ) .

غَيرُ الله يَتَكلّم بِلِسَان ، أمّا هُو ، جلَّ وعزَّ ، فَيخلق الكلاَم فِي لِسَانِ مَن ارتضىٰ

(١) أنظر ، شرح الخُطبَة : (١٨٢) . (مِنهُ ﷺ) .

من رَسُول، أو مَا شَاء من خَلقه، فالكلاَم بالنِّسبَة إِلَيْهِ تَعَالىٰ كاَلْرِّزْق من الصِّفَات الإِضَافِية لا الذَّاتِية. قَال الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه: «كَلاَم الله حَادث عِند جَمِيع الفِرق مَا خَلا جَمَاعَة من الحنَابلة»[١] فإِنَّهُم قَالُوا: «كَلاَم الله صِفَة لهُ، وكلّ مَا صِفَة له قَدِيم»[٢].

(وَ يَسْمَعُ لاٰ بِخُرُوقٍ وَ أَدَوَاتٍ) لأنّه لَيْسَ بِجسم، ومَعْنَىٰ سَمعه تَعَالىٰ عِلمه بالمَسمُوعات: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٣]. (يَقُولُ وَ لاٰ يَلْفِظُ)، بل يَخلق الكلاَم، كَمَا أشرنا (وَ يَحْفَظُ) أي يُراقب، ويُدبر (وَ لاٰ يَتَحَفَّظُ) لا يَحتَاط ويَحترس، لأنّ الحرَاسَة، والتَّحفظ مَصْدَرهُما الخَوْف.. ولا أَمن وسلاَم إلّا بالله ومن الله، وقَد وَصَف سُبْحَانَهُ نَفْسه بـ﴿ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾[٤]. (وَ يُرِيدُ وَ لاٰ يُضْمِرُ). ولمَاذا الإِضْمَار، والإِسرَار ما دَام يَقول للشَّيء كُن فيكُون (يُحِبُّ وَ يَرْضَىٰ مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَ يُبْغِضُ وَ يَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ). ومن البَداهة أنّ حُبّة تَعَالىٰ ورِضَاه هو إِنْعَامِهِ، ورَحمتَه، وإنّ بُغضَه، وغَضبه هُو عذَابه، ونقمتَه، أمّا الرّقة، والمَشَقَّة فمن صِّفَات المُمكن الحَادث، لا مِن صِّفَات الوَاجب القَدِيم.

(يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، لاٰ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَ لاٰ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ... إلخ). يُشير بهَذا إِلىٰ الآيَة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

(١) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لمُحَمّد عَبْدَه: ١٢٢/٢.

(٢) أنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٨٢/١٣، المِلل والنّحل: ٩٦/١، فَتح البَاري: ٢٩٠/١٣، مُسْنَد ابن الجَعد: ٧، الأنْسَاب للسّمعاني: ٤٦٠/٥. وتَقَدّم مِثله فِي ٱلْخُطْبَة (١٨٢).

(٣) سُورَةُ ق: ١٨.

(٤) ٱلْحَشْرِ: ٢٣.

فَيَكُونُ﴾(١) . (وَ إِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَ مَثَّلَهُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً . . إلخ) . أشرنا إِلىٰ أنّه تَعَالىٰ يَخلق الكلاَم كما يَخلق سَائر الأَشْيَاء ، ولو كَان كلاَمه صِفَةٌ ذَاتِيةٌ لهُ لكَان قَدِيماً مِثله ، ويَلزم من ذَلِكَ تعدد الآلهة (لاَ يُقَالُ : كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ . . . إلخ) . فِي كَانَ ضَمِير مُستتر يَعُود إِلَيْهِ تَعَالىٰ ، لا إِلىٰ كلاَمه ، والمعنىٰ أنّ الله هو الأَوّل بالقِدَم والأَزَلِيّة ، الآخر بالأَبدِية ، والسَّرمدِية ، ولَو كَان لهُ أوّل لكَان هُو والمَخلُوق سَواء ، لا يَمتَاز عنهُ بفَضِيلة ، ولا عَلَيْهِ مِن فَضل ، نُكرر القَوْل : إنّ الخَالِق لا يُوصف بخَلقه .

وتَسْأَل : كَيْفَ لا يُوصف الخَالِق بخَلقه مَع العِلم بأنّ الله يُوصف بالوجُود ، وكَذَلِكَ جَمِيع الكَائنَات ، وأيضاً يُوصف بالحَيَاة ، وبهَا يُوصف كلّ ذِي رُوح ، ويُوصف سُبْحَانَهُ بالعِلم ، وكَثِيراً غَيْره ؟

الجَوَاب:

إنّ صِّفَاته تَعَالىٰ تُخالِف صِّفَات المُحدثَات من وجُوه :

أوّلها : إنّ صِّفَاته أصل ، صِّفَاتها فَرع ، ورَشحة مِن فيضَه .

ثَانِيها : إنّ صِّفَاته ضَرُورِية الثُّبوت ، ومُمتنعَة الزّوال ، صِّفَاتها مُمكِنة تَحدث ، وتَزُول .

ثَالثها : إنّ جَمِيع صِّفَاته تَعَالىٰ موجُودة بوجُود وَاحد ، صِّفَاتها يَتعدد وجُودها ، وكَثرتها . رَابعها إنّ صِّفَاته لا حَدّ لهَا ، ولا نهَاية ، صِّفَاتها تَتَناهىٰ وتَقف عِند حَدّ لا

(١) سُورَةُ يس : ٨٢.

تَتجاوزه، وبِكَلمَة إنّ صِّفَات غَيْره عَدم بالنِّسبة إلىٰ صِّفَاته تَعَالىٰ، ولا جَامع بَيْنَ الاثْنَيْن إلاّ أداة التَّعبِير عَن الأصل وفرُوعه.

أَنْشَأَ الدُّنْيَا وَفَنَاؤُهَا...فِقْرَة ٥ ـ ٨:

خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَ لَمْ يَسْتَعِنْ عَلَىٰ خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَ أَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اَشْتِغَالٍ، وَ أَرْسَاهَا عَلَىٰ غَيْرِ قَرَارٍ، وَ أَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَ رَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَ حَصَّنَهَا مِنَ الْأَوَدِ وَ الاِعْوِجَاجِ، وَ مَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَ الاِنْفِرَاجِ. أَرْسَىٰ أَوْتَادَهَا، وَ ضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَ اَسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَ خَدَّ أَوْدِيَتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَ لاٰ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَ عَظَمَتِهِ، وَ هُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَ مَعْرِفَتِهِ، وَ الْعَالِي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَ عِزَّتِهِ. لاٰ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَ لاٰ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَ لاٰ يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَ لاٰ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ، وَ ذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاٰ تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَ ضَرِّهِ، وَ لاٰ كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَ لاٰ نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ. هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّىٰ يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا(٥).

وَ لَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ اَبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَ اَخْتِرَاعِهَا. وَ كَيْفَ وَ لَوِ اَجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَ بَهَائِمِهَا، وَ مَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَ سَائِمِهَا، وَ أَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَ أَجْنَاسِهَا، وَ مُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَ أَكْيَاسِهَا، عَلَىٰ إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَىٰ إِحْدَاثِهَا، وَ لاٰ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَىٰ إِيجَادِهَا، وَ لَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَ تَاهَتْ، وَ عَجَزَتْ قُوَاهَا وَ تَنَاهَتْ، وَ رَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا

مَقْهُورَةٌ ، مُقِرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا ، مُذْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا[٦] !

وَ إِنَّ اللهَ ، سُبْحَانَهُ ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاٰ شَيْءَ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا ، بِلاٰ وَقْتٍ وَ لاٰ مَكَانٍ ، وَ لاٰ حِينٍ وَ لاٰ زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ ٱلْآجَالُ وَ الْأَوْقَاتُ ، وَ زَالَتِ السِّنُونَ وَ السَّاعَاتُ . فَلاٰ شَيْءَ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ . بِلاٰ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا ، وَ بِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا ، وَ لَوْ قَدَرَتْ عَلَىٰ الامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا . لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَ لَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَ بَرَأَهُ ، وَ لَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَ لاٰ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَ نُقْصَانٍ ، وَ لاٰ لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَىٰ نِدٍّ مُكَاثِرٍ ، وَ لاٰ لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَ لاٰ لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ، وَ لاٰ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ ، وَ لاٰ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا[٧] .

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا ، لاٰ لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَ تَدْبِيرِهَا ، وَ لاٰ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ ، وَ لاٰ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ . لاٰ يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَىٰ سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا ، وَ لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَ أَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ، وَ أَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَ لاٰ ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَ لاٰ لِإنْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَىٰ حَالِ ٱسْتِئْنَاسٍ ، وَ لاٰ مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَ عَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَ ٱلْتِمَاسٍ ، وَ لاٰ مِنْ فَقْرٍ وَ حَاجَةٍ إِلَىٰ غِنىً وَ كَثْرَةٍ ، وَ لاٰ مِنْ ذُلٍّ وَ ضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَ قُدْرَةٍ[٨] .

اللُّغَة:

الْأَوَدِ : الاعْوِجَاج . وتَهَافُتِ : تَسَاقُط . وَٱنْفَرَج : ٱنْفَتَح . وأَسْدَادَ : جَمع سَدّ .

وخَدَّ: شَقّ. والمَرَاح ـ بفتح المِيم ـ مَوضع الرَّوَاح، وبضمها: مأوىٰ الإِبِل، والبَقر، والْغَنَم والمَاعز، وهُو الْمُرَاد هُنا. وسَائِمُهَا: رَاعِيها. ومُتَبَلِّدَةٍ: غَبِيَّة. وأَكْيَاس: جَمع كَيِّس ـ بتشدِيد اليَاء ـ وهُو الْعَاقِل الحَاذق. وخَاسِئَةً: ذَلِيلَة. وحَسِيرَةً: كَلِيلَة. وتَكادّ وتَتَكَاءَدْ الأَمْر: شَقَّ عَلَيْهِ. وآدَه يَؤُدْهُ: ثَقُل، ويَثقل. وبَرَأَهُ: خَلَقَه. مُثَاوِرٍ: مِن ثَاوَرَه أي وَاثَبه وهَاجَمَه.

الإِعْرَاب:

تَمْتَنِعَ مَنصُوب بأَنْ مُضمرة بَعد الفَاء، ويَصِيرَ بأَنْ مُضمرة بَعد حَتَّىٰ، وكَمَفْقُودِهَا بِمَعْنَىٰ مِثل خَبَراً ليَصِير، وبِأَعْجَبَ البَاء زَائِدَة، وأَعْجَبَ خَبَر لَيْسَ، ومَا قَدَرَتْ جوَاب لَوْ، وٱلسَّبِيل مُبْتَدأ مُؤَخَّر، وكَيْفَ خَبَر مُقَدَّم، وخَاسِئَةً حَال، مثلها حَسِيرَةً وعَارِفَةً، ووَحْدَهُ حَال، وجُملة لا شَيء معهُ بَدل مِن وَحْدَه، حَيْث أجَاز ٱبن هُشَام وغَيْره أَنْ تُبدل الجُملة من المُفرد.

الْمَعْنَىٰ:

(خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَ لَمْ يَسْتَعِنْ عَلَىٰ خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ). المِثَال هُو الشَّبِيه والنَّظِير، وكَان الله ولَم يَكُن مَعهُ شَيء، ومن ٱرَادته وحدَها نَبع الكَوْن بمَادته وصُورته، وإذَا لَم يَكُن في الوجُود مِن شَيء غَيْر الله فمن أينَ تَأْتِي العَدْوىٰ والمُحَاكَاة؟ (وَ أَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَ أَرْسَاهَا عَلَىٰ غَيْرِ قَرَارٍ... إِلىٰ وَ الانْفِرَاجِ). خَلق الله الكَوْن، وجَعل لهُ قَوَانِين دَائمة ثَابتة تَعمل عَلمها وتُؤَثر أثرَها، ومِنْهَا قَانُون الجَاذبِية الَّذي ٱكتشَفه إسحق نيُوتن، وبهَذا القَانُون

تَثبت الأَرْضِ فِي فَلكها مِن غَيْرِ دَعَائِم، وقُوائم، وبِهِ تَدُور حَوْلَ نَفْسِها وحَوْلَ الشَّمس، ولَو ٱنْحرفت عن مكَانها المُقرر وأسْرَعت أَكْثَر مِمَّا يَنْبَغِي لتطَايرَت أجزَاؤها في الهُواء، ولَو أبْطأت فِي حَرَكتها عَن المُعدل لهَلك النّاس مِن حرٍّ أو بَردٍ، كَمَا قَال أَهْل الاِخْتِصَاص، وتَقَدَّم مِثله[1].

(أَرْسَىٰ أَوْتَادَهَا) قَال سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[2]. (وَ ضَرَبَ أَسْدَادَهَا) جَمع سَدّ، وهُو الحَاجز والحَدّ بَيْنَ شيئِين.. وغَيْر بَعِيد أنْ يَكُون هَذَا إِشَارة إِلَىٰ الْحُدُود والعَلاَمَات بَيْنَ القَارَات (وَ ٱسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَ خَدَّ أَوْدِيَتَهَا). فَجّر الأَرْضِ عيُوناً، فَسَلك المَاء فِي الجدَاول والقنُوات، وتَقَدَّم مِثله[3].

(فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَ لاَ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ). خَلق كلّ شيء تَاماً فِي عَالمه، لا خَلل فِيهِ ولا فتُور: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[4]. (هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَ عَظَمَتِهِ). كلّ شَيء فِي قَبْضَته (وَ هُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَ مَعْرِفَتِهِ). أحَاط عِلماً بظَاهرها، وبَاطنها (وَ الْعَالِي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلاَلِهِ وَ عِزَّتِهِ). لا يُدَانِيه شَيء كَمالاً وجَلاَلاً، لأنّه خَالق كلّ شَيء.

(لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَ لاَ يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ... إِلَىٰ وَ ضَرِّهِ). هُو الْقَوِيّ ذَاتاً، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّة إلّا بِهِ ومِنْهُ، وكلّ شَيء خَاضع لهُ، فكَيْفَ يَفُوته ويَمْتَنِع عنهُ مَا طَلب، أو يَطلب المعُونة من معين؟. (وَ لاَ

(١) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٩١). (مِنْهُ ﷺ).
(٢) ٱلنَّبأ: ٧.
(٣) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٩١). (مِنْهُ ﷺ).
(٤) ٱلنّمل: ٨٨.

كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ ، وَ لاَ نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ) . لَو كَان فِي الوجُود إلهَان ، وعَجز كلّ مِنْهُمَا عَن الْقَضَاءِ عَلىٰ صَاحبه ـ ولَو بحَسب الإمْكَان ـ لاِنْتفَت صِفَة الألُوهِية عَنهُما مَعاً ، لمكان الْعَجْز ، وإنْ قَدر كلّ مِنْهُمَا عَلىٰ الآخر تَنَاحرا ، وانتهىٰ الأَمْر ، وكَان وجُودهُما سَبباً لعدَمهُما ، عَلىٰ حَدّ مَا قَال صَاحب «الأسفَار»[1] . (هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا ، حَتَّىٰ يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا) . يُوجدَها ثُم يُفنِيها ، ولا يَبْقىٰ إلّا وَجهَه الكَـرِيم . ومن البدَاهة إنّ الإفْنَاء أيسَر من الإيْجَاد ، والهَدم أهوَن من البنَاء ... ويَصلح هَذَا رَداً عَلىٰ من قَال : إنّ المَادَّة أزْلِية لا بِدَاية لهَا ولا نهَاية[2] .

(وَ كَيْفَ وَ لَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَ بَهَائِمِهَا ، وَ مَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَ سَائِمِهَا ... إِلىٰ إِنْشَائِهَا) . كَيْفَ يَنكر الدَّهـرِيُون والمَـادِيُون فـنَاء الكَـوْن ، وهُـم يَعْلَمُون أنّه لَو اجْتمعَت الكَائنَات الحَيّة بشتىٰ أنواعها ، من يَـعقل مِـنْهَا ، ومَـا لا يَعقل ، وحَاولت جَاهدة أنْ تُوجد بَعُوضَة عَلىٰ تَفاهتها ـ لعَجزَت خَاسِئَةً ، مُعتَرِفَةً بِعَجزِها ، وإذَنْ فإحْدَاث الشَّيء وإيجَاده أصعَب من إفْنَائه وأعْدَامه ، قَال تَـعَالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَـن يَـخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَـيْـًٔا لَّايَسْـتَنقِذُوهُ مِـنْهُ ۚ ضَـعُفَ ٱلطَّـالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[3] . (مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا) أي عن إفْنَاء جِنس البَعُوض مـن

(١) أنظر ، الحِكْمَة المتعَالِيَة (الأسفار) لصدر الدِّين مُحَمَّد بن إبْرَاهيم الشِّيرازي الْمَعْرُوف بـ(مُلا صَدرا) ، أو صَدر المُتألهين : ٢٢٥/٤ .

(٢) أنظر ، شرح أُصول الكَافِي : ٣١٣/١٠ ، القَاموس الفقهي للدّكتور سَعدي أبو حَبيب : ١٦ ، تُحْفَة الأَحْوَذي للمُباركفُوري : ٣٤٢/٩ .

(٣) الْحَجّ : ٧٣ .

الوجُود، أو إفْنَاء بَعُوضَة ٱمْتَنَعت بالهَرب، وٱخْتَفت عن ٱلْأَعْيُنِ. وتَجدُر الإِشَارَة إِلىٰ أنّ الْقُرْآن الكَرِيم أخْبَرَ مُنذ ألف وأرْبعمئة سَنَة بأنّ النّاس لا يَستَطِيعُون خَلق ذُبَابة، وقَد عَجز الْعُلَمَاء عَن ذٰلِكَ، وَهَذَا إِخْبَار بالْغَيْب، فكَيْفَ أُتِيح لُمحَمّد العِلم بِهِ إذَا لَم يَكُن وَحيّاً من الله؟.

(وَ إِنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاٰ شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا، كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا). كَان الله ولَم يَكُن معهُ شيء، ويَبْقَىٰ بَعد فنَاء كلّ شيء (بِلاٰ وَقْتٍ وَ لاٰ مَكَانٍ، وَ لاٰ حِينٍ وَ لاٰ زَمَانٍ... إلخ). المكَان جِسم، أو وَضعٌ خَاص للجِسم، والزَّمَان الْمَعْرُوف بالسِّنِين والشّهُور والْأَيَّام والسَّاعات والثَّوانِي هُو عبَارة عن دَورَان الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسها وحَوْلَ الشَّمس، وبَعد فَنَاء كلّ شيء لا أرْض ولا شَمس، ولا أجسَام وآحداث فمن يَأتِي والمكَان، والفُوق، والتَّحت، واليَمِين، والشّمَال والمَاضي، والحَاضِر؟ (فَلاٰ شَيْءَ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ) مِنْهُ تَبتدىء، وإِلَيْهِ تَنْتَهِي (بِلاٰ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَ بِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا... إلخ). هَذَا رَدّ عَلىٰ مَن قَال: «إنّ الْأَشْيَاء وجِدَت أوّل مَا وجِدت من مَادَّة لَطِيفة كَانَتْ تَملأ الكَوْن، وأسماْهَا بَعضهُم بالأثِير، وآخر بالسَّدِيم، وثَالث بحَسَب الغاز[1]. (وَ لَوْ قَدَرَتْ عَلَىٰ الاِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا) تَمَاماً كالْإِنْسَان أتىٰ إِلىٰ ٱلْحيَاة الدُّنْيَا مُرغماً، وخَرج مِنْهَا مُكرهاً.

(لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَ لَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَ بَرَأَهُ). الكَوْن بكَامله وجنَاح البَعُوضه بمَنزِلة عند الله، يَخلق هَذَا وذَاكَ بِكلمَة «كُن» فمن

(١) أنظر، الْقُرْآن وإعجَازه العِلمي لُمحَمّد إسْماْعِيل إبْرَاهِيم: ٥٩، شَرح أُصول الكَافِي: ١١٣/٤ و ٥٢١.

أين يَأتي التَّعب، واللّغب، والكُلفَة، والمَشَقَّة؟

(وَ لَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَ لاٰ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَ نُقْصَانٍ). لأنّه غَني بذَاته عمّن سِواه، ومَا خلاَه مُفتقر إِلَيْهِ ٱفتقار المُمكن للوَاجب، والمَخلُوق للخَالق (وَ لاٰ لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَىٰ نِدٍّ مُكَاثِرٍ) لأنّه لاَ نِدٌّ لهُ، والنِّد هُو المَثِيل، والمُكَاثِر المُفَاخِر بكَثرَة الْمَال والرِّجَال (وَ لاٰ لِلاِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ) لأنّه لا ضِدَّ لهُ، والضِّد هُو الخَصْم والمُخَالِف، والمُثَاوِر المُهَاجِم والمُوَاثِب (وَ لاٰ لِلاِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ) لأنّ مُلْكِهِ تَعَالىٰ تَام ولا مُوجِب إِلىٰ الزِّيَادَة، وهُو أمْرَه للشَّيء كُن فَيكُون، أو لأنّه تَعَالىٰ مَالِك ٱلْمُلْك، وكلّ مَا يُقَال لهُ «مُلْك» فهُو لهُ وحدَه، وعَلَيْهِ يَسْتَحِيل تَصور الزِّيَادَة فِي مُلْكِهِ (وَ لاٰ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ) لأنّه لا شَرِيك لهُ، والمُرَاد هُنا النَّصِيب وٱلْمُلْك (وَ لاٰ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا). المُستُوحش يَطلب الجَلِيس، والأَنِيس لحَاجتِهِ إِلَيْهِ، والله غَني بذَاته عَن كلّ شَيء. وتَقَدَّم مِثله[1].

(ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاٰ لِسَأمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَ تَدْبِيرِهَا... إلخ). ضَمِير التَّأنِيث فِي تَكْوِينِهَا، وفِي الْكَلِمَات السَّابقة، يَعُود إِلىٰ الدُّنْيَا. لقَد خَلَق سُبْحَانَهُ الدُّنْيَا بقُدرتهِ، وأتقَن كلّ شَيء بحِكمَته، ودبَرَهُ بِلُطفه، لا لحَاجة منهُ إِلَيْهِ، بل إظهَاراً لعَظَمَتِهِ، وكَمَاله، أو كَذَلِكَ ولأشْيَاء أُخر هُو بِها أَدرىٰ وأعْلَم، ثُم يَفني الدُّنْيَا لاٰ لِسَأَمٍ ومَلَلٍ، بل لأنّ الهَدف المَقصُود من وجُودها قَد حَصل وتَحَقَق، ثُمّ يُعِيد الخَلق من جَدِيد لِيجزِي الَّذين أحْسَنوا بالحُسنىٰ، والَّذين أسَاءوا بمَا عَملُوا.

وتَسْأَل: لقَد أطَال الإِمَام فِي نَفي صِّفَات المَخلُوق عَنهُ تَعَالىٰ، كَالإيحَاش

---

(١) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١ و ١٠٩). (مِنْهُ ﷺ).

والاِسْتِينَاس، والتَّعب والرَّاحة، وَالْفَقْر والْجَـهْل... إلخ، مَـع أنّ الأَمْـر وَاضـح لا يَحتَاج إلىٰ تَطوِيل وتَفصِيل، ويَكفِي الْقَوْل: الْخَالِق لا يُوصف بخَلقه... والْـعَقْل لا يَدرك إلّا المحدُود والمخلُوق.

الجَوَاب:

لا يَحِقّ لأحد أنْ يُفسر أي قُول، أو فعل بمَعزل عن أوضَاع القَـائل والفَـاعِل، وعَن الظّرُوف الّتي كَانَتْ تُحيط بهِ، وتَدفَعه إلىٰ الْقَوْل والفِعْل. ومن الجَائز أنّ بَعْض مَن خَاطبهُم الإِمَام بكلاَمه هَذَا كَان يُوسوس لهُم الشَّيْطَان بهَذه الخَطَرَات، فدَعَت الْحَاجَة إلىٰ التّكرَار والتَّأكِيد، والتَّنزِيه عمّا تَناله الأوْهَـام. وَوَرَد أنّ رَجُـلاً قَـال للإِمَام الصَّادق عليه السلام: «مِن النَّاس مَن يَقُول: إنّ الله جِسم، ومِنهُم مَـن يَـقول: إنّـه صُورَة»[1].

(١) أُنظر، الكَافي: ١/١٠٤ ح ١ و٦، شَرح أصول الكَافي: ٣/٢٣٠، أمَالي الصَّدوق: ٣٥٢ ح ٣، تَوحِيد الصَّدوق: ١٠٤ ح ٢٠، بحَار الأنْوَار: ٣/٢٩١ ح ١٠، الطَّرَائف لابن طاووس الحَسني: ٣٠٩.

الخطبة

-١٨٧-

حُكْم الصِّغَار:

أَلاَ بِأَبِي وَ أُمِّي ، هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَ فِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ . أَلاَ فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ ، وَ انْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ ، وَ اسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ . ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ . ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي . ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَ النَّعِيمِ ، وَ تَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ ، وَ تَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ . ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلاَءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ . مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ ، وَ أَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، وَ لاَ تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ . وَ لاَ تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ ، وَ أَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا ، وَ خَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا : فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ ، وَ يَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ .

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا . فَاسْمَعُوا أَيُّهَا

النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

اللُّغَة:

العِدَّة ـ بكسر الْعَيْن ـ الْجَمَاعَة، وبضمها الاِسْتعدَاد. والصِّغَار: لا دِين لهُم ولا شَأن. والْقَتَبُ: مَا يُوضع عَلىٰ ظَهر الْجَمَل كَالسَّرج. والغَارِبُ: مَا بَيْنَ العُنق والسَّنام. والأَزِمَّة: جَمع زِمَام، وهو المِقوَد. الغِبُّ ـ بكَسر الغِين ـ الْعَاقِبَة. وفَوْرِ النَّار: لَهَبِهَا. وَأَمِيطُوا: تَنَحُوا. وعَنْ سَنَنِهَا: عَن طَرِيقهَا: وَلَجَهَا: دَخَلهَا.

الإِعْرَاب:

بِأَبِي مُتَعَلِّق بمحذُوف أي أَفدِي بِأَبِي وأُمّي، وهُمْ مُبْتَدَأ أوّل، وأَسْمَاؤُهُمْ مُبْتَدَأ ثَانٍ، ومَعْرِفَةِ مجهُولة خَبَرَ الثَّانِي، والجُملة خَبَرَ الأَوَّل، واشتَبه من قَال: بِأَبِي خَبَر مَقدم وهُمْ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، لأنّ «هُمْ» ومَا بَعدها كلاَم مُستأنف، كَأَنّ سَائلاً قَال: مَن هُمْ الَّذِين تَفدِيهُم؟ فأَجَاب «هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ.. إلخ». ومَا أطول «مَا» مُبْتَدَأ بِمَعْنَىٰ شَيء، وأَطُول فَعل مَاضٍ للتَّعجب وفَاعِله مُستتر، وَهَذَا مَفْعُول والعَنَاء عَطف بيَان مِن هَذَا، والجُملة خَبَر، وفِيها مَعْنَىٰ التَّعجب.

الْمَعْنَىٰ:

(أَلاَ بِأَبِي وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ). يُشِير بهَذا إلىٰ زُمرَة من أَهْل الله يَأتُون من بَعده، هُم دَرجَات عِند رَبّهم

وَمَغفرَة، أمّا عِند النّاس فهَم مِن المَنْسيين لا لشَيء إلّا لأنّهم يَتّقُون الله، وبأمْرِه يَعملُون (إلّا فتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَ آنْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ، وَ سْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ). وأَنْتُم الآن فِي ظلّ حَاكُم يَسُوسِكُم بالحَقِّ، والْعَدْل، ويَحمل همُومكُم، وآلاَمكُم، ويُؤْثركُم عَلىٰ نَفْسهِ، وذَوِيه، وسُوف يَتَوَلَّىٰ أمرَكُم من بَعده ظَلُوم غَشُوم، لا يَرىٰ إلّا همُومه ونَفْسه، وإلّا إذلاَلكُم وآسْتعبَادكُم.

(ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ... إلخ). تَنْسَد أبواب آلرِّزْق، ومسَالِكه إلّا عَلىٰ الخَوَنة، والقَراصنة، ولا يَجد الحرّ الأَمِين للعِيش: ويكُون ضَربه بالسِّيوف وطَعنَه بالرِّمَاح أهوَن عَلَيْهِ وأيسَر من الحصُول عَلىٰ لُقمَة الحلاَل (ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَىٰ ـ آسم مَفْعُول ـ أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي ـ آسم فَاعِل ـ)، أي يَأتِي زَمَان يكُون الْمُؤْمِن المُخلص الَّذي يَأخذ الصَّدَقَة أفضل عِند الله من مُعطِيها... وأطَال الشَّارحُون[1] فِي تَأْوِيل هَذَا الكلاَم وتُوجِيهه بمَا يَتفق مَع مَا هُو الْمَعْرُوف مِن «أنّ اليَد العُليا خَيْرٌ مِن اليَد السُّفْلَىٰ»[2]. ولكِنَّهُم لَمْ يَأتوا بشَيء ـ كمَا نَظن ـ والَّذي نَرَاه أنّ كلّ مَن يَجد الْعَمَل السَّائغ ولا يَعمَل، ويَعِيش عَالة عَلىٰ غَيْره فهُو من الَّذِين لا شَأن لَهُم عِند الله، والنّاس، والنَّمْلَة الكَادِحة خَيْرٌ منهُ. أمّا مَن يَأنف مِن الأخْذ، ويَأبىٰ بِطبعِه أنْ يَكُون كَلاًّ عَلىٰ غَيْره، وفِي الوقت نَفْسَه

(١) أنظر، شَرح نَهج آلبَلاَغَة لعَبْده: ٢/١٢٦، شَرح نَهج آلبلاَغَة للبحرَاني: ٤/١٨٢، مِنْهَاج البَرَاعة: ١١/١٤١، مُنْتَخَب الأثر: ٣١٤ ح ٣، شَرح نَهج آلبَلاَغَة لابْن أبِي آلحَدِيد: ١٣/٩٥.

(٢) أنظر، سُنَن أبي داود: ١/٣٧٢ ح ١٦٤٨، الكَافِي: ٤/١١ ح ٤، سُنَن التِّرمذي: ٢/٩٥ ح ٦٧٥، وَسَائِل الشِّيعة: ٩/٣٧٨ ح (١٢٢٨٣) ٤، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢/١١٧، المجَازات النَّبويّة: ٣٥ ح ١٧، المُوطأ: ٢/٩٩٨ ح ٨، من لا يَحضره الفَقِيه: ٤/٣٧٦ ح ٥٧٦٣، المجمُوع: ٦/٢٤٥، مُسْنَد أحمد: ٢/٤، صَحِيح مُسْلِم: ٣/٩٤، سُبل السّلام: ٢/٢٤١ و: ٣/٢٢٣ ح ٨.

يَتورع عن الحرَام بشتىٰ أنوَاعه، ويَبحث عن الحَلاَل والعِيش بكَدّ اليَمِين، ولكن لا يَجد ٱلسَّبِيل إِلَيْهِ، فيضطَر مُكرهاً لأخذ الصَّدقَات لا مُختاراً ـ أمّا هَـذَا الشَّرِيـف المُتعفف فهُو أعظم أجراً عِند الله مِمَّنْ يَتصدق، لأنّ الظّرُوف أرْغمتهُ عَلىٰ تَقَبُل الذّل والعِيش عَلىٰ أوسَاخ النّاس، فِيعُوضَه الله سُبْحَانَهُ عَن ذَلِكَ بالأجر العَظِيم.

(ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِـنَ النِّـعْمَةِ وَ النَّـعِيمِ). يُـرِيد بهَـذا المُتَرَفِين ورِجَال المَال، وحُكام الجَوْر وأذْنَابهم بدَلِيل كَلِمَة «النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ».

(وَ تَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ، وَ تَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ). قَد يَجُوز الْكَذِب مَع التُّورِيَة لدَفع الضَّرر... حَتّىٰ اليَمِين الكَاذِبة تُسوغ وتَحل لنجَاة نَفْس مُحـترمة مِـن الهَلاَك، وخلاصها من طَاغية شَرِيطة أنْ يَنحصر سَبِيل نجَاته بهَذه اليَمِـين... أمّـا الْكَذِب تَملقاً ورِيَاءً لا لِشيء إلّا للرِّبح وجَلب المَنْفَعَة فهُو من أكْبَر الكَبَائر (ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ). قِيل: أنّ هَذِه الجُـمَلة لا صِـلة بمَـا قَبْلَهَا، وإنّ الشَّرِيف الرَّضِي ٱقتطعَها من كـلاَمٍ آخـر، وحَـشَرها هُـنا، كـمَا هِـي عَادته... ولَيْس هَذَا ببعِيد، وعَلىٰ أية حَال فالْمَعْنَىٰ مِنْهَا أنّ شِيعَة الإمَام عليه السلام سُوف يُلاقُون بَعده الشَّدَائِد، ولا يَعرفُون وَجه الخَلاَص، وقَد حَدث ذَلِكَ بالفِعْل.

(مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَ أَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!). يُشِير بالْعَنَاء إِلىٰ فَسَاد الأَوْضَاع من بَعده، وإنَّها تَنتَقل مِن سَيء إِلىٰ أسوَأ (أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الأَزِمَّةَ الَّـتِي تَـحْمِلُ ظُهُورُهَا الأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَ لاَ تَصَدَّعُوا عَلَىٰ سُلْطَانِكُمْ). المُرَاد بـالأَزِمَّة هُـنا الآرَاء الفَاسدة، والضَّمِير فِي ظهُورها يَعُود الأَزِمَّة، ومِنْ أَيْدِيكُمْ مُتعَلِّق بأَلْـقُوا، والْمَعْنَىٰ أنّ الآرَاء الفَاسدة تَحمل الكَثِير مِن الذّنُوب والخطَايا، وتَترك أسوَأ الأثَر، فَيَجب تَركها وعَدَم الْعَمَل بِها، ثُم أَمر أَصْحَابه بوَحْدَة الصّفُوف، وطَاعة السُّلْطَان،

ويَعنِي بهِ نَفْسَه (فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ) أي إذَا ٱتْبعتُم الآرَاء الفَاسدة، وتَفَرقتُم عَـن إمَامكُم ـ ظَهر عَلَيْكُم عَدُوّكُم، وكَانَتْ الْعَاقِبَة لهُ عَلَيْكُم (وَ لاَ تَقْتَحِمُوا مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَ أَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَ خَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا... إلخ). ٱبْتَعدُوا عَن الخِلاَفَات، والمُشَاحنَات، فإِنَّهَا تَكوِي بنَارها الأخْيَار، ولا يَستَفِيد مِـنْهَا إلاّ الانْتِهَازيُون الأشرَار.

(إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَـجَهَا... إلخ). المُرَاد بالظُّلْمَةِ الْفَسَاد والضَّلال، وبالسِّرَاج الْهُدَىٰ والصَّلاَح، والإِمَام عَلَم الْهُدَىٰ، والحَقّ، مَنار الْخَيْر والْعَدْل، من ٱسترَشَد بهِ فهُو المُهتدِي، ومَن ضَلّ عَن سَبِيله فهُو مِن الخَاسرِين.

الخطبة

-١٨٨-

كَيْفَ بِالْمَوْت وَاعِظاً:

أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَىٰ اللهِ وَ كَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَىٰ آلائِهِ إِلَيْكُمْ، وَ نَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَ بَلائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَ تَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَ تَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

وَ أُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَ إِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَ كَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَ طَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَىٰ وَاعِظاً بِمَوْتَىٰ عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبينَ، وَ أُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَ كَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَ أَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَ اشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَ أَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً، وَ لاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً. أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَ وَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ. فَسَابِقُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ إِلَىٰ مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَ الَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَ دُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَ اسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَ الْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَ أَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَ

أَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَ أَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

اللُّغَة:

الْبَلاَءُ: الاِخْتِبَار بالخَيْرِ والشَّرِّ، قَال تَعَالَىٰ: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (١). والْمُرَاد بِهِ هُنا الْبَلاَءُ بالخَيْرِ. وأَعْوَرْتُمْ: أظْهَرْتُمْ عورَاتكُمْ فِي عِيُوبكُم. وأَوْحَشُوا المكَان: هَجَرُوه. وأَوْطَنُوه: سَكَنُوه واتَّخَذُوه وَطَناً.

الإِعْرَاب:

كَمْ خَبرِية، وتَمْيِيزها محذوف أي كَمْ مَرّة، ومحلها الرّفع بالاِبْتِدَاء، والجُملة خَصَّكُمْ خَبَر، وَطَمَعُكُمْ عَطف غَفْلَتُكُمْ، وَكَفَىٰ فِعل مَاضٍ، ووَاعِظاً تَمْيِيز، ومَوْتَىٰ فَاعِل، والبَاء زَائِدَة، وغَيْرَ رَاكِبِينَ حَال من فَاعِل حُمِلُوا، ومثلهُ غَيْرَ نَازِلِينَ، ومِنَ الْيَوْمِ مُتَعَلِّق بقَرِيبٌ.

الْمَعْنَىٰ:

(أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَىٰ اللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَىٰ آلاَئِهِ إِلَيْكُمْ... إِلَىٰ فَأَمْهَلَكُمْ!). أَطِيعُوا الله واَحْمَدُوه، لأنّه أَحسَن وأكرَم، لقَد عَصِيتمُوه فِي الْخَفَاء فَسَتَرَ وأَمْهَل رَحْمَةً منهُ وتفضُّلاً، فتَدَاركُوا ذنُوبكُم بالتَّوْبَةِ، كَمَا تَدَارككُم هُو بالرَّحْمَة (وَ أُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ) لأنّ مَن ذَكَرَه واَرتَقَبه سَارع إِلَىٰ قَبل فُوات الأَوَان (وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَ طَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ!). لا مَفرّ

---

(١) ٱلْأَعْرَاف: ١٦٨.

من الْمَوْت، وأيضاً لا تَعجِيل أو تَأجِيل لأمَده، فكَيْفَ تَغفلُون عنهُ، ولا تُعدُون لهُ عُدَته ؟.

(فَكَفَىٰ وَاعِظاً بِمَوْتَىٰ عَايَنْتُمُوهُمْ) إنّ مَصِيركُم هُو مَصِير مَن رَأيتُم مِن الأموَات، والْعَاقِل مَن اتعظ بغيره قَبل أنْ يُوعظ بِهِ (حُمِلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ). أُرْكِبُوا الأعْوَاد، ولَمْ يَركبُوها مُختارِين، وأُنْزِلُوا فِي الْقُبُور، ولَم يُنزِلوا مُريدِين (فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً... إِلَىٰ فَصَرَعَتْهُمْ). انْصَرَفُوا إِلىٰ الدُّنْيَا بكلّ مَا لديهم من طَاقة، فَبنُوا وشيَّدُوا، وزَرَعُوا وأتقنُوا، أمّا الآخِرَة فكأَنَّهَا لَم تكُن، وسُرعَان مَا انتَقلوا مِن تِلكَ العَامرة إِلىٰ هَذِه الخرَاب اليبَاب خَالدِّين فِيها لا يَملكُون كَشف الضُّر عَنهُم، ولا تَحوِيلاً.

(فَسَابِقُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ إِلَىٰ مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا). اعْمَلُوا لِلآخِرَة فأَنَّهَا خَيْرٌ وأبقىٰ (وَ الَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا). رَغبُوا فِي الْجَنَّة، ولكن بِلا عَمل، وطَلبُوا الْمَغْفِرَة، ولكن بَلا تُوبَة (وَ اسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَ الْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ... إلخ). وتَمَام النِّعَم بدُوَامها، ولا تَدُوم إلّا بالشُّكْر، والصَّبر عَلىٰ طَاعة الله، والبُعد عن المَعْصِيَة.. والجَزَاء آتٍ لا مَحَالَة، وكلّ آتٍ قرِيب، وإنْ طَال الزَّمن، لأنّ السَّاعة جُزء من اليَوْم، واليَوْم جُزء من الشَّهْرِ، والشَّهْرِ جُزء من السَّنَةِ، وَهِي جُزء من السِّنِين. قَال الشَّيخ مُحَمّد عَبْدَه: «ابتدَأ الإمَام بالصَّغِير الَّذي يَنتهِي سَرِيعاً، وانتهَاؤه يَستُوجب انتهَاء الْكَبِير، وهَكذا حَتَّىٰ يَكُون انتهَاء الأَكْبَر لاَزماً... وهو كلاَم بَالغ الْغَايَة فِي المَوْعِظَة»[1].

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة لعَبْدَه: ٢/١٣٠، شَرح نَهج البَلاَغَة لإبن أبي الحَدِيد: ١٣/٩٩.

الخطبة

-١٨٩-

فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ:

فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ، وَ مِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَّ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَ الصُّدُورِ، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْلُومٍ﴾[1]. فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ.

وَ الْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَىٰ حَدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ للهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْإِمَّةِ وَ مُعْلِنِهَا. لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَ أَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَ لَا يَقَعُ اسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَىٰ مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَ وَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَ لَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَ أَحْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ

---

(١) مأخوذ مِن قَوله تَعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. المُرسَلات: ٢٢.

الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وَ تَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا.

اللُّغَة:

عَوَارِيَّ: جَمع عَارِيَة. فَقِفُوهُ: أَوْقِفُوا الحُكم عَلَيْهِ. وأُسْتَسِرّ الْأَمْـر إِذَا كَـتَمَهُ. والإِمَّةِ ـ بكسر الهَمزة ـ الحَالة. والْمُرَاد بِاللَّأحْلَامِ هُـنا الْـعُقُول. وشْـغَرَ بِـرِجْلِه: رَفْعَها. والخِطَامِ ـ بكسر الخَاء ـ مِقوَد البَعِير، والخَطم: الْأَنْف ومَا يَلِيه.

الإِعْرَاب:

مِنَ الْإِيمَانِ خَبَرَ مُقَدَّم، ومَا يَكُونُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، ومُسْتَقِرّاً صِفَة مُؤكدة لـ«ثَابِتاً» وحَاجَةٌ آسم كَان، ومِنْ مُسْتَسِرّ «مِنْ» بيَانِية، ويجُوز أَنْ تكُون زَائِدَة لوقُوعها بَعد النَّفِي، ومُسْتَسِرٌ وَمُعْلِنِ بَدل مُفصل من مُجمل، والمُبدل منهُ أَهْل الأَرْضِ.

الْإِيمَان:

يَطلق الْقُرْآن كَلِمَة الْإِيمَان عَلىٰ مُجرد التَّصدِيق بأي شَيء، قَال تَعَالىٰ حِكَايَة عن أُخوَة يُوسُفَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾[1] أي بِمُصَدق لنَا، وأيـضاً يَطلقها الْقُرْآن عَلىٰ مَن نَطق بِكَلمتِي الشَّهادَة، كَما فِي الآيَة: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[2]. وأوضَح مَن هَذِه الآيَة قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَلَاتَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰ

(١) يُوسُفَ: ١٧.

(٢) ٱلنِّسَاء: ٩٢.

إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[1].

قَال المُفسرُون: نَزَلت هَذِه الآيَة فِي بَعْض الصَّحَابَة الَّـذِين قَـتلُوا رَجُـلاً نَـطَق بِكَلِمة الإِسْلاَم ظَنّاً مِنهُم أنّه قَالها لِينجُو مِن القَتْل[2]... ولكن الغَرض الأَوَّل مـن إطلاَق كَلِمَة الإِيمَان عَلىٰ هَذَا وأمثَاله هُو مُجرد البَيَان بأنّ أَحكَـام الإيمَـان تَجـري عَلَيْهِ، كصِيَانَة دَمَه، وتَزوِيجه، وتُورِيثه.

أمّا الإِيمَان حقّاً ووَاقعاً فلاَ بُدّ فيهِ من العَمَل، كـمَا في الآيَـة: ﴿ٱلَّـذِينَ يُـقِيمُونَ

(١) ٱلنِّسَاء: ٩٤.

(٢) ٱختلف أَصْحَاب التَّفْسِير فِيمَن نَزَلت هَذِه الآيَة الكَرِيمَة، ومَن هُو القَاتل ومَن هُو المَقتُول. فيُقَال: إنّهَا نَزَلت فِي أُسامة بن زَيد حِين بَعثه رَسُول الله ﷺ، إلىٰ أرْض غَطفَان، ولَمْ يَكُن بالمُؤمر عَلىٰ السَّرِيَّة. فَبلغ غطفَان خَبَرَهم فهَربوا، وتَخلف رَجُل من غطفَان يُقَال له مرداس بن نهيك. فلمّا رآهم خَافهم، وألجأ غَنمه إلىٰ كَهف فِي الجَبل، ثُمّ ٱستقبلهُم فسلم عَلَيْهِمْ وشَهد بشهَادة الحَقّ. فحَمل عَلَيْهِ أُسامة فطعَنه وأخَذ ماله. فنَزل جِبْرِيل ﷺ، فأخبَر النَّبيّ ﷺ، خَبَره. فلمّا قَدموا عَلىٰ النَّبيّ ﷺ، جَعل صَاحب السَّرِيَّة يُثني عَلىٰ أُسامه وَرَسُول الله ﷺ، مُعرض حَتّىٰ إذَا فَرغ الرَّجُل، قَال لهُ النَّبيّ ﷺ: (يَا أُسامة! قَال الرَّجُل لا إله إلا الله فقتله كَيف لكَ بلا إله إلا الله فقَال: يَارَسُول الله، إنّمَا قَالها تعوذاً منّا، قالها بلسَانه، ولَمْ يَكُن لهَا حقيقَة فِي قَلبه، فقَال لهُ النَّبيّ ﷺ، أفلا شَقَقت عَن قَلبه، فنَظَرت مَا فِيهِ، فقَال: إنّمَا قَلبه بضعَة مِن جَسَده، فـقَال رَسُول الله ﷺ، إنّمَا أُمرت أنْ أُقاتل النَّاس حَتّىٰ يقُولوا لا إله إلا الله، فإذَا قَالوها حَرمت عـليّ دمَاؤهم وأَمْوَالهُم وحسَابهم إلىٰ الله). وقيل: غيْر ذَلِكَ وٱسم الرَّجُل الَّذي قُتل هو عَامر بن الأضبط الأشـجعي، وقيل: الَّذي قَتله محلم بن جثامة. أُنظر، تَفْسِير الفَـخر الرَّازي: ١١/٣، مُسْـتَدرَك الوَسَـائِل: ١٦/٧٩، الكشَـاف للزَّمَخشري: ١/٥٥١، تَفْسِير القُمي: ١/١٤٨، تَفْسِير ٱبن كَثِير: ١/٨٥١، التِّبيَان: ٣/٢٩٦، الأَحْكَام ليحيىٰ بن الحُسَيْن: ٢/٢٨٨، دَعَائِم الإِسْلاَم: ٢/٩٧ ح ٣٠٣، صَحِيح البُـخَاريّ: ٥/١٨٢، صَحِيح التِّرمِذي: ٤/٣٠٧ ح ٥٠٢١، سُنَن أَبِي داود: ٢/٢٤٤ ح ٣٩٧٤، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٩/١١٥، مَجْمَع الزّوَائد: ٧/٨، فتح البَاري: ٨/١٩٤، أسباب نزول الآيات للوَاحدي: ١١٥، المُصَنَّف لاِبْن أَبِي شـيبة: ٦/٥٧٧ ح ٩، الإِصَابَة: ٦/٦٠، أُسـد الغَـابَة: ٤/٢٠٨، تَأرِيخ دمشـق: ٢٧/٣٣٤ و: ٦٠/١٧٢، الدُّر المنثُور: ٢/٢٠٠، تَفْسِير القُرطُبي: ٥/٣٣٨، زَاد المَسِير لاِبْن الجَوْزي: ٢/١٧٤.

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(١).

وَقَالَ الْإِمَام الصَّادِق عليه السلام: «الْإِيمَان عَمل كلّه»(٢).

ومن تَتبَّع كُتب التَّأرِيخ وعِلم الكـلاَم ـ يَجـد أنّ كَـلمَة مُـؤمن مَـرّت بأطـوَار عَدِيدة.. كَانَتْ تُطلق فِي صَدر الْإِسْلاَم عَلىٰ كلّ مُسْلِم، وبصُورة خَاصَّة فِي قِبَال الْمُنَافِق، ولا يَرىٰ الْخَوَارِج(٣) فرقاً بَيْنَ الْإِسْلاَم، والْإِيمَان حَيْث قَالُوا: من ٱرتكب

(١) ٱلأَنفَال: ٤.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٣٨/٢ ح ٧، دَعَـائِم الإِسْـلاَم: ٤/١، شَرح أُصـول الكَـافِي: ١٠١/٨، وسَـائِل الشّـيعة: ١٢٤/١١، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ١٤٩/١١، بحَار الأَنوَار: ٢٣/٦٩ ح ٦.

(٣) الخَوَارِج قَوْم خَرجوا عَلىٰ الإِمَام عليّ عليه السلام في وَقْعَة صِفِّين. لكن رَغم ذَلِكَ ٱختلف المُـؤرخـون فِي تَـعيِين خرُوجهم، فيرىٰ بَعْض: أنّ ذَلِكَ كَان عند قَبُول الإِمَامِ عليّ عليه السلام أمر التّحكيم.

أُنظر، تلبيس إِبْلِيس: ٩٦.

وذَهب فرِيق آخر: أنّ خرُوجهم كَانَ بعد التّحكيم.

أُنظر، بَيَان الأَدْيَان: ٤٨، تلبيس إِبْلِيس: ٩٠، الفصل لِابْن حزم: ١٥٧/٤، المـلل والنّحل: ٢١/١، شرح العَقِيدَة الطّحاوية: ٤٧٢، البداية والنهاية: ١٨٩/٧، الدَّلِيل لأَهْل العَقْل للورجلاني: ١٥.

ويرىٰ فريق ثالث: أنّ بداية خرُوجهم قَد برز أَيَّام الرَّسُول صلى الله عليه وآله عندما مَرّ علىٰ النَّبيّ صلى الله عليه وآله ذُو الثّدية ـ وهو يُقسم الغنائم ببَدْر ـ فَقَالَ له: أعدل يا محمّد! فَقَالَ صلى الله عليه وآله: خِبتَ وخَسِرت...

التّبصِير فِي الدِّين: ٢٩، صَحِيح البُخَارِيّ: ٥٢/٨، صَحِيح مُسْلِم: ١١٠/٣.

ولَسْنَا بصدد دراسة الخَوَارِج. ولكن مايهمنا هو رأي الفرق الّتي غالت فِي هَذِهِ الحركة، وخرجت عن نطَاق دَائرة الإِسْلاَم. والشّهرستانيّ يَقول: إنّ الخَوَارِج ٱنقسمُوا إلىٰ ثمَان فِرق وهم:

١ ـ المحكّمة الأُولىٰ: وهم الّذين خرجوا علىٰ عليّ أَمِيرالمُؤْمِنِينَ عليه السلام، حين أجرىٰ أمر المحكمين.

٢ ـ الأزارقة: وهم أتباع نافع بن الأزرق.

٣ ـ النّجدات: وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفيّ.

٤ ـ العجاردة: وهم أصْحَاب عبد الكريم بن عجرد.

ذَنباً صَغِيراً كَان أَمْ كَبِيراً فهُو كَافر، لا يُعد مُسلماً ولا مُـؤمناً، وَقَـالَ الْمُـعْتَزِلَة(١):

---

٥ ـ الإباضية: وهم أتباع عبد الله بن إباض.

٦ ـ الصّفريّة: وهم أصْحَاب زياد بن الأصفر.

٧ ـ الثّعالبة: وهم أصْحَاب ثعلبة بن عامر.

٨ ـ البيهسيّة: أتباع أبي بيهس، الهيصم بن جابر.

أنظر، كتاب الْفُتُوح لِابْن أعثم الكوفي: ٢/ ٢٤٨، الملل والنّحل: ١/ ١١٥، إعتقادات فرق ٱلْمُسْلِمِينَ: ٤٩، الفرق بين الفرق: ٧٤، المواقف: ٤٢٤ التّبصير في الدّين: ٤٥.

وتجمع هَذِهِ الفرق كلمة الكفر، والمروق من الدّين، علىٰ كلّ من لم يسر بسيرتهم، وحكموا علىٰ الأُمراء بِهَذَا الحكم، ماعدا ٱلْخَلِيفَة الأوّل، والثّاني، لأنّهم كانوا يتولونهما.

أمّا عُثْمَانَ فقبلوه، وتولوه لمدة ست سِنين من خِلاَفَته، ثمّ كفّروه، وتبرؤا مِنْهُ.

أمّا عليّ عليه السلام، فتولوه أيضاً زمن خِلاَفَته، إلىٰ أنْ قبل التّحكيم، ثمّ تبرؤا مِنْهُ، وكفّروه علىٰ الرّغم، من أنّهم كانوا في البداية أنصاره، لكن بمجرد أختلافهم معه ـ نتيجة الغلوّ ـ أنقلبوا إلىٰ أعدائه، بـل أعـدىٰ أعدائه، وهذا هو الّذي نُسميه: بـ(الغلوّ في المواقف).

(١) كَانَتْ بدَاية ظهُور حَركة الاعتزَال جواباً عَلىٰ سؤال فَرض نَفْسه فِي مُرتكبي الكبَائر: فـقالت الْخَـوَارِج: كلّهم كفّار؛ وقالت المُرجئة: هم مُؤمِنُون، لأنّهم لايرون ضرراً في أية مَعْصِيَة مع الأِيمَان «الّـذي هـو في الْقَلْب فقط» وقد لخّص الشّهرستانيّ هذا بقَوْله:

«...دَخل واحد علىٰ الْحَسَن البصريّ فَقَالَ: يا إمَام الدّين! لقد ظهرت في زمـاننا جَمَاعَة، يكـفّرون أصْحَاب الكبَائر، والْكَبِيرة عندهم كُفر، يخرج به عن الملّة، وهم وعيديّة الْخَوَارِج؛ وجَـمَاعَة يُـرجـئون أصْحَاب الكَبائر. والكَبائر عندهم لا تضر مع الأِيمَان. بل الْعَمَل ـ علىٰ مَذْهَبهم ـ ليس رُكناً من الأِيمَان، ولا يَضُرّ مع الأِيمَان مَعْصِيَة، كمَا لاينفع مع الكُفر طاعة. وهم مُرجئة الأُمَّة. فكَـيف تَحكـم لنـا فِي ذَٰلِكَ أعتقاداً»؟

فتفكرَ الحَسَن فِي ذَٰلِكَ، وقبل أنْ يُجيب قَال واصل بن عطاء:

«أنا لا أقُول صَاحب الْكَبِيرة مُؤمن مُطلق، ولا كَافر مُطلق، بل هو فِي منزلة بين المـنزلتين، ثمّ قَام وأعتزل إلىٰ إسطوانة من إسطوانات المَسجد، يُقرر ما أجَاب بِهِ علىٰ جَمَاعَة من أصْحَاب الحَسَن».

فَقَالَ الحَسَن: «أعتزلَ عنّا واصَل» فسمي هو وأصْحَابه مُعتزلة. ثمّ أضاف واصل إلىٰ قَوله بِالْمَنْزِلَة بين

مُرتكب الْكَبِيرة لَيْس بمُؤمن، وإنْ كَان مُسلماً مُخلداً فِي النّار!.

ولِفُقهَاء الشِّيعة الإِمَامِيَّة بالخصُوص اصطلاح فِي الْمُؤْمِن الَّذي يُعطي الزَّكَاة، وتَصح الصَّلاة خَلفه جَمَاعَة حَيْث اشترطوا أنْ يَكُون موَالياً لأَهْل الْبَيْت.

وَقَالَ الأَشَاعِرَة[1]: الإِيمَان هُو مُجرد التَّصدِيق بمَا جَاء بِهِ مُحَمّدﷺ، ولَيس الْعَمَل بشَرط، وَقَالَ الكرَامِية[2]: بل هُو مُجرد النُّطق بكَلِمَتي الشَّهادة، ولَيس التَّصدِيق

⇔ المَنزلتين مبَادىء أُخرىٰ.

أنظر، الملل والنّحل: ١/ ٤٨، الحُور العَيْن: ١٧٧، البدء والتَّأريخ: ٥/ ١٤٢، المُعْتَزِلَة وأصولهم الخَمْسَة وموقف أَهْل السُّنَّة منهم: ١٤ـ٢١.

(١) هو أصْحَاب أبي الحَسَن عليّ بن إسْمَاعِيلَ الأشْعَرِيّ، المُنتسب إلىٰ أبِي مُوسَىٰ الأشْعَرِيّ، وَهِي جَمَاعَة الصِّفاتِية، الَّذِين يُثبتون لله تَعالىٰ الصِّفَات الأَزَلِيَّة، كالعِلم، والْقُدْرَة، والْحَيَاة وغَيْرِها. أنظر الملل والنّحل للشّهرستاني: ١/٥٨ ـ ٩٤.

(٢) هُم من أتباع أبِي عبد الله مُحَمّد بن كَرّام، بن عرّاف بن خُزامة، بن براء السّجستانيّ، النّيسابوريّ المتوفّىٰ عَام (٢٢٥ هـ)، وهُم من أَهْل السُّنَّة، والجَمَاعَة.

والسّجستانيّ كَانَ مُجاوراً في مَكَّة. ثُمّ رحل عَنْهَا إلىٰ نِيشابور. ثم أنتقل إلىٰ بَيْت المَقدس وسكنها ومَات بها. يروي عن مالك بن سليمان الهرويّ. روىٰ عَنْه مُحَمّد بن إسْمَاعِيلَ بن إسْحَاق، وحكىٰ عَنْه من الزُّهْد، والتّقشف أشياء، وفي المَذَاهِبُ أشياء من التّشبيه، والتّجسيم، وذكر في كتاب له سماه (عذَاب القَبْر) في وصف الرّب عزَّ وجلَّ، أنّه أحدي الذّات، أحدي الجوهر، فشارك في وصفه إياه بأنّه جِسم. وشارك اليهُود، والهُشامِيّة، والجُواليقِية، من مُشبهة الرّوافض في وصفه إياه بأنّه جِسم. ونَاقض أصْحَابه في أمتناعهم عن وصفهم إياه أنّه جوهر، مع إطلاقهم وصفه بأنّه جِسم، إطلاق الجِسم أفحش من إطلاق الجوهر. وذكر في هذا الكتاب أنّه معبود في مكان مخصوص، وأنّه مُمَاس لعرشه من فوقه، وعندما ظفر به الطّاهر بن عبد الله سَجنه، ثُمّ أُطلق سراحه، ورحل إلىٰ الشّام، ثُمّ ظفر به مُحَمّد بن الطّاهر، ولكن أطلق سراحه، بَعد أنْ سَجنه.

وعبد الله السّجستانيّ من المُجسمة، وزَعم أنّ لله جِسماً، وأعضاءً، ولهُ حركة، يقوم بها ويَقْعُد، وهو من ⇔

↩ المُغالين في صِفَات الله، غلوّاً فاحشاً.

ووصف معبوده بأنّه جوهر، وَقَالَ: إنّ الله تَعَالىٰ مُماس لعرشه، وإنّ العَرش مكان له، ووصفه بالثقل.

وقد فَسر الآيَة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ٱلإِنفِطَارِ: ١. أنّها أنفطرت من ثِقَل الرّحمن عَلَيْهَا.

وهذا أبن تيمية مُجدد التّجسيم قَال عنهُ أبن بطوطه: «وكَانَ بدمشق من كُبار فقهاء الحنَابلة تقي الدّين بن تيمية كبير الشّام، يَتكلّم في الفنون إلاّ أنّ في عقْله شيْئاً، وكنت إذْ ذَاكَ بدمشق، فحضرته يوم اَلجُمُعَة، وهو يَعظ النّاس علىٰ مِنبر الجَامع، ويذكرهم فكان من جُملة كَلاَمه أنْ قَال: إنّ الله يَنزل إلىٰ سماء الدُّنيا كنزُولي هَذَا، ونَزَل دُرجة من دُرج المِنبر، فعَارضه فقيه مَالكي يُعرف بأبن الزّهراء، وأنكر مَا تَكلّم بهِ، فقامت الْعَامّة إلىٰ هَذَا الْفَقِيه وضَربُوه بالأَيْدِي، والنّعال، ضَرباً كَثيراً، حَتَّىٰ سقطت عمامته!».

أُنظر، رحلة أبن بطوطة: ٩٠، وراجع أحاديث الدّول، زاد المَعاد لإبْن الْقَيّم الجوزية: ٣ /٥٦٦، نهاية الإرب للنويريّ: ٧ /٢٩٢، التّرغيب والتّرهيب للمُنْذِريّ: ١ /٤٣٤، الدُّرر الكامنة: ٧١/٢ و ٧٢، لِسَان الميزان: ٣٠٩/٦، ونقلها أبن عراق في تذكرته كما عَنْه في مجالس الْمُؤْمِنِينَ: ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

ويثبت أَصْحَاب الحديث نزول الرّب سبحانه وتَعَالىٰ كلّ لَيلَة إلىٰ السّماء الدُّنيَا، من غَير تَشبيه لهُ بنزُول المخلوقِين، ولا تَمثِيل، ولا تَكييف، بل يُثبتون مَا أثبته رَسُول الله ﷺ، وينتهون فِيهِ إِلَيْهِ، ويمرون الْخَبَر الصّحيح الوارد بذكره علىٰ ظاهره، ويوكلون عِلمه إلىٰ الله.

موسوعة الأَدْيَان في العالم / الفرق الإِسْلاَمِيّة: ١١١، صَحِيح البُخَاريّ: ١/ ٤٧، صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ١٧٥، مُسْنَد أحمد: ١/ ١٢٠، التّرغيب والتّرهيب للمُنْذِريّ: ٢ / ٤٨٩.

وروت عَائِشَة قالت: «يَنزل الله تَعَالىٰ في النّصف من شعبان إلىٰ السّماء الدُّنيَا ليلاً إلىٰ آخر النّهار من الغَد، فيعتق من النّار بعدد شَعر معزّ بني كَلب...».

موسوعة الأَدْيَان في العالم / الفرق الإِسْلاَمِيّة: ١١١، سُنن أبن ماجه: ١ / ٤٤٤، مُسْنَد أحمد: ١/ ١٢٠، تهذيب التّهذيب لإبْن حجر: ٣ /٢٧٢، لِسَان الميزان: ٤ /٦٧ و٢٥٢، تهذيب الكَمَال للحافظ المزي: ٩ /٣٠٨.

وروت أيضاً: «إذَا مَضىٰ شَطر اللّيل، أو ثُلثاه ينْزل الله إلىٰ السّماء الدُّنيا».

وَقَالَ أبن تيمية في تَفْسِيره: «... ولهَذا صَار للنّاس فيما ذَكر الله في الْقُرْآن من الإستواء والمجيء ونحو ذَلِكَ سِتة أَقْوَال: طَائِفَة يقولون تجري عَلىٰ ظاهرها ...». تَفْسِير أبن تيمية: ٣٨٦/٦.

↩

بشَرط فضّلاً عَن الْعَمَل[1].

أما الإيمَان الَّذِي عَناه الإمَام فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة فهُو ما كَان طَريقاً، وسَبباً لرضُوان الله وجنّاته... ولَيس مِن شَكّ أنّ الفَوز بجنّة الخلد لا يَكُون إلاّ بالْعَمَل الصَّالح، قَال تَعَالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[2].

وَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[3]. ثُمّ قَسّم الإمَام هَذَا الإيمَان إلىٰ قِسمَين: مِنْهُ الأصِيل الرَّاسخ حَتّىٰ الأخِير النَّفس الأخِير، ومِنْهُ العَارِية المُتزلزل الَّذي يُفارق صاحبه قَبل المَوْت.

ومِن أجل هَذَا أوصىٰ الإمَام بقَوْله:

(فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ

⇔ وَقَالَ فِي رِسَالَته التّدمرية: «إنّ الله سبحانه وتَعَالىٰ موصوف بالإثبات والنّفي...». ٱلرِّسَالَة التّدمرية: ٣٩.

وقد مَال الذّهبيّ إلىٰ التّجسيم، والمُجسمة، وذَلِكَ حسب ما نقله السُّبكي. طَبقَات الشّافعية للسُّبكي: ٢ / ١٣.

إذَنْ الظّاهِرية الآن: هم أبناء مَذْهَب التّجسيم، وقد أورد ذَلِكَ السّمعانيّ في الأنساب، وابن حزم الظّاهِريّ في الفصل: «إنّ جهنم لا تَمتلئ حَتّىٰ يضَع ـ الله ـ فيها قدَمه...». أنسَاب الأشْرَاف: ٩٩/٤، الفصل: ١٦٧/١.

(١) أنظر، المواقف للإيجي: ٢٥٤/٨. (مِنْهُ ﷺ). أمَالي السَّيِّد المرتضىٰ: ١٤/١، طرائف المقال: ٢٢٧/٢، الملل والنّحل: ٧٦/١ و ١٧٧، الإنتصَار: ٢٥، أوائل المقالات: ٤٤، رسائل المرتضىٰ: ١٥٥/١ و: ٩١/٢، شرح أُصول الكَافي: ٦٧/١٠، فيض القَدير: ٤٨٢/٣، السّير الكَبير للشّيباني: ١٥٦/١، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٢٧/٧، شَرح مُسْنَد أبي حَنِيفَة للقاري: ٣٣٠، المنخُول للغزالي: ١٣٤، الشّفا بتعريف حقوق المُصطفىٰ: ٥/٢، الفصول المُهمة في أحْوَال الأَئِمَّة: ٤٤٠/١، تَفْسِير المِيزان: ٢٦٢/١٨.

(٢) مَرْيَمَ: ٦٣.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٢.

الْبَرَاءَةِ). إنْ رَأيتُم مُنْكَراً مِن أي إنْسَان فَلا تَعجلوا فِي الحُكم عَلَيْهِ بِمَا ظَهر لكُم مِنْهُ، وتَقُولوا: أَللَّهُمَّ إنّا نَبرأ إلَيْك مِن هَذَا المُجرم الأثِيم، بـل عَـلَيْكُم بـالصَّبر، والتَّرِيث حَتَّىٰ يُدركه المَوْت.. فرُبَّمَا كَفّر عن سَيِّئَاته بِالتَّوْبَةِ، ومحَاها بالحَسَنَات.

الْهِجْرَة:

(وَ الْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَىٰ حَدِّهَا الْأَوَّلِ). كَـانَتْ الْهِـجْرَة وَاجِـبَة فِي عَـهد رَسُـول الله ﷺ، ومَا زَالت عَلىٰ حُكمها اليَوْم وإلىٰ آخر يَوْم.. وإنْ صَحّ حَدِيث «لا هِجْرَةُ بَعدَ الْفَتْح»[1] فهُو محُمول عَلىٰ الْهِجْرَةِ مِن مَكَّة الْمُكَرَّمَة إلىٰ الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة (مَاكَانَ للهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْإِمَّةِ وَ مُعْلِنِهَا). الله غَني عَن العَـالَمِين، وعَـن مَعْصِيَة مَن عصَاه، وطَاعة مَن أطَاعه سوَاء أعلَن طَاعته فِي دَار الْإِسْلاَم، أَمْ أسرّها خَوْفاً وتَقِية فِي بلاَد الكُفر.

سَبَب الْهِجْرَة:

(لاٰ يَقَعُ اَسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَىٰ أَحَدٍ إلاّ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ). وفِي بَعْض طَبعَات النَّهج سَقطت «إلّا» ولا يَستقِيم الكلاَم إلّا بهَا. المُرَاد بالحُجَّةِ فِي الأَرْضِ مَن يحتج

---

(١) أنظر، الكَافِي: ٤٣٣/٥ ح ٥، مُسْنَد أحمد: ٣٥٥/١ و: ٢٢/٢، جَامع المقاصد: ٣٧٤/٣، سُنَن الدّارمي: ٢٣٩/٢، وَسَائِل الشّيعة: ٧٧/١١ ح ٧، صَحِيح البُخَاريّ: ٢٠٠/٣، المبسوط للطّوسي: ٤/٢، صَحِيح مُسْلِم: ٢٨/٦، من لا يحضره الفَقِيه: ٢٢٧/٣ ح ١٠٧٠، مَجْمَع الزّوائد: ٢٥٠/٥، السّرائر: ١٤/٢، المَجمُوع: ٢٦٣/١٩، بدائع الصّنائع: ١٥٨/١، تكملة حَاشية رَدّ المحتار: ٣٦١/١، المُغْنِي لِابن قُدَامَة: ٥١٣/١، كشف الخَفَاء: ٥٧٤/١.

الله بِهِ غَداً عَلَىٰ المُقصرِين فِي الدِّين أصُولاً، وفرُوعاً معصُوماً كَان، أَمْ عَالِماً تَقِياً،
أمّا سَبب الْهِجْرَة فهُو وَاحد مِن ٱثْنَيْن:

الْأَوّل: أنْ يَكُون الْمُسْلِم عَارفاً بأَحْكَام دِينِهِ، ولَكِنَّهُ لا يَسْتَطِيع ممَارستها، والقِيام بِها، لأنّه يُقِيم فِي بَلد كَافر، ولا حُرِّيَّة فيهِ للأديَان، وقَد أمرز النَّبِيّ ﷺ جَمَاعَة من أَصْحَاب بالْهِجْرَة الأُولَىٰ إِلىٰ الحَبشة فِرَاراً من الاِضطهَاد، وخَوْفاً أنْ يَرتد بَعْض ٱلمُسْلِمِين عَن دِينهُم بِسبب الضَّغط، والتَّعذِيب، وتُطلق عَلىٰ هَؤُلآء كَلِمَة ٱلمُسْتَضْعَفِين، وأيضاً أمر النَّبِيّ آخرِين من الْصَّحَابَة بالْهِجْرَة الثَّانِيَة إِلىٰ الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة، فهَاجرُوا، ولحَق هُو بَعد ذَلِكَ توقعاً لحيَاة أفضل لِلْإِسْلاَم، وٱلْمُسْلِمِينَ.

السَّبب الثَّانِي: أنْ يكُون جَاهلاً بالدِّين وأحْكَامه، ولا يَجد مِن يُرشده فِي ٱلْبَلَد الَّذي يُقِيم فيهِ، فَيجب عَلَيْهِ، والحَال هَذِه، أنْ يُهَاجر لطلب الْمَعْرِفَة بمَا هو مُكلف بِهِ من أوصل الدِّين وفرُوعه، إنْ ٱستطاع إِلىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً.

وعَلَيْهِ فمن عَرف العَالِمَ يُدِين الله، وأخذه عَنْه مُباشرة أو بالوَاسطة، وٱستطاع أنْ يُمارسه، ويقُوم بأحْكَامه كَاملة ـ فلا تَجب الْهِجْرَة عَلَيْهِ، بل لهُ أجر من هَاجر في سَبِيل الدِّين، وإنْ كَان مِيقماً، وَهَذَا هُو الْمُرَاد من قَوْل الْإِمَام: (فَمَنْ عَرَفَهَا وَ أَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ) أي عَرف الحُجّة، وَهِي العَالِمَ بدِين الله، والْمَعْنَىٰ من عَرف هذا العَالِم، وتَعلم منهُ وعَمَل فلهُ أجر المُهاجر، وإنْ كَان فِي بَيْتِه (وَ لاَ يَقَعُ ٱسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَىٰ مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَ وَعَاهَا قَلْبُهُ). عَطف بَيان، وتَفْسِير عَلىٰ من عَرف وأقرّ.

بَقِي قِسم ثَالث، وهُو أنّ العالِم بالدِّين وأحْكَامه يَجب عَلَيْهِ كفَاية أنْ يُهاجر للإرشَاد والتَّعلِيم إِلىٰ الأمَاكن الْإِسْلاَمِيّة الّتي لا يُوجد فِيها مُرشد، ويَأتي الكلاَم

عن ذَلِكَ مُفصلاً إنْ شَاء الله عِند قُول الإِمَام: «مَا أَخَـذَ اللهُ عَـلَىٰ أَهْـلِ الْجَـهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّىٰ أَخَذَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»[1].

أَمْرُ أَهْل الْبَيْت عليهم السلام

(إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ). لَيْسَ لأَهْل الْبَيْت عليهم السلام أَمْر إلّا أمْر الإِسْلاَم، ولا هَدف إلّا إعْلاَء كَلمتَه، وإحْيَاء آثَاره ومَعَالِمه... إنّه نَزَل فِي بَـيْتِهم، وعَـلىٰ قَـلب جدّهم صلى الله عليه وآله فهُم لهُ بكلّ ما يَملكُون، وهُو مَعهُم نصّاً، ورُوحاً، ومن أجـله ضَحُوا بكلّ شيء، وتَحملوا مَا يُطاق ومَا لا يُطاق، وبهَذا يَتضح تَفْسِير قُول الإِمَـام: (لا يَحْمِلُهُ اِلاّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ آمْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِـلْإِيمَانِ) أي أنّ الْمُسْلِم حقّاً وَوَاقعاً هُو من يَغضب لله، ويُجاهد فِي سَبيله، ويَستهين بالمُصِيبَات مِن أجل الحفَاظ عَـلىٰ دِيـنه، وقَوْله: «الْإِيمَانُ عَلَىٰ أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَىٰ الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ. وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَىٰ الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ: فَمَنِ آشْـتَاقَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ آجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ؛ وَمَـنْ زَهِـدَ فِي الدُّنْيَا آسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ؛ وَمَنِ آرْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ»[2]. وفِي بَعْض الرِّوَايَات أنّه لمّا آشتد الْبَلاَء عَلَىٰ الْمُسْتَضْعَفِين مِن الصَّحَابَة شَكَوْا إِلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله فقَال: «إنّ مَن كَان قَبلكُم نُشرُوا بالمَنَاشِير فصَبرُوا، وصُلبُوا عَلىٰ الخَشب، مَوْتَ فِي طَاعة خَيْر مِن حيَاة فِي مَعْصِيَة، ولَمْ يَرتَدُوا عَن دِينهم»[3].

---

(١) أُنظر، نَهج آلبَلاَغَة: آلحِكْمَة (٤٧٨).

(٢) أُنظر، نَهج آلبَلاَغَة: آلحِكْمَة (٣١).

(٣) أُنظر، مَجمَع الزّوائد: ٢٢٨/٥، الدُّر المنثور: ٣٠١/٢، المُعْجَم الصَّغِير: ٢٦٥/١، المُعْجَم الكَبِير: ٩٠/٢٠

هَذَا هُو المُرَاد بالأَمْر الصَّعْبُ المُسْتَصْعَبُ، أمّا قَول من قَال: «المُرَاد بِهِ الإشرَاقَات والمُغيبات، والمُعجُونات بمَا فُوق السّموات»، ونحو ذَلِكَ فهُو جُرأة عَلىٰ الْغَيْب الَّذي لا يَثبت إلّا بنصّ مَقطوع بِهِ مَتناً وسَنداً (وَ لاَ يَعِي حَدِيثَنَا إلاَّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَ أَحْلَامٌ رَزِينَةٌ). لأنّ حَدِيث أَهْل الْبَيْت هُو قَوْل الله، وسُنَّة رَسُوله، ولا تَعِيها إلّا أُذن وَاعية، وقلُوب صَاغِية. قَال الإمَام الصَّادق عليه السلام: «مَن خَالف كِتَاب الله وسُنَّة مُحَمّد صلى الله عليه وآله فقَد كفَر»[1]. وَقَالَ حَفِيده الإمَام الرّضا عليه السلام: «إنّا عن الله، وعَن رَسُوله نُحدث... إنّ لكلاَمُنا حَقِيقَة، وإنّ عَلَيْهِ لنُوراً، فمَا لا حَقِيقَة لهُ، ولا نُور عَلَيْهِ فذَاكَ قُول الشَّيْطَان»[2].

(أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ). المُرَاد بطُرق السَّماَء العلُوم الإلهِية، وبطُرق الأَرْضِ العلُوم الزّمنِية كالصِّناعَة والزِّرَاعَة، وتَقدَّم مثلهُ مع الشَّرح مُفصلاً[3]. (قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وَ تَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا) أي سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، وقَبل أنْ تَبتلوا بمُعضلات الْفِتَن، وأوبَائها. وتَقدَّم مِثله مَع الشَّرح[4].

⟸ ح ١٧٢، مُسْنَد الشَّامِيين: ١/ ٣٨٠ ح ٦٥٨، دستُور مَعَالِم الحُكم: ١١٤، كَنز العُمّال: ١/ ٢١٦ ح ١٠٨٠، تَفْسِير الميزان: ٦/ ٨٣، تَفسِير القُرطُبي: ١٣/ ٣٢٤، سُبل الهُدىٰ والرَّشاد: ١٠/ ١٣٧، حِلية الأَوْلِيَاء: ٥/ ١٦٦.

(١) أُنظر، الكَافِي: ١/ ٧٠ ح ٦، شَرح أُصول الكَافِي: ٢/ ٣٤٦، وَسَائِل الشّيعة: ١٨/ ١٦.

(٢) أُنظر، رِجَال الكشي: ١٩٥ ح ٤٠١، أختيار مَعْرِفَة الرِّجال: ٢/ ٤٩٠، بحَار الأَنْوَار: ٢/ ٢٥٠ ح ٦٢ و: ٩٦/ ٢٦٤، الحَدَائِق النَّاضرة: ١/ ١٠.

(٣) أنظر، شَرح الخُطْبَة: (٩٣). (مِنْهُ عليه السلام).

(٤) أُنظر، شَرح الخُطْبَة: (٩٣). (مِنْهُ عليه السلام).

الخطبة

-١٩٠-

ظُلْمَة القَبْر...فِقْرَة ١ ـ ٣:

أَحْمَدُهُ شُكْراً لِإِنْعَامِهِ، وَ أَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ.

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، دَعَا إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَ قَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ، لاٰ يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ آجْتِمَاعٌ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ، وَ آلْتِمَاسٌ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ(١).

فَآعْتَصِمُوا بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَ مَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ. وَ بَادِرُوا الْمَوْتَ وَ غَمَرَاتِهِ، وَ آمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَ أَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ: فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ، وَ كَفَىٰ بِذَلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَ مُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ! وَ قَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ، وَ شِدَّةِ الْإِبْلَاسِ، وَ هَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَ رَوْعَاتِ الْفَزَعِ، وَ آخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ، وَ آسْتِكَاكِ الْأَسْمَاعِ، وَ ظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَ خِيفَةِ الْوَعْدِ، وَ غَمِّ الضَّرِيحِ، وَ رَدْمِ الصَّفِيحِ(٢).

فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَىٰ سَنَنٍ، وَ أَنْتُمْ وَ السَّاعَةُ فِي قَرَنٍ. وَ كَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَ أَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَ وَقَفَتْ بِكُمْ عَلَىٰ صِرَاطِهَا. وَ كَأَنَّهَا

قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاَزِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا، وَآنْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَىٰ، أَوْ شَهْرٍ آنْقَضَىٰ، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً. فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا، عَالٍ لَجَبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ وُقُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا[٣].

اللُّغَة:

المَعْقِل: المَلجأ. وذِرْوَة كلّ شَيء: أعلاه. ومُبَادِرة الْمَوْت: الاِستعدَاد لهُ. والغَمَرَاتِ: الشَّدَائِد. والأَرْمَاسِ: الْقُبُور. والإِبْلَاسِ ـ بكسر الهمزة ـ الحُزْن والْيَأْس، والاِنْكسَار. والْمُطَّلَع: مَوضِع الإِطِّلَاع. وَالرَّوْعَاتِ: الأَفْزَاع، والإضَافة من بَاب إضَافة المُوصُوف إلىٰ صِفَته كَلَيلِ أَلّيل. وآخْتِلَافِ الأَضْلَاعِ: تَداخلها. وَآسْتِكَاكِ الأَسْمَاعِ: صَمَمهَا. وَالْغَمّ: الغطَاء. والصَّفِيح: الحَجَر. والسَّنَن ـ بفتح السِّين ـ الطَّرِيق. والقَرَن: الاِقْتِرَان. والأَشْرَاطِ والأَفْرَاطِ: العَلاَمَات والدَّلاَئِل. والكَلَاكِلِ: الصّدُور. والكَلَبُ ـ بفتح اللاَّم ـ الأكل بلا شَبع. واللَجَبُ: الصِّيَاح.

الإِعْرَاب:

شُكْراً مَفْعُول مُطلق لأَحْمَدُهُ، مثل قُمْتُ وقُوفاً، وعَزِيزَ الجُنْدِ حَال، ومثلهُ عَظِيمَ الْمَجْدِ، وأيضاً جِهَاداً فِي مُوضع الحَال أي مُجاهداً، وقِيل بُلُوغ خَبَر مُقَدَّم، ومَا تَعْلَمُونَ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، فاللهَ نُصب علىٰ التَّحْذِير، وكَلَبُهَا فَاعِل شَدِيدٍ، ومثلهُ مَا بَعدَه.

الْمَعْنَىٰ:

(أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعَامِهِ). ومَن شَكَرَ الله شَكَرَهُ الله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[1]. أي يُثِيب الشَّاكر، ويَزِيده مِن فَضلِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]. وكلّ شُكر يُسمىٰ جَزَاءً، ووفَاءً (وَ أَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ وَظَائِفِ حُقُوقِهِ) وَهِي السَّمع، والطَّاعَة والإِخْلَاص، وأيضاً طَلب العُون مِنْهُ عَلىٰ طَاعته وأداء حُقُوقِهِ. حَقٌّ لهُ، لأنّه (عَزِيزَ الْجُنْدِ) لا مَثِيل لجُنْدِه قُوَّةً، ومَنْعَةً (عَظِيمَ الْمَجْدِ) الوَاحد الأحْد فِي مُلْكِه وسُلْطَانه.

(وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، دَعَا إِلَىٰ طَاعَتِهِ... إلخ). فِي ٱلقِصَاص والعقُوبَات حيَاة ورَدع عَن الجرَائِم، كما قَال الْقُرْآن الكَرِيم، وأثبتت التَّجَارِب الطَّويلة، ولكن التَّقْوَىٰ حَارس وشُرطِي مِن الدَّاخل لا يَغفل ويَغِيب، ولا يُحابِي ويَرتشِي، والعقُوبَات شُرطي مِن الخَارج يَغفل ويَغيب، ويُحابِي ويَرتشِي، (وَ بَادِرُوا الْمَوْتَ وَ غَمَرَاتِهِ، وَ ٱمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ... إلخ). بلا مَوْت تُختم ٱلحَيَاة، ومن قَصّر، وأهمَل فهُو من الْقَوْم الخَاسرِين (وَ كَفَىٰ بِذَٰلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَ مُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ!). وزَاجِراً عَن الجرَائِم والاعتدَاءات (وَ قَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ، وَ شِدَّةِ الْإِبْلَاسِ... إلخ). وَهِي الْقِيَامَة، والدُّنْيَا طَرِيق إِلَيْهَا ووسِيلة، والْمَعْنَىٰ أَنْتُم مَا تَعْلَمُونَ عِلم الْيَقِين بأنّ مَصِيركُم إِلىٰ اللّحد، والطّم وكَسر الأضْلاَع، وصَمَم الأَسْمَاع، ومِن ذَلِكَ إِلىٰ مَا هُو أشد، ومَع هَذَا لا تُبالُون وتَتُورعُون.

---

(١) ٱلنِّسَاء: ١٤٧.

(٢) إِبْرَاهِيمَ: ٧.

(فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَىٰ سَنَنٍ) عَلىٰ طَرِيق مَن قَد مَضَىٰ قَبلكُم من الهَـلاَك والدَّمار (وَ أَنْتُمْ وَ السَّاعَةُ فِي قَرَنٍ) أي مَقرُونَان، لِأَنَّهَا آتِيَة لا رَيبَ فيها، والآتِي بِحُكم الحَاضِر، لِعُلاَقة الأَوَّل (وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا) بِعلاَمَاتِها... ومَن مَات فقَد قَامت قِيَامته[1]. (وَ أَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا) عَطف تَفْسِير (وَ أَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا) كنَايَة عَن الأهوَال، والأثقَال، وتَقَدَّم مثلهُ مَع الشَّرح[2]. (وَ أَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا): ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[3]. (وَ صَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَ سَمِينُهَا غَثّاً). يُبلىٰ الجَدِيد، ويَهزل السَّمِين (فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ) وأي مَوقِف أشَد هُولاً من الوقُوف بَيْنَ يَدِي الله للعَرض والحِسَاب، ومِنْهُ إلىٰ العقَاب والعذَاب؟. (وَ أُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ). كلّ شيء يَوْم الْقِيَامَة عَظِيم وغَرِيب عَن الْعُقُول، والأوْهَام يَبعث الدَّهشة والحَيرة، والفَزَع والهَلَع.

(وَ نَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا). إشَارة إلىٰ قَوْله تَعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[4]. (عَالٍ لَجَبُهَا): ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾[5] (عَمٍ قَرَارُهَا) أي أرْضَها، وَهِي مَستُورة ومُغطَاة بـالنَّاس والحِجَارة

---

(١) أُنظر، شرح أُصول الكافِي: ٢٠٤/٤، حاشية السّندي علىٰ النّسائي: ٢٢٦/٨، عوالي اللئالي: ١٤٥/١، كنز العُمّال: ٥٤٨/١٥ ح ٤٢١٢٣ و ٤٢٧٤٨، بحار الأَنوار: ٧/٥٨، فيض القدير: ٤/٥، كشف الخَفاء: ١٦٦/١ ح ٥٠٠ و: ٢٧٩/٢ ح ٢٦١٨، تَفْسِير القُرطُبي: ١٨٨/١٩.

(٢) أُنظر، شَرح الخُطبَة: (١٠٩). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) ٱلقَمر: ٧.

(٤) سُورَةُ قٓ: ٣٠.

(٥) ٱلمُلك: ٨.

واللَّهِيب والدُّخَان (مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا) سوداء لِيَلاء تُرهِب وتُرعِب. وتَقَدَّم مثلهُ[1].

بَادِرُوا الآجَال بِالْأَعْمَال...فِقْرَة ٤ ـ ٦:

﴿وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[2]. قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَ ٱنْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَ زُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَ ٱطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَ رَضُوا الْمَثْوَىٰ وَ الْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَ أَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً وَ ٱسْتِغْفَارًا، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشاً وَ ٱنْقِطَاعاً. فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، وَ الْجَزَاءَ ثَوَاباً، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا﴾[3] فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَ نَعِيمٍ قَائِمٍ[4].

فَٱرْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَ بِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ. وَ بَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَ مَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلاٰ رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَ لاٰ عَثْرَةً تُقَالُونَ. ٱسْتَعْمَلَنَا اللهُ وَ إِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَ طَاعَةِ رَسُولِهِ، وَ عَفَا عَنَّا وَ عَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ[5].

ٱلْزَمُوا الْأَرْضَ، وَ ٱصْبِرُوا عَلَىٰ الْبَلاٰءِ. وَ لاٰ تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَ سُيُوفِكُمْ فِي هَوَىٰ أَلْسِنَتِكُمْ، وَ لاٰ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَىٰ فِرَاشِهِ وَ هُوَ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ، وَ حَقِّ رَسُولِهِ، وَ أَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ وَ ٱسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَ قَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاٰتِهِ

---

(١) أنظر، شرح ٱلْخُطْبَة: (١٠٩). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) ٱلزُّمَر: ٧٣.

(٣) ٱلْفَتْح: ٢٦.

لِسَيْفِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَ أَجَلًا[٦].

اللُّغَة:

زُمَر: جَمع زُمْرَة أي الجَماعَة. والمَثْوىٰ: المَنْزِل.

الإِعْرَاب:

زُمَراً حَال من ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا، والَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ بَدل من وَاو الجَماعَة فِي وَرَضُوا، وتَخَشُّعاً وَٱسْتِغْفَارًا نُصب عَلىٰ المَصْدَريَة أي يَخشعُون ويَستَغفرُون، أو فِي مَوضع الحَال أي خَاشعِين ومُستغفرِين، ومثلهُ تَوَحُّشاً وَٱنْقِطَاعاً، ومَا بِرَعِيَّتِهِ «مَا» مَوْصُول مَفعُولاً لارْعَوْا، وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ أي كَأَنَّهُ قَدْ نَزَلَ، ورَجْعَةً مَفعُول مُقدَّم لتَنَالُونَ، ومثلهُ مَا بَعدَه، وشَهِيداً حَال.

الْمَعْنَىٰ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[١]. ذَلِكَ جَزَاء المُحسنِين (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً). والْعَمَل الصَّالح والزَّاكِي هو الَّذي يَحلّ مُشْكِلَة مِن مِشكلاَت ٱلْحَيَاة، ويَسِير بِهَا إِلىٰ الأَمَام (وَ أَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً) لا عَلىٰ المَال والجَاه، بَل خَوْفاً مِن الله، وأَلَماً من الجَوْرِ وفسَاد الأَوْضَاع (وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً) لاَ لتَدْبِيرِ الدَّسَائِس والمُؤامرَات، بَل للتَّفكِير فِي خَلاص أَنْفُسِهِمْ مِن غَضب الله

---

(١) ٱلزُّمَر: ٧٣.

وعَذَابه، وخَلاص المُعَذبين فِي الْأَرْضِ بأَيْدِي الطُّغَاة والمُستَغلين. (وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشاً وَ ٱنْقِطَاعاً) عَن المَفاسد والمظَالم ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾. وفِيهِ تَقدِيم وتَأخِير، والأصل وكَانوا هُم أَهْل الْجَنَّة وأَحَقَّ بِهَا، لأَنّهم عَملوا لهَا عَمَلها (فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَ نَعِيمٍ قَائِمٍ) ومثلهُ فِي ٱلْخُطْبَة: «لاٰ يَنْقَطِعُ ونَعِيمُهَا ـ أي الْجَنَّة ـ وَ لاٰ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَ لاٰ يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَ لاٰ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا»[1].

(فَٱرْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَ بِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ). دَعُوا المُشَاحنَات، والمعَارك الكلاَمِية، والْبَحْث فِيما لا يُجدِي نَفعاً، وفكرُوا فِي ضَعفكُم وتَخلفكُم، والأَخْطَار الّتِي دَهمتكُم وأحَاطت بكُم، وٱبنُوا حيَاتكُم عَلىٰ العِلم والْعَمَل المُنتج، لتكُونُوا شَيْئاً مَذكُوراً مَع الأُمّم المُتقدِمَة، لا مِن البُلدان «النَّامِية».. هَذَا الوَصف الَّذي سَتَر بِهِ الغَرب عَوارِكُم وشَنَاركُم (وَ بَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ). ٱستَعدُوا للْمَوْت حَيْث لا إقَالة ولا رَجْعَة، وٱتركُوا وَرَاءكُم من الأَعْمَال مَا تُذكرُون بِهِ عند الله، والنَّاس.

(ٱلْزَمُوا الْأَرْضَ، وَ ٱصْبِرُوا عَلَىٰ الْبَلاٰءِ. وَ لاٰ تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَ سُيُوفِكُمْ... إلخ). المُرَاد بِلزُوم الأَرْضِ السُّكُون والإغضَاء، وبِهَوَىٰ الْأَلْسُنِ هَفوَات اللِّسَان، كالْكَذِب والْغِيْبَة، وكَان فِي أَصْحَاب الإمَامِ عليه السلام المُؤْمِن المُخلص كالْأَشْتَر، وحِجر بن عَدِي، وفِيهِمْ الخَائِن الْمُنَافِق كالأشْعَث بن قَيْس وغَيْره مِن عُملاء مُعَاوِيَة... ورُبَّمَا ٱصطَدَم فِي حِينٍ من الأحْيَان بَعْض الْمُؤْمِنِينَ مَع ٱلْمُنَافِقِين، وكَاشفُوهم بِمَا يَضمرُون ويَعْلَمُون، فخَاف الإمَام أنْ تَنشأ الخِلاَفَات بَيْنَ جُنده

(١) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٨٥). (مِنْهُ رحمه الله).

والفُرْقَة الّتي لا اجْتمَاع مَعَهَا ولاَ رَجَاء فِي خَيْرٍ ، فأَمَر المُؤْمِنِينَ مِن أَصْحَابه بالسُّكُون والصَّبر عَلىٰ ٱلمُنَافِقِين (وَ لاَ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ) إنّه تَعَالىٰ مَا أَمَرَكُـم بحسَاب مَن خَانَ ونَافَق ، فَلا تَتكلفُوه وتَتَعرضُوا لهُ .

(فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَىٰ فِرَاشِهِ وَ هُوَ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ ، وَ حَقِّ رَسُولِهِ ، وَ أَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً ... إلخ) . الخطَاب للـمُخْلَصِين مَـن أَصْـحَابه ، والمَـعْنَىٰ عَـلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ، وأي إنْسَـان يَمُـوْت عَـلىٰ الإِيمَـانِ بـالله وطَاعَته ، والوِلاَيَة لرَّسُول الله ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ ، وعَلىٰ نِيَّة الجِهَاد فِي سَبِيل الله ، والحَقّ ، فَهُوَ مع ٱلشُّهَدَاءِ ، وَٱلصِّدِّيقِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً .

الخطبة

-١٩١-

لا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَىٰ.... فِقْرَة ١ ـ ٣:

الْحَمْدُ للهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَ الْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَ الْمُتَعَالِي جَدُّهُ. أَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ التُّؤَامِ، وَ آلائِهِ الْعِظَامِ. الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَ عَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ، وَ عَلِمَ مَا يَمْضِي وَ مَا مَضَىٰ، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَ مُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلا ٱقْتِدَاءٍ وَ لا تَعْلِيمٍ، وَ لا ٱحْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَ لا إِصَابَةِ خَطَإٍ، وَ لا حَضْرَةِ مَلَإٍ.

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، ٱبْتَعَثَهُ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَ يَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَ ٱسْتَغْلَقَتْ عَلَىٰ أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ[1].

عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَ الْمُوجِبَةُ عَلَىٰ اللهِ حَقَّكُمْ، وَ أَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وَ تَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَىٰ اللهِ: فَإِنَّ التَّقْوَىٰ فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَ الْجُنَّةُ، وَ فِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَ سَالِكُهَا رَابِحٌ، وَ مُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَىٰ الأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَ الْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَىٰ، وَ أَخَذَ مَا أَعْطَىٰ، وَ سَأَلَ عَمَّا أَسْدَىٰ فَمَا أَقَلَّ مَنْ

قَبلَهَا، وَ حَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَ هُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1][2]. فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَ أَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَ اعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً، وَ مِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَ اقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَ أَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَ ارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَ دَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ، وَ بَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَ اعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَ لاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلاَ فَصُونُوهَا وَ تَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً، وَ إِلَى الآخِرَةِ وُلاَّهاً. وَ لاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَ لاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا. وَ لاَ تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَ لاَ تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَ لاَ تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَ لاَ تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَ لاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا[3].

اللُّغَة:

تَوَّام وتُؤَام: جَمع تَوْأَم، وهُو المَوْلُود مَع غَيْره فِي حَمْلٍ وَاحِد. وَآلاء: النِّعَم. وبِحُكْمِهِ: بِحِكْمَتِه. ويَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ: يَمضُون فِي شِدّة. والْحَيْنِ ـ بفتح الحَاء ـ الهَلاَك. والرَّيْنِ ـ بفتح الرَّاء ـ الحِجَاب والدَّنس. والْغَابِرِينَ: الْبَاقِين، ويُستَعمَل فِيمَا مَضَىٰ، فيَكُون من الأَضدَاد. و أَسْدَىٰ: أَعْطَىٰ. وأَهْطِعُوا: أَسْرِعُوا، أَي لا يَفُوتكُم شَيء من سماع ٱلْحِكْمَة والْمَوْعِظَة الّتِي تَستُوجب التَّقْوَىٰ. وَأَلِظُّوا عَلَيْهَا: ٱصْبِرُوا عَلَىٰ ثِقلها. وَأَرْحَضُوا: ٱغْسلُوا. وَلاَ تَشِيمُوا: لا تَنْظرُوا. والبَارِقَ: السَّحَاب، والبَارِقَة: السَّحَابة. والأَعْلاَقِ: جَمع العِلق، والعِلقة ـ بكسر الْعَيْن ـ هِي القطعَة.

---

(١) سَبَأ: ١٣.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ تَسْتَعِينُوا مَجْرُور بالبَاء المَحْذُوفة، والمَجرُور مَعطُوف عَلىٰ مَا قَبلهِ أي وأُوصِيكُمْ بالِاسْتِعَانَةِ... إلخ، ومَا أَقَلَّ من أفعَال التَّعجُب، و «مَا» بِمَعْنَىٰ شيء ومحلها الرَّفع بالاِبْتِدَاء، وأَقَلَّ فِعل مَاضٍ، وفَاعِلها مُستتر، والجُملة خَبَر، ومَنْ قَبِلَهَا مَفْعُول بهِ، وحَقَّ مَفْعُول مُطلق.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ). كلّ الخلائِق تُسبح بحَمْدِ الله بِلسَان المَقَال، أو بِلسَان الحَال. وكَتَب بَعْض الشَّارِحِين فِي تَفْسِير الْحَمْدُ الْفَاشِي ١٥ صَفحَة، نَقَلها مِن هُنا وهُناك، ولا أدرِي لِمن كَتب؟ وخُلاصتها مَا أشرنَا إِلَيْهِ، وكَانَتْ أوقَات القُدَامىٰ تتَسع للشّرُوح والتَّعلِيقَات ومُلحقَاتها، وللنّقَاش الفَارغ (وَ الْغَالِبِ جُنْدُهُ) إنّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ بالحُجّة والبُرهَان في ٱلْحَيَاة الدُّنيا، وبالقُوَّة والسُّلْطَان فِي الدَّار الْآخِرَة.

(وَ الْمُتَعَالِي جَدُّهُ) أي كمَاله وجَلاَله (أَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ التُّؤَامِ، وَ آلاَئِهِ الْعِظَامِ) بكَثرَتها وتَتَابعها، وٱلرِّزْق والصّحة من النِّعَم، مَا فِي ذَلِكَ رَيبٌ، ولكن النِّعْمَة العُظمىٰ عِند الْإِمَام هِي الْهِدَايَة، والْقُدْرَة عَلىٰ الخَيْرِ وصَالح الأَعْمَال (الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَ عَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ، وَ عَلِمَ مَا يَمْضِي وَ مَا مَضَىٰ). يَقضِي بِعَدل، ويَرحَم بِعِلم، ويَغفر بحِلم حَتَّىٰ كأنّه لَم يُعص (مُبْتَدِعِ الْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، وَ مُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ... إلخ). خَلق الكَوْن بِعِلمه وحِكمَته آخْتِرَاعاً لا مُحَاكَاة لأحدٍ، أو مَشورَته أو حضُوره... كَان الله ولَم يكُن معهُ شيء.

(وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، ٱبْتَعَثَهُ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَ يَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ... إلخ). رَحْمَة للعَالمين، فأنقَذَهُم من الجهَالة والضَّلالة، وقَادهُم إِلىٰ ٱلنُّورِ والْهِدَايَة.. وتَقَدَّم مثلهُ مِراراً[١].

التَّقْوىٰ:

(عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ). لا مَعْنَىٰ لِتَقْوَىٰ الله إِلّا طَاعتهِ، كما يُومىء قَوْل الْإِمَام: (فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ). وَهِي فَرض وَحَتم عَلىٰ العَبد، وهُو تَعَالىٰ يُثِيب عَلَيْهَا سَواء أكَان سَببها والبَاعث عَلَيْهَا الرَّهبة من عَذَابه، أَمْ الرَّغبَة فِي ثوَابه، أَمْ شُكراً لإِنْعَامِهِ وتَعظِيماً لكمَاله، وإِنْ كَانَتْ الطَّاعَة بهَذا البَاعث أفضَل وأكمَل. وبهَذه المُناسبة نُشِير إِلىٰ قَوْل الْإِمَام البَاقر عليه السلام: «والله مَا شِيعتُنا إِلّا من ٱتقىٰ الله»[٢]. وَقَالَ حَفِيده الإِمَام الرِّضا عليه السلام: «لَيس من أولِيَائنا مَن هُو فِي قَريَة فِيها عَشرَة آلاف رَجُل، فِيهِمْ مَن ـ خَلق الله ـ هُو أورَع منهُ»[٣].

(وَ الْمُوجِبَةُ عَلَىٰ اللهِ حَقَّكُمْ). الطَّاعَة حَقّ لله عَلىٰ عَبده، والثَّوَاب عَلَيْهَا حَق للعَبد عَلىٰ رَبّه، والفَرق أنّ طَاعة العَبد لله فَرض بحُكم الْعَقْل، أمّا الثَّوَاب عَلىٰ الطَّاعَة مِنْهُ تَعَالىٰ فَقَد فَرضها هُو عَلىٰ نَفْسَه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٤].

---

(١) أُنظر، الْخُطْبَة السَابقة: (١٩٠). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٢/٧٤ ح ٣، السّرائر: ٣/٦٣٦، وَسَائِل الشّيعة: ١١/١٩٥ ح ١٧، أمَالي الصَّدوق: ٧٢٥، تَفْسِير أبِي حَمْزَة الثُمالي: ٩٤، تُحف العُقُول: ٢٩٥، شَرح الأَخْبَار: ٣/٥٠١ ح ١٤٣٩، صِفَات الشّيعة للصّدوق: ١١، أمَالي الطّوسي: ٣٧٥، عوائد الأيّام: ٧٧.

(٣) أُنظر، الكَافِي: ٢/٧٩ ح ١٥، وَسَائِل الشّيعة: ١٥/٢٤٦ ح ١٤، بحَار الأَنْوَار: ٦٧/٣٠٣ ح ١٤.

(٤) الأَنْعَام: ٥٤.

كَتَبها عَلىٰ نَفْسَه لأنّ سُنَته الإفضَال، وعَادته الإحْسَانِ، وسَبيله العَفُو، كـمَا قَـال الإمَام زَين العَابدِين عليه السلام: «فَسُبحَانَكَ! مَا أَبْيَنَ كَرَمَكَ فِي مُعَامَلَة مَـنْ أَطَـاعَكَ، أَوْ عَصَاكَ؟ تَشكُرُ للمُطِيْعِ مَا أَنْتَ تَوَلَّيْتَهُ لَهُ، وَتُمْلِي لِلْعَاصِي فِيمَا تَمْلِكُ مُـعَاجَلَتَهُ فِـيْهِ، أَعْطَيْتَ كُلاًّ مِنْهُمَا مَا لَمْ يَجِبْ لَهُ، وَتَفَضَّلْتَ عَلىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَا يَقْصُرُ عَمَلُهُ عَنْهُ»[1].

(وَ أَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ). إنْ كُنتَ تُرِيد طَاعة الله حقّاً فاْطلب العُون عَـلَيْهَا مِنْهُ تَعَالىٰ، وقُل صَادِقاً: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[2] فإنّ هَذَا الطَّـلب مِـن الطَّـاعَة أيضاً (وَ تَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَىٰ اللهِ) أي عَلىٰ العَافِية والخلاَص من عذَاب الله حَيْث لا سَبيل إلىٰ النَّجَاة مِنه إلّا بالطَّاعَة (فَإِنَّ التَّقْوَىٰ فِي الْيَوْمِ الحِرْزُ وَ الْجُنَّةُ، وَ فِي غَـدٍ الطَّرِيقُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ). المُرَاد باليَوْم الدُّنيَا، وبِالغَد الآخِرَة، والجُـنَّةُ ـ بـضم الجِـيم ـ الوقَايَة، وعَطفها عَلىٰ الحِرْز للتفْسِير، والمَعْنَىٰ أنّ لِلتَّقْوَىٰ أثرَها البَالغ دُنيَاً وآخِرَة، أمّا فِي الدُّنيَا فلأنَّهَا تبتَعد بصَاحِبها عَن الشَّر، والأَذَىٰ، والفِتَن، والجَـرَائِم. ومـن البَداهة أنّ هَذَا المُتقِي أعظم النَّاس رَاحةً واستقرَاراً، ولهُ فِي الآخِرَة مَسَاكن طَيِّبَة، وأجر كَرِيم.

(مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ). وهُو الإسْتِقَامَة، والعِلم، والعَمَل النَّافع للأفْرَاد والجَمَاعَة (وَ سَالِكُهَا رَابِحٌ). وأي شَيء أَكثَر رِبحَاً للمَرء من أثرٍ نَـبِيل يَـنْتَفع بـهِ النَّـاس؟ (وَ مُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ) مَن يَتقِي الله فَقَد جَعَل تَقوَاه وَدِيعَة عِند الله، وهُو سُبْحَانَهُ يَحفظهَا لهُ، ويُكافِئَهُ عَلَيْهَا بِأحسَن مِنْهَا (لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَىٰ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَ الْغَابِرِينَ... إلخ). مَا مِن أَحدٍ إلّا وهُو يَسْتَطِيع أنْ يَتقِي الله سَوَاء أكَان مِن القرُون

---

(١) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَادِية: الدُّعاء السّابع والثّلاثون (دُعَاؤُهُ فِي الشُّكرِ): ٤٣٨، بتحقيقنا.

(٢) هُودٍ: ٨٨.

الخَالِية، أَمْ الْحَاضِرة أَمْ الآتِيَة.. أَللَّهُمَّ إلاّ إذا كَان وَحشاً كاسِراً... وأيضاً مَا مِن أحدٍ إلاّ وهُو فِي حَاجَة إلىٰ التَّقْوىٰ يَوْم الْقِيامَة، لِأَنَّهَا السَّبِيل الوَحِيد للنَّجَاة. وفِي الحَدِيث: «كَفُّ الأَذَىٰ عن النَّاس صَدَقة»[1].

(أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَىٰ) أي أنّ الإنْسَان فِي أشدّ الحَاجَة إلىٰ التَّقْوىٰ فِي يَوْم الْقِيَامَة، وقَوْله: «أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَىٰ» إشَارة إلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[2]. (وَ أَخَذَ مَا أَعْطَىٰ). الله يُحيِي ويُمِيت (وَ سَأَلَ عَمَّا أَسْدَىٰ) لتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عن النَّعِيمِ (فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا) لأنّ الكِرَام قَلِيل (فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا... إلخ). اسْتَجِيبُوا الدَعْوَة التَّقْوَىٰ، واعْمَلوا بِهَا، واجْعلُوها نِعَم الخَلف لمَا سَلَف مِن الذّنُوب (وَ مِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً) مَن أسْلَفَ المَعْصِيَة وخَالف التَّقْوىٰ فليَستَدرك الآن، ويَعمل بمُوجِبها وعَلىٰ وِفقهَا قَبل الفوَات.

(أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ). للغَفلَة عَثرَات، والتَّقْوىٰ دُرع حَصِين من الغَفلاَت والعَثرَات (وَ اقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ). اشغلوا يَوْمَكُمْ بالطَّاعَات لا بالمُحَرَّمَاتِ (وَ أَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ). اجْعَلوا قُلُوبَكُمْ تَحس، وتَشعر بالتَّقْوىٰ، فإنَّهَا رَبِيع الْقُلُوب (وَ ارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَ دَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ، وَ بَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ). التَّقْوىٰ للنَّفْس طَهُور، ولأَدْوَائها دَواء، ولمُوتها عِدة وقُوَّة (وَ اعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَ لاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا). نَبذَ غَيرِكُمْ التَّقْوىٰ فأخَذه الله بالعذَاب، فاعْتَبِرُوا بِه، ولا تَكُونُوا عِبرَة لِمن سَمِع وأطَاع.

(أَلاَ فَصُونُوهَا وَ تَصَوَّنُوا بِهَا). لا تُدَنسُوا التَّقْوىٰ بالتَّأوِيلات، واتّخَذُوا مِنْهَا

---

(١) قَرِيب مِنْهُ فِي الكَافِي: ٤٨٨/٣، الفَقِيه: ٤٧٢/١ ح ١٣٦٠، الوَسَائِل: ٢٦٩/٥ ح ٣.

(٢) الأَنْبِيَاء: ١٠٤.

جِزْزَاً رَادِعاً عن الْمُحَرَّمَات (وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً) بَعد أنْ حَثّ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ وبَيَّن محَاسنها، حَذَر من الدُّنيَا ومَساوئها، والْمَعْنَىٰ: نَزِّهوا أنْفُسكُم بحلاَل الله عن حَرَامه (وَ إِلَىٰ الآخِرَةِ وُلَّاهاً) أي آعْمَلوا لهَا عَمَلاً (وَ لاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَىٰ). إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ. فلا يَكُن الكَرِيم عِندَه حَقِيراً عِنْدَكُم (وَ لاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا) لمَالٍ أو سُلْطَانٍ. فإنّ الْفَقْر والْغِنَىٰ بَعد العَرض عَلَىٰ الله (وَ لاَ تَشِيمُوا بَارِقَهَا) لا تَنْظرُوا إلىٰ زِينَة الدُّنيَا وزُخرُفها، وأزهدُوا فِي حَرَامها وحُطَامها (وَ لاَ تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَ لاَ تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَ لاَ تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَ لاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا). إلىٰ مَن يُوسوس ويُزين لكُم القَبَائح والسَّيِّئَات، ويَضفِي عَلَيْهَا أثوَاب النِّعَم، والخَيْرَات.

دَارُ حَرَبٍ وَ سَلَبٍ....فِقْرَة ٤ ـ ٥:

فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، وَ نُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَ أَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَ أَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلاَ وَ هِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، وَ الْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَ الْمَائِنَةُ الْخَئُونُ، وَ الْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَ الْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَ الْحَيُودُ الْمَيُودُ. حَالُهَا آنْتِقَالٌ، وَ وَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَ عِزُّهَا ذُلٌّ، وَ جِدُّهَاهَزْلٌ، وَ عُلْوُهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرَبٍ وَ سَلَبٍ، وَ نَهْبٍ وَ عَطَبٍ. أَهْلُهَا عَلَىٰ سَاقٍ وَ سِيَاقٍ، وَ لَحَاقٍ وَ فِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَ أَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَ خَابَتْ مَطَالِبُهَا[٤]، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ، وَ لَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ، وَ أَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَ لَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَ شِلْوٍ مَذْبُوحٍ، وَ دَمٍ مَسْفُوحٍ، وَ عَاضٍّ عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَ صَافِقٍ بِكَفَّيْهِ، وَ مُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ، وَ زَارٍ عَلَىٰ رَأْيِهِ، وَ رَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ، وَ قَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ،

وَ أَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ ، ﴿ وَّ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[١] . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ ، وَ ذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَ مَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾[٢][٥] .

اللُّغَة:

خَالِبٌ : خَادِعٌ . ومَحْـرُوبَةٌ ، وَسْلُوبَةٌ بِمَعْنَىٰ وَاحِد . والْمُتَصَدِّيَةُ : الْمُتَعَرِضَةُ . والْعَنُونُ : مِن عَنَّ الشّيء إذَا ظَهَر . وفَرَسٌ جَامِح وجَمُوح : يَركب رَأسه لا يُثنِيه شَيء . والْحَرُونُ : المُمتَنِعَة عن السّير . والْمَائِنَةُ : الكَاذِبَة . والْخَئُونُ : مُبَالَغَة فِي الخِيَانَة . والْجَحُودُ والْكَنُودُ بِمَعْنَىٰ واحد . والْعَنُودُ : مُبَالغَة فِي العِنَاد . والصَّدُودُ : مُبَالغَة فِي الصَّد والهَجر . والْحَيُودُ : مِن حَاد ومَال عَن الطَّرِيق . والْمَيُودُ : مِن مَادَ إذَا تَحَرَك واَضْطَرَب . وحَرَبٍ ـ بفتح الرَّاء ـ السَّلب . والْمَحَاوِلُ : جَمع مَحَالَة : وَهِي الْقُدْرَة عَلَىٰ التَّصَرف . ومَعْقُورٍ : مَجْرُوحٍ . ومَجْزُورٍ : مَنْحُور أو مَسْلُوخ . والشِّلْو : وَلد النَّاقة والعُضْو . ومَسْفُوحٍ : مَسْفُوك . والْغِيلَةُ : الشَّر . والبَال : الْقَلْب والخَاطِر .

الإِعْرَاب:

دَارُ حَرَبٍ خَبَر لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هِي دَار ، فَمِنْ نَاجٍ مُتَعَلِّق بِمحذُوف خَبَراً لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هُم بَيْنَ نَاجٍ مَعْقُورٍ . . . إلخ . وَّ لَاتَ حِينَ «لَا» تَعمل عَمل لَيْسَ تَرفع الاِسم ، وتَنصب الْخَبَرَ ، والتَّاء زَائِدَة مِثل تَاء رُبَّة ، وَقَالَ اَبن هُشَام : «وعَملها

(١) سُورَةُ ص : ٣.
(٢) سُورَةُ ٱلدُّخَانِ : ٢٩.

وَاجب، ولهُ شَرطَان: كُون معمُوليها آسمي زَمان، وحُذف أحدهُما، والغَالب كُونه المَرفُوع ـ أي الاِسم ـ نَحو وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ أي لَاتَ الحِين حِين مَناص أو لَيْسَ الحِين حِينَ مَنَاص» فالحِين الأَوَّل آسمها، والحِين الثَّانِي خَبَرها، وهَيْهَاتَ آسم فِعل بِمَعْنَىٰ بَعُد.

الْمَعْنَىٰ:

(فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ). ذَكَرنَا مَعَانِي المُفردَات فِي فِقْرَة اللُّغَة، ولا شَيء وَرَاءها غَيْر ذَمّ الدُّنيَا، وَهِي فِي نَظَر الْإِمَام ﷺ كَارثة ومَأسَاة، ولاَ حَدّ ونهَاية لمَا فِيها مِن سُوء وشَرّ، والطّامع فِيها خَاسر إلّا مَا كَان مِنْهَا وَسِيلة للخَيْر والْعَمَل النّافع، وتَقَدَّم ذَلِكَ مرّات ومرّات، ونَعُود الآن إلىٰ هَذَا المَوْضُوع بأُسلوب آخر، ونَتَساءَل بوحِي من كَلاَم الإِمَام فِي هَذِه آلخُطْبَة:

هَل مِن حَال وَاحدة من حَالات الدُّنْيا يُمكن الرّكُون إِلَيْهَا والاِعْتمَاد عَلَيْهَا؟ ومَا هِي هَذِه الحَال؟ هَل هِي الشَّبَاب، أو الصَّحَة؟ ولا أَحد أَكْثَر قَلقاً وآهتزَازاً من شَبَاب هَذَا العَصر... وهَل يُنجِي الشَّبابُ مِن المَوْت، والصَّحَة والسُّقُم؟ وإِذَا تَجَاوزنَا الشَّبَاب والصَّحَة إِلىٰ المَال والثَّراء، والنُّفُوذ والسُّلْطَان فهَل يَدُوم شَيء مِن ذَلِكَ، أو يَسلَم من الآفَات والمُفَاجآت؟ وقَد رَأينا وقَرأنا ألوَاناً من الحَادثَات حلّت بِأهل الجَاه والمَال، ورَأيناهُم مَعَهَا يَتمنُون لَو كَانوا نَسياً مَنسِياً.. وبالأمس القَرِيب آنْتَحَر هِتلر... ومَنْ الَّذي لَمْ يَفقد عَزِيزاً، أو يَقع فِي أزْمَة خَانقة؟.

والآن هَل فَهِمت حَقِيقَة الدُّنْيا؟ وهَل تُعِيد النَّظر فِي مُوقفَك مِنْهَا، وتَرَاها ـ كمَا رَآها الْإِمَام ـ وَسِيلة، والهَدَف هُو الْعَمَل لِبنَاء مُجتمعٍ صَالح، كمَا أَرَاده الله، وَرَسُوله

الَّذي قَال: «لا تُؤمنُوا... حَتَّىٰ تَحابُوا... أفشُوا السَّلاَم بَيْنَكُمْ» ولا حُبّ وسلاَم مَا وِجدَ عَلىٰ ظهرها شَائِبَة للظُّلم والْعُدْوَان»[1].

(أَهْلُهَا عَلَىٰ سَاقٍ وَ سِيَاقٍ) كِنَايَة عَن حَالة النَّزع، والاِحتضَار حَيْث تَلتوِي إحدىٰ سَاقِي المُحتَضِر عَلىٰ الأُخرىٰ مِن شدّة الهَوْل. قَال سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِإِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[2]. (وَ لَحَاقٍ وَ فِرَاقٍ) هُم السَّابقُون، ونَحنُ اللاَحقُون (قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَ أَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَ خَابَتْ مَطَالِبُهَا... إلخ) أي تَحيَّر النَّاس فِيها (وَ مُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ). المِرْفَق هُو المُوصل بَيْنَ السَّاعد والعَضُد، والْمَعْنَىٰ وَاضع خَدَّيْهِ فِي كَفيّه، ومَرْفَقِيه عَلىٰ رُكبتِيه، والْمُرَاد أنّه حَزين كَئِيب (وَ مَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا). مَضَت لشَأنها وفِي طَرِيقها لا تَلوِي عَلىٰ شَيء، ولاَ تَكْتَرث بِمَن كَان يَعبُدها ويَحرَص عَلَيْهَا.

(١) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١/١٦٥، صَحِيح مُسْلِم: ١/٥٣، سُنن ابن ماجه: ١/٢٦ ح ٦٨ و: ٢/١٢١٧ ح ٣٦٩٢، سُنن التِّرمِذي: ٤/٧٤ ح ٢٦٢٨، المُصَنَّف لِابْن أبِي شيبة: ١٠/٣٨٥ ح ١٩٤٣٨ و ١٩٤٤٠، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٢/٣٣ ٤ و ٥ (٦٦٩ و ٦٧٠) السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٠/٢٣٢.

(٢) الْقِيَامَة: ٣٠.

الخطبة

-١٩٢-

ما بَيْنَ اللهِ وَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ وصَدَاقَة...فِقْرَة ١ ـ ٢:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَ الْكِبْرِيَاءَ، وَ اخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَ جَعَلَهُمَا حِمىً وَ حَرَماً عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَ اصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ.

وَ جَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَىٰ مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَ هُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَ مَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾[1] اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَىٰ آدمَ بِخَلْقِهِ، وَ تَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَ سَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَ نَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَ ادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَ خَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَ وَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَ

---

(١) سُورَة ص: ٧١ ـ ٧٤.

أَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً[١] ؟!

وَ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَ يَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَ طِيبٍ يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ. وَ لَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَ لَخَفَّتِ الْبَلْوَىٰ فِيهِ عَلَىٰ الْمَلاٰئِكَةِ، وَ لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالإِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَ نَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَ إِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَ جَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَ كَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلافِ سَنَةٍ، لاٰ يُدْرَىٰ أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَىٰ اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلاَّ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَ أَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَ مَا بَيْنَ اللهِ وَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ[٢].

اللُّغَة:

الحَرَم ـ بفتح الحَاء والرَّاء ـ مَا يَحميه الإِنْسَان، ويُدَافع عنهُ. والحَمِيَّةُ: الأَنَفَة. والجَبْرِيَّة: العِلو والعَظَمَة. والرُّوَاء: حُسن المَنظَر. والعَرْفُ ـ بفتح العَيْن ـ الرَّائِحَة. والهَوَادَة: الرُّخصَة واللِّين.

الإِعْرَاب:

سَاجِدِينَ حَال مِن فَاعِل فَقَعُوا، وتَمْيِيزاً مَفْعُول من أجلِه لِيَبْتَلِي، فَمَنْ ذَا مُبْتَدَأ وخَبَر، وبَعْدَ مُتَعَلِّق بِيَسْلَمُ، وعَلَىٰ اللهِ «عَلَىٰ» بِمَعْنَىٰ مِن، قَال تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ إِذَا

ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾(١). وكَلاً حَرف رَدع وزَجر.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَ الْكِبْرِيَاءَ... إلخ). ٱلْمُتَكَبِّرُ هو الَّذي يَرَىٰ غَيْرَه حَقِيراً بالإضَافة إِلَيْهِ، فإنْ كَانَتْ هَذِه الرُّؤيَة صَادِقَة، ومَن الْقَوِيّ فِي كلّ شَيء، والكَامِل مِن كلّ وَجه ـ كَان التَّكبُّر مَدحاً لازماً، وإنْ كَانَتْ الرُّؤيَة مِن ضَعِيفٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ومِن الله ـ كَانَتْ الرُّؤيَة كَاذِبَة، والتَّكَبُّر قَبِيحاً ومَذمُومَاً، ومِن البَدَاهة أنّ الله سُبْحَانَهُ هُو وَحده الكَامِل مِن كلّ جِهة، والقَاهِر فُوق عِبَاده، وإنّ كلّ شَيء سَواه فِي قَبضتهِ، وفِيض من رَحمتهِ، وعَلَيْهِ تَكُون كِبْرِيَاؤه وتَكَبْرَه تَعَالَىٰ حقّاً ومَدحاً، وكلّ مُتَكبْرِ غَيْره فهُو مُفترٍ كَذَاب، ولذَا جَاء فِي الحَدِيث القُدسِي: «الْكِبْرِيَاء رِدَائِي، والعَظَمَة إزَارِي فَمَن نَازعنِي فِيهِمَا قَصَمتَه»(٢). وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٣).

(ثُمَّ ٱخْتَبَرَ بِذٰلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ). ذَلِكَ إشَارة إِلىٰ الْكِبْرِيَاء أو المُنَازَعَة فِيهَا، والْمُرَاد بالاخْتبَار هُنا مُجرد التَّمييز

(١) سُورَةُ ٱلْمُطَفِّفِينَ: ٢.

(٢) أنظر، صَحِيح ٱبن حبّان: ٣٥/٢ ح ٣٢٨، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ١٢٩/١ ح ٢٠٣، موارد الظّمآن: ٤٢/١ ح ٤٩، سُنن أبي داود: ٥٩/٤ ح ٤٠٩٠، سُنن ٱبن ماجه: ١٣٩٧/٢ ح ٤١٧٤، المُعجَم الأوسط: ١٠٣/٩ ح ٩٢٥٣، مُسْنَد أحمد: ٢٤٨/٢ ح ٧٣٧٦، شُعب الإيمَان: ٢٨١/٦ ح ٨١٥٨، فَيض القَدير: ٤٨٤/٤، مِيزان الإعْتِدَال في نقد الرّجَال: ٩١/٥، كَشف الخَفَاء: ١٣٣/٢ ح ١٨٩٩، عِلل الدّار قُطني: ٢٨٩/٨ ح ١٥٧٧.

(٣) ٱلزُّمَر: ٦٠.

والإظْهَار، لأنّ الله يَعلم السّر، وأخفى، والمَعْنَى أنّه تَعَالىٰ أَرَاد أنْ يَظهر لِمَلاَئِكَته وغَيْرهم، من عَصَىٰ وتَكبر عَلىٰ أمْره، ويُمَيِّزه عمّن أطَاع وتَوَاضع، فأمَرَ المَلاَئِكَة أنْ يَسْجِدُوا لآدَم الَّذي خَلَقه من تُرَاب، يُداس بالأقْدَام، ولا شَيء أهْون مِنْه، فٱسْتجَابوا لأمْره طَائِعين، بل ومُغتَبطِين أيضاً بحلاَوة الطَّاعَة، ولذَتها، ورَفَض إبْلِيسَ بصَلافة، وٱحتجَ عَلىٰ الأَمْر وٱعتَبَره إهَانة لهُ، ومَسَّاً بكرَامته تَمَاماً كما يَفعل بَعْض أرْبَاب المَنَاصب الَّذِين يَقُولون: «لاَ نَسْمَح، ولاَ نَرْضَىٰ بهَذا» إذَا سَمِعُوا كَلِمَة حَقّ، ونَصِيحَة.

رَفَضَ إبْلِيسَ وتَفَلْسَفَ، وأظْهَر مَا كَان يُبطن من التَّرفع، والتَّكَبُّر، وَقَالَ لله بِشمُوخ أَمِثْلِي يُقَال هَذَا؟ وكَيْفَ أسْجُد لِمَن هُو دونِي؟ أنَا خَيْرٌ مِنْهُ، هُو من تُرَاب، والتُّرَاب أرْض وظَلاَم، وأنَا مِن نَار، والنَّار تَعلو وتَشرُق!... وكلّ مِن يَرَىٰ نَفْسَه شَيْئَاً فَمَا هُو بشيء عِند الله، قَال سُبْحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[1]. وَقَالَ الرَّسُول الأعْظم ﷺ: «أَللَّهُمَّ إلَيْك أشكُو ضَعفِي وقِلة حِيلتِي»[2].

وبَعد، فَلا رَذِيلة أثْقَل، وأسْمَج مِن التَّكبُّر، وبالخصُوص إذَا كَان سَبَبه التَّعَصُّب للأصلِ، والعِرق (أَلا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ... إلخ). الضَّمِير لإبْلِيس.. ٱسْتَعظَم نَفْسَه، وٱسْتَصغَّر غَيْره، فصَغَّرَهُ اللهُ وحَقَّرَهُ... وكلّ مَن يَأنف من المُسَاوَاة مَع مَخلُوق، ويَستَأثر عَلَيْهِ بغَيْر حَقّ فهُو أحقَر كَائن... إنّ الخَلق كلّهم عِبَاد الله،

---

(١) ٱلرّوم: ٥٤.

(٢) أنظر، تَفسِير القُرطُبي: ٢١١/١٦، تَفسِير ٱبن كَثِير: ١٦٤/٤، الأَحَادِيث المُختَارة: ١٨١/٩ التَدوين في أَخبَار قَزوِين: ٨٢/٢، السِّيرَة النَّبوِيّة: ٢٦٨/٢، تَأريخ الطَّبَري: ٥٥٤/١.

والْكِبْرِيَاء والعَظَمَة لله وَحدَه. وتَقَدَّم الكلاَم عَن قِصَّة إبْلِيس مع آدَمَ[١].

الْمَلاَئِكَة، وَالأَنَانِيَة:

(وَ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ... إلخ). لمَاذا خَلَقَ الله آدَمَ من مَادَّة لا وَزن لهَا ولاَ ثمَن، ولَمْ يَخْلقَه من أعزّ الأَشْيَاء وأثمنِهَا؟ وأجَاب الإمَام بِأنّ المَلاَئِكَة يُشاركُون الإنْسَان فِي حُبّ الذَّات، والأَنَانِيَة، وإنْ كَانَتْ طَبِيعتهُم، وَظرُوفهُم غَيْر طَبِيعَة الإِنْسَان وظرُوفه... فالإنْسَان يُحابِي نَفسَه، ويُعطِيهَا فضَائِل لَيْست فِيهَا، وقَد يَملِكَه الغُرُور بِصفَة كَالعِلم، فَيَأنف بِسببهَا مِن المُسَاوَاة مَع الآخرِين، والتَّوَاضع لِمن هُو دونه عِلمَاً ومكَانة.. ومَا إِلى ذَلِكَ من لوَازم حُبّ الذَّات وآثَارها، ولا بُدّ من وجُود هَذِه الأنَانِيَة فِي المَلاَئِكَة، وبِهَا يكُون لهُم الاِخْتِيار والحُرِّيَّة وإلاّ بَطَل تَكْلِيفهم، ولَمْ يَكُن لَهُم مِن فَضل فِي أي شَيء، وكَانُوا تَمَامَاً كالثَّمَرَة عَلىٰ الشَّجَرَة، والرِّيشَة فِي مَهَب الرِّيح... وبِكَلِمة أنّ الأَنَانِيَة فِي المَلاَئِكَة كَغَريزَة الجِنْس فِي الإِنْسَان حَيْث يَسْتَطِيع كَبْحَهَا، والصَّبر عَلَيْهَا.

وبَعدَ أنْ خَلَق سُبحَانَهُ حُبّ الذَّات فِي المَلاَئِكَة بالمَعْنَىٰ الَّذي أشرنَا إِلَيْهِ، وأعْطَاهُم الحُرِّيَّة الكَامِلة ـ أرَاد أنْ يُظهر كُلاً مِنهُم عَلىٰ حَقِيقَته بالفِعْل الَّذي يَستَحِق بِهِ المَدح أو الذَّم، فخَلَق آدَمَ مِن طِينٍ، وأمَرهُم بالسّجُود لهُ (تَمْيِيزاً بِالاِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَ نَفياً لِلاِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَ إِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ مِنْهُمْ) فمن سَمع وأطَاع فهُو من المُقَرَّبِين، ومن أَعرَض ونأىٰ فهُو مَطرُود مِن رَحمتهِ تَعَالىٰ كَإبْلِيسَ، ولو أنّ الله

(١) أنظر، شَرح الخُطْبَة: (١) فِقرَة «آدَمَ وإبْلِيس»، (مِنْهُ).

خَلَق آدَمَ «مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَ يَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَ طِيبٍ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ» ثُمّ أمَرَهُم بالسّجُود فَٱمْتَثلوا وَسَجَدُوا ـ لَو كَان الأَمْر كَذَلِكَ لَم يَكُن للمَلَائِكَة مِن فَضل، لأنّه لا يَتعَارض مَع الأَنَانِيَة وحُبّ الذّات. ويَأتِي فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة إنّ الله سُبْحَانَهُ ٱخْتَبَر عِبَاده بأحْجَار لا تُبصر، ولا تسمَع، وإنّه لهذه الْغَايَة جَعَلها بأوْعَر بقَاع الأَرْضِ.

الفَرْق بَيْنَ الشَّيْطَان وَإبْلِيس:

(فَٱعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ... إلخ). فِي الْقُرْآن الكَرِيم كَلِمَات يَسْتَوِيَ فِي مَعْرِفَتها العَالِم والْجَاهِل مثل ٱلْأَعْيُن والآذَان، وكَلِمَات يَعرفها أَهْل اللُّغَة مِثل كَلِمَة الطَّلْح[1] ـ المُوز ـ وكَلِمَة شَطأ الزَّرعُ أي مَا يَتفَرع عَنْه من أغْصَان وَثَمر، وفِيهِ كَلِمَات يَجب الرُّجُوع فِي فَهمها والْمُرَاد مِنْهَا إِلىٰ الْقُرْآن نَفْسَه، أو إِلىٰ النَّص مِن المَعصُوم، ومِن هَذَا النَّوْع كَلمتا إبْلِيسَ والشَّيْطَانَ حَيْث لاَ نَعرف كَائِناً يُقَال لهُ: إبْلِيسَ أو شَيْطَان.

وقَد رَأينا الذِّكر الحَكِيم يَطلق كَلِمَة الشَّيْطَان عَلىٰ الشَّيْطَان الإنْسِي، والشَّيْطَان الجِنّي، وعَلىٰ الوَسوَسَة والخَوَاطِر السُّوداء. قَال تَعَالىٰ: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[2]. وَقَالَ تَعَالىٰ فِيمَا يَعُود إِلىٰ الوَسوَسَة ونَحوَها: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3].

---

(١) أُنظر، مُختار الصَّحَاح: ١٦٦/١، الغَرِيب لِابن قُتَيْبَة: ٥٢٣/٢، لِسَان العَرَب: ٥٣٣/٢.
(٢) الأَنْعَام: ١١٢.
(٣) ٱلأَعْرَافِ: ٢٠١.

وَأوضحُ مِن هَذِه الآيَة قَوْله تَعَالىٰ حِكَايَة لقولِ يُوسُفَ: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾(١). ومَا نَزَع بَيْنَ يُوسُفَ وبَيْنَ إخْوَتِه إلّا عَدَاوة الحَسَد.

أمّا إبْلِيس فهُو كَائِن حِسي يَدرك، ويَعقل، ويفعل، ويَترك بإرَادَته وآخْتِيَاره، ولذَا خَاطَبَه سُبْحَانَهُ، وَقَالَ لهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾(٢)، وطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ، وآحتَج هُو بأصْله، وهَدَد وتُوعد بِكَيدِه وضَلاَلته، وَقَد أجَابَه، جَلّت كَلِمَته: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣). وإذَنْ فتأوِيل كَلِمَة إبْلِيسَ بِغَير الحِسي ـ جَهلٌ، وتَضلِيل، أمّا كَلِمَة الشَّيْطَان فَيصح تَأوِيلها بمَا يُوسوس، ويُـزين حِسياً كَان أو مَعنُوياً.

(إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّـوِيلَ، وَ جَـهْدَهُ الْـجَهِيدَ، وَ كَـانَ قَـدْ عَـبَدَ اللهَ سِـتَّةَ آلافِ سَنَةٍ.. إلىٰ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ). هَذَا شَاهد آخَر عَلىٰ أنّ إبْلِيسَ كَائن حِسي لا مَعنُوي، وإنّه عَبد الله دَهراً طَويلاً، ثُمّ آرتَد ونَكص عَلىٰ عقبيه حَيْث تَمَرّد عَلىٰ أَمْرِه تَـعَالىٰ فكَان من الخَاسرِين، أمّا التَّحدِيد بسِتَّة آلافِ أو دُونَها أو أَكْثَر مِنْهَا كَمَا فِي بَعْض الرِّوَايَات فهُو كِنَايَة عن طُول أمد الْعِبَادَة، وإنَّها لَم تُجدِه نَفعاً مَع مَعْصِيَة لحظَة، كَمَا قَال الْإِمَام: (فَمَنْ ذَا بَعْدَ إبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَىٰ اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ)؟ أي مَعْصِيَة إبْلِيسَ والطَّرد مِن رَحْمَة الله، وإحْبَاط الْعِبَادَة الّتي آمتَدت أمَداً غَيْر قَـصِير، ومَـهما كَـان الْمُرَاد بِتَحدِيد أمَد عِبادة إبْلِيسَ فَنحن غَيْر مَسْئُولين عَن مَعرِفَته يَوْم الْقِيَامَة، ولاَ يَمُت إلىٰ حيَاتِنا بِسببٍ قَرِيب، أو بَعِيد.

---

(١) يُوسُفَ: ١٠٠.

(٢) الْأَعْرَافِ: ١٢.

(٣) سُورَةُ صٓ: ٨٥.

(كَلاَّ ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً) بِفَتح اللاَّم ، والْمُرَاد بِهِ هُنا إِبْلِيسَ ، والْمَعْنَىٰ إنّ الله طَرَد إِبْلِيسَ مِن رَحْمَته لمَعْصِيَة وَاحدَة ، فَكَيْفَ يَرجُو رَحْمَته تَعَالىٰ مَن عَصَاه فِي كَثِيرٍ مِن الذّنُوب ؟ . كَلّا : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] . (إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَ أَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ) . لَيْسَ للهِ صَدَاقَة وعلاَقَة مَع أحَد مِن خَلْقه ، فكلّ عِبَاده عِندَه سَوَاء يَتعَامل مَعَهُم عَلىٰ أسَاس الْعَمَل : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] سَوَاء أكَانُوا مِن أهْل الأَرْضِ أَمْ مِن أهْل السَّماء .

وَتَسْأَل : كَيْفَ عَدّ الإِمَام إِبْلِيسَ مِن الْمَلاَئِكَة مَع أنّ الآيَة تَقُول : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[3] ؟ .

الجَوَاب:

إنّ الإِمَام عَدّ إِبْلِيسَ مِن الْمَلاَئِكَة تَبعاً لهَذه الآيَة حَيْث ٱعْتَبَرَت إِبْلِيسَ مِن الْمَلاَئِكَة ، ثُمّ أَخْرجَته مِن بَيْنَهِمْ بَعد أنْ فَسَقَ ، وتَمَرّد ... وهُو مِن الجنّ مَا فِي ذَلِكَ رَيبٌ ، لنَّص الآيَة ، ولكن الله سُبْحَانَهُ أجرىٰ عَلَيْهِ حُكم الْمَلاَئِكَة ، وأمَرَهُ بِالسّجُودِ كمَا أَمَرَهُم ، لأنّه كَان يُشارِكهُم فِي الْعِبَادَةِ وَيَزِيد ، ولمّا كَان مِنْهُ مَا كَان أُخرِج مِن بَيْنَهِمْ وطُرِد ، وعَلَيْهِ فكَان مِن الْمَلاَئِكَة حُكماً ، وهُو من الجِنّ مَوْضُوعاً نُجِيب بهَذا لمُجَرد التُّوجِيه ... والله أعْلَم بِغَيْبِهِ .

---

(١) ٱلْأَعْرَاف : ٥٦.

(٢) فُصّلَتْ : ٤٦.

(٣) ٱلْكَهف : ٥٠.

فِي كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودٌ لإِبْلِيسَ...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

فَٱحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَ أَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَ أَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَ رَجِلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَ أَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَ رَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَ رَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَ إِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَ فُرْسَانُ الْكِبْرِ وَ الْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّىٰ إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَ ٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ. فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَىٰ الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَ دَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَ أَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَ أَوْطَئُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَ حَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَ دَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَ قَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَ سَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَىٰ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ[2]. فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَ أَوْرَىٰ فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَ عَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَٱجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَ لَهُ جِدَّكُمْ. فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلِكُمْ، وَ وَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَ دَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَ أَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَ قَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَ يَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لاٰ تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَ لاٰ تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَ حَلْقَةِ ضِيقٍ، وَ عَرْصَةِ مَوْتٍ، وَ جَوْلَةِ بَلاٰءٍ. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَ أَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَ نَخَوَاتِهِ، وَ نَزَغَاتِهِ وَ نَفَثَاتِهِ[4]. وَ ٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَىٰ رُءُوسِكُمْ،

---

(١) ٱلحِجْر: ٣٩.

وَ إِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَ خَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَ اتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَ جُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَ أَعْوَاناً، وَ رَجِلًا وَ فُرْسَاناً، وَ لاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَىٰ مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَ قَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَ نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَ أَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٥).

اللُّغَة:

الرَّجْل ـ بفتح الرَّاء وسكُون الجيم ـ جَمع رَاجِل أي يمشي عَلىٰ رِجْلِيه.

وفَوَّقَ السَّهْمَ: وَضَعَه فِي الوَتَر. أَغْرَقَ الأَمْر: بَالَغ فيهِ. ونَزْع بِالسَّهم: رَمىٰ بهِ، وبِالدلُو: جَذَبَهَا. والمجمُوع مِن الرِّجَال: الْعَنُودُ. والطَّمَاعِيَّةُ: الطَّمَع.

ونجمَت: ظَهَرَت. وَدَلَفَ: مَشىٰ. ووَرَطَاتِ: جَمع وَرطَة ـ بِفتح الوَاو ـ وَهِي الأَمْر الشَّاق. وخَزَائِمِ: جَمع خزّام أو خَزِيمَه، وَهِي حَلَقة يُشد فِيهَا الزِّمَام. وَأَوْرَىٰ الزَّند: أخرَج نَاره. ومُنَاصِبِينَ: مجَاهِرين بالعَدَاوة. ومُتَأَلِّبِينَ: مجْتَمِعِين ومحْتَشِدِين. وأَجْلَبَ: صَاح. والمَسْلَحَة: الْقَوْم المُسْلحُون أو المَكَان الَّذي يُرَابطُون فيهِ.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ يُعْدِيَكُمْ المَنصُوب بِنَزع الخَافض أي احْذَروا مِن عَدوَاه لَكُم، وقَذْفاً نُصب عَلىٰ الْمَصْدَرِيَة أي يَقْذف قَذْفاً أو فِي مَوضع الحَال أي قَاذْفاً، ومِثله رَجْماً وطَعْناً وَمَا بَعدَه، وفِي حَوْمَةِ مُتَعَلِّق بِمحذُوف حَالاً مِن كَاف الخِطَاب في

يَقْتَنِصُونَكُمْ.

الْمَعْنَىٰ:

(فَٱحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَ أَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ... بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ). الْمُرَاد بِعَدُوّ الله إِبْلِيسَ، وبِنِدَائِهِ، وبِخَيْلِهِ، وَرَجِلِهِ وسَهْمَه ـ المُغرِيَات والشَّهوَات، وإنّه بِها يَصطَاد ويُضلل أبْنَاء آدَمَ عَدُوّه اللّدُود، وروي عَن إبْلِيسَ إنّه قَال: «مَهمَا تُورع آبن آدَمَ، وآحتَاط لدِينه فإنّي مُوقعه، لا مَحَالَةَ، بِجَرِيمَة مِن ثَلاث: أنْ يَأخُذ الْمَال مِن غَيْر حِلٍّ، أو يَمنَعه مِن غَيْر حَقٍّ، أو يُنفقَه فِي غَيْر وَجهٍ»[1]... فالدّرهَم والدِّينَار هُما المَحَك الوَحِيد أخذاً وَعَطَاءً، والحَد الفَاصل بَيْنَ الإِخْلاَص، والخِيَانة، وبِهما يُمتَحن الْمُؤْمِن لا بِصلاَته وصِيَامه، ولا بِتوَاضعه، أو بَأية فَضِيلة مِن الفضَائِل.

(وَ رَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]. الشَّيْطَان لا يَعتدِي عَلَىٰ أحدٍ، إنّه يُزيّن ويُحسّن، ويُغرِي ويَكذِب فِي الموَاعِيد، وخيَار الإِنْسَان بِيَده، تنَازل عَنهُ لِلشَّيْطَانِ، وأسلَم لهُ الْقِيَاد ـ فَعل بِهِ مَا يشَاء، ورَمَاه مِن قَرِيب حَيْث يَجرِي مِنْهُ مَجرىٰ الدَّم[3]... وَقَالَ بَعْض

---

(١) أُنظر التَّخوِيف من النَّار لِابن رَجب الحَنبلِي: ١/٢٠٤.

(٢) ٱلْحِجْرِ: ٣٩.

(٣) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٣/١٥٦ ح ١٢٦٤، سُنَن أبي داود: ٢/٣٣٣ ح ٢٤٧٠، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢/٧١٧ ح ١٩٣٣، تَفسِير الطَّبَرِيّ: ١/٢٣٩، صَحِيح مُسْلِم: ٤/١٧١٢ ح ٢١٧٤، تَفْسِير آبن كَثِير: ١/٢٢٥، سُنَن التِّرمِذي: ٣/٤٧٥ ح ١١٧٢، سُنَن الدَّارمي: ٢/٤١١ ح ٢٧٨١، صَحِيح آبن حبّان: ٨/٤٢٨ ح ٣٦٧١، تَفسِير القُرطُبي: ١/٣٠١.

العَارفِين: إنّ الشّيْطَان مُهذب، ويقرع البَاب، ويَتوَارىٰ خَلفه. فإنْ فَتَحتَ لهُ دَخل وإلّا تَركَك وَمَضىٰ فِي سَبيله.

(قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَ رَجْماً بِظَنٍّ مُصِيبٍ). وفي النُّسَخ «غَيْرِ مُصِيبٍ» بزيَادَة «غيْرِ» وهُو خَطأ بدَليل قَول الإمَام بلا فَاصل: «صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ» وقوله تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[1] أي أَصَابَ فِي ظَنّهُ بِهِمْ، ولَمْ يُخطىء، وإذَنْ فَكلِمَة «غَيْرِ» حَشو، والْمَعْنَىٰ إنّ إبْلِيس قَال: لأُغْوِيَنَّ بَنِي آدَمَ، ولَمْ يَكُن عِند قَوْله هَذَا آدَمِي عَلىٰ وَجه الأَرْضِ، وإنّما قَال ذَلِكَ ظَنّاً وَرَجْماً بِالْغَيْب... ومَع هَذَا صَدَق فِي ظَنّه، لأنّ النّاس كلّهُم مِن حَزبه إلّا قَليلاً.

(صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ... إلخ). الهَاء فِي صَدَّقَهُ لإبْلِيس، وفِي «بِهِ» لظَنّه فِي قَوْله: «وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» والْمَعْنَىٰ لقَد صَدَق ظَنّ إبْلِيسَ عَلىٰ أَهْل المَعْصِيَة والْكِبْرِيَاء والْجَاهِلِيَّةِ، وتَسَرَب إلىٰ نفُوسِهِم مِن طَرِيق تَعَصّبهم لأَصْلِهِم، وسَفَهِهِم وحُبّهُم للتّعَاظُم والشُّهرَة الزّائفة (حَتَّىٰ إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَ ٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ... إلخ). الْمُرَاد بِالْجَامِحَة النّفُوس الّتي لَمْ يَقرَع الشّيْطَان بَابها بَعدُ، ولَكِنَّهُ عَلىٰ تَمَام الاِسْتعدَاد لأنْ تُفتح لهُ، وتَنْقَاد إلَيْهِ، والْمَعْنَىٰ أنّ نُفُوسَكُمْ طَاهِرَة فِي الظّاهِر، وخَبِيثَة في البَاطن، ولمّا حَركَها الشّيْطَان ظَهَرت عَلىٰ حَقِيقَتها، وتَبين للجَمِيع أنّكُم مِن جُندِ الشّيْطَان، وأنْصَاره.

(ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَ دَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ... إِلَىٰ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ). وَاو الْجَمَاعَة فِي أَقْحَمُوكُمْ ومَا بَعدَه من الأَفْعَال هِي

---

(١) سَبَأ: ٢٠.

لجنُود إبْلِيسَ، والمْعْنَىٰ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْكُم الشَّيْطَان، وٱحتَل نُفُوسَكُمْ بِجُنُود فأوْرَدها مَوَارد الذّل، والهَلَكة في الدُّنْيَا، وسَاقها فِي الآخِرَة إلىٰ النَّار وَغَضِب الجبّار أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ جُرْحاً... إلخ.. وفِي بَعْض النُّسَخ «حَرْجاً» وهُو خَطأ، والضَّمِير المُستتر فِي أَصْبَحَ يَعُود لِلشَّيْطَانِ، والمْعْنَىٰ أنّ وسَاوس الشَّيْطَان وألاَعِيبه أَشَد ضَرَراً عَلَيْكُم دُنيَا ودِيناً من إخْوَانكُم فُي الإنْسَانِيَة الَّذِين تُجَاهرُونَهم بِالعَدَاء وتَتألبُون عَلَىٰ حَرْبِهِم ومُنَابذَتهم.

(فَٱجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَ لَهُ جِدَّكُمْ). الضَّمِير فِي «عَلَيْهِ، وَلَهُ» لِلشَّيْطَانِ، والمْرَاد بِالحَدّ الغَضَب والحِدّة، وبالجِدّ ـ بكسر الجِيم ـ الجُهد والطَّاقة، والمَعْنَىٰ حَارِبُوا الشَّيْطَان بكلّ مَا تَملكُون من طَاقةٍ، وحَوْلٍ، وقُوَّةٍ (فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلِكُمْ، وَ وَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَ دَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَ أَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ... إلخ). المُرَاد بالأصْل، والنَّسَب هُنا آدَمَ، والمْعْنَىٰ أنّ إبْلِيسَ ٱزْدَرىٰ أَبَاكُم آدَمَ، ورَمَاكُم بِنبَال الْهَوَىٰ، وَدَاسَكُم بِأَقْدَام الشَّهوَات، وضَرَبَكُم بِسيُوف المُغريَات حَتَّىٰ أذلَكُم، وأَوْقَعَكُم فِي الْبَلاءِ والشِّدَّة، لَم يَبق لكُم مِن بَاقِية، وَهَذَا تكرَار وتَوكِيد لمَا تَقدَّم مِن قَوْله: «وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ... إلخ).

(فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَ أَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ... وَنَزَغَاتِهِ). المُسْلِم الحَقّ هُو الإنْسَان المُتَفتح الَّذي يُحبّ ويَسَع النَّاس جَمِيعَاً، أمّا الَّذي يَتعَصَّب لِعرقٍ، أو لُونٍ، أو فِئَةٍ ـ فمَا هُو بِمُسْلِم، بل هُو من أتبَاع الشَّيْطَان، وعَلَىٰ سُنَّة الجَاهِلِيَّة، وأهْلها، وسَيَتكَلمُ الإمَام عَن العَصَبِيَّة مُطولاً فِي هَذِهِ الخُطْبَة، فإلىٰ هُنَاك (وَ ٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَىٰ رُءُوسِكُمْ، وَ إِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ... إلىٰ وَجُنُودِهِ). دَعوا التَّرفع، والتَّكَبُّر، فإنَّه يَنُمّ عَلَىٰ صَاحِبه بالصَّغَار، وتَوَاضَعُوا

لِلحَقّ، وٱنْقَادُوا لهُ، وٱسْمَعُوا مِنْهُ، فإِنَّه الدّرع الوَاقِي مِن إِبْلِيسَ، وَجُنُودِهِ.

(فَإِنَّ لَهُ ـ أي لإبْلِيس ـ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَ أَعْوَاناً). ومَا كَانَ إِبْلِيسَ فِي يَوْمٍ من الأَيَّام أقوىٰ سُلطاناً، وأعزّ نَفَراً مِنْهُ فِي هَذَا العَصر، فجُنُوده فِي الغَرب يَصْنَعُون ويَخترعُون أسْلِحَة الخَرَاب، والدَّمَار، أمّا الشَّرق فَقَد أَصْبَحَ وَكراً للخَوَنَة وعُملاَء الغَرب... وعَلىٰ ذوِي القَنَابل، وأُغنيَات العُملاء، وبُكَاء المَنْكُوبِين، وأَنِينُ الجَائِعِين ـ يَرقُص الشَّيْطَان ويَطرب، وبخَاصَّة بَعد أنْ تَعَهد زُعمَاء الإشْتِرَاكِية أنْ لاَ يَصطَدمُوا مَع زُعمَاء الامبريَالِيَة!... لقَد كَان ٱختلاَفهُما رَحْمَة ومَنَاعَة للضَّعِيف، فصَار ٱتفَاقِهما طَعنَة، ونِقْمَة.

(وَ لاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ... إلخ). قِيل: هَذَا إِشَارة إِلىٰ مَا حَدَث بَيْنَ قَابِيل وهَابِيل، وإِنّ نَار الغَضَب وعدَاوة الحَسَد فِي قَلب الأَوّل طغَتا عَلىٰ القُربىٰ وصِلَة الدَّم، والسَّبب غِوَايَة الشَّيْطَان وفِتْنَته (الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَ أَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ). قَتَل قَابِيل أخَاه هَابِيل، ثُمّ نَدِمَ تَمَاماً كمَا نَدِمْت أُمّهُ حوَاء مِن قَبل، وبَاء بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ أخِيهِ، وكَان مِن أَصْحَاب الجَحِيم. ذَلِكَ جزَاء مِن ٱقْتَص أثَر الشَّيْطَان وتَرسّم خُطاه.

لاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ... فِقْرَة ٦ ـ ٨:

أَلاَ وَ قَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَ أَفْسَدْتُمْ فِي الأَرْضِ، مُصَارَحَةً للهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَ مُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللهَ اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ، وَ فَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَئَانِ، وَ مَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَ الْقُرُونَ الْخَالِيَةَ، حَتَّىٰ أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَ مَهَاوِي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ.

أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَ تَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ[٦].

أَلاَ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَ تَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَ أَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَ جَاحَدُوا اللهَ عَلَىٰ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَ مُغَالَبَةً لِآلاَئِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَ دَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَ سُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَاتَّقُوا اللهَ وَ لاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَ لاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً. وَ لاَ تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَ خَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَ أَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَ هُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَ أَحْلَاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ، وَ جُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَ تَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَ دُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَ نَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرْمَىٰ نَبْلِهِ، وَ مَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَ مَأْخَذَ يَدِهِ[٧].

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ صَوْلاَتِهِ، وَ وَقَائِعِهِ وَ مَثُلَاتِهِ، وَ اتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَ مَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَ اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ. فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَ أَوْلِيَائِهِ، وَ لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَ رَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ. فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَ عَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَ خَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ. قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَ ابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَ امْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَ مَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَىٰ وَ السُّخْطَ بِالْمَالِ وَ الْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَ الْإِخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَىٰ وَ الْإِقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَ بَنِينَ

نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْـخَيْرَٰتِ بَـل لَّا يَشْـعُرُونَ ﴾[1] فَـإِنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ يَـخْتَبِرُ عِـبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ[8].

اللُّغَة:

أَمْعَنْتُم: أبْعَدْتُمْ وَبَالَغْتُمْ. والمُصَارَحَة: المُجَاهَرَة، أو المُظَاهَرَة. والمُنَاصَبَة: العَدَاوَة والمُقَاوَمَة. والمَلاَقِحُ: من اللِّقَاح أي عَلُوق الأُنْثَىٰ من الذَّكـر. وأَعْـنَقُوا: غَـابُوا. وحَنَادِس: جَمع حِنْدِس، وهُو الظَّـلاَم الشَّـدِيد. وسِـيَاقِهِ: مِـن سَـاق المَـاشِيَة. والهَجِينَةَ: القَبِيحَة. والاِعْتِزَاءِ: الاِنْتِسَابِ، والاِنْتِمَاء. وأَحْلَاسُ: جَمـع حِلْس: كلّ مَا يُوضع عَلَىٰ ظَهر الدَّابَة تَحت السَّرج. والْعُقُوقِ: العِـصْيَان. ومَـثَاوِي: مَـنَازِل. وخُدُودَهُمْ: حُفَرَهُم، وفِي بَعْض النُّسَخ بالحاء، وهُو خَـطأ. والمَخْـمَصَةِ: الجُـوع. والمَجْهَدَةِ: المَشَقَّة.

الإِعْرَاب:

مُصَارَحَةً مَفْعُول من أجلِهِ لأَفْسَدْتُمْ أي أَفْسَـدْتُمْ عَـدَاوَةً ومُـقَاوِمَةً لله، أو فِي مَوضع الحَال أي نَاصِبِين العَدَاء للهِ، وذُلَّلًا حَال مِن وَاو وأَعْنَقُوا، ومِـثله سُـلُساً، وأَمْراً مَفْعُول لِفعل مَحذُوف أي ٱعْتَمدُوا أَمْراً، ومُكَابَرَةً مَفعُول مِن أجْلِه لجَاحَدُوا ومثله ٱسْتِرَاقاً، ويَجُوز أَنْ يَكُون فِي مَوضع الحَال أي مُسْتَرِقاً، وجَهْلاً مَفْعُول مِن أجلِهِ لِتَعْتَبِرُوا.

---

(١) ٱلْمُؤْمِنُون: ٥٥ ـ ٥٦.

الْمَعْنَىٰ:

(أَلَا وَ قَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَ أَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ، مُصَارَحَةً للهِ بِالْمُنَاصَبَةِ... إلخ). كلّ بَغْيٍ وفَسَاد فِي الأَرْضِ هُو حَرْب عَلىٰ الله ومُقَاومة لهُ بالذّات، وكلّ غَضَبٍ وحَرْب عَلىٰ الظُّلْمِ، والضَّلال هُو انْتصَار لله سُبْحَانَهُ... فالارْتبَاط بَيْنَ الْعَمَل لوَجه اللهِ والْعَمَل لِخِدْمَة الْإِنْسَان ـ وَثِيقٌ وَمَتِين، ويَسْتَحِيل أنْ يَفتَرِق أَحدهُما عَن الآخر... وأية جَدوىٰ من الْإِيمَان باللهِ وحُبّه إذَا لَمْ يَكُن دَافعاً عَلىٰ عَمَلٍ يُرضِيه، وعَاصِماً من الانْحرَاف عَن سَبِيله وَوَحياً مِن خُلق مُحمّد ﷺ الَّذي بُعث لِيُتَمِم مكَارِم الأخْلاَق[1]؟

(فَاللهَ اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ، وَ فَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ). أَبداً... لا حدُود لطمُوح الْإِنْسَان وَرَغبَاته، وقَد صور الفَيْلَفُوس «بَرتَراند رَاسل» هَذَا الطّمُوح بقَوْله: «كلّ إنْسَان يُود أنْ يَكُون إلَهاً، وقَلِيلُون هُم الَّذِين يرُون ذَلِكَ مُستَحِيلاً وصَعب المَنَال»[2]. هَذَا صَحِيح، ولكن الَّذِين يتمنُون التّأَليه ولا يَنَالوه ـ يَشبعُون رَغبتهُم مِن التّعَاظم، أو الفَخر بأعَاظم الأموَات، أو المنَاصب، أو الإعلاَن عنهُم فِي الصُّحف وغَيْر ذَلِكَ مِن الوَسَائِل والدّعَايَات المُزِيفَة (فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَئَانِ). إنّ الفخَر والْكِبْر يَنمّان عَن الْحُمْق والصِّغَار، ويَحدثَان رَدّة فِعل عَلىٰ صَاحبهمَا حَيْث يَكرهه النّاس،

---

(١) مَأخُوذ مِن قَوْله ﷺ: «إنّمَا بُعثتُ لأُتَمِم مَكَارِم الأخلاَق» أُنظر، بداية المُجْتَهِد: ٢/٣٢١، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٠/١٩٢، تُحْفَة الأَحوَذي: ٥/٤٧٠، نُظم دُرر السّمطِين: ٤٢، كنز العُمَّال: ١١/٤٢٠ ح ٣١٩٦٩، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٥/٢٠٩، كشف الخَفَاء: ١/٢١١ ح ٦٣٨، مَكَارِم الأخلاَق للطّبرسي: ٨، مَكَارِم الأخلاَق لِابْن أبي الدُّنْيا: ٦، مُسْنَد الشّهَاب: ٢/١٩٢ ح ١١٦٤، تَكملة حَاشية ردّ المحتار: ١/٢٣٤.

(٢) أُنظر، كِتَابه السُّلطان: ١٥٢، تَرجمَة خَيرِي حمّاد ـ الطَّبعَة الأُولَىٰ ـ آذار سَنَة ١٩٦٢م. (مِنهُ ﷺ).

ويَتبَاعدُون عَن قُربه (وَ مَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَ الْقُرُونَ الْخَالِيَةَ، حَتَّىٰ أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ... إلخ). أي نَفَخَ الشَّيطَان فِي أُنُوف الرُّؤسَاء من رُوحه الّتي تَمردَت عَلىٰ أمْر الله، وطَاعته، وبِهَذه النَّفخَات أهْلَك الأُمم المَاضِية، ويَهلك الأُمم الآتِية. وغَرض الْإمَام عليه السلام أنْ يَشجِب رَذِيلة الْكِبْرِيَاء، ويُبين أَنَّهَا أصْل الْبَلاء.

(أَلاَ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ!). حَذّر الإمَام مِن الَّذِين يَعشقُون المَناصب، والرِّيَاسة لا لِشيء إلّا لِلَذّة الحُكم، وشَهوَة السُّلْطَان، وأيضاً حَذّر من الَّذِين يَتعشقُون الكرَاسِي كَوسِيلة تُمكنهُم من الوصُول إلىٰ غَايَاتِهم ومَآربِهِمْ، أمّا مَن يَطلب الحُكم لإقَامَة الْعَدْل، وإحقَاق الْحَقّ، ولِلْقَضَاءِ عَلىٰ الشَّرّ والْفَسَاد ـ أمّا هَذَا فوَاجب الطَّاعَة، والمُوَازَرَة. قِيل: إنّ الشَّيْطَان عَرض عَلىٰ السَّيِّد المَسِيح عليه السلام ممَالِك الأَرْضِ إذَا سَجد لهُ فأبىٰ، ولَو كَانَتْ لهُ مآرِب أُخرىٰ لِسَجَد ورَكَع، وتَطوع للخِيَانة والعَمَالة كَأكْثَر أُمَرَاء عَصره وَهَذَا العَصر وحُكامه.

(الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَ تَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ) أي آحْذَرُوا السَّادَات الَّذِين يَتنَابزُون بالألقَاب، ويَتفَاخرُون بالمَناصب. وفِي الحَدِيث الشَّرِيف: «يا معشر قُرَيْش! حَسَب الرَّجُل دِينَه، ومرُوءته خُلقه، وأصْله عَقْلَه»[1]. (وَ أَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ). مَا زَال الحَدِيث عَن الزُّعمَاء، والْمَعْنَىٰ أنّهم يَتعَاظمُون عَلىٰ النَّاس، لأنّ

(١) أنظر، الكَافِي: ٨/١٨١، عُيُون الحِكم والمَواعظ: ٢٣٢، الفَائق في غَرِيب الحَدِيث لجَار الله الزَّمَخْشَري: ١/٢٤٥، كنز الْعُمّال: ٣/٧٨٩ ح ٨٧٦٥، تَأرِيخ دمشق: ٤٤/٣٥٨، المُصَنّف لِابن أبِي شَيبة: ٦/٩٠ ح ٢١، روضَة الوَاعظِين: ٢٨٣، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٨/٢٢٢ ح ٤، شَرح نَهْج الْبَلاَغَة لِابْن أبِي الْحَدِيد: ١٨/١٢٩.

الله هو الَّذي أَلْبَسَهُم قَمِيص العَظَمَة، وحَرَم غَيرَهُم مِنْهُ، كَمَا يَزعمُون، وهَذِه جُرأة وفِريَة عَلَىٰ الله الَّذي قَال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] (وَجَاحَدُوا اللهَ عَلَىٰ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَ مُغَالَبَةً لِآلاَئِـهِ). إنّ الزُّعَـمَاء يَستَظهرُون بِنِعْمَة الله عَلىٰ عِبَاد الله، ويُعَاندُون أَمْرَه بالشُّكرِ، والتّوَاضع، ويَجْحَدُون آلاءِه تَمَرُّداً وعِنَاداً.

(فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَ دَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَ سُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ). الْمُرَاد بالْعَصَبِيَّةِ التَّعَصُّب لِغيرِ الحَقّ، وبالْفِتْنِة الفُرْقَة والْفَسَاد، وبالاِعْتِزَاء الاِنْتسَاب. والْقَصْد هُو مُجرَد الذَّم، وإنّ الزُّعمَاء هُم أصْل الدَّاء والْبَلاَء (فَاتَّقُوا اللهَ وَ لاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً). النِّعْمَة تَستُوجب الشُّكْر والتّوَاضع. الْكِبَر ضِدَّ التَّوَاضع، والكُفْرَان ضِدَّ الشُّكْر. والْقَصْد النَّهي عَن رَذِيلة الكُفْرَان والْكِبَر (وَ لاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً). الْمُرَاد بالحُسَّاد هُنا الأعْدَاء، والْمَعْنَىٰ لا تَعْمَلُوا مَا يَستُوجِب زَوَال النِّعْمَة عَنكُم، وإلاّ يَكُون شَأنكُم مَع نَفْسكُم شَأن الْعَدُوّ الَّذي يَتمَنىٰ زَوَال النِّعْمَة عَن عَدُوّه. وبِكَلِمَة لا تَكُونُوا أَعْدَاء أَنْفسكُم.

(وَ لاَ تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَ خَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ... إِلىٰ الْعُقُوقِ). الدَّعيّ هُو الَّذي يَنْتَسب إلىٰ غَيْر أَبِيه، ومثله النَّذل الخَسِيس حَيْث يَدعِي الشَّرف، والمكَانة، والْمَعْنَىٰ أَنْتُم ودعَاء وأبرِيَاء، لأنّكُم لا تَهدُون إلىٰ شَيء سوىٰ العِيش فِي أمَانٍ، وٱستقرَارٍ، وبَكَدّ اليَمين، وعَرَق الجَبين، أمّا الرُّؤسَاء الخُبثَاء فهُم سَفَلة، ولصُوص قَد تَخصصُوا بأسَاليب الخِدَاع، وتَفننُوا فِي

(١) ٱلْحُجُرَاتِ: ١٣.

طُرق السَّلب، والاِسْتغلاَل، وعَلَيْكُم أنْ تُكَافحُوهُم، ولا تَركنُوا إلَيْهِمْ، ومَن تَحالَف مَعَهُم عَن وَعي، وعِلم، ومِن أجْل الرِّبح، والكَسب فهُو مُجرِم وخَائِن، ومَن رَكَن إلَيْهِمْ عَن غَفلةٍ وجَهلٍ أخذُوا مِنْهُ دِينَه وضَميره الصَّافِي النَّقِي، وبِره لوَطنه وأُمّته، وأعطُوه الكَدَر، والمَرض، والْبَاطِل... وقَد يُعذَر المُنْعَزِل، والسَّاكت عَن الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ إذَا أيقَن بِعَدم الجدُوىٰ من وَعظِهِ، وإرْشَادِهِ... وعَلىٰ أية حَال فإنّ لكلٍ ظرُوفه الْخَاصَّة، شَرِيطَة أنْ لا يُحرّف ويُزّيف بِالتَّأوِيل والتَّضلِيل.

(اتَّخَذَهُمْ إبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَ جُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَ تَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ... إلخ). إنّ الزُّعَمَاء الْمُنْحَرِفِين يَفعَلون بوَحِي مِن الشَّيْطَان، ويَنطقُون بِعينَه، وبأُذنِهِ يَسمعُون، بل هُم فِي قَبضَتِهِ وتَحت قَدمِهِ. وتَقَدَّم مثله أَكْثَر من مَرّة فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة بالذَّات.

(فَٱعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ صَوْلَاتِهِ، وَ وَقَائِعِهِ وَ مَثُلَاتِهِ). الْمُرَاد بالأُمم المُسْتَكْبِرين الجبَابِرة مِن سَادَة الأُمم كفِرْعَوْنَ مُوسَىٰ ونَمرُود إبْرَاهِيمَ، وغَيْرهُما مِن طُغَاة الأكَاسِرَة والقَيَاصِرَة. أمّا الكَثْرَة فَكَانَتْ تَصنع للكبَائِر القصُور والأهرَامَات، وتَبنِي الحصُون، والسّدُود، وتُحفر التُّرع والأنْهَار... وقَد أخَذ بصوَاعقه وعوَاصفه المُسْتَكبِرين والتَّابِعِين لَهُم من ٱلْمُسْتَضْعَفِين، أخَذ أُولَئِكَ بِظُلمِهِم، وهَؤُلاَء بِنُومِهِم عَلىٰ الضَّيم والظُّلْمِ... ويقُول الإمَام للمُسْتَضْعَفِين: ٱتَّعِظُوا بمَن سَبق، وكَافحُوا الْعُدْوَان قَبل أنْ يَنزل عَلَيْكُم العذَاب بَغْتَةً، ويَعُم الظَّالِمَ، والسَّاكِتَ عَنْهُ.

(وَ ٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَ مَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ). وفِي بَعْض النُّسَخ حُدُودِهِمْ، وهُو خَطأ، والْمَعْنَىٰ ٱتَّعِظُوا بِالقُبُور الّتِي أَكَلْت الخُدُود، وأَبْلَت الجُنُوب (وَ ٱسْتَعِيذُوا

بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ). مَا مِن عَاقِلٍ إلّا ويَخشىٰ المُخبآت، والمُفَاجآت، ولكن ٱلْمُتَكَبِّرُ لا يَخشىٰ، بل لا يَتصَوَر إطلاَقاً عَاقِبَة التَّالِي والْكِبْرِيَاء تَواضع وتَنَازل عَن شمُوخه، وإذَا سَلِّم ٱلْمُتَكَبِّرِ مِن طوَارِق الدَّهر فَهَل يَسلَّم من سَكرَات المَوْت وظُلْمَة القَبْر.

(فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَ أَوْلِيَائِهِ... إلخ). بل نَهَاهُم عَنْهُ، وَقَالَ لِخَاتِمِهُم وَسَيِّدهُم: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وفي الحَدِيث: «مَن تَوَاضع رَفعهُ الله، ومَن تكَبر خَفَضهُ الله»[2]، وقَد ٱمتَحَن سُبْحَانَهُ أَنْبِيَاءَه بأنوَاع من المكَارِه فَصَبرُوا، ورَضُوا بِمَا قَضَىٰ وَأَحَب.. وأُوذِي مُحَمّدﷺ فِي سَبِيل الله أَشَدّ الإيْذَاء، فَمَا تَظَلَّم أو تبَرَّم، بل تَطلَّع إلىٰ خَالِقِهِ، وشَكَا إِلَيْهِ ضَعفَه وهوَانه علىٰ النَّاس... وخَاف أنْ يَكُون قَد غَضب الله عَلَيْهِ، أو فَلاَذ بِهِ، وَقَالَ: «أَللّٰهُمَّ! إِلَيْك أشكُو ضَعف قُوتِي، وقِلة حِيلَتِي، وهُوانِي عَلىٰ النّاس... أَللّٰهُمَّ! ياأرحَم الرّاحِمِين! أنتَ رَبّ ٱلْمُسْتَضْعَفِين، وأنتَ رَبّي! إلىٰ مَن تَكْلُنَي...؟ إِلىٰ بَعِيدٍ يَتَجهمنِي...؟ أو عَدُوّ مَلكتهُ أمْرِي...؟ إنْ لَمْ يَكُن بِكَ عَلَيَّ غَضَب، فَلا أُبالِي! ولكن عَافِيتك هِي أوسَع لِي... إنّي أَعُوذُ بنُور وَجهك، الّذي أشرَقت بِهِ الظُّلمَات، وصَلُح عَلَيْهِ أمْر الدُّنْيا والآخِرَة، مِن أنْ يَنزل بِي غَضَبك، أو

---

(١) ٱلْحِجْر: ٨٨.

(٢) أُنظر، فتح البَاري: ٢٨١/٨، المُصَنَّف لِابْن أبِي شيبة الكُوفي: ٣١٣/٨ ح ١٢٦، نوادر الأُصول في أحَادِيث الرَّسول: ٣٦/٤، التَّواضع والخمُول لِابْن أبي الدُّنْيا: ١٠٢ ح ٧٧ وص: ١٥٦ ح ١٢٠، إتحَاف السَّادة المُتَّقِين للزّبيدي: ٢٩٥/١، تَفْسِير جوامع الجَامِع: ٦٤٤/١.

يحلّ عَليَّ سَخَطك... لَكَ الْعُتبىٰ حَتَّىٰ تَرضَىٰ... لاَ حَوْلَ، ولا قُوَّة، إلا بِكَ...»(١).

أمّا قُول الإمَام عَن الأَنْبِيَاء والأَوْلِيَاء: «فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ». فهُو كِنَاية عَن شِدّة خضُوعهم وتَواضعهم لله جلّ وعزّ.

(فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَىٰ وَ السُّخْطَ بِالْمَالِ وَ الْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَ الإِخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَىٰ وَ الإِقْتِدَارِ). لَو كَان رِضَاه تَعَالىٰ يُعْتَبر بِالْمَالِ لكَان أَصْحَاب المْلاَيِين فِي «وول ستريت» (wallstreet)، وأرْبَاب الشَّركَات والإِحْتِكَارات، فِي أعلىٰ عِلِيِّين عِند الله، وكَان المُعذبُون فِي الأَرْضِ الّذِين لاَ عَمّ لَهُم ولاَ خَال ـ فِي الدَّرك الأَسْفَل مِن النَّار... حَاشا لله... ولَكِنَّهُ يَختَبر عِبَاده بِالْمَالِ والسُّلْطَان كَمَا يَختَبرهُم بِالمَخْمَصَةِ والمَجْهَدَة، لتَظهر الأفْعَال الّتِي يُستَحق بِها الثَّوَاب والعِقَاب... هَذَا، إلىٰ أنّ

---

(١) وَرَد هَذَا الحَدِيث لمّا مَاتت خَدِيجَة بَعد أبِي طَالِب كَمَا فِي تَأرِيخ الطَّبريّ: ٢/٨١، تَأرِيخ أبن عساكر: ١/٢٨٤، مَجْمَع الزَّوائد: ٦/ ٣، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ١٤/٩٨، كنز العُمّال: ٢/٦٩٩ ح ٥١٢٠، تَفسِير القُرطُبي: ١٦/٢١١، تَفسِير أبن كَثِير: ٣/٣٠١، تَأرِيخ أبن خَلدون: ق٢/ج٢/ ١٠، سيرة آبن هُشام: ٢/٢٨١، السّيرة النَّبَويَّة: ٢/ ١٥٠، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ٢/٤٣٩، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢/٦٢٢، تَأرِيخ أبن كَثِير: ٣/١٢٢، الصَّفوة لِابْن الجوزيّ: ١/٢١، الفَائق للزّمخشري: ٢/٢١٣، تَأرِيخ الخَميس: ١/٢٥٣، فتح البَاري: ٧/١٥٣، شرح شواهد المغنيّ: ١٣٦، أسنىٰ المطالب: ١١، طلبة الطّالب: ٤/٥٤، مع زِيَادَة قَوْله ﷺ: «يَاعمّ! مَا أسرع مَا وجدت فقدك...!».

وهو القَائل حِينَما وَاجه مِحنتين بل مُصِيبتين، الوَاحِدَة تلو الأُخرىٰ وهما مَوْت «خَدِيجَة، وعمّه أبِي طالب» فِي سَنَة وَاحِدَة، بل قِيل الفَاصل الزّمني بَيْنَ مَوْت هذا، وهَذِه عِدة أيَّام، وهو العَام الّذي سُمي بعَام الحُزْن بَعد خرُوج بنِي هَاشم، والمُطلِب من الشّعب بثمانية وعشرين يوماً ولذا قَال صَاحب الهمزية، كمَا جاء فِي السِّيرَة الحَلبِية: ١/٣٤٦.

وَقَضَىٰ عمّه أبـو طَـالب والدّ	هــــرفِيهِ السّرّاء والضّرّاء
ثُمّ مَـاتت خَـدِيجَة ذَلِكَ العَـا	م ونَـالت مـن أحمـد المـنّاء

وقِيل: كَانَتْ وفَاة خَدِيجَة قَبل أبِي طَالِب بخمس وثلاثين لَيْلَة، وقِيل: بَعده بثلاثة أيّام.

الدُّنْيَا دَار زَوَال وَفنَاء، ولا تُعَادل عِند الله جُنَاح بَـعُوضَة، وقَـد جَـعَلها للـمرُور والتَّزُود من الصَّالِحَات إِلىٰ دَار الخُلد والبَقَاء، فكَيْفَ يَكُون الحَقِير الزّائِل جَزَاء مِن أَحسَن وتَورع ؟.

وتَسْأَل: هَل لنَا أَنْ نَفهَم من ٱخْتبَاره تَعَالىٰ عِـباده بِـالْمَال، أو الْحِـرْمَان إنَّهُـمَا بِقضَائِه وقَدَره، وإنّ العَبد لاَ أَثَر لهُ فِي شَيء مِن ذَلِكَ ؟.

الجَوَاب:

لقَد جَرَت سُنَّة الله فِي خَلقَه أَنّ مَن عَمِل وٱجْتَهَد رَزَقه الله، ومَن أهمَلَ وتكَاسَلَ حرَمة الله، وأَنّ مَن ٱقتَصَد وَدَبر عَاش حَمِيداً مَيسُوراً، ومَـن بَـذّر وأسْرَف قَـعَد مَـلُومَاً مَحسُـوراً مُـؤمِناً كَـان أَمْ كَـافِراً، بَـرّاً أَمْ فَـاجِراً.. وَلَـن تَجِـدَ لِسُـنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً... وإذَنْ فلِلْإِنْسَان حُرِّيَّته وَأَثَره، والاِخْتبَار مِنْهُ تَعَالىٰ إِنَّمَا يَكُون بَعد الجِد والْعَمَل، فَمَن أَفَاد مَالاً مِن عَملٍ مَشرُوع، وأَنْفَقَه فِي وَجههِ فهُو مِن الطَّائِعِين، وإنْ أفَادَه مِن حَرَام، وأَنفَقه فِي غَيْر حِلٍّ فهُو مِن العُصَاة.. وإنْ فَشَل فِي عَمَله، وذَهب جِهدَه سُدىٰ، ومَع هَذَا صَبرَ وَقَالَ: مَا فَعل الله بِي إلّا خَيْراً، فهُو مَشكُور ومَأجُور، وإِنْ سَخَط عَلىٰ الله وقَضَائه، وخَرج عَن الْحُدُود يَميناً وشمَالاً فهُو مِن الَّـذِين بَاءُو بِغَضَبٍ مِنَّ ٱللهِ وَعَذَابه.

مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ...فِقْرَة ٩ ـ ١١:

وَ لَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ وَ مَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ عليهما السلام ـ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَ عَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَ بِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ، إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَ دَوَامَ عِزِّهِ،

فَقَالَ: «أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَ بَقَاءَ الْمُلْكِ، وَ هُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ، وَ الذُّلِّ، فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»؟ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَ جَمْعِهِ، وَ احْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَ لُبْسِهِ[٩]، وَ لَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، وَ مَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَ مَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَ أَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ، وَ وُحُوشَ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ، وَ لَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَ بَطَلَ الْجَزَاءُ، وَ اضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَ لَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، وَ لاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَ لاَ لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا. وَ لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَ ضَعَفَةً فِيمَا تَرَىٰ الْأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ، وَ الْعُيُونَ غِنىً، وَ خَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ، وَ الْأَسْمَاعَ أَذىً[١٠].

وَ لَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاَ تُرَامُ، وَ عِزَّةٍ لاَ تُضَامُ، وَ مُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَ تُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَىٰ الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَ أَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ، وَ لَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَ الْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَ لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَ التَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَ الْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَ الْإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَ الْإِسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً، لاَ تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَ كُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَىٰ وَ الْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَ الْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

اللُّغَة:

أَسَاوِرَةٌ: جمع سُوَار. والذِّهْبَانِ: جمع ذَهَبْ. والعِقْيَانِ ـ بكسر العَيْن ـ الذَّهَبْ الخَالِص. والخَصَاصَة: الْفَقْر. وتَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا: تَخْتَلط مِنْ غَيْرِهَا، قَال تَعَالَىٰ:

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[1] أي لخَلْطاً مِنْ حَمِيم.

الإعْرَاب:

هَلاَّ لِلطَلَب والتَّحضِيض، وإِعْظَاماً مَفْعُول مِن أجْلِه، لِقَالَ، ولِفَعَلَ جُوَاب لَوْ أَرَادَ اللهُ، وغِنىً تَمْيِيز، ومِثله أذىً، وأُمُوراً خَبَر يَكُونَ الإِتِّبَاعُ، وخَاصَّةً صِفة لأُمُور، وَلَهُ مُتَعَلِّق بخَاصَّةً أي أُمُوراً مُخْتَصة بِهِ أو لَهُ.

لاَ حَقّ ولاَ إنْسَانِيَة إلّا عِنْدَ الأَغْنِيَاء!

(وَ لَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ وَ مَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ عليهما السلام ـ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ... إِلَىٰ وَٱحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَ لُبْسِهِ). اَنْطَلَقَ مُوسَىٰ وهَارُون إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بأمر الله، ودَخَلا عَلَيْهِ، وهُما يَلبَسَان مَدَارِع الصُّوف، وبِيَدهُما العِصِي، ودَعَوَاه إِلَىٰ الله، وشَرطا لهُ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ إِنْ أسلَمَ وأَطَاع.. وسَخِر فِرْعَوْنَ مِمَّنْ يَشْتَرط لهُ هَذَا، ولاَ جَاه لهُ ولا مَال.. فقَال لهُ مُوسَىٰ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[2]؟. ولَكنّ الشَّيء المُبِين، والحَقّ اليَقِين عِند فِرْعَوْنَ، وأَمْثَاله هُو الذَّهَب والمُلْكِ... ولذَا قَال فِرْعَوْنَ: يَا قَوْم أَليَس لِي مُلْك مِصْر وهَذِه الأَنْهَار تَجرِي مِن تَحتِي؟. ثُمّ قَال لِمُوسَىٰ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[3].

وأَقَرَّ «نِيتشَه» هَذِه الفَلسَفَة، وٱستَدَل عَلَيْهَا بِقَوْله عَلىٰ لِسَان زَرَادَشت: «إِذَا

---

(١) ٱلصَّافَّات: ٦٧.

(٢) ٱلشُّعَرَاء: ٣٠.

(٣) ٱلشُّعَرَاء: ٢٩.

كَـان هُـناك إِلـه فَكَـيْف أَسْـتَطِيع أنْ لاَ أَكُـون إلهاً ، ولهَـذا فَـليَس ثَمَّ مِـن إِلهٍ»... أَبَداً ... لَيْسَ للكُون إِله ، والدَّلِيل أنّ نِيتشَه أو زَرَادَشت لَيْسَ بإله.. وأيضاً لَيْسَ للفَقِيرِ مِن حَقٍّ ، ويَسْتَحِيل أنْ يَكُون الْفَقِير مُحـقّاً ، والدَّلِـيل أنّـه بـلا مَـالٍ ، وجَاهٍ... ولاَ عَجَب فهَذا هُو المَنْطِق السّائِد عَملِيّاً فِي كلِّ عَصر ، وإنّ كَـان بَـاطلاً بِاْتفَاق الجَمِيع مِن الوجهَة النَّظرِية .

(وَ لَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُـنُوزَ الذِّهْـبَانِ... إِلىٰ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ) . لا وَاسطَة بَيْنَ الله وعِبَاده إلّا التَّبلِيغ عَنْهُ عَلىٰ لِسَان أَنْبِيَائه بهَدَف الْإِيمَان بِهِ وَالْعَمَل بِشَرِيعته عَن قَنَاعَة لاَ عَن رَغْبَة أو رَهْبَة... وإذَا كَان هَـذَا هُـو الغَرض مِن بِعثَة الْأَنْبِيَاء فَلا مُوجِب ـ إِذَنْ ـ لأَنْ يزُودُهم سُبْحَانَهُ بِكنُوز الدُّنْـيَا ، وحدَائِقهَا ، وطِيُورَها ، ووحُوُشهَا (وَ لَوْ فَعَلَ) أي لَوْ زَوَدَ سُبْحَانَهُ الْأَنْـبِيَاء بِمـتَاع اَلْحَيَاة الدُّنْيَا (لَسَقَطَ الْبَلاءُ) والاِخْتبَار ، وَالاِمْتِحَان ، لأنّ النّاس عَبِيد للدُّنْيَا ، وَلِمن فِي يَدَه شَيء مِنْهَا ، وعَلَيْهِ يَكُون إيمَانهم بِالأَنْبِيَاء الأَغْنِيَاء إيمَاناً بِالْمَال لا بِرِسَالَة الله وأَنْبِيَائه .

(وَ بَطَلَ الْجَزَاءُ) لأنّه لِغيرِ الله (وَ اَضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ) والأَحَادِيث عَن الأَنْـبِيَاء ، وسِيرَتهُم ، وعَظَمَتهُم ، وشَرِيعَتهُم حَيْث يَكُون الحَدِيث عَنْهُم ، والحَال هَذِه ، حَدِيثاً عَن الدُّنْيَا الّتي يَملكُونَهَا ، لاَ حَدِيثاً عَن اللهِ وحلاَله ، وحَرَامه (وَ لَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ) لأنّ الْمُرَاد بِالْمُبْتَلِىٰ مَن أظهَره التَّمحِيص عَلىٰ حَقِيقَته ، ولَن يَكُون هَذَا إلّا فِي الضَّراءِ ، وسَاعَة العُسْرَة (وَ لاَ اَسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ) لأنّ أهلَ الْإِحْسَانِ يَعطُون ، ولاَ يَطمعُون فِي الرِّبح (وَ لاَ لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا) لكلّ كَلِمَة مَعْنَىٰ تَدل عَلَيْهِ ، ولكلِّ اَسم مُسمىً يُفْهَم مِنْهُ ، ومَعْنَىٰ الْإِيمَان بِـاللهِ ، وَرُسُـله هُـو

التَّصدِيق بِهِ وَبِهِم، ولَو أسْمِينَا مَن آمَن طَمعاً، أسْمِينَاه مُؤمِناً ـ لوضَعنَا الكَـلِمَة فِي غَيْر مَدْلولِهَا، والاِسم فِي غَيْر مُسماه.

(وَ لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَ ضَـعَفَةً فِـيمَا تَـرَىٰ الْأَعْيُنُ مِنْ حَالاتِهِمْ... إلخ). أَوْلِيَاءَ اللهِ أَهوَن النَّاس شَأنَاً عِندَ الطُّغاة وأَهْل الدُّنْيَا، لِفقرِهم وقِلَة يَدهِم، ولَكِنَّهُم أَغْنِيَاء بِالصِّدْق والأَمَانَة، وبالْهِدَايَة والتَّقْوَىٰ، بل هُم أقوَىٰ وأَغنَىٰ مَن خَلقَ الله ويَخْلق عَلَىٰ الإطلاَق، لا تَهزمَهُم الْمُلُوك والجَبَابِرَة عَـن عَزمِهِم ولاَ تُثْنِيهم الشَّهوَات والأَمْوَال عَن دِينِهِم، وضمَائِرِهِم (وَ لَوْ كَانَتِ الْأَنْـبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاٰ تُرَامُ، وَ عِزَّةٍ لاٰ تُضَامُ، وَ مُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ... إلخ). بِمَـاذَا تُبرهِن عَلَىٰ تَجَرُدك لِلحَقِّ ؟. أبِاْنقِيَادك لهُ رَغْبَةً، أو رَهْبَةً، أو بـإيمَانك بِـهِ لوَجـه الْحَقّ، وثبَاتك عَلَيْهِ حَتَّىٰ ولَو دَفَعْت الثَّمن غَالِياً مِن نَفْسك، وأهْـلَك، ومَـالَك ؟. والجَوَاب وَاضح وبَسِيط، فَمَن آمَن خَوْفاً، أو طَمعَاً فهُو تَاجِر، ومَن آمَـن لوَجـه الْحَقّ مَهمَا تَكُن النَّتَائِج، والعوَاقب فهُو الْمُؤْمِن حقّاً، ووَاقعَاً، وعَلَىٰ هَذَا لَوْ كَـانَتْ الدُّنْيَا مَع الأَنْبِيَاء لآمَن مَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً، الحَابل بالنَّابل، والْمُؤْمِن بالفَاجِر.

(فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَ الْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً) لَو أنّ الدُّنْيَا مَع الأَنْبِيَاء وَآمَن بِهِم مَن آمَن لكَان إِيمَانه مَشُوبَاً بِحُبّ الدُّنْيَا، وَهَذَا هُو مَعْنَىٰ الأَشْتِرَاك، وأيضاً كَان عَمَلَه بِأمْرٍ مِن الأَنْبِيَاءِ مُوزعَاً بَيْنَ حُبّ الله وَحُبّ الدُّنْيَا، وَهَذَا هُو الْمُرَاد بالتَّقسِيم (وَ لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَ التَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ... إلىٰ شَـائِبَةٌ). جَرَد سُبْحَانَهُ أَنْبِيَاءه مِن زِينَة الدُّنْيَا لِيكُون الإيمَان خَالِصاً لوجـهَه الكَـرِيم، قَـال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]. وَقَالَ نَبِيّه العَظِيم: «إنّمَا

(١) ٱلبَيِّنَة: ٥.

الأَعْمَال بالنِّيَات، وإنَّما لكلّ مَا نَوىٰ... مَن كَانَتْ هِجرَته إِلَىٰ اللهِ وَرَسوله فهجرَته إِلَىٰ الله وَرَسُوله، ومَن كَانَتْ هِجرَته إِلَىٰ دُنيَا يُصِيبها، أو إمْرأة يَنكحها فهجرَته إِلَىٰ مَا هَاجر إلَيْهِ»[١].

(وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَىٰ وَ الإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَ الْجَزَاءُ أَجْزَلَ). ولذَا قِيل: «أُمرنا بِالْعَمَل لأنّ الأجْر عَلىٰ قَدْرِ المَشَقَّة»[٢]. وعَن رَسُول الله ﷺ: «إنّ عَظِيم البَلاء يُكَافَأ بِهِ عَظِيم الجَزَاء»[٣].

والْخُلاَصَة: لا شَيء عِندَ الأَنبِيَاء إلّا الله، والحَقّ، ولا يَعْتَزّون إلّا بِهِ، ولاَ يَخَافُون إلّا مِنْهُ، ومِن ادّعىٰ الإِيمَان بِاللهِ وَرُسُلِهِ، ثُمّ اعْتَزّ بِغَيْر الله، وخَاف مِن سوَاه فهُو كَاذِب فِي دَعوَاه.

بَيْت الله الْحَرَام... فِقْرَة ١٢ ـ ١٤:

أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ ﷺ إِلَىٰ الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ، وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تُبْصِرُ، وَلاَ تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ: ﴿الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً﴾. ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ

---

(١) أنظر، مُسْنَد الحميدي: ١٦/١ ح ٢٨، مُسْنَد الطَّيَالسِي: ٩/١ ح ٣٧، المُعْجَم الأوسط: ١٧/ ح ٤٠، مُسْنَد أبي داود: ٢٦٢/٢ ح ٢٢٠١، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٤١/١ ح ١٨١، صَحِيح ابن حبّان: ١١٣/٢ ح ٣٨٨، تُحْفَة الطّالب: ٣٧٠/١. وفي بَعْض المصادر بلفظ «يتزوجها».

(٢) أنظر، حَاشية رَدّ المحتار: ٥٢٥/٢، عِيُون الحِكم والمُوَاعظ: ٢١٨ بلفظ (ثَوَابِ الْعَمَل عَلىٰ قَدْرِ المَشَقَّة فِيهِ)، غُرر الحِكم: (٤٦٩٠).

(٣) أنظر، الكَافِي: ٢٥٣/٢ ح ٨، شَرح أُصول الكَافِي: ٢٠٩/٩، وَسَائِل الشّيعة: ٢٥٢/٣ (٣٥٥٣) ١٠ ـ، خَاتمة المُسْتَدرَك: ٤٨/١، مُسكن الفُؤاد: ١١٤، التّمحِيص: ٢٣ ح ٢٠.

الدُّنْيَا مَدَراً، وَ أَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَ رِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَ عُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَ قُرىً مُنْقَطِعَةٍ، لاٰ يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَ لاٰ حَافِرٌ، وَ لاٰ ظِلْفٌ[١٢]. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عليه السلام وَ وَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَ غَايَةً لِمُلْقَىٰ رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَ مَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَ جَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّىٰ يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهُ، وَ يَرْمُلُونَ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَ شَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمُ، ٱبْتِلاٰءً عَظِيماً، وَ ٱمْتِحَاناً شَدِيداً، وَ ٱخْتِبَاراً مُبِيناً، وَ تَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَ وُصْلَةً إِلَىٰ جَنَّتِهِ[١٣]. وَ لَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَ مَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَ أَنْهَارٍ، وَ سَهْلٍ وَ قَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَىٰ، مُتَّصِلَ الْقُرَىٰ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَ رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَ أَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَ عِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَ رِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَ طُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَىٰ حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاٰءِ، وَ لَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَ الْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَ نُورٍ وَ ضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذٰلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَ لَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَ لَنَفَىٰ مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَ لَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَ يَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَ يَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَ إِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَ لِيَجْعَلَ ذٰلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَىٰ فَضْلِهِ، وَ أَسْبَاباً ذُلُلًا لِعَفْوِهِ[١٤].

اللُّغَة:

نَتَائِقِ: جَمع نَتِيقَة أي الأَرْضِ المُرتَفِعَة ولَو نِسبياً. والمَدَر: قِطع مِن الطِّين

اليَابس. والقُطْر ـ بفتح القَاف ـ المَطَر، ـ وبِكسرهَا ـ ضَرب من النُّحاس، وبضمها ـ كمَا هُنا ـ الاِقْليم والنَّاحِيَة. ودَمِثَةٍ: سَهْلَة لِينَة. ووَشِلَةٍ: قَلَيْلَة.

ولاَ يَزْكُو: لا يَنْمُو. والخُفّ: لِلجَمَل. والحَافِر: للفَرَس ونَحوه. والظِّلْف: لِلبَقَر والْغَنَم. والمَثَابَة: مُجتَمَع النّاس، أو آسم لِمَكَان الرُّجُوع، والْمَثُوبَة: الثَّوَاب والجَزَاء. والمُنْتَجَع ـ بفتح الجِيم ـ المكَان يقصدَه النَّاس طَلَباً للمَنْفَعَة. والمُرَاد بِالرِّحَالِ هُنا مَا يَصْحَبهُ المُسافر. وتَهْوِي: تَسرُع أو تَحنُّ. المُرَاد بِثِمَارُ الأَفْئِدَةِ أمَانِيهَا. ومَهَاوِي: جَمع مَهوَىٰ أي الجُو. وفِجَاج: الطَّرِيق بَيْنَ جَبَلين.

ويَرْمُلُونَ: يُهْرولُون. والأَشْعَث: المُنْتَشر الشَّعر. والسَّرَابِيلَ: كلّ مَا يُلبَس.

والشَّعَائِر: الدَّلائِل، والمَشَاعِرَ أَمْكنَتها. والبُرَّة: الحِنْطَة، والسَّمْرَاء أجوَدها.

وأَرْيَافٍ: جَمع رِيف أي أرْض فِيهَا زَرع وَخِصب. ومُحْدِقَةٍ: مِن أحْدَقَت الرَّوضَة إذَا صَارت حَدِيقَة. وعِرَاصٍ: جَمع عَرْصَة، وَهِي السَّاحَة. المُغْدِقَة: فِيهَا مَاء. ونَاضِرَةٍ: حَسَنَة وجَمِيلَة. والإِسَاسُ ـ بكسر الهَمزَة ـ جَمع أُس وأَسَاس أي أَصل البِنَاء. والاِعْتلاَج: الاِلتطَام والاِخْتلاَط.

الإِعْرَاب:

حَجَراً تَمْيِز مَدَراً وقُطْراً، وذُلَّلا حَال لأنّه جَمع ذَلِيل، ومِثله شُعْثاً وغُبْراً، وٱبْتِلاءً نُصب عَلىٰ المَصْدَرِيَة أي ٱبْتَلوا ٱبْتِلاءً، ومِثله ٱمْتِحَاناً وٱخْتِبَاراً، ولَكَانَ قَدْ صَغُرَ جوَاب لَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ، لَخَفَّفَ جوَاب لَوْ كَانَ الإِسَاسُ، وإِخْرَاجاً مَفْعُول مِن أجْله لِيَبْتَلِيهِمْ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، ٱخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَىٰ الآخِرِينَ). بَنَىٰ سُبْحَانَهُ الْبَيْت الْحَرَام مِن حَجرٍ، وطِينٍ تَمَاماً كالْبُيُوت الّتي نَسْكنها، وأَلزَم بِزِيَارته وحَجّه مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً... يَخْضَع ويَتَذَلل، ويَسْتَغِيث ويَسْتَجِير، وَهَذَا الإِلزَام والوُجُوب كَان مِن زَمنٍ سَحِيقٍ يَبتدىء بآدَمَ، وإِلىٰ آخر يَوْم، وإِبْرَاهِيم عليه السلام أَعَاد مَا بَدَأه السّابقُون[1]. وكَان الْبَيْت الْحَرَام ومَا زَال فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْع، لاَ مَطَر، أمّا طَرِيقَه فكَان بِحَاراً وجِبَالاً، والْحَجُّ إِلَيْهِ متَاعِب ومصَاعِب تُزِيد الْمُؤْمِن ثَوَاباً، وتُمَيِّزهُ عَمّن عَصىٰ وتَمَرد... كَانوا يَمْشُون، أو يَركبُون الدَّوَاب إِلىٰ شَاطىء البَحر، ثُمّ يَركبُون البَحر إِلىٰ الصَّحرَاء، يَقْطَعُونها عَلىٰ الجِمَال، ويُعَانُون التَّعب والْخَوْف من الْقَتْل أو السَّلبِ، ويُقَاسُون الجُوع والعَطش، والحَرّ والبَرد.

أمّا اليَوْم وَبَعد السّيَارَة والطّيَارَة فالْحَجّ نُزهَةٌ وسِيَاحَةٌ، ولا شَيء فِيهِ للثّوَاب والتَّمْيِيز والاِخْتِبَار إِلّا النِّيّة الخَالِصَة، والتَّلبِيَّة لدَعْوَة الله وَحدَها، والشُّعُور بالتَّوَجه

---

(١) أقتبَاساً مِن الآيَة الكَرِيمَة (٣٥) مِن سُورَة إِبْرَاهِيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. أنظر، هَامش السِّيرَة الحَلبِية لزّيني دَحلاَن: ٩/١. الوَفا بأَحْوَال المُصطفىٰ: ٣٦/١. دلايل النُّبوّة للإِصْبهَاني: ٥٤/١، فدَعْوَة إِبْرَاهِيم لمّا بَنىٰ الكعبة لأَهْل مَكّة كَانَتْ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ٱلْبَقَرَة: ١٢٩. أو الآيَة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، ٱلبَقَرَة: ١٢٦، قَالَ السّدّيّ عن أشياخه: هو مُحمّد صلى الله عليه وآله. وعَن العربَاض بن سَارِية قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وآله: إِنّي عِند الله لخَاتم النّبِيين، وإِنّ آدَمَ لمنجدل فِي طِينَته، وسَأُخبركم بأَوّل ذَلِكَ، زوائد آبن حبّان رقم «٢٠٩٣»، وصححه الحَاكِم فِي المُستَدرَك: ٦٠٠/٢، مَجْمَع الزّوائد: ٢٢٣/٨، آبن سعد في طبقاته: ١٤٩/١، أبن حجر فِي الفَتح: ٣٦٩/٧، البُخَاريّ فِي التّأريخ: ٤١٨/٢.

والاِنْقطَاع إِلَيْهِ تَعَالىٰ عَسَىٰ أَنْ يَتُوب ويَغفِر. ورُوي أَنّ النَّـبيّ ﷺ أشَـار إِلىٰ ذَلِكَ بِقَوْله: «أَيُّهَا النَّاس! ألا أُخبركُم بأشرَاط السّاعة؟.

فقَام إِلَيْهِ سَلْمَان فَقَال: أخبرنا فِدَاك أَبِي، وأُمّي يَارَسُول الله ﷺ.

فقَال: «إِنّ من أَشرَاط السَّاعة؟ إِضَاعَة الصَّلاٰة، والمَيل مَع الأهوَاء، وتَـعظِيم رَبّ المَال».

فقَال: ويَكُون ذَلِكَ يارَسُول الله ﷺ ؟.

قَالَ: «نَعم والَّذي نَفْسِي بِيده فَعِند ذَلِكَ يَاسَلْمَان تكون الزَّكَاة مَغرمَاً، والْـفَيْء مَغنَمَاً، ويُصدَّق الكَاذِب، ويُكذَب الصَّادِق، ويُؤتَمن الخَائِن، ويُخَوّن الأَمِين، ويَنكُر الْحَقّ بِتسْعَة أعشَارهم، ويَذهب الإِسْلاَم فلا يَبْقَ إلا ٱسمَه، وبَذهب الْقُرْآن فلاَ يَبْقَ إلا رَسمَه، وتَتحلىٰ المَصَاحِف بالذّهب، ويَخْطُب عَـلىٰ المَـنَابِر الصِّـبيَان، وتُكـون المُخَاطبة للنِّسَاء، والمَشُورَة للإِمَاء، فـعند ذَلَكَ تُـزَخرَف المسَـاجِد كـمَا تُـزَخرَف الكنَائِس، والبِيع، وتَطوّل المنَائِر، وتَكثر الصّفوف مَع قُلوب مُـتباغِضة، وسُـنن مُختلفة، وأَهْوَاء جَمّة».

قَال: ويكُون ذَلِكَ يارَسُول الله ﷺ ؟ قَال: «نَعم، والَّذي نَفْسِي بِيده، فَعِند ذَلِكَ يَاسَلْمَان! يَكُون ٱلْمُؤْمِن فِيهِمْ أذَلّ من شَاتِه، يَذُوب قَلبهُ فِي جَوفَه كمَا يَذُوب المِلح فِي ٱلْمَاء، مِمَّا يَرىٰ من الْمُنْكَر، فلاَ يَسْتَطِيع أنْ يُغيره. فَعِند ذَلِكَ يَـاسَلْمَان! تَكـون أُمَرَاء فَسَـقة، ووزرَاء فَـجرَة، وأُمـنَاء خَـوَنة، يُـضِيعُون الصّـلوَات، ويَـتبعُون الشَّهوَات، فإِنْ أدرَكْتمُوهُم فَصلوا صَلاتكُم لوقتهَا، فَعِند ذَلِكَ يَـاسَلْمَان! يَجـيء سَبي من المَشرق، وسَبي من المَغرب، قُلُوبهمْ قُلوب ٱلشَّيَاطِين، لايَرحمُون صَغِيراً، ولايُوقرُون كَبِيراً، فَعِند ذَلِكَ يَاسَلْمَان! يَحجّ النَّاس إِلىٰ هَذَا الْـبَيْت الحَـرام: تَحجّ

مِلُوكَهُم كُبراً، وتَنزُهاً، وأَغْنياؤهُم للتِّجَارة، ومسَاكِينهُم للمُسَألة، وقُراؤهُم رِيَاءً، وشُهرة.

قَال: ويَكُون ذَلِكَ يارَسُول الله ﷺ؟.

قَال: «نَعم، والَّذي نَفسِي بِيده، فَعِند ذَلِكَ يَاسَلْمان! يَفشُو الْكَذِب، ويَظهَر الكَوْكَبُ لهُ الذّنب، وتُشارك الْمَرْأَة زوّجها فِي التِّجَارَة، فَعِند ذَلِكَ يَاسَلْمان! يَبعث الله رِيحاً فِيها حيّات صُفر، فَتَلتَقط رُؤساء الْعُلَمَاء، لمّا أنّهم رَأوا الْمُنْكَر فَلم يُغيرُوه.

قَال: ويَكُون ذَلِكَ؟.

قَال: «نَعم، والَّذي بَعث مُحَمّداً بِالْحَقِّ»[1]. والْمُرَاد بِالْفُقَرَاء هُنا كلّ مَن يَتَّخِذ ٱلحَجّ وَسِيلة للرِّبح والاِتجَار كالمُعرّفِين يَقُودُونَ جَمَاعَة مِن الحجّاج بأجر مَعلُوم، أمّا الْعُلَمَاء فالمُرَاد بِهِمْ أَصْحَاب العَمَائِم الَّذِين تَرسلهُم الحكُومَات بٱسم البِعثَة لا لِشيء كمَا فِي الحَدِيث.

إنّ بَيْت الله ٱلْحَرَام أحْجَار لاَ تَضُر ولاَ تَنفَع كمَا قَال رَسُول الله ﷺ مِن قَبل، وقَالَ

---

(١) هَذَا جُزء من حَدِيثٍ طَويل، رَاجع مَجْمَع الزّوائد: ٢٣٣/٥، عَلاَمَات يَوْم ٱلْقِيَامَة للقُرطبي: ٤٤، تَفْسِير عَليّ بن إِبْرَاهِيم القُمي: ٢ / ٣٠٢ ـ ٣٠٧، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة: ٥٢٨/٧ ح ٣٧٧٣١، ثواب الأَعْمَال وعقابها: ٣٠١ ح ٤، جَامع الأَخْبَار: ١٢٩، مُسْنَد البَزار: ٨٠/٧ ح ٢٦٣٠، البحار: ٥٢ / ١٩٠ ح ٢١، حلية الأَوْلِيَاء: ٣٥٨/٣، مُنْتَخَب الأثر: ٤٢٧ ح ٦، مُعجم شيوخ أَبِي بَكْرٍ الإسماعيلي: ٧٢٣/٣، الطّبراني، الْصَّغِير: ٢ / ٣٩، أمَالِي الشّجري: ٢ / ٢٥٧، مَجْمَع الزّوائد: ٧ / ٣٢٦، كشف الهَيثَمي: ٢ / ٢٣٧ إرشَاد الْقُلُوب: ١ / ٦٧، كمال الدّين: ٢ / ٥٢٥ ـ ٥٢٨ ح ١، السُّنن الْوارِدَة فِي الْفِتَن: ٥٢٤/٣ و: ٨٣٩/٤، الخَرَائج والجرائح: ٣ / ١١٣٣ ح ٢٠، كتاب الزُّهْد لِابْن أَبِي عَاصِم: ٢١٢/١، سُنَن الدّاني: ١٣٥، عقد الدُّرر: ٢٩١، مَلاحم ٱبن المُنَادي: ٦٤، بشارة الإِسْلاَم: ٤١، التَّأريخ الْكَبِير: ٣٣٠/٤ ح ٣٠١٣، مُسْتَدرَك ٱلنُّورِي: ١٢ / ٣٢٦، المُدونة الْكُبْرَىٰ: ٨٨/١، نور الثَّقَلَيْن: ١ / ٧٨١، الإيقاظ من الهَجعة: ٣٢٢ ح ٣١، إثبَات الهُداة: ٣ / ٥٢٢ ح ٤٠٧.

الإِمَام وغَيْر الإِمَام مِن بَعد، ولكن هَذِه الأحْجَار رَمز للإِجْمَاع عَلىٰ تَوحِيد الله وعِبَادته، وشِعَار لتَقدِيسَه، وتَعظِيمه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[١]. ولَيْسَ الإِسْلاَم بِدعاً فِي ذَلِكَ، فكلّ الأُمَم والطَّوَائِف مِن بَنِي آدَمَ ـ لَهَا رمُوز وشعَائِر مُطهَرَة مُقدَسَة[٢].

(ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ ﷺ وَ وَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ) أي أَنْ يَحجُوا إِلىٰ بَيْت الله ٱلْحَرَام، وقِيل: أنّه كَان خِيمَة يَطُوف حَوْلَهَا آدَمَ، ثُمّ بَنَاها ٱبنَه شِيث بِالحجَر والطِّين (فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَ غَايَةً لِمُلْقَىٰ رِحَالِهِمْ) إشارَة إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ فِي الآيَة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[٣]. ومُنتَجع إشَارة إِلىٰ المَنَافِع الَّتي ذَكرها سُبْحَانَهُ فِي الآيَة: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾[٤]. (تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ) إِشَارَة إِلىٰ الآيَة: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[٥]. (مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ): ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[٦].

(حَتَّىٰ يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهُ، وَ يَرْمُلُونَ... إِلىٰ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ). عَلىٰ الحَاج قَبل كلّ شَيء أنْ يَلبَس ثوبَيْ الاِحْرَام، وهُما إِزَارَان يَلف أَحْدهُما حَوْلَ وسَطَه، والثَّانِي عَلىٰ الظَّهر، والصَّدر والكتفِين، ولا خَيط يَشبك أَحْدهُما

(١) ٱلْحَجّ: ٣٢.
(٢) أُنظر مَا نَقلنَاه فِي كِتَاب: «مِن هُنا وهُنَاك» بِعنوَان زِيَارة الْقُبُور. (مِنْهُ ﷺ).
(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٢٥.
(٤) ٱلْحَجّ: ٢٨.
(٥) إِبْرَاهِيم: ٣٧.
(٦) ٱلْحَجّ: ٢٧.

بــالآخر[1]، وإلىٰ هَــذَا أشَــار الْإمَــام بــقَوْله: «قَـدْ نَـبَذُوا السَّرَابِـيلَ وَرَاءَ

(١) لاَ خِلاَف فِي أنّ الإحْرَام رُكن من أركَان العُمرَة، وأيضاً هُو رُكن من حَجّ التّمتع، والإفرَاد والقِرَان. وأيضاً لاَ خِلاف فِي أنّه أوّل عَمَل يَجب أنْ يَبتدئ بِهِ النّاسك، سَواء أكَانَ مُعتمراً بُعمرَة مُفرَدة، أمْ حَاجاً بحَجّ تَمتع، أمْ قِرَان، أمْ إفرَاد. ولهُ مُستحبَات، ووَاجبَات.

اتفقوا عَلىٰ أنّه يُستحب لِمن يُريد الإحْرَام أنْ يُنظف جَسَده، ويُقلم أظفَاره، ويَأخذ من شَاربه، وأنْ يَغتسل حَتّىٰ لَو كَانَتْ إمْرَأة فِي الحِيضِ، والنّفاس؛ لأنّ الغرَض النّظَافة، وأنْ يُوفر شَعر رَأسه مِن أوّل ذِي القعدة إذَا أرَاد حَجّ التّمتع، وأنْ يُزيل الشّعر من جَسده وإبطيه، وأنْ يُحرِم بَعد صَلاَة الظُّهْر، أو أيّة فَريضة غَيْرها، وإنْ استحب أنْ يُصلّي للإحْرَام ست ركعات، أو أرْبَعاً، أو ركعتين علىٰ الأقل. أمّا الطّهارة من الحَدث فَلَيْسَت شَرطاً فِي صِحة الإحْرَام.

أنظر، التّذكرة: ٧/٢٢٢ و٢٢٣، الخِلاَف: ٢/٢٨٦، جَامع المقاصد: ٣/١٦٣، الأُم: ٢/١٤٦، السّرَاج الوهّاج: ١٥٦، الكَافِي: ٤/٣٢٧،الوَجِيز: ١/١١٧، المِنْهَاج القَويم: ٤١٥.

وَقَالَ الحَنَفِيّة، والمَالكِية: إذَا فَقَد المَاء سَقط الغَسل، ولَم يُشرع التيمم بَدلاً عَنهُ.

أنظر، مُغني المُحتاج: ١/٤٧٩، المَجموع: ٧/٢١٤، مَعَالِم السُّنَن للخطابي:٢/٢٨٧.

وَقَالَ الحنَابلة، والشَافعية: بَل يَتيمم بَدلاً عن الغَسل.

أنظر، المُغني: ٣/٢٣٤، فتح العَزيز: ٧/٢٤٢، المَجمُوع: ٧/٢١٣ الشّرح الْكَبِير: ٣/٢٢٥، الأُم: ٢/١٤٥، الوجيز: ١/١١٧، بداية المُجْتَهد: ١/٣١٧، عُمدة القاري: ٩/١٥٦.

واختلف الْإمَامِيّة فيما بَيْنَهمْ، فَمانِع، ومُجيز.

والحَقّ المَنع، كمَا فِي مُستمسك الْعُرْوَة: «إنّ عمُوم بَدلِية التُّراب عن المَاء، وأنّه يَكفِي عَشر سِنِين، وأنّ التُّراب أحَد الطَّهورِين، وأنّ رَبّ المَاء والصّعيد وَاحد كَافٍ فِي ثبُوت بدلِية التُّراب في المقَام ونَحوه».

أنظر، الْعُرْوَة الْوُثقىٰ: ١٣/٦٥، جوَاهر الكَلاَم: ١٨/١٧٨، الكَافي: ٤/٣٢٨، التّذكرة: ٧/٢٢٥.

ويُلاحظ أنّ هَذِه الأدلة الّتي دَلت عَلىٰ بدلِية التُّراب عَن المَاء نَاظرة إلىٰ المَاء بقيد التّطهير من الحَدث، لا مُطلق المَاء، وإلاّ وَجب أنْ نُعطي التُّراب جَميع أحْكَام المَاء عِند تَعذره، حَتّىٰ فِي إزَالة النّجاسَة الخَبثِية إلاّ مَا أخرجه الدَّلِيل، ولا قَائل بِذَلِك، حَتّىٰ صَاحب المُستمسك ـ فيما أظن ـ وقـد صَرح فِي مَنسكه: «إنّ الغُسْل مُستحب للإحْرَام مِن الحَائض والنُّفساء، ومَعنىٰ ذَلِكَ أنّ هَذَا الغُسْل لا يَرفع حَدثاً، ولا يقصد منهُ إلاّ النّظافة، هَذَا، إلىٰ أننا نَعلم أنّ التُّراب يكُون بَدلاً عن المَاء في الطّهارة الحَدثِية، ولا يكُون بَدلاً عنهُ في

↔

⇔ الطَّهارة الخَبثِية، كالدَّم والبَول، ونَشك: هل يكُون بدلاً عنهُ فِي هَـذَا الغُسْـل، ولا يَسـوغ التَّمسك بهَـذه العمُوميات لرفع الشَّك، وإثبَات البَدلية الشَّرعيَّة؛ لأنّه من بَاب التَّمسك بالعَام فِي الشُّبهَات المصدَاقية.

أنظر، مناسك الحجّ للسَّيِّد الحكِيم: ٢٦ الطَّبعة الرّابعة، كمَا جَاء فِي الفِقْه عَلىٰ المَذَاهِبُ الخَمسَة للشيخ مُحَمّد جَواد مُغنيَّة. وأردَف الشّيخ ﷺ بقَوْله: أرسَلت هَذِه المُلاحظة لسَماحة السَّيِّد فَعلق عَليها بقَوله: «إنّ مشرُوعية الغُسْل المُستحب للطهارة، والطَّهارة إِنَّمَا تكُون عن الحَدث، فالغُسْل المُستحب مُطهر من مَرتبة من الحَدث، وبَدلِية التُّراب عن المَاء شَاملة لموارد الغُسْل المُستحب، وشمولها لذَلِكَ لا يَقتضي شمولها للغُسْل عن النّجاسة؛ لاختلاف السّنخية بين الحَدث والخَبث، والإختِلاَف فِي المَحل، فـإنّ مـورد الأوّل النّـفس ونحوها، ومورد الثَّاني الجِسم مع وَحْدَة السّنخِية بين طهَارة الغُسْل الوَاجب والمُستحب، ودَليل البَدلية عَام لِلأمرين، وبالجُملة فالغُسْل المُستحب مُطهر من الحَدث بالجُـملة، ولَو من بَعْض مرَاتبه، فـيشمله دَلِـيل البَدلِية، والغُسْل من الحَائض مُطهر من مرَتبة من الحَدث، كمَا أنّها إِذَا أغتسلت من الجنَابة طهرت مِنْهَا، وإنْ بقي حَدث الحِيض. والله هو العَالم العَاصِم».

وأتفقوا عَلىٰ أنّ الرّجل المُحْرِم لا يَجُوز لهُ أنْ يَلبس مَخيطاً، ولا ثَوباً يزرّهُ، ولا قَميصاً ولا سرَاويل، ولا أنْ يُغطي رَأسه ووَجهه، وَقَالَ الشَّافعي، وأحمد: يَجُوز لهُ أنْ يُغطي وجهه، ولا يَجُوز لهُ أنْ يَلبس الخُفين إلّا إِذَا لَم يَجد نَعلاً، فيلبس خُفين بَعد أنْ يَقطع أسفل من الكَعبين.

أنظر، التّذكرة: ٢٤٢/٧ و٢٩٥ و٣٣٠، الفَقِيه: ٢١٧/٢، بداية المُجْتَهِد: ٣٢٧/١ المجموع: ٢٥٣/٧، المُهذب للشيرَازي: ٢١٥/١، الحاوي الكَبِير: ١١٠/٤ فتح العزيز: ٤٣٧/٧.

وأمّا المَرْأَة فتُغطي رَأسها، وتكشف وجهها إلّا مع خَوْف نَظر الرّجال إِلَيْهَا بريبة ولا يَجُوز لهَا أنْ تَلبس القفَاز أي الكفوف ـ ولهَا أنْ تَلبس الحَرير والخُفين. وَقَالَ أبو حَنِيفَة: يَجوز لهَا لبس القفاز.

أنظر، المُغْنِي: ٣١١/٣، الشّرح الكَبِير: ٣٨٠/٣، التّذكرة: ٣٣٨/٧، المَبسـوط للـطوسي: ٣٢٠/١، المجموع: ٢٦٩/٧، فتح العزيز: ٤٥٤/٧، بداية المُجْتَهِد: ٣١٧/١، المُغْنِي: ٣١٥/٣، البداية والنّهـاية لِابْن رشد: ٣٢٨/١.

قَال الحَنَفِيَّة: ومن ذَلِكَ لبس إزَار ورِدَاء، والإزار هو مَا يَستتر بهِ من سرته إِلىٰ رُكبته، والرّداء هو ما يكون علىٰ الظَّهر والصّدر والكتفين، وهو مُستحب.

أُنظر، الفتاوىٰ الهندية: ٢٢٢/١، الفِقْه عـلىٰ المَـذَاهِبُ الأربـعة: ٦٤١/١ ـ ٦٤٣، المـنتقىٰ للـبَاجي: ⇔

ظُهُورِهِمْ... إلخ». أمّا إِعْفَاءِ الشُّعُورِ فهُو إِشَارة إِلىٰ أنّ المُحرِم ـ بكسر الرّاء ـ يَترك شَعرَه بِلا قَصّ، وحَلق، ونَتف، ثُمّ يَرفع صَوْته بالتَّلبِية والتَّهليل والتَّكبِير، ثُمّ يَطُوف ويَسعىٰ، ويُصلِي ويَستَغفِر.

(ٱبْتِلاَءً عَظِيماً، وَ ٱمْتِحَاناً شَدِيداً، وَ ٱخْتِبَاراً مُبِيناً، وَ تَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ

⇔ ١٩٦/٢.

وَقَالَ المالكِية: يَندب أنْ يَلبس إزاراً ورِدَاء ونَعلين، ولو لَبس غَيْر الرِّداء والإزار بمّا ليس مَخيطاً، ولا مُحيطاً، فلا يَضُرّ، والمُحيط هو الثّوب الّذي يُحيط بالعُضْو.

أُنظر، الموطأ: ٣٢٥/١، بداية المُجتَهد: ٣١٦/١ و٣٦١، الفِقه علىٰ المَذاهِبُ الأربعة: ٦٤١/١.

وَقَالَ الحنَابلة: يُسن لهُ قبل إحرَامه لبس إزار ورداء، أبيضِين، نظِيفِين، جديدِين، ونَعلِين.

أُنظر، المُغني: ٢٧٧/٣، الشَرح الكَبِير: ٢٨١/٣، المجموع: ٢٦٦/٧، الفِقه علىٰ المَذاهِبُ الأربعة: ٦٤٢/١.

وَقَالَ الشّافعية: ومن ذَلِكَ أنْ يَلبس إزاراً ورِدَاء، أبيضِين، جدِيدِين، وإلاّ فمغسُولين.

أُنظر، المجموع: ٢٦٦/٧، مختصر المزني: ٦٦، بداية المُجتَهد: ٣١٦/١ و٣٦١.

وَقَالَ الإمَامِيّة: إنّ الإزار والرّداء واجبان، وإنّه يُستحب أنْ يكونا من القُطن الأبيض، ويجوز للمُحرِم أنْ يَلبس أكْثَر من ثوبِين علىٰ شرِيطة أنْ لا يكُون مَخيطاً، كما يجُوز لهُ أنْ يبدل ثِياب الإحرَام، ولكن الأفضل عندهم أنْ يطوف بالثوبِين اللّذِين أحرَم بهما. وأشترطوا في لبَاس المُحرِم كلّ ما أشترطوه في لِباس المُصلّي من الطّهارة، وعَدم كونهِ حَرِيراً للرِّجَال أو جِلداً من غَيْر مأكول اللّحم، بل قَال جَماعَة: لا يَجُوز أنْ يكُون من نَوْع الجِلد إطلاقاً.

أُنظر، العُرْوَة الوُثقىٰ: ١١٦/١٢ و١١٧، التذكرة: ٢٣٩/٧، الفَقيه: ٢١٤/٢، الكَافي: ٣٣٩/٤، التّهذيب: ٧٠/٥ و٧١، الفَقيه: ٢١٥/٢ و٢١٨، الكَافي: ٣٤١/٤، التّذكرة: ٢٤٦/٧.

ومهمَا يَكُن، فإنّ الخِلاَف في لبس المُحرِم بسيط جداً، ويَكفي للتدليل علىٰ ذَلِكَ أنّ كلّ ما هو مجزٍ عند الإمَامِيّة مجزٍ أيضاً عند الأربعة.

أُنظر، المجموع: ٢١٤/٧ و: ١٢١/١٨، المبسوط: ١٢٩/٤، المدونة الكُبْرىٰ: ١٠٨/١ تلخيص الحبير: ٢٥٦/٧.

سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَ وُصْلَةً إِلَىٰ جَنَّتِهِ). لِمَاذَا نَبذ السَّرَابِيلَ، وتُشوِيه المَحَاسِن، والهَرْوَلة ذِهَاباً وإيَاباً، والطّوَاف حَوْلَ الأحْجَار بِتَذَلُل وتَضَرُع؟... لا تَسلْ... إنَّك عَبدٌ مَأمُور... ولِمُولاَك حَقّ التَّمحِيص، والاختِبَار بالأَمْر، والنَّهي، ومَا عَلَيْكَ إلاّ أنْ تَطِيع، وعَلىٰ قَدَر طَاعتك يُعرف مُقدَار حُبّك لله، وجَزَاؤك عِندَه.

(وَ لَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْـحَرَامَ، وَ مَشَـاعِرَهُ الْـعِظَامَ، بَـيْنَ جَـنَّاتٍ وَ أَنْهَارٍ.. . إلخ). الله عَلىٰ كلِّ شَيء قَدِير، وأيضاً هُو عَلِيم حَكِيم، يَعْلَم أنّه لو أعْطَىٰ الدُّنْيَا لِأَنْبِيَائِهِ لآمَن النَّاس بِدُنْيَاهُم لا بِنُبوّتِهم، ورسَالتِهم.. وأيضاً لَوْ جعل فِي حَدَائِقٍ وأنْهَارٍ لكَان مَقهىٰ وَمَلهىٰ، ومَسرَحاً و«بَلاَجاً» للْشَّيَاطِين لاَ مَهْبَطاً للمَلاَئِكَة المُقربِين، ومَسجِداً لِلعَاكِفِين: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

وقِيل: إنّ موقع مَكَّة فِي الخَرِيطه الجُغرَافِية كمُوقع الْقَلْب مِن الجَسَد، لِأنَّها وَسَط بَيْنَ الشّمَال والجنُوب، وإنّ نِسْبَة بَلاد الغَرب إلَيْهَا قُرباً وبُعداً كنسْبَة بِلاَد الشَّرق... ومَهمَا يَكُن فإنّ رِحلة المُسْلِم إلىٰ مَكَّة هِي رِحلَة حُبّ لله ورَسُوله، إنّه يَحنّ ويَهرع إلىٰ مَكّة، ويُقبّل الحَجر الأسوَد، وهُو يَرجو أنْ تَمس شَفتَاه نَفْس المكَان الّذي قبّله مُحَمّد، ويَطُوف حَوْلَ الْبيْت، وهُو يَأمل أنْ تَقع قَدمَاه فِي نَفْس المكَان الّذي وَطأه مُحَمّد ﷺ.

(وَ لَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَ يَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْـمَجَاهِدِ... إلخ). تَقَدَّم مِثله مَع الشَّرح مُفصلاً[2]، وفِي هَذَا المَعْنَىٰ قَوْله تَعالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ

(١) ٱلبَقَرَة: ١٢٥.
(٢) أُنظر. ٱلخُطبَة: ١٤٣.

ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾[(١)].

الْعِبَادَةُ رِيَاضَةٌ نَفْسِيَّةٌ...فِقْرَة ١٥ ـ ١٧:

فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَ آجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَ سُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَىٰ، وَ مَكِيدَتُهُ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَ لاٰ تُشْوِي أَحَداً، لاٰ عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَ لاٰ مُقِلًّا فِي طِمْرِهِ. وَ عَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَ الزَّكَوَاتِ، وَ مُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ، وَ تَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَ تَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَ تَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَ إِذْهَاباً لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُمْ، وَ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَ الْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُراً، وَ لُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا، مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ إِلَىٰ أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ، وَ الْفَقْرِ[(١٥)].

اُنْظُرُوا إِلَىٰ مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وَ قَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ! وَ لَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَ لاٰ عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَىٰ آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَ طَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَ أَنْتَ طِينِيٌّ.

وَ أَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ

---

(١) ٱلبَقَرَة: ١٥٥.

أَمْوَٰلًا وَ أَوْلَـٰدًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(١)(١٦). فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِـنَ الْـعَصَبِيَّةِ فَـلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَ مَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَ مَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّـتِي تَـفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَ النُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَ يَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ، بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيبَةِ، وَ الْأَحْلَامِ الْعَظِيمَةِ، وَ الْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَ الْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَ الْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَ الطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَ الْمَعْصِيَةِ لِـلْكِبْرِ، وَ الْأَخْـذِ بِالْفَضْلِ، وَ الْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَ الْإِعْظَامِ لِـلْقَتْلِ، وَ الْإِنْـصَافِ لِـلْخَلْقِ، وَ الْكَـظْمِ لِلْغَيْظِ، وَ اجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. وَ احْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَ ذَمِيمِ الْأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَ احْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ(١٧).

اللُّغَة:

التَّسَاوِرُ: التَّوَاثِب والتَّقَاتِل. ولا تُكْدِي: لاَ تَمْتَنِعَ عَن الْـقِتَال. وَلاَ تُشْـوِي: لاَ تُخطىء فِي ضَرَبَاتِها. والطِّمْرِ ـ بكسر الطَّاء ـ الثَّوب البَالِي. والخُشُـوعُ للـقَلْب لا للبَصَر، ولَكِنَّهُ هُنا كِنَاية عَن الذُّل والهوَان. والخُيَلَاءِ: الْكِبْرِيَاء. والنَّوَاجِم: جَمـع النَّجم، وهُو مَا بَرَز وَظَهَر. والقَدْع: والمَنْع. وتَلِيطُ: تلصُق. والمُرَاد بـالجِوَارِ هُـنا الأَمَان والعَهد، ومِثلهُ الذِّمَامِ. والمَثُلَاتِ: العقُوبَات.

الإعْرَاب:

اللهَ نُصب عَلَىٰ التَّحْذِير. لاٰ عَالِماً، وَلاٰ مُقِلًّا بَدل مُفصل مِن مُجمل، والمُبدل مِنْهُ

(١) سُورَةُ سَبَإٍ: ٣٥.

«أَحَداً» ، ومَا حَرَس «مَا مَصْدَرِيَة» والْمَصْدَر المُنسَبك مُبْتَدَأ ، وعَـن ذَلِكَ مُـتَعَلِّق خَبَراً مُقدَماً أي وحَرَاسة الله حَاصله لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وتَسْكِيناً مَفْعُول من أجـله لمُجَاهَدَةِ أو لِحَرَس ، وتَوَاضُعاً مَفْعُول من أجله لتَعْفِيرِ ، وتَصَاغُراً لالْتِصَاقِ ، وتَذَلُّلا لِلُحُوقِ ، غَيْرَكُمْ نُصبَ عَلَىٰ الاِسْتثنَاء مِن أحَدٍ ، والْمَعْنَىٰ فمَا وَجَدت أحَداً إلّا إيَّاكُمْ ، وأَمْوَالاً تَمْيِيز ، والْمَصْدَر مِن أَنْ تَكُون مجْرُور بِمِن محَذُوفة أي مِن كُونُوكُم أَمْثَالَهُمْ .

الْمَعْنَىٰ:

(فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ ، وَ آجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ ، وَ سُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ ... إلخ) .
الْبَغْي ، والظُّلْمِ ، والْجَوْر بِمَعْنَىٰ وَاحد ، والْكِبْرِ أنْ تَـضع نَـفْسَك فُـوق مَـوْضِعها .. ولَلظُّلمِ ، والْكِبْرِ أسوَأ الآثَار دُنْياً وآخِرة . وتَقَدَّم الكلاَم عَن رَذِيلة الظُّلْم[1] . وَعَن الْكِبْرِ فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة ، وسُئل الإِمَام الصَّادِق عَـن الإلحَـاد ؟ . فـقَال : «إنّ الْكِـبْرِ أدنَاه»[2] . ونَسَبَ الإمَام رَذِيلَة الظُّلْمِ ، والْكِبْرِ إلىٰ إبْـلِيس ، لأنّـه أوّل مَـن ظَـلَم وتَكَبْر ، وإنّه يُوسوس لِلعَالِمِ والجَاهِل ، ولِلْغَنِيُّ والْفَقِير ، فَيقُول للعَالِمِ : أنْتَ بِعلمِك فُوق النَّاس أجْمَعِين . ولِلجَاهِل : أنْتَ بِذَكَائِك غَنِي عَن التَّعلم والسّؤال . ولِلْـغَنِيُّ ، أنْتَ مَالِك ٱلْمُلْك تُؤتِي ٱلْمُلْك مَن تَشَـاء . ولِلْـفَقِير : لَـيس لله عَـلَيْكَ مِـن فَـضلٍ . وبالمُنَاسبة نَقل صَاحب «الكَافِي» عَن الإمَام الصَّادِق : إنّ الْفُقَرَاء يَتُوجهُون غَدَاً إلىٰ الْجَنَّة تِلقَائِياً ، وقَـبل أنْ يُحَـاسَبُوا . فـيقول خَـازن الجِـنَّان : كَـيْفَ أُقْـبَلكُم قَـبل

---

(١) أنظر ، شَرح ٱلْخُطْبَة : (١٧٦) . (مِنهُ ﷺ) .
(٢) أُنظر ، الكَـافِي : ٢/٣٠٩ ح ١ ، شَرح أُصـول الكَـافِي : ٩/٣٢٣ ، مُـنيَة المُـريد : ٣٣٠ ، وَسَـائِل الشِّـيعَة : ١١/٢٩٨ ح ١ و ٥ .

الْحِسَاب ؟. فَيقُولُون: مَا أَعْطَيتمُونا شَيْئاً تُحَاسبُونَنا عَلَيْهِ ؟ فيقُول الله: صَدقُوا آفْتَحُوا لَهُم الأَبوَاب»[١].

(وَ عَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَ الزَّكَوَاتِ). الصَّلاٰة توَاضع، والتَّوَاضع ضِدَّ الْكِبْر، وإذَنْ فالصَّلاٰةِ تَصُون المُصلِي مِن هَذِه الرّذِيلة... ثُمّ أنّ الصَّلاٰةِ عَهد لله عَلىٰ عَبدَه أنْ يَنْتَهِي عَن الفَحشَاء والمُنْكَر. وإذاكَانَتْ الصَّلاٰة تُرَوّض النَّفس والأَعْضَاء بِالحرَكَات فإنّ الزَّكَاة تُرَوّضهَا بِالْمَال وَبَذله، ولا شَيء أثْقَل عَلَيْهَا مِن ذَلِكَ (وَ مُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ). ومَن جَرَب وَجَدَه الْجِهَاد الأَكْبَر، وهل لِلنَّفس مِن جِهَاد وتَروِّيض أَكْثَر مِن الصَّبر عَلىٰ الجُوع والعَطش، وعَن الشَّاي والدُّخَان ؟.

(تَسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ) هِي الأَيْدِي والأَرْجُل، والعُضْو المَعلُوم، والمُرَاد بِتَسْكِينهَا كَفهَا عَن الحَرَام (وَ تَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَ تَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ... إلخ) كِنَايَة عَن التّوَاضع والتَّذلل لله (وَ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً... إلخ) كَأَنّ سَائِلاً يَقُول: لمَاذا كَانَتْ العِبَادة سَبباً لِلمَنع عَن المُحرمَات وذُلّ النُّفُوس والْقُلُوب ؟ فَأَجَاب الإِمَام بِأنّ الصَّلاٰة رُكُوع وسُجُود، والصِّيَام جُوع وَعطش، وكلّ ذَلِكَ يَستُوجِب التَّذلُل والإنكسَار... هَذَا، إلىٰ أنّ الزَّكَاة تَسد حَاجَة المُعوَزِين، وتَربط رَبّ الْمَال بمُجتَمعه.

(اُنْظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وَ قَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ!) إشَارة إلىٰ الصَّلاٰةِ والزَّكَاة، وإنّهَا تُطهر النَّفس مِن رَذِيلة الْكِبْر والْفَخر (وَ لَقَدْ نَظَرْتُ

(١) أُنظر، الكَافي: ٢/٢٦٥ ح ١٩.

فَمَا وَجَدْتُ أَحداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ... إلخ) يَقُول الإِمَام لأصْحَابَه مَا رَأَيْت أحَداً يَتعصَّب لِشيء إلاّ وَيُبرّره بِسَببٍ حقّاً كَان أَمْ بَاطلاً، وإنّ المُبْطِل قَد يَتغلب بالتّموِيه عَلىٰ عَقل سَفِيهٍ، أو جَاهلٍ، أو يُعرّض أفْكَاره لِلبَلبَلة والاهتزَاز ـ عَلىٰ الأقَل ـ إلا أَنْتُمْ (فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ) صَحِيحَة ولاَ فَاسِدة كَالْعِلَّة الَّتِي تَذَرع بِهَا إبْلِيس حِين تَعصَّب عَلىٰ آدَمَ، وَقَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1].

(وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ... إلخ) قَال أهْل اللُّغَة: تَرُف الرَّجُل إذَا تَنعَم، وأَترَفه الْمَال أَبْطَرَه وأفْسَده[2]، ولا شَيء أدَل عَلىٰ فسَادهُم وإفْسَادِهِم مِن أنّهم لا يُفكرُون إلاّ مِن خلاَل الْمَال، ولا يَسْتَمعُون إلاّ للكَسب والرِّبح، أمّا الْحَقّ والْعَقْل، والدِّين والعَدل فَحَدِيث خُرَافة، والَّذِي يَملك الْمَال هُو السَّيِّد الْمُحِق: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3]. وأنْكَر مُتْرَفُو قُرَيْش نُبُوّة مُحَمّد ﷺ لاَ لِشَيء إلاّ لأنّه لاَ يَملك كَنزاً ولا جَنّة يَأكُل مِنْهَا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[4].

---

(١) ٱلْأَعْرَافِ: ١٢.
(٢) أنظر، لِسَان الْعَرَب: ١٧/٩.
(٣) سَبَأٍ: ٣٤ ـ ٣٥.
(٤) ٱلْفُرْقَانِ: ٨.

الإِسْلاَم وَالتَّسَامُح:

(فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ . . . إلخ) التَّعَصُّب لِلحَقِّ والدِّفَاع عَنْهُ فَضِيلة، أمّا التَّعَصُّب لِلعِرقِ، أو اللَّون، أو الأفرَاد والْفِئَات، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ فهُو رَذِيلة. هَذَا مُلخص مَا أرَادَهُ الإِمَام، أمّا الوَفَاء والنَّجْدَة والْبِرّ والإِنْصَاف وكَظم الْغَيْظ واجْتِنَاب الفسَاد فَهِيَ مُجرد أمثِلة، وقَد شَهِد القَرِيب قَبل البَعِيد أنّه لا عَصَبِية ولا قَبَلِية فِي الإِسْلاَم، وإنّ أسَاس الْفَضْل هُو التَّقْوَىٰ، وإنّ خَيْر النَّاس أنْفَع النَّاس للنَّاس[1]، كمَا قَال الرَّسُول الأعْظَم.

وَقَالَ الفَيْلَسُوف الانْجلِيزي الشَّهِير «بَرتراند رَاسل»: «وَقَد أظهَر الْمُسْلِمُون فِي بدَايَة عَهْدِهِم تسَامُحاً فِي التّعَامُل مَع المَسِيحِيين الّذِين أخْضعُوهُم، ولاَ رَيبَ فِي أنّ الْفَضْل فِي سهُولة فتُوحَاتهم واسْتقرَار امْبرَاطورِيتهم يَعُود إِلىٰ هَذَا التَّسَامُح الَّذي يَبدُو بَارِزاً إذَا مَا قُورن بالحَمَاسَة التَّعسُفِية والاضْطهَادِية الّتي عُرفت بِها الكَنِيسَة الكَاثُولِيكِية»[2].

(وَ احْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَ ذَمِيمِ الْأَعْمَالِ... إلخ). تَقَدَّم هَذَا مِرَاراً، ومِن ذَلِكَ قَوْله المُتقدم فِي هَذِه الْخُطْبَة: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ صَوْلاَتِهِ .. إلخ».

الأَذىٰ فِي سَبِيلِ الْحَقّ...فِقْرَة ١٨ ـ ٢٠:

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَ زَاحَتِ

(١) أنظر، فيض القدير: ٣/٤٦٦، شُعب الإيمَان: ٦/١١٧ ح ٧٦٥٨.

(٢) أنظر، كِتَابه السُّلطان: ١٦٥، تَرجَمَة خَيري حمّاد ـ الطَّبعَة الأُولىٰ ـ آذار سَنَة ١٩٦٢م. (مِنْهُ ﷺ).

الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ، وَ مُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَ انْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَ وَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الْإِجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ ، وَ اللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَ التَّحَاضِّ عَلَيْهَا ، وَ التَّوَاصِي بِهَا ، وَ اجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَ أَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ ، وَ تَشَاحُنِ الصُّدُورِ ،! وَ تَدَابُرِ النُّفُوسِ ، وَ تَخَاذُلِ الْأَيْدِي[١٨] ، وَ تَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَ الْبَلاٰءِ . أَ لَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً ، وَ أَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلاٰءً ، وَ أَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً . اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَ جَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَ قَهْرِ الْغَلَبَةِ ، لاٰ يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ ، وَ لاٰ سَبِيلاً إِلَىٰ دِفَاعٍ . حَتَّىٰ إِذَا رَأَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِي مَحَبَّتِهِ ، وَ الْإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاٰءِ فَرَجاً ، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ ، وَ الْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً ، وَ أَئِمَّةً أَعْلاٰماً ، وَ قَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ[١٩] .

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلاٰءُ مُجْتَمِعَةً ، وَ الْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً ، وَ الْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَ الْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَ السُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ، وَ الْبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَ الْعَزَائِمُ وَاحِدَةً ، أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الْأَرَضِينَ ، وَ مُلُوكاً عَلَىٰ رِقَابِ الْعَالَمِينَ ! فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ ، وَ تَشَتَّتَتِ الْأُلْفَةُ ، وَ اخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ ، وَ الْأَفْئِدَةُ ، وَ تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَ تَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ ، وَ قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَ سَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ ، وَ بَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ[٢٠] .

اللُّغَة:

حَالَيْهِمْ ـ بفتح اللاَّم ـ مُثَنىٰ حَال أي صِفَة الشَّيء وهيئَتَه، ويَسْتَوِيَ فِيهِ التَّذكِير والتَّأنِيث، والمُرَاد بِالحَالِين هُنا السّعَادَة والشّقَاء. وتَحَاضّ الْقَوْم: حَثّ بَعضهُم بَعضاً. والفِقْرَة: الخَرَزَة مِن خَرَزَات الظَّهْر. وأَوْهَنَ: أَضْعَفَ.

والمُنَّة ـ بِضَم المِيم ـ القُوَّة. والمُرَارَ شَجَرٌ مُرٌ. والأَمْلاَءُ ـ بفتح الهمزة ـ جمع مَلأ أي الْقَوْم الجَمَاعَة. والأَرْبَاب: السَادَات. ومُتَحَازِبِينَ: شِيَعَاً وأحْزَاباً.

الإِعْرَاب:

شَأْنَهُـمْ مَفْعُول لَزِمَتِ، وكَيْفَ كَانُوا «كَيْفَ» خَبَرَ مُقَدَّم لِكَانُوا، وعِبَراً حَال مِن قَصَص.

المَعْنَىٰ:

(فَـإِذَا تَـفَكَّرْتُمْ فِـي تَـفَاوُتِ حَـالَيْهِمْ، فَٱلْـزَمُوا كُـلَّ أَمْـرٍ لَـزِمَتِ الْـعِزَّةُ بِـهِ شَأْنَهُمْ... إلخ). المُرَاد بِالأَمْر هُنا السَّبب المُوجب للقُوَّة والْعِزَّة، والمَعْنَىٰ إذَا رَجَعتُم إِلىٰ تَأرِيخ الأُمَم وَجَدتُم أُمّة ضَعِيفَة مُتخَلِفَة، وأُخرىٰ قُوَّة مُتحَضِرَة، فَادرسُوا مَوَاطِن الضَّعْف وٱسْتقصُوا أسبَاب التَّخَلف فِي تِلك، ومَوَاطِن القُوَّة، والتَّقدُم ومُوجِبَاته فِي هَذِه، وٱعْتَبِرُوا بِمَا قَد رَأَيتُم مِن خَيْرٍ وشَرٍّ، فَإنّ الاِعْتِبَار مُنْذِر نَاصِح، والْعَاقِل من ٱنْتَفَع بالنُّذر، وٱعْتَبر بالغَيْر.

وكَرَر الْقُرْآن الكَرِيم هَذِه النَّصِيحَة فِي العَدِيد مِن آيَاته، من ذَلِكَ قَوْله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1].

---

(١) ٱلْحَجّ: ٤٦.

وأَهْملنَا نَحْنُ هَذِه النَّصِيحَة، وتَلقفَها الغَرب، فأنْشَأ مرَاكز لدرَاسَة الْقَوْمِيَّة مِن كلّ أُمّة، ودِينهَا، وتَقَالِيدهَا، وأوْضَاعَها، وتُرَاثَها، وفئَاتَها، وآقتصَادها، ومَا تَستَهلكَه من السِّلع كمّاً وكِيفاً، ويَدُرس الغَرب كلّ ذَلِكَ بِهَدف نَهب المُقدرَات، وتَصدِير رَأس المَال وآحْتكَار الأسوَاق، وشَن الحَرْب النَّفسِية عِندما تَدعو الحَاجَة.

هَذَا وشَبابنا يَتلهُون بأفْلاَم الجِنس والجَرِيمَة، والرُّؤسَاء بالمُشَاحنَات والخطَابَات، أمّا نِصف العَمَائِم والقَلانس، أو أكْثَر فإنَّها فِي شُغلٍ شَاغل بالشَّعوذَة والتَّخطِيط المُنظّم للحصُول عَلىٰ المَال مِن كلّ طَرِيق حَتَّىٰ من أَعْدَاء الدِّين والإِنْسَانِية.. وَالمُدهِش أنّه كلمّا تكَرَّر الْعُدْوَان عَلىٰ الْعَرَب، وزَادت حِدّته ـ عَانُوا مَزِيداً من التَّفكُك والانْقسَام، كمّا حَدَث بَعد حَرْب ١٩٤٨م أو حَرْب ١٩٦٧م مَع إِسْرَائِيلَ! مِئة مِليُون عَرَبِي يَذلهُم مِليُونَان ونصف يَهُودِي!.. فهَل حَدث مثلُ هَذَا فِي التَّأرِيخ؟. وإنْ قَال قَائل: أنَّهَا أمرِيكا لاَ إِسْرَائِيلَ. قُلنا فِي جوَابه: بَل الخِلاَف والشّقَاق. فَلقد أذلّت فِيتنَام أمرِيكا، وجَعلتهَا تَضرب فِي غَمرةٍ، وتَموج فِي حَيرَةٍ لا تَدرِي أين آلسَّبِيل؟.

(وَ زَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَ مُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَ آنْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ... إِلىٰ وَ التَّوَاصِي بِهَا). ضَمِير «لَهُ، وَبِهِ، وَعَلَيْهِ» يَعُود لِلأَمْرِ في قَوْله: «فَآلْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ». وضَمِير «عَنْهُمْ، وعَلَيْهِمْ، ومَعَهُمْ، وحَبْلَهُمْ» يَعُود لِلأُمّةِ العَزِيزَة فِي كِيَانها ومكَانتهَا، والْمَعْنَىٰ عَلَيْكُم أنْ تَأخذُوا دَرساً نَافعاً مِن تَأرِيخ الأُمّم، وتَسلكُوا كلّ طَرِيق جَعل مِنْهَا أُمّة قَوِية تَرهبها الأعْدَاء، وغَنِية فِيمَا تَملكَهُ مِن طَاقة وَثرَاء، وَتَبتَعدُوّا عَن طَرِيق الضَّعْف والتَّخلف، ولَيْسَ مِن شَكّ أنّ وَحْدَة الصّفُوف

عَامل مِن عوَامل القُوَّة والرُّقِي، فَٱلزَمُوا الأُلفَة، وٱجْتَنِبُوا الفُرْقَة، وحثُوا عَلَيْهَا، تَوَاصُوا بِهَا (وَ ٱجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ... إلخ). مَالكُم ولِلضَّغِينَة والشَّحنَاء؟ أَنَّهَا وَهنٌ لِلقُوَّة، ومُنَافَرة لِلْقُلُوب، وَشلٌّ لِلأَيْدِي وتَحطِيم للسُّيُوف.

(وَ تَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَ الْبَلاَءِ). الْمُرَاد بِالْمُؤْمِنِينَ هُنا الْمُسْتَضعَفُون، وبِالْفَرَاعِنَة الطُّغَاة، والْمُرَاد، بالصَّبرِ عَلىٰ الْأَذَىٰ فِي مَحَبَّة الله ـ الإِخْلاَص والثَّبَات عَلىٰ الْحَقِّ، والْمَعْنَىٰ كَان فِيمَا مَضىٰ مَجمُوعة مِن الْمَجَانِين يَقول بَعضهُمْ: أَنَا الله، أَنَا رَبُّكُم الأعلىٰ، وآخر يَقول: لستُ إلٰهاً، ولكنّي مَرسُوم مِن قِبل الله، وكلٌّ مِن هَذَا وذَاكَ يُطَارد الضُّعفَاء ويُنكل بِهِمْ، وهُم لاَ يَملكُون حوْلاً ولاَ قُوَّة إلّا الْهِدَايَة، وتَحَابب الْقُلُوب وثَبَاتها عَلىٰ الْإِخْلاَص والْإِيمَان، ولمّا عَلِم الله فِيهِمْ خَيْراً، جَعل لهُم فتحاً ومَخرَجاً، ومَنَّ عَلَيْهِمْ بِالكرَامَةِ والسُّلْطَان، والْأَمْن والاِسْتقرَار، وبِالعِلم ومعرِفَة الحقَائِق، فعَاشُوا حيَاة مَا كَانُوا يَحلمُون بِهَا مِن قَبل.

(فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً، وَ الْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً ... إلخ). الْجُمَل فِي هَذِه الأسطُر مُختَلِفة المَبنىٰ مُتحدَة الْمَعْنَىٰ، والْقَصْد مِنْهَا التَّأكِيد عَلىٰ أنّه لا حيَاة لقُوم إلّا بوَحْدَة الكَلِمَة، وإنّه متىٰ تَحققَت هَذِه الْوَحْدَة والأُلفَة ٱتجهَت الجهُود والْعُقُول كلّها إلىٰ الْعَمَل لحيَاة أفضَل، وإنّه لاَ شَيء وَرَاء الشّتَات إلّا المَذلة والهوَان، والشَّاهد عَلىٰ ذَلِكَ العَيان ووقَائع التَّأرِيخ.

وبالمُنَاسبَة قَالت الْوِلَايَات المُتحدَة بَعد الْحَرْب العَالمِيَة الثَّانِيَة: إنّ فِي الشَّرق الأوسَط فُرَاغاً يَجب أنْ يُملأ، وقَالت الصّهيُونِيَة: إنّ فِلسْطِين يَجب أنْ تكُون وَطناً قومِياً لِليَهُود عَلىٰ الرّغم من أنُوف الْعَرَب، وإرَادَة الشّعُوب العَرَبِية! ومَلأت

أَمرِيكا الفُرَاغ بدُولة إِسْرَائِيلَ... ولَوْلاَ ٱنْقسَام الْعَرَب بَعضهُم عَلىٰ بَعضٍ مَا كَـان لِلفُرَاغ، والاِسْتعمَار، والصّهيُونِيَة عَينٌ، ولاَ أَثرٌ.

وبَعد، فَلا قُومِيَة عَربِيَة أو غَيْر عَربِيَة إلّا بوَحْدَة الكَلِمَة والنّضَال، ولاَ إسْلاَم ومُسْلِمِين، وحَقّ ومُحـقِين إلّا بالتّعَاون والتّضَامن، ولا ٱتفَاق وتَعَاون إلّا بحَـاكِـم عَادِل، ونظَام لا تَفاضُل فِيهِ، ومُحَابَاة فِئَة عَلىٰ فِئَة، وٱمْتِيَاز فَـرد عَـلىٰ غَـيْرِه إلّا بِالْعَمَل الصَّالِح النَّافِع.

النِّعْمَة بِرَسُولِ الله...فِقْرَة ٢١ ـ ٢٣:

فَٱعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَ بَنِي إِسْحَاقَ، وَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عليهم السلام. فَـمَا أَشَـدَّ ٱعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وَ أَقْرَبَ ٱشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ!

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَ تَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ، وَ الْـقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ ٱلْآفَاقِ، وَ بَحْرِ الْعِرَاقِ، وَ خُـضْرَةِ الدُّنْـيَا، إِلَـىٰ مَنَابِتِ الشِّيحِ، وَ مَهَافِي الرِّيحِ، وَ نَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ، وَ وَبَرٍ، أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً، وَ أَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لاٰ يَأْوُونَ إِلَىٰ جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَ لاٰ إِلَىٰ ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ عِزِّهَا. فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَ الْأَيْـدِي مُـخْتَلِفَةٌ، وَ الْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاٰءِ أَزْلٍ، وَ أَطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ، وَ أَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَ أَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَ غَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ[٢١].

فَٱنْظُرُوا إِلَىٰ مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَ جَمَعَ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَ أَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَ ٱلْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ،

وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَ آوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَىٰ كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَ تَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَىٰ مُلْكٍ ثَابِتٍ. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ، وَ مُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرَضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَ يُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لاٰ تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَ لاٰ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ[٢٢]!

أَلاٰ وَ إِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَ ثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَىٰ جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَ يَأْوُونَ إِلَىٰ كَنَفِهَا، بِنِعْمَةٍ لاٰ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَ أَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وَ بَعْدَ الْمُوَالاٰةِ أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلاٰمِ إِلاّٰ بِاسْمِهِ، وَ لاٰ تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلاّٰ رَسْمَهُ[٢٣].

اللُّغَة:

يَحْتَازُونَهُمْ: يَقْبَضُونَهُمْ. والرِّيفِ: أرض الزّرع والخصب. والْآفَاقِ: جمع أُفق أي النَّاحِيَة. وَبَحْرِ الْعِرَاق: دِجْلَةُ والفُرَاتُ. والشِّيح: نَوْع مِن النَّبَات.

وعَالَةً: فُقَرَاء. ودبَرٍ ـ بفتح البَاء ـ القَرْحَة فِي ظَهر الدَّابَة، وَوَبَرٍ: شَعر الجَمَل. الجَنَاح: المَلاَذ. والْمُرَاد بِالْأَزْل هُنا الشِّدَّة. وفَكِهِينَ: رَاضِين.

وتَرَبَّعَتِ: أَقَامَت واطْمَأَنَّتْ. وتُغْمَزُ: تُخْتَبَرُ. والقَنَاة: الرُّمح. والصَّفَاة: الحَجَر والصَّخرَة. والثَّلْمَة: الخَلَل. وثَلَمْتُمْ: خَرَقْتُم. وكَنَفِهَا: حِصْنِهَا.

الإِعْرَاب:

مَا أَشَدَّ ٱعْتِدَالَ «مِا» مُبْتَدَأ، وأَشَدَّ فِعل مَاضٍ، والفَاعِل مُستَتر، والجُمْلة خَبَر، وٱعْتِدَالَ مَفْعُول أَشَدَّ، وَعَالَةً حَال، وإِخْوَان مِثله أي مُصَاحِبِين، وكَذَلِكَ أَذَلَّ أي أذلاَء، ودَاراً تَمْيِيز، ومِثله قَرَاراً، وفِي بَلاءٍ أَزْلٍ مُتعَلِّق بِمحذُوف حَالاً من الكَثْرَة أي كَائنة فِي بَلاءٍ.

إِسْرَائِيل:

(فَٱعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَ بَنِي إِسْحَاقَ، وَ بَنِي إِسْـرَائِـيلَ عليهم السلام... إلخ).

إِسْمَاعِيلَ ٱبن إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيل عليه السلام مِن هَاجر، وإِسْحَق ٱبْنِهِ مِن سَارَة، وإِسْرَائِيلَ هو يَعقُوب بن إِسْحَق ٱبن إِبْرَاهِيمَ، أمّا سَبب تَسمِيَة يَعقُوب بإِسْرَائِيل فَقد أَوْضَحته التُّورَاة: «... وهو أنّ الله دَخل فِي ذَات لَيْلَة عَلىٰ يَعقُوب، وتَصَارع معهُ حَتَّىٰ الْفَجْر، فَمَا ٱسْتطَاع أحدهُما أنْ يَغلب الآخر، وعِندئذٍ مَنَح الله يَعقُوب لقَب إِسْرَائِيلَ ٱعْتَرَافاً بِمقدَرته، فِي اللُّغَة العِبرِية يَعني «مُصَارع الله»»[1].

ولإِسْرَائِـيل هَـذَا (١٢) وَلداً، وهُـم: شَمعُون، ورَاؤبِـين، ولاَوي، ويَهُـوذَا، ويسَاكر، وزَبُولون، وجَاد، وأَشِيرُودَان، ونفتَالِي، وبِنيَامِين، ويُوسُفَ الصِّدِّيق[2].

وهَؤُلاَء وأَوْلاَدهُم وأحْفَادهُم كلّهم مَا عَدا يُوسُفَ مُجرِمُون، وقَتَلَة الأَنْبِيَاء بشَهَادة التّورَاة، والإِنْجِيل، والْقُرْآن... وبَدأ إجْرَامهم أوّل مَا بَدأ بِمحَاولةٍ لِقَتل أَخِيهم

(١) أُنظر، سِفر التَّكوِين، الإِصْحَاح (٣٢). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، العَهد القَدِيم والجَدِيد: ٧٩/١ مَجْمَع الكنَائس الشّرقِية، الرِّحلة المَدرَسِيَة لمحَمّد جَواد البَلاَغِي: ١٨٨/١، الهُدَىٰ إلىٰ دِين المُصطَفىٰ للبلاَغي: ١٤٠/١، التّوحِيد والتَّثلِيث للبلاَغي: ٤٧.

يُوسُفَ، لأنّه طَاهِر ونَبِيل، ثُمّ حَاولوا قَتل عِيسَىٰ ومُحَمّد، ومَا بَيْنَ المُحاولتِين قَتلوا ورَجمُوا الكَثرة الكَاثِرَة مِن الأَنْبِيَاء والمُرْسَلِين[1].

والمُدهش أنّهم كَانوا يَقتلُون أَنْبِيَاء الله تَقَرُّباً إِلَىٰ الله بِزعمٍ هو الَّذي أَمَرهُم بِقتل النَّاس حَتَّىٰ ٱلنِّسَاء، والأَطْفَال، وبِحَرق المُدن، والقُرىٰ، وتَدمِيرِها مَا عَدا الذَّهب، والنُّحاس[2].

قَال الأُستَاذ عَليّ الدَّالِي فِي مقَالٍ: «إنّ اليَهُودِي فِي القَرن الْعِشْرِين الَّذي بَقر الحُبالىٰ فِي دِير يَاسِين هُو نَفْس اليَهُودِي الَّذي كَان قَبل المَسِيح يَنشر عَدُوّه بِالمنْشَار نِصفِين مَع شَعر رَأْسه إِلىٰ أسفَله، وهُو نَفْس اليَهُودِي الَّذي فَتح بطُون الأبْرِيَاء المَسِيحيين فِي قُبرص أَيَّام ٱلرُّومان، وتَحزم بِأَمعَائِهم بقُوَّتِه، ويُثبت تَفوقَه فِي الاِنْتقَام المُروع».

ثُمّ ٱسْتَشْهَدَ «الدَّالِي» بِنَصٍ نَقله عَن كِتَاب التّلمُود: «نَحنُ شَعب الله المُخْتَار... نَحْنُ البَشر عَلىٰ الصُّورة الّتي تَركزت فِي مُخيلة الله... وغَيْرنا لا يُبصر إلّا موضع قَدمِيه... وقَد شَاءت الطَّبِيعَة أَنْ نَسُود العَالَم ونُسيطر عَلَيْهِ بأسرِه... فَيَجب أنْ تَكُون مَطَامعُنَا وَاسعَة، وحَمَاستُنَا خَارقَة، وظَمأُنَا للاِنْتقَام حَاراً ومُسْتَعِراً»[3].

أمّا دِين مُحَمّد ﷺ، فيقُول: (أيُّهَا النَّاس إنّ رَبَّكمْ وَاحدٌ، وإنّ أبَاكُم وَاحد، كُلّكُم

(١) أُنظر، إنْجِيل لُوقَا الإصْحَاح: (١٣)، وآيَات الْقُرْآن الكَرِيم. (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أُنظر، التُّورَاة سِفر يَشوع الإصْحَاح: (٦)، وغَيْره. (مِنْهُ ﷺ).
(٣) أُنظر، «جَرِيدة الجمهُورِية المِصْرية» بِتَأرِيخ ١٨ مَايو أيَار ١٩٧٢م. (مِنْهِ ﷺ).

مِن آدَمَ، وآدَمَ مِن تُرَاب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)، لَيْس لِعَرَبِي عَلَىٰ عَجَمِي فَضل، ولاَ لأبِيض عَلَىٰ أَسْوَد فَضل إلاّ بِالتَّقْوَىٰ»(٢).

إنّ العُنْصُرِية الإجرَامِية هِي دِين اليَهُود ومَبدأهُم وشِعَارهُم بِنَص التُّورَاة، والتّلمُود أي الكِتَابِين عِند اليَهُود... ومَا مِن رَيبٍ أنّ هَذِه الرّوح الصّهيُونِيَة تَحمل فِي طَبِيعتهَا السَّبب الكَافِي لِلْقَضَاءِ عَلَيْهَا... وبهَذا نَطق الْقُرْآن والتُّورَاة، مَا نَصّه بِالحَرف الوَاحد: «يَجعلك الرَّب ـ الخطَاب لِشَعب إِسْرَائِيلَ ـ مُنهزِماً أَمَام أعدَائك، تَخرج عَلَيْهِمْ مِن طَرِيقٍ وَاحد، وفِي سَبع طُرق أمَامَهُم، وتَكُون قَلِقاً فِي جَمِيع مَمَالِك الأَرْضِ، وتَكُون جِثّتُك طعَاماً لِجَمِيع طيُور السَّماء، ووحُوش الأَرْضِ»(٣).

أمّا دُولَة إِسْرَائِيلَ، والاعْتِرَاف بِهَا كَأمرٍ وَاقع فَهِيَ فِي عِلم الله الّذي قَال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٤).

(فَمَا أَشَدَّ ٱعْتِدَالَ ٱلْأَحْوَالِ، وَ أَقْرَبَ ٱشْتِبَاهَ ٱلْأَمْثَالِ!). المُرَاد بِالإِعْتِدَال التَّنَاسُب، وبِالاِشْتِبَاه المُشَابهَة، والْمَعْنَىٰ أنّ أَحْوَال ٱلْمُسْلِمِينَ اليَوْم تَشبه أَحْوَال بَنِي

---

(١) ٱلْحُجُرَاتِ: ١٣.

(٢) أنظر، سُنن البَيْهَقِي: ١١٨/٩، سُبل الهُدَىٰ والرَّشَاد: ٢٤٢/٥، بِحَار الأَنْوَار: ٣٥٠/٧٣ ح ١٣، العقد الفَرِيد: ١٨٥/٢، تأرِيخ اليَعقوبِي: ٩١/٢، نيل الأوطار: ١٦٤/٥، حِلية الأَوْلِيَاء: ١٠٠/٣، فَتح البَاري: ٥٢٧/٦، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٣٧٥/٣ ح ٤٤٩٤، شُعب الإِيمَان: ٢٨٩/٤ ح ٥١٣٧، مُسْنَد أحمد: ٤١١/٥ ح ٢٣٥٣٦، المُعجَم الأوسط: ٨٦/٥ ح ٤٧٤٩.

(٣) أنظر، فِي سِفر التَّثنِيَة مِن الإصحَاح: (٢٨). (مِنهُ ﷺ).

(٤) غَافِرٍ: ٥.

إِسْرَائِيلَ مِن قَبل مِن حَيْث التَّشتُت والتَّفرُق ، والذُّل ونَكْد العِيش ، وتَسلُّط البَعِيد وتَحكمه فِي المُقدّرَات والمَصِير ... وقَوْل الإِمَام : «الْأَكَاسِرَةُ ، وَالْقَيَاصِرَةُ » يُشِير إِلىٰ الَّــذِين حَــكمُوا اليَهُــود وفَــعلُوا بِهِــمْ الأفــاعِيل كـ«بخــتنُصر ، والفُــرس ، وٱلرُّومَان ... وَحَذّر الْإِمَام أَنْ يُصِيب ٱلْمُسْلِمِينَ مَا أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ومِن قَبله وَعظَ وحَذّرَ رَسُول الله ، والْقُرْآن ... ومَا أَفَاد الوَعظ والتَّحْذِير .

(فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَ الْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَ الْكَـثْرَةُ مُـتَفَرِّقَةٌ ... إِلىٰ وَ غَـارَاتٍ مَشْنُونَةٍ) . الكَلَام مُسْتَأنف ، والْمُرَاد بِهِ الْعَرب ، فَـالْأَحْوَالُ أَحْـوَالهُـم ، والْأَيْـدِي أَيْدِيهُم والْكَثْرَةُ كَثْرتهُم بِدَلِيل قَوْله : «بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ ، وَأَصْنَامٍ مَـعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَـامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ » . والْقَصْد المُقَارنة ، والْمُشَابهَة مِن حَيْث الذَّم ، والقُبح بَيْنَ جَاهلِية ، وعُنصرِية اليَهُود .

(فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَـلَيْهِمْ حِـينَ بَـعَثَ إِلَـيْهِمْ رَسُــولاً ، فَـعَقَدَ بِـمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ ... إلخ) . ضَمِير «عَلَيْهِمْ» يَعُود للعَرب ، والْمُرَاد بِالرَّسُول مُحَـمّدﷺ الَّذي دَعَا دَعْوَة الْعَدْل ، والمُسَاوَاة ، فَسَخر مِنْهُ ومِن دَعوَته الطّوَاغِيت لاَ لشيء إلّا لأنّه جَعَل الآلهَة إلٰهاً وَاحداً .. ولَكِنَّهُ صَمدَ وَأصرَ عَلىٰ كَلِمَة «لاَ إِله إلّا الله مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللهِ» فحَاوَلُوا أَنْ يَثنُوه بِالحُسنىٰ ، فَعَرضُوا عَلَيْهِ الْمَال والسُّلْطَان ، فَسَخر مِـنهُم ومَضَىٰ فِي دَعوتَه ، فَٱضْطَهدُوه ونَكلّوا بِهِ ، فَمَا زَاده ذَلِكَ إلّا ثَباتَاً ، وإِيمَاناً ، وعِندئذٍ حَاصرُوا ، وأَحْكمُوا الحصَار عَلَيْهِ وعَلىٰ أُسرَته ثَلاَث سَنُوات ، فَلم يَعبَأ ... ولمّا أَعيتهُم الحِيل تآمرُوا عَلىٰ ٱغْتِيَاله ، فأعْمىٰ الله أبْصَارهُم عَنهُ ، وهَاجر مِن بَيْنَهمْ إِلَىٰ الْمَدِينَة ، فَتبَعُوه بِعدَّتهم وعَدَدهم ، فَٱنْتصَر عَلَيْهِمْ باءذن الله .

وبِٱسمه قَضىٰ الْمُسْلِمُون عَلىٰ مَلك كُسرىٰ ، وحَرَرُوا المُسْتعمرَات مِـن حُكـم

قَيصَر ووَصلوا إِلىٰ حدُود الهِند، والصِّين، وجنُوب فَرنسا، وبِفضلِه أعْطوا شَرق الأَرْضِ وغَرْبِهَا فَيضاً مِن العلومِ والحضَارة.. ثُمّ ٱنـقَسَمت ٱلخِـلاَفَة، وتَـعدَدت المَمالِك الإِسْلاَمِيّة، ومَع هَذَا بقِي لِلمُسْلِمِين شَأنٌ وكِيَانٌ مُدة أَلف عَام أو تَزِيد، ولا أَدرِي هَل يَعُود الْمُسْلِمُون كَمَا كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ قَوْلاً وعَملاً؟.

غَانِدِي وَعُلمَاء ٱلْمُسْلِمِينَ:

أَكتُب هَذِه الْكَلِمَات فِي سبتَمبَر (أيـلول) سَـنَة ١٩٧٢م، والْمُـؤتَمر الإِسْـلاَمِي السّابع يَنْعَقد فِي القَاهرة... وإذَا عَطفنَا هَذِه «السَّبْعَة» عَلىٰ أَخْوَاتها فِي السّعُودِيةِ، ولِيبيَا، والمَغرب لرَأينَا نمُواً مُستَمراً وَسَرِيعاً فِي هَذَا المِيدَان... لكن ـ يَا لِـلأَسَف ـ إِذَا ٱلتمسنَا الثَّمَرات، والنَّتَائج الْعَمَلِيَة لِهَذه التّحركَات مُجتمعَة ـ لوجدنَاها تَمَاماً كَضَمِ صِفرٍ إِلىٰ صِفر، لا يَخرُج مِنْهُ أي شَيء إِيجَابِي يُفِيد ٱلْمُسْلِمِينَ.

والنَّتِيجَة الْعَمَلِيَة الّتِي يَترقَبها كلّ عَربِي ومُسلِم مِن هَذَا الْمُؤتَمر وأمثَاله هِي: أَنْ يَرىٰ بَادِرَة خَيرٍ، وبَارِقة أملٍ فِي أنّ أمْنِه وزِمَامه فِي يَدِ جَيْشَه وحكُومته، لاَ فِي يَد إِسْرَائِيلَ والصّهيُونِيَة، وإنّ مَصِيرة ومُسْتَقْبَله فِي إِرَادَة شَعبه وأُمّته، لا إِرَادَة مُوسكُوا ووَاشنطُن، أو مَجلس الأَمْن والأَرْبَعَة الكِبَار[1]... إنّ الـعَدُوّ يَسـتَهتر بِجيُوشنا ودُولنا ويُقابلها بِٱزْدرَاء وخُشُونَة... فَهَل يَرضىٰ عُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِينَ أَنْ تَستَهتر إِسْرَائِيلَ بِهِمْ أيضاً، وتَسْخَر مِنهم ومن تَجْمعَاتهم وقرَارَاتهم؟.

---

(١) يَقصد الشّيخ ﷺ بالأَرْبَعَة: (الإِتّحَاد السّوفياتِي، والـوِلاَيَات المُتحدة الأمريكِية، والمَملكة المُتحدة ـ بريطانيا ـ، وفَرنسا) وَهَذَا يَعني قَبل ٱنْضمَام الصّين الشَّعبية إِلىٰ مَجلس الأَمْن).

إنّ الأَيْدِي الخَفِيَة حَرِكَت المُؤتَمَرات الّتي حَملت عنُوان التَّعايش بَيْنَ الأَدْيَان... ونَحْنُ نَبرىء ونُنزه المُؤتَمر الإسْلاَمِي عَن ذَلِكَ، ولكن نَتسَاءل: لمَاذا لاَ يَصدر عُلَمَاء المُؤتَمَرّ نِداءً يُحرمُونَ فِيهِ البَضَائع الأمرِيكِية شرَاءً وٱسْتعمَالاً، كَما فَعل غَاندِي مِن قَبل فِي مُقاطعتِهِ ٱلسَّلبِيَة ضِدَّ الانجليز؟. وهَل صَاحب «العَنزَة» أَكثَر إِخْلاَصاً لوَطنه وأُمّته مِن عُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِينَ لدِينِهم، ووَطنهم؟ وهَل يَجهل عُلَمَاء المُؤتَمر أنّ الوِلاَيَات المُتحدة هِي أسَاس الدَّاء، والبَلاء... وإنّ نداءهم هَذَا لهُ وَزنَه وأَثره، بخَاصَّة إذَا بَذلُوا وَسعهُم لِكِي يُوقع النّدَاء أيضاً كلّ عَالم فِي كلّ قُطرٍ، وتَطوعُوا لِتَنفِيذه والعَمَل بِهِ زُرَافات ووحدَانا؟.

ومِمّا يُوجع ويُفجع أنّ إِسْرَائِيلَ تُشدد وتكَرِّر عُدْوَانها عَلىٰ سُورِيا ولُبنَان، وتَقتُل الأبرِيَاء، وٱلنِّسَاء، والأَطْفَال فِي نَفْس الوَقت الَّذي يَعقُد فيهِ المُؤْتَمر السّابق لعُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِينَ بِبَلدة قَنَاة السّويس وبالقُرب مِن جيُوش العَدُوّ المُرابط علىٰ ضِفَة القَنَاة.

هَذَا، وعُلَمَاء المُؤتَمر فِي شُغلٍ شَاغل «بِالبَحْث عَن المجتَمع المِثَالِي فِي الإسْلاَم، وعَن جَدَل القُرآن، وكَيْفَ يتكوَّن المُسلِم فِي ظِلّ المنَاهج، وعَن التَّأمينَات، وشهَادة الاستثمَار، وودَائع صَندُوق الادخَار...»(١).

أبِهَذَا يَا أَصْحَاب الفَضِيلة تَغيظُون إِسْرَائِيلَ؟ وتَنْتَقِمُون مِن الوِلاَيَات المُتحدة، وتَنقذُوننا مِن اليأْس والقنُوط، والذُّل الهوَان؟ وهَل هَذَا هُو وَاجب العُلَمَاء الوَحِيد الآن فقط لا غَيْر يَا حَمَلة القُرآن؟

(١) أنظر، مَا جَاء فِي جَرِيدة الأَخبَار المِصْرية بِتَأرِيخ ٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٢م. (مِنهُ ﷺ)

وكُنتُ قَد أرْسَلت بُرقِية للمُؤتَمر الرّابع أو الخَامس ـ والتَّرَدُّد مِن ضَعف الذَّاكرَة ـ نَاشدتُ فِيهَا الرَّئِيس والأعْضَاء أنْ يَتدَارسُوا المُقَاطعة السَّلبِيَة للسِّلع الأمرِيكِية، ولَكِنَّهُم غَضُوا الأَبْصَار، وخَتمُوا عَلىٰ الآذَان.. أَللَّهُمَّ رُدّ علينَا غُربتنَا، وعَرفنَا بِمن يَسمَع، ويُبصر مِن عُلمائنا، ويُزهر ويُثمر من زُعمائنا. إنّك حَمِيد مَنّان.

(أَلا وَ إِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَ ثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ). المُرَاد بِحُصن الله الإِسْلاَم الَّذي أَمَر بالأُلفَة والتَّعَاون عَلىٰ الخَيْر والصَّالح العَام، والمُرَاد بأحْكَام الجَاهِلِيَّة الفُرقَة وانْتهَاك الحُرمَات، والمَعْنَىٰ أنّ الله قَد تَفضَل عَلَيْكُم بِنُور الإِسْلاَم، فأَبَيْتُمْ إلّا ظُلُمَات الجَاهِلِيَّة وأرْجَاسهَا (فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَىٰ جَمَاعَةِ هَـٰذِهِ الْأُمَّـةِ... إلخ). أي عَلىٰ المُسْلِمِينَ، والمُرَاد بِالعَقد بَيْنَهمْ الأُلْفَة الّتي تَدعُو إِلىٰ التَّعَاون المُتكَامل عَلىٰ أسَاس الإِيمَان والعَقِيدَة، ويَقول الإِمَام: إنّ هَذَا التَّعَاون هُو (لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَ أَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ) أي جَلِيل، لأنّ التَّعَاون بهَذا المَفهُوم يَكُون لِخِدْمَة الجَمِيع لا لصَالِح فِئَة عَلىٰ حِسَاب فِئَة أُخرىٰ. قَال سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]. ومن البَدَاهة أنّ البِرّ لِلجَمِيع، أمّا الاختصَاص بِفَرد أو بِفِئَة فَإِثْم، وعُدْوَان.

(وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً) لاَ أَثَر لِلإِسْلاَم فِي قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُم إلّا قَوْل: «لاَ إِله إِلّا الله مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله». (وَ بَعْدَ الْمُوَالاَةِ أَحْزَاباً). يُشِير بِالمُوَالاَة إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2] أي أنّهم كَانُوا

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٢.

(٢) ٱلتَّوْبَة: ٧١.

كَذَلِكَ فِي عَهد رَسُول الله وهجرَته، ثُمّ صَارُوا أَعْدَاء مُتخَاصمِين (مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلاَمِ إِلاَّ بِاسْمِهِ، وَ لاَ تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ). إنّ الإِسْلاَم أبعَد الأَدْيَان عَن المظَاهر والشّكليَات... إنّه يَقِين، وَيَقِين المُسْلِم إنّما هُو فِي عَمله الخَالص لوَجه الله لاَ فِي قَوْله ومَظهرَه. وتَقَدَّم مِثله[1].

الإِسْلاَم أَمْنٌ وَأمَان...فِقْرَة ٢٤ ـ ٢٥:

تَقُولُونَ: النَّارَ وَ لاَ الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسْلاَمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَ نَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَ أَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ. وَ إِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لاَ جَبْرَائِيلُ، وَ لاَ مِيكَائِيلُ، وَ لاَ مُهَاجِرُونَ، وَ لاَ أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلاَّ الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ.

وَ إِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ قَوَارِعِهِ، وَ أَيَّامِهِ وَ وَقَائِعِهِ، فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَ تَهَاوُناً بِبَطْشِهِ، وَ يَأْساً مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَ الْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي[24]!

أَلاَ وَ قَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلاَمِ، وَ عَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَ أَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ. أَلاَ وَ قَدْ أَمَرَنِيَ اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَ النَّكْثِ، وَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَ أَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَ أَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ، وَ رَجَّةُ صَدْرِهِ، وَ بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. وَ

(١) أنظر، شرح الخُطبَة: (١٥٢)، وغيرها. (مِنهُ ﷺ).

لَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً[٢٥]!

اللُّغَة:

كَفَأَ وَاكْتَفَأَ الإِنَاء: أَمَالَه وقَلَبه. والمِيثَاق: العَهد. ونَكَثَ: نَقضَه. والْقَاسِطُونَ: الجَائِرُون عَن الْحَقِّ. والْمَارِقَةُ: الَّذِين خَرَجُوا مِن الدِّين. والرَّدْهَـةِ ـ بـفتح الرَّاء ـ النُّقرَة يَجتَمع فِيها مَاء السَّمَاء. وَصُعِقَ: غُشِيَ عَلَيْهِ وَذَهب عَـقْله. وَجْبَ الْـقَلْب: اَضْطَرَب. وَرَجَّ الصَّدْرُ: اَهْتَزَّ. وأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ: أَنْتَصر مِنْهُمْ. ويَتَشَذَّرُ: يَتَفَرَّقُ.

الْإِعْرَاب:

النَّارَ وَالْعَارَ مَنْصُوبَان بِمحذُوف أي نَدخُل النَّار ولا نَتْحَمل الْـعَار، وآنْـتِهَاكـاً مَفْعُول مِن أجْله لتُكفِئُوا، لاَ جَبْرَائِيلُ بِـالفَتحة اَسم «لاَ» تَشـبِيهاً بِـالنَّكِرَة مِـثل مُعْضِلة ولاَ أَبَا حَسَن لهَا[١]، وجَهْلاً مَفْعُول لأجْلِه، وتَشَذُّراً مَفْعُول مُطلق.

---

(١) قَال عُمَرَ بن اَلْخطَاب: «أَللَّهُمَّ لا تُبقِنِي لِمُعْضِلةٍ لَيْسَ لهَا عَلِيّ» وفِي قِصَّة أُخرى: كَان عُـمَرَ يَـتعوّذ مـن مُعْضِلَة لَيْسَ لهَا أبو حَسن». أُنظر، فَرَائـد السِّـمطِين: ١/٣٤٨/٢٧٢، و ٣٥٠/٢٧٦، المـناقب لِاَبْـن شهـرآشوب: ٢/٣٥٨ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٥، والْبِحَار: ٤٠/٢٢٣ و ٢٢٦، التَّهـذِيب: ١٠/٩٤، تَأرِيخ دمشق لِابْن عسـاكر ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام: ٣/٩٣ و ٤١/١٠٧١ و ١٠٧٠ بـتحقيق الشَّـيخ المحـمودي الاِسْتِيعَاب عن سعيد نحوه فِي هامش الإِصَابَة: ٣/٣٩، الطّرق الحكمية: ٤٦، الرِّياض النّضرة: ٢/١٩٥ و ١٩٦، و: ٣/١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ وذَخَائِر الْعُقبَىٰ: ٧٩ ـ ٨٢، مطالب السّؤول لِاَبْن طَلْحَة الشَـافعي: ١٣، والمناقب للخوارزمي الحنفي: ٣٩ و ٤٨ و ٦٠ و ٦٥ و ٨١، والفخر الرّازي فِي الأَرْبَعِين: ٤٦٦. وروى اَبن الجوزي فِي كتاب الأذكياء: ١٨ وفِي كتابه أخبار الظّرَاف: ١٩، تذكرة الخواصّ: لسبط اَبن الجوزي: ٨٧ و ١٤٨، كـنز الـعُمَّال: ٣/١٧٩، و: ٥/٢٤١ و ٤٥١ وح ١٣٥٨٤، مـصباح الظَّـلام: ٢/٥٦.

الْمَعْنَىٰ:

(تَقُولُونَ: النَّارَ وَ لاٰ الْعَارَ !). هَذَا تَفْرِيع عَلَىٰ قَوْله: «مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلاٰمِ إِلاّٰ بِٱسْمِهِ» والْمَعْنَىٰ أَنَّكُم تَقُولُونَ بِأفْوَاهَكُم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبَكُمْ... صَحِيح أَنَّكُم تَنْطقُون بِكَلِمَة الشَّهادتِين، ولَكِنَّكُمْ لاَ تَعْمَلُون بِمُوجِبها، وأيضاً تَقُولُونَ: النَّارَ وَ لاٰ الْعَارَ، ومَع هَذَا لاَ تَصُونُون حَقّاً، ولاَ تَمْنَعُون ضَيماً (كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسْلاٰمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ٱنْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ... إلخ). هَذَا كِنَايَة عَن مُعَاكَسَتهم لدِّين الله، وأنّهُم تَنَكَبُوا عَن طَرِيقه إلىٰ طَرِيق المتَاهَة، والضَّلاٰلة. وتَقَدَّم مثله[1].

(الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَ أَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ... إِلَىٰ بَيْنَكُمْ). ضَمِير وَضَعَهُ يَعُود إِلىٰ الْإِسْلاَمِ، والْمَعْنَىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ شَرَع لَكُم مِن الدِّين مَا هُو أَمْنٌ وخَيرٌ دُنياً وآخِرَة، فإنْ عَاكَسْتُم وخَالَفْتُم عُشْتُم فِي خَوْف وحَرْبٍ مَع أهْل الكُفر والْبَغْي، ولا تَجِدُون وَلِيّاً، ولاَ نَصِيراً إلّا مَا شَاء الله (وَ إِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ قَوَارِعِهِ، وَ أَيَّامِهِ وَ وَقَائِعِهِ... إلخ). الْمُرَاد بِالْأَمْثَالِ الآيَات والْأَحَادِيث عمّا أَصَابَ الطُّغَاة مِن السَّابقِين الَّذِين جَعلهُم سُبْحَانَهُ عِبرَة وعِظَة لِلاَحقِين، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون، والْمُرَاد بِبَأْسِ اللهِ، وَ قَوَارِعِهِ، وَ أَيَّامِهِ، وَ وَقَائِعِهِ وَاحد، وهُو العَذَاب،

↵ الاِسْتِيعَاب: ٣/١١٠٢، صفوة الصّفوة: ١/١٢١، كفاية الطّالب: ٩٥، أُسد الغَابَة: ٤/٢٢، طَبقَات آبن سعد: ٢/ق ٢/١٠٢، تهذيب التّهذيب: ١/٣٣٧، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٦، يَنَابِيع المَودَّة: ٢٢١، نور الأَبْصَار: ٧٤، أرجح المطالب: ١٢١ و ١٢٤، الإِصَابَة: ٤ ق ١/٢٧٠، فيض القدير: ٤/٣٥٧، فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة: ٢/٢٩٠ و ٣٠٩ عليّ إمام المُتَّقِين للشرقاوي: ١/١٠٠ و ١٠١، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري، والبداية والنِّهَايَة لِابْن كثير: ٦/٢٠١، ومُسْنَد زيد: ٣٣٥ الطّبعة الثّانِيَة دار الكتب الإِسْلاَميّة طهران.

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (١٠٣ و ١٠٨). (مِنْهُ ﴿﴾).

والاِنْتِقَام، والْمَعْنَىٰ: لمَاذَا تَتَهَاونُون بِأمرِ الله ونَهيه، وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بَطْشَه وٱنْتقَامه، وتَهديدَه ووَعيدَه؟ هَل ٱسْتَبطَأْتُم ذَلِكَ، وتَقُولُونَ مِثل مَا قَال الْأَوَّلُونَ: ٱئْتِنَا بمَا وَعَدْتنا؟ إنّه تعَالىٰ يُمْهِل ولاَ يُهْمِل.

ثُمّ بَيّن الْإِمَام السَّبب المُوجِب لغَضبِ الله ولَعْنَته علىٰ مَن أَدْبَرَ وتَولَّىٰ، وبَيَّنه بقَوْله: (اِلاّ لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّ دِين الله إيجَابِي لاَ سَلبِي، فهُو لا يَرضىٰ مِنْكَ أنْ تَترُك المُنْكَر وكَفَىٰ، بَل عَلَيْكَ أيضاً تَنْهىٰ عَنْهُ، وتُجَاهد مَن أَصَرَّ عَلَيْهِ بمَا تَملك مِن طَاقة (فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ) وهُم الشَّبَاب مِن أهْل الْجَهْل والطَّيش، لَعَنَهُم سُبْحَانَهُ (لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي) كالْفُجُور والخَمْرَ والْمَيْسِر، وأيضاً لَعَنَ (الْحُلَمَاءَ) أي الشُّيُوخ المُتَقَدمِين فِي السّن (لِتَرْكِ التَّنَاهِي). لا يَنْهَىٰ بَعضهُم بَعضاً عَن الْفِتَن، والدَّسَائِس، والمُؤامرات.

(أَلاٰ وَ قَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلاٰمِ). إنّ الإِسْلاَم قَيدٌ ولِجَام يَكْبَح ويَمنَع عَن الجَرَائِم والمُوبقَات تَمَاماً كالْعَقْل يَكْبَح الشَّهوَات (وَ عَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ) وَهِي حَلاَل الله وحَرَامه (وَ أَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ) عَطف تَفْسِير «أَلاٰ وَ قَدْ أَمَرَنِيَ اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَالنَّكْثِ، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ... إلخ». يُشِير إِلىٰ النَّاكِثِينَ أَصْحَاب الْجَمَل، والْقَاسِطِينَ أَهْل صِفِّين، والْمَارِقِينَ الْخَوَارِج[1]، وإِنّ الله قَد أَمْرِه بِقتَالِهم فَسمع وأَطَاع.

(١) أُنظر، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤٧/٧، المطالب العالية: ٢٩٧/٤ ح ٤٤٦٢، مناقب الخوارزميّ: ١١٠، ط النَّجف الأشرف، الحَاكِم في المُسْتَدرَك: ١٣٩/٢، تَأريخ ٱبن عساكر ترجمة الإمَام عليّ: ١٦٨/٣ ح ١٢٠٥، ميزان الإعْتِدَال: ١٢٧/١، كنز العُمَّال: ٨٢/٦، الرّوض الأزهر: ٣٨٩ ط حيدر آباد، شرح المقاصد: ٢١٧/٢، تَأريخ بغداد: ٣٤٠/٨، أرجح المطالب: ٦٠٢، فرائد السّمطين: ١٥٠/١، كفاية الطّالب: ١٦٩، ويَنَابيع المَوَدَّة: ١٢٨، تَأريخ الطّبريّ: ١٥٦/٥، كنز العُمَّال: ١٥٧/٦، أبن حجر في الأَرْبَعين حديثاً: ٧٤ ح

وعَن رَسُول الله ﷺ: «إنّ عَليّاً يُقَاتل النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ والْمَارِقِينَ»[١].

(وَ أَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ... إلخ). وهُو حَرقُوص بن زُهير، وكَان أَسْوَد مُنتَن الرّيح، ولهُ عَضد ولَيْس لهُ ذِراع، وعَلىٰ رَأس العَضُد مِثل ثَدي الْمَرْأَة، ومِن أجْل هَذَا لُقّب بِذِي الثّديَة والمُخْدَج أي النّاقص، وبذِي الخُويصرَة، وكَان من رُؤُوس الْخَوَارِج[٢]. وفِي صَحِيح مُسْلِم كِتَاب «الزّكَاة»، وأبِي دَاود بَاب قِتَال الْخَوَارِج: إنّ رَسُول الله ﷺ قَد أشَار إلىٰ هَذَا الشَّيْطَان بقَوْله: «يَخرج قَوْم ـ أي الْخَوَارِج ـ مِن أُمّتي يَقرَأون الْقُرْآن لَيْس قَرَاءتكم إلىٰ قَرَاءَتهم بِشيء.... يَمرقُون فِي الإِسْلاَم كَمَا يَمرق السَّهم مِن الرّمِيَة... وإنّ فِيهِمْ رَجُلاً لهُ عَضُد، ولَيْس لهُ ذِارع عَلىٰ رَأس عَضُده مِثل حِلمَة الثّدي»[٣].

⇐ ٣٠ و ٣١ بَاب ٩، مُنْتَخب الكنز بهامش مُسْنَد أحمد: ٤٣٥/٥. فَضَائِل الْخَمْسَة: ٥٢/٣، ط بيروت، شرح النّهج: ٥٤/٦، ط مِصْر تحقيق مُحَمّد أبو الْفَضْل. البداية والنّهاية: ٢١٨/٦، المُصَنّف لِابْن أبي شيبة: ٦٤/١٢ ح ١٢١٣١، أُسد الغَابَة: ٦٠٢/٣ ح ٦١١١، دَلاَئِل النُّبُوّة للبيهقي: ٦/ ٤٣٥، مُسْنَد أحمد: ٨٢/٣.

(١) أُنظر، الحَدِيث عِنْدَ الحَافظ النّيسَابُوري فِي «مُسْتَدرك الصَّحِيحِين»: ٣/ ١٣٩ طَبْعَة حَيدر آبَاد سَنَة ١٣٢٤ هـ وآبن الأثِير فِي «أُسد الغَابَة»: ٤/ ٣٢ طَبعة سَنَة ١٢٨٥ هـ، والمُتقي الهِندِي فِي «كنز العُمّال»: ٦/ ٨٢ طَبعة حَيدر آبَاد سَنَة ١٣١٢ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ٢ / ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٥، الأَخْبَار الطِّوَال: ٢٠٦، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦١ و ١٦٣، وأُنظر ترجمته في أُسد الغَابَة: ١ / ٣٩٦، والإِصَابَة: ١ / ٣٢٩ التّرجمة ١٦٦١ القسم الأوّل وهو ذو الخويصرة، وكَانَ رَجُلاً أَسْوَد مُنْتِن الريح له ثدي كثدي الْمَرْأَة، إذَا مُدّت كَانَتْ بطول اليَد الأُخرىٰ، وَإِذَا تركت آجتمعت وتقلّصَتْ، وصارت كثدي الْمَرْأَة، عليها شعرات مثل شوارب الهرّة... أُنظر شرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٧٦ تحقيق محمّد أبو الْفَضْل، وكشف اليَقِين: ١٦٥، الكنىٰ والألقاب للشيخ عباس القمي: ٢ / ٢٢٤. أُنظر، نيل الأوطار للشّوكانيّ: ١٨٥/٧، البداية والنّهاية: ٣٦٢/٤.

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٢١/٩، صَحِيح مُسْلِم: ٧٤١/٢.

وروىٰ البُخَاريّ: «وإنّ هَذَا الشَّيْطَان أتىٰ النَّبيّ، وهُو يَقْسِم قَسْماً، فقَال: يَا رَسُول الله ٱعدلْ، فقَال لهُ: وَيْلكَ! وَمنْ يَعْدِل إِذَا لَمْ أَعْدل؟»[١].

وروىٰ أَهْل التَّأريخ أنّ الإمَام بَعد أنْ ٱنتهىٰ مِن قَتل الخَوَارِج، قَال: «ٱطلبُوا ذَا الثّدية بَيْنَ الْقَتْلىٰ، فَبحثُوا عَنهُ فَلم يَجدُوه. فقَال الإمَام: لقَد أَخبرنِي رَسُول الله ﷺ بِقَتله، والله مَا كَذْبَت ولا كُذْبت»[٢]. وٱطلبُوا الرّجُل وإنّه مَع الْقَتْلىٰ، فَبحثُوا عَنهُ حَتَّىٰ وجدُوه فِي حُفرَةٍ، فنُسِب إِلَيْهَا»[٣]. (وَ بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ... إلخ). وهُم

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٤ / بَاب علاَمَات النُّبوّة فِي الإِسْلاَم. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر شَرح النَّهج لإِبْن أبِي ٱلحَدِيد: ٢ / ٢٦٦ تَحقِيق مُحَمّد أبو الْفَضْل، وفي كتاب النّصّ والإجتهاد للسيّد شرف الدّين المُوسوي: ١٠٣ يقول: في الهَامش رَقم «٢»: بضمّ الخاء المُعْجَمة وفتح الواو وسكون الياء وكسر الصاد، وٱسمه حرقوص بن زهير. ولكن في الكَامِل: ٣ / ١٩٠ و ٣٤٣ ـ ٣٤٦ يقول: إنّ رسول الله ﷺ بينما هو يَقْسِم قَسْماً جاء رجل من بني تميم يُدْعىٰ ذَا الخويصرة فقَالَ: أعدل يَا مُحَمّد، فقَالَ ﷺ: قَد عدلت، فقَال لهُ ثَانِيَة: أعدل يَا مُحَمّد، فإنّك لَم تعدل، فقَال ﷺ: وَيْلكَ! وَمنْ يَعْدِل إذَا لَم أعدل، فقَام عُمَرَ بن الخَطَّاب فقَالَ: يَا رَسُول الله، أئذن لي أضرب عُنُقه فقَالَ: دَعْه، فيستخرج من ضِئْضِئ ـ أي من جِنس ـ هذا قَوْم يَمرقُون مِن الدِّين كمَا يَمرق السَّهم مِن الرّمية، ينظر أحدكم إلى نَصْلِهِ فلا يَجِد شَيْئاً، فينظر إلىٰ نضيه فلا يَجد شَيْئاً... وفي تاج العروس: ٤ / ٣٧٩ أيضاً ٱسمه حرقوص بن زهير، وأُنظر النّهاية: ٢ / ١٩، وأُنظر تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ٧٢ ط أخرىٰ، ومرُوج الذّهب: ١ / ٤١٥، وتذكرة الخواصّ لإبْن الجوزي: ١٠٠، والمسترشد في الإِمَامَة: ٦٧٣.

(٢) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١ / ١٣٩، صَحِيح مُسْلِم: ٣ / ١١٦، فتح البَاري: ١٢ / ٢٦٤، المُصَنَّف لعبدالرّزاق الصّنعاني: ٣ / ٣٥٨ ح ٥٩٦٢، المُصَنَّف للكوفي: ٧ / ٤٥٣ ح ٥ و: ٨ / ٧٣٧ ح ٣٥، مُسْنَد أَبِي يَعلىٰ: ١ / ٣٧٤ ح ٤٨٠، نُظم دُرر السِّمطين: ١١٦، الْهِدَايَة الْكُبْرىٰ: ١٤٦، خصَائص النَّسَائي: ١٣٨، تَأريخ بَغداد: ١ / ١٥٩، المُدونة الْكُبْرىٰ: ٢ / ٤٩، كفَاية الطَّالب: ١٧٧.

(٣) أُنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٦٤، و: ٦ / ٤٩، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٩، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ٨٦، وابن الأثير: ٢ / ٤٠٦، والْفُتوح لإبْن أَعْثَم: ٤ / ١٢٥، أُسد الغَابَة: ١ / ٣٨٥ ومَا بعدها، و: ٢ / ٣٥١ و ٣٧١

مُعَاوِيَةَ وأَصْحَابه، إنْ تَمَكن مِنهُم الإِمَام قَضىٰ عَلَيْهِمْ وعَلىٰ دَولتهُـم، ولا يُـبْقِي إلّا مُشمراً، وهَارِباً.

النَّبِيّ وَعَليّ فِقْرَة ٢٦ ـ ٢٧:

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ، وَ كَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَ مُضَرَ، وَ قَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَ الْـمَنْزِلَةِ الْـخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَ أَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَ يَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَ يُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَ يُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وَ كَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، وَ مَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَ لاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَ لَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ـ ﷺ ـ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَ مَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَ نَهَارَهُ[٢٦]. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْـلاَقِهِ عَـلَماً، وَ يَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَ لَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَ لاَ يَرَاهُ غَيْرِي. وَ لَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُـولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَ خَـدِيجَةَ، وَ أَنَـا ثَالِثُهُمَا. أَرَىٰ نُورَ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ، وَ أَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَ لَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ـ ﷺ ـ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَ تَرَىٰ

⇔ و ٣٧٥، و: ٣/ ١٥٠ و ٣٥٤، و: ٤/ ١٠٠ و ٣١٥، و: ١٢٢/٥ و ١٤٣ و ٢٧٤، وشرح النَّهج للعلاّمة الخوئي: ١٢٢/٤، وشرح النَّهج لِابْن أبِي الْحَدِيد: ٢/ ٢٧٢، ومرُوج الذّهب: ٢/ ٤١٦، ومُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٢/ ٢٥٤، والطَّبَريّ: ٦/ ٤٩، كنز العُمّال: ٦/ ٧١ ح ١١٧٩، و: ١١/ ٢٨٩ و ٣٠٢، ومَجْمع الزّوائد: ٦/ ٢٤٢.

مَا أَرَىٰ إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَ لَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَيْرٍ»(٢٧).

اللُّغَة:

الكَلاكِلِ: الصّدُور، والمُرَاد بِهَا هُنا كُبّار الْعَرَب. ونَوَاجِمَ قُرُونِ: مَا بَرَز مِنْهَا، والمُرَاد بِهَا هُنا سَادَات القبَائِل. وعَرْفَهُ: رَائِحَته الذَّكِيَة. وخَطْلَةً: الخَطَأ. والْفَصِيلِ: وَلَد النَّاقة. وحِرَاءَ ـ بكسر الحَاء ـ جبَل مِن جِبَال مَكَّة المُكَرَّمَة.

الإعْرَاب:

بِكَلاكِلِ البَاء زَائِدَة، والفَتحَة عَلىٰ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ عَلاَمَة الجَر، لأنَّهُمَا مَمْنُوعَان مِن الصَّرف لِلعَلَمِيَة والتَّأنيث. وَقَالَ الشَّيخ عَبْدَه: هُما بَدل مِن قُرُونِ[1]. والأظْهَر جَرَهُما بالإضَافَة.

الإمَام عَليّ:

(أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَكِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَ مُضَرَ.. إلخ). مَن دَرَس تَأرِيخ الإسْلاَم رأىٰ أنّ الدَّعْوَة الإسْلاَمِيّة مَرّت فِي العَدِيد من المَرَاحِل، والأَسَاسِية مِنْهَا ثَلاَث:

المَرْحَلَةُ الأُولَىٰ: إعْلاَن الدَّعْوَة وَبَثها بلا عُنْف، والثَّبَات عَلَيْهَا مَهمَا تَكُن الظّرُوف والمَصَاعِب، وتَحمُّل العَذَاب، والتّنْكِيل بلاَ مُحَاولَة الدِّفَاع والمُقَاومة، لأنّ

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغة: ١٨٢/٢ مَطبَعَة الاسْتِقَامَة بِمصْر.

المُقَاومَة مَع الْعَجْز ٱنْتحَار ... وقَد تَحـمَّل النَّـبيّ ﷺ، والْـصَّحَابَة الكَـثِير فِي هَـذِه المَرحَلَة، وٱسْتُشْهِدَت مِنْهُم أُمّ عَمَّار، وَأَبُوه يَاسر، وٱسْتَمرَت هَذِه المَرحَلَة (١٣) سَنَة فِي مَكَّة[1].

ولَكَ أَنْ تُسمِيها بِمرحَلَة المُقاومَة السَّلبِية، وبِمثلهَا أو قَرِيب مِنْهَا حَرر غَـانْدِي الهِند مِن الاِسْتعمَار. ومِن أَقْوَاله: «إِذَا كنّا صَادقِين فإنّ القَمع لَنْ يُثبط هِمتنا، ولَن يَدفعنا إِلىٰ المُبَادرة الغَاضِبَة بِمُجَابهَة الْعُنْف بِالْعُنْف، ذَلِكَ أَنّ الْعُنْف ٱنْتحَار»[2]. أي لِمن لاَ يَملك القُوَّة الرّادعَة.

المَرْحَلَةُ الثَّانِيَة: هِي مَرْحَلَة الدّفَاع، بَعد إِكمَال العِدّة والعَدَد لرَدع الْعُدْوَان مَع تَوطِين النَّفس عَلىٰ الفِدَاء والتَّضحِيَة، ومَن هَذِه المَرْحَلَة حَرْب بَدْر الْكُبْرَىٰ[3].

---

(١) أنظر، شرح الأزهار: ١/٢٨٠، الكَافِي: ١/٤٣٩، رَسَائل فِي الْغَيْبَة للشَيخ المُفِيد: ٣/٥، الرّحلة المَدرسية: ٢/٢٢٧، الهُدَىٰ إِلىٰ دِين المُصطفىٰ: ١/٨٧، الشّفا بتعريف حقُوق المُصطفىٰ: ٢/١٠٢، إحقاق الحَقّ: ٢٣٢، بحَار الأَنْوَار: ١٩/٦٩/ ح١٩، وَسَائِل الشِّيعة: ٢/٢٧.

(٢) أُنظر، غَاندِي والحَرَكة الهندِية: ١٥٤، تَرجَمة سَلاَمة مُوسىٰ القُبطي المِصْري، وبالمنَاسبة فَسلاَمة مُـوسىٰ مُضطرِب الاتِجَاه والتَّفكِير، ودَعَا إِلىٰ الفرعُونية، وجَحَد الدِّيَانَات فِي شَبَابه.

(٣) يَزعَم بَعض ذَوِي النُفُوس المَرِيضة أنّ الرّسُول ﷺ أكرَه النَّاس عَلىٰ قَبُول الإِسْلاَم ونَـشره فِي السَّـيف، لكن هَذَا الزَّعم يُخالف صَرِيح قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٢٥٦. ومن هَذَا نَفهم أنّ الإِسْلاَم وَجَد طَرِيقه إِلىٰ الْقُلُوب عَـن طَـرِيق الحَـجّ مَـثلاً، ومُكَـاتبة الْمُلُوك والأُمـرَاء فِي عَصره ﷺ، وٱحترَام الحُرّيَات الدِّينِيَة، والمُحَافظة علىٰ مِيزان العَدل بَيْنَ الْعَرَب والفُرس والرُّوم وغَيْرهم. وقَد مَكث رَسُول الله ﷺ بمَكَّة ثَلاث عَشرة سَنَة يَدعو النَّاس بِالحُجَّة والمَوْعِظَة الحَسَنَة رَغم مَا أَذَاق مِن قُرَيْش هُو وأَصْحَابه الأذىٰ والتَّشرِيد والحصَار والتَّجوِيع والتَّهجِير، لكـنّه ﷺ ضَرب المَثل الأعـلىٰ فِي الصَّبر والتَّحمّل كَمَا قَال تَعَالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَاتَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ٱلأَحْقَاف: ٣٥. ولكن لمّا تَفاقَم الأمْر أذن الله لرَسُوله ﷺ ولِلمُؤمِنِين بأَنْ يُقاتلوا في سَبِيل الله كمَا فِي قوله تَعَالىٰ: ﴿أُذِنَ

⇔

﴾ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ٱلْحَجّ: ٣٩ ـ ٤٠، وقوله تَعَالىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ـ إلى قوله: ـ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ٱلْبَقَرَة: ١٩٠ ـ ١٩٣، وقوله تَعَالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ...﴾ ٱلنِّسَاء: ٧٥، وقوله تَعَالىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ ٱلتَّوْبَة: ٣٦، وغَـيْر ذَٰلِكَ مـن الآيات كما في سورة ٱلأَنفَالِ: ٥٨ و ١٥ ـ ١٦، وٱلنِّسَاء: ٧٤ و ١٠٤، ولَسْنَا بصدد بيَان وشرح ذَٰلِكَ، هذا أوّلاً.

وثَانِياً: هُنَالك غَزْوَات وسَرَايا لرَسُول الله ﷺ. والغَزْوَة هِي ما خَرج فيها الرَّسُول ﷺ مع المُقَاتلِين، والسَّرِيَه هِي مَالم يَخرج فِيها بِنَفسه ﷺ فَقَد يَعقد اللّواء فِيهَا لرَجُل من أَصْحَابه، وقَد يُطلق علىٰ السَّرِيَّة غَزْوَة كَمَا في غَزْوَة مُؤتة، وذَات السَّلاسل، وقَد ٱختلف المُؤرّخون فِي عَدد الغَزْوَات كَمَا ٱختلفوا فِي عَدد السَّرايَا، وكَذَٰلِكَ ٱختلفُوا في مَن هي أوّل غَزْوَة وتَأرِيخها وتَرتِيبها، فَمثلاً قَال الوَاقدي في مغازيه: ٢ / ٥٨٠: كَانَتْ أوّل السَّرايَا بقيَادة حَمْزَة بن عبدالمُطّلب وفي شَهر رَمضان من السَّنة الأُولىٰ لِلْهِجْرَة. أمّا الطَّبَرِيّ في تَأرِيخه: ٤ / ٢٥٩ وأبن هُشَام في السِّيرة: ٢ / ٢٤٣ فقالا: إنّ أوّل سَرِيَّـة هِـي لعُـبَيْدَة بـن الحَـارث بـن عبدالمُطّلب إلىٰ مَاء بالحِجَاز. وقِيل: إنّ أوّل غَزْوَة كَانَتْ فِي صَفر من السَّنة الثَّانِيَة.

أمّا غَزْوَة بَدر الكُبْرَىٰ فقَد كَانَتْ فِي شَهر رَمضَان من السَّنة الثَّانِيَة لِلْهِجْرَة لسَبع عَشرَة لَيلَة خَلت مِنهُ، والّتِي نَدب الرَّسُول ﷺ نفراً من ٱلْمُسْلِمِينَ لاعترَاض قَافلة قُرَيْش القَادمة من الشَّام، ولمّا عَلِم أبو سُفيان بِذَلِكَ غيّر طَرِيقه وتُوجّه إلىٰ البَحر وسَار بحذائه ثُمّ ٱنْسَل إلىٰ مَكّة...

وقد ٱلتقىٰ الرَّسُول ﷺ بقُرَيْش عِند مَاء بَدْر (قَال أبو اليقظان: إنّه ـ بَدر ـ رَجل مِن غفَار رهط أبي ذَرّ الغفاري. وَقَالَ الشّعبي: بَدر بِئر كَانَتْ لرَجُل يُسمىٰ بَدْراً) وَهِي أوّل حَرب كَان فِيها الإمْتِحَان حَيْث قَال تَعَالىٰ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ...﴾ (الأَنْفَال: ٥ و ٦).

وكَانَ عَدد ٱلْمُشْرِكِين يَترَاوح بين (٩٠٠ و ١٠٠٠) كمَا جَاء فِي تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٢٦٧ والسِّيرة لابْن هُشَام: ٢ / ٣٥٤، وفِيهِمْ العَبّاس بن عبدالمُطّلب وأبو جَهل، وقُتل من ٱلمُـشْرِكِين (٧٠) مـن رجَـالاتهم وسَادَاتهم، أمّا المُسْلِمُون فقد ٱسْتُشْهِدَ مِنهم أَرْبَعَة عَشر. وَهِي ٱلْوَاقِعَة الّتِي قَال فِيها ضَمضم بن عَـمْرُو الغفَاري ـ كَمَا نَقل أبن الأثير في الكَامِل: ٢ / ١١٦ ـ بَعد أنْ جَدع بَعِيره وحَوّل رَحله وشَـقّ قَـمِيصة ـ: اللَّطِيمَةُ اللَّطِيمَة، يَا مَعشر قُرَيْش أحْوَالكم مَع أبي سُفْيَانَ قَد عَـرض لهُ مُحَـمّد وأَصْـحَابه، لا أدري إنْ

⇐ تَدركوها، الغَوث الغَوث... فتجهّزت قُرَيْش ولَم يَتخلّف من أشرَافها إلاّ أبـو لَهَب، وبَـعث مكَـانه العَاص بن هُشام بن المُغِيرَة.

أمّا أصْحَاب رَسُول اللهﷺ فقَد نصّ المُـؤرّخون أنّ عَددهُم كَان (٣١٣) رَجُـلاً ولَم يَكُـن فِـيهِمْ إلاّ فَارسِين: المقْداد بن عَمْرو الكندِي، والزُّبَيْر بن العوّام، وكَانَتْ مَعهم (٧٠) بَعيراً وكَانُوا يَتعاقبُون علىٰ البَعير بَيْنَ الرّجُلين والثّلاثة والأرْبَعَة، فمثلاً كَان بَيْنَ النّبِيّﷺ، وعَليّ، وزيد بن حَارثة بَعِير. وكَانَتْ رَاية النّبِيّﷺ مَع عَليّ عليه السلام كَما جَاء في الكَامِل لِابن الأثير: ٢/١١٦ والسِّيرة الحَلبية بهَامش السِّيرة النّبويّة: ٢/١٤٣.

وكَان المُشرِكُون قد أصرّوا علىٰ القِتَال لِكثرتهم وقِلّة المُسْلِمِينَ ولذَلِكَ تحدّتهم قُرَيْش بالبراز واقترحت الأكفَاء، وفِي وقتها قَال أبو جَهل: ما هُم إلاّ أكلَة رَأس، لو بَعثنا إلَيْهِمْ عَبِيدنا لأخذُوهم أخذاً بِاليد. وقَالَ عُتْبَة بن رَبِيعَة: أترىٰ لَهُم كَمِيناً أو مَدَاد؟ فَبعثُوا عُمَرَ بن وهب الجُمَحِيّ وكَان فَارساً شُجاعاً، فجَال بفرسه حَتّىٰ طَاف علىٰ عَسكر رَسُول اللهﷺ ثُمّ رَجع فقَال: مَالهُم كَمِين ولا مَدَاد. (تَأريخ دِمشق: ١/١٤٣/٣٠٢).

وقَالَ: لمّا استعدّ الفَرِيقَان للحَرب وبَرز من صَفّ المُشْرِكِين عُتْبَة بن رَبِيعَة وأخُـوه شَـيبَة وابْـنِهِ الوَلِيد بن عُتْبَة وقَالُوا: يَا مُحَمّد، أخرج إلينا أكفَاءنا من قُرَيْش، فبَرز إلَيْهِ ثَلاثَة نَفر من الأنْصَار وانتسبُوا لَهُم، فقَالُوا: ارجعُوا إنّما نُرِيد الأكفَاء من قُرَيْش. ثُمّ نَادوا يَا مُحَمّد، أخرج إلينا أكفَاءنا من قَومنا، فَنَظر رَسُول اللهﷺ إلىٰ عُبَيْدَة بن الحَارث بن عبدالمُطّلب وكَان لَهُ يَوْمَئِذٍ سَبعون سَنَة فقَال: قُم يَا عُبَيْدَة، ونَظر إلىٰ حَمزَة فقَال: قُم يَا عمّ، ثُمّ نَظر إلىٰ عَليّ عليه السلام فقَال: قُم يَا عليّ ـ وكَان أصْغَر القَوْم ـ فاطلبُوا بِحقّكُم الّذي جَعَله الله لكُم، فقَد جَاءت قُرَيْش بِخُيلائها وفَخرِها، تُرِيد أنْ تُطفِئَ نُور الله، ويَأبَىٰ الله إلاّ أنْ يَتمّ نُوره. ثُمّ قَال: يَا عُبَيْدَة، عَلَيْكَ بِعُتْبَة بن رَبِيعَة، وقَالَ لحمزَة: عَلَيْكَ بِشَيبة، وقَالَ لِعَليّ: عَلَيْكَ بالوَلِيد، فمرّوا حَتّىٰ انتهُوا إلىٰ القَوْم فقَالُوا: أكفَاء كِرَام.

فَحمل عُبَيْدَة علىٰ عُتْبَة فضَرَبه علىٰ رَأسه ضَربة فَلقت هَامته، وضَرب عُتْبَة عُبَيْدَة علىٰ سَاقه فأطنّها فسقَطا جَمِيعاً واحتمل عُبَيْدَة حياً بَعد أنْ قُدّت رِجله فمَات بالصّفرَاء، ورثَاه كَعب بن مَالك في أبيات قَال فِيها كَما في الأحْكَام السُّلْطَانِية للماوردِي: ٢/٣٨:

أيَا عَـين جُـودِي ولاَ تَـبخَلِي ... بِـدمعك وكَـفّاً ولاَ سُرُرِي
عُـبَيْدَة أمْسَىٰ ولاَ نَـرتَجِيه ... لعُـرفٍ غَـدا ولاَ مُـنكرِ

وحَمل شَيبة علىٰ حَمزَة فتضَاربَا بِالسَّيفين حَتّىٰ أثلمَا، وحَمل أمِير المُؤْمِنِينَ عليه السلام علىٰ الوَلِيد فضَرَبه علىٰ

⇔

⇐ عَاتقه فأخرَج السَّيْف من إبْطه. قَال عَليّ عليه السلام: لقَد أخذ الوَليد يَمِينه بشمَاله، فضَرب بِها هَامّتي، فظننت أنّ السَّماء وَقعت عَلىٰ الأرْض. ثُمّ أعتنق حَمْزة وشَيبة، فقَال المُسْلِمُون: يَا عَليّ، أمَا ترىٰ الكَلب نَهز عَمّك ـ أي دَفعه ـ فَحَمل عَلَيْهِ عَليّ عليه السلام فقَال: يَا عَمّ، طَأطِئ رَأسك، وكَان حَمْزة أطوَل من شَيبة، فأدخل حَمْزة رَأسه فِي صَدره فضَربه عَليّ عليه السلام فطَرح نِصفه، ثُمّ جَاء إلىٰ عُتْبَة وَبِهِ رَمق فأجهَز عَلَيْهِ. (أنظر دائرة المعَارف الإسْلاَمية: ١ فصل غَزْوَة بَدْر، البحار: ١٩/٢٢٣، الإرْشَاد للشّيخ المفيد: ٦٦ فصل ٣٠ بَاب ٢).

وفِي قَتل عُتْبَة وشَيبة والوَليد تَقول هِند بِنت عُتْبَة:

أيَا عَين جُودِي بِدمع سَرب ... عَلىٰ خَير خِندف لَم يَنقلب
تَداعَا لهُ رِهطه غَدوة ... بنُو هَاشم وبنُو المطّلب

ونَقل صَاحب شواهد التّنزيل: ١/٥١٢ ح ٥٤٥ تحقيق المحمودي عن جابر بن عبدالله قَالَ: لمّا قُتل عُتْبَة بن رَبيعَة يُوم بَدر نَدبته أبنته هِند، ونَدبت عمّها شَيبَة، ونَدبت أخَاها الوَليد، وهَجت بَني هَاشم. فلمّا جَاء هجاؤها أرَاد حَسَّان أنْ يُجيبها، فأرسلت إلَيْهِ عَمرَة أُخت عبدالله بن روَاحه رضي الله عنه دَعني حَتَّىٰ أُجيبها. فكَان هجاؤها:

إنِّي رَأيْت نِساءً بَعد إصْلاح ... فِي عَبد شَمس فقَلْبِي غَيْرُ مُرتَاح
هَاجت لهَا أعيُن تَترىٰ وتَتبَعها ... من رَأس مَحزُونةٍ مَا إنْ لهَا لاَح
لمّا تَنَادت بنُو فِهرٍ عَلىٰ خَنقٍ ... والمَوت بَيْنَهمْ يَسعىٰ للأرْوَاح
نَادِيت أسَداً لآسَاد خضَارمة ... إلىٰ الكفَاح فَمَا آبوا بِتُفتَاح

إلىٰ أنْ قَالَ: فأجَابتها عَمرة أُخت عبدالله بن روَاحة:

يَا هِند صَبراً فقَد لاَقِيت مهبَلة ... يُوم الأعنّة والأرمَاح فِي الرّاح
إذْ الفُوارس مِن أوس كأنّهم ... سُرج أضَاءت عَلىٰ خَدرٍ وألوَاح
تَغدُو بِهِمْ ضمر كمت مُسوَّمة ... إلىٰ الكفَاح عَليها كُلّ كفَاح

إلىٰ أنْ قالت:

والدَّاعِيَان عَليّ وآبن عمّته ... أمسَت جَلاَيلهُم مِنْهَا بأترَاح
يا هِند إنْ تَصبرِي فالقَتل عَادتنا ... هَذَا أخُوك عَلىٰ مَدحُوة الدَّاح

⇔

↔ ولَسْنَا الآنْ بِصَدد بيَان الأشعَار ٱلّتي قِيلت فِي يوم بَدْر.

ثُمّ بَارز عَليّ عليه السلام العَاص بن سَعيد بن العَاص بَعد أنْ أحجَم عَنه من سِواه فَلم يَلبثه أنْ قَتله، وبَرز إِلَيْهِ حَنْظَلَة بن أبِي سُفْيَانَ فَقتله، وبَرز إِلَيْهِ طعيمة بن عَدىّ فَقتله، وقَتل بَعده نُوفل بن خُوَيْلد. وكَان الفَتح لرَسُول الله صلى الله عليه وآله بِسَيْف عَليّ عليه السلام بمَعُونة الله لهُ وتَأييده وتُوفيقه ونَصره، وبهَذا قَال رَسُول الله صلى الله عليه وآله لقُرَيْش بَعد أنْ رَمىٰ كفّاً من الحَصىٰ فِي وجُوههم: شَاهت الْوُجُوه، كمَا جَاء فِي تَفْسِير الكشّاف للزّمخشري والفَخر الرّازي فِي تَفْسِيره لذِيل الآيَة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنْفال: ١٧. وذكر ذَٰلِكَ السّيوطي فِي الدُّر المنثور، وأخرجه الطّبراني وآبن مردويه عن آبن عبّاس. وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ الأحْزَاب: ٢٥. (أنظر الإرْشَاد للشّيخ المفيد: ٦١).

وجَاء فِي صَحِيح البُخَاريّ كِتَاب بَدء الخَلق وفِي بَاب قتَال أبِي جَهل ح ٤٤٢٨ وبِشَرح الكرمَاني: ٢١٦/١٧ ط بيروت، و: ١٥: ١٦١ روىٰ بسنده عَن عَليّ عليه السلام أنّه قَال: أنَا أوّل من يَجثُو بَيْنَ يَدي الرّحمن للخصُومة يُوم القِيَامة. قَال: وَقَالَ قَيْس بن عَباد: وفِيهمْ نزَلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ ٱلْحَجّ: ١٩. قَال: هُم الّذين تَبارزُوا يُوم بَدْر: حَمْزَة وعَليّ وعُبَيْدَة بن الحَارث، وشَيبة بن رَبِيعَة وعُتْبَة والوَليد بن عُتْبَة. وروىٰ ذَٰلِكَ مُسْلِم فِي صَحِيحه فِي كِتَاب التَّفْسِير للآيَة الكَرِيمَة: ٣٠٣٣/٢٤٥/٨، وآبن مَاجه أيضاً فِي صَحِيحه فِي أبوَاب الجِهاد، والحَاكِم فِي المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحِين: ج ٣ فِي تَفْسِير سُورَة الحَجّ، والبَيْهَقِيّ فِي سُنَنه: ٢٧٦/٣، ونُور الأبْصَار للشّبلنجي: ٧٨ فِي ذِكر قِصّة مُبارزة عَليّ عليه السلام يُوم بَدْر، والسّيوطي فِي الدُّر المنثور، وحلية الأوْليَاء: ١٤٥/٩.

وروىٰ بسنده عن محمّد بن إدرِيس الشافعي قَالَ: دَخل رجل من بنى كنانة علىٰ مُعَاوِيَة بن أبِي سُفْيَانَ فقَال له: هَل شهدت بَدْراً؟ قَال: نَعم، قَال: مثل مَن كنت؟ قَال: غُلام قمْدود، مثل عَطباء الجلمُود. قَال: فَحدّثني مَا رَأيْت وحضرَت، قَال: مَا كنّا شهُوداً إلّا كأغيَاب، ومَا رَأينَا ظفرَاً كَان أوشك مِنْهُ. قَال: فَصِفْ لِي مَا رَأيْت؟ قَال: رَأيْت فِي سُرعان النّاس عَليّ بن أبِي طالب غُلاماً شَاباً لَيثاً عَبقرياً يَفري الفرىٰ لا يَلبث لهُ أحَدٌ إلّا قَتله، ولاَ يَضرب شَيْئاً إلّا هَتكه، لَمْ أرَ من النّاس أحَداً قطّ أنْفق يَحمل حَملة ويَلتفت ٱلتفاتة... وكَان لهُ عَينَان فِي قَفَاه وكَان ثُوبه وثُوب وحَش... وروىٰ مُبارزة عَليّ عليه السلام يُوم بَدر كلّ من صَاحب الرّياض النَّضرة: ٢٢٥/٢، والطَّبَري فِي تَأريخه: ١٩٧/٢ و ٢٦٩، وكنز العُمّال: ٢٧٣/٥، شواهد التّنزِيل: ٥٠٣/١ و ٥٣٢ ـ ٥٤٥، الطّبقَات الْكُبْرَىٰ لاِبْن سعد: ١٧/٣ ط بيروت، وفِي أمَالي ↔

⟸ المَحَاملي: ٢ / ٢٤، أسباب النّزول للواحدي: ٢٣١، المُعْجَم الكَبِير: ١ / ١٤٤، المَناقب لإِبن المغازلي: ٢٦٤ ح ٣١١.

وَقْفَةٌ وتأمّل:

رويت مَعركة بَدْر بِعدّة طُرق ولَسْنَا بِصدد بَيانها بل نَأخذ تَفصِيل الخَبَر من آبن هُشام في سِيرَته: ٢ / ٢٥٣ وصَحِيح مُسْلِم: ٣ / ١٤٠٣ لنقطع دَابر أَصْحَاب النّفُوس المَرِيضة والأَقْلاَم المَأجُورة المُشكّكة فِي كلّ وَاقعة وفَضيلة لأَهْل البَيْت عليهم السلام من أمثال: آبن كَثِير، وآبن تيمِية، وآبن خلدُون، وآبن القَيّم الجوزية، ومن تَبعهم فِي ذَٰلِكَ المَنهج المُخالف لقوله تَعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَاتَفَرَّقُواْ﴾.

والمُلفت للنّظر فِي هَذِه الوَقفَة هُو قَوْل المؤرّخ والأُستاذ صَاحب تَأرِيخ الإِسْلاَم السّياسِي والدّينِي، والثّقافِي، والإِجْتِمَاعِي الدّكتور حَسن إِبْرَاهِيم حَسن والمُدير السّابق لجَامعة أسيوط وخرّيج الجَامعَات الأُوربية والوِلاَيَات المُتحدة الأمريكِية يَقول تَحت عنوان «غَزْوَة بَدر الكُبْرَىٰ»: ١ / ١٠٧ ط ٧ دَار الأَندلس بَيروت فِي الهَامش رقم ٣: إِنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أوّل من سمّىٰ عبدالله بن جَحش بأَمِير المُؤمِنِينَ، وهو أوّل من سُمّي بِهَذا الإِسم... ويَسرد القِصّة كَاملة ولكن لَمْ يُشر إِلىٰ عَليّ عليه السلام لا من بَعِيد ولا من قَرِيب بل ذَكر عُذراً وَاهياً لِمن تَخلّف عَن المَعرَكة وهو عُثْمَانَ بن عَفّان كَما جَاء فِي: ١١٠ بأنه تَخلّف بأمر الرّسُول صلى الله عليه وآله مَع أُسامة بن زَيد فِي المَدِينَة لتمريض رُقية بِنت الرّسُول وزَوْجَة عُثْمَانَ الّتِي فَاضت رُوحها والمُسلمُون فِي المَعركة، وأتىٰ البَشير بالنّصر وهُم يوَارونَها في التُّراب.. ثُمّ يَتَكَلّم عن ٱلأَنفَالِ وتَقسِيم الغنَائِم وكأنّ كتَابه جَاء لشَرح المُبرّرات لأصحَاب الأعْذَار وتَقسِيم الغنَائِم مع العِلم أنّه لَمْ يَذكر طَلْحَة بن عُبَيْدالله وسعيد بن زيد بن عَمْرُو بن نُفيل وأبَا لُبابة والحَارث بن حَاطب الأَنْصَاريَان، وهَؤُلاَء كلّهم من المُتخلّفِين عن مَعركة بَدْر. (أنظر، المعَارف: ١٥٤).

ولكن لاَ أَقُول لهُ إِلاّ مَا ذَكره هُو فِي نَفْس الصّفحَة السّطر الثّانِي حَيْث يَقول: ونَبِي كلّ فَرِيق من هَؤُلاَء ـ الّذين أحَاطوا بالرّسول يَحرسُونه خَشية أنْ يَغتاله المُشْرِكُون والّذين دَخلوا فِي لهوَات الحَرب ـ نَصِيب الآخرين وأستحقَاقهم فِي النّفل... وأقْوَال: فإنّك أيّها الأُستاذ قَد نَسِيت أو تَجَاهلت أو أنْسَاك الله جِهاد وبطُولاَت الإِمَام عَليّ عليه السلام ولاَ أُريد أنْ أذكّرك بقوله تَعَالىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بل أُورد لَك مَا قَالته المصَادر التّأرِيخية فقط دُون تَعليق حفظاً للألقَاب الّتي تَحملها والمُوجُودة عَلىٰ صفحَات كِتَابك.

روىٰ آبن هَشام وَقَالَ: وأتَاه الخَبَر عن قُرَيْش ومَسِيرهُم لِيمنعُوا عِيرهُم، فَأستَشار النّاس وأخبرهُم ⟸

⇜ عن قُرَيْش، فقَام أبو بَكْر الصِّدِّيق فقَال وأحسَن، ثُمّ قَام عُمَرَ بن الخَطَّاب فقَال وأحسن، ثُمّ قَام المقْدَاد... ثُمّ ذَكر مَا قَاله المقْدَاد ومَا قَالته الأَنْصَار، بِينَمَا لَم يَذكر مَا قَاله أبو بَكْر ثُمّ عُمَرَ!

وفي صَحِيح مُسْلِم: فتَكَلَّم أبو بَكْر فأعرض عَنهُ، ثُمّ تكَلَّم عُمَرَ فأعرَض عَنْهُ. فقَام المقْداد... لاحظ أنّ مُسلماً هَكذا ذُكر أيضاً، ولَم يَذكر مَا تَكَلَّم بِه أبو بَكْر، وكلاَهُما لَم يتِمّا ذِكر الخَبَر... ولكن نَحْنُ نَنقل تَمَام الخَبَر من مغَازي الوَاقدي: ١/ ٤٨ ـ ٤٩ ط آكسفورد، وإمْتَاع الأَسْمَاع للمقْرِيزي: ٧٤ ـ ٧٥. قَال الوَاقدي: قَال عُمَرَ بن الخَطَّاب: يَا رَسُول الله، إنّها والله قُرَيْش وعزُّها، والله ما ذَلّت مُنذ عَزّتْ، والله ما آمنَت مُنذ كفَرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً ولتُقَاتلنّك. فاَتَّهب لذَلِكَ أُهْبَته وأعدَّ لِذَلِكَ عُدَّته. ثُمّ قَام المقْداد بن عَمْرُو فقَال: يَا رَسُول الله، أمضِ لأمْرِ الله فَنحن مَعك، والله لا نَقُول لَكَ كمَا قَالت بنو إسْرَائِيل لنَبِيّها ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ٱلْمَائِدَة: ٢٤. ولكن اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنّا مَعكُما مُقَاتِلُون، والَّذي بَعَثك بِالحَقّ لَو سِرت بنَا إلىٰ بِرْك الغِماد لسرنَا مَعك... وقَال سعد بن معاذ: والَّذي بَعثك بِالحَقّ لَو اَستَعرَضت هَذَا البَحر فخُضْتَه لخضنَاه مَعك، مَا بَقي منّا رَجُل. وَصِل من شِئت، واَقطع مَن شِئت، وخُذ من أمْوَالنا مَا شِئت، ومَا أخذت من أمْوَالنا أحبّ إلينَا ممّا تَركت.

هَذَا من جَانب أيُّها للدّكتور العَزيز، ومن جَانب آخر فقَد أثبت أَهْل السِّير والتَّأريخ واَتفق عُلَمَاء الحَدِيث من الفَرِيقين أنّ النَّبِيّ ﷺ أعطىٰ عَلِيّاً عليه السلام رَايته يوم بَدر، فهَذا الطَّبَري فِي تَأرِيخه: ٢/ ١٣٨ قَال: وكَان صَاحب رَاية رَسُول الله ﷺ عَلِيّ بن أبي طالب عليه السلام وصَاحب رَاية الأَنْصَار سَعد بن عبادة. وقَالَ صَاحب الاسْتِيعَاب بهَامش الإصَابَة: ٣/ ٣٣:... وأجمَعُوا عَلىٰ أنّ عَلِيّاً عليه السلام صَلّىٰ القِبلَتِين وهَاجر وشَهد بَدراً والحُدَيْبِيَة وسَائر المشَاهد، وأنّه أبلىٰ بِبَدر وبِأحد وبالخَندق وبخَيبر بَلاءً عَظِيماً.

وأمّا اَبن عَساكر فِي تَأريخ دمشق: ١/ ١٤٢ ح ٢٠٠، وفي ١٤٥ ح ٢٠٨، فقَال: إنّ رَاية المُهَاجِرينَ كَانَتْ مَع عَلِيّ عليه السلام فِي المُوَاقف كلّها يُوم بَدر، ويُوم أُحُد، ويُوم خَيبر، ويُوم الأَحْزَاب، ويُوم فَتح مَكَّة، ولَم تَزل مَعه فِي المواقف كلّها.

أمّا تَشكِيك الطَّبَري فِي: ٤/ ٢٢٦ من حضُور العَبَّاس غَزْوَة بَدر فهُو تَشكِيك فِي غَيْر محله ولَسْنَا بصدد مُنَاقشة الطَّبَري وأمثاله حَتَّىٰ أنَّ اَبن قُتَيْبَة فِي معَارفه: ١٥٤ أوّل مَا ذَكر العَبَّاس بن عبدالمُطّلب، وكَذَلِكَ فِي سيرة اَبن هُشَام: ٢٢/ ٣٢١ بل نورد الأَحَادِيث الَّتي ورَدت من قِبله ﷺ بالنَّهي عن قَتل العَبَّاس خَاصَّة، وقَتل بَنِي هَاشم عامّة. وكَذَلِكَ نَهىٰ عن قَتل أبِي البَخترِي بن هُشَام بن الحَارث بن أسد، ⇜

↔ مع مُلاحظة أنّ نَهيه ﷺ عَن قَتل بَنِي هَاشم عَامّة ونَهيَه عن قَتل عمّه خَاصّة تأكِيد وتَشديد ومُبَالغة لمَا عِنده مِن العِلم بأنّهم أُخرجُوا كَرْهاً ولَم يؤذُوا رَسُول الله ﷺ وكَان يَأمل تُوفِيقهم وهدَايتهم إلىٰ الله تَعَالىٰ وَرَسُوله ومَع ذَلِكَ فقَد أبىٰ آبن البُختري عِندمَا قَال لهُ المُجذر بن زِياد البلوي حَليف الأنْصَار أنّ رَسُول الله ﷺ نَهانا عَن قَتلك، فقَال آبن البُختري: أنَا وصَاحِبِي ـ جُنادة بن مَليحة من بَنِي لَيث؟ قَال لهُ: لا والله مَا نَحْنُ بتَاركِي صَاحبك ومَا أمرنا رَسُول الله إلّا بِكَ وحدَك...فأختَار القِتَال وقَتله المُجذر.

ومن أرَاد الإطّلَاع عَلىٰ ذَلِكَ فليرَاجع المصَادر مثل الكَامِل في التّأريخ: ٢/٨٩، والطّبَرِي في تَأريخه: ٢/٢٨٢، والصّحِيح من سِيرة النّبِيّ الأعْظَم: ٣/١٧٢، والسّيرة النّبَوِيّة لِابْن هُشام: ٢/٢٨١، والسِّيرة الحَلبِية: ٢/١٦٨، وشَرح النّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ١٤/١٣٣ و١٨٣، والبِدَاية والنّهَاية: ٣/٢٨٤، ومَجْمَع البَيَان: ٤/٥٥٩، وغَيْرها.

أمّا أنّ العَبّاس قَد أُسر فَلا شكّ ولا رَيب في ذَلِكَ، وقَد نصّ عَلَيْهِ كلّ من أرّخ وَقعَة بَدر من أهْل السِّيرِ والأخْبَار، وهو ﷺ الّذي قَال: سَمعت تضوّر عمّي العَبّاس فِي وثَاقه فَمنعني النّوم. فقَاموا إلَيْهِ فأطلقُوه فنَام رَسُول الله ﷺ. (أنظر، آبن الأثير في الكَامِل: ٢/٨٩، والدّرجَات الرّفِيعة: ٨٠، ومَجمع البَيَان: ٤/٥٥٩، وشَرح النّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ١٤/١٨٢، وكنز العُمّال: ٥/٢٧٢ ح ٥٣٩١، والصّحِيح من سِيرة النّبِيّ الأعْظَم: ٣/٥٢٠، والبَداية والنّهاية: ٣/٢٨٥، وصَحِيح مُسْلِم: ٦/١٥٧، شواهد التّنزِيل: ١/٥١١ ح ٥٤١، المَاوردِي: ٢/٤٦).

وذَكره أيضاً آبن قُتَيبَة فِي المعَارف: ١٥٥. قَالَ العَبّاس: يَا رَسُول الله إنّ هَذَا والله أسرنِي بَعدما أسرنِي رَجُل أجلَح من أحسَن النّاس وَجهاً، عَلىٰ فَرس أبْلَق ما أرَاه في القَوْم. فقَال الأنْصَاري أنَا أسرته يَا رَسُول الله، فقَال: أُسكت لقَد أيّدك الله عزّ وجلّ بملك كَرِيم. فقَال النّبِيّ ﷺ: كَيف أسرت العَبّاس يَا أبَا اليُسر، قَال: يَا رَسُول الله لقَد أعَانني عَلَيْهِ رَجُل مَا رَأيته قَطّ هيئته كَذَا وكَذَا. فقَال رَسُول الله ﷺ: لقَد أعَانك عَلَيْهِ مَلك كَرِيم. وَقَالَ للعبّاس: أفْدِ نَفْسَك، وأبنِي أخِيك عَقِيل بن أبِي طالب، ونُوفل بن الحَارث، وحَليفك عُتْبَة بن عَمْرَ، فقَال: يَا رَسُول الله إنّي كُنت مُسلماً ولكن القَوْم آستكرهُونِي، فقَال رَسُول الله ﷺ: أعلمْ بإسْلامك. فإنْ كَانَ مَا قُلت فإنّ الله يُجزِيك. ففدىٰ العَبّاس نَفْسَه بمِئة أُوقية وفدىٰ كلّ واحد من بَنِي أخِيه وحَليفه بأرْبَعين أُوقية. (أنظر الأحْكام السُلْطَانية للمَاوردي: ٤٦).

ولذَا نَجد مُفتِي الشّافعية أحمد دَحلان صَاحب السِّيرة النّبَوِيّة فِي ١/٥٠٤ من هَامش السِّيرة الحَلبية ↔

وأُحُد[1]، وغَيْرهُما من الغَزْوَات.

⇐ يُدافع عن الْعَبَّاس ويقُول: كَان الْعَبَّاس يَكتُم إسْلاَمه وكَانَ ﷺ يَطلعه عَلىٰ أسرَاره حِين كَان بِمَكَّة، وكَان ﷺ قد أمرَه بالمكُوث في مَكَّة ليكتب لهُ أسرَار قُرَيْش.

أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٥/ ١٤٢ ط دار الفِكْر، و: ٦/ ١٢٤ ط مطابع دار الشّعب، و: ٣/ ١١٦ ط الخَيْرية بِمِصْر، و: ٥/ ٧٩ ط بمبي، أسباب النّزول للسّيوطي بهامش تَفْسِير الجَلالين: ٤٤٢ ط بيروت، تَفْسِير القُرطُبي: ١٢/ ٢٥، وتَفْسِير ٱبن كثير: ٣/ ٢١٢.

أمّا العَاص بن سَعيد بن العَاص بن أُمَيّة، وعامر بن عبدالله، ونوفل بن خُوَيْلد بن أسد، ومسعود بن أُمَيَّة بن المُغِيرَة، وقَيْس بن الفَاكه، وعبدالله بن المُنْذِر بن أبي رفاعة، والعَاص بن مُنبه بن الحجّاج، وحاجب بن السّائب ذكرهُم الوَاقدي في المغازي: ١/ ٤٨ ط أكسفورد، والبُخَارِيّ في صَحِيحه: ٦/ ٩٨، وصَحِيح مُسْلِم: ٨/ ٢٤٥، والطَّبَرِي في تَأرِيخه: ٢/ ١٩٧ و ٢٦٩، وكنز الْعُمَّال: ٥/ ٢٧٣، والفَلكي في الإبانة، وشَرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١٤/ ٢٠٨، والمغازي للواقدي: ١٤٣ ـ ١٥٣ ط آخر، والسّيرة النّبويّة لِابْن هشام: ٢/ ٤٣٦، بحَار الأَنْوَار: ١٩/ ٢٩١ و ٢٩٣ و ٣٦٥، المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ١٥٦.

(١) أُحُد: ٱسم جَبَل مِن جِبَال المَدِينَة غَيْر بَعيد عَنْهَا سُمِّيَت بِٱسمه المَعرَكة المَشهُورة بَيْنَ قُرَيْش والمُسْلِمِينَ، مُحَاولة ٱنتقام المُشْرِكِين مِن المُسْلِمِينَ ثَأراً لِبَدْر. قُتل فِيهَا حَمْزَة ومُصْعَب بن عُمير وعَبدالله بن جبير وغَيْرهم. وقعَت فِي ٧ شوّال، وقِيل في ١٥ شوّال يَوم السّبت سَنَة (٣ ﻫ). وخَرج رَسُول الله ﷺ عصر الجُمُعَة والْقِتَال يُوم السّبت، وكَان عَدد المُشْرِكِين حوَالِي ثَلاثَة آلاف فَارس وقَائدهم أبو سُفْيَانَ وزوجته هِند بِنت عُتْبَة تَدقّ الدّفُوف ومَعَهُم مائتا فَرس وثَلاثَة آلاف بَعِير. كَمَا ذَكر ابن الأثِير فِي الكَامِل: ٢/ ١٤٩، وفِي كَشف الْيَقِين: ١٢٦ يَذكر الْوَاقِعَة فِي شوّال سَنَة (٣ ﻫ). المَغَازي للوَاقدي: ١/ ١٩٩.

وعَقَد رَسُول الله ﷺ ثَلاَثَة أَلوِية عَلىٰ ثَلاَثَة رِمَاح: لوَاء المُهَاجِرِينَ بِيد الإِمَام عَليّ عليه السلام، ولوَاء الأوس بِيد أُسيد بن حضير، ولوَاء الخَزرج بِيد الحَبَاب بن المُنْذِر، وقِيل بِيد سَعد بن عَبادة وأعطىٰ الرَّاية ـ وَهِي العَلَمُ الأَكبَر واللّوَاء دونها ـ لِعَليّ بن أبي طالب عليه السلام كَمَا ذَكر صَاحب أعيَان الشّيعة: ١/ ٣٨٥. وسَار ﷺ من المَدِينَة بَعد العَصر بألف رَجُل وٱستخلَف عَلىٰ المَدِينَة ٱبن أُمّ مَكتُوم. ولمّا وَصل النّبيّ ﷺ إلىٰ مكَان يُسمّىٰ الشّيخين عَرض عَسكَره وبَات هُناك، ثُمّ سَار إلىٰ أنْ وَصل إلىٰ بُستان يُسمّىٰ الشّوط ـ بَيْنَ المَدِينَة وأُحُد ـ ومِن هُناك رَجع عَبدالله بن أُبيّ بن سَلول مع ثَلاثمئة مُنَافق بَعد أنْ قَال: عصَاني ـ يَقصد رَسُول الله ﷺ ـ وٱتّبع الوِلدَان. (تَأرِيخ الإسْلاَم) لحَسن إبْرَاهِيم حَسن: ١/ ١١١ نَقلاً عن الطَّبَرِيّ ⇐

↔ ٤/ ٢٢٦ ـ ٢٨٢. ونقل آبن قُتَيْبَة فِي معَارفه: ١٥٩ أنّه قَال: والله مَا نَدرِي عَلامَ نَقتل أنْفسنَا.

وجَعَل ﷺ أُحُد خَلف ظَهره بِيْنَما ٱلْمُشْرِكُون آسْتقبلوا أُحُداً ولوَاؤهم بِيد طَلْحَة بن أبِي طَلْحَة والَّذي يُسمّىٰ بَكبش الكَتِيبَة. (كمَا ذكر ذَٰلِكَ الطَّبرِي فِي تأرِيخه: ١٨٧/٢، والإِرْشَاد للشَّيخ المُفيد: ٤٣، والمنَاقب لِابْن شهرآشوب: ١/ ١٩١، وكَشف الْيَقِين فِي فَضَائِل أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِابْن المُطهّر الحلّي: ١٢٧، والكَامِل فِي التّأرِيخ لِابْن الأثِير: ٢/ ١٥٠، ودَائرة المعَارف الشّيعِية لحَسن الأمِين: ١ مَعركة أُحُد، والوَاقدي فِي المغَازي: ١/ ٤٨ و٢٠٨ ط أُخرىٰ ط آكسفورد، وإِمْتَاع الأَسْمَاع للمَقرِيزي: ٧٤ و١١٣ و١١٨).

وصَفّ النّبيّ ﷺ أَصْحَابه، وجَعل الرُّمَاة خَلف العَسكر عِند فَمّ الشّعب الَّذي فِي جَبل أُحُد، وكَانُوا خَمسِين رَجُلاً، وأمّر عَلَيهِم عَبدالله بن جُبير، وقيل عَبدالله بن عُمَر بن حَرم. (كمَا ورد فِي كَشف الْيَقِين: ١٢٦). وَقَالَ له ﷺ: أثبت عَلىٰ مكَانك إنْ كَانَتْ لنَا أو عَلينا، فإنّا لا نزَال غَالبِين مَا مَلكتُم مكَانكم، فإنْ أدخلناهُم مَكّة فلا تَبرحُوا، وإنْ رَأيتمُوهم قَد هَزمُونا حَتّىٰ أدخلونَا المَدِينَة فَلا تَبرحُوا، وألزمُوا مَرَاكزكُم. (أنظر، الكَامِل فِي التّأرِيخ: ٢/ ١٥٠). وقِيل: إنّه قَال لَهُم: لا تَبرحُوا مِن مكَانكم وإنْ قُتلنا عَن آخِرنا، فإنّمَا نُوتىٰ من موضعكُم هَذَا. (كَشف الْيَقِين فِي فَضَائِل أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: ١٢٦). وقِيل: إنّه ﷺ قَال لعبدالله بن جبير: آنضح عنّا الخَيْل بالنَّبل لا يَأتونَا من خَلفنا، وآثبتُوا مكَانكم إنْ كَانَتْ لنَا أو كَان علينا، فإنّا إنّمَا نُوتىٰ مِن هَذَا الشّعب شِعب أُحُد. (تَأرِيخ اليَعقوبِي: ٢/ ٤٨).

قَال آبن عبّاس: لمّا كَان يَوم أُحُد صَعد أبو سُفْيَانَ الجَبَل فقَال رَسُول الله ﷺ: ٱللَّهُمَّ إنّه لَيْس لَهُم أنْ يَعلونَا. (أنظر، الكَامِل فِي التّأرِيخ: ٢/ ١٦٠، دَائرة المعَارف الشّيعِية: ١/ ٢٥٧ بَاب مَعرَكة أُحُد). ومَكث أبو سُفْيَانَ سَاعة وَقَالَ: يُوماً بِيوم، إنّ الأيّام دُول وإنّ الحَرْب سِجَال، فقَال ﷺ: أَجِيبُوه. فقَالُوا: لاَ سوَاء، قَتلانَا فِي الجَنَّة وَقتلاكُم فِي النّار، فقَال أبو سُفْيَانَ: لنَا عُزّىٰ، ولا عُزّىٰ لكُم. فقَال ﷺ: الله مَولاَنا ولا مَوْلَىٰ لكُم، فقَال أبو سُفْيَانَ: أعلُ هُبل فقَال ﷺ الله أعلىٰ وأجلّ. (أنظر، المحَاورة فِي البحَار: ٢/ ٢٣، الكَامِل: ٢/ ١٦٠، الطَّبقَات الكُبْرَىٰ لِابن سعد: ٢/ ٤٧، السّيرة الحَلبِية: ٢/ ٢٤٥، و: ٣/ ٩٦، الدَّرجَات الرَّفِيعة: ٦٦، فَرَائِد السّمطِين: ١/ ٢٥٧، تَأرِيخ دمشق لِابْن عسَاكر: ١/ ١٤٨، المنَاقب لِابْن المغَازلِي: ١٩٧، ذَخَائِر العُقبَىٰ: ١٨١).

وصَفّ ٱلْمُشْرِكُون صفُوفهم وكَانَتْ لَهُم مَيْمَنَة ومَيسرَة، وآلتقىٰ المسلمون ٱلْمُشْرِكِين وآشتَعلت الحَرْب وقَامت هِند بضَرب الدّفُوف ومَعَهَا المعَازف والخَمر والقِيان لإثَارة حمَاستهم، وآلتحَم الجَيْشَان وصَمد ↔

⇐ بعضها لِبعض، وأتبع المسلمون خِطّة الرَّسُولﷺ أوّل الأمر، فكَان النَّصر فِي جَانبهِم، فقَد حَصدُوا أعْدَاءهم بالسّيوف حَتَّىٰ كَشفُوهم عَن العَسكر، ولذَا يَقُول الزُّبَيْر بن العوّام حَسب ما نُقل فِي سِيرة ٱبن هُشام: ٢ / ٢٢٤ و ٢٤٥: والله لقَد رَأيتني أنظر إلىٰ خَدم هِند بنت عُتْبَة مُشمرَات هوَارب مَادُونَ أخْذهُنّ قَلِيل ولا كَثِير.

ولمّا رَأىٰ المسلمون تقهقر ٱلْمُشْرِكِين وأهمَل الرُّماة وَصِية الرَّسُول ﷺ إيَاهُم بِالثّبَات فِي أمَاكنهم حَتَّىٰ يُعلن هُو ٱنتهَاء الحَرْب، وأخذُوا يجمعُون مَا تَركهُ العَدوّ وَرَاءه من الغَنِيمَة والإسْلاَب. وقَد ذكّرهُم أَمِيرهُم مَرّات ومَرّات وَقَالَ لهُم: إنّ رَسُول الله ﷺ أمرَنِي أنْ لا أَبرَح من مَوضعِي. فقَالُوا: إنّه قَال ذَلِكَ وهو لا يَدرِي أنّ الأمرَ يَبلغ مَا تَرىٰ. (أُنظر كشف اليَقِين: ١٢٧). ومَالوا إلىٰ الغنَائِم وتَركُوه. فحمَل عَلَيْهِ خَالد بن الوَلِيد فقَاتله فَقتله بَعد أنْ فُنيت نِبَاله وطَاعن بِالرُّمح حَتَّىٰ ٱنكسر، ثُمّ كَسر جِفن سَيْفه وجَاء من ظَهر النَّبِيّ ﷺ وَقَالَ لأصحَابه: دُونكُم هَذَا الَّذي تطلبُون، فَحملوا عَلَيْهِ حَملة رَجُل وَاحد ضَرباً بالسّيُوف وطَعناً بِالرِّمَاح. ورَمياً بِالنّبَال ورَضخاً بالحِجَارة، وجَعل أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ يُقاتلون عَنْه حَتَّىٰ قُتل منهم سَبعُون رَجُلاً. (أُنظر، تَأريخ الطَّبَرِي: ٢ / ١٣١، مناقب ٱبن شهرآشوب: ١ / ١٨٧، و: ٣ / ١٢٢، الأَحْكَام السُّلْطَانِية للمَاوردي: ٢ / ٤٠، الأحْكَام السُّلطَانِية للفرّاء: ١ / ٤٢).

قَتل حَمْزَة والتّمثِيل بِهِ:

حَمْزَة بن عبدالمُطّلب يُكنىٰ أبَا عُمارة، وأبَا يَعلىٰ، وهو أسد الله وأسد رَسُوله ﷺ عَمّ النَّبِيّ قَتلهُ غُلاَم يُقَال لهُ وَحشي مَوْلىٰ مَطعم بن جُبير، وقَد بَعثه مَوْلاَه مَع قُرَيْش وَقَالَ له: إنْ قَتلت حَمْزَة بِعمّي طُعيمة بن عَدِيّ فأنتَ عَتِيق، وجَعلت هِند بنت عُتْبَة لوَحشِي جُعلاً علىٰ أنْ يَقتل رَسُول الله ﷺ أو عَلِيّاً أو حَمْزَة. فقَال: أمّا مُحَمّد فَلا حِيلَة فِيهِ، لأنّ أَصْحَابه يَطُوفُون بِه. وأمّا عَليّ فإنّه إذَا قَاتل كَان أَحذَر مِن الذّئب. وأمّا حَمْزَة فأطمَع فِيه، لأنّه إذَا غَضب لا يُبصر مَا بَيْنَ يَدِيه، فَقَتله وَحشي، وجَاءت هِند فأمرَت بِشقّ بَطنِه وقَطع كَبدَه والتّمثِيل بِهِ، فجَدعُوا أنْفه وأذُنيه. وَهِي الّتي ٱتخذَت من آذَان الرِّجَال وآنَافهم وأصَابع أيْدِيهم وأرْجُلهم ومذَاكِيرهُم قَلاَئِد ومعَاضد، وأعطت وَحشي معَاضدها وقَلائدها جَزاء قَتله حَمْزَة فَلاكة كَبدَه فَلم تَسغه فلفظته. (أُنظر، الكَامِل فِي التّأريخ: ٢ / ١١١، الدَّرجَات الرَّفيعة: ٦٦ ـ ٦٩، السِّيرة النّبويّة لِابْن هُشام: ٣ / ٩٦، السِّيرة الحَلبِية: ٢ / ٢٤٦، كشف اليَقِين لِابْن المُطهّر الحلّي: ١٢٨).

وذَكر أهْل السِّير والأَخْبَار كَٱبن جَرير، وٱبن الأثِير، وٱبن كَثِير، وصَاحب العِقد الفَرِيد وغيْرهم ما ⇐

⇔ قَد أخرجه أحمد بن حنبل: ٢ / ٤٠ عن ابن عُمَرَ أنّ رَسُول الله ﷺ لمّا رَجع من أُحُد جَعلت نِسَاء قُرَيْش يَبكِين عَلىٰ مَن قُتل من أزوَاجهن. قَال: فقَال رَسُول الله ﷺ: ولكن حَمْزَة لا بوَاكِي لهُ، قَال: ثُمّ نَام فانتبه وهُنّ يَبكِين، قَال فهنّ اليوم إذا يَبكِين يَندبن حَمْزَة.

وفِي ترجمة حَمْزَة من الإسْتِيعَاب نَقلاً عن الوَاقدي بهامش الإصَابَة: ١ / ٢٧٥ قَال: لَم تَبك أمرأة من الأَنْصَار عَلىٰ مَيت ـ بَعد قَوْل رَسُول الله ﷺ لكن حَمْزَة لا بوَاكي لهُ ـ إلىٰ اليوم إلّا بَدَأنَ بِالبُكاء عَلىٰ حَمْزَة. (أُنظر للمزِيد أُسد الغَابَة، والطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٢ / ٤٤، و: ٣ / ١١ و١٧ ـ ١٩، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٨٣، والسِّيرة النَّبَوِيَّة لِابْن هُشَام: ٣ / ١٠٤، شرح النَّهج لِابْن أبِي الحَدِيد: ١٥ / ٤٢، الكَامِل فِي التَّارِيخ: ٢ / ١١٣، الغَدِير: ٦ / ١٦٥، مَجْمَع الزّوائد: ٦ / ١٢٠، وَسَائِل الشِّيعة: ٢ / ٩٢٢ كتاب الطَّهارة ب ٨٨ من أبواب الدّفن ح ٣.

كَان حَمْزَة ﷺ يَحمل عَلىٰ القَوْم، فإذَا رَأوه انهزمُوا ولَم يَثبت لهُ أحد، لكن غَدر وَحشي وحِقد هِند هُما اللّذَان مَكنّا حَربة وَحشي فأصَابته فِي أربيّته، وأنشغَال المسلمون بِهزِيمتهم هِي الّتي مَكّنت هِند من شَقّ بَطنه وقَطع كَبده والتّمثِيل بِه، ولذَا قَال الشَّاعر كمَا فِي كَشف الغُمّة: ١ / ٢٥٨.

ولاَ عَار لِلأشرَاف إنْ ظَفرت بِهَا ... كِلاَب الأعَادِي مِن فَصِيح وأعْجَم
فَحَرْبَة وَحشِي سَقت حَمْزَة الرّدَىٰ ... وحَتفُ عَليّ من حُسام ابن مُلْجَم

وحِين رَآه رَسُول الله ﷺ قَال: لولاَ أنْ تَحزن صَفِيّة أو تَكُون سُنّة بَعدِي تَركتهُ حَتّىٰ يَكُون فِي أجْوَاف السِّبَاع وحوَاصل الطَّير، ولئن أظهَرنِي الله عَلىٰ قُرَيْش لأُمثّلَنّ بِثلاثِين رَجُلاً مِنهم. كمَا ذَكر ابن الأثِير فِي الكَامِل: ٢ / ١٦١. وَقَالَ المسلمون: لَنُمثّلنّ بِهِمْ مُثلةً لَم يُمثّلها أحَد من العَرَب. فأنـزَل الله فِي ذَلِكَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ النَّحل: ١٢٦.

ولذَا وَرد فِي السِّيرَة الحَلبِية عن ابن مسعود: ٢ / ٢٤٦ قَالَ: مَا رَأينا رَسُول الله ﷺ بَاكِياً أشدّ من بُكائه عَلىٰ حَمْزَة ﷺ ووَضعه فِي القِبلة، ثُمّ وَقف عَلىٰ جنَازته وانْتحب حَتّىٰ نَشق ـ أي شَهق ـ حَتّىٰ بَلغ بِهِ الغَش، يَقُول ﷺ: يَا عَمّ رَسُول الله، وأسد الله، وأسد رَسُول الله، يَا حَمْزَة فَاعِل الخَيْرَات، يَا حَمْزَة يَا كَاشف الكُربَات، يَا حَمْزَة يَا ذَابّ عن وَجه رَسُول الله. وَقَالَ ﷺ: جَاءنِي جِبْرِيل ﷺ وأخبَرَنِي بأنّ حَمْزَة مَكتُوب فِي أهْل السّمَاوَات السّبع: حَمْزَة بن عبدالمُطّلب أسد الله وأسد رَسُوله. وأمرَ رَسُول الله ﷺ الزُّبَيْر أنْ يَرجع أُمّه صَفِيّة أُخت حَمْزَة ﷺ عَن رُؤيته، فقَال لهَا: يَا أُمّه، إنّ رَسُول الله ﷺ يَأمرك أنْ تَرجِعِي، ⇔

⇔ فدَفَعْت فِي صَدره وقَالت: لِمَ وقَد بَلغني أنّه مُثل بَأخي، وذَلِكَ فِي الله قَلِيل فمَا أرضَاني بمَا كَان فِي الله مِن ذَلِكَ، لأحْتسبَنّ ولأصْبرَنّ إنْ شَاء الله تعَالىٰ، فجَاء الزُّبَيْر فأخبَره ﷺ بذَلِكَ؟ فقَالَ ﷺ: خلّ سَبِيلها، فجَاءت وٱستَرجَعت وٱستغفرت لهُ.

وفِي روَاية: كفّن حَمْزَة بِنمرَة كَانوا إذَا مَدّوها عَلىٰ رَأسه ٱنكَشفت رِجلاَه، وإنْ مَدّوها عَلىٰ رِجليه ٱنكشف رَأسه، فَمَدّوها عَلىٰ رَأسه وجَعلوا عَلىٰ رِجليه الأذخُر، وأمَرَ رَسُول الله ﷺ به فَدُفن. ذَكر ذَلِكَ صَاحب السِّيرة الحَلبِية: ٢/٢٤٧، وٱبن الأثِير فِي الكَامِل: ٢/١٦٢.

وذَكر الوَاقدي أنّ النّبيّ ﷺ كَان يَومَئِذٍ إذَا بَكت صَفِيّة يَبكي وإذَا نَشجت يَنشج. قَال: وجَعَلت فَاطِمَة تَبكي فلَمّا بَكت بَكىٰ رَسُول الله ﷺ.

وروىٰ ٱبن مسعود قَال: مَا رَأينا رَسُول الله ﷺ بَاكِياً قَطّ أشدّ من بُكائِه عَلىٰ حَمْزَة بن أبِي طالب لما قُتل ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ ووَضعه فِي القَبر ثُمّ وَقَف ﷺ عَلىٰ جنَازته وٱنتحب حَتّىٰ نَشغ من البُكاء. ذَكر ذَلِكَ صَاحب الإستِيعَاب بهَامش الإصَابَة: ١/٢٧٥ الطّبعة الأولىٰ، والغَدِير: ٦/١٦٥، والإمْتَاع للمَقرِيزي: ١٥٤، والكَامِل فِي التّأرِيخ: ٢/١٧٠، ومَجْمَع الزّوائد: ٦/١٢٠، والصَّحِيح مِن سِيرة النَّبيّ الأعْظم: ٤/٣٠٧ و٣١٠، وذَخَائِر العُقبَىٰ: ١٨٠، وسِيرة ٱبن هُشَام: ٣/١٠٥، والسِّيرة الحَلبِية: ٢/٢٤٦، وشَرح النَّهج: ١٥/٣٨٧ و١٧.

ولَسْنَا بِصدد بَيان جُواز أو حُرمة البُكاء عَلىٰ المَيت ولكن نَترك للقارئ الكَرِيم مَجَال التَّفكِير عِند مُراجعة المصَادر التَالِية عَلىٰ سَبِيل المثَال لا الحَصر مُنذ بُكاء آدمَ ﷺ عَلىٰ ٱبْنِهِ هَابِيل إلىٰ اليَوم لأنّ البُكاء سُنّة طَبِيعِية.

أنظر، العَرائس للثّعالبي: ٦٤ ط بمبي و١٣٠ و١٥٥، الطّبَقَات الكُبْرَىٰ لِابْن سعد: ١/١٢٣، و: ٢/٦٠ الطّبعة الثّانِيَة ط بيروت، فرائد السّمطِين: ١/١٥٢ ح ١١٤، و: ٢/٣٤ ح ٢٧١، والمُصَنَّف لِابْن أبِي شَيبة: ٦و١٢، كنز العُمّال: ١٣/١١٢ الطّبعة الثّانِيَة، و: ١٥/١٤٦، و: ٦/٢٢٣ الطّبعة الأُولىٰ، تَأرِيخ دمشق: ٢/٢٢٩ ح ٣٦٧ و٣٢٧ ح ٨٣١، مَجْمَع الزّوائد: ٩/١١٨ و١٧٩ و١٨٩ الفضائل لأحْمَد بن حنبل: ح ٢٣١، المُسْتَدرَك لِلْحَاكِم: ٣/١٣٩،و: ٤/٤٦٤، تأرِيخ بغداد: ١٢/٣٩٨، و: ٧/٢٧٩، المنَاقب للخوارزمي: ٢٦، يَنابِيع المَوَدَّة: ٥٣ و١٣٥.

سُنَن البَيهَقيّ: ٤/٧٠، سُنَن ٱبن ماجه: ٢/٥١٨، ذَخَائِر العُقبَىٰ: ١١٩ و١٤٧ و١٤٨، دَلاَئِل النُّبوّة ⇔

↔ للبيهقي في تَرجمة الإمَام الحُسَيْن عليه السلام من تَأريخ دمشق: ح ٦٢٢ و٦١٢ ـ ٦١٤ و٦٢٦ ـ ٦٣٠، المُعْجَم الكَبِير للطَّبرَاني حيَاة الإمَام الحُسَيْن عليه السلام: ١٢٢ ح ٤٥ و٤٨ و٩٥، كفَاية الطَّالب: ٢٧٩، أعلاَم النُّبوَّة للمَاوردي: ٨٣ بَاب ١٢، نُظم دُرر السّمطِين: ٢١٥، البداية والنّهاية لِابْن كَثير: ٦/ ٢٣٠، و: ٨/ ١٩٩، الرّوض النّضير: ١/ ٨٩ و٩٢ و٩٣، و: ٣/ ٢٤، مرُوج الذّهب:٢/ ٢٩٨، أسد الغَابَة: ١/ ٢٠٨، معراج الوصول للزرندي، حلية الأَوْلِيَاء: ٣/ ١٣٥، الرّياض النّضرة:٢/ ٥٤ الطَّبعة الأُولَىٰ.

وَٱستُشْهِدَ من المُهَاجِرِينَ يَوم أُحُد مع حَمْزَة أَسد الله وأَسد رَسُوله: عبدالله بن جَحش، ومُصْعَب بن عُمير، وشمَاس بن عُثْمَانَ بن الشّريد، وَٱستُشْهِدَ من الأَنْصَار واحد وستُون رَجُلاً. (أُنظر، المَعَارف لِابْن قُتَيْبَة: ١٦٠).

وروىٰ ٱبن مسعود: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله صلّىٰ عَلىٰ حَمْزَة وبَكىٰ وَقَالَ كمَا أسلفنا سَابقاً: يَا حَمْزَة يَا عَمّي.... يَا حَمْزَة يَا أَسد الله وأَسد رَسُوطه، يَا حَمْزَة يَا فَاعِل الخَيْرَات، يَا حَمْزَة يَا كَاشف الكُربات، يَا حمزه يَا ذابّ عن وَجه رَسُول الله... قَال: وطَال بُكاؤه، قَال: ودَعا بِرَجُل رَجُل حَتَّىٰ صلّىٰ عَلىٰ سَبعين رَجُلاً سَبعِين صَلاة وحَمْزَة مَوْضُوع بَيْنَ يَدِيه. ذَكر ذَلِكَ صَاحب ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٨١.

أمّا الرّوَاية الّتي نَقلها صَاحب اليَنَابِيع عن عبدالله بن مَسعود فقد جَاء فِيها: لمَّا قُتل حَمْزَة وقُتل إِلىٰ جَنبه رَجُل من الأَنْصَار يُقَال له سُهيل، قَال: فَجيء بحمزة وقَد مُثّل بِهِ. فجَاءت صَفِيّة بنت عبدالمُطّلب بثوبين لِكفنه، فقَال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: دُونك المَرْأة فَردّها، فأتَاها الزّبَيْر بن العوّام ـ كما ذكرنا سابقاً ـ فدَفَعت الثّوبين وٱنصرفت. فأقرع رَسُول الله صلى الله عليه وآله بَينَه ـ حَمْزَة ـ وبَيْنَ سُهيل فأصَاب سُهيلاً أكبر الثّوبين ـ إِلىٰ أنْ قَالَ: ـ فدعَا بِرَجُلٍ رَجُل حَتَّىٰ صلّىٰ عَلَيْهِ سَبعِين صَلاة وحَمْزَة عَلىٰ حَالته. فقد أخرجها أحمَد، والبَغوي، وصَاحب الصّفوة، والمحَاملي، وٱبن شاذان.

أمّا مَقتل مُصْعَب بن عُمير: فإنّه لمَّا عَلِم صلى الله عليه وآله أنّ لوَاء ٱلمُشرِكِين مع طَلْحَة من بَني عَبد الدّار أخذَ اللّواء من عَليّ عليه السلام ودَفعه إلىٰ مُصْعَب بن عُمير لأنّه أيضاً من بَني عَبد الدّار وَقَالَ: نَحْنُ أَحقّ بِالوَفاء مِنهم. وَرَد ذَلِكَ فِي الكَامِل فِي التّأريخ: ٢/ ١٥٠. وَقَالَ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٢١٩٩، وٱبن الأثِير أيضاً: ٢/ ١٥٥ وأعيَان الشّيعة: ١/ ٢٥٧: قَاتل مُصْعَب بن عمير دُونَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله ومعهُ لوَاؤه حَتَّىٰ قُتل، وكَان الّذي أصَابه وقَتله ٱبن قَمِيئة اللّيثي وهُو يَظنّ أنّه رَسُول الله صلى الله عليه وآله فَرجع إلىٰ قُرَيْش فَقَالَ: قَتلتُ مُحمّداً، فجَعَل النّاس يَقُولُون قُتل مُحَمّد، قُتل مُحَمّد. فلمّا قُتل مُصْعَب بن عُمير أعطىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله اللّواء عَليّ بن أبِي طَالب. ↔

⇔ وتَفرّق أكثَر أصْحَاب رَسُول الله ﷺ وقَصَده ٱلمُشرِكُون وجَعلوا يَحملُون عَلَيْهِ يُرِيدُون قَتله، وثَبت رَسُول الله ﷺ يَرمي عَن قُوسه حَتَّىٰ تَكسّرت وقَاتل قِتالاً شَدِيداً ورَمىٰ بِالنَّبل حَتَّىٰ فُني نَبله وٱنكسرت سية قُوسه وٱنقطع وتره. (أنظر الكَامِلِ في التَّأريخ لِابْن الأثير: ٢/ ١٥٤).

وهُنا ٱنخلعت القُلُوب وأوغلوا في الهرُوب كمَا قَال تَعالىٰ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَاتَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ آل عِمرَان: ١٥٣ والرَّسُول ﷺ يَدعُوهُم فيقُول: إليَّ عِباد الله، إليَّ عِباد الله، أنَا رَسُول الله مَن كرَ فَلهُ الجَنَّة. ولذَا قَالَ ٱبن جَرير: ٢/ ٢٠٣ وٱبن الأثير في الكَامِل: ٢/ ١١٠: وٱنتهت الهزيمة بجَمَاعَة ٱلمُسْلِمِينَ وفِيهِمْ عُثْمَانَ بن عَفَّان وغَيْره إلىٰ الأعوَص فأقامُوا بِها ثَلاثاً، ثُمّ أتُو النَّبيّ ﷺ فقَال لهُم حِين رَآهُم: لقَد ذَهبتُم فِيها عَرِيضَة. ذكر هَذَا الحَدِيث تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٢٠٣، الكَامِلِ لِابْن الأثير: ٢/ ١١٠، السِّيرَة الحَلبية: ٢/ ٢٢٧، البداية والنّهاية: ٤/ ٢٨، السِّيرة النَّبويَّة لِابْن كثير: ٣/ ٥٥، شَرح النّهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ١٥/ ٢١، الدُّر المَنثُور: ٢/ ٨٩، تَفسِير الفَخر الرّازي: ٩/ ٥٠ للآية المذكورة.

ولَسْنَا بصدد بَيان مَن فرّ ورَجع، ومَاذا قَال وقِيل لهُ، كأنَس بن النَّضر عَمّ أنَس بن مَالك حِين قَال لبعض المُهَاجِرِينَ حِين ألقُوا مَا بِأيْدِيهم: مَا يَحبسكُم قَالُوا: قَتل النَّبيّ، قَال: فمَا تَصنعُون بِالحَيَاة بَعده؟ مُوتوا عَلىٰ مَا مَات عَلَيْهِ النَّبيّ. ثُمّ ٱستقبَل القَوْم فقاتل حَتَّىٰ قُتلﷺ فوجد بِه سَبعُون ضَربة وطَعنه ومَا عَرفته إلّا أُخته مِن حُسن بنَانه: وقِيل: لقَد سَمع أنزس بن النَّضر جَمَاعَة يَقُولُون لمّا سَمعوا أنّ النَّبيّ ﷺ قُتل: لِيت لنَا مَن يَأتِي عبدالله بن أُبي بن سلول ليأخذ لنَا أمَاناً من أبي سُفيَانَ قَبل أنْ يَقتلُونَا، فقَال لهُم أنَس: يَا قَوْم إنْ كَان مُحَمّد قَد قُتل فإنّ رَبّ مُحَمّد لَم يُقتل، فقَاتِلُوا عَلىٰ مَا قَاتل عَلَيْهِ مُحَمّد، ٱللَّهُمّ إنّي أعتذرُ إِلَيْك مِمّا يَقول هَؤُلاَء، وأبرأ إِلَيْك مِمّا جَاء بِهَؤُلاَء، ثمّ قَاتل حَتَّىٰ ٱسْتُشْهِدَﷺ. عِلماً بأنّ ٱبن جَرير الطَّبَرِيّ، وٱبن الأثير الجَزري، وٱبن هشام في السِّيرة الحَلبية وغَيْرهم قَد ذَكروا أسماء ٱلّذين فرّوا يوم أُحُد، ونَحنُ نُحيل القَارئ الكَرِيم عَلىٰ المَصَادر التَالية المُتيسره لدِينا عَلىٰ سَبِيل المِثال لا الحَصر:

الكَامِلِ في التَّأريخ لِابْن الأثير: ٢/ ١٠٨ و١٤٨، السِّيرة الحَلبية: ٢/ ٢٢٧، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٢٠٣، الدُّر المنثُور: ٢/ ٨٠ و٨٨ و٨٩، شَرح النّهج لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ١٥/ ٢٠ و٢٢ و٢٤ و٢٥، و: ١٣/ ٢٩٣، و: ١٤/ ٢٧٦، البداية والنّهاية لِابْن كثير: ٤/ ٢٨ و٢٩، السِّيرة النَّبويَّة لِابْن كثير: ٣/ ٥٥ و٥٨، السِّيرة النَّبويَّة لِابْن هشام: ٤/ ٨٥، دَلائِل الصِّدْق: ٢/ ٣٥٨ و٣٥٩، و: ٣/ ٣٢٦، لُباب الآدَاب: ١٧٩، مَجْمَع ⇔

الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَة : الْهجُوم عَلىٰ الْعَدُوّ ، وتَطوِيقَه ، وأَخذ الْمُبَادرَة قَبل أنْ يَـثِبَ ، ويُبَاغت بِهجُومِهِ وعُدْوَانِهِ ... وأيضاً لا بُدّ لِهَذَا الْهجُوم الرَّادِع من إكمَال العِدَّة العَزْم عَلىٰ الفِدَاء والتَّضحِية ، ومَا بَلَغت الدَّعْوَة هَـذَه القُـوَّة إلاّ بَـعد غَـزْوَة ٱلْأَحْـزَاب وَتَشْتِيتَها حَيثُ هَتَف النَّبيّ ، يَقُول : لاَ إله إلاّ الله وَحدَه ، وصَـدَق وَعـدَه ، وَنَـصَر عَبدَه ، وهَزَم ٱلْأَحْزَاب وَحدَه ، ولاَ شَيء بَعدَه ... الآن نَغْزُوهُم ولاَ يَغزُونَنا[1] ، وفِي هَذَه الْمَرْحَلَة كَان فَتح مَكَّة .

ورَافَق عَليٌّ النَّبيّ ﷺ ، فِي مَرَاحِله كلّها ، وسَبق النَّـاس إِلىٰ الْإِيمَـان بِـدَعوَته ، والتَّمسك بِعروَته ، ودَافع عَنْهُ وَعَنْهَا بِنَفْسه لا يَرجُوا إلّا رِضا الله ، ومَودَّة الرَّسُول ، بل كَان عَليّ يَبث الدَّعْوَة لِمُحَمّد ﷺ قَبل البعثَة ، وَيُحدث الغِلْمَان مِن أترَابه عَن خُلق مُحَمّد وعَظَمَتِهِ . قَال الأُستَاذ عَبد ٱلرَّحْمَان الشَّرقَاوي : «كَان عَليّ ، وهُو فِي الثَّامِنَة يُحَدث الغِلْمَان فِي مِثل سِنهِ آبن عَمّه ، ويَقُول : إنّ مُحَمّداً أَلغىٰ فِي بيْتِهِ كَـلِمَة العَـبِيد والجَوَارِيَ ، وأَحَلَّ مكَانَهُما كَلِمَة فَتَاي ، وفَتَاتِي ، وهُو يَصْبر عَلىٰ الخَدَم ، فَمَا يَـقُول

⟸ الْبَيان : ٥٢٤/٢ ، الْإِرْشَاد للشّيخ الْمُفِيد : ٤٨ ، البحار : ٥٣/٢٠ و٨٤ و٢٤ ، حيَاة مُحَمّد ﷺ لهيكل : ٢٦٥ .

أُنظر ، تَفْسِير الرَّازي : ٥٠/٩ و٦٧ ، كنز الْعُمَّال : ٢٤٢/٢ ، و: ٢٦٨/١٠ و٢٦٩ ، حيَاة الصَّحَابَة : ٢٧٢/١ ، و: ٤٩٧/٣ ، المغازي للوَاقدي : ٦٠٩/٢ و٩٩٠ ، منحة المعبُود في تَهذيب مُسْنَد الطَّيَالِسِي : ٩٩/٢ ، طَبقَات آبن سعد : ١٥٥/٣ ، و: ٤٦/٢ و٤٧ الطّبعة الأُولىٰ ، تَأريخ الخَمِيس : ٤١٣/١ و٤٣١ ط آخر ، مُسْتَدرَك الحَاكِم : ٢٧/٣ ، مَجْمَع الزّوَائد : ١١٢/٦ .

(١) أنظر ، صَحِيح مُسْلِم : ٢٠٨٩/٤ ح ٢٧٢٤ ، صَحِيح البُخَاريّ : ١٥٠٩/٤ ح ٣٨٨٨ ، الفِردَوْس بمأثور الخِطَاب : ٩/٥ ح ٧٢٨٣ ، السُّنن الْكُبْرَىٰ : ٤٣٠/٦ ح ١١٤٠٠ ، تُحْفَة المحتاج : ١٦٠/٢ ، الْمحدث الفَاضل : ٤٨٨/١ ، الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ : ١٢٢/٢ ، الْمُصَنَّف لِابن أبي شيبة : ٣٣٥/٣ ، مُسْنَد أحمد : ٤٠٦/١ ح ٣٨٥٦ و٤٠٠٨ و: ٣٠٧/٢ ح ٨٠٥٣ و٧٤٧١ و: ٤١٠/٣ .

لواحدٍ مِنْهُم «أُفٍ» مَهمَا يُخطىء»[(١)].

وكَان عُتَاة قُرَيْش يَغْرُون الصِّبيَان بِرَسُول الله ﷺ فَيَصحب مَعهُ عَلِيًّاً يُذبهُم عَنْهُ. ومِن جِهَاده فِي الْمَرْحَلَة الأُولىٰ مَبيتَه عَلىٰ فِرَاش رَسُول الله لَيْلَة الْهِجْرَة. وهُنا أَدع الحَديث لِغَيْرِي لمَوَاضع التُّهَم.. فَقَد نَشَرت جَرِيدَة الْأَخْبَار المِصْرية، كَلِمَة بِعنوَان «مُشَاهدَات فِدَائِية فِي تَأَرِيخ الْإِسْلاَم» جَاء فِيهَا:

«إِنّ تَأَرِيخ الْإِسْلاَم حَافل بِضرُوبٍ بَاسِلَة مِن أمثِلَة الفِدَائِية النَّبِيلَة... وأظهَر مِن نَعرف مِن فِدَائِيي العَصر النَّبوّي عَليّ بن أَبِي طَالب، وموَاقفهِ الفِدَائِيَة أَكْثَر مِن أَنْ تُحصر، لعَل أَوّها فِي تَأَرِيخ الدَّعْوَة مَبِيتَه لَيْلَة الْهِجْرَة عَلىٰ فِرَاش ٱبن عَمّه مُتوَقِعَاً مَا سَيُحِيق بِهِ مِن الْمَوْت المُبَاغت إِذْ أحَاط بِهِ الْأَعْدَاء مِن كلّ صُوب، فهَانَت عَلَيْهِ نَفْسَه وَرَاء مَا يَنْشُد مِن تَفدِيَة صَاحِب الدَّعْوَة، ومَكَث ٱللَّيْل الطَّوِيل يَنْتَظر مَا بَيْنَ لحَظَة وأُخرىٰ، وقَد بَرَقت الأَسِنَّة، ولَمَعت السّيُوف... إِنّ مُخَاطَرَات عَليّ الفِدَائِيَة تَغلغَلت فِي أعْمَاقه حَتَّىٰ غَدت إحدىٰ وَسَائِل النَّصر فِي بطُولاَته، وحَسبُك أَنْ تَعْلَم إِنّه فِي طَلِيعَة الْمُتَقدِمِين فِي مِيدَان الْمُبَارزَة الْحَرْبِيَة، وإِنّه بَطل الْإِسْلاَم»[(٢)].

أَمّا الكَاتِب الْإِسْلاَمِي المِصْري الأُستَاذ عَبد الكَرِيم الخَطِيب فَقَد ٱستوحىٰ مِن المَبِيت مَعْنَىً دَقِيقاً مَا سَبَقهُ إِلَيْهِ عَالِم وبَاحِث، قَال:

«هَذَا الَّذي كَان مِن عَليّ فِي لَيْلَة الْهِجْرَة.... لَمْ يَكُن أَمْرَاً عَارِضَاً، بل هُو عَن حِكْمَة لهَا آثَارها ومُعقبَاتها فَلنَا أَنْ نَسأَل: أَكَانَ لاِلْبَاس الرَّسُول ﷺ شَخْصِيَة لِعَليّ أَكْثَر مِن جَامِعَة القَرَابَة القَرِيبَة بَيْنهُما؟. وهَل لنَا أَنْ نَسْتَشف مِن ذَلِكَ ـ أي مِن أَنّ

(١) أُنظر، كِتَابَه «مُحَمّد رَسُول الْحُرِّيَة»: ٦٥. الطَّبعَة الأُولىٰ. (مِنْه ﵀).
(٢) أُنظر، تَأَرِيخ نَشر المَقَال فِي الجَرِيدَة: ٨ ـ ١٢ ـ ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﵀).

الرَّسُول أَلبَس شَخْصِيَتَه لِعَلِيّ أَنّه إذَا غَاب شَخص الرَّسُول كَان عَليّ هُو الشَّخْصِيَة المُهيَأة لأنّ يَخْلفه، ويُمثل شَخْصِيته، ويقُوم مقَامَه ؟..

وأَحْسَب أننَا لَمْ نَتعَسف كَثِيراً حِين نَظرنَا إِلىٰ عَليّ، وهُو فِي بُرد الرَّسُول، وفِي مَثوىٰ مَنَامه الَّذي اعْتَاد أنْ يَنَام فيهِ ـ فقُلنَا: هَذَا خلَف الرَّسُول والقَائِم مقَامَه»[1].

وبِحَقٍّ قَال الأُستَاذ الخَطِيب: إنّ شِيعَة عَليّ لاَ يُقيمُون شَاهِداً مِن هَذِه الْوَاقِعَة يَشهد لِعَليّ أنّه أَوْلَىٰ بِرَسُول الله عَلىٰ حِين نَرَاهُم يَتعَلقُون بكلّ شَيء يَرفَع عَلِيّاً إِلىٰ تِلكَ الْمَنْزِلة أي الْخِلاَفَة.

ولِي أنْ أُجيب عَن الشِّيعَةِ: بأنّهُم لاَ يَسْتَدلُون بِشيء عَلىٰ خِلاَفة إمَامهم إلّا بِأَقْوَال السُّنّة، وعَلىٰ هَذَا جَرت عَادَتهم مُنذُ القَدِيم تَجَنُباً لمَوَاطن التُّهم... ومَا رَأوا أَحَداً قَبل الأُستاذ الخَطِيب اسْتَدل بِهَذه الْوَاقِعَة عَلىٰ أَوّلِيَة عَلِيّ بِالخِلاَفَةِ، ولمّا أَنْطَقه الله بِهِ أَخَذُوهُ عَنْه، كمَا فَعلت أنَا. ثُمّ قَال الخَطِيب الكَرِيم:

«إنّ عَلِيّاً خَدَع قُرَيْشاً بِمبِيته عَلىٰ فِرَاش رَسُول الله، ومَكَر بِهَا عَن مُحمّدٍ حَتّىٰ أُفلِت مِن بَيْنَ أَيدِيها، وسَلِمَ مِن الْقَتْل، وقَد صَفعهَا عَليّ بِفعلَتِه هَذِه صَفعَة مُذلّة مُهينَة، فأَضْمَرت قُرَيْش لِعَليّ السُّوء، وأرْهَقَته وتَجَنَت عَلَيْهِ بَعد أنْ دَخَلْت الإِسْلاَم... إنّ هَذَا الَّذي كَان مِن عَليّ لَيْلَة الْهِجْرَة فِي تَحدِيه لقُرَيْش، هَذَا التَّحَدِي السَّافر، وفِي اسْتخْفَافه بِهَا، إنّ ذَلِكَ لاَ تَنسَاه قُرَيْش لِعَليّ أَبَداً، ولَوْلاَ أنّهَا وَجَدَت فِي قَتل عليّ يَوْمَئِذٍ إثَارة فِتْنَةٌ تُمزق وحدَتها لِشَفَت مَا بِصدرِها مِنْهُ، ولَكنّها تَركَته، وانْتَظرت الأَيَّام لتُسوي حِسَابها مَعَه... ولَحِقَ النَّبِيّ بِالرَّفِيق الأَعلىٰ،

(١) أنظر، كِتَابَه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبُوَة، وخَاتَم الْخِلاَفَة: ١٠٥، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﷺ).

وتَرك عَلِيّاً وَرَاءه بِالأَحْدَاث، ويُكَابد الشَّدَائِد حَتَّىٰ يَلحَق بِالرَّسُول... ألاّ يَبدُو لنَا مِن هَذِه المُوَافقَات مَا نَسْتَشف مِنْهُ أنّ لِعَليّ شَأناً فِي رِسَالَة الرَّسُول، ودُوراً فِي دَعْوَة الإِسْلاَم لَيْسَ لأحَد غَيْره مِن صحَابَة الرَّسُول».

وبَعْد، فإنّ الأُستَاذ عَبد الكَرِيم الخَطِيب لاَ يَمتُّ إِلىٰ الشِّيعَة بِأُمٍّ ولاَ أَبٍ، ولاَ بِتَربِيَة وبِيئَة، وإنّمَا نَطَق بوَحيٍ مِن ضَمِيرِه ودرَاسَته مُجرداً عَن كلِّ غَايَة، فَٱلتَقَىٰ مَع شِيعَة عَليّ مِن حَيْث لا يُرِيد... ثُمّ تَنبّه للعُوَاقِب، وخَاف مِن تُهمَة التَّشيع، وثُورَة المُتَعَصِّبِين مِن الشُّيُوخ، فَٱتقَاهُم بقَوْله: «وَبَعد فهَذِه خَطرَات لاَ نَحسبها عَلَىٰ تِلكَ القَضِيَّة، ولاَ نَأخذ بِها فِيهَا». ولكن أُسلُوبك فِي التَّعبِير ـ أيُّها الأُستَاذ الكَرِيم ـ يَنُم عَن شعُور قَلْبك وإِيمَانه، لاَ عَن خَطرَات خَيَالك ووسَاوسه، إنّ هَـذِه الخَـطرَات والوَسَاوس تَتَجلىٰ فِي ٱعتذَارك بِقُولك «لا نَأخذ بِها فِيها» إنّ هَذَا الأُسلوب إنْ دَلَّ عَلىٰ شَيء فإِنَّه يَدلُّ عَلىٰ الشَّك والحَيرَة والاِرْتبَاك. وعَلىٰ أيّة حَال فأنْتَ مَعذُور لقَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

قَدمنَا أنّ الدَّعْوَة الإِسْلاَمِية مَرّت بِثلاَث مَرَاحل أسَاسِية: الأُولىٰ مُجرَد الإِيمَان والإِعْلاَن مَع الثَّبَات والصَّبر عَلىٰ الأَذَىٰ. والثَّانِيَة رَدع العُدْوَان. والثَّالِثة الهجُوم الرَّادع، وأشرنَا إِلىٰ جِهاد الإِمَام فِي المَرْحَلَة الأُولَىٰ. ومن جِهادِهِ فِي المَرْحَلة الثَّانِيَة بَلاؤه يَوْم بَدْر، وبَعد أنْ تَحدث عَبد الكَرِيم الخَطِيب عَن هَذَا اليَوْم، قَال: «فَأنْتَ تَرىٰ كَيْفَ كَان ٱبن أَبِي طَالب سَيْفاً بَتّاراً يَضرب أَئِمَة الكُفر مِن قُرَيْش»(٢).

(١) آلِ عِمْرَان: ٢٨.

(٢) أنظر، كِتَابه «عَليّ بن أبِي طَالب بَقِيَة النُّبوَّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ١٠٨، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنهُ).

وَقَالَ عَن يَوْم أُحُد: «كَان لِعَليّ يَوْم أُحُد مَا كَان لهُ يَوْم بَدْر من الإطَاحة برُؤُوس أئِمَة الكُفر مِن قُرَيْش... ومِن قَتلىٰ عَليّ فِي هَذَا اليَوْم طَلْحَة ابن أبِي طَلْحَة صَاحب رَايَة المُشْرِكِين فِي تِلكَ الوَاقِعَة، فغَيْر مَنْكُورٍ إذَنْ تِلكَ اليَد الضَّارِبَة، وَهَذَا السَّيْف لِعَليّ فِي مَعركَة الإسْلاَم، وأيضاً غَيْر مَنْكُورٍ التُّرَاثُ الّتي كَانَتْ لِلمُشْرِكِينَ عِند عَليّ، والّتي لَمْ يَخلُ مِنْهَا بَيْت مِن بُيُوْت قُرَيْش»[1].

وَقَالَ عَن وَقْعَة الأحْزَاب[2]: «قَال النَّبِيّ ﷺ، حِينَ بَرَزَ عَليّ لِابْن وَدّ يَوْم

(١) أنظر، كِتَابه «عَليّ بن أبِي طَالب بَقِيَة النُّبوّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ١٢٥، ومَا بعدها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنهُ ﵀).

(٢) غَزْوَة الخَندَق وَقعت فِي شوّال سَنَة خَمسة مِن الهِجرَة، وتُسمىٰ بِغَزْوَة الأحْزَاب، وتَأتِي بعد غَزْوَة بَني النَّضِير كمَا جَاء فِي السِّيرَة الحَلبِيَة بهَامش السِّيرَة النَّبويَّة: ٢/٣٠٩، أمَا ابن قُتَيْبَة فِي مَعارفه: ١٦١ أنَّها وَقعت سَنَة أربع ويُوم بَنِي المُصْطَلق، وبَنِي لِحيان سَنَة خَمس. ولَسْنَا بِصَدد بيَان سَببها تَفصِيلاً بل نُشير إلىٰ ذَلِكَ إشَارة وَهِي:

لمّا أجلىٰ رَسُول الله ﷺ بَني النَّضِير مِن المَدِينَة بِسَبب نَقْضهُم العَهد، سَارُوا إلىٰ خَيبر. وخَرَج جَمَاعَة مِنهُم عَبدالله بن سَلاّم بن أبِي الحُقَيق النَّضْري، وحُيَيّ بن أخطَب، وكِنَانة بن أبِي الحُقَيق (الرَّبِيع)، وهَوْذَة بن قَيْس الوَالبِي، وأبو عُمَارَة الوَالبِي إلىٰ مَكّة قَاصدِين أبا سُفيَان لِعِلمهم بِشدة عَدَاوَته لِلنَّبيّ ﷺ وتشوّقه إلىٰ إرَاقة الدِّمَاء والقِتَال لمَا نَاله هُو وزوّجته هِند ـ أُمّ مُعَاوِيَة ـ مِنْهُ ﷺ يُوم بَدْر، وسَألوه المعُونَة عَلىٰ قِتَاله ﷺ وَقَالَ لهُم: أنَا لكُم حَيْث تُحِبّون فَاخرجُوا إلىٰ قُرَيْش وادْعُوهُم إلىٰ حَرْبه وَاضمَنُوا لهُم النُّصرَة حَتّىٰ تَستأصِلُوه، فطَافُوا عَلىٰ وجُوه قُرَيْش، ودَعَوهم إلىٰ حَرْبه ﷺ فقَالت قُرَيْش: أيْدِينَا مَع أيدِيكُم ونَحْنُ مَعَكُمْ... فتَجَهزَت قُرَيْش بِقيَادة أبِي سُفيَان وتبعتها بَعْض القبَائل، واليَهُود وخَرَجت غَطفَان وقَائدها عُيَيْنَةُ بن حُصين فِي بَني فزَارة، والحَارث بن عُوف فِي بَنِي مُرّة، وبرّة بن طَرِيف فِي بَنِي أشجَع.

فلمّا سَمع رَسُول الله ﷺ باجْتِمَاع الأحْزَاب استشَار أصْحَابه وأجمَع رَأيهم عَلىٰ البقاء فِي المَدِينَة وحَرْب القَوْم إنْ جَاؤوا إلَيهِمْ. وهُنا أشَار سَلمَان ﵁ بحفر الخَنْدَق، فأمَر رَسُول الله ﷺ بحَفره وعَمل فيهِ بِنَفسه، وعَمل فيهِ المُسْلِمُون لمُدة أكثَر مِن سِتَة أيَّام وقطعه رَسُول الله ﷺ أربَعِين ذِرَاعاً بَيْنَ كلّ عَشرة، ولذَا ↔

وتَرَك عَلِيّاً وَرَاءه بِالأَحْدَاث، ويُكَابد الشَّدَائِد حَتَّىٰ يَلحَق بِالرَّسُول... أَلاَّ يَبدُو لنَا مِن هَذِه الموَافقَات مَا نَسْتَشف مِنْهُ أَنّ لِعَليّ شَأنَاً فِي رِسَالَة الرَّسُول، ودُوراً فِي دَعْوَة الإِسْلاَم لَيْسَ لأَحَد غَيْره مِن صحَابَة الرَّسُول».

وبَعْد، فإِنّ الأُستَاذ عَبد الكَرِيم الخَطِيب لاَ يَمُتُّ إِلىٰ الشِّيعَة بِأُمٍّ ولاَ أَبٍ، ولاَ بِتَربِيَة وبِيئَة، وإِنّمَا نَطَق بوَحيٍ مِن ضَمِيرَه ودرَاسَته مُجرداً عَن كلِّ غَايَة، فٱلتَقَىٰ مَع شِيعَة عَليّ مِن حَيْث لا يُرِيد... ثُمّ تَنَبَّه للعُوَاقِب، وخَاف مِن تُهمَة التَّشيع، وثُورَة المُتَعَصِّبِين مِن الشُّيُوخ، فٱتقَاهُم بقَوْله: «وَبَعد فهَذِه خَطرَات لاَ نَحسبها عَلىٰ تِلكَ القَضِيَّة، ولاَ نَأخذ بِها فِيهَا». ولكن أُسلُوبك فِي التَّعبِير - أَيُّها الأُستَاذ الكَرِيم - يَنُم عَن شعُور قَلْبك وإِيمَانه، لاَ عَن خَطرَات خَيَالك ووسَاوسه، إِنّ هَذِه الخَطرَات والوَسَاوس تَتَجلىٰ فِي ٱعتذَارك بِقُولك «لا نَأخذ بِها فِيها» إِنّ هَذَا الأُسلوب إِنْ دَلَّ عَلىٰ شَيء فإِنَّه يَدلُّ عَلىٰ الشَّك والحَيرَة والارْتبَاك. وعَلىٰ أيّة حَال فأَنْتَ مَعذُور لقَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

قَدمنَا أَنّ الدَّعْوَة الإِسْلاَمِية مَرّت بِثلاَث مَرَاحل أَسَاسِية: الأُولىٰ مُجرَد الإِيمَان والإِعْلاَن مَع الثَّبَات والصَّبر عَلىٰ الأَذَىٰ. والثَّانِيَة رَدع الْعُدْوَان. والثَّالِثة الهجُوم الرَّادع، وأَشرنَا إِلىٰ جِهاد الإِمَام فِي المَرْحَلَة الأُولىٰ. ومن جِهادِهِ فِي المَرْحَلة الثَّانِيَة بَلاؤه يَوْم بَدْر، وبَعد أَنْ تَحدث عَبد الكَرِيم الخَطِيب عَن هَذَا اليَوْم، قَال: «فأَنْتَ تَرىٰ كَيْفَ كَان ٱبن أَبِي طَالب سَيْفَاً بَتّاراً يَضرب أَئِمَة الكُفر مِن قُرَيْش»[2].

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٢٨.

(٢) أُنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبوّة، وخَاتَم الْخِلاَفَة: ١٠٨، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﷺ).

وَقَالَ عَن يَوْم أُحُد: «كَان لِعَليّ يَوْم أُحُد مَا كَان لهُ يَوْم بَدْر من الإَطَاحة برُؤُوس أَئِمَة الكُفر مِن قُرَيْش... ومِن قَتلىٰ عَليّ فِي هَذَا اليَوْم طَلْحَة ٱبن أَبِي طَلْحَة صَاحب رَايَة ٱلْمُشْرِكِين فِي تِلكَ الْوَاقِعَة، فغَيْر مَنْكُورٍ إذَنْ تِلكَ اليَد الضَّارِبَة، وَهَذَا السَّيْف لِعَليّ فِي مَعرَكَة الإِسْلاَم، وأيضاً غَيْر مَنْكُورٍ التُّرَاثُ الّتي كَانَتْ لِلمُشْرِكِينَ عِند عَليّ، والّتي لَمْ يَخلُ مِنْهَا بَيْت مِن بُيُوْت قُرَيْش»[1].

وَقَالَ عَن وَقْعَة ٱلْأَحْزَاب[2]: «قَال النَّبِيّ ﷺ، حِينَ بَرَزَ عَليّ لِابْن وَدّ يَوْم

(١) أنظر، كِتَابَه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبُوَّة، وخَاتَم ٱلخِلاَفَة: ١٢٥، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﵀).

(٢) غَزْوَة الخَندَق وَقَعت فِي شوَال سَنَة خَمسة مِن الْهِجْرَة، ونُسمىٰ بِغَزْوَة ٱلأَحْزَاب، وتَأْتِي بَعد غَزْوَة بَنِي النَّضِير كمَا جَاء فِي السِّيرَة الحَلبِيَة بهَامش السِّيرَة النَّبويَّة: ٢/ ٣٠٩، أمَا ٱبن قُتَيبَة فِي مَعَارفه: ١٦١ أنّها وَقَعت سَنَة أَرْبع ويُوم بَنِي المُصْطَلق، وبَنِي لِحيان سَنَة خمس. ولَسْنَا بِصَدد بيَان سَببها تَفصِيلاً بل نُشير إلىٰ ذَلِكَ إشَارة وَهِي:

لمّا أجْلىٰ رَسُول الله ﷺ بَني النَّضِير مِن الْمَدِينَة بِسَبب نَقْضهُم العَهد، سَارُوا إِلىٰ خَيبر. وخَرَج جَمَاعَة مِنهُم عَبدالله بن سَلّام بن أَبِي الحُقَيق النَّضْري، وحُيَيّ بن أخْطَب، وكِنَانَة بن أبِي الحُقَيق (الرَّبِيع)، وهَوْذَة بن قَيْس الوَالبي، وأبو عُمَارَة الوَالبي إلىٰ مَكَّة قَاصدِين أبَا سُفيَان لِعلمهم بِشدة عَدَاوَته لِلنَّبِيّ ﷺ وتشوّقه إلىٰ إرَاقة الدِّمَاء، والقِتَال لمَا نَاله هُو وزوّجته هِند ـ أُمّ مُعَاوِيَة ـ مِنْهُ ﷺ يُوم بَدر، وسَألوه المَعُونه علىٰ قتَاله ﷺ وَقَالَ لهُم: أنَا لكُم حَيْث تُحبّون فَٱخرجُوا إلىٰ قُرَيْش وأدْعُوهُم إلىٰ حَرْبه وأضمَنُوا لهُم النُّصرَة حَتَّىٰ تَستَأصلُوه، فطَافُوا علىٰ وجُوه قُرَيْش، ودَعَوهم إلىٰ حَرْبه ﷺ فقَالت قُرَيْش: أيْدِينَا مَع أيدِيكُم ونَحْنُ مَعَكُمْ... فتَجَهزّت قُرَيْش بِقيَادة أَبِي سُفيَان وتَبعتها بَعْض القبَائل، واليَهُود وخَرجت غَطفَان وقَائدها عُيَيْنَةُ بن حُصين فِي بَنِي فزَارة، والحَارث بن عُوف فِي بَنِي مُرّة، وبرّة بن طَرِيف فِي بَنِي أشْجَع.

فلمّا سَمع رَسُول الله ﷺ بِاجْتِمَاع ٱلأَحْزَاب آستشَار أَصْحَابه وأجمَع رَأيهم عَلىٰ البَقَاء فِي الْمَدِينَة وحَرْب القَوْم إنْ جَاؤوا إلَيْهِمْ. وهُنا أشَار سَلْمَان ﵁ بِحفر الخَنْدَق، فأمَر رَسُول الله ﷺ بِحَفره، وعَمل فيهِ بِنَفْسه، وعَمل فيهِ المُسْلِمُون لمُدة أَكْثَر مِن سِتة أيَّام وقَطعه رَسُول الله ﷺ أرْبَعِين ذِرَاعاً بَيْنَ كلّ عَشرة، ولذَا

الْخَنْدَق: «الآن بَرَزَ الإِسْلَام كُلّه لِلشِّرك كلّه»(١)... وَقَالَ حُذَيْفَة بن اليَمان: «لو

⇐ آختلف المُهَاجِرُون والأَنْصَار فِي سَلْمَان كلّ يَقول هُو مِنّا، فَقطع الرَّسُول ﷺ نزاع الْقَوْم وَقَالَ قَوله المشهُور: سَلْمَان منّا، سَلْمَان مِن أَهْل الْبَيْت.

وفرغ رَسُول الله ﷺ من حفر الْخَنْدَق قَبل قُدُوم قُرَيْش بِثلاثة أَيّام.

وحَاصرت قُرَيْش الْمَدِينَة بِضعاً وعشرين لَيْلَة ولَمْ يَكُن بَيْنهُم حَرْب إِلّا الرَّمي بالنَّبْل، ولمّا رَأىٰ ﷺ الوَهن والضَّعف فِي قُلوب أَكْثَر الْمُسْلِمِين بَعث إِلىٰ عُيَيْنة، والحَارث يَدعُوهُما إِلىٰ الصُّلح، والرُّجُوع عَن حَرْبه عَلىٰ أَنْ يُعطِيهم ثُلث ثِمار الْمَدِينَة، وآستشار فِي ذٰلِكَ أَصْحَابه مِنهُم سَعد بن معاذ، وسَعدبن عَبادة وغَيْرهما. ولَسْنَا بِصَدد بيَان قَوْل كلّ مِنْهُما. بل نَقلنا ذٰلِكَ بتصرّف من المصَادر التَّالِية:

تَارِيخ دمشق لِابْن عساكر الشَّافعي: ١ / ١٥٠، السِّيرَة الحَلبِية بهَامش السِّيرَة النَّبويَّة: ٢ / ٣٠٩، كشف الغُمّة: ١ / ٢٦٧، أعيَان الشِّيعَة: ١ / ٢٩٢ و٣٩٤، تَأرِيخ الطَّبَري: ٢ / ٢٦٥، و: ٣ / ٢٣٤، و: ٥ / ٢٩ ـ ٣٣، الكَامِل لِابْن الأثِير: ٣ / ١٧٨، دائرة المعَارف الإِسْلَامِية الشِّيعِية: ١ / ٢٦٢ «مَعركة الْخَنْدَق»، السِّيرَة لِابْن هُشام: ٣ / ١٨٤ و١٩٢ و٢٢٥ و٣٢٠ ـ ٣٢٢، مغازي الوَاقدي: ٢ / ٤٤١ و٤٧٧، الإِرْشَاد للشّيخ المفِيد: ١ / ٩٤، كَشف اليَقِين فِي فَضَائِل أَمِير الْمُؤْمِنِين ؏: ١٣١، تَأرِيخ اليَعقوبِي: ٢ / ٥٠ ـ ٥١، إِمْتَاع الأَسْمَاع لِلمَقْرِيزي: ٢٣٥ و٢٣٦، تَفْسِير البَغوي الْمُسمىٰ بمَعَالِم التَّنزِيل: ٣ / ٥٢٣، وأنظر، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ لِابْن سَعد: ٢ / ١٧ و١٨.

(١) فَقَد روىٰ الْمُؤرّخُون فِي مُبَارزَة عَلِيّ ؏ يُوم الْخَنْدَق، وأنّها أفضَل مِن أعْمَال الأُمّة إِلىٰ يُوم القِيامة بأَلفَاظ مُختلفة تُؤدّي إِلىٰ نَفس الْمَعْنىٰ. فَقَد روىٰ صَاحب الْمُسْتَدرَك عَن سِفيَان الثُّوري أنّه ﷺ قَال ذٰلِكَ لِعَلِيّ ؏ يُوم الْخَنْدَق. ورواه الْخَطِيب البَغدَادي فِي تَأرِيخه: ١٣ / ١٩ عن إِسْحَاق بن بِشر القُرَشيّ. وذكره الفَخر الرَّازي فِي تَفْسِيره الْكَبِير: ٣٢ / ٣١، وفِي ذِيل تَفْسِير سُورَة الْقَدر وَرَد بلفظ: لمُبَارزَة عَلِيّ ؏ مَع عَمْرُو بن عَبدودّ أفضَل من عَمل أُمّتي إِلىٰ يُوم الْقِيَامة. وذَكر آبن أبي الْحَدِيد فِي شَرح النَّهج أيضاً: ١٩ / ٦١ أنَه ﷺ قَال حِين بَرَز عَلِيّ ؏ لعَمْرُو بن عَبدودّ: بَرَز الإِيْمَان كلّه إِلىٰ الشِّرك كلّه. وَقَالَ الايجي فِي شَرح المَواقف: ٦١٧ قَوله ﷺ: لضَربَة عَلِيّ يُوم الْخَنْدَق أفضَل من عِبَادة الثَّقَلين. وفِي السِّيرة الحَلَبية بهَامش السِّيرَة النَّبويَّة: ٢ / ٣٢٠ قَال ﷺ: قَتلُ عَلِيّ لعَمْرُو بن عبدودّ أفضَل من عِبَادة الثَّقَلين.

وَقَالَ الفَخر الرَّازي فِي نِهَاية الْعُقُول فِي دِرَاية الأصُول: ١١٤ أنّه ﷺ قَال: لضَربَة عَلِيّ يُوم الْخَنْدَق أفضَل مِن عبَادة الثَّقَلِين. وذَكر مثله بِحار الأَنْوَار: ٢٠ / ٢١٦ و٢٥٨. ومثله تَارِيخ دمشق تَرجمة الإِمَام ⇒

↔ عَليّ ﷺ: ١/ ١٥٥، وفرَائد السِّمطِين: ١/ ٢٥٥ ح ١٩٧، وهَامش تَأريخ دمشق: ١٥٥، وشواهد التَّنزِيل: ٢/ ١٤ ح ٦٣٦، والمنَاقب للخوَارزمي: ١٦٩ ح ٢٠٢ و٥٨ الفصل ٩، وأبن شهرآشوب في مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٣٢٦ طَبْعَة الغري، وكشف الغُمّة للإربلي: ١/ ٢٥٥، وفي السِّيرة أيضاً: ١/ ٣٤٩، وفي كِتَاب المـوَاقف: ٣/ ٢٧٦، وهدَاية المُـرتاب: ١٤٨، وكـنز الـعُمَّال: ٦/ ١٥٨ الطبعة الأُولىٰ، والغـدير: ٧/ ٢٠٦ طَبْعَة بيروت، وشرح المُختَار قَالَ أبن أبي ٱلحَدِيد في (٢٣٠) في بَاب قصار كَلاَم أَمِير المُؤمِنِينَ من نَهج ٱلبَلاغَة: ٥/ ٥١٣ بإضافة:... تعدل أعمَال المُهَاجِرين والأَنْصَار وطَاعاتهم كلّها، وفي الدُّر المـنثُور: ٥/ ١٩٢، والبحار: ٣٩/ ١.

وهَا هو ﷺ يقول:... نَشدتكُم الله، أفِيكُم أحدٌ يُوم عَبر عَمْرُو بن عَبدودَ الخَنْدَق وكَاع عَنهُ جَمِيع النّاس فقتَلَه غَيْرِي؟ قَالُوا: ٱللَّهُمَّ لا. (أنظر تَأريخ بغداد: ١٣/ ١٩، مقتل الحُسَيْن للخوارزمي: ٤٥، تَلخيص المُسْتَدرَك: ٣/ ٣٢). ويُوم الخَنْدَق لمّا سَكت كلّ منهُم ولَم يُجب طَلب عَمْرُو بن عَبدودّ العَامري. وكَادت تكُون هَزِيمَة نَكراء لَوْ لَم يَنهض بِها عَليّ بن أبي طالب، وبهَذا قَال ﷺ: بَرَز الإيمَان كلّه إلىٰ الشِّرك كلّه.

وبهَذا وذَاكَ تَذهب أدرَاج الرِّيَاح إيرَادَات، وإشكالاَت، وتَبريرَات أبن تَيمِية حِين قَال كَما ورَد في السِّيرة الحَلبِية ومَعَهَا هامش السِّيرَة النَّبويَّة: ٢/ ٣٢٠: إنّها أي ضَربة عَليّ يُوم الخَنْدَق أفضَل مِن عِبَادة الثَّقلِين ـ من الأَحَاديث المَوْضُوعَة الّتي لَم تَرد فِي شيء من الكُتب التي يُعتمد عَليها ولا بِسند ضَعيف، وكَيف يَكُون قَتل كَافر أفضَل من عِبَادة الثَّقلِين الإِنْس والجِنّ ومِنهُم الأَنبِياء؟! ثُمّ قَال: بل إنّ عَمْرُو بن عَبدودّ هَذَا لَم يُعرف لهُ ذِكر إلّا في هَذِه الغَزْوَة.

والجَوَاب نَحْنُ لَسْنَا بصدد هَذَا الكلاَم ومُناقشته بل نُورد مَا قَاله العلّامة بُرهان الدِّين الحَلبي الشَّافعي فِي نَفْس كتَابه السِّيرة الحَلبِية وفِي نَفْس الجُزء والصَّفحة: إنّ عَمْرُو بن عَبدودّ هَذَا لَم يُعرف لهُ ذِكر إلّا فِي هَذِه الغَزْوَة، قول لَيْس لهُ أَصل، وكَان عَمْرُو بن عَبدودّ قَد قَاتل يُوم بَدْر حَتَّىٰ أثبَتته الجرَاحة فَلم يَشهد يُوم أُحُد، فلمّا كَان يُوم الخَنْدَق خَرج معلّماً... وأنّه نَذر لا يمسّ رَأْسه دهناً حَتَّىٰ يَقتل مُحَمّد ﷺ... وقوله «كَيف يَكُون قَتلُ كَافرٍ أفضَل من عِبَادة الثَّقلِين» فِيه نَظر لأنّ قَتل هَذَا كَان فِيه نُصرة لِلدِّين وخُـذلان الكَافِرين... وَقَالَ الشّيخ المُظفر فِي دلاَئل الصِّدْق: ٢/ ٤٠٢: لمُبَارزة عَليّ لعَمْرُو أفضَل من... فكَان هو السَّبب فِي بقَاء الإيمَان وأستمرَاره وهو السَّبب فِي تَمكِين المُؤمِنِينَ مِن عِبَادتهم إلىٰ يُوم الدِّين، لكن هَـذَا بِبَركة النَّبيّ الحَمِيد ودَعوته وجِهاده في الدِّين.... وأُنظر أيضاً المِعيار والمُوَازنة: ٩١، حيَاة ٱلحَيَوَان ٱلكُبْرَىٰ ↔

قُسمت فَضِيلَة عَليّ بِقتل عَمْرُو يَوْم الْخَنْدَق بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعَهُم لوَسَعَتْهُم »[١].
وَقَالَ ٱبن عبّاس فِي قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[٢] بِعَليّ. والْحَقّ أَنّ مكَان عَليّ فِي معَارِك الْإِسْلاَم أكبَر من أَنْ تَخفىٰ وَرَاء التَّعصُّب فِي موَاقِف الْخُصُومَة والمُلاَحَاة، ولَو أنّ بطُولَة عَليّ كَانَتْ موضع شَكّ لمَا سَار الحَدِيث عَنْهَا مَسِير المَثل، فكَان مِمَّا قِيل: «لاَ فَتىٰ إلاّ عَلي، ولاَ سَيْف إلاّ ذُو الفقار»[٣]. إِنّ عَلِيّاً أَكْثَر ٱلْمُسْلِمِينَ

⇔ للدّميري: ١/٢٣٨ طَبْعَة مِصْر عام ١٣٠٦ هـ، المطبعة المشرفية، عليّ بن أبي طالب بَقِية النُّبوَّة: ١٤٥ طبع مِصْر عام ١٣٨٦ هـ، مطبعة السُّنَّة المُحَمّدِية، الإمَام عَليّ أسد الله وَرَسُوله: ٢٨، الإمَام عَلي رجل الإِسْلاَم المُخلد لِعَبد المَجيد لُطفي: ٧٥. خَاتم النَّبِيين لمُحَمّد أبو زُهره: ٢/٩٣٨.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٣/٢٨٤، شَرح إحقَاق الْحَق: ٢٠/٦٢٦.

(٢) ٱلْأَحْزَاب: ٢٥.

أنظر، الْإِرْشَاد للشّيخ المفيد: ٦١، تَفْسِير القُرطُبي: ١/ ٨٤، منَاقب آل أَبِي طَالب: ٢/ ٣٢٤، تَفْسِير الدُّر المَنثور للسّيُوطي: ٥/١٩٢. وكَان ٱبن مَسعود يَقرأ: وَكَفَى ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلقِتَالَ بِعَلِيّ، وكَان الله قوياً عزيزاً. وفِي مِيزان الْإِعْتِدَال: ٢/١٧ مثله. وفي شواهد التّنزيل: ٢/٧ ح ٦٢٩ ـ ٦٣٢ عن ٱبن عبّاس عن سِفيان الثّوري عن زبيد عن مُرّة عن عبدالله بن مسعود أنّه كَانَ يَقرأ: وَكَفَى ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ بِعَليّ بن أَبِي طالب. ورواه الإصفهَانِي فِي كتَابه «مَا نَزَل من الْقُرْآن فِي عَليّ» كمَا فِي ح ٤٥ من كتَاب ٱلنُّور المشعل: ١٧١ الطّبعة الْأُولىٰ. ورواه البَحراني فِي غَاية المَرَام: ٤٢٠ بَاب ١٦٩. ورواه ٱبن عساكر فِي تَأرِيخ دمشق: ٢/٤٢٠ الطّبعة الثّانِيَة ح ٩٢٧، ورواهالحَافظ الكَنجي فِي كفَاية الطّالب: ٢٣٤ بَاب ٦٢، والطّبرسي فِي مَجْمَع الْبَيَان: ٨/٣٤٣، وكشف الغُمّة: ٢/٣١٧.

وأُنظر أيضاً تَهذِيب التّهذِيب: ٦/ ٣٤، كشف الْيَقين: ١٣٤، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٣/ ٢٨٤ عن ٱبن عبّاس، إرشاد الْقُلُوب: ٢٤٥، تأويل الآيَات: ٢/ ٤٥٠ ح ١١، بِحَار الْأَنْوَار: ٢٠/٢٥٨، تفْسِير القُمي: ٢/١٨٣، خصَائص الوَحي: ٢١٩، تَفْسِير الميزان: ١٦/٣١٤، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣/١٣٤، الدّلائل للشّيخ المُظفر: ٢/ ١٧٤ طَبعة بَصيرتي/قُم، ينَابِيع المَوَدَّة: ٩٤ ط بَصِيرتِي/قُم، نُور الْأَبْصَار: ٩٧.

(٣) الرّوَايَة المَشهُورَة هِي أَنّ جِبرَائِيل عليه السلام هُو الّذي كَان يُنادِي: لا سَيْف إلّا ذُو الفقَار ولاَ فَتىٰ إلّا عَليّ.

⇔

شِدَّة عَلىٰ مُشْرِكِي قُرَيْش، وإفْجَاعَاً لَهُم فِي الأَبْنَاء، والآبَاء، والأَعْمَام، والأَخْوَال،

وقِيل: إنّ رَضوَانﷺ هُو المُنَادِي، وهُما مَلكَان كَرِيمَان كما وَرد في كنز العُمّال: ٣ / ١٥٤ بَعد أنْ سَاق حَدِيث الإِمَام عَليّ ﷺ يُوم بَيْعَة عُثْمَان فقال ﷺ: أُنَاشدكُم الله أنّ جِبرَائِيل نَزَل عَلىٰ رَسُول الله ﷺ فقال: يَا مُحَمّد: لاَ سَيْف إلّا ذو الفقَار ولاَ فَتىٰ إلّا عَليّ، فهَل تعْلمُون هَذَا كَان لِغَيْري؟ وورد في ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٧٤ أيضاً عن الإِمَام أبِي جَعفر محمّد بن عَليّ ﷺ قَال: نَادىٰ مَلك مِن السَّمَاء يُوم بَدْر يُقَال لهُ رضوَان، أنْ: لا سَيْف إلّا ذو الفقَار ولا فَتىٰ إلّا عَليّ. ووَرد في الرِّيَاض النَّضرة: ٢ / ١٩٠، والمنَاقب لِابْن المغَازلِي: ١٩٧ـ١٩٩ ح ٢٣٤ و٢٣٥.

وأنظر أيضاً كَشف اليَقِين في فَضَائِل أَمِير المُؤْمِنِينَ: ١٢٨، شَرح النَّهج لِابْن أَبِي الحَدِيد: ٢٨/١، و:٢١٩/٧، و: ١٨٢/١٠، و:٢٥١/١٤، تَأريخ الطَّبَرِي: ١٩٧/٢ و ٥١٤، فَرَائد السِّمطِين: ٢٥٦/١ـ٢٥٨ ح١٩٨ و١٩٩، تَأريخ دمشق: ١٤٨/١ ح ٢١٥ و١٦٧، المناقب للخوارزمي: ١٦٧ و٢١٣ طَبْعَة الحيدرية ح ٢٠٠، كفَاية الطّالب: ٢٧٧، اَبن هُشَام في السِّيرة: ٣ / ٥٢ و ١٠٦، سُنن البَيْهَقِيّ: ٢٧٦/٣، المُسْتَدرَك: ٣٨٥/٢، الرِّيَاض النَّضرة: ١٥٥/٣، مِيزان الإعْتِدَال: ٢ / ٣١٢ و٣١٧، و:٣ / ٣٢٤ طَبْعَة بيروت، الكَامِل في التَّأريخ: ٢ / ١٠٧، تذكرة الخَواصّ لسبط بن الجُوزي: ٢٦، الكَافِي: ٨ / ٩٥ ح ٩٠، البحار: ٢٠ / ٧٨، العُمدة لِابْن البطرِيق: ٣٨١، المغازي للوَاقدي، مَجْمَع الزّوائد: ٦ / ١١٤ و١٢٥، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ١٩٧/٢ طَبْعَة آخر، رَبيع الأبرار: ١ / ٨٣٣، مَعارج النُّبوّة: الرُّكن الرَّابع: ١٠٧ و١٦٨ طَبْعَة لكنهو، إحقَاق الحقّ للتُستري: ٨٤/٥ و٢٨٤، الأغَاني لأبِي الفَرج الإصفهانِي: ١٩٢/١٥، نُظم دُرر السِّمطِين للزّرندِي: ١٢١.

وجُملة «لاَ سَيْف إلّا ذو الفقَار ولاَ فتىٰ إلّا عَليّ» رويت فِي غَزَوَات بَدْر، وأُحد، وخَيبر، ورُويت بلا ذِكر شأن.

فأمّا غَزْوَة أُحُد فأخرجها الصَّدوق فِي مَعَانِي الأَخْبَار: ١١٩ ح ١، وأمَاليه: ١٦٧ ح ١٠ مَجلس ٣٦. والشَّيخ المُفيد بروَايتين فِي الإِرْشَاد: ٤٦ و٤٧ عن النَّبيّ ﷺ وأخرجها أيضاً في: ٤٧ عن الإِمَام مُحمّد البَاقر ﷺ، وأخرجها الكُلِيني في الكَافِي: ٨ / ١١٠ ح ٩، والصَّدُوق في عِلل الشّرايع: ١ / ٧ ح ٣ عن الإِمَام الصَّادق ﷺ، وفي العُيُون: ١ / ٧٠ ح ٩ عن الإِمَام الكَاظم ﷺ، واَبن هُشَام فِي السِّيرة: ٣ / ٤٣ عن اَبن أبِي نَجيح، وفي تَفْسِير فُرات الكُوفي: ٣٥ عن حُذَيْفَة بن اليَمَان، واَبن المغَازلي فِي المنَاقب: ١٩٧ ح ٢٣٤، والمُفيد في الإِرْشَاد أيضاً: ٤٧ عن اَبن أبِي رَافع، وأبو عَليّ الطّوسي في أمَاليه: ١ / ١٤٢ عن مُحمّد بن الحَق، مُصباح الأَنْوَار: ٣١٤، إرشاد القُلُوب: ٢٤١، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٧٤، البدَاية والنّهَاية: ٧/ ٣٣٥، يَنابِيع المَودَّة: ٢٠٩، كفَاية الطّالب: ٢٧٧.

وهَذِه الاِحَن عَلىٰ عَليّ، وتِلكَ التِّرَات فِي نفُوس قُرَيْش المُشْرِكَة ظَلَّت حَيَّة بَعد أنْ دَخَلَت فِي الْإِسْلاَم... وبَعد مَوْت النَّبيّ تَنَاولت قُرَيْش بِسيُوفها شِيب بَنِي هَاشم، وشَبَابها، وصِبيَانها، وشَرّدَت عقَائِلها، وحرَائِرها، وكَأنّمَا تثأر بهَذا لِقَتلاَها فِي بَدْر وأُحُد، وحَسبُنا أنْ نَذْكر هُنا مَصرَع الحُسَيْن وآل بيْتَه فِي كَربَلاء، ومَا تَلا ذَلِكَ من وقَائع»[١].

ومِن جِهَاد الْإِمَام فِي الْمَرْحَلَة الثَّالثة بَلاؤه يَوْم خَيبر، وقَتله مَرحباً[٢].

---

(١) أنظر، كِتَابه «عَليّ بن أبِي طَالب بَقيَة النُّبوّة، وخَاتم الْخِلاَفَة: ١٣٥، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنهُ ﵀).

(٢) حَدِيث الرَّايَة مِن الأَحَادِيث المشهُورَة والمتوَاترة بَيْنَ أَهْل الشِّيعة والسُّنَّة، هَكـذا رَواه البُخَاريّ بِشَرح الكرمَاني: ١٦ / ٩٨ / ٣٩٣٥، و: ٥ / ٢٢ و ٢٣ كِتَاب بِدء الخَلق بَاب مناقب عَليّ بن أبي طالب، و ١٧١ بَاب غَزْوَة خَيبر، و ٧٦ كِتَاب المغازي، وعُمدة القاري في شَرح صَحِيح البُخَاريّ لِلعيني: ٤ / ٧٣ و ٢٠٨ و: ١٢ / ١٩٠ ح ٢٧٤٤، و ٢٠٧ ح ٢٧٧١، و: ١٦ / ٢١٦، المَناقب طَبْعَة مِصْر، و ٦٤ كـتاب الجِهاد والسّير بَاب ما قِيل في لوَاء النَّبيّ ﷺ.

وروي بألفَاظ مُتعدّدة ولكنّها ذَات معنىٰ وَاحد تَدلّ عَلىٰ الأفضْلِية المُطلقة بآعتِراف ٱلخَلِيفَة الثَّاني عُمَر بن الخطَّاب، حَيْث كَان يَقُول: لقَد أُعطي عَليّ ثَلاث خِصال لَئن تَكُون لِي خِصلة مِنْها أحبّ إليّ من أنْ أُعطىٰ حُمر النَّعَم. فَسُئل مَا هِي؟ قَال: تَزويجه أبنَته فَاطِمَة، وسُكنَاه فِي المَسجد لا يَحلّ لِي فِيهِ مَا يَحلّ لهُ، والرَّايَة يُوم خَيبر. رواه آبن حَجر في الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٨٧، والسّيوطي في تَأرِيخه: ٦٦، ومُنْتَخَب كَنْز الْعُمَّال هَامش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٣٩. وقَوله أيضاً: مَا أَحببت الإِمَارة إلاّ يَوْمَئِذٍ حَيْث قَالَ: فَتطاولتُ ـ فَتَساورتُ لهَا ـ رَجاء أنْ أدعىٰ لهَا... ولَسْنَا بِصَدد بَيان الأفضَلِية ومَا يَتَرتب عَليهَا.

ورَوَاه مُسْلِم فِي: ٢ / ٤٤٨ / ٢٤٠٤ و ٤٤٩ / ٢٤٠٥، كِتَاب الفضَائِل، و ١٧٣، كِتَاب المغَازي بَاب ٤٥ / ١٣٢، و: ٤ / ١٨٧١ و ١٨٧٢ / ٣٣، و: ٧ / ١٢١ طَبْعَة العَامرة بِمِصْر، و: ٥ / ١٨٩ و ١٤٤٠ و ١٤٤١ و ١٨٧١ طَبْعَة مُحَمّد فؤاد و ٣ / ١٤٤٠ ط آخر، فعن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قَال يُوم خَيبر: لأُعطِينّ هَذِه الرَّايَة رَجُلاً يُحبّ الله وَرَسُوله، ويُحبّه الله وَرَسُوله، يَفتح الله عَلىٰ يَدِيه، قَال عُمَر بن

⟺

↔ الخطّاب مَا أحببتُ الإمَارة إلّا يَوْمَئِذٍ، قَال: فتطَاولتُ ـ فَتساورتُ لها ـ رَجاء أنْ أُدعىٰ لهَا: قَال: فدعَا رَسُول الله ﷺ عَليّ بن أبي طالب فأعطاها إيّاه (فأعطاه إيّاها) وَقَالَ: أمشِ ولا تَلتفت حَتَّىٰ يَـفتح الله عَلَيْكَ. قَال: فسَار عَليّ شَيْئاً ـ مَاشِياً ـ ثُمّ وَقف ولَم يَلتفت فَصَرخ عَليّ: يَا رَسُول الله عَلىٰ مَـاذا أُقَـاتل النّاس؟ قَال: قَاتلهُم حَتّىٰ يَشهدُوا أنْ لاَ إله إلّا الله، وأنّ مُحمّداً رَسُول الله. فإذَا فعَلوا ذَلِكَ فقَد مُنعُوا مِنكَ دمَاءهُم وأمْوَالهُم إلّا بِحقّها وحِسَابهُم عَلىٰ الله. فَفَتح الله بِيدَه.

حَدِيث الرّاية حَدِيث طَوِيل ذُكر فِي غَزْوَة خَيبر ـ الحِصن ـ والّتي تبعُد عَن المَدِينَة أرْبَعَة فَراسخ وكَان المُسْلِمُون فِيها ألفاً وأرْبعمئة غَازِياً وكَانَتْ فِي سَنَة سَبع مِن الهِجْرَة وحَاصَرهُم فِيها رَسُول الله ﷺ بِضعاً وعَشرِين لَيْلَة، ثُمّ أخَذ يَفتحها حِصناً حِصناً. فكَان أوّل حِصن أفتتحهُ «حِصن نَاعِم» وقُتل فِيهِ مُحمّد بن سَلمة، ثُمّ القمُوص حِصن بَني أبي الحُقيق، ثُم حِصن الصّعب وهُو أكْـثرهَا طـعَاماً وَودَكاً. ثُمّ حِـصنهُم الوَطِيح والسّلالم، وكَانا آخرهَا أُفتتح وهُو الّذي خَرج مِنْهُ مَرْحَب اليَهُودِي يقول:

قَد عَلِمتْ خَيبر أنّي مَرحبُ ... شَاكي السّلاحِ بَطلٌ مُجرّبُ
أطعَنُ أحيَاناً وحِيناً أضربُ ... إذَا اللّيُوثُ أقبَلت تَلهّبُ
كَان حِمَايَ كالحِمىٰ لايُقربُ

فَسَأل المُبَارزة فَخرج إلَيْهِ مُحمّد بن مَسْلَمَة وأخُوه الزُّبيْر، و.... حَتّىٰ خَرج إلَيْهِ عَليّ بن أبي طَالب عليه السلام فَقتلهُ. (أنظر القِصّة فِي إرشَاد الشّيخ المُفِيد: ١١١ الفصل ٣١ من البَاب ٢، البحار: ٢١ / ١ ـ ٣١، الكَامِل لِابْن الأثير: ٢ / ٢١٦، وغيْر ذَلِكَ كَثِير. وكَان الإمَام عَليّ عليه السلام هُو صَاحب الرّايَة وقَد تمّ الفتح عَلىٰ يَديَه. وقَد روىٰ حَدِيث الرّايَة السّبط أبن الجُوزِي الحَنفي فِي تَذكرة الخَواصّ: ٣٢ عَن مُسْنَد أحمَد بِسنده عن مُصْعَب بن سَعد، وعَن البُخَاريّ، ومُسْلِم فِي الصّحِيحِين كمَا ذَكرنا سَابقاً. وفي الفضَائل لأحْمَد بِسنده عن عَطيه عن أبن بُريدة. ووَرد في السِّيرة الحَلبِية بهَامش السِّيرَة النّبَويّة: ٣ / ٣٧ و ٨٣. وفي السِّيرَة النّبويّة بهَامش السِّيرَة الحَلبِية: ٢ / ١٩٨ و ٢٠١.

وذَكر حَدِيث الرّايَة أيضاً بِألفَاظ مُتقاربة وبِطُرق عَدِيدَة صَحِيح البُخاريّ فِي كتَاب الجِهاد والسِّير بَاب مَا قِيل فِي لوَاء النّبيّ: ٤ / ٦٤ والّذي رُوي بِسنده عن سَلمه بن الأكوع قَال: كَان عَليّ عليه السلام تَخـلّف عَـن النّبيّ ﷺ في خَيبر، وكَان بِهِ رَمد، فقَال: أنَـا أتخـلفَ عَـن رَسُـول الله ﷺ!! فَـخرج عَـليّ عليه السلام فَـلحق بِالنّبيّ ﷺ فلمّا كَان مسَاء اللّيْلَة الّتي فَتحها ـ الحصُون، خَيبر ـ في صَباحها فقَال ﷺ: لأُعْطِينّ الرّاية ـ أو ↔

⇐ قَال: ليأخُذنّ ـ غداً رَجُل يُحبّ الله وَرَسوله ـ أو قَال: يُحبّه الله وَرَسوله ـ يَفتح الله عَلَيْهِ، فإذَا نَحنُ بِعَليّ عليه السلام ومَا نَرجُوه، فقَالُوا: هَذَا عَليّ، فَأعطَاه رَسُول الله صلى الله عليه وآله فَفتح الله عَليهِ. وفِي نَفْس المَصْدَر السّابق: ٤ / ٧٣ طَبْعَة مِصْر بِسَنده عَن سَهل بن سَعد قَال: قَال رَسُول الله صلى الله عليه وآله يَوم خَيبر: لأُعطِينّ الرَّايَة غَداً رَجُلاً يَفتح عَلىٰ يَديه يُحبّ الله ورَسُوله، ويُحبّه الله وَرَسوله. فبَات النَّاس لَيلَتهُم أيُّهُم يُعطىٰ، فغدُوا كُلّهم يَرجُوه، فقَال: أين عَليّ؟ فقِيل: يَشتَكي عَينَه... إلىٰ آخر الحَدِيث. وروَاه أيضاً فِي كتَاب بِدء الخَلق بَاب مناقب عَليّ عليه السلام: ٥ / ٢٢ برِوَاية سَهل بن سَعد السَّاعدِي، وبَاب غَزْوَة خَيبر: ٥ / ١٧١.

وروىٰ الحَدِيث أيضاً مُسْلِم فِي صَحِيحه: كتَاب فَضَائِل الصَّحَابَة بَاب فَضَائِل عَليّ عليه السلام: ٣ / ١٤٤٠ بأسَانِيد مُتعدّدة عن عِكْرِمَة بن عَمّار عن أيَاس بن سَلمة عن أَبيه... وسَاق الحَدِيث وفِيهِ قَال عَليّ عليه السلام:

أنَا الَّذي سَمّتني أُمّي حَيدَرة ... كَلِيث غَابَات كَرِيه المَنظَرَه

أُوفِيهِمْ بالصَّاع كِيل السّندرَه

ومِثله بِسندَه عَن عَامر بن سَعد بن أَبِي وَقّاص عن أَبِيه. وفي: ٤ / ١٨٧١ / ٣٢ و ١٨٧٢ عن أَبِي هريرة، و: ٧ / ١٢١ عن أَبِي هريرة أيضاً طَبْعَة العَامرة، وكَذَلِكَ برِوَاية سَهل، وروَاه البَيْهَقِيّ فِي سُننه: ٦ / ٣٦٢، و: ٩ / ١٠٦ و ١٣١ برِوَاية سَهل بن سَعد السَّاعدي.

وروَاه أبو نَعِيم فِي حُلية الأَوْلِيَاء: ١ / ٦٢ و ٦٢ برِوَاية سَهل بن سَعد السَّاعدي و ٦٦ عن أَنس بن مَالك، وروَاه أحمد بن حَنْبل فِي مُسْنَده: ١ / ٩٩ و ١٣٣ و ٣٢٠ بِسنده عن عَمْرُو بن مَيمُون عن ابن عبّاس، وكَذَلِكَ فِي ٣٣١، و: ٤ / ٥١، و: ٢ / ٣٨٤ عن أَبِي هُرِيرَة، و: ٥ / ٣٢٢ و ٣٣٣ و ٣٥٣ بِسنده عن بُريدة: ٦ / ٨، و: ٧ / ٢١ / ٤٧٩٧ بِسندٍ صَحِيح طَبْعَة دَار المَعَارف بِمِصْر و ٢٥ عن ابن عبّاس طَبْعَة دَار المَعَارف أيضاً.

وروَاه النّسائِي فِي خصَائصه: ٥ و ٦ بِاختلافٍ بَسِيط فِي اللّفظ برِوَايَة بُريدة و ٧ و ٤٣ ح ١١ و ٥٥ و ٥٨ برِوَاية عن أَبِي هُريرة طَبْعَة الحيدرِية، وكَذَلِك عن سَهل بن سَعد السَّاعدي و ٦١ عن ابن عبّاس و ١٥ طَبْعَة بيروت و ٨ طَبْعَة التّقدّم بِمِصْر.

وروَاه ابن سَعد فِي الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٢ / ٨٠ ق ١ و ١١٠ برِوَايَة أَبِي هُريرَة طَبْعَة دَار صَادر، والإستِيعَاب لابن عبدالبرّ: ٢ / ٤٥٠، كَنز العُمّال للمُتقي الهِندِي: ٥ / ٢٨٣ و ٢٨٤، و: ٦ / ٣٩٤ و ٣٩٥ بِاختلاف بَسيط فِي اللّفظ، و: ١٥ / ١٠١ ح ٢٩١ الطّبعة الثَّانِيَة، الرِّيَاض النَّضرة للمُحبّ الطَّبَرِيّ.
⇐

↔ ١٨٥/٢ و ١٨٧ و ٢٥٤ الطّبعة الثّانِيَة و ٢٦٩ برِوَاية اَبن عبّاس و ٢٧٠ الطّبعة الثّانِيَة، ومُسْنَد الطَّيَالِسِي لأبي دَاود: ١٠ / ٣٢٠ برِوَاية أَبِي هُرِيرة، وتَأرِيخ بغدَاد للخَطِيب البَغدادي: ٨ / ٥، صَحِيح اَبن مَاجه: ١٢ بِسنده عن عبدالرّحمن بن أبِي لِيلىٰ، وبسنده عن اَبن سَالط عن سَعد بن أبِي وَقّاص، و: ١ / ٤٥ ذِيل الحَدِيث ١٢١ و ٤٣ ح ١١٧، وتَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢ / ٣٠٠ بطَرِيقين برِوَاية بُرِيدة الأَسْلَمِي طَبْعَة الاِسْتِقَامَة، و: ٣ / ١١ طَبْعَة دَار المَعَارِف.

ورواه الهَيتمِي فِي مَجْمَع الزّوائد: ٦ / ١٥٠ و ١٥١ برِوَاية جَابر بن عبدالله الأَنْصَاري: ٩ / ١٢٤ برِوَاية عبدالله بن عبّاس و ٢٢٢، صَحِيح التِّرمِذي: ١ / ٢١٨، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣ / ٣٨ برِوَاية جَابر الأَنْصَاري و ١٢٣ برِوَاية بُرِيدة الأَسْلَمِي و ٤٣٧ وصَحّحه فِي الطّبعة الأُولىٰ أفست و ١٢٥. وفرائد السِّمطِين: ١ / ١٥٤ و ٢٥٣ / ١٩٦ عن سَهل بن سَعد السّاعدِي و ٢٦١ / ٢٠١ عن أبِي رَافع مَوْلىٰ رَسُول الله ﷺ و ٢٦٠ برِوَاية جَابر بن عبدالله الأَنْصَاري و ٢٥٩ ح ٢٠٠ و ٢٠٠٢، وبرِوَاية جَابر الأَنْصَاري و ٣٤٥ ح ٢٦٨ وح ٢٥٠ برِوَاية اَبن عبّاس.

ورواه الطّبراني فِي المُعْجَم الكَبِير: ٦ / ١٨٧ / ٥٩٥٠ طَبْعَة بَيرُوت قَال: حَدّثنا الحُسَيْن بن إسْحَاق حدّثنا الصَّلْت بن مَسعُود حَدّثنا فضِيل بن سُليمان عن أبِي حَازم عن سَهل بن سَعد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ يوم خَيبر: لأُعْطِينّ الرَّاية غداً رَجُلاً يَفتح الله عَلىٰ يَديه. فغَدا النَّاس عَلىٰ رَسُول الله ﷺ كُلّهم يَرجُون أنْ يُعطِيه الرَّاية، فقَال: أين عَليّ؟

وحدّثنا أبو حَازم عن سَهل بن سَعد قَالَ: قَال رَسُول الله ﷺ: الدَّالّ عَلىٰ الخَيْر، قَالُوا: هو شَاكِي العَيْن يَا رَسُول الله، قَال: أرسلوا بِه. فأُتِي بِهِ فبَصق رَسُول الله ﷺ فِي عَينيه ودَعا فبُرِئَ ثُمّ رَفع إِلَيْهِ الرَّايَة، فقَال: أنفذ ولا تَلتفت حَتّىٰ تَنزل بالقَوْم فتدعُوهم إليّ. فَنَفذ عَليّ، ثُمّ اَلتفَت، وقَالَ: يَارَسُول الله أُقَاتلهم حَتّىٰ يقُولوا: لا إله إلّا الله؟ قَال: عَلىٰ رَسلك إذَا جِئتهم فأدعهم إلىٰ قَول لا إله إلّا الله، فلأن يَسلم رَجلٌ عَلىٰ يَدك خيرٌ لكَ من أنْ يكُون لَك حُمْرُ النَّعَم.

ومثلهُ فِي: ٢ / ١٠٠ من المُعْجَم الصَّغِير برِوَاية جَابر الأَنْصَاري، أُسد الغَابَة لِاَبن الأثِير: ٤ / ٩٨، المَنَاقب لِاَبْن المَغَازلي: ١٧٦ و ١٨١ / ٢١٦ و ٢١٧ و ٢٢١ برِوَاية أبِي هريرة وح ٢٢٢ برِوَاية بُرِيدة الأَسْلَمِي: ١٨٧. وأنظر تَأرِيخ الإسْلَام للذَّهبي مُجلّد المغَازي: ٤١٠، المُصَنَّف لِاَبن أبِي شَيبة: ١٢ / ٦٣ / ١٢١٢٩ و ٧١ / ١٢١٤٩، ذَخائِر العُقْبَىٰ: ٨٦ و ٨٧، المَنَاقب للخوَارزمي: ١٠٣ طَبْعَة النّجف ↔

⟸ و١٧٢/ ٢٠٧ و ٢٣٨ طَبْعَة الحيدرِية و ٧٢ بروَاية آبن عبّاس.

وأُنظر المغازي للوَاقدي: ٢/ ٦٥٤، سيرة آبن هشَام: ٣/ ٣٤٩ و ٣٥٠، تَأريخ دِمشق لِاَبْن عسَاكر ترجمة الإمَام عَليّ عليه السلام: ١/ ٢٠٥/ ١٤٧ ـ ٢٥١ وعن آبن عبّاس، و: ١ أيضاً ح ٢٦٩ بروَاية جابر بن عبدالله الأنْصَاري: ١/ ١٧٤/ ٢٣٩ و ٢٤٠ ـ ٢٤٣ عن بُريدة الأسْلَمي، و: ١/ ١٦٣ ح٢٢٧ـ٢٣١ بروَاية سهل بن سَعد السّاعدي و ١٥٧ ح ٢١٩ ـ ٢٢٧ عن أبي هريرة.

وانُظر، سُنن التِّرمِذي: ٥/ ٥٩٦/ ٣٧٢٤، عُيُون الأثر: ٢/ ١٣٢، أَنسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٢/ ٩٣ برواية أبي هريرة و ١٠٦ طَبْعَة آخر برواية عبدالله بن عباس، ينابيع المَوَدَّة: ٤٩ برواية بريدة الأسلمي و ٢١٠ طَبْعَة اسلامبول و ٢٤٨ طَبْعَة الحيدرية و ٣٤ طَبْعَة اسلامبول برواية آبن عبّاس وكَذٰلِك في ٣٨ طَبْعَة الحيدرية، و: ١/ ١٥٣ الطبعة الأُولىٰ طَبْعَة أُسوة تحقيق السَّيِّد عليّ جمَال أشرف و ١٦١ و ١٦٢، و: ١/ ٣٣ طَبْعَة العرفَان.

وأُنظر أيضاً أسنىٰ المطَالب للجزري: ٦٢، أُسد الغَابَة: ٤/ ٢١، البدَاية والنّهَاية: ٤/ ١٨٢ و: ٧/ ٣٣٧، العقد الفَريد: ٢/ ١٩٤، الكَامِل في التَّأريخ: ٢/ ١٤٩، مروج الذّهب: ٣/ ١٤، إحقاق الحقّ: ٥/ ٤٠٠ و ٤١٠ و ٤١٥، فَضَائِل الخَمْسَة: ٢/ ١٥٠ و ١٦١ طَبْعَة دار الكتب الإِسْلاَمّية طهران و: ١/ ٢٣٠.

وأُنظر كشف اليَقِين في فَضَائِل أمِير المُؤْمِنِينَ عَليّ عليه السلام: ١٣٩، الصّراط المُسْتَقِيم للعلّامة البيَاضي: ٢/ ١ و ٦٢، كشف الغمّة للإربلي: ١/ ٢٣٠، إعلام الورىٰ للطّبرسي: ٩٨، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِاَبْن حجر: ٧٦ طَبْعَة الميمنية و ١٢٥ طَبْعَة المحمدية، تَأريخ الخُلَفَاء للسيوطي: ١٧٢ الإِصَابَة لِاَبْن حجر: ٢/ ٥٠٩، نُظم دُرر السّمطين للزّرندي الحَنفي: ١٢٩، مشكاة المَصَابِيح: ٣/ ١٧١٩/ ٦٠٨٠، نُزل الأبرار للبَدخشاني: ٤٣، و ٤٤.

وأُنظر أيضاً تَذكرة الخواصّ لسبط آبن الجَوزي: ٢٤ طَبْعَة الحيدرية و ٢٦ و ٢٩، الاِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٣/ ٣٦، المُسند لأحْمَد: ٥/ ٣٥٣ و ٣٥٥ و ٣٥٨ الطّبعة الأُولىٰ، الكَامِل في التَّأريخ: ٢/ ١٤٩، تلخيص المُسْتَدرَك للذّهبي: ٣/ ١٣٢، كفَاية الطّالب للحافظ الكَنجي الشّافعي: ٢٤٠ طَبْعَة الحيدرية و ١١٥ طَبْعَة الغري، المناقب لِاَبْن شهرآشوب: ٢/ ٢٩٣.

وحَدِيث الرّاية رُوي عن طريق عِمْرَانَ بن حُصين في الرّوض الأُنف للسُّهيلي: ٢/ ٢٢٩، صُبح ⟸

ويَوْم حُنين(١)، وفي حِصَار الطَّائِف(٢)، ومـا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا ذَكـره أَهْـل السِّـير

⇐ الأَعْشَىٰ: ١٠ / ١٧٤ وغيْرهم كثير، الشّافي لِعَلم الهُدَىٰ: ٧٠، تلخيص الشّافي للطّوسي: ٣ / ١٣، دَلاَئِل النُّبوَّة لأبي نَعيم: ٣٩٧ طَبْعَة حيدرآبادي، مُسْنَد الطَّيَّالِسِي: ٢٦ طَبْعَة حيدرآباد، شرح النَّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١ / ٢٥٦ و ٣٦١ الطّبعة الأُولَىٰ، و: ٣ / ١٠٠، و: ٤ / ٧٢ طَبْعَة مِصْر تحقيق مُحَمّد أبو الْفَضْل.

وروىٰ أبو كريب، ومُحَمّد بن يحيىٰ ٱلأَزْدِيّ في أَمَاليهما، ومُحَمّد بن إسحاق، والعبّادي في مغازيهما، والنَّطنزي والبَلاذري في تَأْرِيخها، والثّعلبي، والوَاحدي في تَفْسِيريهما، وأحمد بن حنبل، وأبو يعلىٰ الموصلي في مُسْنَديهما، وأحمد، والسمعاني، وأبو السّعادات في فضائلهم، والأشنهي في اعتقاده، وابن بطّة في إبانته من سبع عشرة طريقاً. وروىٰ صاحب كنز الْعُمَّال بهامش أحمد عن عُمَرَ بن الخَطَّاب حَدِيث الرّاية في ح ٦٥٦ تحقِيق المحمُودي وفي: ٤٤ و ٤٥ الطّبعة الأُولَىٰ، وغَيْره كثير، وبروَاية عبدالله بن عُمَرَ كما في شواهد التّنزِيل للحافظ الحسكَاني: ٢ / ٩٠٣ / ١٩٧ تَحقيق الشّيخ المَحمودِي، وسمط النّجوم: ٢ / ٤٦١، وغيْره كثير. وهُنالِك أَلفاظ أُخرىٰ لحديث الرّاية ورواة آخرون أعرضنا عن ذكرهم لطول المقام، ولو شاء الْفَرْد لأفرد بَاباً أو فصلاً أو كِتاباً خاصّاً لحَدِيث الرّاية كما فعله بَعْض الأَعْلاَم.

(١) كَانَتْ غَزْوَة حُنين بَعد فَتح مَكَّة بِخَمسة عَشر يُوماً، وكَان عَسكر الإِسْلاَم اثنىٰ عشر ألفاً، وقِيل عشرة آلاَف، وفِي هَذِه الغَزْوَة استظهر فِيها رَسُول الله ﷺ، فِيها بِكثْرة الجمُوع فَخرَج صَائِماً مُتوجهاً إِلَىٰ الْقَوْم، فظَنّ أَكْثَرهُم أَنّهم لَم يُغلبوا لمَا شَاهدُوه مِن جَمعهم وكثْرَة عِدتهم وسلاَحهم، فأُعجب أبو بَكْر بالكثْرَة يَوْمَئِذٍ فقَال: لَنْ يغلب اليَوم مِن قِلة، وكَان الأَمر فِي ذَلِكَ بخلاَف مَا ظَنوه، فَلمّا التقوا مَع ٱلْمُشْرِكِين لَم يَلبثُوا حَتَّىٰ انهزمُوا بِأجمَعهم، وَلَمْ يَبق مِنهم مَع النّبيّ ﷺ، إلا عَشرة أَنْفُس تِسعَة مِن بَنِي هَاشم خَاصّة وعَاشرهُم أَيمن بن أُمّ أيمن فَقُتل رضْوان الله تَعَالىٰ عَلَيْهِ، وثَبت التّسعَة الهَاشميُون وعَلىٰ رَأْسهم أسد الله الغَالب لِيث بَني غَالب عَليّ بن أَبِي طَالب ؏. انظر، مناقب عَليّ بن أَبي طَالب لِابْن المغَازلي: ٦٥ ح ٩٣ و ٨٤ ح ١٢٠ و ١٢٥ و ١٠٤ ح ١٤٦ و ١٤٧، المنَاقب للخوَارزمي الحنَفي: ٧٢ و ١٠٦ و ١١١ و ٢٣٥، تَأريخ ابن عسَاكر: ١ / ٧٤ و ٧٦ و ١٢١ ح ١٢١ ـ ١٢٤ و ١٢٦، و: ٢ / ٢٥٧ ح ٧٧٣ و ٧٧٤ و ٤٧٦ ح ٩٩٦ و ٩٩٧، كفَاية الطّالب للكَنجي الشّافعي: ١٨٧ و ٢٢١ طَبْعَة الحيدرية، ينَابِيع المَوَدَّة للقندُوزي الحنَفي ٧٢ و ٨١ و ١٨٥ و ٢٣٤ و ٢٥٠ و ٢٨٤ طَبْعَة إسلامبول، فتح المَلك العَلي: ٥٧ طَبْعَة الحيدرية، إسعاف الرّاغبين بهامش نور الأَبْصَار: ١٥٨ طَبْعَة السّعيدية، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٣ طَبْعَة الحيدرية.

وانظر، أيضاً مطَالب السّؤول لِابن طَلحة الشّافعي: ٣١ طَبْعَة طهران، مِيزان الإعْتِدَال للذّهبي: ١ / ⇐

← ١١٠، و: ٣ / ٣٢٤ طَبْعَة بيروت. الجَامِع الصَّغِير للسّيوطي الشّافعي: ٢ / ١٤٠ طَبْعَة مصطفىٰ مُحَمّد، مُنْتَخَب كنْز العُمّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٢٩ و ٣٠ و ٣٣ و ٣٤، إحقاق الحقّ: ٤ / ٢٣٤، و: ٦ / ٦ و ١١ و ٢٩ طَبْعَة طهران. فرائد السّمطين: ١ / ١٥٧ و ١٤٣ ح ١١٩ و ١٥١، المُعْجَم الصَّغِير للطّبراني: ٢ / ٨٨، نظم دُرر السّمطين للزّرندي الحنَفي: ١١٤، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٢١، و: ٦ / ١٠٢ و ١٢٥، أسد الغَابَة: ١ / ٦٩، و: ٣ / ١١٦ و: ٥ / ٢٨٧، فَضَائِل الخَمْسَة: ٢ / ١٠٠، الرّياض النّضرة: ٢ / ٢٠٤ و ٢٣٤، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٥٦ و ٦٨ و ٧٠، السّيرَة الحلَبِية لبرهان الدّين الحَلبي الشّافِعي: ١ / ٣٨٠، شَرح النّهج لِابْن أبي الحَدِيد: ٣ / ٢٦١، و: ٧ / ٢١٩ و ١٠ / ١٨٢ و ١٤ / ٢٥٠ و ٢٥٢، و: ١٣ / ٢٢٨ تحقيق مُحمّد أبو الفَضْل. الاِسْتِيعَاب لِابن عبد البرّ مطبوع بهامش الإِصَابَة: ٤ / ١٧٠، فرائد السّمطين للحمُويني: ١ / ٣٩ و ٤٠ و ١٥٦ و ٢٣٤.

وأنظر، كذَلِكَ لِسَان الميزَان لِابْن حَجر العسقلاني الشّافعي: ٢ / ٤١٤، البَيَان والتّعريف لِابْن حَمزة الحنَفي: ٢ / ١١٠، دُرر بَحر المنَاقب لِابْن حَسنويه الحنَفي: ٩٩ مخطوط، الأَرْبعُون لأبي الفَوارس: ٤٩ مخطوط، رِسَالَة النّقض علىٰ العُثمَانِية للإسكافي: ٢٩٠، أرْجَح المطالب للشّيخ عُبَيْدالله الحنَفي: ٤٤٧، مِفْتَاح النّجا للبدَخشي: ٢١ مخطوط. أنتهاء الأَفْهام: ٧٤، الإِصَابَة: ٤ / ١٧١، كشف اليَقِين: ٨٤، الإرْشَاد للشّيخ المُفيد: ٤١ و ٤٣ و ٥٧، مُسْنَد أحمد بن حنبل: ١ / ١٩٩، و: ٣ / ٨٢.

(٢) لقَد سَار النّبيّ ﷺ فِي شوَال سَنَة ثمَان من الهِجْرَة إلىٰ الطّائِف فحَاصر أهلَها بِضعَة عَشر يُوماً، وفِيها خَرَج نَافع بن غِيلاَن بن مَعتب فِي خَيلٍ من ثَقِيف فَلقِيه الإِمَام عَليّ عليه السلام في خَيلٍ فالتقُوا بِبطن وج فَقَتله الإِمَام عَليّ عليه السلام، وأنهزَم المُشرِكُون، وفِي هَذَا المكَان نَاجَىٰ الرَّسُول الإِمَام عَليّ عليه السلام بحَدِيث النّجوىٰ فِي الطّائف الّذي أخرَجه أحمَد فِي مُسْنَده عن جَابر بن عبدالله الأنْصَاري: ٦ / ٣٠٠، وأحتجّ بِهِ الإِمَام عَليّ عليه السلام عَلىٰ أهْل الشّورَىٰ عَن أبِي ذرّ الغفَاري، وورد بِلفظ صَحِيح التِّرمِذي كتَاب المنَاقب بَاب منَاقب عَليّ بن أبِي طالب: ١٣ / ١٧٣ وغَيْره واللّفظ للتّرمذي عن جَابر قَالَ: دَعا رَسُول ﷺ عَليّاً يُوم الطّائف فأنْتجَاه، فقَال النّاس: لقَد طَال نجوَاه مَع أبن عَمّه، فقَال رَسُول الله ﷺ: مَا أنْتجِيته ولكنّ الله أنْتجَاه. (أنظر، المَصْدَر السّابق، وتَأرِيخ بَغداد للخطيب: ٧ / ٤٠٢).

وفِي روَاية: لمّا كَان يُوم الطّائف دَعا رَسُول الله ﷺ عَلِيّاً فنَاجَاه طَويلاً، فقَال بَعض أصْحَابه... الحَدِيث. (أنظر، أُسد الغَابَة: ٤ / ٢٧).

⟷

والتَّأريخ.

(وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ... إلخ).

إنّ المِعيَار الصَّحِيح لِلمُوَازنة، والمُفَاضلة بَيْنَ صحَابة رَسُول الله، وغَيْرهم هِي النُّصح لِلْإِسْلاَم، والْجِهَاد فِي سَبِيله، والعِلم والْعَمَل بِهِ وأحْكَامه، أمّا السّبق إِلىٰ الْإِسْلاَم فَقَد كَان فِي أوّل البِعثَة أعْظَم الفضَائِل، وأهَم أنوَاع الْجِهَاد عَلىٰ الإِطْلاَق حَيْث لا قُوَّة لِلْإِسْلاَم، ولاَ جَمَاعَة لِلمُسْلِمِين، وحَيْث يُعانِي النَّبيّ ﷺ مِن السُّفهَاء شَرّاً وَعَنتاً، ولاَ ذَابّ وَمُعِين، ومِن أجل هَذَا يُعتَبر الْمُسْلِم آنْذَاك مِن المُؤَسِسِين، أو

⇐ وفي روَاية جُنْدُب بن نَاجية أو نَاحية بن جُنْدُب: لمّا كَانَ يُوم غَزْوَة الطّائف قَام النَّبيّ ﷺ مَع عَليّ عليه السلام مَلياً ثُمّ مرّ، فقَال لهُ أبو بَكْر: يَا رَسُول الله لقد طَالت مُنَاجَاتك عَلِيّاً مُنذ اليَوم. فقَال: مَا أَنَا أَنْتجيته ولكنّ الله أَنْتجَاه. (أنظر، كنز الْعُمَّال: ١٢/ ٢٠٠/ ١١٢٢ الطّبعة الثّانِيَة، الرّياض النّضرة: ٢/ ٢٦٥، مشكَاة المَصَابِيح: ٣/ ١٧٢١ ح ٦٠٨٨، كفَاية الطّالب: ٣٢٧ بَاب ٩٢، المُعْجَم الْكَبِير للطّبراني: ٢/ ١٨٦ ح١٧٥٦، المَنَاقب للخوَارزمي: ١٣٨ ح١٥٥، المَناقب لِإبْن المغَازلي: ١٢٤ـ١٢٦ ح ١٦٢ـ١٦٦، أمَالي الشّيخ الطّوسي: ١/ ٣٤٢، غَاية المَرَام: ٥٢٧ بَاب ٨٨ ح ٨، بصَائر الدّرجَات: ٤١٠ـ٤١١ ح ١ و ٥، الإختصَاص للشّيخ المُفيد: ٢٠٠، شَرح النّهج لِإبْن أبي الْحَدِيد: ٩/ ١٧٣ الْخُطْبَة ١٥٤. ومن تَأريخ أبن عسَاكر عن جَابر، تَرجمة الْإِمَام عَليّ عليه السلام: ٢/ ٣١٠ و ٣١١، وتَأريخ أبن كَثير: ٧/ ٣٥٦.

وفي شَرح النّهج لِإبن أبي الْحَدِيد: ٢/ ٧٨ طَبْعَة مِصْر الأُولىٰ جَاء في آخر الحَدِيث: دَخَلَت عَائِشَة وهُما يتنَاجيان، فقَالت: يَا عَليّ لَيْس لِي إلاّ يُوم من تِسعة أيّام، أفمَا تَدعني يَا أبن أبي طَالب!؟ ولَسْنَا بصَدد بيَان كلّ مَا جَاء في المُنَاجاة وَذَلِكَ لأنّ الإِمَام عليّ عليه السلام كَان حَرِيصاً عَلىٰ أنْ يَتلقىٰ مِن رَسُول الله ﷺ وخَاصّة عندما نزلت الآيَة الكَرِيمَة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الْمُجَادَلة: ١٢ فقَال الطَّبَرِيّ في حَدِيث طَوِيل: فَلم يُنَاجه أحَد إلاّ عَليّ بن أبي طَالب. (تَفسِير الطَّبَرِيّ: ٢٨/ ١٤ و ١٥، الدُّر المنثور: ٦/ ١٨٥، أسبَاب النّزول للوَاحدي: ٣٠٨، تَفسِير السّيوطي: ٦/ ١٨٥، ذَخَائِر الْعُقبىٰ: ٧٢، مَجْمَع الزّوائد: ٩/ ٣٦، خصَائص النّسائي: ٤٠، مُسْتَدرَك الصّحِيحين: ٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩، الكشّاف: ٤/ ٧٦).

فِي حُـــكْمهم، قَـال سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[(١)]. وَقَـالَ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[(٢)] أي السّابقُون عِنَد البِعثَة، أمّـا بَـعَد الْهِجْرَة ووجُود العِدة والعَدَد فَلا فَضل لسَابقٍ عَلىٰ لاَحقٍ إلّا بما أشرنَا إِلَيْهِ.

وكَان لِعَليّ فَضِيلة السّبق إلىٰ التَّصدِيق بالإِسْلاَم، ونَبِيِّهِ يَوْم لا مُسْلِم إلّا مُحَـمّد وَخَدِيجَة وهُو ثَالثُهما، كمَا قَال بالإِضَافة إِلىٰ الخلال الْفُضْلىٰ، وإِلىٰ قرَابَة قَرِيبَة مِن رَسُول الله ﷺ تجعَله، مُجْتَمعه فيهِ ـ أَوْلىٰ النَّاس بِرَسُول الله ﷺ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

(وَ لَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَ خَدِيجَةَ، وَ أَنَا ثَالِثُهُمَا). فِي سِيرة ٱبن هُشَام عن ٱبن إِسْحَق: «كَان أوّل ذَكرٍ أَسْلَم، وصَلّىٰ عَليّ بن أَبِي طَالب، والثَّانِي زَيد بن حَارِثَة»[(٤)].

(١) ٱلتَّوْبَة: ١١٧.

(٢) ٱلْوَاقِعَة: ١١.

(٣) ٱلْأَحْزَاب: ٦.

(٤) أُنظر، كِتَاب «وَحِي ٱلْقَلَم» لُمصطفىٰ صَادق الرّافعي: ٢/ ١٨ الطّبعة الثّانِيَة، وكِـتَاب «اليمـين واليَسـار فِي الإِسْلاَم» لأحْمَد عبّاس: ٥٠ طَبعة سَنَة ١٩٧٢م، وكِتَاب «مُحَمّد رَسُول الْحُرِّيَّة» لعَبد ٱلرَّحْمَـٰن الشّرقَاوي: ٦٩ الطّبعة الأُولىٰ ونَقَل الفيرُوز آبَادي فِي كِتَاب «فَضَائِل الْخَمْسَة مِن الصّحَاح السِّتة»: ١/المقصد الثّاني، الفَصل التّاسع، والعَاشر، نَقل عَن أَكثَر مِن عشرين مَصدَراً قَدِيماً: «إنّ عَلِيّاً أوّل مَن أسْلَم وآمَن، وذَكر صَاحب «الفضَائل» رَقم الجزء والصَّفحة وزَمان الطّبع ومكَانه. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، الكَامِل لِإبْن عَدي: ٥ / ١١٨٢٩، رِسَالَة النَّقض عَلىٰ العُثْمَانِية: ٢٩٠ دَار الكُتب مِصْر، فرائـد السّمطِين: ١ / ٣٩، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٠٥، ٱبن أبي ٱلْحَدِيد في الشّرح: ١٣ / ٢٢٨ وٱبن حَجر العسقلاني فِي لِسَان الميزَان: ٣/ ٣٨٣، درّ بحر المنَاقب: ٩٩ مخطوط عـن أبي ذَرّ، والحَـاكِم في المُسْتَدرَك عـلىٰ الصَّحِيحِين: ٣/ ١٣٦، والطَّبَرِيّ في تَأرِيخه: ٣/ ٤٢٠، وٱبن حَجر العسقلاني في صَواعقه: ٧٢، أحمدبن

⟵ حَنبل في مُسْنده: ٣٧٣ ط ٱلحَجَر، و: ١/ ٨٤ ط الحلبي، كشف اليَقين في فَضَائِل أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِابْن المُطهّر الحلّي: ٢٤ تحقيق حُسين الدّرگاهي، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٢/ ٤و٩، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٥٥)، فرائد السّمطين: ١/ ١٤٠ ح ١٠٣ عن أبي ذرّ، وفي تَفسِير آبن الحجّام لِقَوْله تَعَالىٰ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ ٱلنِّسَاء: ٦٩، كشف الغمّة: ١/ ١١٦.

أنظر، تأريخ دِمشق تَرجمة الإِمَام عَليّ عليه السلام: ١/ ٣٣١/ ٤٠١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٦٠، الاِسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ المَالكي بهَامش الإِصَابَة: ٣/ ٢٩، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٥٥/ ٥٧ عن آبن إِسْحَاق، تَأريخ دمشق: ١/ ٣٢/ ٦١ عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر مثله، و: ١/ ٣٦/ ٦٨ عن قتادة عن الحَسَن البصري وغَيْره مثله، و: ١/ ٦٥/ ١٠٤ عن أبي مَالك بن الحويرث مثله أيضاً، و: ١/ ٨٠/ ١٢٩ عن عَمْرُو بن عبدالله بن يَعلىٰ بن مرّة الثَّقَفِيّ مثله أيضاً، وفي الكَامِل لِابْن الأثير: ٢/ ٥٨ مثله أيضاً.

وأُنظر الكَافي: ١/ ٤٥٤، وأمالي الشّيخ الصّدوق: مجلس ٣٧/ ٥، وتَذكرة الخَواصّ: ١٠٣، وتَأريخ الطَّبَرِيّ: ٢/ ٥٧ و٥٨، والمنَاقب لِابْن شهرآشوب: ٢/ ١١، ورِسَالَة الإِسكَافِي لِلْحَاكِم النّيسابوري: ٢٢، ومرُوج الذّهب للمسعُودي: ٢/ ٤٣٧، والإِرْشَاد للشّيخ المُفيد: ٩ بَاب ١ فصل ١، العِقد الفَريد للعلّامة الأُندلسي المَالكي: ٣ في قِصَّة آحتجاج المَأمون عَلىٰ الفُقَهَاءِ وَهِي مُناظرة لَطِيفة فِي فضل عَليّ عليه السلام وبأنّه أوّل من آمن بالله، وأُنظرها في الإحقَاق: ٣/ ١٨٤ وما بعدها. وفي جَمع الجَوَامِع: ٦/ ٣٩٨ قَالَ صلى الله عليه وآله لفَاطِمَة عليها السلام: زوّجتك خير أُمّتي أعلمهُم عِلماً، وأفضلَهُم حِلماً، وأوّلهم سِلماً.

أُنظر، الخطيب في تَأرِيخه: ٤/ ٢٣٣، كتَاب صفّين: ١٠٠ و١٣٣، رِسَالَة الإِسكَافِي، والحافظ الكَنجي في الكفاية: ٤٨، الغَدير: ٢/ ٢٧٦، صَحِيح التِّرمذي: ٢/ ٣٠١، النّسائي في خصَائصه: ٢، آبن سعد في طبقَاته: ٣/ ١٢ القسم ١، أُسد الغَابَة: ٤/ ١٧، كنز العُمَّال: ٦/ ٤٠٠، مُسْنَد أحمد: ٤/ ٣٦٨ و٣٧١، تَأريخ آبن جرير الطَّبَرِيّ: ٢/ ٥٧ عن مُحَمّد بن المُنكدر، ورَبِيعَة بن أبي عبدالرَّحمَان، وأبي حَازم المَدني.

وأُنظر أيضاً المُستَدرَك في الصَّحِيحِين: ٣/ ٤٦٥ عن آبن عبّاس، و: ٣/ ١٣٦ عن سَلمَان، والخَطِيب في تَأرِيخه: ٢/ ١٨، والاِسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ: ٢/ ٤٥٧ عن عَمْرُو مَوْلَىٰ عفرة، و: ٤٥٦ عن سَلمَان، وأبي ذرّ، والمِقداد، وجَابر، وأبي سَعيد الخُدري، وزيد بن أرقم، وعن أبي رافع، و: ٤٥٨ عن قتاده عن المُسند، مُسْنَد أحمد بن حَنبل: ٥/ ٢٦ عن معقل بن يَسار.

وراجع كنز العُمَّال: ٦/ ١٥٣، و: ٦/ ٣٩٢ و٣٩٥ عن عُمَر، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/ ١٠١، و: ١٠٢ و١١٤ ⟵

(وَ لَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ). جَاء فِي «الرّيَاض النَّضرة، وفي الدُّر المَنثُور في تَفسِير قَـوْله تَعَالىٰ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾[1]: «إنّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «أَللَّهُمَّ إِنّي أسَأَلك بمَا سَألك أخِي مُوسىٰ أنْ تَشرح لِي صَدرِي، وأنْ تُيسِّر لِي أمرِي، وأنْ تَحلل عُقدة مِن لسَاني يَفقهُوا قُولي، وَٱجْعَل لِيّ وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي، ٱشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي وأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كِي نُسبّحك كَثيرَاً، إنّك كُنتَ بِنَا بَصِيراً»[2].

⇐ و ٢٢٠، عن بُريدة وعن مالك بن الحويرث، مُسْنَد الإمَام أبي حَنِيفَة: ٢٤٧ عن حبّة، والبغدادي في تَأريخه: ٤ / ٢٣٣، الإِصَابَة: ٤ / ١١٨ القسم ١ عن جابر، ٨ / ١٨٣ القسم ١ عن ليلىٰ الغفارية، أُسد الغَابَة: ٤ / ١٧ عن الحارث، و: ٥ / ٢٥٠، الرّياض النّضرة: ٢ / ١٨٢ عن أنس، الإسْتِيعَاب: ٢ / ٤٥٨، حلية الأَوْلِيَاء: ٤ / ٢٩٤.

وأُنظر كَذَٰلِكَ في الدُّر المنثور للسّيوطي في ذِيل تَفسِير قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾ ٱلْوَاقِعَة: ٧، فيض القَدير: ٤ / ١٣٥، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٢، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٥٨، الرّياض النّضرة: ٢ / ١٥٨، الثّعلبي في قصصه: ٢٣٨ و ٢٥٧ و ٢٥٨، السّيوطي في الدُّر المنثور في ذِيل الآيَة: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يَس: ١٣، تَأريخ بَغداد: ١٤ / ١٥٥ عن جابر، تَهذِيب التَّهذِيب: ٧ / ٢٣٦، نور الأَبْصَار للشّبلنجي: ٦٩.

أُنظر، الفِرْدَوْس للدّيلمي: ١ / ٤١ / ٩٣، شرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٩ / ١٧٣ و ١٧٤ ٱلخُطْبَة ١٥٤ و ٣٠٠، المناقب للخوارزمي: ٥٢ / ١٥ و ٥٧ / ٢٣ و ٥٨ / ٢٧، الفضائل لأَحْمَد: ٢ / ٥٨٩ / ٩٩٧ و ٩٩٨، المُسْتَدرَك: ٣ / ٤٦٥، المناقب لِابن المغازلي: ١٦ / ٢٢، فرائد السِّمطين: ١ / ١٣٩ / ١٠٢ و ١٠٣، الإِصَابَة لِابن حجر: ٤ / ١٧١ و ٤٠٢ ترجمة ٩٧٤ و ٩٩٤.

(١) سُوْرَة طَه: ٢٥.

(٢) أُنظر، الرّيَاض النَّضِرة: ٢ / ١٦٣ الطّبعة الأُولىٰ بمطبَعة الإتّحَاد المِصْري، والدُّر المَنثور للسّيوطي عِند تَفسِير الآيَة. (مِنْهُ ﵀).

قَالَ ٱبن البطريق فِي العُمدة: ١٣٧: ومِمَّنْ شَدّ الله بِهِ أَزْرَه وعضده فشاهده قوله تَعَالىٰ حَاكِياً عَنه: ﴿هَـٰرُونَ أَخِى ۞ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۞ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾. وقوله تعَالىٰ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ⇐

﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (القصص: ٣٥) فأثبت لهُ ولأخيه ولمن اتّبعهما الغلبة ولم تكن غلبتهما بالقوّة والكثرة، وإنّما كانت بالحجّة. وبيانه قوله تعالىٰ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾. وهو الحجّة... وقال تعالىٰ شاهداً لهُ بالخلافة في قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ (الأعراف: ١٤٢). وإذا كانت هذه المنازل حاصلة لهارون من موسىٰ عليه السلام وقد جعله النّبيّ ٩ بمنزلة هارون من موسىٰ وجب أن يثبت لهُ جميع منازل هارون من موسىٰ عليه السلام إلّا ما استثناه من النّبوّة لفظاً والأخوّة عرفاً.

ولمّا علم النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّ عليّاً عليه السلام يعيش بعده، وأنّ هارون مات في حياة موسىٰ وأنّه إن أطلق اللّفظ من غير تقييد بالإستثناء توهمت النّبوّة في جملة المنازل المستحقّة لهُ قال مستثنياً: إلا أنّه لا نبيّ بعدي.

وثبت لهُ أيضاً بما بيّناه من فرض الطّاعة ما ثبت للنّبي صلى الله عليه وآله، من فرض الطّاعة، فليتأمل ذلك، ففيه كفاية.

نُزيد إلىٰ هذه الوجوه قول ابن روزبهان في «إبطال الباطل» الّذي كتبه ردّاً علىٰ كتاب «نهج الحق»، فإنّه يقول: ـ

وأيضاً يُثبت به لأمير المؤمنين فضيلة الأُخوة والمؤازرة لرسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغ الرّسالة وغيرها من الفضائل وهي مُثبتة يقيناً لا شكّ فيه. (دلائل الصّدق: ٢ / ٣٨٩).

ويُشير ابن أبي الحديد إلىٰ فضيلة المؤازرة كما ينقلها المجلسي في بحاره، وكلامه هذا في شرح فقرة من خطبة القاصعة يروي فيها أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّك تسمع ما أسمع وترىٰ ما أرىٰ إلّا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير، وإنّك لعلىٰ خير. (راجع شرح النّهج لابن أبي الحديد: ٣ / ٢٥٥ ذو المجلّدات الأربعة طبعة دار إحياء التّراث العربي بيروت، بحار الأنوار: ٣٧ / ٢٧٠ ـ ٢٧١).

وقال الشّيخ الطّوسي تكملةً لهذه الوجوه:

وإذا أخرج الإستثناء منزلة النّبوّة وأخرج العرف منزلة الأُخوّة ـ لأنّ من المعلوم لكلّ من عرفهما عليهما السلام أنّه لم يكن بينهما أخوّة نسب ـ وجب القطع علىٰ ثبوت ما عدا هاتين المنزلتين. وإذا ثبت ما عداهما ـ وفي جملته أنّه لو بقي لخلفه ودبّر أمر أُمّته وقام فيهم مقامه وعلمنا بقاء أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله ـ وجبت لهُ الإمامة بعده بلا شبهة. (تلخيص الشّافي: ٢ / ٢٠٦).

وقال الشّيخ الصّدوق في معاني الأخبار:

↔ ومن منَازل هَارُون مِن مُوسىٰ بَعد ذَٰلِكَ أشيَاء ظَاهرة وأشيَاء بَاطنة، فمن الظَّاهِرة أنّه كَان أفضل أهْل زمَانه وأحبّهم إِلَيْهِ وأخصّهم بِهِ وأوثقهم فِي نَفسه، وأنّه كَان يَخلفه عَلىٰ قَوْمه إِذَا غَاب مُوسىٰ عليه السلام عَنهُم، وأنّه كَان بَابه فِي العِلم، وأنّه لو مَات مُوسىٰ وهَارُون حَيٌّ كَان هو خَلِيفته بَعد وفَاته. فالخَبَر يُوجب أنّ هَٰذِه الخِصَال كلّها لِعَليّ عليه السلام مِن النَّبيّ صلى الله عليه وآله، ومَا كَان من منَازل هَارُون من مُوسىٰ بَاطناً وَجب أنّ الَّذي لَم يَخصّه العَقل مِنْهَا كمَا خَصّ أخوّته بالولاَدة فهُو لِعَليّ عليه السلام من النَّبيّ صلى الله عليه وآله وإنْ لَم نَحط بِهِ عِلماً، لأنّ الخَبَر يُوجب ذَٰلِكَ. (مَعَانِي الأَخْبَار: ٧٥).

كمَا قَال العلاّمة المجلسي مزيداً عَلىٰ بيَان هَٰذِه الْوُجُوه:

مَدلُول الخَبَر صَريح فِي النَّصّ عَلَيْهِ عليه السلام لاسيّمَا وقَد أنضمّت إِلَيْهَا قَرائن أُخر، مِنْهَا الحَدِيث المشْهُور الدَّالّ عَلىٰ أنّه يَقع فِي هَٰذِه الأُمّة كلّ مَا وَقع فِي بَنِي إِسْرَائِيل حَذو النَّعل بِالنَّعل، ولَم يَقع فِي هَٰذِه الأُمّة ما يَشبه قِصَّة هَارُون وعِبَادة العِجل إلاّ بَعد وفَاة النَّبيّ صلى الله عليه وآله من غَصب الخِلاَفَة وتَرك نُصرة الوَصيّ. وقَد وَرد فِي روَايات الفَريقين أنّ أَمِير الْمُؤْمِنِين أستقبَل قَبر الرَّسُول صلوات الله عليهما عِند ذَٰلِكَ وَقَالَ مَا قَاله هَارُون: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾. ومِنْهَا مَا ذَكره جَمَاعَة مِن الْمُخَالفِين أنّ وصَاية مُوسىٰ وخِلاَفَته أنتهت إِلىٰ أولاد هَارُون، فمن منَازل هَارُون من موسىٰ كون أوْلاَده خَلِيفَة مُوسىٰ، فيلزم بِمقتضىٰ المَنْزِلَة أنْ يَكون الحَسنَان عليهما السلام المُسمّيان بأسميّ أبنَي هَارُون بأتفَاق الخَاصّ والعَامّ خَلِيفتي الرَّسُول، فَيلزم خِلاَفَة أبِيهمَا لعَدم الْقَوْل بالفَصل. (بِحَار الأَنْوَار: ٣٧ / ٢٨٨).

وَنِعمَ مَا قَالَ الصَّحَابِي الْكَبِير بأوجز بيَان كمَا يَرويه الشَّيخ الصَّدوق فِي مَعَانِي الأَخْبَار:

عَن أَبِي هَارُون العَبدي قَال: سَألت جَابر بن عبدالله الأنْصَاري عَن معنىٰ قَوْل النَّبيّ صلى الله عليه وآله لِعَليّ عليه السلام: «أنتَ منّي بِمنزلة هَارُون مِن موسىٰ إلاّ أنّه لا نَبيّ بَعدي» قَال: أستخلفه بِذَٰلِك والله عَلىٰ أُمّته فِي حيَاته وبَعد وفَاته، وفَرض عَليهم طَاعته، فمَن لَم يَشهد لهُ بَعد هَٰذَا الْقَوْل بِالخِلاَفَةِ فهُو من الظَّالمين. (مَعَانِي الأَخْبَار: ٧٤).

وَنَختُم الكَلاَم بِذكر فَوَائِد:

الأُولَىٰ: يَذكر السَّيِّد عَليّ بن طاووس فِي الطَّرائف: ٥٣ ـ ٥٤ كتَاباً لأبِي القَاسم التَنُوخي فِي حَدِيث المَنْزِلَة وروَايته عن الصَّحَابَة والتَّابعِين. وإنّ أبن طَاووس رَأىٰ نُسخة عَتِيقة مِنْهُ يَصفه فِي الطَّرائف. والتَّنُوخي هَٰذَا (٢٧٨ ـ ٣٤٢) تَرجمة الشَّيخ الأَمِيني فِي الغَدِير: ٣ / ٣٨٠ ـ ٣٨٧.

↔

الثَّانِيَة: قَال بَعْض المُخَالفِين: إنّ المُرَاد من الحَدِيث أستخلاَفه عليه السلام بالمَدِينَة حِين ذهَاب الرَّسُول إلىٰ تبُوك فَحسب. كما أستخلَف موسىٰ هَارُون عِند ذهَابه إلىٰ الطّور. قَال الشّيخ المُظفر فِي جُواب هَذِه الشّبهة: هو خَطأ ظَاهر لأنّ مُجرّد وقُوع الإستخلاَف الخَاصّ من مُوسىٰ لا يَدلّ عَلىٰ أختصَاص خلاَفَة هَارُون فِي ذَلِكَ المُورد دُونَ غَيْره، فكَذَا أستخلاَف النَّبي صلى الله عليه وآله لِعَليّ عليه السلام بل العِبرة بعمُوم الحَدِيث مَع أقتضَاء شِركة هَارُون لمُوسىٰ فِي أمره ثبُوت الخِلاَفَة العَامَّة لهُ فكذَا عَليّ عليه السلام. ويَدلّ عَلىٰ عَدم إرَادَة ذَلِكَ الاِسْتخلاَف الخَاصّ بخصُوصه ورُود الحَدِيث فِي موَارد لا دَخل لَهَا بِهِ. (دلاَئل الصّدْق: ٢ / ٣٩١ و ٣٩٢).

أَقُول: يُعدّ مِنْهَا حَدِيث المُؤاخَاة، وحَدِيث سَدّ الأبوَاب، وتَسمِيَة الحَسَنين بِشَبر وشُبير، وغَزوَة خَيبر، ويُوم الدَّار، وموارِد أُخرىٰ ذَكر بَعْضهَا المُصَنِّف فِي الكتَاب وغَيْره فِي غَيْره.

وَقَالَ الشَّرِيف المُرتضىٰ جوَاباً آخر لِهَذه الشُّبهة فِي الشَّافي كمَا نَقل عنهُ فِي بحَار الأَنْوَار: ٣٧ / ٢٨٥ و ٢٨٧ فراجع إنْ شِئت.

الثّالثة: قَال الفَخر الرّازي فِي تَفْسِيره لقوله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ... فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ (طه: ٩٠) مَا مُلخّصه: إنّ هَارُون مَا مَنعته التّقِية فِي مِثل هَذَا الجَمع العَظِيم بل صَرّح بِالحَقّ. وإنّ الرَّافضة يُشبّهون عَلِيّاً عليه السلام بهَارُون مع أنّ عَلِيّاً لَم يَفعل مِثل مَا فَعله هَارُون.

وَأورد الشّيخ الحرّ العَاملي فِي الفَوائِد الطّوسِية: فِي جوَابه أثني عَشر وَجهاً، نَذكر مُلخص بَعْضهَا:

(أ): إنّ هَارُون صرّح بمدّعَاه لأنّه كَان لهُ ناصرٌ وهو مُوسىٰ. فكَان واثقاً بأنّه يُبيّن لهُم الحَقّ والأُمّة مَقرّون بنُبُوّته، وعَليّ عليه السلام لَم يَكُن لهُ نَاصرٌ بَعد مَوْت النَّبيّ، والحَسنان عليهما السلام كَانا مُتّهمين عِندهُم فِي ذَلِكَ فظهَر الفَرق.

(ب): إنّ هَارُون تَرك الحَرْب والجِهَاد مَع عُبّاد العِجل، وَقَالَ: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (طه: ٩٤).

وَقَال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ (الأعرَاف: ١٥٠). فظَهر أنّه مَنعه الخَوف مع المُبالغة فِي ذَلِكَ، وعَليّ عليه السلام قَد قَال لهُم نَحْو مَا قَاله هَارُون فَلم يُقبل مِنهُ، فتَركهُم كمَا تَركهُم هَارُون، مع إنّه تقَاعد عن بَيعتهم مُدّة طَوِيلة.

(ج): إنّه عَلىٰ قَول الرّازي: العِصْمَة مَنفيّة عن النّبيّ والإمَام، فَترك عَليّ لِهَذه الكَلمَة ـ لو سَلّم ـ لا يَقدح فِي إمَامته لكَونها من الصّغائر، وَهَذَا الزّاميّ للرّازي بِحَسب مَا يَعتقده. (الفوائد الطّوسِية: ١٤ / ١٨).

الرَّابِعَة: قَال العَلاّمة المَجلسِي:

إنّا لَو سَلّمنا لِلخَصم جَمِيع مَا يُناقشنا فيهِ مَع أنّا قَد أقمنَا الدّلائل عَلىٰ خِلاَفها فلاَ يُناقشنا فِي أنّه يَدلّ عَلىٰ أنّه عليه السلام كَان أخصّ النّاس بالرّسول وأحبّهم إلَيْهِ، ولا يَكُون أحبّهم إلَيْهِ إلاّ لكُونه أفْضَلهم، فَتقدِيم غَيْره عَلَيْهِ مِمّا لاَيقبله العَقل ويَعدّه قَبِيحاً، وأيّ عَقل يُجوّز كُون صَاحب المَنْزِلَة الهَارُونية مَع ما انضمّ إلَيْهَا من سَائر المَناقب العَظِيمة والفضَائل الجَلِيلة رَعيّةً وتَابعاً لمن لَيْس لهُ إلاّ المَثالب الفَظِيعة والمقَابح الشّنِيعة؟!
والحَمْد لله الّذي أوضَح الحَقّ لطالبِيه ولَم يَدع لأحد شُبهة فِيهِ. (بحَار الأَنْوَار: ٣٧ / ٢٨٩).

المؤاخاة الأُولَىٰ والثَّانِيَة:

سَبق وأنْ بيّنا معنىٰ الأُخوّة وأقْسَامِها ومعَانيها، ونُشير هُنا إلىٰ المُؤاخَاة الأُولىٰ والثّانِيَة كَما ذَكرها صَاحب الرّوض الأُنف: ٢ / ٢٥٢، والطّبَرِيّ فِي تَأرِيخه.
أمّا المُؤاخَاة الأُولىٰ: فَكَانَتْ فِي مَكّة بين أصْحَابه من قُرَيْش ومواليهم ـ العَبِيد المُعتقِين ـ فآخىٰ بَيْنَ عَمّه حَمْزَة بن عبدالمُطّلب ومَوْلاَه زَيد بن حَارثة، وبَيْنَ عُبَيْدَة بن الحَارث بن عبدالمطّلب وبِلال مَوْلَىٰ أبِي بَكْر، وبَيْنَ أبِي عُبَيْدَة بن الجَرّاح وسَالم مَوْلَىٰ أبِي حُذَيْفَة. وقد آخىٰ بَيْنَهُمْ عَلىٰ الحَقّ والمواسَاة، والهَدف مِنْهَا هُو تَحطِيم الاعْتِبَار الطّبقِي والقَبلي والاقْتِصَادي إلىٰ جَانب التّعمّق الايمَاني بَيْنَهُم.
وأمّا المُؤاخَاة الثّانِيَة: فَقد كَانَتْ فِي المَدِينَة بَيْنَ المُهَاجِرِين ـ أحراراً ومَوالي ـ والأَنْصَار. وهَذِهِ المُؤاخَاة هِي الّتي اقتضت المُشاركة فِي الأموَال والموَارِيث إلىٰ أنْ رُفع هَذَا الحُكم. بقوله تَعَالىٰ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأَنْفَال: ٧٥، الأَحْزَاب: ٦٠) ولَسْنَا بِصدد شَرح الأُخوّة لأننا ـ كما ذكرنا ـ سَبق وأنْ فصّلنا فِي ذَٰلِكَ.

أمّا مَا يَخصّ أُخوّة عَليّ عليه السلام ورَسُول الله صلى الله عليه وآله، فَهِيَ كمَا أسْلفنا سَابقاً فَمَن أرَاد فليرَاجع بالإضَافة إلىٰ قوله عليه السلام «لا زَال يَنقله من الآبَاء الأخْيَار» وثانِياً: أنّ فَاطِمَة بِنت أسد ـ أمّ الإمَام عَليّ عليه السلام فقَد رَبته صلى الله عليه وآله حَتّىٰ قَال فِيها «هِي أُمّي» كمَا ذكرنا سَابقاً أيضاً. والأب أبوَان: أبٌ ولاَدة، وأبٌ إفَادة، ثُمّ إنّه يُطلق حَتّىٰ عَلىٰ العَمّ أنّه أبٌ، ووَالد كمَا فِي قوله تَعَالىٰ ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البَقرَة: ١٣٣) وإسْمَاعِيل عليه السلام كَانَ عَمّه وكذَٰلِك قوله تَعَالىٰ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ (الأَنْعَام: ٧٤) وقَد أجمَع

وَقَالَ مُسْلِم فِي صَحِيحه : إنّ رَسُول الله قَال لِعَلي : «أمَا تَرضَىٰ أنْ تَكُون مِني بِمنزِلَة هرُون مِن مُوسىٰ»[1].

⇐ المُؤرخُون علىٰ أنّ اسم أبِي إبْرَاهِيم «تارخ» وكَان آزر عَمّه ﷺ.

ومِن هٰذَا وذَاكَ قَال ﷺ كما ذكر جَابر الأنْصَاري: يَا جَابر أيّ الإخْوَة أفضَل ؟. قَال: قُلت: البَنُون من الأبِ، والأُمّ فقَال: إنّا مِعاشر الأنْبِيَاء إخوَة، وأنَا أفضَلهم، ولأحبُّ الإخوَة إليّ عَليّ بن أبي طَالب. (البُرهان في تَفسِير القُرآن: ٤/ ١٤٨). ولذَا لا يَبْقَ لإبْن تِيمِية حُجّة في إنْكَاره المُؤاخَاة في مِنْهَاج السُّنّة: ٢/ ١١٩ ولاَ لإبْن حَزم فِي المِلل والنّحل في ردّ أُخوّة عَليّ ﷺ مع رَسُول الله ﷺ مع أنّها من الأحَادِيث المُتوَاترة كمَا أسلفنا. (رَاجع جَامع التّرمِذي: ٢/ ٢١٣، ومصَابيح البَغوي: ٢/ ١٩٩، والمُستَدرَك: ٣/ ١٤ والاِستِيعَاب: ٢/ ٤٦٠، وتيسِير الوصُول: ٣/ ٢٧١، ومشكَاة المَصَابِيح هَامش المُرقاة: ٥/ ٥٦٩، والرّياض النّضرة: ٢/ ١٦٧).

(١) أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/ ١٠٨ طَبعة سَنَة ١٣٤٨ هـ. (مِنهُ ﷺ).

إنّ لفظَة «منّي» فِي حَدِيث المَنْزِلَة «أنتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُون من مُوسَىٰ إلاّ أنّه لَيْس نبيّ بَعدِي» كمَا ذَكر ذَلِكَ البُخَاريّ فِي صَحِيحه: ٢/ ٢٠٠، وصَحِيح مُسْلِم: ٧/ ١٢٠، والتّرمِذي: ١٣/ ١٧١، والطّيَالسِي: ١/ ٢٨/ ٢٠٥ و ٢٠٩ و ٢١٣، وأبن مَاجه: ح ١١٥، وأحمد فِي مُسْنَده: ١/ ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٤و ١٨٥ و ٣٣٠، و: ٣/ ٣٢ و ٣٣٨، و: ٦/ ٣٦٩ و ٤٣٨، ومُستَدرَك الحَاكِم: ٢/ ٣٣٧، وطَبقَات أبن سَعد: ٣/ ١ و ١٤ و ١٥، ومَجْمَع الزّوائد: ٩/ ١٠٩ وفِي لفظٍ آخر لمُسلم «إلاّ أنّه لا نَبي بَعدِي» فلفظة «منّي» توضّح المُرَاد من المَعْنَىٰ، وذَلِكَ أنّ هَارُون لمّا كَانَ شَريكاً لمُوسَىٰ فِي النُّبوّة، ووزِيره فِي التّبليغ، وكَان عَليّ ﷺ من خَاتم ٱلأنْبِيَاء ﷺ كَذَلِكَ بأستثنَاء النُّبوّة، فَتبقَ لِعَلي ﷺ الوزَارة فِي التّبليغ، وكَذَلِكَ لأوْلاَده: فِي حمل أعبَاء التّبليغ إلىٰ المكلّفين مُباشرة، ولذَا فَهُم: مِنْهُ ﷺ وهو مِنْهُم، يَشتركُون فِي التّبليغ ويَختلفُون فِي أنّه ﷺ يأخذ الأحْكَام الّتي يُبلّغها من الله عن طَريق الوَحي، وهُم يَأخذونَها عن طَرِيق رَسُول الله ﷺ فهُم مُبلّغون عَن رَسُول الله إلىٰ الأُمّة. وقد أعدّهم الله ورَسُوله لحمل أعبَاء التّبليغ، وذَلِكَ بِمَا عَصمهم من الرّجس وطهّرهم تَطهيراً كمَا ورد فِي الآيَة ٱلكَرِيمَة.

وهٰذَا فإنّ الرّسُول الأكرَم ﷺ كَان مُدركاً أنّ قَوْمه حَديثو عَهد بِالجَاهِلِيّة، وأنّهم طَالما عَارضُوا أحْكَامه وقَرَارَاته عِدّة مرّات كمَا حَدث فِي صُلح الحُدَيْبِيَة وأُحد وحُنين وأثنَاء مَرضه ﷺ فِي ٱلكِتَاب والدّواة وسَرِيّة أُسامة وصَلاة ٱلجُمُعَة أثنَاء إقبال العِير المحمّلة بالبضَاعة. ولذَا نَجد أنّ عَمليَة التّبليغ الّتي ⇐

⇐ نَفَذها النَّبيّ ﷺ قد جَرت أَمَام عشرَات الآلاف من ٱلْمُسْلِمِين، وأَنّ ٱستثنَاء النُّبوّة جَاء لئلَا يَتوهم مُتوهم أنّ الله تَعَالَىٰ قَد جَعل لعَليّ الشّركة فِي النُّبوّة. وإننَا نَعلم أنّ الإِمَامَة مَوقُوفة عَلَىٰ تَنصِيص الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ كما أنّ النُّبوّة موقُوفة علىٰ تَنصِيص البَاري عزّ وجلّ.

كما أنّ الأَمْر بالتَبليغ جَاء فيهِ تَهدِيد ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وإعْلاَمه ﷺ وإعْلاَم غَيْره مَا لِهَذَا الحُكْم من الأهمّية بِحيث إِذَا لَم يَصل الحُكْم، وحَاشا للنَّبيّ ﷺ أنْ لا يُبلّغ مَا أَمْرَه الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، أمّا قَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لفظ النّاس ٱعتبَاراً بسوَاد الأَفرَاد الّذي فِيهِ ٱلْمُؤْمِن والْمُنَافِق والّذي فِي قَلْبه مَرض، فالْعِصْمَة هُنا بِمَعْنَىٰ الحِفظ والوقَاية من شرّ هَؤُلَآء.

وبالتّالي فالْمَعْنَىٰ يَكُون: مَن كنتُ مُتقلّداً لأمرِه وقَائِماً بِهِ فعَليٌّ مُتقلّد أمْرَه والقَائم بِهِ، وَهَذَا صَرِيح فِي زعَامة الأُمّة وإمَامتها وولاَيتها، وثَبت لعَليّ مَا ثَبت لرَسُول ﷺ من الْوِلاَيَة الْعَامّة والزّعَامة والتّصدّي لشأنٍ من شُؤُون الغَيْر، وَهِي فِي قبَال العدَاوة وَهِي التّجاوز والتّعدّي عَلَىٰ الغَيْر والتّصرّف فِي شُؤُون الغَيْر مُطلقاً، ويَدلّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ٱلتَّوْبَة: ٧١. وقَوْله تَعَالَىٰ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٢٥٧.

وتَبقَىٰ شَنْشَنة أبن تَيمِية وأَصْحَابه بأنّه دُعاء، ودُعَاء النَّبيّ ﷺ مُستجاب، وَهَذَا الدّعَاء لَيْس بِمُستجَاب، فالنّتِيجة أنّه لَيْس دُعاء من قِبل النَّبيّ ﷺ.

والجَوَاب أيضاً من أوضح الوَاضحات؛ لأنّ الأُمّة مُجمعَة عَلَىٰ أنّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين ﵇ بَعد قَتل عُثْمَانَ لَم تَحصل لهُ الإمَامَة بِنصٍّ من رَسُول الله ﷺ يَتناول تِلك الفَتْرَة الزّمنية والإخْتصَاص بها دُونَ ما تقدّمها من الزّمن، بل إنّ الْوِلاَيَة كَانَتْ لهُ قبل ذَلِكَ. فولاَيته عَامّة كَمَا كَانَتْ وِلاَيَة النَّبيّ ﷺ عَامّة ويَدلّ عَلَىٰ ذَلِكَ كَلِمَة «مِن» المَوْصُولة. ولذَا نَجد أبن خَلدُون يَقفز وَلَم يُشر إِلَيْهَا عَلَىٰ الرّغم مِن أنّه ذَكر كلّ مَا حَدث فِي حَجّة الوداع، ولكن قَفزه هَذَا دَليل عَلَىٰ نظريته حَوْلَ الإِمَامَة والتّأريخ. فإذَا أَورَد الحَدِيث فإنّ ذَلِكَ يُنَاقض نَظريته حَوْلَ الإِمَامَة الّتي يَرىٰ فِيها أمراً دُنيوياً يَقُوم عَلَىٰ مَصالح النّاس ولا مَدخلِية للنّصّ فيها. وٱدّعىٰ بأنّ الحَدِيث لَم يَنقله البُخَاريّ ومُسْلِم والوَاقدي ولكن أبن تَيمِية وأمثاله يَعرفُون حَقّ المَعْرِفَة أنّ عَدم النَقل لا يَدلّ عَلَىٰ القَدح فِي الحَدِيث.

أُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣١٥/٥ ح ٨٢٩٩ و ٨٣٣١، الْبيَان والتّعريف: ١١٠/٢، فتح ⇐

⇐ البَاري: ٧٤/٧ و: ٦٥/٩، التَّمهيد لِابْن عبدالبَرّ: ١٣٢/٢٢، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٥٧/١٠، شَرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلِم: ١٧٤/١٥، شَرح سنن أبن مـاجه: ١٢/١ ح ١١٥، الدِّيباج: ٣٨٧/٥ ح ٢٤٠٤، التَّأريخ الْكَبِير: ٧٥/١ ح ٣٣٣ و: ٣٠١/٧ ح ١٢٨٤، حلية الأَوْلِيَاء: ٣٤٥/٤ و: ١٨٤/٧ و: ٣٠٧/٨، السُّنَّة لِابْن عَاصِم: ٥٦٥/٢ ح ١١٨٨ و ١١٨٩ و ١٣٣١ و ١٣٣٥ و ١٣٤٦ و ١٣٤٧ و ١٣٥١ و ١٣٨١ و ١٣٨٢، السُّنَّة للخَلال: ٢٤٧/٢ ح ٤٦٠ و ٦٠٢، من حَدِيث خُثَيمة: ١٩٩/١، أَمَالي المحَاملي: ٢٠٩/١ ح ١٩٤ و ٢٤٤، تهذِيب التَّهذِيب: ٢٠٩/٢ و: ١٦٠/٥ ح ٣١٦ و: ٨٤/٦ ح ١٩١ و: ٢٩٦/٧، تهذِيب الكَمَـال: ٢٧٧/٥ ح ١٠٤١ و: ٣٣٢/٧ ح ١٥٠٨ و: ٤٤٢/٨ ح ١٧٨٣ و: ٣٤٥/١٦ ح ٣٦٨٠ و: ٤٨٣/٢٠ و: ٣٩٥/٢٥ ح ٥٣٠١ و ٥٣١٤ و: ٤٨٢/٣٢ ح ٧١٦٦ و: ٢٦٣/٣٥، تـذكرة الحُـفاظ: ١٠/١/١ ح ٤، سِير أَعْلام النُّبلاء: ١٤٢/١ و: ٢١٤/١٢ و: ٣٤١/١٣ و: ٢١٠/١٤، مَعرفة الثِّقات: ١٨٣/٢ و ٤٥٧ ح ٢٣٤٦، الثِّقات: ٩٣/٢، مِيزان الإِعْتِدَال: ٣٢٤/٢ ح ٢١٣٥ و: ٣/٣ ح ٢٥٩٠ و: ١٤٩/٥ ح ٥٨٢٢ و ٦٠١٥، لِسَان المِيزان: ٣٢٤/٢ ح ١٣٢٧ و: ٣٧٧/٥ ح ١٢٢٧، صَحِيح مُسْلِم: ١٨٧٠/٤ ح ٢٤٠٤، صَحِيح البُخَاريّ: ١٣٥٩/٣ ح ٣٥٠٢ و ٤١٥٤، صَحِيح أبن حبّان: ٣٦٩/١٥ ح ٦٩٢٦ و ٦٩٢٧، المُسْتَدرَك عـلىٰ الصَّحِيحِين: ٣٦٧/٢ ح ٣٢٩٤ و: ١١٧/٣ ح ٤٥٧٥ و ٤٦٥٢، الأَحَادِيث المُخْتَارة: ١٥١/٣ ح ٩٤٨ و ١٠٠٨، سُنَن التِّرمِذي: ٦٣٨/٥ ح ٣٧٢٤ و ٣٧٣٠ و ٣٧٣١، مَجْمَع الزَّوائد: ١٠٩/٩، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ١٠٧/٥ ح ٨٣٩٩ و ٨٤٣١ و ٨٤٣٤ و ٨٤٣٦ و ٨٤٤٠ و ٨٤٤٤ و ٨٤٤٥ و ٨٤٤٨ و ٨٤٤٩ و ٨٥١١، مُعجم الشّيوخ: ٢٤٠/١، مُسْنَد أحمد: ١٧٠/١ ح ١٤٦٣ و ١٤٠٩ و ١٥٠٥ و ١٥٠٩ و ١٥٤٧ و ١٦٥٠ و ١٦٠٨ و ٣٠٦١ و: ٣٢/٣ ح ١١٢٩٠ و ٢١٤٦٧ و: ٣٦٩/٦ ح ٢٧١٢٦، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٧٠/١ ح ٤٨ و ١٨٨ و ٢٥٨ و: ٥٧/٢ ح ٦٩٨ و ٧١٨ و ٧٥٥ و ٨٠٩، مُسْنَد سَعد: ٥١/١ ح ١٩ و ٧٥ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢، مُسْنَد الحَمِيدي: ٣٨/١ ح ٧١، المُعْجَم الصَّغِير: ٨٤/٢ ح ٨٢٤٠ و ٩١٨، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٢٨/١ ح ٢٠٥، الآحاد والمثاني: ١٧٢/٥، مُسْنَد أبي الجَعد: ٣٠١/١ ح ٢٠٤٠، المُعْجَم الكَبِير: ١٤٦/١ ح ٣٢٨ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و: ٢٤٧/٢ ح ٢٠٣٥ و: ١٧/٤ ح ٣٥١٥ و ٤٠٨٧ و: ٢٠٣/٥ ح ٥٠٩٤ و ٥٠٩٥ و: ٧٤/١١ ح ١١٠٨ و ١١٠٩ و: ١٨/١٢ ح ١٢٣٤١ و ١٢٥٩٣ و: ٢٩١/١٩ ح ٦٤٧ و: ١٤٦/٢٤ ح ٣٨٤ و ٣٨٧ و ٣٨٨، طـبقات المحدثين بأصـبهان: ٢٦٤/٤ ح ٦٥٥، الإِسْتِيعَاب: ١٠٩٧/٣، الطَّبَقات الكُبْرَىٰ: ٢٣/٣، الإِصَابَة: ٥٦٤/٤ ح ٥٦٩٢، نُزهة ⇐

النَّبِيّ وَالشَّجَرَة...فِقْرَة ٢٨ ـ ٣١:

وَ لَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ـ ﷺ ـ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَ لاَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ، وَ نَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ ، وَ أَرَيْتَنَاهُ ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ، وَ رَسُولٌ ، وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ ، كَذَّابٌ . فَقَالَ ﷺ : «وَ مَا تَسْأَلُونَ » ؟ قَالُوا : تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّىٰ تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا ، وَ تَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَقَالَ ﷺ : «إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فَإِنْ فَعَلَ اللهُ لَكُمْ ذَلِكَ ، أَ تُؤْمِنُونَ وَ تَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ »؟ قَالُوا : نَعَمْ[٢٨] ، قَالَ : «فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لاَ تَفِيئُونَ إِلَىٰ خَيْرٍ ، وَ إِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ ، وَ مَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ » . ثُمَّ قَالَ ﷺ : «يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَ تَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّىٰ تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللهِ »[١] . فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لاَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا ، وَ جَاءَتْ وَ لَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ ، وَ قَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ ، حَتَّىٰ وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُرَفْرِفَةً ، وَ أَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَىٰ عَلَىٰ

⇐ الحفاظ: ١٠٢/١، كشف الخَفَاء: ٥١٦/٢ ح ٣١٧٧ و ٣١٨٧، سُبل السَّلام: ٤٤/١، الرِّياض النَّضرة: ١٨٢/٢ ح ٦٥٨ و ٦٥٩، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَد بن حَنبل: ٥٦٦/٢ ح ٩٥٤ و٢٩٥٧ و ١٠٠٥ و ١٠٢٠ و ١٠٤١ و ١٠٤٥ و ١٠٧٩ و ١٠٨٥ و ١٠٩١ و ١٠٩٣ و ١١٤٣، السِّيرة النَّبَوِيَّة لِابْن هُشام: ١٩٩/٥، سُنَن آبن مَاجه: ٤٢/١ ح ١١٥ و ١٢١، مُسْنَد البَزار: ٣٨/٤ ح ١٢٠٠، مُسْنَد الشَّاشي: ١٢٧/١ وص: ١٦٥٦ ح ١٠٥ و ١٠٦ و ١٣٤ و ١٣٧ و ١٤٧، المُعْجَم الأوسط: ١٣٩/٣ ح ٢٧٢٨ و: ٢٨٧/٥ ح ٥٣٣٥ و: ٧٧/٦ ح ٥٨٤٥ و ٥٨٦٦ و: ٣١١/٧ ح ٧٥٩٢ و: ٤٠/٨ ح ٧٨٩٤.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لُمحَمّد عَبْدَه: ١٦٠/٢، الطَّرَائف لِابْن طَاوس: ٤١٥، نَهج الإِيمَان: ٥٣٢، الغَارات: ٦٩٢/٢، الثَّقافة الرُّوحِية في إنجيل برنَابا لَمحمُود عَليّ قَرَاعة: ٢٦٣، إعْلام الوَرىٰ للطَّبرسي: ٧٤/١، بِحَار الأَنْوَار: ٣٨٩/١٧ ح ٥٩، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢١٣/١٣، الْهِدَايَة الْكُبْرَىٰ: ٥٧، مناقب آل أَبِي طالب: ١١٢/١، كشف الغُمّة: ٢٤/١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢١٠/١.

رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَ بِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَىٰ مَنْكِبِي ، وَ كُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ ﷺ(٢٩) . فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَىٰ ذَلِكَ ـ قَالُوا عُلُوّاً وَ اسْتِكْبَاراً ـ : فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَ يَبْقَىٰ نِصْفُهَا ، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ ، وَ أَشَدِّهِ دَوِيّاً ، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالُوا ـ كُفْراً وَ عُتُوّاً ـ : فَمُرْ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَىٰ نِصْفِهِ كَمَا كَانَ ، فَأَمَرَهُ ﷺ فَرَجَعَ ، فَقُلْتُ أَنَا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَ أَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ ، وَ إِجْلاَلاً لِكَلِمَتِكَ(٣٠) . فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ : بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ ، وَ هَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلاَّ مِثْلُ هَذَا ! (يَعْنُونَنِي) وَ إِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لاَ تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ ، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ ، وَ كَلاَمُهُمْ كَلاَمُ الْأَبْرَارِ ، عُمَّارُ اللَّيْلِ ، وَ مَنَارُ النَّهَارِ ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللهِ ، وَ سُنَنَ رَسُولِهِ ، لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ، وَ لاَ يَعْلُونَ ، وَ لاَ يَغُلُّونَ ، وَ لاَ يُفْسِدُونَ(٣١) . قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ ، وَ أَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ !

اللُّغَة:

لَا تَفِيئُونَ : لَا تَرْجِعُون . والْقَلِيبِ : الْبِئْرُ . وقَصْف الرَّعْد : اشْتَد صَوْته ، وقَصْف البَعِير : هَدَر فِي الشَّقشِقَة .

الإِعْرَاب:

مُرَفْرِفَةً مِن الضَّمِير المُستَتر فِي وَقَفَتْ ، وعُلُوّاً فِي وَقَفَتْ ، وعُلُوّاً مَفْعُول مِن أجلِهِ لقَالُوا ، ودَوِيّاً تَمْيِيز ، وتَصْدِيقاً مِن أجلِهِ ، وسَاحِرٌ خَبَر لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هُو سَاحِرٌ ، وعُمَّارُ اللَّيْلِ أي هُم عُمَّارُ اللَّيْلِ .

الْخَوَارِق وَالمُعْجِزَات:

هَذَا الحَدِيث عَن الشَّجَرَة وَاضح لاَ يَحتَاج إِلىٰ تَفْسِير، وقَدِيماً قِيل: تَوضِيح الوَاضحَات مِن أشْكل المُشْكِلاَت... ومِن المُفِيد أنْ نُشِير بهَذه المُنَاسبة إِلىٰ مَن يُنْكر الخَوَارِق والمُعْجِزَات، إنّمَا يُنكرها لِسَببٍ وَاحد، وهُو أَنَّهَا خَرق لِسُنن الطَّبِيعَة، وَهَذَا مَا يَرفضَه العِلم بِمعنَاه الحَدِيث.

أَوّلاً: إِنّ خَرق الْعَادَة لَيْسَ بِعَزِيز. ومَا أَكْثَر مَا روىٰ الرُّوَاة من ذَٰلِكَ عَلىٰ مَرّ العصُور... وفِي هَذهِ السَّنَة ١٩٧٢م الّتي نَحْنُ فِيها نَشرَت الصُّحف طَرفاً مِن هَذَا البَاب، ومِنْهُ مَا جَاء فِي جَرِيدَة «أخْبَار اليَوْم» المِصْرية: «إِنّ رَجُلاً مَشهُوراً فِي أمرِيكا «برويك» إذَا تَصَور جِسماً ٱنعَكَست صُورته فِي عَينِيه، وقَد تضَايق مِن كَثْرَة تَردُد الْعُلَمَاء عَلِيهِ، ويَأتِيه أحدهُم وَمَعه الكَامِيرا، ويَطلب مِنْهُ أنْ يَتصَور الأَهْرَام، أو بُرج إيفل ـ مَثلاً ـ ثُمّ يَجعل عَدَسة الكَامِيرا فِي موَاجهة عَينِي «برويك» وبَعد أنْ يَأخذ صُورَة الْعَيْنِين يَفْحَصَها ويَطبعَها مِرَاراً، فتَأخذه الدَّهشَة حِين لاَ يَرىٰ فِي الصُّورَة إلّا الشَّيء الَّذي طَلبه... وأحدَث تَجْرِبَة قَام بِها «برويك» هِي أنّه طَلب إِلىٰ ثَلاثة مِن المُصورِين أنْ يَقفُوا أَمَامه فِي وَقتٍ وَاحد، ثُمّ نَظَر إِلىٰ العَدَسَات الثّلاَث الوَاحدة تُلو الأُخرىٰ، فٱلتَقَطت كلّ عَدَسة مِن عَينِيه صُورة لِمَبنىٰ الأُمم المُتحدَة من أرْبع جِهَات مُختَلفة»[1].

وأيضاً يُوجد الآن فِي «هولندا» رَجُل عَجِيب ٱسمه «سريوس» يَسْتَطِيع أنْ يُحرك أي شَيء خَفِيف الوَزن كٱلْقَلَم بِمُجرد النَّظر إِلَيْهِ إذَا شَاء... وتَحَير الْعُلَمَاء فِي

(١) أنظر، تأريخ الجَريدَة: ٢٢ ـ ٧ ـ ١٩٧٢م. (مِنْهُ ﷺ).

تَفْسِير هَذِه الظَّاهِرة وتِلك، وبحثُوا، وأطَالوا الْبَحْث الدَّقِيق فِي عَينِي «سريوس» ودَمَاغ «برويك»، ولَكِنَّهُم لَم يَصلوا إلىٰ شَيء... فهَل يَجب علَينا أنْ نُـنكر الشّيء الَّذي رَأينَاه بِالْعَيْن ولَمَسْنَاه بِـاليَد ـ لا لشَيء إلّا لأنّ العِـلم الحَـديث عَـجز عـن تَفْسِيره؟ إنّ العِلم يُفسر الأَشْيَاء الَّتي تَسِير عَلىٰ مَبدأ النّظام، ولاَ نظَام لِـلشّذُوذ. ولذَا قِيل: الشَّاذ لاَ يُقَاس عَلَيْهِ، وهَذِه الّتي أشَرنَا إِلَيْهَا كلّها شَاذة، ولَكِنَّها مُمكِـنَة الوقُوع.

ثَانِياً: يَجب أنْ نُفرق بَيْنَ مَرتَبة الإمْكَان وجُوَاز حدُوث الشّيء عَـقلاً، وبَـيْنَ وقُوعَه بِالفِعْل، ولا نَخْلط بَيْنَهما، فإذَا أردنَا أنْ نُثبت أو نُنفي حَادثة مَا تَعين علَينَا أنْ نَبدأ أوّلاً مِن مَرْحَلة الإمْكَان والجُوَاز، فإنْ كَانَتْ الحَادثَة جَائزَة الوقُوع فِي ذَاتِها ـ اَنْتَقلنَا إِلىٰ مَرتَبَة الوقُوع، ونَظرنَا: هَل وَقعت أَم لاَ، كَالصّعُود لِلقَمر، أمّا إذَا كَانَتْ الحَادثَة مُمتنعَة الوقُوع عَقلاً وذَاتاً ـ فيَجب نَفيهـا بلا تُوقف وبَحث، لأنّ مَا اَمْـتَنع إمْكَانه اَمتَنع وقُوعه حَتماً، ومِثل دخُول الجَمَل بطُوله وعَرضه فِي سَمّ الخِيَاط عَلىٰ ضِيقِهِ. والمُعْجِزَة بِشتىٰ أنوَاعها مُمكِنَة الوقُوع، فإذَا نُقلت إلينَا بطَرِيق صَحِيح وَجَب التَّصدِيق[1].

وبِكلاَمٍ آخر إنّ عَالم الإمْكَان مُـتقدم عَـلىٰ عَـالم الوجُـود فِي الخَـارج بِحُكـم

---

(١) المُعْجِزَة: هي الفِعْل النّاقض للعَادة يَتحدىٰ بِهِ الظّاهِر في زمَان التّكليف لتَصدِيق مُدع في دَعواه. وقـيل: أمرٌ خَارق للعَادة مَقرُون بالتّحدي مَع عَدم المُعارضة. وقِيدها بِالأمر لأنّ المُعْجِزَة قَد تَكُون بِالمُعتاد، وقَد تَكُون مَنعاً من المُعتاد، وقِيدها بِمَقرُونة بِالتّحدي، لئلا يَتخذ الطّالب مُعْجزَة غَيْر حجّة لِنفيه، ولِيتَميز عن الأرْهَاص والكرَامَات، وقِيدهَا مَع عَدم المُعَارضة لِيتَميز عَن السّحر والشّعبذة...الخ. (بِتصرف عَن رَسَائل المُرتَضىٰ: ٢/٢٨٣).

البَدِيهَة.. والْعَقْل هُو الَّذي يُفسر لنَا أنّ هَذَا الشّيء يُمكن أنْ يُوجد، أو يَسْتَحِيل وجُوده فِي ذَاته... وإذَنْ فمسألة الإمْكَان نَظرِية عَقلِية بَحتة، فَإذَا حَكَم العَقْل بِإمْكَان وقُوع الشّيء كَالصّعُود لِلقَمر والمرِيخ ـ بَحثنا عَنْهُ فِي عَالم الوجُود، ولكن لا يَصح بِحَال أنْ نَنفِيه، أو نُثبته إلّا بالملاحظة والمُشاهدة مُباشرة، أو بالرّوَاية الصّادقة عمّن شَاهد وعَاين، ولا مَيدَان لِلعَقل ونَظريَاته فِي عَالم الوقُوع نَفياً، وإثبَاتاً إلّا إذَاكَان بَيْنَ الشّيء الَّذي رَأينَاه بِالْعَقْل وبَيْنَ مَا غَابت عَنا رُؤيَته ـ مُلازمة عَقلِية كالمُلازَمة بَيْنَ الأثَر والمُؤثر والْعِلَّة والمَعلُول.

والَّذي أنْكَر المُعْجِزَات، ونَفَاها مِن عَالم الوجُود لَم يَعتمد فِي أنْكَاره هَذَا عَلىٰ المُلاَحظة والمُشاهدة، كَما يَجب، وإنّما اعتمَد عَلىٰ الْعَقْل ونَظريَاته، وَهَذَا عَيْن الخَطَأ والخَلط بَيْنَ عَالم الإمْكَان الَّذي هُو من شَأن الْعَقْل وَوَظِيفته، وبَيْنَ عَالم الوقُوع الَّذي هُو من شَأن المُلاحظة والمُشاهدة.

وعَلىٰ هَذَا يكُون الاِسْتدلاَل بِالْعَقْل عَلىٰ نَفي المُعْجِزَة من الوجُود تَمَاماً كالاِسْتدلاَل بِهِ عَلىٰ نَفي القَمح مِن دُكَانَ القَصَاب لا لِشيء إلّا لأنّه يَبِيع اللَّحَم.

وتَسْأَل: إنّ الصّعُود للقَمر الَّذي جَعلته مَثلاً قَد حَصل بوَسَائِل طَبِيعِية مَعرُوفه، أمّا المُعْجِزَة فَلَيْس لهَا مِن سَبب مَعلُوم.

الجَوَاب:

قُلنَا: إنّ المُعْجِزَة لاَ بُدّ أنْ تَكُون مُمكِنَة الوقُوع، لاَ مِن النَّوْع المُستَحِيل عَقلاً وَهَذَا هُو المُهم، أمّا كُون سَبب وجُود غَيْر طَبِيعي فَلَيْسَ بِالشّيء المُهم، لأنّ خَالق الطَّبِيعَة عِندَه أسْبَابٌ كَثِيرَة، ومِن الجَائِز أنْ يَكُون مِن جُملتها دَعْوَة النَّبيّ أو غَيْرها

مِمَّا نَجهل... وبِكَلِمة: إنّ الْعَقْل حَكم بإمْكَان المُعْجِزَة، وقَد ثَبت وجُودها بِالدَّلِيل فوجَب التَّصدِيق، والإِيمَان تَمَاماً كما آمَن الْعُلَماء بأنّ صُور الأَشْيَاء تَنعَكس فِي عَينِي «برويك» بمُجرد تِصورَهُ لهَا مَع جَهلهُم بِالسَبَب.

الخطبة

-١٩٣-

هَمّام وَصِّفَات الْمُتَّقِين...فِقْرَة ١ ـ ٤ ـ

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ ـ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ لاٰ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَ لاٰ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ . فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ ، وَ وَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ . فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ : مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَ مَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ ، وَ مَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ . غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَ وَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَىٰ الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ[١] . نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاٰءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ . وَ لَوْ لاٰ الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، شَوْقاً إِلَىٰ الثَّوَابِ ، وَ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ . عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَ الْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَ هُمْ وَ النَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَ شُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَ أَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَ حَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَ أَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ[٢] . صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَ أَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا . أَمَّا اللَّيْلَ

فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا. يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ يَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَ تَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَ ظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ[٣]. وَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَ ظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَ شَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَىٰ أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ، وَ أَكُفِّهِمْ وَ رُكَبِهِمْ، وَ أَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ. وَ أَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ[٤].

اللُّغَة:

الإِقْتِصَاد: اَعْتِدَالَ فِي الإِنْفَاق بلا تَقْتِير أو تَبْذِير. ويُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ: يَجْلِبُون لَهَا الحُزْن. ويَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ: يُوجِدُون الدَّوَاء لِلدَّاء. والزَّفِيرَ وَالشَّهِيق: مِن صِفَات الصَّوْت. وحَانُونَ عَلَىٰ أَوْسَاطِهِمْ: رَاكِعُون. ومُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ: سَاجِدُون. والْقِدَاحِ: السِّهَام. بَرْيها: نَحْتَها.

الإِعْرَاب:

غَنِيّاً حَال، ومِثله آمِناً، وكَالَّتِي الكَاف بِمَعْنَىٰ صِفَة لِمَفْعُول مُطلق أي (نُـزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ... إلخ). وشَوْقاً مَفْعُول مِن أجله لتَسْتَقِرَّ، وفَاعِل أَعْقَبَتْهُمْ ضَمِير مُستتر يَعُود إِلىٰ الأَيَّام، وتِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي تِلكَ أو تِجَارَتهُم مُرْبِحَةٌ، وطَمَعاً مَفْعُول مِن أجْله، ومِثله شَوْقاً.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: رُوِيَ أَنَّ صَاحِباً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ[1] كَانَ رَجُلاً عَابِداً، فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ حَتَّىٰ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. فَتَثَاقَلَ عليه السلام، عَنْ جَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ اتَّقِ اللهَ، وَ أَحْسِنْ. وَ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2]. فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّىٰ عَزَمَ عَلَيْهِ. فَحَمِدَ اللهَ وَ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وآله ـ ثُمَّ قَالَ عليه السلام: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ ـ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ... إلخ). إنّه تَعَالىٰ واجب الوجُود بِذَاته وصِفَاته، فهُو ـ إذَنْ غَنِي عَن كلّ شَيء، وَإِلَيْهِ يَفْتَقِر كلّ شَيء وجُوداً وبقَاءً. وتَقَدَّم ذَلِكَ مِرَاراً.

(فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَ وَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ). إنّ الله تَعالىٰ لاَ يُسَيِّرُ عَبَثاً وجُزَافاً، بَل عَلىٰ نظَامٍ كَامِلٍ ومُطرَدٍ، وأيضاً لا يَتعامل مَع النَّاس إلاّ عَن طَرِيق الْعَمَل، ومِن أجْل هَذَا جُهز الإِنْسَان بأدوات الْعَمَل كالْعَقْل، والْقُدْرَة، والإِرَادَة، وحَدَدَهُ لهُ عَلىٰ لِسَان أنْبِيَائه وَرُسُله، فَمن سَمع وأطَاع ضَمن سُبْحَانَهُ لهُ الصَّلاَح والفَلاَح دُنْياً وآخرَة، ومَن أعرَض وآثَر البَطَّالة فَمَا لهُ عِند الله إلاّ الْحِرْمَان والْخُذْلاَن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3]. وتَقَدَّم الكلاَم

---

(١) هو هَمَّام بن شُرَيْح بن زَيد بن مُرّة بن عَمْرُو بن جَابِر بن يَحيىٰ بن الأَصْهَب بن كَعب بن الحَارث أبي سَعد بن عَمْرُو بن ذَهل بن مُرَان بن صيفي بن سَعد العَشِيرة. أنظر، البحار: ٣١٧/٦٧ و: ١٩٢/٦٨، و ١٩٦. شَرح نَهج ٱلبَلاَغة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٥٤٧/٢ طَبعة مِصْر، و: ١٣٣/١٠ طَبعة أُخرىٰ. وقيل: هو همّام بن عُبادة، وكَان من شِيعة أَمِير الْمُؤْمِنِينَ وأوليَائه، وكَان عَابداً... إلخ.

(٢) ٱلنَّحْلِ: ١٢٨.

(٣) هُودٍ: ١١٧.

عَن ذَلِكَ[1]. (مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ) لاَ يَقُولُون مَالاَ يَعْتَقدُون ولاَ يَـفْعَلُون (وَ مَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ) يَلْبَسُون ثُوباً وَاحداً، أو ثُوبين ـ عَلَىٰ الأكثَر ـ بِلا مُضَاهَاة. (وَ مَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ) يَمْشُون عَلَىٰ فِطْرَتِهِم وطَبِيعَتِهِم بِلا خُيَّلاَء وَتَصَنُّع.

(غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ) كِنَايَة عَن عِفَة النَّفس، وصُونها عمّا يُشِين (وَ وَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَىٰ الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ). لاَ يُقَدسُون إلّا الحَـق، والْحِـكْمَة، ولاَ يَهتَمُّون إلّا بِالعِلم المُنْتِج، إذْ لاَ دِين بِلا عِلم، والعَامل بِغَيْرِ عِلم يُفسد أَكْثَر مِمَّا يُصلح (نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ). يَـرْجُون رَحْمَـة الله عِـند الشِّدَّة، ويَخَافُون بَأسه عِند النِّعْمَة. قَال الْإِمَام الصَّادق عليه السلام: «لاَ يَكُون العَبد مُؤمِناً حَتَّىٰ يَكُون خَائِفاً رَاجِياً، ولا يَكُون خَائِفاً رَاجِياً، حَتَّىٰ يَكُون عَاملاً لِمَا يَخَـاف ويَرجُو»[2].

وَهَذَا شَأن الْعَاقِل مُـؤمِناً كَـان أَمْ كَـافِراً، لا يَـيأس ويَسْـتَسلِم مَـهمَا كَـانَتْ المصَاعِب.

وأيضاً يَحتَاط، ويَحذَر العَوَاقب، وإنْ أَقبَلت الدُّنيَا عَلَيهِ بِكَاملها.

(وَ لَوْ لاَ الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَـادِهِمْ طَـرْفَةَ عَيْنٍ... إلخ). أَنَّهم فِي قَلَقٍ دَائم، يَتنَازعهُم عَامِلاَن: رِجَاء الثَّوَاب، والخَوْف مِـن العقَاب، وتَعَادَلت قُوَّة هَذَا مَع قُوَّة ذَلِكَ، وإذَا تُوَازَنَت الْقِوىٰ بَيْنَ المُتصَارِعِين كَان

---

(١) أنظر، شَرح الخُطبَة: (٢٣)، وغَيْرها. (مِنْهُ).

(٢) أنظر، الكَافِي: ٢/٧١ ح ١١، تُحف العُقُول: ٣٩٥، شَرح أُصول الكَافِي: ٨/٢٢٧، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٥/٢١٧ (٦٠٣١٥)، كِتاب الزُّهد لِحُسين بن سَعيد الأهوَازي: ٢٢، أمَالِي المُفيد: ١٩٥، جَامع الأَخْبَار: ٢٥٩ ح ٦٩٣، عِدَّة الدَّاعي: ١٣٧، بِحَار الأَنْوَار: ٧٠/٣٩٢ ح ٦١.

لكلٍ أثره البَالِغ، ومِن أجْلِ هَذَا لَمْ تستقر أروَاح المُتَّقِين، وأجْسَادهُم طَرْفَةَ عَيْنٍ، ومَن أين يَأتِيها الاِسْتقرَار، وَهِي سَاحة ومَيدَان هٰذه الحَـرْب، الشَّعوَاء؟ ولَـوْلاَ الأَجَل المَكتُوب لذَهَبت أنفُسهم ضَحِية الخَوْف والقَلق.

(عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ). أَبَداً لاَ تَنْفَك المُسَـبَبَات عَن أسْبَابها، والنَّتَائج عَن مُقدمَاتها. فالضَّعِيف يَنْهَزم أمَام القَويّ، والجَـهْل أمَـام العِلم، والْعَقِيدَة تُحطم الحوَاجز، والإِخْلاَص يَبعَث عَلىٰ التَّضحِية. كَذٰلِكَ مَن أيقَن بِالله وجَلاله، وقُدرته وكَمَاله فإِنَّه يَرىٰ كلّ مَن عَدَاه ومَا عَدَاه هَبَاءً وسَرَاباً. ولذَا لا يَبحث إلّا عن مَرضَاة الله، ولا يَصدر فِي أعمَاله إلّا عـن التَّـعظِيم لله، والرَّغـبَة فِي ثوَابه، والرَّهبَة من غَضَبه وعذَابه.

(فَهُمْ وَ الْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَ هُمْ وَ النَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ). هَذَا تَصوِير لِيَقِينَهُم بِالله، وإنّهُم قَد بَـلغُوا الذَّروَة مِـنْهُ عَـن عِـلم وبَصِيرة لا عَن تَقْلِيدٍ ومُحَاكَاة. وَقَالَ سُبْحَانَهُ حِكَايَةَ عَن الجَاحِدِين: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾[١]. أمّا صَفوَة المُتَّقِين فَقَد رَأوا بَأس الله وعَذَابه، وهُم فِي دَار الدُّنْيَا، رَأوه بِنُور العِـلم، والإِيمَـان بِـلا شُـبهَة وَوَسْوَسَة شَيْطَان، وأشْفَقُوا مِنْهُ وأبْتَعَدُوا عَن طَرِيقه.

(قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ) مَخَافَةَ التَّقْصِير فِي جَنْب الله والحَقّ. وكَفىٰ المَرْء نَقصاً أنْ يَرىٰ نَفْسَه كَاملاً (وَ شُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ). قَال رَسُول الله ﷺ: «شَرّ النَّاس مَن يَتَقِي النَّاس فُحْشَه»[٢]. وَقَالَ الإِمَام: «طُوبَىٰ لِمَـنْ ذَلَّ فِي نَـفْسِهِ، وَطَـابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ

---

(١) غَافِر: ٨٤.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٥/٢٢٥٠ ح ٥٧٠٧، موطأ مالك: ٢/٩٠٣ ح ١٦٠٥، صَحِيح أبن حبان

سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ»[1]. «أَسوَأ النّاس مَن لَمْ يَثِق بِأحدٍ لسُوء ظَنّه، ولا يَثق لسُوء فِعْله»[2] (وَ أَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ) مَن السَّهر والْعَمَل فِيما يُرضِي الله (وَ حَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ) لاَ يَطلبُون مِن الْدُّنْيا إلّا سَد الْحَاجَة (وَ أَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ) ٱسْتَغنَت بحَلاَل الله عَن حرَامه.

(صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ). مَا مِن أحَدٍ إلّا ويَحتَاج إِلىٰ شَيء مِن مَتَاع الدُّنْيا، ويَسعىٰ إِلَيْهِ جَاهداً... وقَد تَكُون حَاجتَه فِي يَدِ ظَالِمٍ لا يَنَالها صَاحبها إلّا بكَرَامتِهِ والتَّلوّن فِي دِينهِ وضَمِيره، أو يَقف دوُنها غَيْر ذَلِكَ مِن الحوَاجز الّتي لا يَتخطاهَا الْإِنْسَان إلّا بالدّخُول فِيما لاَ يُلِيق.. ومَن صَبر عَن حَاجته، وضَحىٰ بِها فِي سَبِيل دِينه وكرَامته ـ أَبْدَله الله عَنْهَا مَا هُو خَير وأبْقىٰ (أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يُرِيدُوهَا) كَان فِي مَقدُورِهم أنْ يَبْلغُوا من الدُّنْيَا مَا يُرِيدُون لَو تَنَازلُوا عَن دِينهم، وكرَامتهم، ولَكِنَّهُم أبوا إلّا مَرضَاة الله.

(وَ أَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا). حَاوَلت الدُّنْيَا أَنْ تَمتَلكَهُم وتَسْتَعبدَهُم بِالْمَال والجَاه، فَحَرَرُوا أَنْفُسهم مِنْهَا بِالصَّبر عَن المَلَذات والشَّهوَات، وعَاشُوا أَحْرَاراً لا سُلطَان عَلَيْهِمْ إلّا لله وَحدَه (أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا). ٱلتزَمُوا طَرِيق الله وَحدَه قِيَاماً، وتَسْبِيحاً وتَهْلِيلاً، وعَمَلاً

⇐ ٥٠٨/١٢ ح ٥٦٩٦، الأدب المفرد: ٤٤٤/١ ح ١٣١٠، شرح الزرقاني: ٣١٨/٤، فيض القدير: ٥٣٩/٢، سير أعلام النُّبلاء: ٥٤٣/٢.

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلحِكْمَة (١٢٣).

(٢) أُنظر، فَيض القَدِير: ٣٨٥/٣، روَائع نَهْج ٱلبَلاغَة لجُورج جُرداق: ٧٥، بحَار الأَنْوار: ٩٣/٧٥ ح ١٠٤.

وجِهَاداً... يَتلُون الْقُرْآن لاَ للتَّغَنِي والتَّلهِي، بل للاِهْتدَاء بنُوره، والاِعْتصَام بحَبله، والوقُوف عِند حدُودَه. وَهَذَا مُلخصٌ لِمَعْنَىٰ هَذِه الْجُمَل العَدِيدَة من قَوْله: «وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ» وهُو توكِيد وتوضِيح لمَا تَقَدَّم، وبمَاذا نُفسر ونَشرح كَلِمَات كلّها أو جَلّها للتَّبجِيل والتَّكرِيم؟.

قُوَّةً فِي دِينٍ...فِقْرَة ٥ ـ ٨:

يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَىٰ، وَ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَ يَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا! وَ لَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاٰ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَ لاٰ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَ رَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، أَللَّهُمَّ لاٰ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَ اجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَ اغْفِرْ لِي مَا لاٰ يَعْلَمُونَ[٥].

فَمِنْ عَلاٰمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَىٰ لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَ حَزْماً فِي لِينٍ، وَ إِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَ حِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَ عِلْماً فِي حِلْمٍ، وَ قَصْداً فِي غِنىً، وَ خُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَ تَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَ صَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَ طَلَباً فِي حَلاٰلٍ، وَ نَشَاطاً فِي هُدىً، وَ تَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَ هُوَ عَلَىٰ وَجَلٍ. يُمْسِي وَ هَمُّهُ الشُّكْرُ، وَ يُصْبِحُ وَ هَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً وَ يُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَ فَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَ الرَّحْمَةِ[٦]. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاٰ يَزُولُ، وَ زَهَادَتُهُ فِيمَا لاٰ يَبْقَىٰ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَ الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَ الشَّرُّ مِنْهُ

مَأْمُونٌ . إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ . يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، بَعِيداً فُحْشُهُ ، لَيِّناً قَوْلُهُ ، غَائِباً مُنْكَرُهُ ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ مُقْبِلًا خَيْرُهُ ، مُدْبِراً شَرُّهُ[٧] . فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ . لاَ يَحِيفُ عَلَىٰ مَنْ يُبْغِضُ ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ . يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ ، لاَ يُضِيعُ مَا ٱسْتُحْفِظَ ، وَلاَ يَنْسَىٰ مَا ذُكِّرَ ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ . إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ . نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ . أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ ، بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ . لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ[٨] .

اللُّغَة:

خُولِطُوا : فَسَدَت عُقُولِهِمْ . مُشْفِقُونَ : خَائِفُون . قَصْداً فِي غِنىً : مُعْتَدِلُون فِي سَعْيِهِم لطَالِب المَال . وتَحَرُّج : تَجنب الحَرَج أي الإِثْم . وحَرِيزاً : حَصِيناً . ولاَ يَحِيفُ : لا يَظلُم . ولاَ يُنَابِزُ : لا يُعِيب .

الإِعْرَاب:

المَصْدَر من أَنَّكَ ... إلخ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر ، ومِنْ عَلاَمَةِ خَبَر مُقَدَّم ، وحَذِراً الثَّانِيَة تَأْكيد للأُولىٰ ، وأَمَلُهُ فَاعِل «قَرِيباً» ومثله مَا بَعدَه .

الْمَعْنَىٰ:

(يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَىٰ، وَ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ... إلخ). كَبُرَت نُفُوسُهُمْ، وَزَكت قُلُوبُهُمْ عَلىٰ حِسَاب أجْسَامِهِم، فَقد هَزُلت وضَعُفت حَتَّىٰ تكَاد تَتهَالك إعْيَاء، وحَتَّىٰ ظَنّ الرّائِي أنّهم مَرْضَىٰ أو مِن أَهْل البَلَه!. كَلا، أَنَّهَا الهِمَة والنّفُوس العَالِيَة:

وإذَا كَانَتْ النّفُوس كِبَاراً تَعِبَت فِي مُرَادَها الأَجْسَام[1]

(١) هَذَا الْبَيْت للشَاعِر أحمد بن الحُسَيْن بن عبدالصّمد أبو الطَّيّب الجُعفي الشَاعِر المَعْرُوف بِالمُتَنَبّي. وكَان أبُوه يُعرف بعَيدان السّقا، لأنّه كَان يَسقي المَاء لأَهْل الْكُوفَة عَلىٰ بَعيرٍ له، وكَان شَيخاً كَبِيراً. وعَيدَان هَذَا قَالَ أبن مَاكولا والخَطِيب: هو بكسر الْعَيْن المُهملة، وبعدها يَاء مُثناة من تحت، وقيل: بفتح الْعَيْن لا كسرها.

ولِد في سَنَة ستٍ وثَلاثمئه فِي الْكُوفَة، ونَشأ ببَادية الشَام، فطَلب الأدَب ففَاق أَهْل زمَانه فيه، ولَزِم سَيْف الْدَّوْلَة بن حَمدان وأمتدحه، وحَظي عِنده، ثُم صَار إِلىٰ مِصْر وأمتدَح الأخْشِيد، ثُم هجَاه وهَرب منهُ وورَد بَغداد فأمتدح بَعْض أهلها، وقدم الْكُوفَة ومَدح أبن العَميد فوصله من جِهته ثلاثون ألف دِينار، ثُم سَار إِلىٰ فَارس فأمتدَح عضد الْدَّوْلَة بن بَابويه فأطلق لهُ أموَالاً جَزيلة تقَارب مائتي ألف دَرهم، ثُمّ دَس إِلَيْهِ مَن يَسأله أيّما أحسن عطَايا عضد الْدَّوْلَة بن بابويه أو عطايا سَيْف الْدَّوْلَة بن حمدان؟ فقَالَ: هَذَا أجزل وفيها تكلف، وتِلك أقل ولكن عن طِيب نَفس من مُعطيها، لِأَنَّهَا عن طَبِيعَة وهَذِه عن تكلف.

فذَكر ذَلِكَ لعضد الْدَّوْلَة فتغيظ عَلَيْهِ ودَس عَلَيْهِ طَائِفَة من الأعْرَاب فوقَفوا لهُ فِي أثنَاء الطَّرِيق وهُو رَاجع إِلىٰ بَغدَاد، ويُقَال إنّه كَان قَد هَجىٰ مُقدمهم أبن فَاتك الأسدي ـ وقد كَانوا يَقْطَعُون الطَّرِيق ـ فلهَذا أوعز إِلَيْهِمْ عَضد الْدَّوْلَة أنْ يَتعرضوا لهُ فيقتلوه ويَأخذوا لهُ ما معهُ من الأموال، فأنتهوا إِلَيْهِ ستُون رَاكباً فِي يوم الأربعاء وقَد بَقي من شَهر رمضَان ثَلاثة أيّام، وقِيل: بل قُتل يوم الأربعَاء لخَمس بقين من شهر رمضان، وقيل: بل كَانَ ذَلِكَ فِي شهر شَعبان، وقَد نَزل عِند عَين شَجرة أبجاص، وقَد وضعت سفرته ليتغدىٰ، ومعهُ ولدَه مُحسن وخمسَة عشر غُلاماً له، فلمّا رَآهم قَال: هَلموا يَاوجُوه الْعَرَب إِلىٰ الغدَاء، فلمّا لَم يُكلموه أحس بالشَرّ فنهض إِلىٰ سلاحه وخيله فتُواقعُوا سَاعة فقُتل أبْنِهِ مُحسن، وبَعْض غُلمانه وأرَاد أنْ يَنهزم. فقَال لهُ مَوْلَىٰ له: أين تَذهب وأنت القَائل:

فالخَيْل واللّيْل والبِيدَاء تَعرفني والطَّعن والضَّرب والقُرطاس وَالْقَلَم

(لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَ لاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ) لأنّهم خُلقُوا للنّضَال والْعَمَل، لا للبَطالة والكَسل، وفِي الوَقت نَفْسَه لا يَغَالون فِي قُدارَتهم، ولا يَخدعُون أنْفُسهم بِالغُرُور والمُباهاة، بل يَخافُون من الخَطَأ والتَّقْصِير (إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ) من قُول الزُّور وحَبائِل الغُرُور (فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَ رَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي). لِلْإِنْسَان حَيَاتَان: بَاطِنية وظَاهِرية، والظَّاهِر للنّاس، أمّا البَاطن فلله ولصّاحبه فهُو وَحدَه مِن بَيْنَ الخلاَئق يَسْتَطِيع أنْ يَتَأمل دَخِيلَته ويَعرفها، ولا سَبِيل إِلىٰ مَعرفَة الآخِرين بِها إلّا عَن طَرِيقه. قَال تَعَالىٰ: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[1]. وَقَال الفَيْلَفُوس الانجليزِي «رَاسل»: «إنّ مَعرفَة بَعْض الحقَائق عن الإنْسَان مُستَحِيلة إلّا عَن طَرِيقَه... ولمّا كَان هُو أدَاة الْمَعْرِفَة لِنَفْسَه وَجَب درَاسته كَأدَاة لِلمَعرفَة»[2].

(أَللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ) يَدعُوا الله ويَعُوذ بِهِ أنْ يَدخل العُجب والغُرُور إِلىٰ نَفْسَه من الإِطرَاء فَيكُون مِن الخَاسرِين (وَ ٱجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ) فِيّ مِن الْخَيْر والْحَسَنَات (وَ ٱغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ) مِن الهَفوَات والسَّيِّئَات.

(فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَىٰ لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَ حَزْماً فِي لِينٍ... إِلىٰ عَنْ طَمَعٍ). إنّ الدَّلِيل القَاطع عَلىٰ التَّقْوَىٰ حقّاً وصِدقاً هُو الاِسْتِقَامَة، والمَسلَك التَّابع

⇐ فقَال لهُ: وَيْحَكَ قَتلتنِي، ثُمّ كَر رَاجعاً فطَعنه زَعِيم القَوْم فِي عُنقه فقتَله.

أُنظر، ديوانه: ٢/٢٦٢ و: ٣/٣٤٥، البداية والنّهاية: ١١/٢٩٠، النّجوم الزّاهرة: ٣/٣٤٣، الوافي بالوفيات: ٦/٣٣٦، وفيَات الأَعْيَان: ١٢٣، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغة لِابْن أبِي ٱلحَدِيد: ٣/٢٩٢، سبَائك الذّهب: ٢٦.

(١) القِيَامَة: ١٤.

(٢) أُنظر، كِتَابه «الفَلسَفة بِنَظرة عِلمِية». (مِنْهُ ﷺ).

عَن الوَعي والْيَقِين، والحَزم والثَّبَات، والحِلْم والإِعْتِدَال، والتَّوَاضع والتَّجمُّل عِند الحَاجَة، والنَّشاط والاِجْتِهَاد فِي الأَعْمَال الصَّالِحَة النَّافعة مَع الْقَناعَة والكَفّ عَن المُحَرَّمَات، والتَّعَبد لله وحدَه، والتَّوكل عَلَيْهِ دُونَ سوَاه (يَعْمَلُ ـ أي الْمُتَقِي ـ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَ هُوَ عَلَىٰ وَجَلٍ) العَالِم المُتوَرع يَتوقع الخَطَأ فِي أَقْوَاله، ويَخشىٰ النَّقص والخَلل، ولذَا يَحترس ويَحتاط جُهد المُسْتطَاع، والَّذي يَرىٰ عَمَله كَاملاً مِن كلّ وَجه فهُو جَاهل مُركب.

(يُمْسِي وَ هَمُّهُ الشُّكْرُ، وَ يُصْبِحُ وَ هَمُّهُ الذِّكْرُ). هُو شَاكِر ذَاكر لله تَعَالىٰ فِي جَمِيع حَالاَته وأَوقَاته... وتَفلسَف بَعْض الشَّارِحِين، وأطَال فِي الفَرق بَيْنَ الشُّكْر مَسَاءً، والذِّكْر صَبَاحاً مُعتمداً عَلىٰ وَهمَه وفَهمَه (يَبِيتُ حَذِراً وَ يُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ... إلخ). يَتهم نَفْسَه بِالخَطأ والتَّقْصِير فِيخَاف، وأيضاً يَرجو الصَّوَاب بِتوفِيق الله وفَضله فَيطمِئن. وهَذَه هِي سِمَة الْعُلَمَاء الْمُتْقِين، وَقَالَ قَائل مِنْهُم: إنْ أَصِبت فِمن الله وعنَايته، وإنْ أخطَأت فَمِني ومِن الشَّيْطَان (إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ). لِلمُتَقِي ميُول وأَهْوَاء تُرِيد مِنْهُ، وتَلح عَلَيْهِ، وهُو لا يَسْتَطِيع أنْ يَتحَرر مِنْهَا، ويَقتلعهَا من الجذُور، ولَكِنَّهُ لا يَستَجِيب لهَا، ولا تُحِيد بِهِ عن الطَّرِيق الْقَوِيم.. أَنَّهَا تُنَادِيه وتَصرَخ بِهِ، وهُو يَتَجَاهل ويَعرِض.

(قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَ زَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَىٰ). تُرِيدَه الأَهوَاء للدُّنْيَا، ويَأبىٰ هو إلاّ الآخِرَة (يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ) حِلمَه عَن وَعي وحُكْمَة لا عَن ضَعف ومَسكنَة، وهُو تِكرَار لقَوْله: «عِلْماً فِي حِلْم». (وَ الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ). يَفعل مَا يَقُول، ولاَ يَقذول مَا لاَ يَفعل (تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ... الخ). لا يَيأس من رَوح الله، وإنْ زَلَت بِهِ القَدَم يُوماً تَاب وأَنَاب،

يَكبَح شَهوَته، ويَكظم غَيظه... خَاشع قَانع يَأْكُل لِيَعيش، ولا يَعِيش ليأْكُل.

(الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَ الشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ) لأنّه إِنْسَان يَعِيش عَلىٰ حسَاب نَفْسَه وأتْعَابه، ووَحش الغَاب هُو الَّذي يَعتدِي ويَفتَرس (إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ). لاَ يَخُوض مَع الخَائضِين، ولا يَتأثر بجَار السُّوء وبِيئة الْفَسَاد. إنّه عَلىٰ صلاَحه، ولَو آمتَلأت الدُّنْيَا فسَاداً. (وَ إِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ) وإنْ عَاشَر أقوَاماً ميَامِين آنْسَجم مَعهُم، وطَاب نَفْسَاً وعَمَلاً (يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ) أي يَدفَعَه بِالحُسنىٰ، والكَلِمَة الطَّيِّبَة، فإنْ عَاد إِلىٰ صوَابه وإلّا جَاهدَه بكلِّ مَا يَملك، لأنّ السُّكُوت عَن المُعتدِي آغرَاء لهُ، وتَشجِيع عَلىٰ الظُّلْم، والعُداوَان.

(وَ يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ) إنْ كَان المُقَاطِع إنْسَاناً شَاكراً لاَ وَحشاً كَاسِراً (بَعِيداً فُحْشُهُ) عَفِيف اللِّسَان (غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ مُقْبِلًا خَيْرُهُ... إلخ). تكرَار لقُوله: «الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَ الشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ». (لاٰ يَحِيفُ عَلَىٰ مَنْ يُبْغِضُ، وَ لاٰ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ). إذَا رَضي لاَ يَدخُل فِي بَاطِل، وإذَا غَضِب لا يَخرج عَن الحَقّ (يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ). لا يَبخَس النّاس أشْيَاءهُم ولا يَعتَمد التَّهوِيش والمُغَالطة، لأنّه صَادق مَع نَفْسَه وغَيْره (لاٰ يُضِيعُ مَا آسْتُحْفِظَ). هَذَا الوَصف يَختَص بِأهل العِلم بِاللهِ وشَرِيعته، لأنّه تَعَالىٰ أئتَمَنَهُم عَلَيْهَا، وأَمَرهُم بتَبلِيغها بِلا تَحرِيف ولاَ تزيِيف، قَال عَزَّ من قَائِل: ﴿ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَاتَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَاتَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[1].

(وَ لاٰ يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ). لاَ يَصِف أَحَداً بِلَقَبٍ يَكرَهه (وَ لاٰ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ)

(١) ٱلْمَائِدَة: ٤٤.

لأنّ الشّماتَة تَنمُّ عَن اللُّؤم والصِّغَار... ومَن يَحذَر العوَاقب لا يَشمُت. وبِحِكْمَة قِيل: «لاَ تُظْهِر الشّمَاتَة بِأَخِيك، فَيُعَافِيهِ الله ويَبْتَلِيك»[1]. (وَ لاُ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ... إلخ). ألزَم نَفْسَه أنْ يَقُوم بمَا عَلَيْهِ مِن وَاجب، ويَتسَاهل بمَا لهُ مِن حَقٍّ خَاص، وأنْ يُنَاصر الْمُحقِين، ويُجَاهد المُبْطِلِين، وأنْ لاَ يَحزن لفوَات كَلِمَة تبرزَه، وتُومىء إلىٰ مكَانتِهِ، وأنْ لا يُسيء إلىٰ مَخلُوقٍ، ولاَ يَتكل إلّا عَلىٰ نَفْسَه بَعد الله، وأنْ يَتأدَب بآدَاب الشَّرع، والدِّين بِلا تَحجُر وتَزَمُّت، ولاَ رِيَاء ونِفَاق.

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: فمَا أَتَمَّ الْإِمَام كَلاَمَه حَتَّىٰ صَعِق هَمَّامٌ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا. عَلَيْهِ رَحْمَة الله ورِضْوَانه. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ. فَمَهْلاً، لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِكَ!

إنّ الْإِنْسَان ابن الْأَرْضِ، وبهَا يَشْبَه، وإذَا قَارنا بَيْنَ هَذَا القَائِل وقَسوَته، وبَيْنَ همّام وَرَحمَته ـ ظَهر أنّ التّفَاوت بَينَهُما تَمَاماً كَالتّفَاوت بَيْنَ البَلَد الطَّيِّب الَّذي يَخرج نبَاته بإذن رَبّه، والْبَلَد الْخَبِيث الَّذي لاَ يَخرج أَبَداً، أو يَخرج نَكداً.

وَقَالَ قَائل: إنّ الْإِمَام عليه السلام يَصف فِي هَذِه الْخُطْبَة قَوماً فِي الخَيَال لا فِي عَالم الوجُود، أو هُو يَصف نَفْسَه، أو أُمنِيتَه كمَا يَنْبَغِي أنْ يَكُون الإِنْسَان، لا كمَا هُو كَائِن

(١) أنظر، تكملة حَاشية رَدّ المحتار: ٥٦٠/١، أمَالي الشّيخ المُفيد: ٢٦٩، المُعجَم الكَبِير: ٥٤/٢٢، مُسْنَد الشَّامِيين: ٢١٥/١ ح ٣٨٤ و: ٣٠٥/٤ ح ٣٣٧٩، نُزهة النّاظر: ٣٧ ح ١١٣، مُسْنَد الشّهاب: ٧٧/٢ ح ٩١٦ و ٩١٧، كَشف الخَفَاء: ٢٦٥/٢ ح ٢٥٤٤، نَصب الرّاية: ٦٧/٣، تَفْسِير القُرطُبِي: ٢٩١/٧.

بِالفِعْل... إنّ لِلإِنْسَان جِسمَاً، وعوَاطف ورَغبَات، فَكَيف يَنفَصل عَنْهَا؟ وهَل يَنْفَصل الشَّيء وطَبِيعَته؟

الجَوَاب:

أَوّلاً: إنّ هَذِه ٱلخُطْبَة دَعْوَة ودعَاية إلىٰ التَّقْوَىٰ وحُسن السّلوك، ويُومىء إلىٰ ذَلِكَ ٱتّبَاع الكَلاَم أُسلُوباً يَكثر فيهِ التّكرَار والتَّردِيد، ومِن شَرط الأَمْر بالشّيء والدَّعْوَة إلَيْهِ أنْ يَكُون مُمكناً لا يَسْتَعصِي عَلىٰ قُدرَة المُكلف وإرَادَته، وأنْ يَكُون فيهِ جِهة خَيرٍ وصلاَح، ومَا مِن صِفَة ذَكَرها الإِمَام إلّا وفِيهَا خَير كَثِير، وتَتَنَاولها إرَادَة المُكلف وقُدرته، وإذَنْ تَصح الدَّعْوَة إلىٰ التَّحلِي بهَذه الصِّفَات ويَجُوز العقَاب عَلىٰ المُخَالفَة والمَعْصِيَة.

ثَانِياً: إنّ الْغَايَة من الدَّعْوَة إلىٰ سَبِيل الله، والاِسْتِقَامَة أنْ يَكبَح الإِنْسَان أَهْوَاءه ومِيُوله، وإنْ يَحكمهَا ولاَ تَتحَكم، بهِ ولولاَها لكَان رُوحَاً بلا جَسد، وملاَكاً مِن السَّمَاء لاَ أبن الأَرْضِ، وكَان التَّكلِيف بِالنّسبَة إلَيْهِ لَغواً وعَبَثاً، لأنّه بلا مَعْنَىٰ ومَوْضُوع.. أجْل، إنّ المُشْكِلَة هِي مُشْكِلَة البِيئَة والعِيش فِي مُجتمع الضَّلاَل والْفَسَاد، والعَبقرِي هُو الَّذي يَصمد أمَام التّقَالِيد، ولَيْسَ كلّ النّاس أبَا ذَرّ...، ومن هُنا كَان عِقَاب المُذنب فِي بِيئَة التُّقىٰ والصَّلاح أَشد مِنْهُ فِي بِيئَة الضَّلاَل، وثوَاب المُتقِي فِي هَذِه أعْظَم مِنْهُ فِي تِلكَ حَيْث يَكُون: «فَالمُتَمسك بِدِينَه كَالْقَابض عَلىٰ الجَمر»[1]. والإِمَام يَدعُو إلىٰ الاِسْتِقَامَة، والثَّبَات عَلَيْهما مَهمَا كَانَتْ الظّرُوف.

(١) أُنظر، أمالي الطّوسي: ٤٨٥ ح ١٠٦٠، سُنن التّرمِذي: ٣/٣٥٩ ح ٢٣٦١، مشكاة المَصَابيح: ٤٥٩، ↔

الخطبة

-١٩٤-

اَلْمُنَافِقُونَ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَ ذَادَ عَنْهُ مِنَ الْـمَعْصِيَةِ، وَ نَسْـأَلُهُ لِـمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَبِحَبْلِهِ اَعْتِصَاماً. وَ نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، خَاضَ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَ تجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ. وَ قَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَدْنَوْنَ، وَ تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَ ضَرَبَتْ إِلَىٰ مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّىٰ أَنْـزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَ أَسْحَقِ الْمَزَارِ[1].

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَ أُحَـذِّرُكُـمْ أَهْـلَ النِّـفَاقِ، فَـإِنَّهُمُ الضَّـالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَ الزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَ يَفْتَنُّونَ اَفْتِنَاناً، وَ يَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ

⇔ مُسْنَد أحمد: ٣٩٠/٢، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٣٣٨/٨، مَجْمَع الزّوائد: ٢٨١/٧، عون المعبود: ٣٣٣/١١، تأويل مُختلف الحَدِيث لِابْن قُتَيْبَة: ١٠٧، الجَامِع الصَّغِير: ٦٦٤/٢ ح ٩١٧٢، كنز الْعُمَّال: ٢٢١/١٤ ح ٣٨٤٧٧، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٤٨٨/٤، كَشف الخَفَاء: ٣٩٥/٢ ح ٣٢٤٤، تَفْسِير القُرطُبِي: ١٧٢/٤، الكَامِل لِابْن عَدِيّ: ٥٥/٥، تَأرِيخ بَغداد: ٤٠٧/١٢، تَأرِيخ دمشق: ٢١٠/٣٥، مِيزَان الْإِعْتِدَال: ٢٠٣/٣ ح ٦١٣٥، تَهذِيب التَّهذيب: ٤٠٤/٧ ح ٧٦٧، كتَاب الفِتَن لنَعِيم بن حمّاد: ٢٤٥، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٠٥/٢ ح ٢٩٦.

عِمَادٍ، وَ يَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَ صِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَ يَدِبُّونَ الضَّرَاءَ. وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَ قَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَ فِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ. حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَ مُؤَكِّدُو الْبَلاءِ، وَ مُقْنِطُو الرَّجَاءِ. لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَ إِلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ[٢]. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَ يَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ: إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَ إِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَ إِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا. قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا، وَ لِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَ لِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، وَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَ لِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً. يَتَوَصَّلُونَ إِلَىٰ الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَ يُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاقَهُمْ. يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَ يَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَ أَضْلَعُوا الْمَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ، وَ حُمَةُ النِّيرَانِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[١][٣].

اللُّغَة:

الغَمْرَة: الشِّدَّة. وتَلَوَّنَ: تَنَكَّرَ. وأَبْعَدِ، وَأَسْحَقِ وأَقصىٰ بِمَعْنَىٰ وَاحد. ويَفْتَنُّونَ: يَتفَنَّنُون وَيَسْلكُون أسَالِيب مُتَنُوعَة. ويَعْمِدُونَكُمْ بِالأَكَاذِيب لدَّفع التُّهمَة عَنْهُم. ودَوِيَّةٌ: مِن الدَّاءُ، وهُو المَرَض. وَصِفَاحُهُمْ: وجُوهُهُم. والدَّاءُ الْعَيَاءُ: أَعْيىٰ الأَطبَاء. وأَلْحَفُوا: أَلحُوا. والأَعْلاقِ: جَمع عِلْق، وهُو الشّيء النَّفِيس. وأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ: جَعَلُوه ضَيقاً. واللُّمَةُ ـ بِفَتح المِيم مَع التَّخفِيف ـ الجَمَاعَة. وَحُمَةُ ـ بِالتَّخفِيف ـ إِبرَة العَقْرَب.

---

(١) اَلْمُجَادِلَة: ١٩.

الإعْرَاب:

عَلَىٰ مَا وَفَّقَ لَهُ «مَا» اسم مَوْصُول بِمَعْنَىٰ الَّذي، والهَاء فِي «لَهُ» يَعُود إِلَىٰ «مَا». وتَمَاماً مَفْعُول نَسْأَلُهُ أي نَسْأَلُهُ التَّمَام والاِعْتِصَام، والخَفَاءَ مَنصُوب بِنَزع الخَافِض أي فِي الخَفَاء، ومثله الضَّرَاءَ، ويَجُوز أَنْ يَكُون نَائِباً عَن المَفْعُول المُطلَق أي يَمْشُونَ المَشِي الخَفِي، ويَدِبُّونَ الدَّبِيب المُضر.

الْمَعْنَىٰ:

(نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَ ذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ... إلخ). المُؤْمِن يَعْلَم حَقّ العِلم أَنّ التَّوفِيق إِلَىٰ الخَيْر بِشتَىٰ أنوَاعه هُو من الله، ولذَا يَحْمَدَهُ ويَقُول: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]. ولَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّ مَن يَسْتَنصح الله ويُخلص لهُ يَشْمله تَعَالَىٰ بِتُوفِيقهِ وعِنَايته (وَ نَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً). مِنَّتِهِ تَعَالَىٰ نِعْمَتِه، وحَبْلِهِ دِينَه وَشَرِيعتَه.... وهُو سُبْحَانَهُ المَسْئُول أَنْ يَمُن عَلِينَا بِالسَّلاَمة فِي الدِّين، والبَصِيرَة.

(وَ نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، خَاضَ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَ تَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ). كَانَتْ أُسرَة رَسُول الله ﷺ قَبل البِعثَة قُوّية وَغَنِيَة، ولمّا أَرسَله الله رَحْمَة لهُم ولِلعَالَمين ثَارت عَلَيْهِ ثَائِرتَهُم، ولَقِي مِنهُم ومِن غَيْرِهُم أَشَدّ الإِيذَاء، وقَالُوا عَنْهُ مِن جُملَة مَا قَالُوا: «سَاحِرٌ، وشَاعِرٌ، وأَبْتَر، ومَجْنُونٌ! وهَل مِن شَيء أدَل عَلَىٰ جُنُونَه ـ بِزَعْمِهم ـ مِن رَفضَه لمَا عَرضُوه عَلَيْهِ مِن المَال

---

(١) هُودٍ: ٨٨.

والسُّلْطَان ؟... وكَان أَشَدَّهُم عَلَيْهِ أَبُو جَهل ، وأبو سُفْيَانَ وأَبُو لَهَب .

وكَان يَصْبِر ويَستَهِين بِكلّ شَيء فِي سَبِيل دَعوَته ورِسَالَته... أخرَجه أَهْل الطَّائِف طَرداً مِن بَلدهُم ، وسَلَّطوا عَلَيْهِ سُفهَاءهُم يَرمُونه بِالحجَارَة حَتَّىٰ سَال الدَّم مِن قَدمِيه . فقَال : «أَللَّهُمَّ ٱهدِ قُومِي ، فإِنَّهُم لاَ يَعْلَمُون»[1] .

النِّفَاقُ:

لِلذَّنب أنوَاع ودَرَجَات ، فَمِنْهُ مَا يَكُون مَع الله تَعَالىٰ ، ومِنْهُ مع الذَّنب نَفْسَه ، ومِنْهُ مَع النَّاس ، ومِنْهُ مَا يَجمع هَذِه الجَرَائِم الثّلاث كالنِّفَاق . ولَيْس مِن شَكٍّ أنّ الاِحْتِيال عَلىٰ الله غَيْرُ مُمكن ، لأنّه يَعلم السِّر وأَخْفىٰ ، ولكن الاِحْتِيال عَلىٰ عِباد الله ذَنْب لا يُغْتَفر... وأيضاً لا يَتصوَر النِّفَاق مِمَّنْ يَعِيش فِي عُزلة عَن النَّاس لأنّه لَم يَلتَق ويَحتَك بوَاحِدٍ مِنْهُم ـ كَمَا هُو الفَرض ـ ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ النِّفَاق دَاء ٱجْتَمَاعي ، وجِدَ مَع المُجتمعَات الّتي تَضُم الْقَوِيّ والضَّعِيف ، والخَاضع والمُسيطر ، وإنّه يَتطور مَعهَا جَنْباً إِلىٰ جَنب فِي جَمِيع المرَاحل ، وإنّه يَتعقد أَكْثَر فَأَكْثَر كُلمَا زَادت حيَاة الجَمَاعَة نُمواً فِي التَّعقِيد .

وبِهَذَا نَجد التَّفْسِير الصَّحِيح لشيُوع النِّفَاق ، وتنَاقُمه فِي هَذَا العَصر «المُتقَدم» عَلىٰ كلّ صَعِيد !... يَغْزُون البلاَد الآمِنَة بِٱسم حمَاية الأقلِيَات ، ويُقِيمُون القوَاعد

(١) أُنظر ، الشّفا بتعريف حقوق المُصطفىٰ : ١/١٠٥ ، فَتح البَاري : ١٢/٢٥٠ ، تأويل مُختلف الحَدِيث : ١٥٠ ، تَفْسِير مَجْمَع البَيَان : ٢/٣٨٦ ، تفْسِير ٱبن كَثِير : ٢/٥٧٥ ، الدُّر المنثُور : ٢/٢٩٨ ، تفْسِير الثّعالبي : ٢/١٠٤ ، فَتح القَدِير : ٢/٦١ ، تَارِيخ دمشق : ٦٢/٢٤٧ ، تَارِيخ الطَّبَرِيّ : ١/١٨٢ ، عِصمة الأَنْبِيَاء للفخر الرّازي : ٧٨ ، عُيُون الأثر لِابْن سيّد النّاس : ٢/٤٢١ .

العَسْكرِية لِلعُدْوَان بِعنُوان المُحافظة عَلىٰ المُسْلِم، ويُلقُون أُلوف الأطنَان من القنَابل عَلىٰ المُنشآت، وٱلنِّسَاء، والرِّجَال، والأَطْفَال بِزَعم الْقَضَاءِ عَلىٰ الْعُنْف والْعُدْوَان ويَنهبُون الأقوَات والقُدرَات بِٱسم التِّجَارَة والتَّعاون، ويَنْتَشرُون للتَجَسُس فِي شَرق الْأَرْضِ وغَرْبِهَا تَحت رَاية التَّبشِير فِي الدِّين، ويَنْشئُون المكَاتِب لتَدبِير المُؤامرَات وتَحطِيم إِرَادَة الشّعُوب بِعنوَان نوَادِي الثّقَافة، ومَكاتِب الْأَنْبَاء، ويَجتمع العُملاء والخَونَة تَحت رَاية الجَمعِيَات الخَيْرِية والمَجَالس والمَذْهَبِية والحفلاَت الدِّينية!... أمّا التَّجَارِب النَّوَوِية والأَسْلِحَة الكِيمياوِية الّتِي تُهدد العَالم بكَارثة شَاملة، أمّا هَذِه فٱلقَصد تَطوِير العلُوم لخِير الإِنْسَان، ومَصلَحة الحَضَارة... إلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِن الجرَائم الّتِي تُرتَكب بِٱسم العِلم، والدِّين، والإِنْسَانِية.

ومِن هُنا شَاع القَلق والتَّشاؤم فِي هَذَا العَصر بَيْنَ جَمِيع الْفِئَات، وٱهتَزت الْقِيَم والمبَادىء، وضَاعت الثِّقَة فِي كلّ شَيء حَتَّىٰ فِي رِجَال الدِّين، والمُنْظمَات الخَيْرِية فضلاً عن السِّيَاسِيِين، وعَن الصّحَافة صَاحِبَة الجلاَلة المَلعُونة عَلىٰ حَدّ مَا قَال بَعْض الصُّحفيِين، وسَاد الإِيمَان بأَنّ مَا مِن أحدٍ إلّا ويَعمَل لمصَالحِهِ ومطَامِعِهِ، وإنّ المُصلح مُخادع، والمُخلص مُدلس.

ومِن غَرِيب الصّدف أنّي بَعدمَا كَتَبت هَذِه الأسطُر قَرأت فِي مَجَلة «الحوَادث البيرُوتِية» مَا نَصّه بِالحَرف: «فِي الْفَتْرَة بَيْنَ كَانُون الثَّانِي وحُزيرَان أَلقت الطَّائرَات الأمرِيكِية عَلىٰ لاَوس، وكمبُودِيا، وفِيتنَام الشّمَالِية والجنُوبِية مَا زِنته (١١٢) طَن، ومَع هَذَا أعْلَنت الْوِلاَيَات المُتحدة أَنَّهَا لَيست فِي حَالة حَرْب مَع أيّة دولَة مِن هَذِه الدُّوَل»(١).

(١) أنظر، تَأرِيخ المجَلة: ٢٢ ـ ٩ ـ ١٩٧٢م. (مِنهُ ﷺ).

وبَعْد، فهَل نُطَالب بِالدَّلِيل إذَا قُلنا: إنّ النِّفَاق مِن أُمهَات الرّذَائِل الاِجْتمَاعِية الّتي لا تُحدّ، ولا تُعدّ، وإنّه مَزِيج من الخِيَانة والغَدْر، والْكَذِب والمَكر، والضَّلاَل والْفَسَاد، والظُّلْمِ والاِسْتِبْدَاد، وإنّه أَفْسَد الْمَدِينَة الحَدِيثة؟ وَقَالَ بَعْض الْعُلَمَاء: قُل لِلّذِي قَال: «لَيْس بَعد الكُفر ذَنب»[1]: مَاذا أَبقِيت للنِّفَاق؟. أَلَيْس سُبْحَانَهُ هُو القَائل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2]؟. وهَل وَرَاء الأَسفَل وَرَاء؟. ونُجِيب بأنّ النِّفَاق زِيَادَة فِي الكُفر، أو كُفر وزِيَادَة.

وبَعْد هَذِه الإِشَارَة نَعُود إِلىٰ شَرح الْكَلِمَات، ونُوجز مَا أمكَن، لِأَنَّهَا وَاضِحة بخَاصَّة بَعد أنْ مَهدنَا بمَا تَقَدَّم (فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ) تَمَاماً كوبَاء الكُولِيرا، فَاسِد ومفسِد (وَ الزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ) عَطف تَفْسِير (يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً) لَهُم أَلف وَجه ولِسَان (وَ يَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً) يَتَفَنَّنُونَ فِي أَسَالِيب المَكر والخِدَاع (وَ يَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ) إذَا أَسَأْتُم بِهِمْ الظَّن حَاوَلُوا اقنَاعكُم بشتىٰ الأَسَالِيب أنّهم عَلىٰ خَير (وَ يَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ) يَضَعُون ضدكُم خُطَط الْفِتَن، والشِّقَاق.

(قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ) إشَارة إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[3]. (وَ صِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ) ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4]. (يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَ يَدِبُّونَ الضَّرَاءَ). كَجرثُومَة السَّرطَان

(١) أُنظر، تفْسِير القُرطُبي: ٧٦/١٣، قَرِيب نَحوه.
(٢) ٱلنِّسَاء: ١٤٥.
(٣) ٱلبَقَرة: ١٠.
(٤) ٱلمُنَافِقُون: ٤.

تُفسد اللَّحم، والدَّم دُونَ أَنْ تَظهر بِنفسهَا (وَ قَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَ فِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ) ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[1]. (حَسَدَةُ الرَّخَاءِ) يَحْسدُون كلّ ذِي نِعْمَة، وَيَسْخَطُون عَلىٰ الله، لأنّه أَنْعَم بِها عَلَيْهِ (وَ مُؤَكِّدُو الْبَلاَءِ) إِذَا رَأَوا ضَعِيفاً مُبتَلىٰ ٱزدَرُوه، وسَخرُوا مِنْهُ، بَل وٱعتَدَوا عَلَيْهِ سَفهاً ولُؤماً (وَ مُقْنِطُو الرَّجَاءِ) إِذَا نَزلَت بِإِنْسَان نَازلة حَمَلُوه عَلىٰ الْيَأْس والقُنوط مِن رَحْمَة الله.

(لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ) يُغررُون بِالسُّذَج البُسطَاء، ويُوقعُونهُم فِي الهَلَكَات (وَ إِلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ). يَسْتَمِيلُون الْقُلُوب بِالمَلَقِ، والتّوَاضع الكَاذِب (وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ). الشَّجْو: الحُزْن، والمَعْنَىٰ يَسْكبُون دُمُوع التَّماسِيح أَمَام الحَزِين المُصَاب لمآرب شَخصِية (يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَ يَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ). يَطرِي بَعْضهُم بَعضاً بِقَصد المُقَايضَة والمُبَادلة فِي النِّفَاق (إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا) إِنْ طَلبوا حَاجَة أَلَحُوا وبَالغُوا (وَ إِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا) إِنْ سَخطُوا أَشَاعُوا وأَذَاعُوا بِالحَقّ وبِالْبَاطِل. (وَ إِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا) فِي الجَوْرِ، والْفَسَادِ، والضَّلاَل.

(قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا، وَ لِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَ لِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، وَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَ لِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً). يُمثلُون جَمِيع الأَدوَار فِي مَسرح النِّفَاق الْكَبِير، ويُجِيدُون التَّمثِيل فِي صُنع المَقَالب والاِحْتِيال، وإِثَارة الشُّبهَات حَوْلَ الطَّيِّبِين، وإِيْقَاظ الْفِتَن، وفَسَاد كلّ مَشرُوع فِيهِ خَير وصلاَح (يَتَوَصَّلُونَ إِلَىٰ الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَ يُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ). يَتوَسَلُون إِلىٰ الْحَيَاة الدُّنْيَا وزِينَتها بِإِظهَار الزُّهْد فِيها، والْيَأْس مِنْهَا، والرَّغبَة فِي الآخِرَة وحدَها كَذِباً ورِيَاءً (يَقُولُونَ

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١١٩.

فَيُشَبِّهُونَ) أي أنّ أقوالهُم تُثِير الشّكُوك والشُّبهَات حَوْلَ الحقَائِق والنّوَايا الطَّيِّبَة (وَ يَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ) . يُلْبسُون الحَقّ بِالْبَاطِل ، وهُم يَعْلمُون .

(قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ) قَرّبوا البَعِيد ، وبَعدُوا القَرِيب (وَ أَضْلَعُوا الْمَضِيقَ) . إذا وَقَع إنْسَان فِي مُشْكِلَةٍ ، وضَاق عَلَيْهِ المَخرَج لا يُسَاعدُونه عَلىٰ الخَلاَص ، بل يُـزِيدُونَه ضِيقاً عَلىٰ ضِيق ، وتَعقِيداً عَلىٰ تَعقِيد (فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ) حِزْبَه وجنُودَه (وَ حُـمَةُ النِّيرَانِ) حَطَب جَهَنم يَصْلُونها فَبِئس المَصِير .

الخطبة
-١٩٥-

بَاب الله مَفْتُوحٌ لِلجَمِيع...فِقْرَة ١ ـ ٣:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَ جَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَ رَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.

وَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَ إِيقَانٍ، وَ إِخْلاَصٍ وَ إِذْعَانٍ. وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَ أَعْلاَمُ الْهُدَىٰ دَارِسَةٌ، وَ مَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ، وَ نَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَ هَدَىٰ إِلَى الرُّشْدِ، وَ أَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ[١].

وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَ لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَ أَحْصَىٰ إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ، وَ اسْتَنْجِحُوهُ، وَ اطْلُبُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَمْنِحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَ لاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَ إِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَ فِي كُلِّ حِينٍ وَ أَوَانٍ، وَ مَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَ جَانٍّ، لاَ يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ، وَ لاَ يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ، وَ لاَ يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَ لاَ يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَ لاَ يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَ لاَ يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَ لاَ تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَ لاَ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَ لاَ

تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَ لاَ يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَ لاَ يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَىٰ، وَ عَلاَ فَدَنَا، وَ ظَهَرَ فَبَطَنَ، وَ بَطَنَ فَعَلَنَ، وَ دَانَ وَ لَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَأِ الْخَلْقَ بِٱحْتِيَالٍ، وَ لاَ ٱسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ[٢].

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَ الْقِوَامُ فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَىٰ أَكْنَانِ الدَّعَةِ، وَ أَوْطَانِ السَّعَةِ، وَ مَعَاقِلِ الْحِرْزِ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ، فِي ﴿يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[١]، وَ تُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ، وَ تُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ. وَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَ تَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَ تَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَ الصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً، وَ مَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَ لاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَ لاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ[٣].

اللُّغَة:

مُقَلَ الْعُيُون: جَمع مُقْلَة، وَهِي شَحْمَة الْعَيْن، والْمُرَاد بِالمُقَل هُنا البصَائِر لا الْأَبْصَار. والهَمْهَمَة، صَوْت يُسمع ولاَ يُفْهَم مِنْهُ شَيء والْمُرَاد بِهَمَاهِمِ النُّفُوسِ هُنا الْأَفْكَار. وطَامِسَةٌ: دَارِسَة. وصَدَعَ الشَّيء: شَقَّهُ، وصَدَعَ بِالْحَقِّ: تَكلَّم بِهِ جهَاراً. وهَمَلاً: سَدَىٰ. ٱسْتَفْتِحُوهُ: ٱطْلُبُوا مِنْهُ النَّصر، وٱلْفَتح. وٱسْتَنْجِحُوهُ: سَألُوه النَّجَاح والصَّلاَح. وٱسْتَمْنِحُوهُ: ٱدْعُوه أنْ يَمْنَحكُم مُن فَضلَه. وَلاَ يَسْتَنْفِدُهُ: لاَ تَنْفُد خزَائِنَه. لا يَثْلِمُهُ: لا يَنْقُصُهُ. لاَ يَلْوِيهِ: لا يُمِيلَهُ. لاَ تُولِهُهُ: لاَ تُذْهِلَهُ. لاَ يُجِنُّهُ: لاَ يَسْتِرَه. لاَ يَقْطَعُهُ: لاَ يَفْصِلَهُ. ولَمْ يَذْرَأْ. لَم يَخْلق. وَكَلَّ: تَعَب. والزِّمَامُ: المِقْوِد.

---

(١) إبْرَاهِيمَ: ٤٢.

والْقِوَامُ ـ بفتح القَاف ـ الْإِعْتِدَال ، وبِكَسرها العِماد والنّظام ، وبضمها الدَّاء . والدَّعَةِ ـ بتَشدِيد الدَّال مَع الفَتح ـ السَّكِينَة والرَّاحَة وَسِعَة العِيش . وصُرُومُ : قِطع مِن الْإِبِل . والْعِشَارِ : نَوْع من النُّوق . والشُّمُّ : جَمع أَشَمّ والشَّوَامِخُ : جَمع شَامِخ ، والْمَعْنَىٰ وَاحد أي عَالٍ ورَفِيع . والصُّمُّ : جَمع أَصَمّ أي الصُّلب ، ومثلهُ الصَّلْدُ ، ولَكِنَّهُ أَمْلَس وسَمْلَقاً : مُسْتَوِياً .

الْإِعْرَاب:

مَا حَيَّرَ «مَا» آسم مَوْصُول مَفعُولاً لأَظْهَرَ ، وَأَعْلامُ الوَاو للحَال ، وعَبَثاً مَفْعُول لأجْلِه ، أو فِي موضِع الحَال أي عَابِثاً .

الْمَعْنَىٰ:

لاَ جَدِيد فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة ، فَهِيَ تِكرَار لمَا تَقَدَّم مَضمُوناً ومُحتَوىً ، وسَبَق الكَثِير مِنْهَا بِالنَّص الحَرفِي ، ولذَا نُوجز فِي الشَّرح ، ونُحِيل اللاَحق عَلىٰ السّابق مَع الْإِشَارَة إِلىٰ رَقم ٱلْخُطْبَة (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ ، وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ . . . إلخ) . كلّ مَا فِي الكَوْن فِيهِ قُدرَة ، وإِبْدَاع وَحِكْمَة تَدل عَلىٰ الحَكِيم المُبدع ، وآمَن العَدِيد مِن الفلاَسفَة والْعُلَماء بوجُود هَذَا الحَكِيم إيمَانهُم بِأَنْفُسِهِم ، ولكن عَجزَت عُقُولِهِمْ عَن إدرَاك ذَاته تَعَالىٰ وحَقِيقَته ، لأنّ الْعَقْل مَحدُود ، والمَحدُود لا يُدرِك مَن لاَ حَدّ لهُ . هَذَا الوَاقع فمَن رَضِي وأقَر فَقد نَجا وفَاز ، ومَن أبىٰ قُلنا لهُ ، كمَا قَال تَعَالىٰ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ

وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[١]. وَتَقَدَّم مَرّات[٢].

(وَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَ إِيقَانٍ، وَ إِخْلاَصٍ وَ إِذْعَانٍ). لا يَتطَرق إِلَيْهِ الشَّك، وتَقَدَّم مثلهُ[٣]. (وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَ أَعْلاَمُ الْهُدَىٰ دَارِسَةٌ... إلخ). أَرسَل سُبْحَانَهُ قَبْلَ مُحَمّدﷺ العَدِيد مِن الرُّسُول: الرَّسُول بَعد الرَّسُول، ومَعَه شَرِيعَة الله وتَعَالِيمَه: وبِمُرُور الزَّمن صَارت نَسْياً مَنْسِياً، فَبَعث الله مُحَمّداً لإِحْيَائها، وبمَا يَجعل رِسَالَته آخر الرِّسَالات، ونُبُوّته خَاتِمَة النُّبوّات، فأدىٰ مُحَمّد أمَانة الله كَمَا أرَاد، وَسَدّ بِها كلّ فَرَاغ.

(أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَ لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً). الحَكِيم لا يَعْبَث، والْقَوِيّ الْعَادِل لا يُحَابِي، وإِذَنْ فَالتَكلِيف عَام، والمَسْئُولِيَة تَشمل الجَمِيع. وتَقَدَّم مثلهُ[٤]. (عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ) فَمَن شَكرَها فهُو عِند الله مِن الْمُحْسِنِين، ومَن كَفَر بِهَا فهُو مِن الخَاسِرِين (فَٱسْتَفْتِحُوهُ، وَ ٱسْتَنْجِحُوهُ، وَ ٱطْلُبُوا إِلَيْهِ وَ ٱسْتَمْنِحُوهُ). أَطِيعُوه وٱلتَجِئُوا إِلَيْهِ تَعَالىٰ، وٱسْأَلُوه وَحدَه فيزِيدكُم مِن فَضله. وروي أنّ كَرِيماً قَضىٰ حَاجةً لسَائل، وبَعد أَيَّام جَاء إِلَيْهِ، وَقَالَ: أنَا الَّذي قَضَيتَ حَاجَتهُ يَوْم كَذَا. فقَال لهُ: مَرحَباً لمِن تَوسّل إلينَا بِنَا».

(فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَ لاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ... إلخ). بَاب الله مَفْتُوح لدَاعِيه، وحِجَابه مَرفُوع لرَاجِيه، والطَّرِيق إِلَيْهِ سَهل يَسِير: الإِخْلاَص فِي الدُّعَاء،

(١) ٱلزُّمَر: ٣٠.
(٢) أُنظر، مِنْهَا فِي ٱلخُطْبَة: (١)، وٱلخُطْبَة (٩١)، وٱلخُطْبَة (١٨٢). (مِنْهُ).
(٣) أُنظر، ٱلخُطْبَة: (٢)، وٱلخُطْبَة (١٠١)، وٱلخُطْبَة (١٧٨). (مِنْهُ).
(٤) أُنظر، ٱلخُطْبَة: (٦٥)، وٱلخُطْبَة (٨٦). (مِنْهُ).

والصِّدْق فِي الرَّجَاء. وأُقسم أنّي طَرقته. فَنلتُ أَكْثَر مِمَّا أَمَّلتُ (وَ إِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ) بِعِلْمه وعِنَايته. وتَقَدَّم مَرّات[1]. (وَ فِي كُلِّ حِينٍ وَ أَوَانٍ) لأنّه سَرْمَدِي دَائِم (وَ مَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَ جَانٍّ) هُو مَعَكُمْ أَيْنَمَاكُنتُم بِعلمِه وعِنَايته، وعَلَيْهِ فهُو عَطف تَفْسِير عَلىٰ مَا قَبله (لاٰ يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ) لاَ تنقُص خزَائِنه بِالنّوَال (وَ لاٰ يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ) عَطف تَفْسِير (وَ لاٰ يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ). لَو أَعْطَىٰ السَّائِلِين أَضعَاف مَا سَأَلُوا مَا أَثّرَ ذَلِكَ فِي مُلْكِه وكَرَمه، وتَقَدَّم ذَلِكَ[2].

(وَ لاٰ يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ). لاَ حَدّ ولاَ نِهَايَة لجُوده، وإِذَنْ فَمَن يَستُوعبه، ويَسْتَقصِيه؟ (وَ لاٰ يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَ لاٰ يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ). لاَ يُذْهِله ويُصرِفه شَيء عَن شَيء، لأنّه مُحِيط بكلِّ شَيء. وتَقَدَّم مثله[3]. (وَ لاٰ تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ). اَرتَبَك الشَّارحُون فِي تَفْسِير هَذِه الجُملة، والَّذي نَفهَمه أَنّه تَعَالىٰ قَد يُعطِي نِعْمَة الدُّنْيَا لِمَن يَكرَه، ويَمْنَعهَا عمّن يُحبّ. فلاَ الكرَاهة تَمْنعهَا، ولاَ الحُبّ يُوجبهَا مَا دَامت اَلحِكْمَة هِي المُوجب والمِقْيَاس، واَستُوحِينا هَذَا الْمَعْنَىٰ مِن الجُملة التَّالية بلا فَاصل وَهِي (وَ لاٰ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ) أي قَد يَرحَم مَن غَضَب عَلَيْهِ، ويَعفِيه فِي الدُّنْيَا من البَلوىٰ، وفِي الوَقت نَفْسه يَبتَلِي مَن رَضي عَنْهُ بأَشَد النَّوَائِب عَلىٰ حَسَب اَلحِكْمَة.

(وَ لاٰ تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ). الله كَرِيم، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، فإِذَا مَنع الْعَطَاء عَن عَبد مِن عَبِيده فلاَ يَنْتَفِي عَنْهُ وَصف الكرَم، لأنّ المَنع كَان لِسَببٍ مُوجب، وأيضاً الله

(١) أُنظر، مِنْهَا فِي اَلخُطْبَة: (١٧٨). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح اَلخُطْبَة: (٩١). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، اَلخُطْبَة: (١٧٨ و ١٨٢). (مِنْهُ ﷺ).

رَحِيم ، وإِذَا عَاقب فلاَ يَنْتَفِي عَنْهُ وَصف الرَّحْمَة ، لأَنَّ العقَاب كَان لِسَببٍ مُوجِب (وَ لاٰ يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ ، وَ لاٰ يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ). لاَ يُجِنُّهُ أي لاَ يَسْتره ، والْمَعْنَىٰ هو الْبَاطِن بذَاته ، الظَّاهِر بِآثَاره (قَرُبَ) من كلّ شَيء بِعلمه وعنَايته (فَنَأَىٰ) عَن كلّ شَيء بِذَاته وصِّفَاته . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وسَبَق شَرح ذَٰلِكَ[١] . وجَاء فِي خُطْبَةٍ : «عَلاٰ بِحَوْلِهِ» ، أي بِسُلطَانه وبقُوَّته «وَدَنَا بِطَوْلِهِ»[٢] ، أي بِفَضلِهِ وإِحْسَانه (وَ دَانَ وَ لَمْ يُدَنْ) . ﴿لَايُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٣] .

(لَمْ يَذْرَأِ الْخَلْقَ بِٱحْتِيَالٍ) . الْمُرَاد بِالاِحْتِيَال هُنا المهَارَة ، ودِقَّة النَّظر ، ومِن ذَٰلِكَ قَوْلُهُم : فُلاَن حَسن الحِيلَة . والله يَقول للشَّيء كُن فَيكُونُ (وَ لاٰ ٱسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ) . ضَمِير «بِهِمْ» إِلىٰ الْخَلْق ، والكَلاَل التَّعب ، والله يُعِين ولا يُعَان ، والتَّعب للعَاجز . وتَقَدَّم فِي خُطْبَة أُخرىٰ[٤] . (فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَ الْقِوَامُ) . تَقُود التَّقْوَىٰ إِلىٰ كلّ خَير ، وَهِي العِمَاد الَّذي يَرتكز عَلَيْهِ نظَام ٱلحَيَاة (فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا ، وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا . . . إلخ) . مَن أَخَذ بِالتَّقْوَىٰ فَقَد فَاز دُنْياً وآخِرَة . وتَقَدَّم الكلاَم عَن ذَٰلِكَ بِالتَّفصِيل[٥] . (فِي ﴿يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[٦] ، وَ تُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ . . . إلخ) . يُشِير إِلىٰ يَوْم الْقِيَامَة وأَهوَاله . وتَقَدَّم ذَلِكَ فِي خُطْبَة أُخرىٰ[٧] (فَلاٰ شَفِيعٌ يَشْفَعُ ، وَ

(١) أنظر ، ٱلخُطْبَة : (٤٩) ، وٱلخُطبَة (٦٤) ، وٱلخُطبَة . (مِنْهُ ﷺ) .
(٢) أنظر ، ٱلخُطْبَة : (٨٣) . (مِنْهُ ﷺ) .
(٣) الأَنْبِيَاء : ٢٣ .
(٤) أنظر ، ٱلخُطْبَة : (١٨٦) . (مِنْهُ ﷺ) .
(٥) أنظر ، ٱلخُطْبَة : (١٩١) . فِقرَة «التَّقْوَىٰ» . (مِنْهُ ﷺ) .
(٦) إِبْرَاهِيم : ٤٢ .
(٧) أنظر ، ٱلخُطْبَة : (١٠٩) . (مِنْهُ ﷺ) .

لاٰ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَ لاٰ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ). ولا شَيء يُجدِي يَوْم الدِّين إلّا التَّقْوَىٰ، «لَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَىٰ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ؟»[١]. كمَا قَال الإِمَام عليه السلام.

وبَعْد، فإنّ الْإِيمَان بِالله يَدخُل فِي مَفهُومه الإِيمَان بِعَدله، ولا يَستَقِيم مَع الْـعَدْل الإلٰهِي أنْ يَسْتَوِيَ الْبِرّ والفَاجِرُ، ويُفْلت الْمُسِيء من العُقَاب، ويُحْرَم المُحَسِّـنُ مـن الثَّوَاب ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّايَسْتَوُۥنَ﴾[٢].

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٩٥).

(٢) ٱلسَّجْدَة: ١٨.

الخطبة

ـ١٩٦ـ

بَادِرُوا الْفَوْت:

بَعَثَهُ حِينَ لاَ عَلَمٌ قَائِمٌ، وَ لاَ مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَ لاَ مَنْهَجٌ وَاضِحٌ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَ أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، وَ مَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَ قَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَ مِنْهُمُ النَّاجِي عَلَىٰ بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَ مَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَىٰ مَهْلَكٍ!

عِبَادَ اللهِ، اْلآنَ فَاعْلَمُوا، وَ الْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَ الْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَ الْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، وَ الْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ، وَ حُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَ لاَ تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

اللُّغَة:

دَارُ شُخُوصٍ: فِرَاق وَانْتِقَال. وَالتَّنْغِيص: التَّكْدِير. وَظَاعِنٌ: رَاحِلٌ. وَقَاطِنٌ:

مُقِيمٌ. وبَائِنٌ: مُفَارِقٌ. وتَمِيدُ: تَضْطَرِب. ولُجَج: جَمع لُجَّة أي مُعْظَم المَاء. والْوَبِقُ: الهَالِك. ولَدْنَةٌ: لِيْنَةٌ. والمُرَاد بِالإِرْهَاقِ هُنا اَقْتِرَاب الأَوَان.

الإِعْرَاب:

فَمَا غَرِقَ «مَا» آسم مَوْصُول مُبْتَدأ، وجُملة فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ خَبَر، وقَبْلَ إِرْهَاقِ مُتَعَلِّق بإعْلَمُوا.

الْمَعْنَىٰ:

(بَعَثَهُ حِينَ لاَ عَلَمٌ قَائِمٌ، وَ لاَ مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَ لاَ مَنْهَجٌ وَاضِحٌ). الضَّمِير فِي بَعَثَهُ لرَّسُول الله ﷺ، وعَلَمٌ ـ بفتح اللاَّم ـ والْمُرَاد مِنْهُ ومِن المَنَار وَاحد، والمَنْهَج الطَّرِيق. وكلّ دَعْوَة لِلصَّلاح والإصْلاَح هِي نَتِيجَة لوجُود الْفَسَاد، فالدَّعْوَة إِلىٰ التَّوحِيد نَتِيجَة لوجُود الشّك، ودَعْوَة إِلىٰ العِلم نَتِيجَة لاِنْتشَار الْجَهْل. وبَعَث سُبْحَانَهُ مُحَمّداً ﷺ حَيْث سَاد الضَّلاَل، والْجَاهِلِيَّة ولا آمرٍ وزَاجرٍ.

(وَ أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، وَ مَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَ قَاطِنُهَا بَائِنٌ). لِعُمر الإِنْسَان فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا نهَايَة، والآخِرَة هِي دَار الخلُود، ومن حَصَر طمُوحَه فِي مَلذَات الدُّنْيَا وكَفىٰ فَقَد آثَر الزَّائِل عَلىٰ الدَّائِم. ولذَة سَاعة عَلىٰ سعَادة الأَبد... هَذَا، إِلىٰ أَنّ مَا مِن سرُور فِي الدُّنْيَا إِلّا وهُو مَشُوب بِحُزْن وكَدْر (تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ... إلخ). كلّ بَنِي آدَمَ للرَّزَايَا والخُطُوب، لا يَسلَم مِنْهَا وَاحد، ومن تخطاه الكَدْر فِي يُومه فَلن يَفلت مِنْهُ فِي غَده تَمَاماً كقُوم فِي سَفِينَة أَصَابهَا إعصَار فاَخْتَل توَازنها، وذَهب تَماسكَها، تنَاثر

مَا فِيها ومَن فِيها . . . وإذَا أسعَف الْقَدَر ، ونَجا وَاحد إلىٰ البَرّ بطرِيق أو آخر ، فأمَامَه مَا يُلحقه بِالرِّفَاق .

(الْآنَ فَاعْلَمُوا . . . إلخ) . وفِي بَعْض النُّسَخ فاَعْـمَلُوا ، وهُـو أنْسَب بِـالسِّياق (وَ الْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَ الْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَ الْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِـيحٌ) . بَـادرُوا الْـعَمَل وأَنْـتُمْ فِي سـلاَمة مِـن عَـقْلِكُم ، وصِـحَة مِـن أجْسَـامكُم (وَالْـمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ . . . إلخ) . الْفُرْصَة مُؤاتِيَة ، والتَّسوِيف يُفوّت المَقصُود ، والْعَاقِل يَأخذ بِالحَزم ، ويَنْتَهِز الفُرص ، والْأمَل فِيمَا بَعد مَع الْقُدْرَة الآن ـ تَقصِير وَحُمـق (فَـحَقِّقُوا عَـلَيْكُمْ نُزُولَهُ) . اعْمَلُوا كَأنّكُم ترُون الْمَوْت مُجسمَاً أمَام أَعْيُنكُم ، وإنّه لاَ يُمْهلكُم إلاّ بِمقدَار مَا تَعْملُون وتَتَزَوّدُونَ لآخِرتكُم (وَ لاَ تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ) لأنّه يَأتِيكُم عَلىٰ غَفْلَة .

مُقِيمٌ. وبَائِنٌ: مُفَارِقٌ. وتَمِيدُ: تَضْطَرِب. ولُجَج: جَمع لُجَّة أي مُعْظَم المَاء. والوَبِقُ: الهَالِك. ولَدْنَةٌ: لَيِنَةٌ. والمُرَاد بِالإِرْهَاقِ هُنا ٱقْتِرَاب الأَوَان.

الإِعْرَاب:

فَمَا غَرِقَ «مَا» ٱسم مَوْصُول مُبْتَدأ، وجُملة فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ خَبَر، وقَبْلَ إِرْهَاقِ مُتَعَلِّق بِاعْلَمُوا.

المَعْنَىٰ:

(بَعَثَهُ حِينَ لاَ عَلَمٌ قَائِمٌ، وَ لاَ مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَ لاَ مَنْهَجٌ وَاضِحٌ). الضَّمِير فِي بَعَثَهُ لِرَّسُول الله ﷺ، وعَلَمٌ ـ بفتح اللاَّم ـ والمُرَاد مِنْهُ ومِن المَنَار وَاحد، والمَنْهَج الطَّرِيق. وكلّ دَعْوَة لِلصَّلاح والإِصْلاَح هِي نَتِيجَة لوجُود الفَسَاد، فالدَّعْوَة إِلىٰ التَّوحِيد نَتِيجَة لوجُود الشّك، ودَعْوَة إِلىٰ العِلم نَتِيجَة لاِنْتشَار الجَهْل. وبَعَث سُبْحَانَهُ مُحَمّداً ﷺ حَيْث سَاد الضَّلاَل، والجَاهِلِيّة ولا آمر وزَاجِر.

(وَ أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، وَ مَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَ قَاطِنُهَا بَائِنٌ). لِعُمر الإِنْسَان فِي ٱلحَيَاة الدُّنْيَا نِهَايَة، والآخِرَة هِي دَار الخلُود، ومن حَصَر طمُوحَه فِي مَلذَات الدُّنْيَا وكَفىٰ فَقَد آثَر الزَّائِل عَلىٰ الدَّائِم. ولذَة سَاعة عَلىٰ سعَادة الأَبد... هَذَا، إِلىٰ أَنّ مَا مِن سرُور فِي الدُّنْيَا إِلّا وهُو مَشُوب بِحُزْن وكَدَر (تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ... إلخ). كلّ بَنِي آدَمَ لِلرَّزَايَا والخُطُوب، لا يَسلَم مِنْهَا وَاحد، ومن تَخطاه الكَدَر فِي يُومه فَلَن يَفلت مِنْهُ فِي غَده تَمَاماً كقُوم فِي سَفِينَة أَصَابَهَا إِعصَار فَٱخْتَل توَازنها، وذَهب تَماسكهَا، تنَاثر

مَا فِيها ومَن فِيها ... وإذَا أسعَف الْقَدَر ، ونَجا وَاحد إِلىٰ البَرّ بطَرِيق أو آخر ، فأمَامَه مَا يُلحقه بِالرِّفَاق .

(الْآنَ فَاعْلَمُوا ... إلخ) . وفِي بَعْض النُّسَخ فاعْـمَلُوا ، وهُـو أنْسَب بِـالسِّياق (وَ الْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَ الْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَ الْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِـيحُ) . بَـادرُوا الْـعَمَل وأَنْـتُمْ فِي سـلاَمة مِـن عَـقْلِكُم ، وصِـحَة مِـن أجْسَـامكُم (وَالْـمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ... إلخ) . الْفُرْصَة مُوَاتِيَة ، والتَّسوِيف يُفوّت المَقصُود ، والْعَاقِل يَأخذ بِالحَزم ، ويَنْتَهِز الفُرص ، والْأَمَل فِيمَا بَعد مَع الْقُدْرَة الآن ـ تَقصِير وَحُمـق (فَـحَقِّقُوا عَـلَيْكُمْ نُزُولَهُ) . اَعْمَلُوا كَأنّكُم ترُون الْمَوْت مُجسماً أمَام أَعْيُنكُم ، وإنّه لاَ يُمْهلكُم إلاّ بمِقدَار مَا تَعْملُون وتَتَزَودُونَ لآخِرتكُم (وَ لاَ تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ) لأنّه يَأتِيكُم عَلىٰ غَفْلَة .

الخطبة

-١٩٧-

مُؤَاسَاة عَليٍّ لِلنَّبيّ:

وَ لَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وآله ـ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَىٰ اللهِ، وَ لاٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَ لَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَ تَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا.

وَ لَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ وَ إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَىٰ صَدْرِي. وَ لَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَىٰ وَجْهِي. وَ لَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ـ صلى الله عليه وآله ـ وَ الْمَلاٰئِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَ الْأَفْنِيَةُ: مَلَأٌ يَهْبِطُ، وَ مَلَأٌ يَعْرُجُ، وَ مَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَ مَيِّتاً؟ فَانْفُذُوا عَلَىٰ بَصَائِرِكُمْ، وَ لْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لاٰ إِلَهَ إِلاّٰ هُوَ إِنِّي لَعَلَىٰ جَادَّةِ الْحَقِّ، وَ إِنَّهُمْ لَعَلَىٰ مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَ لَكُمْ!

اللُّغَة:

الْمُسْتَحْفَظُونَ: مُستودعُو الأَمَانَة. ووَاسَيْتُهُ وَآسَيْتَهُ بِمَعْنَىٰ وَاحد أي عَاوَنْتَهُ

والنَّجْدَة: الشَّجَاعَة. وأَفْنِيَةُ: جَمع فِنَاء ـ بكسر القَاء ـ مَا ٱتَسَع أمَام الدَّار أي سَاحتَه. والهَيْنَمَة: الصَّوْت الخَفِي. المَزَلَّة: مُوضع الزَّلل.

الإِعْرَاب:

نَجْدَةً نُصب عَلىٰ الْمَصْدَريَة أي نَجْدَةً، فَمَنْ ذَا «مَنْ» ٱسْتفهَام فِيهِ مَعْنَىٰ الإنْكَار وَمَحلها الرَّفع بِالابْتِدَاء، وذَا مُبْتَدَأ ثَانٍ، وأَحَقُّ خَبَره، والجُملة خَبر الْأَوَّل، ويَجُوز أَنْ تَكُون «مَنْ ذَا» كَلِمَة وَاحدة بِمَعْنَىٰ أي إنْسَان، وتَكُون كَلِمَة أَحَقُّ خَبَراً لمَنْ ذَا، وحَيّاً حَال مِن الضَّمِير فِي «بِهَ».

الْمَعْنَىٰ:

(وَ لَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَىٰ اللهِ). هُم عُلَمَاء الْصَّحَابَة الَّذِين أَمَرَهُم الله تَعَالىٰ أَنْ يَحفظُوا شَرِيعَتَه، ويُبلغُوهَا لِلتَّابعِين كَمَا سَمِعُوها مِن رَسُول الله ﷺ بلا تَحْرِيف، وتَزِييف. ويَسْتَشهِد الْإِمَام بهَؤُلَآء الحَفَظَة عَلىٰ أنّه كَان أَطْوَع لرَّسُول الله مِن بَنَانه، وإنّه مَا رَدّ ولاَ تَردد فِي شَيء مِن أَمْرِه حَتَّىٰ كأَنَّهما نَفْسٌ وَاحدة. وَلَيْس الْإِمَام بحَاجَة إِلىٰ الشَّهادة والشَّاهد بَعد أَنْ شَهِد الحَاكِم نَفْسَه، وَقَالَ ﷺ لِعَليّ بَصرَاحَة: «أَنْتَ مِنّي، وأَنَا مِنْكَ»[1].

(١) نَقَل هَذَا الحَدِيث صَاحب كِتَاب الفضَائل الْخَمْسَة مِن الصّحَاح السّتَة. نَقَله عَن صَحِيح البُخَاريّ بَاب الصُّلح طَبعَة مِصْر سَنَة ١٣٢٠ هـ وعَن صَحِيح التِّرمِذي: ٢/ ٢٢٩. طَبعَة بولاَق سَنَة ١٢٩٢ هـ، وعَن مُسْنَد أحمَد: ١/ ١٠٨ طَبعة مِصْر سَنَة ١٣١٣هـ. (مِنْهُ ﷺ).

(وَ لَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ ... إلخ). «إنّ عَلِيّاً لمَا قَتِل أَصْحَاب الأَلْوِيَة يَوْم أُحُد قَال جِبْرِيل: يَا رَسُول الله: «إنّ هَذِه لَهِي المُوَاسَاة. فقَال النَّبيّ: إنّ عَلِيّاً مِنّي وأنَا مِنْهُ. فقَال جِبْرِيل: وأنا مِنكُما يَا رَسُول الله»[1]. وتَقَدَّم الكلاَم فِي هَذَا المَوْضُوع بِالتَّفصِيل[2].

↩ أُنظر، كتاب الآل لِابْن خالويه: ورق ١١٦ مخطوط، تَفْسِير القُرطُبي: ٢١٥/١٥، صَحِيح اَبن حبّان: ٢٢٩/١١ ح ٤٨٧٣، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ١٣٠/٣ ح ٤٦١٤، الأَحَادِيث المُختَارة: ٣٩٢/٢ ح ٧٧٨، مَجْمَع الزوائد: ٢٥٨/٩، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرىٰ: ٥/٨ و ٦ و: ٢٢٦/١٠، مُسْنَد البزار: ٣١٦/٢ ح ٧٤٤، مُسْنَد أحمد: ١١٥/١ ح ٩٣١، شعب الإِيمَان: ٢٨٤/٤، كشف الخفاء: ٢٣٧/١ ح ٦١٩، البحار: ٢٦٧/٣٩، وزاد فِيهِ: وقد جعلك الله أهلاً لِذَلَك، فأَنْتَ مِنّي وأَنَا مِنْكَ، ولاَ نَبيّ بَعدِي، نور الأَبْصَار: ٧٢ الحَدِيث بلفظه وبعينه، و: ٧٤ ط القَاهرة بِمِصْر، فَضَائِل الخَمْسَة من الصِّحاح السِّتة: ٢١١/٢، أرجَح المطالب: ٥١٤ طَبْعَة لاهور.

(١) أُنظر، فِي كِتَاب الرّياض النّضرة عَن الإِمَام أحمَد، والطَّبَري، والمُتقي: ٢/ ١٧٢، الطّبعة الأُولىٰ بمطبعة الإتّحاد المِصْري. (مِنْهُ ﷺ).

أنظر، الرّياض النّضرة: ١٨٦/٢ ح ٦٦١، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَد بن حنبل: ٦٠٥/٢ ح ١٠٣٠، المُسْتَدرَك علىٰ الصَّحِيحين: ١١٩/٣ ح ٤٥٧٩، موارد الظّمآن: ٥٤٣/١ ح ٢٢٠٣، سنن الترمذي: ٦٣٢/٥ ح ٣٧١٢، مَجْمَع الزّوائد: ١٢٨/٩، المُعْجَم الكَبِير: ١٦٢/٦ ح ٦٠٨٥، مُسْنَد أحمد: ٤٣٧/٤، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ١١١/١ ح ٨٢٩، فيض القدير: ٣٥٧/٤، الإِصَابَة: ٤ /٥٦٩، نور الأَبْصَار للشّبلنجي: ٧٩، أُسد الغَابَة لِابْن الأثير: ٤ /٢٠ روىٰ بسنده عن سَعيد بن المُسيّب، الرّيَاض النّضرة: ٢ /١٧٢، المرقاة لعلي بن سلطان: ٥ /٥٦٨ عن أبي رَافع... وساق الحديث ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ قَالَ جِبْرِيل: يَا رسول الله: إنّ هَذِه هي المُوَاسَاة... فَقَالَ جِبْرِيل: وأنا منكما يا رسول الله. كشف اليَقِين في فَضَائِل أمِيرالمُؤْمِنِينَ ﷺ لِابْن المُطهّر الحلّي: ١٣١.

أُنظر، الإِرْشَاد للشّيخ المُفِيد: ٩١/١، وكشف الغُمّة للإربلي: ١٩٦/١، السِّيرة النَّبَويّة لِابْن هِشَام: ١٥٩/٣، السّيرة بهامش السِّيرة النَّبَويّة: ٢ /٣٢٣:...

ولسْنَا بِصدد بَيَان كَلِمَة «مني» وما تَحمل فِي طيّاتها من معانٍ كثِيرة، ولكن نَنقل بتصرّف ما قَاله اَبن ↩

(وَ لَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ وَ إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَىٰ صَدْرِي). ونُـقِلَ «إِنّ رَسُـول الله صلى الله عليه وآله قُبِضَ، وَرَأسَه فِي حِجْر عَليّ»(١).

↩ البطريق في العُمدة: ٢٠٦، والعلاّمة البيَاضي في الصّراط المُسْتَقِيم: ٢ / ٥٧، والشَـيخ المـظفّر في دَلاَئِـل الصِّدْق: ٢ / ٤٢٢، والسَّيِّد مُرتضىٰ العَسكري في مَعَالِم المَـدرستِين: ١ / ١٦٤، وكشـف الغُـمّة: ١ / ٩٦، والمُرَاجعات: ٢٤٤.

فأبن البطريق يقول: «مِنّي» من جِنْسِي فِي التَّبليغ، والأدَاء، ووجُوب فَرض الطّاعة، فصَار أستحقَاق الإِمَامَة لهُ كأستحقَاق النُّبوَّة لِلنَّبيّ صلى الله عليه وآله وكَلِمَة «منّي» لا تَحتمل التَأويل بقرِينة انّه صلى الله عليه وآله قال بَعدَها «وأنا مِنهُ».

وَقَالَ البيَاضي: وكَلاَمه صلى الله عليه وآله دَلِيل ظَاهر عَلىٰ أنّه أحقّ بمقَامه، إذْ تَخصِيصه بهَذا الْقَوْل دُونَ غَيْره من أُمّته دَليل فضِيلته المُوجب لإستحقَاق رُتبته.

أمّا الشَّيخ المُظفّر فيقول: دَلاَلَة الجَـمِيع عَلىٰ إمَامَة عَليّ عليه السلام ظَاهرة لأنّ جَـعل كـلّ مـن النَّـبيّ صلى الله عليه وآله وعَليّ عليه السلام بعضاً من الآخر دَليل عَلىٰ أتّحادهما بالمزَايا والْفَضْل والإِمَامَة.

أمّا السَّيّد العَسكري فيقول: إنّ لفظ «منّي» في أحَادِيث الرَّسُول صلى الله عليه وآله وخَاصَّة «أنتَ منّي بمنزلة هارون من مُوسىٰ» يُوضح المُرَاد من أنّ هارون لمّا كَان شَرِيك مُوسىٰ في النُّبوَّة ووزِيرَه فِي التَّبليغ، وكَانَ عَليّ من خَاتم الأنْبِياء بِمَنْزلة هارون من موسىٰ بأستثنَاء النُّبوَّة فيَبْقىٰ لعَليّ الوزَارة فِي التَّبليغ.

(٢) أُنظر، فِي شَرح الْخُطْبَة: (١٩٢) فِقرَة: النَّبيّ وَعَليّ. (مِنْهُ رحمه الله).

(١) أُنظر، الفضَائل الخَمْسَة مِن الصّحاح السّتة، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٢/ ق٢/ ٥١، طَبعة لِيدن سَنَة ١٣٢٢ ه‍، مَجْمَع الزّوائد: ١ / ٢٩٣، طَبْعَة سَنَة ١٣٥٢ ه‍، النّاشر مَكتبة المَقدسي. (مِنْهُ رحمه الله).

أُنظر، الْعِلَل المُتناهية: ١/٢٢١، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٢/٢٦٣، مِيزَان الإعْتِدَال: ٤/١٧٤، سير أعْـلام النُّبلاء: ٨/٢٤، مُسْنَد أحمد: ١/٣٥٦ ح ٣٣٥٥، مُعتصر المُختصر: ١/٧٦، شَرح مَعَانِي الآثَار: ١/٤٠٥، سُنَن أبن مـاجه: ١/٣٩١ و ٥١٩، الأحَـادِيث الْمُخْتَارة: ٩/٤٩٦ ح ٤٨٣ وص: ٤٩٨ ح ٤٨٤، شرح الأخْبَار: ١/١٤٧ ح ٨٥، مناقب آل أبِي طالب: ١/٢٠٣، مَنَاقب الخـوَارزمـي: ٦٨ ح ٤١ عـن أبـن مردويه، الرّياض النّضرة: ٢/١٨٠، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٧٢، كـفاية الطّـالب: ١٣٣، تَأرِيخ مـدينة دمشـق: ٤٢/٣٩٣، يَنابيع المَوَدَّة: ٢/١٦٣، جواهر المطالب في مناقب عليّ: ١/١٧٥، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/١٨٦، ح ٢٥٩٠ وح ٤١٩٠، كتاب الوصايا، بَاب ١، صَحِيح مُسْلِم: ٥/٧٥، بَـاب ٥، ح ٦٣٦ مـن كـتاب الوَصِيَّة، سُنَن النّسائي: ٦ / ٢٤١ كتاب الوَصِيَّة، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ١/٩٩، البداية والنّهاية: ٥/٢٧١.

↩

وفي رواية قالت عَائِشَة: مَات رَسُول الله ﷺ في بَيتي ويُومي، وبَيْنَ سَحرِي وَنحرِي، فـدَخل عـبد الرّحمـن بن أبي بَكْر، ومعه سواك رَطب فنظر إلَيْهِ، فظننت أنّ له فِيهِ حَاجَة، قالت: فأخـذته فمـضغته، ونفضته، وطيبته، ثُمّ دَفعته إلَيْهِ فأستن كأحسن مارأيته مُستناً قط، ثُمّ ذَهب يرفعه إليّ فـسقط مـن يـده فأخذت أدعو الله عزّ وجلّ بدُعاء كَانَ يدعو به جِبْرِيل، وكَانَ هو يدعو به إذا مرض، فلم يَدع به في مَرَضه ذَلِكَ، فرفع بصره إلىٰ السّماء وَقَالَ: الرّفيق الأعلىٰ يَعني... وفاضت نَفْسَه. راجع مُسْنَد أحمد: ٤٨/٦ و١٢١ و٢٠٠ و٢٧٤، صَحِيح البُخَارِيّ: ٤٥/٤ و: ١٤١/٥، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٧٤/٧، مَجْمَع الزّوائـد: ٣٦/٩، الدُّر المنثور: ٣٢/٥. وَهَذَا لَيس بغريب عَنْهَا.

ومن هُنا يَتبَيَّن لنَا بطلان دعوىٰ آبـن خـلدون وغَـيْره بأنّ رَسُـول الله مَـات ورَأسـه في حِـجرها «عَائِشَة»، تَأريخ آبن خلدون: ٤٦٦/٢، بالإضافة إلىٰ أنّها قَالت ـ أي عَائِشَة ـ: «مَا عَلمنا بدَفن رَسُول الله حَتَّىٰ سَمعنا صُوت المسَاحي من جُوف اللَّيل، لَيْلَة الأربعاء»، آبن هُشـام: ٣٤٤/٤، تَأرِيخ الطَّـبَرِيّ: ٤٥٣/٢، آبن كَثير: ٢٧٠/٥، أسد الغَابَة: ٣٤/١، وقيل لَيْلَة الثلاثاء، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٧٨/٢، تَأرِيخ الخَميس: ١٩١/١، تَأرِيخ الذَّهبي: ٣٢٧/١، ولكن الصّحيح هو الأوّل. مُسْنَد أحمد: ٦٢/٦ بلفظ في آخر لَيْلَة الأربعاء وسَمع بنو غُنيم صَرِيف المسَاحي أيضاً وهم في بُيُوتهم. وها هي أُمّ سَلمة تـقول: «والّـذي أحلف بهِ إنْ كَانَ عليّ لأقرب النّاس عهداً برَسُول الله ﷺ... ثم قالت: فأكبَ عَلَيْهِ رَسُول الله ٩ وجَعل يسَّاره ويُناجِيه ثُمّ قُبِض رَسُول الله ﷺ من يُومه ذَلِكَ، فكان عَليّ أقرب النّاس عَهداً بـه»، مُسْـتَدرَك الحَاكِم: ١٣٨/٣.

وعن جَابر بن عبد الله الأنْصَاري قَال: «إنّ كعب الأحْبَار سَأل عُمَرَ بن الخَطّاب: ما كَانَ آخر مَا تَكلّم بِهِ رَسُول الله ﷺ؟ فقَال عُمَرَ بن الخَطَّاب: سَل عَلِيّاً، فسأله كَعب، فقَال عَليّ: أسندت رَسُول الله ﷺ إلىٰ صَدري فوضَع رَأسه عَلىٰ مَنكبي فقَال: الصّلاة، الصّلاة، قَالَ كعب الأحْبار، كَذَلِكَ آخر عَهد الأنْبِيَاء، وبِهِ أُمروا، وعَلَيْهِ يُبعثُون.

قَال كَعب: فَمَن غسله يا أمِير المُؤْمِنِينَ؟ فقَال عُمَرَ بن الخَطَّاب: سَل عَلِيّاً، فسأله فقَال ؛: «كنتُ أنَا أُغسله». الطَّبَقات الكُبْرَىٰ لابْن سعد: ٢٦٢/٢، وقِيل لابْن عبّاس أرَأيْت رَسُول الله٩ تُوفي ورَأسـه في حجر أحدٍ؟ قَال: نَعم، تُوفي وأنّه لمُسند إلىٰ صَدر عَليّ، فقِيل له: إنّ عُرْوَة يُحدث النّاس عَن عَائِشَة إنّها قَالت: تُوفي بين سَحرِي ونَحرِي، فأنْكَر آبن عبّاس ذَلِكَ، قَائلاً للسَّائل: أتعقّل؟! فـوالله لـتُوفي رَسُول

(وَ لَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَىٰ وَجْهِي). الْمُرَاد بِنَفْسه دَمه ﷺ. والنَّفْس فِي اللُّغَة تُطلق عَلىٰ الدَّم، يُقَال: دَفق نَفْسَه أي دَمه. وَقَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «روي أنّ النَّبيّ ﷺ قَاءَ فِي مَرَضَه دَماً يَسِيراً، فَتلقىٰ قِيأه ـ دَمَه ـ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ فِي يَدَه، ومَسَح بِهِ وَجْهه»[1]. (وَ لَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ـ ﷺ ـ وَ الْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي) روىٰ ذَلِكَ كَثِير مِن أَهْل السِّير، والتَّأرِيخ[2].

↩ الله ﷺ وإنّه لمُستند إلىٰ صدر عَليّ، وهو الَّذي غَسّله. وأخرج أحمَد، وأبو يَعلىٰ المُوصليّ من حَديث أُمّ سَلمة بإسناد رِجَاله ثُقات أنّها سَمعت رَسُول الله ﷺ يُنادي عَليّاً في مَرض مَوْته، فلمّا وَصل إلَيْهِ أكبَّ عَلىٰ النّبيّ ﷺ فجعل رَسُول الله ﷺ يسَاره ويُناجيه، ثُمّ قُبِضَ من يُومه ذَلِكَ، وكَان أقرب النّاس بهِ عهداً»، مجمع الزّوائد: ١١٢/٩، الطّبراني في الكَبِير: ٢٧٣/٤، مُسْنَد أحمد: ٣٠٠/٦، الطّبقات الكُبْرىٰ: ٢٦٣/٢، وقد روىٰ مَوْت النّبيّ ﷺ وهُو في صَدر عَليّ كَثِير من أَهْل السُّنَة. فلاحظ المصادر. تأريخ دمشق تَرجمة عَليّ أن أبي طالب: ١٤/٣ ح ١٠٢٧ و ١٠٢٨، مَجْمَع الزّوائد: ٣٦/٩ و١٢٢، شَرح النّهج للمعتزلي: ٢/ ٥٧١، ولمُحمّد عَبْدَه: ٣/ ٣٨٩، تأريخ الْمَدِينَة للسّمهودي: ٢٣/١، كَنز الْعُمّال: ٧/ ١٧٩.

وأمّا عن طريق أَهْل الْبَيْت عليهم السلام فَهوَ أكْثَر من أنْ يُحصىٰ، ولَسْنَا بصدد مُناقشة السَّيِّدة عائِشَة، ومن أرَاد المَزيد فعَليه مُراجعة كتاب السَّيِّد العلاّمة مُرتضىٰ العَسكري في أحَاديث عَائِشَة أُمّ الْمُؤْمِنِينَ، وكَذَلِكَ كتَاب المُراجعات للسّيد عَبد الحُسَيْن شَرف الدّين ﵀.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٧٢/٢، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١٨٣/١٠.

(٢) أُنظر، الإمَام ابن حَنبل فِي مُسْنَده، وأبو نَعِيم فِي حُليته، وابن سَعد في طبقاته، الفضَائل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة. (مِنْهُ ﵀).

غَسّلَهُ الْعَبّاس، والإمَام عَليّ، والْفَضْلُ بن الْعَبّاس، وصَالح مَوْلاَه.

أُنظر، سيرة النّبي وأيّامه: ٢/ ٥٢٥، السّيرَة النّبويَّة لمحمّد بن مُحمّد أبو شهبة: ٢/ ٥٩٨.

وفي روايةٍ أُسامه بن زيد، وقُثَم بن الْعَبّاس. ونَاداهم أوسٌ نَاشدتُكَ الله إلاّ ما أعطيتَني حَظاً مِن رَسُولِ الله فأحضرهُ، ولَم يُباشرْ شَيْئاً من أمرهِ، وأسندَهُ عَليّ عليه السلام إلىٰ صَدرِهِ، وعَليهِ قَميصُهُ، وكَان الْعَبّاس، والْفَضْل، وقُثَم يقلّبوُنَهُ مَع عَليّ، وأسامة، وصَالح يَصُبّان المَاء.

↩

↔ أنظر، الاِسْتِيعَاب: ١٦١/٢، الإِصَابَة: ١٥٠/٢، أُسد الغَابَة: ١/٣، سيرة النَّبيّ وأَيَّامه: ٢/ ٥٢٦ و ٥٢٧، عُيُون الأثر: ٢/ ٤٣٣. البَيْهَقِيّ في الدّلائل: ٢٥٣/٢١، مغازي الوَاقدي: ١١٢٠/٣، تَلخيص الحَبير: ١١٦/٥، مُسْنَد أحمد: ٢٦٠/١، البداية والنّهاية: ٢٨١/٥، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن هشام: ٥١٨/٤، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٣٢٤/١٣.

وقيلَ: كَانَ الْعَبَّاس بالبَابِ، ولَم يرَ منهُ ما يُرىٰ من الأموات، وغُسّل بالمَاءِ، والسّدرِ، وأُدرج في ثلاثة أثوابٍ، ثوبين أبيضّين، وحَبِرَة، وقِيل: لم يُعيّنوا مدّفَنهُ فقَال أبوبَكْر سَمعتهُ يقول: مَا يُقبرُ نبيّ إلّا حَيثُ يَمُوت فحفروا تَحت فرَاشه، ونزل معهُ القَبر عَليّ، والْعَبَّاس، والْفَضْل، وشقران. كما جاء في سيرة النّبيّ لِابْن هشام: ١٠٧٦/٤، سُنن ٱبن ماجه: ٥٢١/١، عون المعبود: ٢٢/٦، مُسْنَد ٱبن راهويه: ٣/ ٧٣٩، شرح نَهْج ٱلبَلاغَة لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٣٩/١٣، الجَامِع الصَّغِير: ٥٠٥/٢ ح ٧٩٧٧، كنز العُمَّال: ٢٢٩/٧ ح ١٨٧٤٥، فيض القدير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٥٩٣/٥، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٢٩٢/٢، أُسد الغَابَة: ٣٤/١، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد: ٣٣٤/١٢، وفيها لفظ: «مَا قُبض نَبيّ إلّا دُفن حَيْث يُقبض». كما جاء في سيرة النّبيّ وأَيَّامه: ٢/ ٥٢٦ و ٥٢٧، عُيُون الأثر: ٤٣٢/٢.

وقِيل: أُسامه، وعبدالرّحمن بن عوف، وأوس بن خوَلىٰ. أُنظر، الاِسْتِيعَاب: ٤٨/١، الإِصَابَة: ٩٥/١، أُسد الغَابَة: ١٧٠/١.

وقيل: عَقِيل بن أبي طالب، وَقُثَم، وألقىٰ الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة خَاتمهُ ثُمّ نزل فأخذه، وكَانَ أخر النّاسِ عهداً. أُنظر، البَحر الرّائق: ٣٣٩/٢، المبسوط للسّرخسي: ٧٤/٢، تذكرة الفُقَهاء: ١٠٣/٢، المجموع: ٣٠/٥، الْمُغْني: ٤١٥/٢، المُهذب الشّيرازي: ١٤٥/١.

وقيل: إنّ عَليّاً أعطاهُ الخَاتم، ولَم يُمكّنهُ من النّزول. أُنظر، سيرة النَّبيّ وأَيَّامه: ٥٢٥/٢، السِّيرَة النَّبَوِيَّة: ٥٩٨/٢.

والصّحيحُ أنّ عَليّاً حلّ عند رَأسه، وقبّل وَجْههُ، وَقَالَ السّلام: «عَلَيْكَ بأبِي أنْتَ وأُمّي يَا حَبِيب الله طبْت حيّاً، وميّتاً، ولقَد ٱنقطع بموتكَ مَا لَم يَنقطعُ بِمُوت غَيْرك من النُّبُوّة، والأَنْباء، وأخبَار السّماء، خَصصتَ حَتَّىٰ صرت مُسلياً عَن غَيْرك، وعممت حَتَّىٰ صَار النّاسُ فِيك سوَاءٌ، والله إنّ الجَزَع لَيقبح إلّا عَلَيْكَ، وإنّ الصّبرَ ليحسنُ إلّا عَنك، ولَوْلا أمرك بالصّبر، ونَهيكَ عن الجَزَع لأنفدنا عَلَيْكَ مَاء الجفُوّن، ولكان الدّاء مُماطلاً، والكَمد مُحالفاً، ولكنّهُ ما لايُستطاعُ ردّهُ، ولايَملك دَفعهُ فَأذكرنا عندَ ربّك، وأحطنا من بَالك، ↔

(وَ الْمَلائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَ الْأَفْنِيَةُ: مَلأٌ يَهْبِطُ، وَ مَلأٌ يَعْرُجُ). قَال ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «أمّا حَدِيث الهَيْنَمَةٌ وسمَاع الصَّوْت فَقَد روَاه خَلقٌ كَثِير مِن المُحدثِين»(١). وَقَالَ الغزالِي: «إنّ الْمَلاَئِكَة بأجْمَعها دَخَلْت عَلىٰ النَّبيّ ﷺ بعد مُوته، وصلّت عَلَيْه»(٢).

(فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَ مَيِّتاً؟). نَشَأ الإِمَام فِي حِجر النَّبيّ ﷺ، وكفَاه الكَثِير مِن أُموره قَبل البِعثَة، وبَعد نزُول الوَحي كَان أوّل مَن آمن بِمُحّمَد ﷺ وصَلّىٰ مَعَه من الذّكور، وأوّل مَن فداه بِنَفسه(٣)، وضَرَب بَيْنَ يَدِيه بِالسَّيْف، وهُو فِي مُقتَبل العُمُر، وقَتل أبْطَال الشِّرك، والضَّلاَل، وفَرج همُوم النَّبيّ، ووَاسَاه بِنَفْسَه فِي كلّ مَوْطِن، وكَان لهُ شَرف خِدمَته، وتَمرِيضه ومُلازمته عِند الاِحْتضَار، ثُمّ شَرف غُسْلَه وتَجهِيزه، وغَيْره مِن الْصَّحَابَة فِي سَقِيفَة بَنِي سَاعدة يَتصَارعُون عَلىٰ ٱلخِلاَفَة

↩ والسّلام عَلَيْكَ، رَحْمَة الله وبركاته»، وَقَالَ عند خرُوجه:

مَا غاضَ دَمعِي عِند نَازلة	إلاّ جَعلتُكَ للبُكا سَببا
فإذَا ذَكرتُك سَامحتك بِهِ	منّي الجفُون ففَاضَ وأنسكبا

أُنظر، سيرة النّبي وأيّامه: ٢/٥٢٥، السِّيرَة النَّبويَّة: ٢/٥٩٨، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٢/٢٢٨، مع إختلاف يسير، نهج السّعادة: ١/٣٨، الأمالي للشّيخ المُفيد: ١٠٣، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١٣/٢٤، شرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لمُحمّد عَبْدَه: ٢/٢٥٥، مناقب آل أبي طالب: ١/٢٠٧، تَأرِيخ مدينة دمشق لِابْن عساكر: ٥٤/٢٨٣، دستور مَعَالِم الحُكم لِابْن سلامة: ١٩٩.

(١) أُنظر، شَرح النّهج: ١٠/١٨٣.

(٢) أُنظر، إحيَاء علُوم الدِّين. (مِنْهُ ﵀). إحيَاء علُوم الدِّين: ١/٢٥٤، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢/٤٣٥ و: ٣/١٩٢، الكَامِل في التَّأرِيخ: ٢/٣٢٠، الكَافِي: ١/٤٥١ ح ٣٨، المناقب لِابْن شهر آشوب: ١/٢٣٩، رَبيع الأبرار: ٤/١٩٧، المُعْجَم الْكَبِير: ٣/٦٤ ح ٢٦٧٦، حلية الأَوْلِيَاء: ٤/٧٨، الدُّعاء للطّبراني: ١/٣٦٦، مَجْمَع الزّوائد: ٩/٢٤.

(٣) أُنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (١٩٢). (مِنْهُ ﵀).

وسُلطان مُحمّدﷺ(١)... وكَان الإمَام بِعلمِهِ، وأخْلاَقه آمتدَاد لشَخصِية النّبيّﷺ

(١) سَبق وأنْ أشرنَا إلىٰ أنّ الشّيخين تَركا رَسُول اللهﷺ مُسجىً كمَا هو، وأغلقُوا البَاب دونه وأسرعُوا إلىٰ السّقِيفَة، وكَانَتْ الأَنْصَار قَد سَبقتهم إليْهَا للمُذاكرة في الإمَارة والخِلاَفَة، وتَبعهُم جمَاعَة من المُهَاجِرين، ولَمْ يَبقَ حَوْلَ رَسُول الله إلاّ أقَاربه الّذين غَسلوه وكَفنُوه ودَفنُوه... ولذَا قَال عُمَرَ بن الخَطّاب: «كَان مِن خَبَرنا حِين توفّىٰ الله نَبِيّه، أنّ الأَنْصَار آجتمعُوا فِي سقيفة بَنِي سَاعدة، وخَالف عنَا عَليّ، والزُّبَيْر، ومن معهما، فقلتُ لأبِي بَكْر: إنطلق بنَا إلىٰ إخواننا الأَنْصَار. فآنطلقنا حَتّىٰ أتينَاهُم. فإذَا رَجل مُزمل فقَالُوا: هَذَا سَعد بن عَبَادة يُوعك، فلمّا جَلسنا قَلِيلاً، تَشهد خَطِيبهُم فأثنىٰ عَلىٰ الله، ثُمّ قَال: أمّا بَعد، فَنحن أنْصَار الله وكَتِيبة الإسْلام، وأنْتُمْ مَعشر المُهَاجِرين رَهط... فأردتُ أنْ أتكَلّم، فقَال أبو بَكْر: عَلىٰ رَسلك. فتَكَلّم هُو، والله مَا تَرك من كَلِمَة أعْجبتني فِي تَزوِيري إلاّ قَال فِي بَدِيهته مِثلها... وقَد رَضِيت لكُم أحد هَذِين الرّجُلِين فبَايعُوا أيّهُما شِئتُم، فأخَذ بيدِي، وبِيد أبِي عُبَيْدَة آبن الجَرّاح... فقَال قَائل من الأَنْصَار: أنَا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، مِنا أمِير ومنكُم أمِير... فكَثر اللّغط، وآرتفعت الأصوَات حَتّىٰ تَخوفتُ من الإخْتِلاَف فقلتُ: آبسط يَدك يَا أبا بَكْر. فبسط يَده فبَايعته وبَايعه المُهَاجِرُون، ثُمّ بَايعه الأَنْصَار...».

أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٤/١٢٠، كتاب الحُدُود بَاب رجم الحُبلىٰ من الزّنا، الطّبَقَات الكُبْرىٰ: ٢/٢٦٣، كنزالعُمّال: ٤/٥٦ و٦٠، العقد الفريد: ٣/٦١.

وفِي روَاية الطّبَريّ أيضاً قَرِيب من هَذَا اللّفظ: «أجْتَمعت الأَنْصَار... وتَركوا جنَازة الرّسُول يُغسله أهْله. فقَالُوا: نُولي هَذَا الأمر بَعد مُحَمّد، سَعد بن عبادة، وأخرجُوا سَعداً إلَيْهِمْ وهُو مَرِيض، ثُمّ إنّهم تَرادوا الكلاَم بَيْنَهمْ. فقَالُوا فإنْ أبَت مُهاجرة قُرَيْش فقَالُوا... فقالت طَائِفَة منهُم: فإنّا نقُول إذاً: مِنّا أمِير ومِنكُم أمِير. فقَال سَعد بن عبادة، هذا أوّل الوَهن... فقَام الحبَاب بَعد أنْ خَطب أبوبَكْر، قَال: يَامعشر الأَنْصَار أملكُوا عَلَيْكُم أمركُم... فقَالَ عُمَرَ بن الخَطّاب: هَيهات! لا يَجتمع أثنان في قَرن... والله لا تَرضىٰ العَرَب أنْ يُؤمرُوكُم ونَبيّها من غَيْركم... مَن ذَا يُنَازعنا سُلطان مُحَمّد وإمَارته، ونَحْنُ أولياؤه وعَشيرته إلاّ مُدل بِبَاطِل، أو مُتجانف لإثمّ أو مُتورط في هَلكة. فقَام الحبَاب، وكرر كلاَمه السّابق... فقَال عُمَرَ بن الخَطّاب: إذَنْ يَقتلك الله. قَال: بل إيّاك يَقتل... فأقبل النّاس يُبَايعُون أبَا بَكْر... فقَال أُنَاس من أصْحَاب سَعد بن عَبادة: آتقوا سَعداً لاتطؤوه... فقَال عُمَرَ: آقتلوه، قَتله الله... ثُمّ قَام عَلىٰ رَأسه فقَال: لقَد هَممت أنْ أطأك حَتّىٰ تَندر عُضوك، فأخذ قَيْس بن سَعد بِلحية عُمَرَ بن الخَطّاب فقَال: والله لوحَصصت مِنْهُ شَعرة مَا رَجعت وفِي فِيك واضحة... فقَال أبو بَكْر: مَهلاً يَاعُمَرَ، الرّفْق هَا هُنا أبْلَغ... فأعرض عَنْهُ

وبهذا الإمْتدَاد المُحَمّدِي، وهَذِه الرّوح النَّبَوِيَّة «حَافظ عَلَىٰ حيوية الحَمَاسَة الأصْلية فِي نفُوس شَطر مِن المُؤْمِنِينَ» عَلىٰ حَدّ مَا قَال الفَيْلَفُوس الإنجلِيزِي الشَّهِير «بَرتَرَاند رَاسل» : «ألا تَنطُق هَذِه الخِلاَل، والكَثِير مِن أمثالهَا بِأنّ الإمَام أوْلَىٰ النَّاس بِحُبّ النَّبِيّ حَيّاً، وبِخِلاَفَته وَمَيّتاً؟» [١].

(فَانْفُذُوا عَلَىٰ بَصَائِرِكُمْ) يُخَاطب الإمَام بهَذَا أصْحَابه ويَقُول لهُم: اَمضُوا إِلىٰ قِتَال عَدُوّكم، فأنْتمْ عَلىٰ بَصِيرة مِن أمْرِكُم، ومَا عَلَيْكُم إلّا الصّدْق فِي النِّيَّة، والثَّبَات عَلىٰ عَزم الجِهَاد (فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) إنّ الجِهَادَ مَع الإمَام كالجِهَاد مَع رَسُول الله ﷺ، وإنّ الجِهَاد مَع النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والمَارِقِين كَالجِهَاد مَع أبِي سُفْيَانَ فِي بَدْر، وأُحُد، والأَحْزَاب، قَال المُسْتَشرق الألمَانِي «فُلهُوزن»: (إنّ رِجَالاً اَقْتَحمُوا المَوْت مِن أجْلِ عَليّ. هُم أقوىٰ دَلِيل عَلىٰ أنّه الحَقّ، ونَذكر مِنهُم عَبد الله بن بُدِيل [٢]، وهَاشم بن عُتْبَة [٣]، وخصُوصاً عَمّار يَاسر الصَّحَابِي المُسن الَّذي قَال

⇐ عُمَر... وَقَالَ الجوهري: «إنّ عُمَرَ كَانَ يَوْمَئِذٍ مُحتجزاً يُهرول بَيْنَ يدِي أبِي بَكْر، ويقول: ألا إنّ النّاس قَد بَايعوا أبَا بَكْر...» واَندحَر سَعد ومُرشحُوه، وبَقِي عَليّ وجمَاعته.

أُنظر، تَأرِيخ الطّبري: ٢/ ٢٠١ و ٢٥٦ حوادث سَنَة ١١هـ، و: ٣/ ٢٠٨، اَبن الأثير: ٢/ ١٢٥، تَأرِيخ الخُلَفاء لِابن قُتَيْبَة: ١/ ٥، تَأرِيخ اليعقوبيّ: ٢/ ١٠٣، سيرة اَبن هشام: ٤/ ٣٣٦ شرح النّهج: ٢/ ٣ و: ١/ ١٣٣، العقد الفريد: ٢/ ٢٥٨.

وبَعد كلّ هَذَا نُلفت أنظار أصْحَاب الضّمائر الحيّة، والأقْلام الحُرّة، والمُنصفة، ونَرجُوهم أنْ يَحذروا مِن بَعْض الأقْلاَم؛ لِأنَّهَا مَأجورة لاتُريد الحَق، بل تُريد الفِتْنَة.

(١) أُنظر، كِتَابه السُّلطان: ٦٥، تَرجَمَة خَيري حمّاد ـ الطَّبعَة الأُولَىٰ ـ آذار سَنَة ١٩٦٢م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) هو عبدالله بن بُدَيْل اَبن الورقاء الخُزاعي، أسْلَم مَع أبِيه يُوم اَلْفَتح، أو قَبله، وكَانا سِيدَي خُزَاعة، وعَيبَة النَّبِيّ ﷺ، وشَهد عبدالله حُنيناً، والطّائف، وتبُوك، وكَان رَفِيع الْقَدر، ورَفِيع الشّأن. أرسَله النَّبِيّ ﷺ، مع أخويه عبدالرّحمن ومُحَمّد إلىٰ اليَمن ليفقهُوا أهلها ويُعلموهُم الدّين وكَان عبدالله من أصْفِياء أمِير ⇐

↔ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، ومن خُلص أَصْحَابه شَهد معهُ الجَمَل وصِفِّين وأبلىٰ فيها بَلاءً حَسناً إلىٰ أنْ أُسْتُشهد بِصفِّين.
روىٰ نَصر عن عُمَرَ بن سَعد عن عبدالرحمن بن كَعب قَال لمَّا قُتل عبدالله بن بُدَيْل يُوم صفِّين مَرّ بِهِ الأسود بن طَهمان الخُزاعي، وهُو بآخر رَمق فقَال له: عَزَّ عَليَّ والله مَصرعك أمَا والله لو شَهدتك لآسيتك ولدَافعت عَنك ولو رَأَيت الَّذي أشعرك لأحببت أنْ لا أزايله ولا يُزايلني حَتَّىٰ أقتله أو يلحقني بِك، ثُمّ نَـزل إلَـيْهِ فَقَالَ: رحمَكَ الله ياعبدالله إنْ كَانَ جَارك ليأمن بواقِيك، وإنْ كُنت لمن الذَّاكرين لله كَثِيراً. أوصني رحمك الله قَال: أُوصيك بتقوىٰ الله، وأنْ تناصح أَمِير الْمُؤْمِنِينَ وتُقاتل معهُ حَتَّىٰ يظهر الحَق، أو تلحق بالله، وأَبلغ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنّي السَّلام، وقُل له قَاتل عَلىٰ المعركة حَتَّىٰ تجعلها خلف ظَهرك فإنَّه من أَصْبَحَ والمعركة خَلف ظهرَه كَانَ الغَالب، ثُمّ لَم يَلبث أنْ مَات. وأقبَل أبو الأسود إلىٰ عَليّ عليه السلام، فأخبره، فَقَالَ: رحمَه الله جَاهد مَعنا عدوّنا في الْحَيَاة، ونَصح لنَا فِي الوفَاة.

أُنظر، معجم رِجَال الحَدِيث: ١١/ ١٢٦ رقم (٦٧٣٢)، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٤/ ٢٩٤، تَأْرِيخ خَلِيفَة بن خياط: ١٤٦، التَّأْرِيخ الْكَبِير للبُخاري: ١/ ٢٧٥، الأَخْبَار الطّوال للدّينوري: ١٧١، الثّقات لِابْن حبّان: ٢/ ٢٩١، الجرح والتّعديل للرّازي: ٥/ ١٤.

(٣) هُو هَاشم بن عُتْبَة بن أَبِي وَقَّاص الزُّهري، الْمُلقّب بالمِرقَال. وكَانَ مَع عَليّ عليه السلام يُوم صِفِّين، ومن أَشجع النَّاس، وكَان أعوَر، وهُو القَائل:

أَعْـــوَرُ يَـــبغِي أَهْــلَه مَحَــلاَّ … قَـد عَـالج الْحَـيَاة حَـتَّىٰ مَـلَّا

لا بُدّ أنْ يَغُلّ أو يُغَلَّا

وقيل هَكذا تَرتيب الأَبْيَات كمَا وَرد فِي مرُوج الذّهب: ٢/ ٢٢، والطَّبَرِيّ: ٦/ ٢٢.

قَد أَكْـثَرُوا لومِـي ومَـا أقـلّا … إنّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَـن أعـتلّا

أَعْـوَرُ يَـبغِي نَـفْسَه مَحَـلاَّ … لا بُـــدّ أنْ يَــغُلّ أو يُــغَلّا

قَـد عَـالج الْحَـيَاة حَـتَّىٰ مَـلّا … أَشدُهُم بِـذِي الكُـعوبِ شَـلّا

وفِي الطَّبَرِيّ: ٦/ ٢٤: يَتلهم بذِي الكُعوبِ تَلّا.

فَقتل من القَوْم تسعة نَفر أو عَشرة وحمل عَلَيْهِ الحَارث بن الْمُنْذِر التّنوخِي فطَعَنه فَسَقط رحمه الله، وقد رَثَاه الإِمَام عَليّ عليه السلام فقَال كمَا ذَكر نَصر بن مُزاحم فِي وَقْعَة صِفِّين: ٣٥٦.

جَــزَىٰ الله خَــيراً عُـصبةً أَسْلَمِيَةً … صِبَاحَ الْوُجُوهِ صرِّعوا حَوْلَ هَـاشمِ

↔

النَّبيّ فِيهِ: «سَتَقْتُلُه الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»[1]. وَقَالَ آبن الجُوزي: (لا يَخْتَلف الْعُلَمَاء أنّ عَلِيّاً

↔ ولكن مَا أنْ سَقط هَاشم ﷺ فأخَذ رَايته آبْنِهِ عبدالله بن هَاشم وخَطب خطبةً عَظِيمة وَقَالَ فيها: إنّ هَاشماً كَان عَبداً مِن عباد الله الّذين قَدّر أرزَاقهم وكَتب آثَارهم وأحصىٰ أعْمَالَهم وقضىٰ آجَالهم، فدعَاه رَبّه الَّذي لا يُعصىٰ فأجَابه... ولهَاشم المرقَال مواقف كَثِيرة ذَكرها آبن نصر في وَقعَة صِفّين: ٩٢ و ١٥٤ و١٩٣ و ٢٠٥ و٢٠٨ و ٢١٤ و٢٥٨ و ٣٢٦ و٣٢٨ و ٣٣٥ و ٣٤٠ و٣٤٦ و٣٤٨ و٣٥٣ و ٣٥٩ و ٣٨٤ و ٤٠١ ـ ٤٠٥ و ٤٢٦ و ٤٢٨ و ٤٣١ و ٤٥٥. وأنظر تَرجمته في أُسد الغَابَة: ٥ / ٤٩، والمُسْتَدرَك: ٣٩٦/٣، وتَاريخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ٤٤، الإصَابَة: ٣ / ٥٩٣، الاسْتِيعَاب بهَامش الإصَابَة: ٣ / ٦١٦، وتَأريخ الخَطِيب البَغدادي: ١ / ١٩٦.

(١) أُنظر، كِتَابه «تَأريخ الدّول العَرَبية»: ٧٦ طَبعة سَنَة ١٩٥٨م، وأُنظر، شَرح الخُطْبَة: (١٧٣) فِقْرَة: من هو الخَلِيفَة؟. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: كتاب الصَّلاة، بَاب التَّعَاون فِي بناء المساجد، و: ١ / ١٢٢، صَحِيح مُسْلِم: ٢٢٣٥/٤، صَحِيح التِّرمِذي: ٦٦٩/٥، مُسْنَد أحمد: ١٦١/٢ و١٦٤، و: ٤ / ١٩٧، و: ٢٨٩/٦، مُسْنَد أبي داود الطَّيَالِسِي: ٣ / ٩٠، حلية الأوْلِيَاء: ٤ / ١١٢، تَأريخ بغداد: ١٣ / ١٨٦، و: ٥ / ٣١٥، و: ٧ / ٤١٤، طَبقَات أبن سعد: ٣ / ١٧٧، الطّرائف لِابْن طاووس: ١ / ١٠٣، الطَّبَقَات لِابْن سعد: ٣ / ٣٥٩، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١ / ١٧٠، الاسْتِيعَاب: ١ / ١٥٧، مُسْنَد أحمد: ٥ / ٢١٤، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣ / ٣١٦، الموضّح للخطيب: ١ / ٢٧٧.

وأُنظر، ترجمة عَمّار بن يَاسر فِي مروج الذّهب: ٢ / ٢١ و٢٢، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥ / ٤٨ ـ ٨٨، و:٢ / ٣١٤ ومَا بَعدها تحقيق المحمودي طَبْعَة الأعلمي بيروت، مُسْنَد أحمد: ٩٩/١ و١٢٣ و١٢٥ و ١٣٠ و١٣٧ و٤٠٤، و:٢ / ١٦١ و ١٦٤ و ٢٠٦، و:٣ / ٥، و: ٢٢ و٢٨ و ٩٠، و: ٤ / ٧٦ و ٨٩ و ٩٠ و ١٩٧ و١٩٨ و٣١٩، و: ٥ / ٢١٤، و٣٠٦، و:٦ / ٢٨٩، و ٣٠٠، و ٣١١ و٣١٥ و ٤٥٠. وصَحِيح البُخَاريّ: الجِهَاد ب ١٧، سُنَن أبن ماجه ب ١١ من المقدمة، وسُنَن التِّرمِذي: ب ٣٣ من كتاب المناقب، ومُسْنَد الطَّيَالِسِي: ١١٧ و٦٠٣ و٦٤٣ و٦٤٩ و١١٥٦ و١٥٩٨ و ٢١٦٨ و ٢٢٠٢، والاسْتِيعَاب: ٤٦٩/٢ حرف العَيْن، الإصَابَة: ٥/٢، خصائص أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين للنّسائي: ١٣٢ طَبْعَة الحيدرية، حلية الأَوْلِيَاء: ٤ / ١٧٢ و ٣٦١، و:٧ / ١٩٧ و ١٩٨، ومَجْمَع الزّوائد: ٧ / ٢٤٠ و٢٤٢، و٢٤٤ و:٩ / ٢٩٥، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ٣٩ و ٤١. وأُنظر، ترجمته أيضاً فِي أُسد الغَابَة: ٢ / ١١٤ و ١٤٣ و٢١٧، و: ٤ / ٤٦، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة ↔

لَمْ يُقَاتل أحَداً إلّا والحَقّ مَعَه لقَول النَّبيّ: «أَللَّهُمَّ أَدِرْ مَعَه الحَقّ كِيفمَا دَار»[١].

وبَعد، فَقد شَرحتُ كَلمَات هَذِه الخُطْبَة بمَا جَاء فِي كُتب الثّقَات مِن أَهْل السُّنّة، لأنّ العِلم يَستمد قُوَّتِه ـ فِي مَوْضُوعنا ـ مِن فَلسَفَة الَّذي يُخَاطبه، لا مِن عَقِيدَة المُتَكلِم وَكفىٰ. وأنَا أَكتبُ لكلِّ رَاغبٍ أيّاً كَان دِينه ومَذْهَبه. وقَد شَرح صَاحب «مِنْهَاج البَرَاعة فِي شَرح نَهْج البَلاغَة» ـ هَذِه الخُطْبَة بِسْتِين صَفحَة مَلأهَا

⟸ لِابْن قُتَيْبَة: ١/١١٧، تَأْرِيخ اليعقوبي: ٢/١٦٤ طَبْعَة الغري، وَقْعَة صِفِّين: ٣٤١ و ٣٤٣، العقد الفريد: ٤/٣٤١ و ٣٤٣، المناقب للخوارزمي: ٥٧ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٥٩ و ١٦٠، الكَامِل فِي التّأرِيخ: ٣/٣١٠ و ٣١١، الإسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٢/٤٣٦ طَبْعَة السّعادة، فرائد السِّمطين: ١/١١٤ و ١٢٠ و ٢٨٧، المُعْجَم الصَّغِير للطبراني: ١/١٨٧.

وراجع أيضاً شرح النّهج لِابْن أَبي الحَدِيد: ٨/١٠ و ١٧ و ١٩ و ٢٤، و: ١٥/١٧٧ طَبْعَة بِمِصْر تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل: ٢/٢٧٤ الطَبعة الأُولَىٰ بِمِصْر، سيرة ابن هشام: ٢/١٠٢، نور الأَبْصار: ١٧ و ٨٩ طَبْعَة السّعيدية بمِصْر، كفاية الطّالب: ١٧٢ ـ ١٧٥ طَبْعَة الحيدرية، و ٧١ و ٧٣ طَبْعَة الغري، تذكرة الخواصّ: ٩٣ و ٩٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٢٨ و ١٢٩ طَبْعَة اسلامبول، و: ١٥١ و ١٥٢ طَبْعَة الحيدرية، و: ١/١٢٨ و ١٢٩ طَبْعَة العرفان، وأَحْكَام القُرْآن لِابْن عربي: ٤/١٧٠٥ الطّبعة الثّانِيَة تحقيق البجاوي. وكَانَ عَمّار مع عليّ فِي حَرْب الجَمَل، وصِفّين، وقتل بصِفّين مساء الخميس ٩ صَفر سَنَة (٣٧ هـ) وله من العُمُر ٩٣ سَنَة.

(١) أنظر، صَيد الخَاطر: ٣٨٥، طَبعَة دَار الفِكْر دِمشق. (مِنْهُ).

أُنظر، مَجْمَع الزّوائد: ٧/٢٣٥، تَأرِيخ بغداد: ١٤/٣٢٠ ح ٧٦٤٢، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٧٨، فرائد السِّمطين: ١/١٧٧، المناقب لِابْن المغازلي: ١١٧ و ٢٤٤، والمُسْتَدرَك: ٣/١٩ و ١٢٤، التَّفْسِير الكَبِير للرازي: ١/٢٠٥، شرح الأَخْبَار للمغربي: ٢/٥٢٥، سُنَن التِّرمِذي: بَاب مناقب عليّ، ح ٣٧١٤، جامع التِّرمِذي: ٢/٢١٣، كنز العُمَّال: ٦/١٥٧، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٩٠، المطالب العالية: ٤/٦٦، المحصول للرازي: ٦/١٣٤، وفي بَعْض المصادر بلفظ: «رحِمَ الله عَلِيّاً أدِرْ الحَقّ معه حيثُ دار». أُنظر أيضاً، المُعْجَم الأوسط: ٦/٩٥ ح ٥٩٠٦، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٠/١٤٩، فيض القدير: ٤/١٩، تهذيب الكَمَال: ١٠/٤٠٢ ح ٢٢٥٦، الرِّياض النّضرة: ١/٢٤٣ ح ٨٧.

بِرُوَايَات من البحَار، والصَّافي، وزهر الرَّبيع، والكَافِي، ولا أدرِي هَل يَجد قَارِئاً لهَا؟ والقَارىء الشِّيعي لا يَحتَاج هَذَا الإسرَاف، ولاَ يَهتَم إلّا بِفَهم الْمَعْنَىٰ الْمُرَاد، وغَيْر الشِّيعي لا يَقنع إلّا بِمَنْطقِهِ، وفَلسَفتَهِ.

الخطبة

-١٩٨-

التَّقْوىٰ دَوَاءٌ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَ مَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَ اخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَ تَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ. وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ، وَ سَفِيرُ وَحْيِهِ، وَ رَسُولُ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَ إِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَ بِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَ إِلَيْهِ مُنْتَهَىٰ رَغْبَتِكُمْ، وَ نَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَ إِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ[١]. فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَ بَصَرُ عَمَىٰ أَفْئِدَتِكُمْ، وَ شِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَ صَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَ طُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ؛ وَ جِلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَ أَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَ ضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَ دَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، وَ لَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَ أَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَ مَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَ شَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وَ جُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَ مَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَ سَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَ نَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ[٢]. فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَ مَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَ أُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَىٰ

عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَ ٱحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَ ٱنْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَ أَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا. وَ هَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَ تَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَ تَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَ وَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا.

فَٱتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَ وَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَ ٱمْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَ ٱخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ[٣].

اللُّغَة:

العَجِيجَ: رَفع الصَّوْت. والنِّينَانِ: جَمع نُون أي الحُوت. والْغَامِرَاتِ: المِيَاه تَغمر الأَشْيَاء وتُغَطِيها. والنَّجِيبُ: المُخْتَار. وَالسَّفِيرُ: الرَّسُول يُمثل مَن أَرْسَله. والمَفْزَع: المَلْجَأ. وجَأْش قَلْبَه: ٱضْطَرب مِن حُزنٍ، أو خَوْفٍ. والشِّعَار: الثُّوب الدَّاخلِي يُلصَق بِالبَدن. والدِّثَار فُوق الشِّعَار. والدَّرْك: اللِّحَاق والإِدرَاك. والجُنَّة ـ بِضَم الجِيم ـ الوقَايَة. وَالأُوَارِ: حرَارَة النَّار. عَزَبَتْ: غَابَت. والإِنْصَابِ: الإِتْعَاب. وتَحَدَّبَتْ: عَطَفت. ونَضَب المَاء: غَار. والرِّذَاذ والإِرْذَاذ: مَطَر خَفِيف.

الإِعْرَاب:

وإِلَيْهِ خَبَر مُقدم لِيَكُونَ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ أي وَيَكُون بِهِ نَجَاحُ، ومثله مَا بَعدَه، وَدَخِيلًا ومَا بَعدَه من المَنصُوبَات عَطف عَلىٰ «شِعَارَاً» وَأُوَارِ عَطف عَلىٰ مَتَالِفَ، وعَبِّدُوا فِعل أَمْر.

الْمَعْنَىٰ:

تَكَلَّم الإِمَامُ؈ فِي هَذِهِ ٱلْخُطْبَة عَن التَّقْوَىٰ، والنَّبيّ ﷺ، والإِسْلاَم، والْقُرْآن، وهَذِهِ المَوْضُوعَات ـ كَما تَرَىٰ ـ مُتَماثِلة مُتشَابِكة، فالحَدِيث عَن واحدٍ مِنْهَا حَدِيث عَن الجَمِيع بخَاصَّة الْقُرْآن، والإِسْلاَم.. هَذَا، إِلىٰ أنّ الإِمَام تَكَلَّم عَن ذَلِكَ بأُسلُوب خطَابِي لغَرض الإِقنَاع بإِعْدَاد النّفُوس، وإِثَارتها، وتَشوِيقها. ومن شُرُوط الأُسلُوب الخطَابِي الفصَاحَة، والتوكِيد، والتَّردِيد، وضَرب الأَمْثَال مَع الحمَاسَة وحُسن الأَدَاء، والإِيقَاع، وكلّ مَا لَهُ صِلَة بالوصُول إِلىٰ الغَرض المطلُوب، وهُو تَحرِيك الجمَاهِير الّتِي لاَ تَعرف التَّعقُل، والتَّبصر. ومن البدَاهة أنّ مجَال التَّفسِير والتَّعلِيل هُو القضَايَا العَقلِية، والفَلسفِية لا الخطَابَات الحمَاسِية، ومن أجل هَذَا نَكتفِي مِن الكَلاَم بمَا يَشبه التَّعلِيق، كمَا فَعل ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد علىٰ خلاَف عَادته فِي شَرح سَائر الْخُطب.

(يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَ مَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ). هَذَا تَعظِيم وتَمجِيد للهِ تَعَالىٰ، لأنّ كلّ من آمَن باللهِ يَعلم بأنّه خَبِير عَلِيم... وقد يَكُون الغَرض النَّهي عَن الخِيَانة فِي السِّر، لأنّ الله يَعلَم مَا يُسرُون ومَا يُعلنُون (وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ، وَ سَفِيرُ وَحْيِهِ، وَ رَسُولُ رَحْمَتِهِ). أَمِين الله عَلىٰ وَحْيِهِ، وصَفِيّه مِن خَلْقِه وقَائد الْخَيْر، ومِفْتَاح البَركَة (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي ٱبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَ إِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ) هُو سُبْحَانَهُ بَدَأَ الخَلق ثُمّ يُعِيدَه (وَ بِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ) إِلَيْهِ وَحدَه تُرفَع الْحَاجَات، وعِندَه نِيل الطَّلبَات (وَ إِلَيْهِ مُنْتَهَىٰ رَغْبَتِكُمْ) هُو المَقْصُود بالرَّغبَة دُونَ سوَاه (وَ نَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ). ٱقْصِدُوا الله فِيمَا أَهَمّكُم (وَ إِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ) ٱلجأُوا إِلَيْهِ، وَلُذُوا بِهِ (فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ) تَشفِيهَا مِن الآثَام كالحِقد،

واللُّؤم، والنِّفَاق.

(وَ بَصَرُ عَمَىٰ أَفْئِدَتِكُمْ). ويَتفق هَذَا بظَاهِرِهِ مَع قَول الصُّوفِية: إنّ تَحرير النَّفس مِن قيُود الجِسم ومطَالبه ـ طَرِيق لِلمَعرِفة.. ولكن مُراد الإِمَام أنّ الْهَوَىٰ يُعمِي ويُصم عَن الْحَقِّ والوَاقع (وَ شِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ). لأنّ التَّقْوَىٰ تُلزم بِتعَالِيم الإِسْلاَم أيّاً كَان نَوْعها، والإِسْلاَم يَنهىٰ عَن التُّخمَة لِأَنَّهَا رَأس كلّ دَاء، ويَأمر بِالحِمْيَة لِأَنَّهَا أصل كلّ دَوَاء (وَ صَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَ طُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ؛ وَ جِلاَءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ) عَطف تَفْسِير عَلىٰ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَىٰ أَفْئِدَتِكُمْ (وَ أَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ). التَّقْوَىٰ أَمَانٌ من غَضَبِ الله وَعَذَابه.

(وَ ضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ). المُتَقِي يَنظر إِلىٰ نَفْسهِ بِعين الصِّدْق، والوَاقع لاَ بِعين الغُرُور والْجَهْل المُركب، ويَلُوم نَفْسَه قَبل أنْ يَلُوم الآخرِين، ويَرىٰ مِنْهُم أَحسَن الصِّفَات، ومِن نَفْسَه أَصْغَر السَّيِّئَات، ويَعتَرف بِأَخْطَائِه، ويُحاول تَفَادِيها، ويَنسىٰ ويَغْفر، ولاَ يَهرب من الوَاقع بِالمَكرِ، والخِدَاع (فَٱجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَ دَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، وَ لَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ) الدِّثَار ظَاهر، والْمُرَاد بِالشِّعَار، والدَّخِيل، واللَّطِيف بَيْنَ الأَضْلاَع ـ الخَفِي المَستُور، والْمَعْنَىٰ اجْعَلُوا طَاعَة الله فِي السَّرَائِر لاَ في المظَاهر، وفِي الأَفْعَال لاَ فِي الأَقوَال.

(وَ أَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ). اَصْدرُوا فِي أَفْعَالكُم عَن طَاعَة الله ومَرضَاته لاَ عَن المصَالح، والمطَالب الشَّخْصِيَة (وَ مَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ). طَاعَة الله هِي المَنْهَل العَذب يَوْم الْقِيَامَة أي تُؤَدِّي إِلَيْهِ (وَ شَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ). أَبَداً لاَ شفَاعَة عِند الله إلّا التَّقْوَىٰ، والطَّاعَة[1]. (وَ جُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ) طَاعَة الله وقَاية من عَذَابه يَوْم

---

(١) يقصد ﷺ. لا شفاعة لأحدٍ إلا بِأذنه، وإلاّ إذا كَانَ يَوْم القَضَاء، وآشتد الكَرب، وهَال الأمر، وعظم

↔

الْقِيَامَة (وَ مَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ). العَبد الصَّالح يَستَضيء فِي قَبره بنُور عَمَله (وَ سَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ) الْمُرَاد بِالسَكَن هُنا مَا تَطمَئِن بِهِ النَّفس، وتَأنَس بِهِ، قَال تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾[1] كَذلِكَ طَاعَة الله تُؤنس الْمَيِّت فِي لَحْدِه.

(وَ نَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ). نَفَساً ـ بفتح الفَاء ـ وهو التِّيسِير والتَّسهِيل، والْمَعْنَىٰ أنّ طَاعة الله سُبْحَانَهُ تُسهل وتُمهد للنَّجاة والأَمَان (فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَ مَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَ أُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ). مِن الْمَهَالِك (فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَىٰ

⇐ المُوقف، وغَنىٰ الخَلائق أنْ لو أنصرفُوا من شِدة هَذَا الهَوْل، وجَلال الْقِيَامَة، وزلزلة السّاعة، وفَزع النّاس إلىٰ الأَنْبِيَاء والرُّسل، وأحَالوهم بدُورهم عَلىٰ نَبي الرَّحْمَة، وشَفِيع الأُمَّة، ومُغِيث الخلائق، تَجلت الرَّأفة، وتَدفقت الشَّفقة، وتَحركت العَواطف للأخذ بِيد المُتوسلِين، وإنقَاذ المُستشفعِين، والاِستجابة للمُستغِيثِين، ولاعَجب فإنَّه كَعبة الفَضْل، وقِبلة الرَّجاء، وغَاية الأُمم، ومَحط الآمَال، فالتَّوجه، والاِستغاثة، والاِستشفاع بهِ ﷺ، وبغَيْره من الأَنْبِيَاء، والأَوْلِيَاء، والصَّالحِين لَيس لهُ عِند الْمُسْلِمِينَ، وفِي قُلُوبِهِمْ غَيْر ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ المُشار إِلَيْهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ الزُّمَر: ٤٤، إنّه لم يعطها لِما عُبد من دُونه، ولا لِمن عُبد وكَانَ راضياً، فالقَصر فِي هَذِه الآيَة إِضافِي، الْمُرَاد منهُ نَفي شفَاعة الأوثَان فِي عَابدِيها، ونَفي شفَاعة جَمِيع المَعبُودِين فِي عَابدِيهِم.

فقد روىٰ أحمد، والتّرمذيّ، وابن ماجه عن أبي سَعيد الخُدريّ ﷺ قَالَ: «أنا سيّد ولد آدمَ يوْم الْقِيَامَة ولافخر، وبِيدي لواء الحَمْد ولافخر، ومَا من نَبي يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فمن سواه إلا تَحت لوائِي، وأنا أَوّل شَافع، وأَوّل مُشفع ولافخر» وروىٰ البزار، والطّبرانيّ عن عَليّ بن أبي طالب ﷺ أنّ رَسول الله ﷺ قَال: «أشفع لأمتي حَتَّىٰ يُنادي رَبي تَبارك تَعالىٰ فيقول: قَد رضيت يامُحمّد؟ فيقول: إي رَبِّي رَضيت». أُنظر صَحِيح مُسْلِم: ١/١٣٤ مطبعة محمّد عليّ صبيح وأوْلاَده طَبْعَة مِصْر، والمُستَدرَك عَلىٰ الصَّحيحِين للإمَام الحَافظ أبي عبد الله الحَاكِم النّيسابوريّ، وبذِيله التّلخِيص للحافظ الذّهبيّ: ١/٦٦ طَبْعَة دار المَعْرفة / بيروت لتجد الكَثِير عن بَحث الشّفاعة، وقد تَقدّم بيانها.

(١) ٱلرُّوم: ٢١.

عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا ... إلخ). النِّقْمَة، ونَزَلت عَلَيْهِ الرَّحْمَـة (فَاتَّـقُوا الله الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَ وَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ ... إلخ). هَدَاكُم سَبِيل الرَّشَاد، وسَخَرَ لَكُم مَا فِي السّموات ومَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغ عَلَيْكُم نِعَمه ظَاهرةً، وبَاطنةً (فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ). عَبَّد الطَّرِيق: مَهَّدَه، ويَسَّرَه للسَّير، وعَبَّد النَّفس: ذَللهَا وجَعَلها سِلسِة الْقِيَاد (لِعِبَادَتِهِ) المُخلص يَعبد الله بلا تَأَفُف وتَبرُم، عَلىٰ عَكس ٱلمُنَافِقِين الَّذِين إِذَا قَامُوا إلىٰ الصَّلاَة قَاموا كُسَالىٰ.

وبَعد، فإنّ الإنْسَان يَسْتَوِيَ مَع ٱلحَيَوَان فِي غَرِيزَة الجِنس والطَّعام، والشَّرَاب، ويَفتَرِق عَنْه من وجُوه، وأظهرهَا أنّ فِي الإنْسَان الاِسْتعدَاد التّام وقَـابلِية الْـعَمَل لِيُومه وغَده، ولا أَثر لِذَلِكَ فِي ٱلحَيَوَان، ولا شَيء عِنده إلّا السَّاعة الّتِي هُو فِـيها، وإذَنْ فَمن الضَّرُورِي أنْ نَستغل هَذِه القَابِلِية، ونَعمل للعَاجِلَة، والْآجِلَةِ مَعاً، ولا نَهتم بالأُولىٰ فَحسب، فإنّ حَلاوة العَاجِلَة تَذهب مَع الرِّيح، وتَسْـتَحِيل إلىٰ أَسىٰ وَمَرَارة إلّا مَن ٱتقىٰ وأَصْلح.

الإِسْلاَم...فِقْرَة ٤ ـ ٦:

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلاَم دِينُ اللهِ الَّذِي ٱصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَ ٱصْطَنَعَهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ، وَ أَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وَ أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَ وَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَ خَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وَ هَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِـرُكْـنِهِ. وَسَقَىٰ مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَ أَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ[٤]. ثُمَّ جَـعَلَهُ لاَ ٱنْـفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَ لاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَ لاَ ٱنْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَ لاَ زَوَالَ لِـدَعَائِمِهِ، وَ لاَ ٱنْـقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَ لاَ ٱنْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَ لاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَ لاَ جَـذَّ لِـفُرُوعِهِ، وَ لاَ ضَـنْكَ

لِطُرُقِهِ، وَ لاٰ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَ لاٰ سَوَادَ لِوَضَحِهِ، وَ لاٰ عِوَجَ لِإِنْتِصَابِهِ، وَ لاٰ عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَ لاٰ وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَ لاٰ اَنْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَ لاٰ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وَ ثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا، وَ يَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، وَ مَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا، وَ مَنَارٌ اَقْتَدَىٰ بِهَا سُفَّارُهَا، وَ أَعْلاٰمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَ مَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا[٥]. جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَىٰ رِضْوَانِهِ، وَ ذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَ سَنَامَ طَاعَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ. فَشَرِّفُوهُ، وَ اَتَّبِعُوهُ، وَ أَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وَ أَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطِّلَاعُ، وَ أَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَىٰ سَاقٍ، وَ خَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَ أَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي اَنْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَ اَقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَ اَنْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَ اَنْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَ عَفَاءٍ مِنْ أَعْلاٰمِهَا، وَ تَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَ قِصَرٍ مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ اللهُ بَلاٰغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَ رَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَ رِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ[٦].

اللُّغَة:

اَصْطَنَعَهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ: شَرَعَه عَلَىٰ عِلْمَه. وأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ: آثَره بِهِ. ومُحَادِّيه: مُخَالِفيه. وَأَتْأَقَ الْحِيَاضَ: مَلأَها. وَبِمَوَاتِحِهِ: بِدِلاَئِه، ومَتَح بِها: سَقَىٰ بِها. وَلاٰ اَنْفِصَامَ: لاَ اَنْكِسَار. والعَفَاءَ: ذهَاب الأَثَر. والجَذّ: القَطع. والوُعُوثَة: الصُّعُوبَة.

وَالوَضح : البَيَاض . والعَصَلَ : الاِعْوِجَاجِ . والفَجّ : الطَّرِيق الوَاسع بَيْنَ الجَبَلِين . وأَسَاخَ هَذَا فِي هَذَا : أَدْخَله فِيهِ . وأَشْنَاخَهَا : أُصُولهَا . ومُعْوِذُ الْمَثَارِ : تَعْجَز الْعُقُول عَن الإِحَاطَة بِأَسرَاره .

الإِعْرَاب:

الْمَفْعُول الثَّانِي لجَعَلَهُ مَحذُوف أي ثُمَّ جَعَلَهُ قُوياً لاٰ ٱنْفِصَامَ . . إلخ .

مَنْ هُو الْمُشَرِع؟

(ثُمَّ إِنَّ هَذَا الإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي ٱصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَ ٱصْطَنَعَهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ) . يَفْتَرِق الإِسْلاَمَ عَن سَائِر الأَدْيَان بأنّ سُلطة التَّشرِيع لله وَحده ، وأنّ خَالق الطَّبِيعَة هُو وَاضع الشَّرِيعة ، وأنّ النَّبِي لَيْسَ لهُ مِنْهَا إلاّ التَّبلِيغ . . وفِي كُتب أُصول الفِقْه للسُّنَّة بَحث خَاص فِي أنّ النَّبيّ هَل له أنْ يَجْتَهد ويَحكُم بمَا يَرىٰ ؟ . فأجَاز ذَلِكَ جَمَاعَة ، وَمَنعهُ آخرُون . وَقَالَ الشِّيعَة بِكَلِمَة وَاحدة : «إنّ النَّبيّ لا يَجْتهد إطلاَقاً ، ولا يَنطق بِحُكم من الأحْكَام إلاّ عَن الوَحي بدَلِيل مَا روَاه السُّنَّة والشِّيعَة أنّ ٱلْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَسْأَلُونَ النَّبيّ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِن الأَحيَان عَن بَعْض أُمُورهُم ، فِيقُول : مَا عِنْدِي بِهَذا عِلم من الله ، ثُم يَنزل الْقُرآن بِالحُكم ، فِينبئهُم النَّبيّ بِهِ . وكَان يَقول ، ويُكرر : ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[1] .

ونَعْطف عَلىٰ ذَلِكَ أنّ الْقَوْل بجُوَاز الاِجْتهَاد عَلىٰ النَّبيّ ﷺ ـ يَفتَح لأَعْدَاء

(١) يُونُس : ١٥ .

الْإِسْلاَم الطَّعن والشَّك فِيهِ، وإن بَعضَه مِن ظَن الرَّسُول وآسْتِحْسَانه!. وعَلَيْهِ يُفلت الزِّمَام، ويَهبط الْإِسْلاَم مِن السَّمَاء إِلىٰ الْأَرْضِ!. كَلا، إنّ الْإِسْلاَم وَاحد لا يَتجزأ، إنّه رِسَالَة السَّمَاء مِن ألفهِ إِلىٰ يَائهِ، ولاَ شَائِبَة فِيهِ لِلْأَرْضِ، وأَهْل الْأَرْضِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1].

والْإِسْلاَم حِينَ يُجرد البَشرِية كلّها مِن حَقّ التَّشرِيع يُجرد فِي الوَقت نَفْسَه كل إِنْسَان مِن حَقِّ السِّيطرَة والاِسْتعلاَء عَلىٰ غَيْره، وَيَصنع الجَمِيع عَلىٰ مُستوىٰ وَاحد أَمَام الله، ولا يُبْقِي لأحدٍ فَضلاً وآمْتِيازاً عَلىٰ آخر إلّا بمَا يُقدِم مِن عَملٍ صَالح، وبِالتَالِي يُبْطِل مَزاعم الَّذِين يَرُون لأَنْفُسِهم حقُوقاً مُقَدَسَة. ومِن بَحث عَن أسبَاب الآلاَم الّتِي عَانتهَا وتُعَانِيها الآن الْإِنْسَانِية، وجَدهَا أو وَجدَ أَكْثَرها يَعُود إِلىٰ القَوَانِين الّتِي شرَّعهَا الْإِنْسَان كَفرد، أو لِمَصْلَحة مَجمُوعَة مِن الأفرَاد يَرتبط بِهِمْ المُشرِّع بِسببٍ مِن الْأَسْبَاب.

أمّا الدِّيَانة المَسِيحِية فإِنَّهَا رَبَطت الدِّين بِأُصوله، وفرُوعه، ودَعَائِمه، وأحْكَامه، رَبَطَتهُ بِإِرَادَة الكَنِيسَة ورِجَالها الَّذِين خَاطَبهُم إِنْجِيل مَتىٰ، وَقَالَ لهُم: «كلّ مَا تَربطُونَه فِي الْأَرْضِ يَكُون مَربُوطاً فِي السَّمَاء، وكل مَا تَحلُّونَه عَلىٰ الْأَرْضِ يَكُون مَحْلُولاً فِي السَّمَاء»[2]. فَالكَنِيسَة هِي تُحلّل وتُحرّم، ثُمّ تَنسخ مَتىٰ تَشَاء مَا حَلَّلَت وحَرَّمت!. ومِن هُنَا جَاء تَجرِيد السَّيِّد المَسِيح مِن طَبِيعَة النَّاسُوت، والغُفرَان والحِرْمَان، وبِيع أَذرُع فِي السَّمَاءِ والجَنَّة، وتَحرِيم زَوَاج الإكْلِيرُوس، ولكن الكَنِيسَة الاِنجْلِيزِية الّتِي حَرمت الزّوَاج عَلىٰ رِجَال الدِّين أبَاحَت اللّوَاط،

(١) ٱلنَّجم: ٣ـ٥.
(٢) أنظر، الإِصْحَاح فِقْرَة: (١٨). (مِنْهُ ﷺ).

كَمَا أَنّ بَابا رومَا بَرّأ اليَهُود مِن دَم السَّيِّد المَسِيح، وضَرب بِعَرض الجِدَار النَّص الَّذي جَاء فِي إِنْجِيل مَتىٰ.... إِلىٰ الكَثِير الكَثِير... وكله حَق مِن عِند الله!. ولاَ أَدرِي كَيْفَ يُنْسَب «دِين» إِلىٰ الله، وهُو مِن أوهَام النَّاس؟.

وكَان مِن نَتِيجَة هَذِه السُّلطة ثُورَة المُلُوك والأَقْوِيَاء فِي أُورُوبَا عَلىٰ الكَنِيسَة لِتَدخلهَا فِي شُؤُونِهِم، وٱنْفصَال السِّيَّاسَة عَن الدِّين، ولكن الثُّورَة ٱنْتقَلت مِن الحَاكِمِين إِلىٰ دَاخل الإِكلِيرُوس أَنْفُسهم، فمُنذ بِضع سَنوَات ثَار جَمَاعَة مِنهُم فِي هُولندا عَلىٰ سُلطة البَابا. ومِن مطَالِبهم الرَّئِيسِية السَّمَاح بالزّوَاج لِرجَال الدِّين، وقَامت ثُورَة مُمَاثلة فِي فَرنسا، وإِيطَاليا وأَلمَانيَا. ويَستَحِيل أَنْ يَحدث هَذَا بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ لاِتْفَاق مذَاهبهم عَلىٰ أَنّ التَّشرِيع لله وَحده: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١).

(أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَ وَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ... إِلخ). وذَلِكَ بإِظهَاره عَلىٰ الدِّين كلّه أمداً غَيْر قَصِير، ثُم بِصمُوده مِئَات السِّنِين وٱنْتشَاره شَرقاً وغَرباً عَلىٰ رَغم تظَاهُر الأَدْيَانَ عَلَيْهِ، ومُحَاربة أهلهَا لهُ بكلِّ سلاَح... والآن، وفِي القَرن العِشْرِين تَقُوم المسَاجِد فِي أَلمَانيَا، وفَرنسا، وٱنجلتَرا، وأَمرِيكا، ويَرتَفع صَوْت المُؤذن مِن عَلىٰ المآذن بِالشَّهَادَة لله بِالوحدَانِية، ولِمُحَمّد بِٱلرِّسَالَة. ويَبلُغ عَدد ٱلْمُسْلِمِينَ اليَوْم أَكْثَر مِن (٧٠٠) مِليُون.

وَقَرَأت فِي جَرِيدَة «أَخْبَار اليَوْم»، مَا نَصه بِالحَرف: «إِن الإِسْلاَم نَتِيجَة لِتَمِيزه بِالقُوَّة الرُّوحِية صَمدَ للأَحْدَاث بَعد ٱنْهِيار الدَّوْلَة العَرَبِية فِي بَغدَاد عَام ١٢٥٦ م.

(١) ٱلمَائِدَة: ٤٤.

وَأَرْغَم الفَاتِحِين مِن المَغُول، والتَّتَار الَّذِين قَضُوا عَلىٰ الدَّوْلَة الإِسْلاَمِية، أَرْغَمهُم الإِسْلاَم عَلىٰ اعْتِنَاقه، مِمَّا أدىٰ إِلىٰ تَجَدُد الدَّوْلَة الإِسْلاَمِية بَعد انْتِقَال الحُكم فِيهَا مِن العَرَب إِلىٰ الأَترَاك العُثْمَانِيين، وإِلىٰ اتِّسَاع الرُّقْعَة الجُغْرَافِية لِلإِسْلاَم عَلىٰ أَيْدِي الأَترَاك، ولاَ شك فِي أن هَذِه القُوَّة الرُّوحِية هِي الّتي مَكّنت الإِسْلاَم مِن الصّمُود أَمَام السِّيطَرَة الغَربِية فِي السّنوَات الأَخِيرَة»[1].

(وَ سَقَىٰ مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ) أي مِن هدَايته، وعَمَله (وَ أَتْـأَقَ الْـحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ). هَذَا العِلم الغَزير فِي الإِسْلاَم هُو مِن الله، ومِن فَهْمَه فَقَد فُهِم عَنْهُ تَعَالىٰ (ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ... إلخ). الإِسْلاَم قَوّي وَمَتِين بِأُصُوله ومَبَادئه.

ومَهمَا تَأخر المُسْلِمُون اليَوْم فإِنّ العِيب فِيهِمْ لا فِي الإِسْلاَم تَمَاماً كـالّذي يَأمـر بِالمَعْرُوفِ ولاَ يَجد مَن يَسمَع، ودِين السَّيِّد المَسِيح دِيـن الحُبّ والسَّـلاَم، وأَكْثَر أتبَاعه وحُوش كَاسرة يَمتصُون دِمَاء الشّعب بِلُؤم وَقَسْوَة.

قَال «رَاسل»: «لاَ رَيب فِي أنّ الدِّيَانَة الّتي جَاء بِهَا مُحَمّد كَانَتْ عُنصرَاً أَسَاسِياً فِي النَّجَاح الّذي حَقّقتهُ بلاَده وحَقّقهُ قُومَه... وقَد أَظهَر المُسْلِمُون مُنذ بدَايـة عَهْدِهم تَسَامُحاً فِي التّعَامُل مَع المَسِيحِيين الّذِين أَخْضَعُوهم، ولاَ رَيب أنّ الفَضْل فِي سهُولَة فتُوحَاتِهم واسْتِقرَار امبرَاطورِيتهم يَعُود إِلىٰ هَذَا التَّسَامُح الّذي يَبدُو بَارزاً إذَا مَـا قُـورن بِـالحَماسَة التَّعَسُفِية والاِضْطهَادِية الّـتي عُـرفت بِهَـا الكَنِيسَة الكَاثُولِيكِية»[2].

---

(١) أنظر، جَرِيدة «أَخْبَار اليَوْم» المِصْرِية بتَأرِيخ: ٣١ ـ ١٢ ـ ١٩٦٦م، نَقلاً عَن كِتَاب «الإِسْلاَم الحَدِيث لصَاحِبه «ويلفريد سِمِيث». (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، كِتَابه السُّطان: فَصل العقَائد مَنابع السُّلطَان. تَرجَمَة خَيري حَمّاد ـ الطَّبعَة الأُولىٰ ـ آذار سَنَة ١٩٦٢م. (مِنْهُ ﷺ).

(وَ لاَ ٱنْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَ لاَ ٱنْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَ لاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ... إلخ). يُومىء إِلىٰ أنّ الْإِسْلاَم يَصلح لكلِّ عَصر، فَلا يَتعَارض مَع الْعَقْل، والعِلْم، ولا يَدعُوا إِلىٰ الجمُود، ولاَ يَضُرّ بأحدٍ، ولاَ يَتسَبب فِي التَّخلُف، بل أنّ الصِّيحَة لنَهضَة ٱلْمُسْلِمِينَ وٱنْقَاذهِم مِن الضَّعْف، والتَّخلُف كَانَتْ ومَا زَالت مَقرُونَة بالدَّعْوَة إِلىٰ الْحِرْص عَلىٰ الْإِسْلاَم، والْعَمَل بِهِ، وإنّ أَخوَف مَا يَخَافهُ أَعْدَاء ٱلْمُسْلِمِينَ أنْ يَرجعُوا إِلىٰ كِتَاب رَبِّهِم وسُنَّة نَبِيِّهم، ومِن هُنا كَان تَحدِيهِم الرَّهِيب لِلْإِسْلاَم وشَرِيعَته وأهدَافه... ولاَ أدرِي مَتىٰ يَتحَرَك الْمُسْلِمُون، ويَبعَث هَذَا التَّحدِي السَّافر رُوح اليَقظَة والنَّهضَة؟.

(وَ لاَ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ). الْإِسْلاَم رَحمَته لِلعَالَمِين، قَال الرَّسُول الكَرِيم ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنَفِيَّة السَّهلة السَّمحَة»[1]. وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2]. (وَ لاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ) خَالِص مِن كلّ شَائِبَة تَعُوق ٱلْحَيَاة عَن التَّقدُم والانْطلاَق (وَ لاَ عِوَجَ لِإنْتِصَابِهِ، وَ لاَ عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَ لاَ وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَ لاَ ٱنْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ إلخ). لاَ يَنقُضَه طَعن، ولاَ تَثنِيه شُبهَة ويَهزَه ٱفترَاء، لأنّه الْحَقّ المُبِين والصِّرَاط الْقَوِيم (فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا) وَثِيق الْأَرْكَان، ورَفِيع البُنيَان، كَمَا يَأتِي بَعد قَلِيل (وَ يَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا) أي كَثُرَت عـلُوم الْإِسْلاَم وفوَائِده (وَ مَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا) وَاضح الدَّلاَلَة لاَ غمُوض فِيهِ تـعقِيد (وَ مَنَارٌ

(١) أُنظر، تَفسِير القُرطُبي: ٢٠/١٩، تَأويل مُختلف الحَدِيث: ١/١١٧، نيل الأوطار: ١/٣١، صَحِيح البُخاريّ: ١/١٦، الأدَب المفرد: ١٠٩، ح ٢٨٨، عون المعبُود: ١٠/١٨٤، تُحفَة الأَحوَذي: ٥/١٥٣، مُقدمة فَتح البَاري: ١/١٣٤، سُبل السّلام: ٣/١١١.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ١٨٥.

اَقْتَدَىٰ بِهَا سُفَّارُهَا) أي المُسَافرُون ، الْمُرَاد بِهِمْ الْعُلَمَاء ، وإنّ الإِسْلاَمَ يَهْدِيهم لِـلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، لِيَهْدُوا بِدُورِهم غَـيْرهم (وَ أَعْـلاَمٌ قُـصِدَ بِـهَا فِـجَاجُهَا) أي طُـرقهَا ، والأَعْلاَمَ تَدل عَلَيْهَـا ، وإذَا سَار المُسَـافرُون عَـلىٰ هَـذِه الطُّـرق آنْـتهَت بِهِـمْ إلىٰ مقَاصدهُم.

(وَ مَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا) مِن نَهَل من مَعِين الإِسْلاَم فلاَ يَظمْأ (جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَىٰ رِضْوَانِهِ) ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[1] (وَ ذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ) يَعلو الإِسْلاَم ، ولاَ يُعلىٰ عَلَيْهِ (وَ سَنَامَ طَاعَتِهِ) مَن عَمِل بالإِسْلاَم بَلَغ من الطَّاعَة لله أقصَاها (فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ) . عَطف تَفْسِير عَلىٰ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا ، وَ ثَـبَّتَ لَهَـا آسَاسَهَا (مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُـضِيءُ النِّـيرَانِ) عَـطف تَـفْسِير عَـلىٰ مَـصَابِيحُ شَـبَّتْ نِيرَانُهَا (عَزِيزُ السُّلْطَانِ) عَطف تَفْسِير عَلىٰ لاَ آنْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَ لاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، (مُعْوِذُ الْمَثَارِ) لا يُدرَك غُبَارَه ولا يُـلحَق مـضمَارَه (فَشَـرِّفُوهُ) عـظّمُوه وأحـيُوه بِالْعَمَل ، لاَ بِالمظَاهِر (وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ) لا تُتَاجِرُوا بِالدِّين ، وتَأكلُوا بِهِ كمَا تَأكُـل الفَاجِرَة بِلحْمِها[2] .

(ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْـيَا الإِنْـقِطَاعُ) . الْمُرَاد بِالدِّين هُنا دُنيَا أَهْل ذَاكَ الزّمَان الَّذي بُعِثَ فِيهِ مُحَمّدﷺ وحيَاتهم ، والْمُـرَاد بِالإِنْقِطَاع نهَايَتهم وهَلاَكهم بِسَبب الْفَسَاد ، والضَّلاَل (وَ أَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الإِطِّلاَعُ) . الْمُرَاد بِالآخِرَةِ نهَايَة أَهْل ذَاكَ الزّمَان المُظلم ، بـل وبـإقْبَال الإِطِّـلاَع قُـرْب هَـذِه

(١) اَلْمَائِدَة : ٣.

(٢) أُنظر ، شَرح اَلْخُطْبَة : ٣٢ ، فِقْرَة «الْمُرائي والْمُومِس». (مِنْهُ).

النّهَايَة. وتَقَدَّم مثلهُ[١].

(وَ أَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ). رِسَالَة مُحَمّد ﷺ حَلَقَة مِن سَلسَلة الرّسَالاَت السّابقَة الّتي أَشرَقت الدُّنْيَا بِهَا كرِسَالَة إِبْرَاهِيمَ، وعِيسَىٰ وغَيْرِهما من الأَنْبِيَاء، ثُمّ أَظْلَمَتْ الدُّنْيَا مِن بَعْدهم بُرْهَة مِن الزّمن حَتَّىٰ وِلد الْهُدَىٰ وَالنُّورِ بِمُولد رَسُول الله ﷺ (وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَىٰ سَاقٍ). كنَايَة عَن عَصر الْجَاهِلِيَّةِ الجَهْلاَء، وجَرَائِمه وآثَامِهِ (وَ أَزِفَ مِنْهَا قِيَادُ، فِي ٱنْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا). أوشكت الْجَاهِلِيَّةِ المجرمة أن تَقود أهلَها إلى الهَلاك (وَ ٱقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَ ٱنْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا.... إِلىٰ مِنْ طُولِهَا). وتَقَدَّم مِثله مَرّات[٢].

وبِالْإِيجَاز أنّ العَالم قَبل رِسَالَة مُحَمّد ﷺ كَان فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ، فجَاءَت رِسَالَته إِيذَاناً بِالتَحول الخَطِير في حَيَاة الأُمّة العَرَبِيَة، وحيَاة العَالَم كله مِن أَقْصَاه إِلىٰ أَقْصَاه.

الْقُرْآن...فِقْرَة ٧ ـ ٨:

ثُمّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لاٰ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَ سِرَاجاً لاٰ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَ بَحْراً لاٰ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَ مِنْهَاجاً لاٰ يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَ شُعَاعاً لاٰ يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَ فُرْقَاناً لاٰ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَ تِبْيَاناً لاٰ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَ شِفَاءً لاٰ تُخْشَىٰ أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاٰ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَ حَقّاً لاٰ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَ بُحْبُوحَتُهُ، وَ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَ بُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَ غُدْرَانُهُ، وَ أَثَافِيُّ الْإِسْلاٰمِ وَ بُنْيَانُهُ، وَ أَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَ غِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاٰ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَ عُيُونٌ لاٰ يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَ مَنَاهِلُ لاٰ يَغِيضُهَا

---

(١) أنظر، شرح الخُطْبَة: (٢٨ و ٥٢). (مِنهُ ﵀).

(٢) أنظر، مِنْهَا فِي الخُطْبَة: ٨٩. (مِنهُ ﵀).

الْوَارِدُونَ، وَ مَنَازِلُ لاٰ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ(٧). وَ أَعْلاٰمٌ لاٰ يَعْمَىٰ عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَ آكَامٌ لاٰ يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ. جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَ رَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَ مَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَ دَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَ نُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَ حَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَ مَعْقِلًا مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَ عِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَ سِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وَ عُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَ شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَ فَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَ حَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَ مَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَ جُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ، وَ عِلْماً لِمَنْ وَعَىٰ، وَ حَدِيثاً لِمَنْ رَوَىٰ، وَ حُكْماً لِمَنْ قَضَىٰ(٨).

اللُّغَة:

لاٰ يَخْبُو: لاَ يَخْمُد. المِنْهَاج: الطَّرِيق. نَهْج الأَمْر: أَوْضَحَه، والثُّوب: أَخْلَقَه، وَالطَّرِيق سَلَكَهُ. وَبُحْبُوحَة الدَّار: وَسَطهَا وَسِعَتها. وَالأَثَافِيُّ: يُوضَع عَلَيْهَا القِدر. وَغِيطَانُهُ: أَرَاضٍ مُطْمَئِنَة. لاٰ يَنْزِفُ: لاَ يَنْضَبُ. الْمَاتِحُونَ: مُسْتَخرِجُو الْمَاء. وَآكَامٌ: أَرَاضٍ مُرْتَفِعَة. والْفَلَج: الظَّفَر. وتَوَسَّمَ: تَفَرَّس.

الْإِعْرَاب:

نُوراً حَال مِن الْكِتَاب أي مُنِيراً، وجُمْلَة لاٰ تُطْفَأُ صِفَة لِلنُّورِ.

الْمَعْنَىٰ:

قَبلَ أَنْ نَبدَأَ بِشَرح هَذِه اَلْخُطْبَة قُلنا: إنّ الْإِمَامَ عليه السلام تَكَلَّم فِيها عَن التَّقْوَىٰ

والنَّبيّ ﷺ والإِسْلاَم، والقُرْآن، وإنّ هَذِه المَوْضُوعَات الأَرْبَعة مُتَمَاثلة مُتشَابكَة، وبالخصُوص الإِسْلاَم، والقُرْآن، فإنّهُمَا شَيء وَاحد.

ولذَا وصَف الإِمَام القُرْآن بِنَفس الصِّفَات الّتي وَصَف بِهَا الإِسْلاَم، وعَلىٰ سَبِيل التَّمثِيل أنّ قَوْله عَن القُرْآن: (نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ) مِثل قَوْله السَّابق عَن الإِسْلاَم: «لاَ انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ» وقَوْله هُنا: (وَ بَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ) كقَوْله هُناك: «يَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا» أي عُيُون دَعَائِم الإِسْلاَم. وقَوْله: (لاَ يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ) نَظِير «أَثْأَقَ الحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ». إلىٰ قَوْله هُنا: (لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ) وهُنَاك: «وَسَقَىٰ مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ». وهَكذَا، بِالإضَافَة إلىٰ أنّ التَّعبِير هُنا أوضَح مِنْهُ هُناك، وإنّ الكَلاَم عَن القُرْآن تَقدَّم[1]. وإذَنْ فمَا الغَايَة مِن الشَّرح والإِعَادة؟

وبَعْد، فإنّ وَصف الله لِكتَابه يُغنِي عَن كلّ وَصف: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[2] أمّا الّذِي نَزَل القُرْآن عَلىٰ قَلْبه فوصَفَه بقَوْله: «مَن قَرَأَ القُرْآن ـ أو مَن حَفَظ القُرْآن ـ فَقَد اسْتَدرَج النُّبُوّة بَيْنَ جَنْبَيْه غَيْر أنّه لاَ يُوحىٰ إِلَيْهِ»[3]. أي قَرَأ وفَهِم وَعَمل حَيْث أنْزَله النَّبيّ ﷺ مَنْزلة الأَنْبِيَاء بلاَ وَحي.

وَنَقَل حُسين هِيكَل، أقوَالاً عَن المُسْتَشرِقِين المَسِيحيين فِي صِدق القُرْآن، مِنْهَا مَا قَاله «وليم مُوير» فِي كتَابه حَيَاة مُحَمّد مَا نَصّه بِالحرَف: «إنّ كلّ مَا فِي القُرْآن

(١) أُنظر، شَرح الخُطْبَة: (١١٠ و ١٨٣). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) الإِسْرَاء: ٩.

(٣) أُنظر، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ١/٥٥٢ ح ٢٠٢٨، كَنز العُمَّال: ١/٥٢٤ ح ٢٣٤٧، الدُّر المنثُور: ١/٣٤٩، شُعب الإِيمان: ٢/٥٢٢ ح ٢٥٩١، التّرغِيب والتّرهِيب: ٢/٢٣٠ ح ٢٢٠٤.

صُورَة صَادقة كَاملة لمَا أُوحِي بِهِ إِلىٰ مُحَمّد، وَنَسْتَطِيع أنْ نُؤكد ٱسْتنَاداً إِلىٰ أقوىٰ الأَدلة أنّ كلّ آيَة مِن الْقُرْآن دَقِيقَة فِي ضَبْطها تَمَاماً كمَا تَلاَها مُحَمّد»[1]. وحَتَّىٰ الآن مَا عَرفَت البَشَرية كِتَاباً مِن نَوْع الْقُرْآن. والْقَوْل الفَصل قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[2].

(١) أُنظر، كِتَابه حَيَاة مُحَمّد: ٣١، الطَّبعَة التَّاسعَة. (مِنهُ ﷺ).

(٢) يُونُس: ٣٨.

الخطبة

-١٩٩-

الصَّلاة وَالزَّكَاة...فِقْرَة ١ ـ ٤:

تَعاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاةِ، وَ حَافِظُوا عَلَيْهَا، وَ اسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَ تَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[١]. أَلا تَسْمَعُونَ إِلَىٰ جَوابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[٢]. وَ إِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَ تُطْلِقُهَا إِطْلاقَ الرِّبَقِ، وَ شَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَىٰ بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَ اللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَىٰ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ[١]. وَ قَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَ لا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَ لا مَالٍ. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ﴾[٣]. وَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ نَصِباً بِالصَّلاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ

(١) النّساء: ١٠٣.

(٢) المدّثر: ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) النّور: ٣٧.

وَ ٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[١]. فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَ يَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ[٢].

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَ مِنَ النَّارِ حِجَازاً وَ وِقَايَةً. فَلاَ يُتْبِعَنْهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَ لاَ يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ[٣].

ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، وَ الأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ، وَ الْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلاَ أَطْوَلَ وَ لاَ أَعْرَضَ، وَ لاَ أَعْلَىٰ وَ لاَ أَعْظَمَ مِنْهَا. وَ لَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لاَمْتَنَعْنَ، وَ لٰكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَ عَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وَ هُوَ الإِنْسَانُ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٢].

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَ نَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وَ أَحَاطَ بِهِ عِلْماً. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَ جَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَ ضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَ خَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ[٤].

اللُّغَة:

حَتَّ الْوَرَقِ عَن الشَّجر: أَسْقَطَهُ، وحَتَّ الشَّيء عَن الثُّوب: حَكَّهُ وَأَزَالَهُ. والرِّبَق: حَبْلٌ فِيهِ عُرَىٰ. والحَمَّة ـ بفتح الحَاء وَتَشديد الميم ـ عَينٌ مَعدنِيَة يُسْتَشفىٰ بِهَا. ونَصِباً: تَعِباً. مُقْتَرِفُونَ: مُكْتَسِبُون. وخُبْراً: عِلْمَاً.

---

(١) طٰه: ١٣٢.

(٢) ٱلأحزاب: ٧٢.

الإِعْرَاب:

فَمَا عَسَىٰ «مَا» للْإِسْتفهَام، والْمَعْنَىٰ أي شَيء... إلخ. واَشْتَبَه مَن قَال هِي نَافِية، وعَسَىٰ تَامة، لا تَحتَاج إِلىٰ خَبَر، وفَاعِل يَبْقَىٰ ضَمِير مُستتر يَعُود إِلىٰ «مَا» وطَيِّبَ النَّفْسِ حَال، ومِثله غَيْر طَيِّبَ النَّفْسِ، وأَدَاء الْأَمَانَة نُصب عَلىٰ الْمَصْدَرِيَة أي أدُوا الْأَمَانَة، خَبَراً تَمْيِيز، مِثله «عِلْماً».

تَكَلَّم الْإِمَام‏ؑ فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة عَن الصَّلاٰةِ، والزَّكَاةِ، والْأَمَانَةِ، وفِي خُطْبَة أُخرىٰ تَكَلَّمنَا عَن الصَّلاٰةِ، والزَّكَاةِ تَبعاً لإشَارة الْإِمَام إِلَيْهَا فِي هَاتِين ٱلْخُطْبَتِين[1]، والآن نَتنَاول مِنْهُمَا بَعْض الجِهات الَّتي لَمْ نَتْعرض لهَا فِيمَا سَبق، مِن ذَلِكَ مَا أَشَار إِلَيْهِ الْإِمَام بِقَوْله:

(وَ إِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ... إِلىٰ فَمَا عَسَىٰ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ). يَدلُّ هَذَا الكلاَم بظَاهره عَلىٰ أنّ الصَّلاٰة حَسَنَة لاَ تَضر مَعَهَا سَيِّئَة، وإن الله يَغْفر سَيِّئَات الْمُصلّي مَهمَا تَضاعفت، وتَنوّعَت!. ولَيْسَ مِن شكٍّ أنّ هَذَا الظَّاهِر يَصْطدم مَع حُكم الْعَقْل، والبَدِيهة، ومَع قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2]. فَمَا هُو وَجْه الجَمع؟

الجَوَاب:

لاَ أَحَد يَجرَأ عَلىٰ الزَّعم، والْادِّعَاء أنّه مُنَزَّه عَن التَّقْصِير والخَطَأ إلاّ جَاهل مَغرُور حَاشَا الْأَنْبِيَاء... والخَطِيئَة أنوَاع، ولكلِّ نَوْع دَرجَات:

---

(١) أُنظر، شرح ٱلخُطْبَة: (١١٠ و ١٩٢). (مِنْهُ‏ؒ).

(٢) ٱلزَّلْزَلَة: ٧ ـ ٨.

فهُنَاك حَقّ الله، وحَقّ النَّاس، وهُنَاك الكَبِيرَة، والْصَّغِيرة. وبَعْض الخَطَايَا تَقبَل الْمَغْفِرَة والتَّسامُح، ويَخْتَصر فِيها عَلىٰ اللُّوم، والعتَاب، أو التُّوبِيخ. وبَعْضهَا يُوجب العِقَاب الخَفِيف. والثَّالثَة العقَاب الوَسط. ورَابعَة العذَاب الأَكْبَر. وَتَقَدَّمَت الإِشَارَة إِلىٰ الذَّنب الْكَبِير وَالصَّغِير[1]. وأَفْحَش الخطايَا عَلىٰ الاِطلاَق الشِّرك بِالله، والاِعتدَاء عَلىٰ حُرّيَات النَّاس بكَّمِ الأفوَاه، وتَعذِيب الْأَرْوَاح، والْأَجْسَام، ونَهب الثّروَات، الْأَرْضِ والمُقدرَات... ومَا إِلىٰ ذَلِكَ مِن الجرَائِم الَّتي يَرتَكبهَا الْأَقْوِيَاء ضِدَّ الضُّعفَاء الَّذِين لاَ قَدَر لهُم، ولاَ حِيلَة ووَسِيلَة. وَهَذَا النَّوْع مِن الذُّنُوب لاَ يُغْفَر إطلاَقاً، وإِنْ صَلّىٰ المُذنب الظَّالِم وصَام، وحَجَّ إِلىٰ بَيْت الله الحرَام.

ومَا عَدا هَذَا النَّوْع مِن الذّنُوب يَقبل الغُفرَان، شَرِيطة أَنْ لاَ يَكُون فِيهِ شَائِبَة ٱعْتدَاء عَلىٰ الآخرِين، وإِنْ كَانَتْ مِثقَال ذَرّة. ومِن الأمثِلة الَّتي تَقبل التّسامُح والْمَغفِرَة سَقَطات اللّسَان مَع عَدَم الإِضرَار بِالآخرِين، وأكلُ الخَبَائِث أو شُربها بلاَ ضَرُورة، وصِنَاعة التَّماثِيل، والنَّظرة الآثِمَة، والعَصَبِيَّة إِذَا لَمْ يَترَتب عَلَيْهَا فَسَاد، بل وحَلق اللّحيَة، والْإِسرَاف فِي الْأَمْوَال عَلىٰ الْقَوْل بِٱلتَّحْرِيم.

وغَيْر بَعِيد أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِالذّنُوب الّتي تَحتّها الصَّلاَة، وتُطهر المُصلي مِنْهَا هَذَا النَّوْع بِالخصُوص... ومن الجَائز أيضاً أَنْ يَكُون الْقَصْد مِن حَتِّ الذّنُوب أَنّ الصَّلاَة بِطَبِيعتَها تَحث المُصلي عَلىٰ ٱلتَّوْبَة الّتي تُطهره مِن الذّنُوب. ويُومىء إِلىٰ ذَلِكَ ويُؤَيدَه قَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2] أي تَنْهىٰ المُصلي

(١) أنظر، الإِشارَة إِلىٰ الذَّنب الْكَبِير، والصَّغِير فِي شَرح ٱلخُطبَة: (١٧٦) فِقْرَة «أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاَثَةٌ». (مِنْهُ ﴿قدس سره﴾).

(٢) ٱلعَنكَبُوت: ٤٥.

عَنْهُمَا بِمُجَرد الدَّعْوَة والإِرْشَاد، ولاَ تَدْفَعه عَنْهُمَا قَسراً، أو تَخْلُق فِي نَفْسه النّفُور مِنْهُمَا قَهْراً... لأنّ هَذَا لَمْ يَحدُث بِشهَادَة العيَان. ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ إهْمَال التَّوْبَة مِن المُنْكَرات، فَيشملهُ نَهي الصَّلاة عَن المُنْكَر.

(وَ قَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ.... إلخ). الَّذين وَجدُوا حَلاوة الإِيْمَان بالله، وبُرد اليَقِين، وجَلال القُرب مِنْهُ، وعَقلُوا أَسْرَار الصَّلاة، وأهدَافها، وإنّ الله سُبْحَانَهُ يَكتُب لَهُم مِن ثوَابها عَلىٰ قَدَر مُحافَظَتهم عَلَيْهَا، وأهْتِمَامهم بِهَا، وإذَنْ فَلا عَجَب إذَا أَعْطُوها عَن طِيبِ نَفْس كل هَمّهم، وأهْتِمَامهم، وجَعَلوها شُغلهُم الشَّاغل حَتّىٰ عَن الْوَلَدِ والمَال.

ونَحنُ نَعرف الكَثير مِن عَظَمَةِ الصَّلاة عِند الله، وأَنَّهَا عَمُود الدِّين وقُربَان كُلّ تَقي... وأيضاً نَتحدَث عَن فضلَها ونَكتبه، ونُذِيعه، ولكِن صَلاتنا ـ ويَا لسُوء العَمَل ـ أشبَه بحَرَكة آليَة، أو تلقَائِيه... أَبداً لاَ شَيء فِيها مِن الحضُور والخشُوع نَحنُ نُصلّي والله بِقَصد القُربة لله... ولكن بمَاذَا نُفكر أثنَاء الصَّلاة؟... بالتَّافهَات وزِينَة الحَيَاة... قَال رَسُول الله ﷺ: «أنّ خَير أَعْمَالكم الصَّلاة»(١). وتَقُول نَفْسنَا الأَمّارة: لاَ، إنّ خَير أَعْمَالكُم الشُّهرَة، والسُّمعَة، والجَمع للوَارث التَّارك للصَّلاة! أَللَّهُمَّ هِدَايتك، وغُفرَانك.

---

(١) أُنظر، صَحِيح أبن حبّان: ٣/٣١١ ح ١٠٣٧، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين: ١/٢٢١ ح ٤٤٨، موارد الظّمْآن: ١/٦٩ ح ١٦٤، سُنَن الدّارمي: ١/١٧٤ ح ٦٥٥، مَجْمَع الزّوائد: ١/٢٤١، مصباح الزّجاجة: ١/٤١، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرىٰ: ١/٤٥٧ ح ١٩٨٨، مُسْنَد أحمد: ٥/٢٨٢ ح ٢٢٤٨٦، المُعْجَم الأوسط: ٧/١٦٦ ح ٧٠١٩، سُنَن أبن ماجه: ١/١٠١ ح ٢٧٧، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٢/١٧٦ ح ٢٨٧٩، فَتح البَاري: ٤/١٠٨، تَفْسِير أبن كثير: ٣/٢٤٠.

وَنَخْتِمُ هَذِهِ الإِشَارَة بهَذه الفَضِيلة الرَّائعَة مِن فَضَائِل الصَّلاَة، ومنَافعها، وأوّل من كَشَف عَنْهَا فِيمَا نَعْلم ـ الإِمَام جَعفر الصَّادق عليه السلام، وَهِي: إنّ الأُمّم المَاضِية نَسُوا أَنْبِيَاءهُم بمرُور الزَّمن وطُول العَهد، فألزَم سُبْحَانَهُ أُمّة مُحَمّد صلى الله عليه وآله بالصَّلوَات الخَمس لفُوائد، مِنْهَا أنْ يَكُون المُسْلِم مَع نَبِيِّه مَدىٰ حيَاته، فيُذكره لِيلَ نَهار فَرضاً ونَدباً، ولاَ يَنساه أَبَداً مَهما ٱمتَد الزَّمن، وأنْ يَقرن ٱسمه بأسم الله فِي الأَذَان والإِقَامة، وفِي التَّشهد، والتَّسلِيم، وأيضاً فِي الرّكُوع والسّجُود علىٰ وَجْه الاِسْتحبَاب. ومَن تَرَك الصَّلاَة فَقد تَرك الله، ومُحَمّداً رَسُول الله الَّذي قَال: «بَيْنَ الرّجل والكُفر تَرك الصَّلاَة... الصَّلاَة هِي العَهد بيننا وَبَيْنَكُمْ، فَمن تَركها فَقَد كَفَر»[1].

(وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ نَصِباً بِالصَّلاَةِ) أي يُتعَب بِهَا نَفْسَه، ويُجْهدهَا فِي عبَادة لله حَتَّىٰ تورَمت قَدمَاه، وٱصفَر لونَه، وحَتَّىٰ عَاتبه سُبْحَانَهُ عَلىٰ ذَلِكَ بقَوْله: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[2] أي لِتَشْق عَلىٰ نَفْسك، وتُحملها المَشَقَّة والعَنَاء.

الزَّكَاة:

(ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ الإِسْلاَم... إلخ). أي يَتقَرب بِهَا إِلىٰ الله سُبْحَانَهُ... حَثَّ الإِسْلاَم عَلىٰ الزَّكَاةِ كَمَا حَثَّ عَلىٰ الصَّلاَةِ، لأنّه يَحرُص كلّ الحِرْص عَلىٰ الأُخُوَة والتّعاون بَيْنَ النّاس، وأقَام هَذَا التَّعاون عَلىٰ أُسس قَوية

(١) أنظر، سُنن التِّرمِذي: ١٢٦/٤ ح ٢٧٥٦، سُنن النّسائي: ٢٣٢/١، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ٧/١، المُصَنَّف لِابْن أبي شَيبة: ٢٢٢/٧ ح ٤٥، كنز العُمَّال: ٢٧٩/٧ ح ١٨٨٧١، سُنن ٱبن مَاجه: ٣٤٢/١ ح ١٠٧٩، نيل الأوطار: ٣٧٢/١، مُسْنَد أحمد: ٣٤٦/٥.

(٢) طه: ١ ـ ٢.

وثَابتة، مِنْهَا أنّ مِن أهمهَا الْعَمَل لِصَّالح الأَغلَبية العُظمىٰ الّتي تتكُون مِن الْفقَرَاء والمُسْتَضْعَفِين، وتَقدِيمه عَلىٰ صَالح الأَفرَاد، والمُسَاوَاة بَيْنَ الجَمِيع فِي الحقُوق والوَاجبات. ومِن البدَاهة أنّ الزّكَاة ضَربٌ مِن التّعاون وَأسَاس لهُ، ولذَا أطلق عَلَيْهَا فِي عصرنَا آسم الْعَدْل الاِجْتَاعي، أو الْعَدَالَة الاِجتَاعِية. وكَثِير مِن الْفقهَاء يَتجَاوزُون النّسبَة المِئوية المُحَدَدة فِي الزّكَاةِ، ويُوجبُون فِي أَمْوَال الأَغْنِيَاء كلّ مَا يَحتَاجه الْفُقَرَاء. وقَد آشتهر الْقَوْل عَن آبن حَزم: «إنّ لِلسُّلطَان أنْ يَجبُر الأَغْنِيَاء عَلىٰ أنْ يَقومُوا بحَاجَة الْفُقَرَاء إنْ لَم تَقم الزّكَاة بِهِمْ، فإذَا رَفض الأَغْنِيَاء أَجْبَرهُم السُّلْطَان وحَاربَهُم، وإذَا رَفض السُّلْطَان ذَلِكَ حَاربهُم الْفُقَرَاء أَنْفُسهُم، وكَانوا أَصْحَاب حَقّ، وكَان السُّلْطَان، والأَغْنِيَاء الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»[1]. ومَعْنىٰ هَذَا إنّ لِلْفُقرَاء حَقّ الثّورَة عَلىٰ الأَغْنِيَاء، وأَخذ مَا يَحتَاجُون إلَيْهِ مِن أَمْوَالهِم بِالقَهرِ، والغَلبَة، وبلا ضَمَان وعوَض أيضاً. ولَيْسَ هَذَا ببعِيد عَن روح الإِسْلاَم الَّذي قَال: «مَا آمن بِالله مَن بَات شبْعَاناً وأخُوه جَائع... لَيْس المُؤْمِن الَّذي يَبِيت شَبعَان وجَاره جَائع إلىٰ جَنبه... مَا آمَن بِي مَن بَات وأَخُوه طَاوٍ»[2]. وَقَال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَاتُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ

---

(١) أنظر، المُحلىٰ لِابْن حزم: ٢٥٦/١، الفِقْه عَلىٰ المَذَاهِبُ الأَرْبَعة: ٦٢٢/١، المَجمُوع: ٩٦/٦، حُلية الْعُلَمَاء: ١٥٣/٣، المُغْني: ٥٢٢/٢ و: ٣١٥/٧.

(٢) أنظر، المُعْجَم الْكَبِير: ٢٥٩/١ ح ٧٥١، وَسَائِل الشّيعة: ٣٢٧/٢٤ ح (٣٠٦٧٤) ٣ ـ، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٢٤٣/٣ ح ٣٨٧٤، المَحَاسِن للبَرقِي: ٩٨ ح ٦٢، لِسَان المِيزان: ٣٨/٢ ح ١٢٩، الجوَاهر السَّنِية للحر العَاملي: ١٥١، البدَاية والنّهاية: ٣٧٤/٨، تكملة حَاشية رَدّ المحتار: ٦٠٧/٢، الْقَول المُسدد: ٢١/١، كنز الْعُمّال: ٥٧/٩ ح ٢٤٩٢٩، تَأريخ دمشق: ٢١٦/٢٨، النّهاية في غَريب الحَدِيث: ١٤٦/٣، الْقَوْل المُسدد في مُسْنَد أحمد: ٢١.

ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[1]. وتكَلَّمنا عَن الزَّكَاة سَابقاً[2].

الأَمَانَة:

(ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ... إلخ). تُطلَق الأَمَانَة عَلىٰ الوَدِيعَة كالْمَال، والمصَاغ، والصَّك، ونَحو ذَلِكَ مِمَّا يَترك الْمَرْء عِند غَيْره، ويَسْأله الُمحَافظة عَلَيْهِ، وهَذِه الأَمَانَة يَجب الوفَاء بِهَا لِلمُؤْمِن والْكَافِر، والْبرِّ والفَاجر، ولا تَحل خيَانتهَا عَقلاً وعُرفاً وشَرعاً[3]، قَال الإِمَام زِين العَابدِينعليه السلام: «فوَ الَّذي بَعَث مُحَمّداً بِالْحَقِّ نَبياً، لَو أنّ قَاتل أَبِي الحُسَيْن ٱئتَمَنَنِي عَلىٰ السَّيْف الَّذي قَتَله بِهِ لأَدِيته إِلَيْهِ»[4]. وأيضاً الأَمَانَة عَلىٰ الوفَاء بِمعنَاه العَام الَّذي يَشمل الوفَاء لِلدِّين، والوَطن، والأَهْل والأَصدقَاء، والمَبدأ والإِنْسَانِية جَمعَاء. والوَفَاء خُلقٌ كَرِيم عِند أَهْل السَّمَاء، والأَرْضِ، والخِيَانة لُؤم وغَدر.

وٱستِشْهَاد الإِمَام بالآيَة يُومِيء إِلىٰ أَنّه يُرِيد مِن الأَمَانَة الْمَعْنَىٰ العَام، وهُو الوَفَاء، لأَنّ الْمُرَاد مِن الأَمَانَة فِيها دَين الله، والمَسْئُولِيَة عَنْهُ. وإِذَنْ فَمن الأَفضَل أَنْ نُشِير إِلىٰ مَعْنَىٰ الآيَة، ومَتىٰ عَرفنَاه ٱتَضح مُراد الإِمَام، أو ٱزدَاد وضُوحاً. قَال

(١) ٱلنِّسَاء: ٧٥.
(٢) أُنظر، شَرح الخُطْبَة: (١١٠ و ١٩٢). (مِنْهُ ﷺ).
(٣) أُنظر، المسَالك: ١/٣٤٧، المجموع: ١٥/٣٣٤، الغُنية: ٦٠٣، الْمُغْنِي: ٦/٢٣٩، الرّوضَة البَهِية: ٣/١٧٩.
(٤) أُنظر، أَمَالِي الشّيخ الصَّدوق: ٣١٩ ح ٦، وَسَائِل الشّيعة: ١٩ ح ٧٦ ح ١٣، بِحَار الأَنْوَار: ٧٢ ح ١١٤ ح ٣، مَعَانِي الأَخْبَار للصَّدوق: ١٠٨، روضَة الوَاعظين: ٣٧٣.

تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]. وخُلاَصَة المَعْنَىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ مَنَح الإِنْسَان الْقُدْرَة، والْعَقْل، والإِرَادَة، ومِيزّه بِذَلِك عَن جَمِيع الكَائنَات الّتي نَعرفهَا، وأهّلهُ بهَذه النِّعْمَة لِتحمُّل المَسْئُولِيَة عَن دِين الله الّذي بيّنَه عَلىٰ لِسَان أَنْبِيَائه.

وعَلَيْهِ فمَعْنَىٰ حَمل الإِنْسَان للأَمَانة أنّ فِيهِ كلّ الشُّرُوط، والصِّفَات الّتي تُؤهله لِلخطَاب بِالدِّين، والتَّكلِيف بِالحلاَل والحرَام، وٱستحقَاق العقَاب إنْ قصَّر وأَهمَل، لأنّ الله سُبْحَانَهُ لَم يَترك لهُ مِن عُذرٍ يَتَعَلَّلُ بِهِ، ومَعْنَىٰ رَفض ٱلسَّمَوَات، والأَرْضِ، والجِبَال لِلأَمَانة أو لِلدّين، مَعنَاه أَنَّهَا تَفقد هَذِه الشُّرُوط والمُؤهلات، وَهِي الْقُدْرَة، والْعَقْل، والإِرَادَة، وبِالتّالِي فَلا يَصح تَكلِيفهَا بحَال. وقَدِيماً، قِيل: «إذَا أَخَذ مَا أَوْهَب أَسَقَط مَا أَوْجَب»[2]. ومِن أَقْوَال الإِمَام عليه السلام: «إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئَاً، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنَا؛ فَمَتَىٰ مَلَّكَنَا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنَا، وَمَتَىٰ أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا»[3]. وبِكَلِمة أَبْلَغ، وأَجْمَع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[4].

(لَطُفَ بِهِ خُبْراً). الضَّمِير فِي «بِهِ» يَعُود إِلىٰ «مَا» فِي قَوْله: (لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ). ويُشِير الإِمَام بقَوْله: «لَطُفَ بِهِ خُبْراً» إِلىٰ الآيَة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

(١) ٱلْأَحْزَابِ: ٧٢.
(٢) أُنظر، كَشف الخفَاء للعجلُوني: ١/٧٧ ح ١٨٣. يَقول: مَعنَاه صَحِيح، ولِينظر هَل هُو حَدِيث أم لا.
(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة: (٤٠٤).
(٤) ٱلطَّلَاقِ: ٧.

ٱلْأَبْصَـرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١]. وٱلْخَـبِيرُ، والْـعَلِيم بِمَـعْنَىٰ وَاحد، وٱللَّطِيفُ هُو العَالِم بدقَائِق الأُمُور وغُوَامضهَا (وَ أَحَاطَبِـهِ عِـلْماً) عَـطف تَفْسِير (وَ ضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ) أي أنّ ذَات الصّدُور تَشهد عَلىٰ العُصَاة تَمَاماً كمَا تَشهد عَلَيْهِمْ أعضَاؤهُم (وَ خَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ) كلّ سرٍّ عِندَه عَـلاَنِيَة، وكـلّ غَـيبٍ عِـندَه شهَادَة.

(١) الأَنعَام: ١٠٣.

الخطبة

- ٢٠٠ -

مُعَاوِيَةَ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ:

وَ اللهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَ لَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ. وَ لَوْ لاٰ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ، وَ لَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَ كُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ. ﴿وَ لِكُلِّ غَادِرٍ لِـوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

وَ اللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَ لاٰ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

اللُّغَة:

غُدَرَةٍ، وَفُجَرَةٌ، وكُفَرَةٌ ـ بضم الحرف الأَوَّل وفتح الثَّانِي ـ لِلمُبَالغة أي غدرو، وَفَجَرَو، وكَفَرَو. ومَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ: لاَ تَجُوز الْمَكِيدَةِ عَلَيَّ كَمَا تَجُوز عَلَىٰ

---

(١) أنظر، مواهب الجليل: ٥٣٨/٤، نيل الأوطار: ١٧٩/٨، الطّرائف لإبن طاووس: ٢٠٧، صَحِيح مُسْلِم: ١٣١/٥، صَحِيح البُخَاريّ: ٧٢/٤، سُنن البَيْهَقِيّ: ١٥٩/٨، مُسْنَد أحمد: ٤١١/١، سُنن الدّارمي: ٢٤٨/٢، سُنن التِّرمِذي: ٧١/٣ ح ٢٧، سُنن أبن مَاجه: ٩٥٩/٢ ح ٢٨٧٢ و ٢٨٧٣، مَجْمَع الزّوائد: ٣٣٠/٥، المَبسوط للسّرخسي: ٥/١٠ و: ١٦٩/٢٣.

ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]. وٱلْخَـبِيرُ، والْـعَلِيم بِمَـعْنىً وَاحد، وٱللَّطِيفُ هُو العَالِم بدقَائِق الأُمُور وغُوَامضهَا (وَ أَحَاطَ بِـهِ عِـلْماً) عَـطف تَفْسِير (وَ ضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ) أي أنّ ذَات الصّدُور تَشهد عَلىٰ العُصَاة تَمَاماً كمَا تَشهد عَلَيْهِمْ أعضَاؤهُم (وَ خَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ) كلّ سرٍّ عِندَه عَـلاَنِيَة، وكـلّ غَـيبٍ عِـندَه شهَادَة.

(١) الأنعام: ١٠٣.

الخطبة

- ٢٠٠ -

مُعَاوِيَةَ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ:

وَ اللهِ مَا مُعَاوِيَة بِأَدْهىٰ مِنِّي ، وَ لَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ . وَ لَوْ لا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ ، وَ لَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ ، وَ كُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ . ﴿وَ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] .

وَ اللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَ لا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

اللُّغَة:

غُدَرَةٍ ، وَفُجَرَةٌ ، وكُفَرَةٌ ـ بضَم الحَرف الأَوَّل وفَتح الثَّانِي ـ لِلمُبَالغة أي غَدَرَو ، وَفَجَرَو ، وكَفَرَو . ومَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ : لاَ تَجُوز الْمَكِيدَةِ عَلَيَّ كَما تَجُوز عَلىٰ

---

(١) أنظر ، مواهب الجليل : ٥٣٨/٤ ، نيل الأوطار : ١٧٩/٨ ، الطَّرائف لِابْن طاووس : ٢٠٧ ، صَحِيح مُسْلِم : ١٣١/٥ ، صَحِيح البُخَارِيّ : ٧٢/٤ ، سُنَن البَيْهَقِيّ : ١٥٩/٨ ، مُسْنَد أحمد : ٤١١/١ ، سُنَن الدَّارمي : ٢٤٨/٢ ، سُنَن التِّرمِذي : ٧١/٣ ح ٢٧ ، سُنَن ابن مَاجه : ٩٥٩/٢ ح ٢٨٧٢ و ٢٨٧٣ ، مَجمَع الزَّوائد : ٣٣٠/٥ ، المَبسوط للسَّرخسي : ٥/١٠ و : ١٦٩/٢٣ .

الْغَافِلِين. وَلاَ أُسْتَغْمَزُ لِلشَّدِيدَةِ: لاَ أَضْعَفُ لِلخُطُوبِ، وإنْ ٱشْتَدَت.

الإِعْرَاب:

بِأَدْهَىٰ خَبَر، والبَاء زَائِدَة، ومِنِّي مُتعَلِّق بِأَدْهَىٰ.

المَعْنَىٰ:

(وَ اللهِ مَا مُعَاوِيَة بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَ لَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ. وَ لَوْ لاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ... إلخ). مَا كَان لِمُعَاوِيَةَ[1] مِن هَدَف إلّا المَجد، والسُّلْطَان، وكلّ الوَسَائِل حَقّ

---

(١) مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ صخر بن حَرْب بن أُمَيَّة بن عَبد شمس، وأُمّه هند بنت عُتْبَة بن رَبِيعَة، تزوّجت هند أوّلاً الفاكه بن المُغِيرَة المَخْزُومِيّ فقتل عَنْهَا بالغميصاء ـ كما جاء فِي نسب قُرَيْش: ٣٠٠ ـ موضع قرب مَكَّة، ثمّ تزوّجت حفص بن المُغِيرَة فمات عَنْهَا، ثمّ تزوّجت أبا سُفْيَانَ. وكَانَتْ فِي زمن الفَاكه مُتهمة بالزّنا كما يذكر صاحب العقد الفريد: ٦/ ٨٦ ـ ٨٧، والأغاني: ٩/ ٥٣، وكَانَتْ مِمَّنْ تُذكَر فِي مَكَّة بفجورٍ، وعهرٍ كما ذكر ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد فِي شرح النَّهْج: ١/ ٢٣٦ تحقيق مُحَمَّد أَبو الْفَضْل.

ومُعَاوِيَة هذا أسلم بعد ٱلفَتح وَقَالَ فِيهِ رسول الله ﷺ: لا أشبع الله بطنه. كما ذكره صاحب أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١/ ٥٣٢، وصَحِيح مُسْلِم: ٨/ ٢٧، وشرح النَّهْج لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١/ ٣٦٥ ومُسْنَد الطَّيَالِسِي: ح ٢٧٤٦، وٱبن كثير: ٨/ ١١٩، وَقَالَ فِيهِ ﷺ: فِي قِصَّة زواج المهاجرة الّتي ٱستشارت النَّبِيّ ﷺ عندما خطبها: أمّا مُعَاوِيَة فصعلوك. كما جاء فِي صَحِيح مُسْلِم: ٤/ ١٩٥، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٢٢٨/ ١٦٤٥، وسُنَن ٱبن ماجه: ح ١٨٦٩. وَقَالَ فِيهِ ﷺ عندما نظر إِلىٰ أَبِي سُفْيَانَ وهو راكب، ومُعَاوِيَة وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق: ٱللَّهُمَّ ٱلعن القائد، والسّائق، والرّاكب. ذكر ذَلِكَ الطَّبَرِيّ فِي تأريخه: ١١/ ٣٥٧، وسبط بن الجوزي فِي التّذكرة: ١١٥، ووَقْعَة صِفِّين: ٢٤٧، والزُّبَيْر بن بكّار فِي المفاخرات برواية ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد عَنْه فِي شرح النَّهْج: ٢/ ١٠٣.

ولَسْنَا بصدد بَيَان كلّ ما قاله ﷺ فِيهِ وفِي أسرته، بل نكتفي برواية الطَّبَرِيّ من حوادث سَنَة (٥١ هـ)

↔

وَعَدل عِنده مَا دَامت تُؤَدِّي بِنجَاح إِلىٰ بُلُوغ هَذَا الهَدَف، ولاَ غَايَة لِعَليّ إِلّا الدِّين، وإِحْقَاق الحَقّ، وفِي سَبِيله تَجِب التَّضحِيَة بِكلِّ عَزِيز وَثَمِين. هَذَا هُـو الفَـرق بَـيْنَ الاْثنَيْن، أمّا نَجَاح مُعَاوِيَة فَيَعُود إِلىٰ شَيء وَاحد، وهُو أنّ الظّرُوف فِي المُجْتَمع الفَاسد تُعَاكس المُحِق، وتُوَاتِي المُبْطِل بخَاصَّة إِذَا كَان بَارعاً فِي الْكَذِب، والاِحتِيَال. ولقَد بَرَع مُعَاوِيَة وَنَجَح فِي الغَدْرِ، والمَكْرِ، وصَفَت لَهُ الأَيَّام فِي بِيئَة الضَّلاَل، وٱسْتُشْهِدَ الإِمَام غَدْراً وٱغْتِيَالاً.. ولكنّ التَّأرِيخ أَنْصَف، وَكَشَف كُلاً عَـلىٰ حَـقِيقَته، فكـلّ الأَجْيَال تَصف مُعَاوِيَة بِـالمُوَارَبَـة والاِنْـتِهَازِية، وتَـعْتَرِف لِـلإِمَام بِـالإِخْلاَص، والتَّضحِيَة، والصَّلاَبَة فِي الحَقّ مَهمَا تكُن الخَسَائِر.

وَتَقَدَّم مَضمُون هَذِه ٱلخُطْبَة ومُحتَوَاهَا[1]، وشَرَحْنَاه بِـضَربٍ مِـن التَّـفْصِيل، وٱسْتَشهدنَا هُنَاك بمَا قَاله الإِمَام هُنا[2].

⇐ والكَامِل لِاِبْن الأثير: ٢٠٢ ـ ٢٠٩ وٱبن عساكر: ٢ / ٣٧٩ والشّيخ محمود أبو ريه: ١٨٤ ـ ١٨٥ ما نقلوه عن الحَسَن البصري إنّه كَانَ يقول: أربع خصال كُنّ فِي مُعَاوِيَة ولو لم يَكُنْ فِيهِ منهنّ إلّا وَاحِدَة لكَـانَتْ موبقة: ٱنتزاؤه علىٰ هَذِه الأُمَّة بالسفهاء حَتَّىٰ ٱبتزّها أمرها بـغير مَشُـورَة وفِـيهِمْ بـقايا وذوو الفـضيلة، وٱستخلافه ٱبْنِهِ بعده سكّيراً، خميراً، يلبس الحـرير، ويـضرب الطّـنابير، وأدعـياؤه زيـاداً وقـد قَـالَ رسول الله: الولد للفراش وللعاهر ٱلْحَجَر، وقتله حجراً وأَصْحَابِه، ويلٌ له من حجر وأَصْحَابِه، ويلٌ له من حجر وأَصْحَابِه. ومن أراد المـزيد فـليراجـع الطَّـبَرِيّ: ٤ / ٢٠٢، والنّـبلاء: ١ / ٢٣٧، ومُسْـنَد أحمـد: ٤ / ٤٢١، ووَقْعَة صِفِّين لنصر بن مزاحم: ٢٤٦، والمُعْجَم الكَبِير للطبراني: ١ / ٤٢٧، والعـقد الفـريد: ٤ / ٣٤٥، والطَّبَرِيّ: ١١ / ٣٥٧، والاِسْتِيعَاب: ٤١٢، وأُسد الغَابَة: ٣ / ١٠٦، وتهذيب ٱبْن عسـاكـر: ٧ / ٢٠٦، والإِصَابَة: ٢ / ٢٦٠، والطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٤ / ٢٢٢، وصفوة الصّفوة: ١ / ٢٣٨، وسيرة ٱبـن هشام: ٤ / ١٧٩.

(١) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٤١). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر المُجَلد الأوّل ٱلخُطبَة: (٤١)، فِقْرَة «عَلِيٌّ وَالسِّيَاسَة». (مِنْهُ ﷺ).

وتجدُر الإِشَارَة إلىٰ أنّ ٱبن أبِي ٱلْحَدِيد الْمُعْتَزِلي كَتَب فِي شَرح هَـذِه ٱلْخُطْبَة حوَالِي عشرِين صَفْحَة بِالقَطع الْكَبِير، فَمَن أرَاد التّوسع فلِيَرجع إِلَيْهِ، وإِلىٰ كِتَاب «النَّصَائِح الكَافِيَة، لِمَن يَتَوَلَّىٰ مُعَاوِيَة» تَأليف ٱبن عقِيل[1].

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٢١١/١٠، و«النَّصَائِح الكَافِيَة، لِمَن يَتَوَلَّىٰ مُعَاوِيَة» لِمُحَمّد بن عَقِيل: ١٠٠ وما بعدها، وَشَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمّد عَبْدَه: ١٨٠/٢، تُحف الْعُقُول: ٩٩، بِحَار الأَنْوَار: ١٩٧/٣٣، المعيَار والمُوازنة: ١٦٦، يَنابيع المَوَدَّة: ٤٥٤/١، الإِمَامة والسِّيَاسَة: ٢٢٠/١، بالإِضَافة إلىٰ المصَادر الّتي تَتَحدث عَن مُعَاوِيَة.

الخطبة

- ٢٠١ -

يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَىٰ لِقِلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَ جُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَىٰ وَ السُّخْطُ. وَ إِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَىٰ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ﴾[1]، فَمَا كَانَ اِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الأَرْضِ الْخَوَّارَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَ مَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ!

اللُّغَة:

الخُوَار: الصَّوْت، قَال سُبْحَانَهُ: ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[2].

(١) اَلشُّعَرَاءِ: ١٥٧.

(٢) اَلأَعْرَافِ: ١٤٨.

والسِّكَّةِ: حَدِيدَة المِحْرَاث.

الإِعْرَاب:

كَانَ نَاقصَة، وٱسمهَا مَحْذُوف، وتَسْبك أَنْ ومَا بَعدها بِمصدَر خَبَراً لِكَانَ، والتَّقدِير. فَمَا كَانَ عَذَابهُم اِلاَّ خُوَارَ أَرْضهُم.

لاَ تَخْشَ لَوْمَةُ لائِمِ:

(أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَىٰ لِقِلَّةِ أَهْلِهِ). كلّ مَا يَجلِب النَّفع، ويَدفَع الضُّر عَن الْفَرْد والجَمَاعَة فِي حدُود حَلال الله، وحرَامه فهُو خَيرٍ وصَلاَحٍ، وكلّ مَا يَضُرّ بِالنَّاس بِجِهَة مِن الجِهَات فهُو شَرٌّ وَضَلال، ومَن آمَن وٱقْتَنع بِطَرِيقٍ أو بِآخر أنّ هَذَا خَيرٌ وصَلاَح، وذَاكَ شرٌّ وفَسَاد ـ فَعلِيه أنْ يَتصرَف بوَحِي مِن إيمَانه وقَنَاعته، ولاَ يُقِيم وَزناً لأقوَال النَّاس، وآرَائهم، فإنَّهُم لا يَصدرُون عَن عَقلٍ وَعِلمٍ، ولاَ عَن دِينٍ، وضَمِيرٍ... ويَندفعُون بِمَحض الرَّغبَة، والعَاطفَة الهُوجَاء، والتَّقالِيد المُورُوثَة، بخَاصَّة فِي هَذَا العَصر الَّذي أفْسَدَته المَدنيَة الحَدِيثَة، وأجْهِزَت الدّعَايَات الكَاذبَة علَىٰ كلّ مَا يُسمىٰ هُدىً، وإنْسَانِية.

قَال رَسُول الله ﷺ: «ٱسْتَفت قَلْبَك... الْبِرّ مَا ٱطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْس، وٱطمَأن إِلَيْهِ الْقَلْب، والإِثْم مَا حَاك فِي الْقَلْب، وتَردد فِي الصَّدر، وإِنْ أَفْتَاك النَّاس وأَفْتَوْك»[١].

(١) أنظر، سُنن الدّارمي: ٢/٣٢٠ ح ٢٥٣٣، مُعتصر المُختصر: ٢/٢٠٨، مُسْنَد أحمد: ٤/ ٢٢٨ ح ١٨٠٣٥، مُسْنَد الحَارث (زوائد الهَيْثَمي): ١/٢٠١ ح ٦٠، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٣/١٦٢ ح ١٥٨٧، جَامع العلوم ⟺

وَقَالَ الْإِمَام: «لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً»[1].

وتَقَدَّم قَوْله لأبِي ذَرّ: «لاٰ يُؤْنِسَنَّكَ اِلاّٰ الْحَقُّ. وَ لاٰ يُوحِشَنَّكَ اِلاّٰ الْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَ لَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ»[2].

وكُلّنا يَعْلَم أنّ الّذِين صَنعُوا التّأرِيخ، وتَقَدَّمَت ٱلْحَيَاة بِجهُودهم كَانوا حَمقىٰ، ومجَانِين عِند قُومهم، لأنّهم تَمَردُوا عَلىٰ مقَايِيسهُم، ورَفضُوا التّنازل عمّا يُؤْمِنُون بِهِ وَيَعتَقدُون، وسَارُوا وَحدَهُم عَلىٰ طَرِيق الْهُدَىٰ بوحِي مِن عُقُولِهِمْ، وصفَاء قُلُوبِهِمْ، وكَان مِن الطَّبِيعِي أنْ يَصطَدمُوا بِالكَثِير مِن العقَبَات، ويعَانُوا النَّكبَات، ولَكِنَّهُم ثبتُوا وضَحوا فكَانُوا مِن الهُدَاة الخَالدِّين، ولَو خَافُوا من قُوّة الدَّوْلَة ومَنطق الجَمَاعَة لخَسرُوا أَنْفُسهم، ومَا تركُوا خيراً لإِنْسَان.

(ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ). الْمُرَاد بِالْمَائِدَة الدُّنْيَا، وقَد يَشبَع الْإِنْسَان مِنْهَا، ولكنْ إِلىٰ أَمدٍ يَنتهِي بزوَاله إِلىٰ اللّحد حَيْث لاَ طعَام، ولا شَرَاب، ولاَ شيء إلّا الْعَمَل (إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَىٰ وَ السُّخْطُ). قَسّم الشُّيُوعيُّون النّاس عَلىٰ أَسَاس ٱقْتصَادِي، وبَعضهُم عَلىٰ أَسَاس عُنصرِي، أو جُغرَافِي، وآخرُون عَلىٰ أسَاس ثقَافِي، أمّا الْقُرْآن فإِنّه يُقسّم النّاس عَلىٰ أَسَاس التَّقْوَىٰ، والْعَمَل الصَّالح، وإِلىٰ هَذَا يَرجع كَلاَم الْإِمَام حَيْث جَعل النّاس فَرِيقِين: فَرِيقاً فِي الْجَنَّة، وفَرِيقاً فِي السّعِير، والفَرِيق الأَوّل هُم العَاملُون بِالخَيْر، ومَن رَضي

⇐ والحكم: ١/٢٤٩، الورع لإبن حنبل: ١/١٩٦، الترغيب والترهيب: ٢/٣٥١ ح ٢٦٨٣، نوادر الأصول في أحاديث الرّسول: ١/٢٣٩، حلية الأولياء: ٢/٢٤.

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كِتابٍ لهُ ﷺ إلىٰ أخيهِ عَقِيل: (٣٦)، وَهُو جوَابُ كِتَابٍ كَتَبهُ إليهِ عَقِيل.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة، ٱلخُطبَة: (١٣٠). (مِنهُ ﷺ).

عَنْهُ وَعَنْهُم ومِن هُنا كَانَ للنَّوَايَا الطَّيِّبَة وزنَها وثوَابها عِند الله، والفَرِيق الثَّانِي هُم السّاخطُون عَلىٰ الْخَيْرِ وأهْله... فقَد جَمع الرّضا بَيْنَ أُولَئِكَ فِي جَنَّة الخُلد، وجَمع السّخط بَيْنَ هَؤُلاَءِ فِي عَذَاب الْحَرِيق.

وعَن النَّبِي، وأَهْل بِيْتِه عَلَيْهِم السَّلَام: «العَامل بِالظُّلْمِ، والْعَيْن لَهُ، والرّاضِي بِهِ شُركَاء ثَلاَثَتهم[1]... إنّمَا يجمَع النّاس الرِّضَا والسَّخط، فَمَن رَضي أَمراً فَقَد دَخَل فِيهِ، ومَن سَخَطه فقَد خَرَج مِنْهُ[2]... مَن غَاب عَن أمرٍ فَرَضِي بِهِ كَان كَمن شَهِدَهُ، وأتَاهُ[3]... ولَو أنّ رَجُلاً قُتل فِي المَشرق فَرَضِي بِقَتله رَجُلٌ فِي المَغرب لكَان الرّاضِي شَرِيك القَاتل»[4].

أَبداً لاَ يَحق لأحدٍ أنْ يَدعِي الإِسْلاَمَ الْحَق، أو أنّه إنْسَان طيّب، وهُو يُقِيم مَع الظَّالِمِ عَلاَقَات سيَّاسيّة، أو اقْتصَادِية، أو ثقَافِية.. حَتَّىٰ ولُو مَلأ الدُّنْيَا بِسَبّه ولَعنّه، لأنّ أيّة عِلاقَة مَع الظَّالِمِ هِي عُونٌ لهُ وحيَاة... ومن أجْل هَذَا أَسمَح لِنَفسِي أنْ أُسمِي الاتْفَاق الجَدِيد بَيْنَ الْإِشْتَرَاكِية والإِمبرِيَالِية، أُسميه بالإِنْتِهَازِية العَلَنِية... ولاَ تَبعد كَثِيراً تَسمِيَتِي هَذِهِ عَن تَسْمِية الْأَشْتَرَاكِيين والإِمبرِيَالِيين لاتْفَاقِيَتهم «بِالتّجَارِيَة».

---

(١) أنظر، الكَافِي: ٢/٣٣٣ ح ١٦، وَسَائِل الشّيعة: ١٧/١٧٧ ح ٢، الخِصَال للشّيخ الصّدوق: ١٠٧ ح ٧٢، تُحف الْعُقُول: ٢١٦، عُيُون الحِكم والموَاعظ: ٢١٤، كَشف الغُمة: ٣/١٤٠.

(٢) أنظر، المَحَاسِن: ١/٢٦٢ ح ٣٢٣، وَسَائِل الشّيعة: ١٦/١٤٠ ح ٩، البحار: ٦٨/٢٦٢ ح ٥.

(٣) أنظر، مَجمَع الزّوائد: ٧/٢٩٠، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ١٢/١٥٥ ح ٦٧٨٥، كنز الْعُمّال: ٣/٨٣ ح ٥٦٠٢، مُنْتَهىٰ المطلب: ٢/٩٩٦، عُيُون أخبار الرّضا: ١/٨١، وَسَائِل الشّيعة: ١٦/١٣٨ ح ٢، تُحف الْعُقُول: ٤٥٦، مُسْنَد الإِمَام الرّضا: ١/٥٤ ح ١٢.

(٤) أنظر، عُيُون أخْبار الرّضا: ١/٢٧٣، تَفْسِير الصَّافي: ٢/١٧٧، مُسْنَد الإِمَام الرّضا: ١/١٤٧ ح ١٩٥، وَسَائِل الشّيعة: ١٦/١٣٩ ح ٤، عِلل الشّرائع للشّيخ الصّدوق: ١/٢٢٩.

(وَ إِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَىٰ) . ثَمُودَ قَبِيلَة مِن الْعَرَب ، سُمِّيَت بِاسم جَدّهَا ثَمُود بن عَامر ، وكَانَتْ مسَاكنهُم الحَجَر بَيْنَ الحِجَاز والشَّام[1] ، فأرسَل الله صَالِحاً هِدَايَتهم ، وهُو أَشْرَفهُم نَسَباً ، وَأوْسَعهُم حِلماً ، فَطلبُوا مِنْهُ أنْ يَأتِيهُم بِآيَة تُصدّق رِسَالَته ، فَقَال لَهُم : هَذِه نَاقَة الله لاَ مَثِيل لهَا فِي تَأرِيخ النُّوق ، فَرَمَاها شَقِي بِسَهمٍ فَخرّت عَلىٰ الأَرْضِ ، ومَا أنْكَر هَـذِه الجَـرِيمَة مُنْكر مِن ثَمُود ، فَأَخَذَهُم الله بَغْتَةً ، وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ[2] .

(فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ) .

خَارَتْ الأَرْضِ لاَنَتْ وَارْتَخَتْ بِحَيث يَغُور فِيهَا مَا عَلىٰ ظَهرها مِن الأَثْقَال كَمَا تَغُور حَدِيدَة المِحرَاث الحَامِية فِي الأَرْضِ اللَّينَة . والمَعْنَىٰ أَنّ الأَرْضِ ابْتَلَعت ثَمُود ، لأنّ بَعضهُم فَعل المُنْكَر ، والبَعض الآخر رَضِي بِهِ ، وسَكَت عَنْهُ (مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ) أي نَال مَا يَبْتَغِيه (وَ مَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ !) حَيْرَةٌ وضَلاَلَةٌ : ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[3] .

---

(١) اُنظر ، النّهاية فِي غرِيب الحَدِيث : ١/٣٤٣ ، لِسَان العَرَب : ١/٥٨٧ ، مُختار الصّحاح : ١/٣٧ .

(٢) لَقَد وَرَد ذكر اسم نَبيّ الله صَالح فِي القُرآن تِسع مرّات ، فقَد وَرد فِي سُورَة الأعْرَاف ، وفِي سُورَة هُود .
وانظر ، قِصّة صَالح فِي فَتح البَاري : ٢/٢٢٥ ، الفصُول فِي الأُصول للجصاص : ٣/٢٠ ، البِدَاية والنّهاية : ١/١٥٠ ، قصص الأنبِياء لابْن كَثير : ١/١٤٥ ، بحَار الأنوَار : ١١/٣٧٠ ، شَرح نَهج البَلاَغة لابن أبي الحَدِيد : ١٠/٢٦٢ ، تَفسِير مَجمَع البَيَان : ٤/٢٩٣ ، تفسِير القُرطُبي : ٩/٩٢ و : ١٣/١٢٧ ، البُرهَان للزّركشي : ١/١٣٥ .

(٣) غَافِر : ٣٤ .

الخطبة

-٢٠٢-

عِنْدَ دَفْنِ بَضْعَةِ الرَّسُولِ ﷺ:

السَّلاٰمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي، وَ عَنِ ٱبْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَ السَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ! قَلَّ، يَا رَسُولَ اللهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَ رَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، اِلاَّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَ فَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ. فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَ فَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَ صَدْرِي نَفْسُكَ، ﴿فَإِنَّا للهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. فَلَقَدِ ٱسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَ أُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَ أَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَ سَتُنَبِّئُكَ ٱبْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَىٰ هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَ ٱسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ، هٰذَا وَ لَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَ لَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَ السَّلاٰمُ عَلَيْكُمَا سَلاٰمَ مُوَدِّعٍ، لاٰ قَالٍ وَ لاٰ سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاٰ عَنْ مَلاٰلَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلاٰ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ.

اللُّغَة:

رَقَّ: ضَعُفَ. وتَجَلّد فُلاَن: تَكلّف الجَلَد والصَّبر. والتَّأَسِّي: التَّعزِيَة. ومَلْحُودَة:

مَشْقُوقَة ومَحْفُورَة. وَمُسَهَّدٌ: قَلِيل النَّوْم. فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ: ٱسْتَقص فِي مُسَألتهَا.

الإِعْرَاب:

فِي التَّأَسِّي خَبَر أَنّ مُقدمَاً عَلَىٰ ٱسمهَا وهُو مُوضع تعَزّ، والحَالَ مَنصُوب بنَزع الخَافض أي ٱسْتَخْبِرْهَا عَن الحَال، وَهَذَا فَاعِل لِفعل مَحْذُوف أي حَدث هَذَا، وعَنْ مَلاَلَةٍ مُتَعَلِّق بفعل محذوف أي فَلا أنْصَرف عَنْ مَلاَلَةٍ.

فَاطِمَة ﷺ:

أبوّهَا خَاتم الأَنْبِيَاء، وسيّد الكَوْنين، وأُمّها خَدِيجَة بِنت خُوَيْلد أوّل إِنْسَان آمَن وَصَدق بِرَسُول الله ﷺ، وشَاركَه فِي حيَاته، ومِنْهَا ذُرِّيَته، وزُوج فَاطِمَة عَليّ أخو رَسُول الله أوّل مَن آمَن بِهِ وَصلّىٰ، وفدَاه بِنَفْسَه مِن الذّكُور، ولكن أوْلاَدها مِنْهُ يُنسَبُون إِلَىٰ عَليٍّ لُغَةً، وإِلَىٰ النَّبيّ شَرعَاً لقَوْله: «لِكلّ نَبيّ عُصبَةٍ يَنتمُونَ إِليهِ إلاّ وِلد فَاطِمَة فأنَا أبوّهُم، وأنَا عُصْبَتُهم»[1].

(١) أُنظر، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٤٣٣/٢٢، مُسْنَد أَبِي يَعلىٰ: ١٠٩/١٢ ح ٦٧٤١، سُبل السّلام لِابْن حجر: ٩٩/٤، مَجْمَع الزّوائد: ١٧٢/٩، تَأرِيخ بغداد: ٢٨٥/١١، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ١٦٤/٣، الجَامِع الْصَّغِير: ٩١/٢، كنز الْعُمَّال: ٩٨/١٢ ح ٣٤١٦٨ وص: ١١٦ ح ٣٤٢٦٦، فيض القَدير شَرح الجَامِع الْـصَّغِير: ٢٢/٥، كشف الخفَاء: ١٢٠/٢، تَأرِيخ مدِينة دمشق: ٣١٣/٣٦، تَهذِيب الكَمَال: ٤٨٣/١٩، يَنابيع المَوَدَّة: ٩٨/٢، وَقَالَ ﷺ: إِنّ الله جَعل ذُرّيَة كلّ نَبيّ فِي صُلبه، وجَعل ذُرّيتي فِي صُلب عَليّ. (الجَامِع الْصَّغِير: ١/ ٢٦٢ ح ١٧١٧، كنز الْعُمَّال: ١١/ ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٢). وَقَالَ: كلّ بَني أُنثىٰ يَنتمون إِلىٰ عصبتهم إلاّ وِلد فَاطِمَة فأنَا وَليهم، وأنَا عصبتهم، وأنَا أبوهُم. (الجَامِع الصَّغِير: ٢/ ٢٧٨، كنز الْعُمَّال: ١٢/ ١١٦)، فرائد السّمطين:

↔

وِلدَت فَاطِمَة عليها السلام بِمَكَّة يَوْم ٱلْجُمُعَةِ (٢٠) جُمَادىٰ الآخِـر بَـعد النُّـبُوَّة بِخَـمس سِنِين[1]، و «إِنَّما سُمِّيَت ٱبْنَتِي فَاطِمَة ؛ لأَنّ الله تَعَالىٰ فَطمَها وذُرِّيّتهـا عَن النّار يَـوم

↔ ١/ ٣٢٤. وَقَالَ: (إنّ الله جَعل ذُرِّيَّة كلّ نَبي في صُلبه، وَجَعل ذُرِّيّتي في صِلب عَليّ. (الجَـامِع الـصَّغِير: ١/ ٢٦٢ ح ١٧١٧، كنز العُمَّال: ١١/ ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٢). وَقَالَ: (كلّ بَني أُنثىٰ يَنتمُون إلىٰ عصبتهُم إلّا وِلد فَاطِمَة فأنا وَليهُم، وأنا عـصبتهُم، وأنـا أبـوهُم. (الجَـامِع الـصَّغِير: ٢/ ٢٧٨، كـنز الـعُمَّال: ١٢/ ١١٦ ح ٣٤١٦٨ و ٣٢٨٩٢، عَن تَأريخ ٱبن عساكر، بشَارة المُصْطَفىٰ: ٤٠، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٥٧، ٣٢٨٩٢.

(١) أُنظر، مطالب السّؤول في مناقب آل الرَّسُول: ٢١٠، وكَذٰلِك زُبدة المقَال في فَضائِل الآل: (مخطوط ورق ٩٦ في النّسخة تحت رَقم ٣٠٣). وقد ٱختلفت المصَادر التَّأريخية في ولَادتها ووفَاتها وفِي عُمُرهَا الشَّريف.
وفي المَناقب لإبْن شهرآشوب: ٣/ ٣٥٧ عن جابر بن عبد الله قَالَ: ولدت فَاطِمَة بمَكَّة بَعد النُّبُوَّة بخمس سنِين وبَعد الإسرَاء بثَلاث سنِين في العِشرين من جُمَادَىٰ الآخِرَة وأقَامت مع أبيها بمَكَّة ثَماني سـنِين، ثُمّ هَاجرت مَعهُ إلىٰ المَدِينَة فزوّجها مِن عَليّ بَعد مقدمها المَدِينَة بِسنتين أوّل يَوم من ذِي الحجّة، وروي أنّه كَان يُوم السّادس، ودَخل بها يوم الثّلاثاء لستٍّ خَلون من ذي الحجّة بَعد بَدر. وَهٰذَا هو الصّحيح لأنّ مُعظم روَايَات أَهْل البَيْت عليهم السلام تُؤيد ذٰلِكَ.
وجَاء في أمالي الشّيخ الصّدوق: ٣٥٣، ودَلائِل الإمَامَة لإبْن جَرير الطَّبَري: ١٠ طبع النّجف، ورُوضة الوَاعظِين: ١٢٤، ومدِينة المعَاجز: ١٣٥، ومصباح المُتهجد: ٥٥٤، والمصباح للكفعمي: ٢٧٠، والإقبال: ٦٢٣، ومزار البحار: ٢٩، وتقويم المُحسنين، وإعلام الوري: ٩٠ أنّ ولادتهـا في الـعِشرِين مـن جُمـادَىٰ الآخِرَة.
وجَاء في أُصول الكَافِي بهامش مرآة العُقُول: ١/ ٣٨١ (و ص ٤٥٩ طَبْعَة أُخرىٰ)، والمـناقب لإبْـن شهرآشوب: ٢/ ١١٢ (و: ٣/ ٣٥٧ طَبْعَة آخـر النّـجف) ودَلائِـل الإمَـامَة: ١٠ وإعـلام الورىٰ: ٩٠، وروضة الواعظين: ١٢٤، وكشف الغمّة: ١٣٥ طَبْعَة الحجر أنّ ولادتها بعد النُّبُوَّة بخمس سنِين.
وفي مصباح المتهجد: ٥٥٤، وتقويم المُحسنين: بعد المَبعث بسنتِين. وفي المُسْتَدرَك لِلحَاكِم: بَعد المَبعث بسَنَة.
وجَاء في روضة الواعظين: ١٢٤، والمناقب لإبْن شهرآشوب: ٢/ ١١٢ (و: ٣/ ٣٥٧ طَبْعَة آخـر) أنّها ولدت بعد الإسرَاء بثلاث سنِين. وأُنظر، البحار: ٤٣/ ٢ و ٤ نقلاً عن أمالي الشّيخ الصّدوق: ٣٧٢، ↔

الْقِيَامَة »[1].

و «كَانَتْ أَشْبَه النَّاس سَمتاً، ودَلاً، وَهَدياً، وقِيَامَاً بأَبِيهَا رَسُول الله ﷺ »[2].

⇐ وعُيُون أخبار الرّضا: ١ / ٩٣ ح ٢، والْعِلَل: ١٨٣ / ٤ و ٥، وتفْسِير عليّ بن إبْرَاهِيم: ٣٤١ ح ٦، وروضة الواعظين: ١٧٣ / ٩، وعُيُون المعجزات: ح ١١، وإقبال الأَعْمَال: ٦٢٣ ح ١٢ و ١٣، والمصباح للكفعمي: ٥١٢ / ١٤ـ١٦ عن دَلاَئِل الإِمَامَة: ٩.

وفي مقاتل الطَّالبيين: ٥٩ قَالَ: وكَانَ مولد فَاطِمَة عليها السلام قبل النُّبُوَّة وقُرَيْش حينئذٍ تبني الكعبَة، وكَانَ تزويج عليّ بن أبي طالب إيّاها في صَفر بَعد مقدم رَسُول الله ﷺ الْمَدِينَة، وبَنَىٰ بها بَعد رجوعه من غَزْوَة بَدْر، ولها يَوْمَئِذٍ ثمان عشرة سَنَة. وأُنظر، الإِصَابَة: ١٥٧/٨، وطَبقَات ابن سعد: ١١/٨. وفي ينابيع المَوَدَّة: ٥٧/٢ نقلاً عن الإِصَابَة: ٣٧٧/٤ قَالَ: وكَانَتْ ولادَة فَاطِمَة بَعد البعثة وَهِي أصْغَر بنَاته ﷺ وأحبّهنّ إليه.

وفي العدد الْقَوِيَّة مخطوط ورق ٤٥: ولدت بَعد خَمس سِنِين من ظهور ٱلْرِّسَالَة ونزُول الوَحي.

(١) أُنظر، كِتَاب (ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ). (مِنْهُ). ووردت أحَادِيث عَدِيدة في تَسمِيتها بفَاطِمَة الزّهراء كَما روي عن الإِمَام الرّضا عن آبائه: كمَا في عُيُون أخبار الرّضا: ٢ / ٤٦ قَال رَسُول الله ﷺ: إنّي سُمّيت ٱبْنَتِي فَاطِمَة؛ لأنّ الله عزّ وجلّ فَطَمهَا وفطَم مَن أحبّها من النَّار. كمَا وَردت روايات في عِلَّة تَسمِيتها بالزّهراء مِنْهَا: مَا روي عن جعفر بن مُحمّد بن عمارة عن أبِيه قَال: سَأَلت أبا عبد الله عليه السلام عَن فَاطِمَة، لِمَ سُمِّيت بِالزّهراء؟ فقال: لِأَنّهَا كَانَتْ إذَا قَامت فِي محرَابها زَهر نُورها لأَهْل السّمَاء كمَا يَزهر نُور الكوَاكب لأَهْل الأَرْض. أُنظر، مَعَانِي الأَخْبَار: ٦٤، عِلل الشّرائع: ١ / ١٨١، المحجّة البَيْضَاء: ٤ / ٢١٢ الطّبعة الثّانِيَة، فَضَائِل الْخَمْسَة من الصّحاح السّتة: ٣ / ١٥٥، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٢٦، كنز الْعُمَّال: ٦ / ٢١٩، بحَار الأَنْوَار: ٤٣ / ٦١، كشف الغمّة: ٢ / ٢١، مناقب أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مُحمّد بن سليمان الكوفي: ٢ / ١٨٨، كنز الْعُمَّال: ١٢ / ١٠٩، مُسْنَد زيد بن عليّ: ٤٥٩، مناقب أَهْل الْبَيْت: ٧٩، في رحاب النبي وآله: ٧٤، المواهب اللّدنية كما في شرح الزّرقاني: ٢٠٣/٣، فيض القدير شرح الجَامِع الْصَّغِير: ٢١٧/١ و: ٥٧٥/٣، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد: ٥٢/١١، يَنابيع المَوَدَّة: ١٢١/٢، جواهر العِقدين: ١٩٥/٢، الصَّوَاعِق الْمحْرِقَة: ١٥٣، تَأْرِيخ بغداد: ٣٢٨/١٢، بشارة الْمُصطفىٰ: ٢٠٩، فضل آل الْبَيْت للمَقْرِيزي: ٩٨.

(٢) أُنظر، صَحِيح التّرمذِي، عَن عَائِشَة. (مِنْهُ). وأُنظر، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٣٩٧/٢٢ ح ٩٨٥، الْمُقتني فِي سَرد الكُنىٰ: ١٦٧/٢ ح ٦٩٤٦، سير أعلام النّبلاء: ١١٩/٢، طبقَات الْمحدثِين: ٣٠/١ ح ١٧٢، الكَاشف: ⇐

و «تُوفِيت بِالْمَدِينَة (٣) جُمَادَىٰ الْآخِرَة سَنَة (١١ هـ) وعُمرُهَا الشَّرِيف (١٨) سَنَة، وَعَاشَت بَعد أَبِيها (٩٥) يُومَاً»[1].

⇔ ٥١٤/٢ ح ٧٠٤٩، تهذيب الكمال: ٢٤٧/٣٥ ح ٧٨٩٩، التعديل والجرح: ١٢٩٥/٣ ح ١٧٢٨، الإصابة: ٨٣/٨ ح ١١٥٨٣.

(١) أُختلف فِي وفَاة الصِّدِّيقة عَلَىٰ أَقْوَال. فأبن طَلحة الشافعي صَاحب مطالب السّؤول: ٢٢٠، والشّبلنجي صَاحب نور الأَبْصَار: ٤٢، والمناقب للخوارزمي: ٨٣/١، والإِصَابَة لِإِبْن حجر: ٣٨٠/٤ يقولون: إنّ تأريخ شهَادة الزّهراء عليها السلام لَيْلَة الثّلاثاء لِثلاث خَلون مِن شَهر رَمضان المُعظم سَنَة إحدىٰ عشرة من الهِجْرَة.

وفِي البحار: ٢١٣/٤٣ و ١٨٩ و ١٧١، وكشف الغُمّة: ٥٠٣/١، وفِي دلائل الإِمَامة: ٤٦ أنّها عليها السلام قُبضت لعشر بَقين من جُمادَىٰ الآخِرَة، ولكن فِي: ٤٥ من الدّلائل وفِي: ١٧٠ من البحار قَالَ: قُبضت فَاطِمَة عليها السلام فِي جُمادَىٰ الآخِرَة يوم الثّلاثاء لثَلاث خلون مِنْهُ.

أمّا فِي مصباح الطّوسي: ٥٥٤ و ٥٦٦، ومصباح الكفعمي: ٥١١، والبحار: ٢١٥/٤٣ ح ٤٦ و ٤٤ و ٤٧ فإنّ وفاتها٣ فِي اليوم الحادي والْعِشْرين من رَجب....

أمّا فِي المناقب لِإِبْن شهرآشوب: ١٣٢/٣، والبحار: ١٨٠/٤٣ فإنّها تُوفيت عليها السلام لَيْلَة الأحد لثَلاث عَشرة لَيْلَة خَلت من شَهر ربيع الآخر....

والمُلاحظ هُنا هو أنّه لايُمكن التّطبيق بَيْنَ أَكْثَر تواريخ الولادة، والوَفاة ومُدة عُمرها الشّريف، ولاَ بَيْنَ تواريخ الوفَاة وبَيْنَ مَا مرَّ فِي الخَبَر الصحيح أَنّها عليها السلام عَاشت بَعد أَبِيها خَمسة وسَبعين يوماً. إِذْ لو كَانَ وَفَاة الرَّسُول٩ فِي الثّامن والعِشْرين من صَفر كَان عَلَىٰ هَذَا وفَاتها فِي أواسط جُمادَىٰ الأُولَىٰ. ولو كَان فِي ثاني عَشر رَبيع الأوّل كَمَا يرويه أَهْل السُّنّة كَانَ وفَاتها فِي أواخر جُمادَىٰ الأُولَىٰ، وما رواه أبو الفَرج فِي المقاتل: ٣١ و: ٦٠ طَبْعَة أُخرىٰ، والبحار: ٢١٥/٤٣ عن الإِمَام البَاقر عليه السلام من كُون مَكثها بَعده٩ ثَلاثة أشهر يُمكن تَطبيقه عَلَىٰ مَا هُو المشهور من كُون وفَاتها عليها السلام فِي ثَالث جُمادَىٰ الآخِرَة.

أنظر، الطّبَقات لِإِبْن سعد: ١٨/٨، الملل والنّحل للشّهرستاني: ٥٧/١، لِسَان المِيزان للعسقلاني: ٢٩٣/١، فرائد السّمطين: ٣٦/٢، المناقب لِإِبْن شهرآشوب: ٣٥٨/٣، شَرح نَهْج ٱلْبَلَاغَة لِإِبْن أَبِي الْحَدِيد: ١٩٣/١٤، كتاب سُليم بن قيس: ٨٣ ـ ٨٥، إثبات الوَصيّة للمسعُودي: ٢٣ ـ ٢٤، سَفينة البحار للقُمي: ٥٩٧/٢، تَفسير العيّاشي: ٣٠٧/٢ بتفاوت يَسير.

وفِي كِتَاب الذُّريّة الطّاهرة لأَبِي بشر مُحمّد بن أحمد بن حمّاد الأَنْصَاري المَعْرُوف بِالدُّولابِي المتوفىٰ سَنَة ⇔

وفِي «حُلِية الأَوْلِيَاء» لأَبِي نَعِيم أنّ النَّبيّ ﷺ قَال لهَا: «يَا بُنَيَّة أمَـا تَـرضِين إنّك سَيّدة نِسَآءَ العالمين؟. قَالت: يَا أَبَتِ فأينَ مَرْيَمَ بِنت عِمْرَانَ؟. قَال: تِـلكَ سـيّدة نِسَآءَ عَـالمهَا، وأَنْتِ سَـيّدة نِسَآءَ عَـالمكِ، أمَـا والله زوَّجـتكِ سَـيّداً فِي الدُّنْـيَا والآخِرَة»(١).

↔ (٣١٠ هـ): ٢١٦، وقَد أخرج عَنْه كَثِيراً المحبّ الطَّبَرِيّ فِي الذَّخَائِر، والرِّيَاض النَّضرة، وكَشف الغمّة: ١/٣٦٣، والمناقب لإبْن شهرآشوب: ٣/١٣٧ و٣٥٧، والبحار: ٤٣/١٨٢ و١٨٨: قَالت عَائِشَة: «عَاشت فَاطِمَة بَعد رَسُول الله ﷺ سِتّة أشهر.

وقَد سَبق وأنْ أوضحنا آختلاف الآرَاء فقَالُوا: إنّها بَقيت بَعد أبِيهاﷺ خَمسة وَسبعِين يَوماً، وهـو المُخْتَار والمَشهُور بَيْنَ المؤرّخِين وبِهِ جَاءت الرّواية عَن الصّادقعليه السلام ـ كَمَا فِي الكَافِي: ١/٤٥٩، ومَعَالِمِ الزُّلفىٰ للبحراني: ١٣٣، ومرآة العُقُول: ٥/٣١٣، وكفَاية الأثر: ٦٤، الخرائج (المخطوط): ٢٧٠.

وقِيل إنّها بَقيت أَرْبَعِين يَوماً كَمَا ذكر المسعُودي في مروج الذّهب: ١/٤٠٣، كَشف اليَقِين: ١٨٩، روضة الواعظين: ١٣٠، كتاب سُليم: ٢٠٣، كشف الغمّة: ١٤٩. وذكر آبن قُتَيْبَة في المعارف: ١٤٢ ماتت بَعد وفَاة النّبيّﷺ بِمئة يَوم، وفي مصباح الأَنْوار سِتُّون يَوماً، وأمّا آبن حجر في الإصَابَة تَرجمَة فَاطِمَة فقد ذَكر سِتّة أشهر، وذكر فِي حَدِيث الأربَعة أشهر والثّمانية أشهر.

وفِي البحار أيضاً: ١٠/٥٢ ذكر خَمسة وتسعُون يَوماً وكذلك في الإِصَابَة لإبْن حجر عن الدّولابي في كتابه الذّريّة الطّاهرة.

وفِي تَأريخ الطَّبَرِيّ: إنّ فَاطِمَة دُفنت لِيلاً، ولَم يَحضرها إلاّ العَبّاس، وعليّ، والمِقداد، والزُّبَيْر ونقله عَنْه آبن شهرآشوب، وفِي مَزار الشّيخ المُفيد: إنّها دُفنت فِي بَيْتِها، فلمّا زَاد بنو أُمَيّة فِي المَسجد صَارت في المَسجد، وفِي مُسْنَد أحمد: ٦/٤٦١ مِثله، وأنظر أمالي الشّيخ الصّدوق: ٥٢٣، والبحار: ٤٣/٢٠٩/٣٧، و: ٢١٠/٣٩ و٤٠، و: ١٩٣/٢١، و: ٢١٢/٤١، الخِصَال: ٢/٣٦٠/٥٠، رِجَال الكَشّي: ٦/١٣، الكَافي: ١/٤٥٨/٣، أمَالي الشّيخ المُفيد: ٢٨١/٧، عيُون المعجزات: ٥٥، مرآة العُقُول: ١/٣٨٢، الإِحْتِجَاج: ٥٤، الإِصَابَة: ٤/٤٧٨.

(١) أُنظر، حُليَة الأَوْلِيَاء: ٢/٤٠ و٢٩ و٤٢، مُسْنَد أحمد: ٦/٢٨٢، و: ٥/٣٩١ ٣/٦٣٢٤ و٨٢، صَحِيح مُسْلِم: ٧/١٤٢، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٢/٤٧، الإستيعَاب: ٤/١٨٩٤، سُنن آبن مَاجه: ١/٥١٨، تَأريخ ↔

وقَرَأْتُ فِي جَرِيدَة «الأَخْبَار»، كَلِمَة للأُستَاذ مُحسن مُحَمّد، تَحـدّث فِـيها عَـن كِتَاب جَدِيد فِي أَهْل الْبَيْت بَلغ أَكْثَر مِن (٦٠٠) صَفحَة لمُؤلفِه تُوفِيق أبو عَلَم وكِيل وزَارة الْعَدْل بمِصْر. وَقَالَ الكَاتب فِيمَا قَال، وهُو يَعرض نمَاذج مِـن هَـذَا الكـتَاب الجَدِيد:

⇐ أبن كَثير: ٥ / ٢٢٦، الإِصَابَة لِابْن حجر: ٤ / ٣٧٨، كشف الغمّة: ٢ / ٧٩، صَحِيح مُسْلِم بِشرح النّووي: ١٦ / ٧، المناقب لِابْن المغازلي: ٣٦٢ / ٤٠٨ و ٤٠٩، بِحَار الأَنْوَار: ٣٧ / ٤٠، مشكلات العلوم للـمَوْلَىٰ مُحَمّد مَهدي النّراقي: ٢١١، مُسْتَدرَك سَفِينَة البحار للشّيخ عليّ النّمازي: ٨ / ٢٥١، كَشف اليَقِين: ٣٥٢.

وروي هَذَا الحَدِيث بطُرق مُختلفة عَن عَائِشَة وغَيْرِها، وكَذَلك بألفَـاظ فِـيها شي مـن الإِخـتِلاَف، والزّيَادَة ولكن كلّها لاتُؤثر عَلىٰ المطلُوب، أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: في كتاب بدء الخَلق بَـاب عـلامات النُّبوّة في الإِسْلام: ٤ / ٢١٠، و: ٥ / ٢٥ عن عَائِشَة ولكن بلفظ:... سيّدة نِسَاء أَهْـل الجَـنّة، أو نِسَـاء المُؤْمِنِينَ؟... وفِي مُسْنَد أحمد قَال: سيّدة نِسَاء هَذِه الأمّة أو نِسَاء المُؤْمِنِينَ... ورواه أبن سعد بلفظ: سيّدة نِسَاء هَذِه الأُمّة أو نِسَاء العَالمين... وفي أسد الغَابَة: ٥ / ٥٢٢ بلفظ سيّدة نِسَـاء العَـالمين... والنّسَـائي في الخصائص: ٣٤ بلفظ سـيّدة نِسَـاء هَـذِه الأمّـة أو نِسَـاء المُـؤْمِنِينَ... والبُـخَارِيّ في كـتَاب الإِسـتئذان بزِيَادَة:... فاتقي الله، وأصبري، فإنّي نِعم السّلف أنَا لَكِ... وفِي صَحِيح مُسْلِم زَاد أيـضاً: إنّكِ أوّل أهـلي لحُوقاً بِي... وفِي مُسْنَد الطَّيَالسِي: ٦ أحَادِيث النِّسَـاء...

وأنظر، مشكل الآثَار: ١ / ٤٨ ـ ٥٠، وفِي مُسْتَدرَك الصَّحِيحين: ٣ / ١٥٦، و: ٤ / ٢٧٢ روىٰ ذَلِكَ فِي بَاب مَرَضِهِ ﷺ الّذي توفي فِيهِ بلفظ: سيّدة نسَاء العَالمين وسيّدة نِسَاء هَذِه الأُمّة وسيّدة نِسَاء المُؤْمِنِينَ... قَال: هَذَا إسناد صَحِيح، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٤٣، كنز العُمّال: ٧ / ١١١، و: ١٢ / ١٠٧، صَـحِيح التِّرمِـذي: ٢ / ٣١٩، مشكـاة المَـصَابِيح: ٣ / ١٧٤٥ / ٦١٨٤، مَجْـمَع الفَـوائِـد: ٢ / ٢٣٣، سُـنَن التِّرمِـذي: ٥ / ٢٦١ / ٣٩٦٤، كنُوز الحقائق: ٥٢، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٩١ بَاب ١١ فصل ٣، ينَابِيع المَوَدّة: ٢ / ٥٥ طَبْعَة أسوة، أمالي الشّيخ الصّدوق: ٩٩.

وأنظر، أمَالي الشّيخ الطّوسي: ١ / ١٩١، والبحار: ٤٣ / ١٧٢ و ١٥٦، قـصص الأَنْـبِيَاء للـرّاونـدي: مخطوط ورق ٣٠٤، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ١٣٦، أسد الغَابَة: ٥ / ٥٢٢، التّاج الجَامِع للأُصول: ٣ / ٣٧١، نور الأَبْصَار: ٤٥، جوَاهر البحار للنّبهاني: ١ / ٣٦٠، مقتل الحُسَيْن للـخوارزمـي: ١ / ٥٤، مصابيح السُّنّة: ٢ / ١٦٧، تَأريخ الإِسْلام للذّهبي: ٢ / ٩٤، إحقَاق الحَقّ: ١٠ / ٢٧.

«هَؤُلاَءِ هُم أَهْل الْبَيْت: فَاطِمَة الزّهرَاء، وزوّجها عَليّ، وأولاَدهُمَا الْحَسَن، والحُسَيْن وأَحفَادهُمَا. وَلقَد زُرت مَكَّة، والْمَدِينَة، ووَقَفت بِكَربلاء، وعَبَرت الطَّرِيق إِلىٰ النَّجف والْكُوفَة، وتَمَثلتْ لِيّ فِي لَحظَة مَوَاقفهم.. وبطُولاتهم.. آستِشْهَادهم»[1].

«والسَّيِّدة فَاطِمَة أَصْغَر بنَات الرَّسُول، وأحَبّهُن إِلَيْهِ، وأُمّها خَدِيجَة الّتي رَدت السَّكِينَة، والأَمْن لرَّسُول الله، وَتَعَلمت مِنْهَا فَاطِمَة أَعظَم الدّرُوس، فَكَانَتْ تُضمد جِرَاح أَبِيها فِي غَزْوَة أُحُد، وتَقُوم وَحدها بِعَمل الْبَيْت لاَ يُعينَها أَحد، عَاشت عَلىٰ الكفَاف لاَ تَكذِب، ولاَ تَشكُو، وتُردد دَائماً قوْل أَبِيها: «طُوبَىٰ لِمَن هُدي لِلإِسْلاَم وكَان عِيشَه كفَافاً وَقَنع بِه»[2]. أَعرضَت عَن طِيب الدُّنْيا، وآستوىٰ عِندها الْغِنىٰ وَالْفَقْر، والرّاحَة والعَنَاء، والْمَوْت والْحَيَاة... وعَلَّمت وَلدها الْحَسَن دُعَاء يُردده: «الْحَمْد الله الَّذي لا يَنسىٰ مَن ذكره، ولاَ يَخِيب مَن دَعاه، ولاَ يَقطع رَجَاء مَن رَجَاه»[3].

وإِذَنْ يَحقّ لِلإِمَام أَنْ تَذهَب نَفْسه أسىً عَلىٰ بَضْعَة رَسُول الله ﷺ، وَيَندبهَا بِهَذه الكَلِمَة النَّائحة: (السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي، وَعَنِ ٱبْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ!).

---

(١) أنظر، جَرِيدَة «الأَخْبَار» المِصْرية بِتَأريخ: ٢١ ـ ٥ ـ ١٩٧٠م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٣٠٥/١٨، مُسْنَد الشّهاب: ٣٦١/١ ح ٦١٥ و٦١٦، رِياض الصَّالِحِين للنّووي: ٢٧٩ ح ٥١٣، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٣/٧، صَحِيح آبن حبّان: ٤٨٠/٢، موارد الظّمآن: ٦٣١/١، الجَامِع الصَّغِير: ١٣٨/٢ ح ٥٣٠٩، العهُود الْمُحَمدِية: ٧٠٨، كَشف الخفاء: ٤٩/٢ ح ١٦٨١، فيض القَدِير شرح الجَامِع الصَّغِير: ٣٦٤/٤ ح ٥٢٩٦.

(٣) أنظر، الكَافِي: ١٧٥/٢، تَأرِيخ دِمشق، تَرجَمة حيَاة الإِمَام الْحَسَن: ١٠ ح ٧.

روىٰ البُخَارِيّ: «إنّ النَّبيّ ﷺ دَعا فَاطِمَة فِي شَكْوَاه الَّذي قُبِض فيهِ فَبَكت، ولمّا أسرَّ إلَيْهَا بِشيء ضَحِكت، فَسَألتها عَائِشَة عَن بُكَائِها ثُمّ ضحكَها؟ فقَالت: سَارَّنِي إنّه يُقبَض فِي مَرَضَه هَذَا فبكِيت، ثُمّ سَارَّنِي أنّي أوّل أَهْل بَيْتَه أَتْبعه فَضحكت»[1].

(قَلَّ، يَا رَسُولَ اللهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَ رَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي). قَوْله: «صَفِيَّتِكَ» يُشِير إلَىٰ مكَانتهَا عِند الله، ورَسُوله. قَال الخَطِيب: «قَال رَسُول الله: عَلِيٌّ حَبِيب الله، والحَسَن والحُسَيْن صَفوة الله، وفَاطِمَة أَمَة الله، علىٰ بَاغضهُم لَعنَة الله»[2].

(إلاّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَ فَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ... إلخ). المُصاب بِفَقد السَّيِّدة بِضْعَة النَّبيّ ﷺ عَظِيم، وأَلِيم عَلىٰ قَلْبِ الإمَام، ولَكِنَّهُ جَلل إذَا قِيس بِفَقد رَسُول الله، وقَد صَبر الإمَام عَلىٰ هَذَا فبالأُولَىٰ أنْ يَصبر عَلىٰ ذَاكَ. ومِن أَقْوَاله: «إنْ صَبَرْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإنْ جَزِعْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»[3]. (فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ) كَأنّ الإمَام يَقول بِهَذا لِرَسُول الله: إنّه مَعهُ فِي عَقْله، ورُوحَه، وَجِسمَه بَعد أنْ اْنتَقل إلىٰ الرَّفِيق الأعْلىٰ

(١) أُنظر، صَحِيحه بَاب عَلاَمَات النُّبوَّة فِي الإسْلاَم. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٢٨٢/٦، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٨٣/٤ و: ١٠١، سُنن أبي داود: ٤٤٨/٢، السُّنن الكُبْرىٰ: ٩٦/٥ و: ١٢٩/١٠، نظم دُرر السّمطين: ١٧٩، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ١١٢/١٢، مُسْنَد ابن راهويه: ٨/٥، المُصَنَّف لِابْن أبي شَيبة: ٣٥٣/٨، فتح البَاري: ١٠٤/٨، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَد بن حنبل: ٧٧، صَحِيح ابن حبّان: ٥٨٢/١٤، مُسْنَد أبي داود: ٢٧٢.

(٢) أُنظر، تَأرِيخ بَغدَاد: ١/ ٢٥٩ طَبعَة ١٣٤٩ هـ، بِمِصْر. (مِنْهُ ﷺ). وأُنظر، لِسَان المِيزَان: ١٩٤/٤ ح ٥١٥ و: ٧٠/٥ ح ٢٣٤، أمَالِي الطّوسي: ٣٥٥ ح ٧٧، مِيزَان الإعْتِدَال: ٢١٧/٢، الطّرائف لِابْن طاووس: ٦٤ ح ٦٥، الصّراط المُسْتَقِيم: ٢٤٨/١، الجوَاهر السَّنِية: ٢٦٠، مناقب الخوارزمي: ٢١٤، كَشف الغُمة: ٩٤/١ و ٥٢٦، مَقتل الإمَام الحُسَيْن: ١٠٨/١، بِحَار الأَنْوَار: ٣٠٣/٤٣.

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة «٢٩١». عَزَّىٰ فِيها الأَشْعَث بْن قَيْسٍ عَن ابْنٍ لَهُ.

تَمَاماً كَمَا كَان مَعهُ فِي حيَاته (وَ فَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَ صَدْرِي نَفْسُكَ). تَقَدَّم ذَلِكَ[١].

(فَلَقَدِ ٱسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَ أُخِذَتِ الرَّهِينَةُ!). الْمُرَاد بالْوَدِيعَة، والرَّهِينَة السَّيِّدة أُمّ الحَسَنين، وكَانَتْ عِند الإِمَام عوضاً عَن رؤيَة رَسُول الله كَمَا تكُون الرَّهِينَة عوضاً عَن الأَمْر الَّذي أُخذت عَلَيْهِ عَلىٰ حَدّ مَا قَال ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد (أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ) دَائِم (وَ أَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ) كنَايَة عَن شدّة الآلام والأَتراح الّتي تَمنَع مِن النَّوْم[٢].

(وَ سَتُنَبِّئُكَ ٱبْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَىٰ هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ... إلخ). يُشِير بهَذا إِلىٰ قِصَّة فَدَك، ولِفَدَك فِي التَّأرِيخ الإِسْلاَمِي أدوَار، وأَخْبَار، وتَتَلخص بأَنّ فَدَكاً قَرِيَة فِي الحجَاز، وكَانَتْ ملكاً لِليهُود فصَالحُوا رَسُول الله عَلَيْهَا، ولمّا ٱنْتَقلت إِلَيْهِ وَهَبها لابنَته فَاطِمَة. وعَن كِتَاب «الدُّر المنثُور» للسِّيوطي عِند تَفْسِير قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[٣] إنّ رَسُول الله ﷺ دَعَا فَاطِمَة، وأعْطاهَا فَدَكاً... ولمّا قُبض النَّبيّ ٱنْتَزَعها أبو بَكْر من فَاطِمَة[٤]، ولَم يَردها عُمَرَ فِي عَهْدِه لِبضْعَة مُحَمّد ﷺ ولمّا جَاء عُثْمَانَ وَهَبها لمَرْوَان بن الحَكَم، وحِين تَوَلّىٰ عُمَرَ بن عَبد العَزِيز رَدها إِلىٰ أَوْلاَد فَاطِمَة، وبَعدَه ٱنْتَزعهَا مِنْهُم يَزِيد بن عَبد المَلك. ثُمّ رَدها السّفاح العَباسي إِلىٰ الفَاطِمِيين، ثُمّ أَخذها مِنْهُم المَنصُور الدّوَانِيقي وأَرْجعهَا إِلَيْهِمْ

(١) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (١٩٧). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٠/٢٦٥.

(٣) ٱلإِسْرَاء: ٢٦.

(٤) أُنظر، الدُر المنثور: ٤/١٧٧، لُباب النّقول للسيوطي: ١٢٢.

المَأمُون، وٱنْتَزَعها مِنْهُم المُتوكل، وٱنْتهىٰ عَهد الفَاطِميين بِفَدَك[1].

(سَلاَمَ مُوَدِّعٍ) لاٰ قَالٍ، ولاَ مُبْغِضٍ (وَ لاٰ سَئِمٍ) لاَ مَلُولٍ (وَإِنْ أُقِمْ فَلاٰ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ) إِنْ ٱخْتَرت المُقَام عِند قَبرك يَا رَسُول الله فأُقِيم عِنده وأنا صَابر ورَاضٍ بقَضَاءِ الله طَلَباً لثوَاب الصَّابرين، لاَ جَازعٍ، ولاَ مُتبرمٍ. وقَرِيب مِن هَذَا قوْل الرَّسُول الأَعْظمﷺ عِند مَوْت وَلده إِبْرَاهِيم: «تدمعُ العَيْن، ويحزنُ ٱلقَلْب فلا نقول ما يُسخِط الرّب؛ ولَوْلاَ أنّهُ قولٌ صَادق، ووعدٌ جَامع، وسَبِيل نَأتِيه، وأنّ آخرنا سيُتبعُ أوّلنا؛ لوجدّنا عَلَيْكَ أشدّ من وجدّنا بِكَ، وإنّا عَلَيْكَ يـا إِبْـرَاهِـيم لمحزونون»[2]. وروي أنّ النَّبيّﷺ، بَكىٰ عِند مَوْت صِاحبه عُثْمَانَ بن مَظْعُون[3].

---

(١) أُنظر، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ١٩١/٥، مِيزان الإِعْـتِدَال: ١٣٥/٣، بِشَـارة المُصطفىٰ: ٣٥٣، فَـتح القَـدِير: ٢٢٤/٣، إعْلام الوَرىٰ بأعْلام الهُدَى: ٢٠٩/١، كَشف الغُمة: ١٠٥/٢، العـدد الْـقوِيَّة: ١٩٥، جُـواهـر المطالب فِي مَناقب الإِمَام عَليّ لاِبْن الدِّمَشْقِي: ١٥٦/١، ينَابيع المَوَدَّة: ١٣٨/١.

(٢) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٢/ ٨٤ و ٨٥، كنز العُمَّال: ح ٤٠٤٧٩، السُّنن الْكُبْرَىٰ لِلبِيهقي: ٤/ ٦٩، الذِّكرىٰ: ٧٠، دَعَائِم الإِسْلاَم: ٢٢٤/١، بدَائع الصَّنائع: ٣١٠/١، المُغْنِي: ٤١١/٢، المحلىٰ: ١٤٦/٥، مُسْنَد أَحمد: ١٩٤/٣، صَحِيح مُسْلِم: ٧٦/٧، سُنَن آبن ماجه: ٥٠٧/١، سُنَن أَبِي داود: ٦٤/٢، مُسْـنَد أَبِي يـعلىٰ: ٤٣/٦، المُصَنَّف: ٢٦٧/٣، الإحكام للإِمَـام يحـيىٰ الهَـادي: ١٥٠، الكـافِي: ٢٦٢/٣، ذَخَـائِر الـعُقْبَىٰ: ٢٢٤/١.

(٣) هُو أبو السَّائب عُثْمَانَ بن مَظْعُون بن حَبيب الجُمَحِيّ القُرَشِيّ، كَان من حُكمَاء العَرَب فِي الجَاهلِيَّة، وكَان يُحرم الخَمر، أسلَم بَعد ثَلاثة عَشر رَجُلاً، صَحِب النَّبيّﷺ، هَـاجر إِلىٰ الحَـبشة مَـرتين، وأرَاد التَّـبتل والسِّياحة فِي الأَرْض زُهداً بِالْحَيَاة فمنعه رَسُول اللهﷺ، فأتّخذ بيتاً لِلعبَادة، وشَهد بَـدْراً مَـع النَّـبيّﷺ، وتوفّي بَعدها فِي السَّنَة الثَّانِيَة، وقيل فِي السَّنة الثَّالثَة من الهِجْرَة، وهو أوّل مَن مَات مُن المُهاجِرين وأوّل من دَفن بِالبَقِيع. أُنظر، أُسد الغَابَة: ٣٨٥/٣، الإِصَابَة فِي تَمْيِيز الصَّحَابَة: ٤٦٤/٢ رقم «٥٤٥٣»، العِبر: ٤/١، تَـفْسِير الثَّـعلبي: ٤١٤/٢، الطَّـبقَات الكُـبْرَىٰ: ٣٩٧/٣، الكَـامِل فِي التَّأرِيخ: ٢٢٦/٥، تَأرِيخ دِمشـق:

وَقَالَ كَاتب إنْجلِيزي: «نَجد كَـثِيراً مِـن ٱلْـقَصَص تَـدل عَـلَىٰ دَمَـاثة مُحَـمّد، وحسَاسِيّته. فَقَد بَكىٰ عَلىٰ ٱبن عمّه جَعفر، وأيضَاً بَكىٰ حِين رأىٰ ٱبنَة زِيـد بـن حَارثة تَبكي عَلىٰ أبِيهَا الَّذي قُتل مَع جَعفر[1]، وفِي ذَات يَوْمٍ رأىٰ طِفلاً حَـزِيناً، فسَأله عَن السَّبب فأجَاب الطِّفل بأنّ بُلبُله قَـد مَـات. فَـبَذل مُحَـمّد كـلّ جُـهده لِتعزِيَته»[2].

← ٥٠/٢٨٩ و: ٥٤/٩٢، مِيزَان الإِعْتِدَال: ٢/٣٥٤، صفُوة الصَفوة: ١/١٧٨، حُـلية الأَوْلِـيَاء: ١/١٠٢، تَأرِيخ الخَميس: ١/٤١١، سَير أعلام النُّبلاء: ١/١٥٩ و: ٥/٤٨١ و: ١١/١٣١.

(١) أُنظر، سير أعلام النُّبلاء: ١/٢٣٠، تَأرِيخ دِمشـق: ١٩/٣٧١، الطَّبقَات الْكُـبْرَىٰ: ٣/٤٧، الدَّرجَـات الرَّفيعة: ٤٣٩، فَيض القَدير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٣/٦٩٥ ح ٤١٨٣، الإخوَان لِابْن أَبِي الدُّنيا: ١٥٢، مُسكن الفؤاد: ٩٦، بحَار الأَنْوَار: ١٦/٢٣٦، مكَـارم الأَخـلاق للـطَّبرسي: ٢٢، مُسْـتَدرَك الوَسَـائِل: ٢/٤٦٤.

(٢) أُنظر، كتاب تُومَاس ووكَر آرند (تَعَالِيم الإِسْلاَم) Waiker Thomas Arnold _1

الخطبة

-٢٠٣-

الدُّنْيَا وَالْآخِرَة:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَ الْآخِرَة دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلاَ تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَ أَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَ لِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ للهِ آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً، وَ لاَ تُخْلِفُوا كُلًّا فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ.

اللُّغَة:

المَجَاز: المَمَر. والقَرَار: البَقَاء.

الْإِعْرَاب:

للهِ آبَاؤُكُمْ «للهِ» خَبَر مُقَدَّم، وآبَاؤُكُمْ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، واللاَّم الجَارة تُفِيد التَّعجب، ويَكُنْ عَلىٰ الجَزم بجُواب الأَمْر، فَيَكُونَ عَلىٰ النَّصب بِأَنْ مُضمرة بَعد الفَاء.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ) هِي طَرِيق، والْغَايَة الْقِيَامَة (وَ الْآخِرَة دَارُ قَرَارٍ) وخُلُود، لا مَوْت فِيها، ولا ٱنْتقَال مِنْهَا (فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ) أي ٱعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُمْ (لِمَقَرِّكُمْ). سُئِل النَّبِيّ ﷺ عَن أفضَل الأَعْمَال، فقَال: «بَذلُ السَّلاَم لِلعَالِمِ»[1]. وَقَالَ الإِمَـام: «بِئْسَ الزَّادُ إِلَىٰ الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَىٰ الْعِبَادِ»[2]. ومِن فضَل الله وَرَحمته أنّه جَعَل مُجَرد حُبّ الْخَيْر لِلنّاس، وَكَف الأَذَىٰ عَنْهُم وَسِيلَة لِمرضَاتِه، وثوَابه، قَال رَسُول الله ﷺ لأَبِي ذَرّ: «كُفَّ أذَاكَ عن النّاس، فإِنَّه صَدقة تَتصدَق بِها عَـلىٰ نَـفْسَكَ»[3]. (وَلاَ تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ). إِذَا عَمْلِتُم خَيراً فِي السِّر فلاَ تَنْطقُوا بِهِ وتَعْلنُوه أَمَام النَّاس، فـإِنّ الله يَـعْلَمه مِـنْكُم، ويُـثِيبكُم عَـلَيْهِ. وقِـيل: مَـعْنَاه لاَ تَتجَاهرُوا بِالمَعْصِيَة!. وهُو بَعِيد عَن دَلاَلَة اللّفظ.

(وَ أَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ). أي مِن حَرَامها: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ﴾[4]. (فَفِيهَا ٱخْتُبِرْتُمْ، وَ لِـغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ). خُلق الْإِنْسَان لِلبَقَاء، والخُلُود فُي الآخِرَة، أما الدُّنْيَا فَهِيَ لِمُجرد الاِخْتبَار والتَّمِييز بَيْنَ مَن يَسْتَحق النَّعِيمِ، ومَن يَسْتَحق الجَحِيم فِي دَار الْحِسَاب والْجَزَاء (إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟) مِن حُطَام الدُّنْيَا... وَهَذَا شَيء طَبِيعي، لأنّهم

(١) أنظر، كشف الخفاء: ٢/٤٩٥ ح ٣٠٨٨، الأَذْكَار النَّوويَة: ٢٤٣.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٢١).

(٣) أنظر، مُسْنَد أحمد: ٥/١٥٠، كنز الْعُمَّال: ١٥/٩٥٠ ح ٤٣٦٥١، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد: ٩/٢٨٨، نـوادر الرّاوندي: ٣.

(٤) ٱلأَعْرَاف: ٣٣.

أبْنَاء الدُّنْيَا، وَهِي هَمُّهُم وشُغْلهُم (وَ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟) وَهَذَا طَبِيعي أيضاً، ولأنَّهم مِن أَهْل الآخِرَة، ولا يَمُتّون إِلىٰ الدُّنْيَا بِسَبب.

(للهِ آبَاؤُكُمْ!). الآبَاء غَيْر مَقْصُودِين عَلىٰ الإطلاَق، والْقَصْد مُجَرد التَّعَجُب مِن ٱنْصرَاف المُخَاطَبِين عَن الآجِلَةِ الْبَاقِيَة إِلىٰ العَاجِلَة الفَانِيَة (فَقَدِّمُوا بَعْضاً) مِن عَمل الْخَيْر (يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً) أي دَيناً تَسْتَوفُونَه يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. وَفِيهِ إِيمَاء إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾(١). (وَ لاَ تُخْلِفُوا كُلًّا) لاَ تَترُكُوا للوَارِث كلّ أَمْوَالَكُم دُونَ أنْ تُنفِقُوا مِنْهَا شَيْئَاً فِي سَبِيل الله (فَيَكُونَ قَرْضاً عَلَيْكُمْ) إنْ أَنْفَقتُم كَان الدَّين لكُم، وإنْ أَمْسَكتُم كَان الدَّين عَلَيْكُم، تُحَاسَبُون عَلَيْهِ يَوْم الْقِيَامَة، ولاَ تَسْتَطِيعُون الوَفَاء.

---

(١) ٱلْبَقَرَةِ: ٢٤٥.

الخطبة

-٢٠٤-

تَجَهَّزُوا لِلرَّحِيلِ:

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَ أَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَ انْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً، وَ مَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لَابُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَ الْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَ اعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَ كَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَ قَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَ قَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ، وَ مُعْضِلَاتُ الْمَحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا، وَ اسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَىٰ.

اللُّغَة:

الْعُرْجَةَ ـ بضم الْعَيْن ـ الإِقَامَة. وانْقَلِبُوا: انْصَرفُوا. وكَؤُود: شَاقَة. ودَانِيَةٌ: جَادَة. والمَخَالِب: الأَظفَار. ونَشِبَتْ: عَلِقَتْ. ومُفْظِعَاتُ، وَمُعْضِلَاتُ: الخُطُوب والشَّدَائِد. وعَلَائِقَ: جَمع عَلَاقَة أي التَّعلق والارْتِبَاط: واسْتَظْهِرُوا: اسْتَعِينُوا.

الإِعْرَاب:

نَحْوَكُمْ نُصب عَلىٰ الظَّرفِيَة، لأنّ النَّحو هُنا بِمَعْنَىٰ الجِهَة، وَيَجُوز النَّصب بِنَزع

الخَافض أي إِلىٰ نَحْوَكُمْ .

الْمَعْنَىٰ:

هَذَه ٱلْخُطْبَة فِي مَعْنَىٰ الّتي قَبلها بِلا فَاصل : التَّزهِيد فِي الدُّنْيَا ، والتَّرغِيب فِي عَمل الْآخِرَة ، وتَكرَّر ذَلِكَ بِالعَشرَات ، ولِذَا نَمُرّ بهذه ٱلْخُطْبَة مُسْرعِين (فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ) . الأَصوَات مِلء الأَسْمَاع بِأنّ الرَّحِيل مِن هَذِه ٱلْحَيَاة إِلىٰ الْآخِرَة ـ وَشِيك ، فَٱسْتَعدُوا لهَا (وَ أَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَىٰ الدُّنْيَا) لاَ تَحْبسُوا أَعْمَالكُم عَلىٰ الدُّنْيَا وَحدَها ، وَتَنسُوا نَصِيبَكُم مِن الآخِرَة (وَ ٱنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ) . الْمُرَاد بِحَضْرَتِكُمْ الْقُدْرَة ، والاِسْتَطَاعَة ، والْمَعْنَىٰ مَا دُمتُم قَادرِين الآن عَلىٰ الْعَمَل فَتَزُودُوا بَالأَعْمَال الصَّالحَات ليَوْم فَاقتكُم .

(فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً ، وَ مَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً ، لاَ بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا) . وَهِي الْمَوْت وَسَكرَاته ، والقَبْر وَوَحْشَته ، والْقِيَامَة وأهوَالهَا : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1] .

(وَ ٱعْلَمُوا أَنَّ مَلاَحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ ، وَ كَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَ قَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ ... إلخ) . لاَ نَجَاة مِن الْمَوْت ، إنّه لَكُم بالمرصَاد ، وكأنّ ٱظفَاره قَد عَلقَت بِأَجْسَامكُم وقُلُوبَكُمْ (فَقَطِّعُوا عَلاَئِقَ الدُّنْيَا ، وَ ٱسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَىٰ) ٱزيلُوا حُبّها مِن قُلُوبَكُمْ ، وٱنظرُوا إِلَيْهَا كوَسِيلة لاَ كغَايَة (وَ ٱسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَىٰ) . ٱسْتَعِينُوا علىٰ عَذَاب الله بِتقوَاه ، فَلا مَهرَب مِنْهُ إلّا إِلَيْه .

(١) مَرْيَم: ٧١.

الخطبة

-٢٠٥-

مَع طَلْحَة وَالزُّبَيْر...فِقْرَة ١ ـ ٢:

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَ أَرْجَأْتُمَا كَثِيراً. أَ لَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ. أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَ اللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَ لَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَ لَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَ حَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَ مَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَ مَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ رَأْيِكُمَا، وَ لَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَ لَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَ إِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَ لَا عَنْ غَيْرِكُمَا[1]. وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَ لَا وَلِيتُهُ هَوىً مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَ أَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَ أَمْضَىٰ فِيهِ حُكْمَهُ. فَلَيْسَ لَكُمَا، وَ اللهِ، عِنْدِي وَ لَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَىٰ.

أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَ قُلُوبِكُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَ أَلْهَمَنَا وَ إِيَّاكُمُ الصَّبْرَ.

ثُمَّ قَال رَحِمَ اللهُ رَجُلًا رَأَىٰ حَقّاً فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَىٰ جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَىٰ صَاحِبِهِ(٢).

اللُّغَة:

إِرْبَةٌ: حَاجَةٌ وغَايَةٌ. وأَفْضَتْ: صَارَت. والأُسْوَةِ: القُدْوَة، ومُرَاد الإِمَام ٱتبَاع سُنَّة النَّبيّ ﷺ وَيجُوز أنْ يُرِيد التَّسوِيَة فِي قِسْمَة الأَمْوَال. والعُتْبَىٰ: الرُّجُوع عَن الإِسَاءَة وطَلَب الرِّضَا مِمَّنْ أَسَأتَ إِلَيْهِ.

الإِعْرَاب:

أَيُّ شَيْءٍ مُبْتَدَأ، وجُمْلَة دَفَعْتُكُمَا خَبَر، وَلَكُمَا فِيهِ حَقٌّ مُبْتَدَأ وخَبَر، والجُملة صِفَة شَيء، وفِي بَعْض النُّسَخ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ، وعَلَيْهِ فإنّ فِي «كَان» ضَمِيراً مُستتراً ٱسماً لِكَان، وجُمْلَة لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ خَبَر، والجُملة مِن كَان وٱسمهَا، وخَبَرها صِفَة شَيء، وأَنَا تأكِيد، وهَوىً مَفْعُول مُن أجْله لِوَلِيتُهُ.

الْمَعْنَىٰ:

(لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً). الخِطَاب لطَلْحَة، والزُّبَيْر، والْمُرَاد بِالَيسِير الَّذِي غَضبَا مِن أجْله الْمَصْلحَة الخَاصَّة، وبِالكَثِير الَّذي تَجاهلاَه مَصلحَة الإِسْلاَم وٱلْمُسْلِمِينَ، والْمَعْنَىٰ أنّ طَلْحَة والزُّبَيْر أثَارا الْفِتَن، وَسَفْكَا الدِّمَاء، وأَضَاعَا هَيْبَة الإِسْلاَم، وقُوَّة الْمُسْلِمِين، كلّ ذَلِكَ لأنّ الإِمَام لَمْ يَعط الْبَصْرَة لِطَلْحَة، والْكُوفَة لِلزُّبَيْر، وسَاوىٰ بَيْنهُما وَبيْن ٱلْمُسْلِمِينَ فِي الحقُوق.

وفِيمَا سَبق أشرنَا أنّ الْصَّحَابَة كَانوا يَخْتَلفُون فِيمَا بَيْنهُم، ولكن مَا مِن وَاحد مِنهُم حَدَّث نَفْسَه أنْ يَخرُج عَلىٰ الجَمَاعَة وَيَشهر السَّيْف حِرصاً عَلىٰ مَصلحَة الْإِسْلاَم... فَقَد كَان الإِمَام وحزْبَه يَرُون أنّه أحقّ النّاس بِالخِلاَفَةِ. وعَارضُوا مِن سَبَقه مِن الخُفَاء، ولكنْ بهدُوء، وبِالحُجّة لاَ بِالسَّيْف خَوْفاً من الْفِتْنَة وعوَاقبهَا، قَال سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

وفِي صَحِيح البُخَاريّ عَن رَسُول الله: «لاَ تَردّوا بَعدِي كِفارَاً يَضرِب بَعْضكُم رِقَاب بَعْض[2]... مَن خَرَج مِن السُّلْطَان مَات مِيتَة جَاهلِيَة»[3]. ولكنْ أَصْحَاب الجَمَل، وصِفّين يُرِيدُون الحُكم، والإِسْتِئْثَار وَلو عَلىٰ دِين الجَاهِلِيَّة.

(أَلا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ... إلخ؟) أَيُّ حَقٍ ٱسْتهنتُ بِهِ خَاصاً كَان أَم عَاماً؟ صَحِيح إنّي مَلكت دُونكُمَا وقَسّمتُ، ولكنْ هل ٱسْتَأْثرْتُ بَشيء أو آثرْتُ أحداً مِن أهْلِي دُونَ النَّاس؟ أَلا تَريَان إنّي أُقدر نَفْسِي وأَهْلِي بضَعَفَة الرَّعِيَّة، أو تَرَيَانِي جَاهِلاً بدِين الله، أو حرَّفته ٱسْتجَابَة للأَهوَاء والأَغْرَاض؟

وقَد أجَاب التَّأرِيخ عَن هَذِه التَّساؤلاَت.

قَال الكَاتب المِصْري أحمد عبّاس صَالح: «إنّ طَلْحَة والزُّبَيْر لَمْ يُظهرَا حَقِيقَة

---

(١) ٱلأَنفَالِ: ٢٥.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاريّ: كِتَاب الْفِتَن. (مِنْهُ ﷺ). وفي صَحِيح البُخَاريّ طَبعة أُخرىٰ: ٢٥٩٤/٦ ح ٦٦٦٨ و: ٩١/٨، مَجْمَع الزّوائـد: ٢٨٣/٦، المُعْجَم الأوسـط: ٢٦٩/٤ ح ٤١٦٦، تَغلِيق التَّعليق: ٢٤٥/٥، مُسْتَدرَك سَفِينة البحَار: ١٧٥/٦.

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٢٥٨٨/٦ ح ٦٦٤٥ و: ٨٧/٨، تَلخِيص الحَبِير: ٤٣/٤ ح ١٧٣٣، فَتح البَاري: ٦/١٣ ح ٦٦٤٥، رِياض الصَّالحِين للنّووي: ٣٣٩ ح ٦٦٩.

مَقْصَدهُما مِن خَلع الْبَيْعَة لِعَلِيٍّ، فَهُما خَلعَاهَا لأمْرين:

الأَوَّل: لِطَمَعهُما فِي ٱلْخِلاَفَةِ.

وَالثَّانِي: لإبْقَاء الأَوْضَاع الاجْتِمَاعِيَة القَائِمَة»[1] أي فِي عَهد عُثْمَانَ.

وَقَالَ: «ثَار طَلْحَة وَالزُّبَيْر بِعَلِيّ لِطَمَعهُما فِي ٱلْخِلاَفَةِ، وإنَّهُما يَكرهَان أيضاً مَا يَتصُورَان أنّه مُغَالاة فِي تَطبِيق المبَادىء الإِسْلاَمِية»[2].

(وَ اللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ... إلخ). أرَد الْمُسْلِمُون عَلِيَّاً بَعد مَقتل عُثْمَانَ، وَقَصَدُوه بِالْبَيْعَةِ فتوقف، وَقَالَ: «أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[3].

وَظَلت ٱلْخِلاَفَة شَاغِرَة (٥) أيَّام، وقيل: (٨) أيَّام. وبَعد إلحَاح وإصرَار الْمهَاجِرينَ والأَنْصَار، ومَن حَضَر مِن غَيْرهم ـ ٱسْتجَاب الإِمَام. وتَقَدَّم الكلاَم عَن ذَلِكَ مُفصلاً[4]. (فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَ مَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَٱتَّبَعْتُهُ... إلخ). كَان الإِمَام هُو الصِّرَاط الْقَوِيم لِلعِلم بِكتَاب الله، وسُنّة نَبِيّه بِشَهادَة العَدِيد مِن الأَحَادِيث النَّبَوِيَّة، مِن ذَلِكَ:

١ ـ «أنَا مَدِينَه الْعِلم، وعَلِيٌّ بَابهَا»[5].

---

(١) أُنظر، كِتَابه «اليمين واليسَار في الإِسْلاَم»: ١١٨، طَبعَة سَنَة (١٩٧٢م).

(٢) أُنظر، كِتَابه «اليمين واليسَار فِي الإِسْلاَم»: ١١٧، طَبعَة سَنَة (١٩٧٢م).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٩٢).

(٤) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (٩٢). (مِنهُ ﷺ).

(٥) روىٰ هَذَا الحَدِيث الحَاكِم فِي مُستَدرك الصَّحِيحين: ٣/ ١٢٦ طَبعة حَيدر آبَاد سَنَة ١٣٢٤ هـ، والخَطِيب فِي تَارِيخ بَغدَاد: ٣/ ١٢٧ طَبعَة بِمصْر سَنَة ١٣٤٩ هـ، وَٱبن حَجر فِي تَهذِيب التَّهذِيب: ٦/ ٢٣٠ طَبعَة حَيدر آبَاد سَنَة ١٣٢٥ هـ. والحَافظ فِي الرِّيَاض النَّضرة الطَّبعة الأُولَىٰ بِمصْر. وغَيْر ذَلِكَ مِن الكُتب (أُنظر: ٢/

⇔ فَضَائِل الْخَمْسَة مِن الصِّحَاح السِّتة). (مِنْهُ ﷺ).

وأُنظر، أبن عساكر فِي تَأرِيخ دمشق / ترجمة الإِمَام علي ﷺ: ٣ / ٤٦٧، والمناقب لِابْن المغازلي: ٨١، صَحِيح التِّرمِذي: ٢ / ٢٩٩ ح ٣٨٠٧، سُنن التِّرمِذي: ٥ / بَاب ٨٧ / ٣٠١، الطَّبراني فِي الْمُعْجَم الْكَبِير: ٣ / ١٠٨، و: ١١ / ٥٥ / ١١٠٦١، الْحَاكِم فِي المنَاقب: ٢٢٦، مُسْتَدرَك الصَّحِيحين: ٣ / ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٩، أسنىٰ المطالب للجزري: ٧٠ و ٧١، تَأرِيخ بغداد: ١١ / ٢٠٤ و ٤٨ و ٤٩ و: ٢ / ٣٧٧ و: ٤ / ٢٤٨، و: ٧ / ١٧٢، لِسَان الميزان لِابْن حجر: ١ / ١٩٧ تحت رقم ٦٢٠، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٧٣ و ١٢٠ و ١٢٢ / ٩ طَبْعَة الْمُحَمَّدية، تهذيب التّهذيب: ٦ / ٣٢٠، و: ٧ / ٤٢٧، تذكرة الحفّاظ: ٤ / ٢٨ طَبْعَة حيدرآباد، نزل الأبرار: ٧٣، كتاب الفِرْدَوْس لأبي شجاع الدّيلمي: ١ / ٧٦ / ١٠٩، مَوَدَّة القُربىٰ: ٢٤، مصَابيح السُّنَّة للبغوي: ٢ / ٢٧٥، الجَامِع الْصَّغِير للسيوطي: ١ / ٣٧٤ ح ٢٧٠٥ و ٢٧٠٤ طَبْعَة مصطفىٰ مُحَمَّد، مُنْتَخَب كنز الْعُمَّال بهامش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٣٠، وكنز الْعُمَّال: ٦ / ١٥٢ و ١٥٦ و: ١١ / ٦١٤ / ٣٢٩٧٩، و ٦٠٠ / ٣٢٨٨٩، و: ١٣ / ١٤٧ / ٣٦٤٦٢ و ٣٦٤٦٣، و: ١٥ / ١٢٩ / ٣٧٨ الطّبعة الثّانِيَة، ٱلْفَتْح الْكَبِير للنّبهاني: ١ / ٢٧٢ و ٢٧٦، البداية والنّهَايَة لِابْن كثير: ٧ / ٣٥٨، كنوز الْحَقَائِق للمناوي: ٤٣ و ٤٦ طَبْعَة بولاق و ٣٧ طَبْعَة أُخرىٰ، مَجْمَع الزّوائد للهيثمي: ٩ / ١١٤.

تلخيص الشّافِي: ٣ / ٢١، دَلاَئِل الصِّدْق للشيخ المظفر: ٢ / ٣٣٢ و ٤٣٩ و ٤٤١ و ٥٢٠، ٱلصِّرَاط الْمُسْتَقِيم للعلّامة البياضي: ٢ / ١٩، حلية الأَوْلِيَاء: ١ / ٦٤ و ٦٣، عبقات الأَنْوَار: ج ٥ و ١٠ خاصّ بحديث مَدِينة العِلم طَبْعَة الهند، فرائد السِّمطِين: ١ / ٩٨، شواهد التّنزيل للحافظ الحسكاني: ١ / ٣٣٤ / ٤٥٩ و ٨١ / ١١٨ و ٨٢ / ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ طَبْعَة أُخرىٰ، الرّياض النّضرة: ٢ / ١٩٣ و ٢٥٥ الطّبعة الثّانِيَة، أسمىٰ المناقب: ٧٦، أمالي الشّيخ الصّدوق: المجلس السّادس والخمسون ح ٨، والمجلس الحادي والسّتون ح ١١، ٱلبِحَار: ٤٠ / ٢٠٠ و ٢٠١، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٢ / ٣٦، الغدير: ٦ / ٦١ ـ ٨٥، و: ٧ / ١٩٨ و ١٩٩.

وراجع فَضَائِل الْخَمْسَة: ٢ / ٢٤٨ و ٢٥٠، جَامع الأُصول: ٩ / ٤٧٣ / ٦٤٨٩، شرح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٣٦ طَبْعَة بيروت، و: ٧ / ٢١٩ طَبْعَة مِصْر بتحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل، اللآلي المصنوعة: ١ / ١٧١، تَأرِيخ جرجان: ٢٤، إحقاق الْحَقّ: ٥ / ٤٧٠ و ٤٨٣، ميزان الإِعْتِدَال للذّهبي: ١ / ٤١٥ و ٤٣٦ تحت رقم ٤٢٩، و: ٢ / ٢١٥، و: ٣ / ١٨٢، و: ٤ / ٩٩، أسد الغَابَة: ٤ / ٢٢، تَأرِيخ دمشق لِابْن عساكر ⇔

٢ ـ «عَليّ مَع ٱلْقُرْآن، والْقُرْآن مَع عَليّ»(١).

↔ الشّافعي / ترجمة الإمَام علي عليه السلام: ٢ / ٤٥٩ / ٩٨٣ و ٤٦٤ و ٤٧٦ حَدِيث ٩٨٤ و ٩٨٦ و ٩٩٧.

نظم درر السّمطين للزرندي الحنفي: ١١٣ المناقب لابْن المغازلي: ٨٠ و ٢١٢ حَدِيث ١٢٠ ـ ١٢٦ و ١٥٨ / ١٢٦ طَبْعَة آخر و ٨٦ / ١٢٨، الاِسْتِيعَاب بهامش الإِصَابَة: ٣ / ٣٨، فيض القدير للشوكاني: ٤٦/٣، كفاية الطّالب للكنجي الشّافعي: ٢٢٠ طَبْعَة الحيدرية و ٩٩ طَبْعَة الغري /٥٨.

وراجع أيضاً فتح ٱلملك العلي بصحة حَدِيث بَاب مدينة العِلْم عليّ لأَحْمَد بن مُحَمَّد الصِّدِّيق المغربي طبع سَنَة ١٣٠٤ هـ بالمطبعة الإِسْلاَمِيّة بِمِصْر ٣ ـ ٥ و ١٤ ـ ١٦، و ٢٢ ـ ٢٤ و ٢٨ و ٢٩ و ٤٠ ـ ٤٤ و ٥٤ و ٥٥ طَبْعَة الحيدرية. يَنَابِيع المَوَدَّة للحافظ القندوزي: ٦٥ و ٧١ و ٧٢ و ٨١ و ١٧٩ و ١٨٣ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٣٤ و ٢٥٤ و ٢٨٢ و ٤٠٠ و ٤٠٧ طَبْعَة إسلامبول و ٢١١ و ٢١٧ و ٢٧٨ و ٣٠٣ و ٣٣٨ ط الحيدرية، و: ٣ / ١٢٢ و ١٩٨ و ٢٠٤. و: ٢ / ٢٩٢، و: ١ / ١٣٧ و ٢١٨ و ٢٢٠ و ٢٢٢ تحقيق السّيّد علي جمال أشرف الحُسَيْني، مقتل الحُسَيْن للخوارزمي الحنفي: ١ / ٤٣، تذكرة الخواصّ لسبط ٱبن الجوزي: ٤٧ و ٤٨، إسعاف الرّاغبين للصبّان بهامش نور الأَبْصَار: ١٤٠ و ١٧٤. تَارِيخ الخُلَفَاء للسيوطي: ١٧٠ و ١٠٧ طَبْعَة آخر.

(١) رواه ٱبن حَجر فِي صواعقه المُحْرِقَة: ٧٥ طَبعه مِصْر سَنَة ١٣١٢ هـ، والحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٣ / ١٢٤. (مِنْهُ رحمه الله). أنظر، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين: ١٩/٣ و ١٢٤، مُسْنَد الرّضا: ٢٠٨، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٤ طَبعَة المُحَمدية بِمِصْر، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٢٤/١ و: ٩٦/٣ ح ٢٣٤، مناقب أمير المُؤْمِنين لمُحَمّد بن سَعيد الكُوفي: ٦١٦/٢، أمَالي الشّيخ الطّوسي: ٤٦٠، الإِحْتِجَاج: ١٧٧، كشف الغُمة: ١٤٨/١، كفَاية الطّالب: ٢٥٣، تَأريخ ٱبن عساكر: ١٢٠/٢، المُعْجَم الصَّغِير: ٢٥٥/١، المُعْجَم الأوسَط: ١٣٥/٥، مَجْمَع الزّوائد: ٢٣٥/٧ و: ١٣٤/٩، تَأريخ الخُلَفَاء للسّيوطي: ١٧٣، أسعاف الرّاغبين بهامش نور الأَبْصَار: ٧٣، المعيار والموَازنة: ٤٦، الجَامِع الصَّغِير: ١٧٧/٢، ح ٥٥٩٤، كَنز العُمَّال: ٦٠٣/١١ ح ٣٢٩١٢، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ٢٩٧/١١، صَحِيح التِّرمِذي: ٢٩٧/٥ ح ٣٧٩٨ و: ١٢٦/١٢، وجَامع التِّرمِذي: ٢١٣/٢، التَّفسِير الكَبِير للفخر الرّازي: ٢٠٥/١، فيض القَدير: ٣٥٦/٦، تَأريخ بَغداد: ١٤ / ٣٢١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ٧٨، شَرح الأَخْبَار للقَاضي النّعمان المغرِبي: ٦٠/٢، رَبيع الأبرار للزّمخشري: ٨٢٨/١، فرَائد السّمطِين: ١ / ١٧٧ ح ١٣٨، المناقِب لِابْن المغازلي: ١١٧ و ٢٤٤، العقد الفريد: ١٠٨/٣ الطّبعة الثّالثة، تَأريخ ٱبن عساكر ترجمة الإِمَام عَليّ: ١١٩/٣ ح ١١٦٢ و: ٤٤٩/٤٢، أنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٢٨١

↔

٣ ـ جَاء فِي تَأرِيخ بَغدَاد: أنّه قِيل: يَا رَسُول الله عَمّن نَكتُب العِلم (بعدك)؟. فقَال: «عَن عَليٍّ، وسَلْمَان»[1].

وقَد شَاع، وٱشتهر أنّ ٱلصَّحَابَة كَانوا بَعد النَّبيّ ﷺ يرجعُون إلىٰ الإِمَام فُي مُهات الشَّرِيعة. وعَلىٰ سَبِيل المثال أنّ أبَا بَكْر سُئل عَن حُكم المَأبُون، فَرجع فِيهِ إلىٰ الْصَّحَابَة، ومَا وَجَد الجَوَاب إلّا عِند الإمَام، فَعَمل بِهِ[2]. وٱشتَهر عَن ٱلْخَلِيفَة الثَّانِي قَوْله: «لَوْلاَ عَليّ لهَلك عُمَرَ... أعوذ بِالله أنْ أعِيش فِي قَوْم لَيْس فِيهِمْ أبو الْحَسَن»[3]، وجَاء فِي موطأ مَالك: «إنّ عُثْمَانَ أَخَذ بقُول عَليّ في طَلَاق المَرِيض،

⇐ الطّبعة الأُولَىٰ. فضل آل ٱلبَيْت للمَقْرِيزي: ٦٠، جوَاهر المطالب فِي مناقب الإمَام عَليّ لِابن الدّمَشْقِي: ٣٤٣/١. المُلل والنّحل: ١٠٣/١.

(١) أنظر، تَأرِيخ بَغدَاد: ٤ /١٥٨، فَضَائِل الخَمْسَة: الجزء الثّانِي. (مِنْهُ ﴿رَحمه الله﴾).

أُنظر، كفاية الطالب: ١٠٣ وص ٢٢٥ طَبْعَة أُخرىٰ بَاب ٥٩، تَأرِيخ جرجان: ٦٤. لِسَان المِيزان: ١٧٣/١ ح ٥٥٢، مِيزَان الإِعْتِدَال في نقد الرّجال: ٢٣٤/١ ح ٣٧٧، الكَامِل لِابن عَدِيّ: ١٩٥/١ ح ٣٦.

(٢) نَقل هَذَا صَاحب «فَضَائِل الخَمْسَة» عَن كَنز العُمّال: ٣ / ٩٩. (مِنْهُ ﴿رَحمه الله﴾).

(٣) تَقَدّم إستخرَاج ذَلِكَ مفصلاً، وأنظر، فرائد السّمطين: ١/٣٤٨/ ٢٧٢، و ٣٥٠/ ٢٧٦، فتح البَاري فِي شرح البُخَاريّ: ٣٤٣/١٣ و ١٧ / ١٠٥، تأويل مختلف الحَدِيث: ١٦٢/١ فَيض القَدير: ٣٥٧/٤/٤، تَهذِيب الكَمَال: ٤٨٥/٢٠، صفْوة الصّفوة: ٣١٤/١، الإسْتِيعَاب: ١١٠٣/٣، الطَّبقات الْكُبْرَىٰ: ٣٣٩/٢، الإِصَابَة: ٥٦٨/٤، المدخل إلىٰ السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٣٠/١ ح ٧٨.

المناقب لِابن شهرآشوب: ٣٥٨/٢ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٥، وٱلبِحَار: ٢٢٣/٤٠ و ٢٢٦ تهذيب التّهذِيب: ٢٩٦/٧ و ١٠ / ٩٤، تَأرِيخ دمشق لِابن عسَاكر ترجمة الإِمَام عَليّ ﷺ: ٣ /٩٣ و ٤١ / ١٠٧١ و ١٠٧٠ بتحقيق الشّيخ المحمودي، الرّيَاض النّضرة: ٢ / ١٩٥ و ١٩٦، و: ١٦٣/٣ و ١٦٤ و ١٦٥ وذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٧٩ ـ ٨٢، مطالب السّؤول لِابن طَلْحَة الشّافعي: ١٣، والمناقب للخوارزمي الحنفي: ٣٩ و ٤٨ و ٦٠ و ٦٥ و ٨١، والفخر الرّازي فِي الأَرْبَعِين: ٤٦٦. وروى أبن الجوزي فِي كتاب الأذكياء: ١٨، وفِي كتابه أخبار الظّرّاف: ١٩، تذكرة الخواصّ: ٨٧ و ١٤٨.

⇔

وفِي أقَل مُدة الحَمل[1] ... حَتَّىٰ مُعَاوِيَةَ كَان يَسأل الإِمَام عَن أَحْكَام الشَّرِيعة.

فَفِي الاِسْتِيعَاب: «إنّ مُعَاوِيَةَ لمَا بَلَغَه قَتل الإِمَام.

قَال: ذَهَب الفِقْه والعِلم بمَوْت آبن أَبِي طَالب.

فقَال لهُ أَخوه عُتْبَة: لا يَسمع مِنْكَ هَذَا أَهْل الشَّام.

فقَال لهُ: دَعنِي عَنْكَ»[2].

وإذاكَان الإِمَام هُو المَرْجِع الأَوَّل فِي العِلم بَعد رَسُول اللهﷺ ... حَتَّىٰ لمُعَاوِيَةَ ـ فَهل يَحتَاج إلىٰ مَشُورَة طَلْحَة، والزُّبَيْر؟.

↩ كنز العُمَّال: ٣ / ١٧٩، و: ٥ / ٢٤١ و ٤٥١ وح ١٣٥٨٤، مصباح الظّلام: ٢ / ٥٦، المسترشد في إمَامَة أَمِير المُؤمِنِين للحافظ مُحَمّد بن جرير الطَّبَرِيّ الإمامي: ٦٥٤ تحقيق أحمد المحمودي. وفِي كتاب أحمد بن حنبل ـ فضَائِل الصَّحَابَة ـ عن سعيد بن المسيّب قَالَ فِي: ٢ / ٦٧٤، تهذيب التّهذيب: ١ / ٣٣٧، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٦، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٢١، نور الأَبْصَار: ٧٤، أرجح المطالب: ١٢١ و ١٢٤، الإِصَابَة: ٤ ق ١ / ٢٧٠، فيض القدير: ٤ / ٣٥٧، فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة: ٢ / ٢٩٠ و ٣٠٩، علي إمام المُتّقِين للشرقاوي: ١ / ١٠٠ و ١٠١، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري، والمفيد فِي الإِرْشَاد: ٩، وآبن البطريق فِي العمدة: ٢ / ٤، والمَعْرِفَة والتَّأْرِيخ: ١ / ٤٦٢، والبداية والنِّهَايَة لِابْن كثير: ٦ / ٢٠١، ومُسْنَد زيد: ٣٣٥ الطّبعة الثّانِيَة دار الكتب الإِسْلاَمِيّة طهران.

(١) أُنظر، موطّأ مَالك: كتَاب الحُدُود ١٧٦. و: ٢ / ٥٧٢ بَاب طلاَق المَرِيض ح ١١٨٣، وما بَعده.

(٢) أُنظر، الاِسْتِيعَاب لِابْن عَبد البر: ٢ / ٤٦٣ و: ٣ / ١١٠٨ طَبعَة أُخرىٰ، الاِسْتِيعَاب المَطبوع بهَامش الإِصَابَة: ٣ / ٤٠، الشَّرف المؤبد: ٩٥، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٧٩، الفُتُوحَات الإِسْلاَمِية: ٢ / ٤٥٣، فَتح المَلك العَلِيّ للغماري: ٤٤ و ٧٤ طَبْعَة أُخرىٰ، تَأْرِيخ آبن عساكر: ٤٢ / ٥٨٣، المناقب للخوارزمي: ٣٩١ فصل ٣٦ ح ٤٠٨، فرَائد السّمطِين: ١ / ٣٧٢ ح ٣٠٣ و ٣٠٤، نظم دُرر السّمطِين: ١٣٤، البحار: ٣٣ / ١٧٢ ح ٤٥١، الجوهرة في نسب الإِمَام عَلِيّ وآله: ٧٤، العدد القَوِيَّة: ٢٥٠ ح ٦١، جوَاهر المطالب فِي منَاقب الإِمَام عَلِيّ لِابْن الدِّمَشْقِي: ١ / ٢٩٧.

وَقَد ٱشتهر عَنْه قَوْله: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»(١). ومَا تَجـرأ عَلىٰ مثلهَا أَحد مِن الْصَّحَابَة، ولوْلاَ إجْمَاع الكَلِمة عَلىٰ عِلمه لسَكَت عَنْهَا تَجَنُباً للرِيب والتُّهمة.

(وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي... إلخ). سَاوىٰ النَّبيّ ﷺ فِي الْعَطَاء بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، ومِثله فَعل أبو بَكْر مِن بَعده، وخَـالفَهُما عُمَرَ، وعُثْمَانَ(٢)، ولمّا ٱنْتهت ٱلخِلاَفَة إِلىٰ الإِمَام عَاد سِيرَة رَسُول الله ﷺ، فعَارض طَلْحَة، والزُّبَيْر، وأَصْحَاب المرَاكز المُمتازة، عَارضوا لاَ من وِجْهَة إِقْتصَادِيّة وكفىٰ،

---

(١) أُنـظر، نَهـج ٱلـبَلاَغَة: مـن كـتابٍ لهعليه السلام رَقـم (١٨٩)، تـفْسِير الطَّـبَرِي: ٢٢١/١٣، المُسْـتَدرَك عـلىٰ الصَّحِيحِين: ٣٨٣/٢ ح ٣٣٤٢ وص: ٥٠٦ ح ٣٧٣٦، السُّـنن الوَاردة في الفِـتن: ٨٣٨/٤ ح ٤٢٨ و: ١١٩٦/٦ ح ٦٦٤، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٧٦، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٨٣، مُعتصر المُختصر: ٣٠٢/٢، كنز الْعُمَّال: ١٦٥/١٣ ح ٣٦٥٠٢ و: ٦١٢/١٤ ح ٣٩٧٠٩، تَأريخ مدِينة دمشـق: ٣٣٥/١٧ و: ٣٩٧/٤٢، سـير أعلام النُّبلاء: ٢٥٧/٦، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣٣٨/٢، حـلية الأَوْلِـيَاء: ٦٧/١، كشـف الغُـمة: ١١٤/١، المَنَاقب للخوارزمي: ٩١، شَرح نَهْج ٱلْبَلاغَة لِابْـن أَبِي ٱلْحَـدِيد: ٢٨٦/٢، شرح الأَخْـبَار: ٩١/١ و: ٢٩٣/٣، الخُلَفَاء الرَّاشدون: ٦٣٧، تَهذِيب الكَمَال: ٧٩/٥، سير أعلام النُّـبلاء: ٢٥٧/٦، تَأرِيخ بـغداد: ١٩٣/٢، تَفْسِير فُرات الكُوفي: ٦٨، عُيُون الحِكم والمَوَاعظ: ٢٨٥، المـعيَار والمـوازنـة: ٨٢، الرِّيـاض النَّضرة: ١٩٨/٢، تَأرِيخ اليَعقوبِي: ١٩٣/٢، كَشف الغمّة: ١١٤/١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٠٨/١.

(٢) أُنظر، المجمُوع: ٣٨٣/١٩ و ٣٨٥، المـبسُوط للسّرخسي: ١٣٢/٢٧، البَحر الرَّائق: ٢٠٠/٥، حَاشية رَدّ المُحتار: ٤٠٣/٤، المُغْني لِابْن قُدَامـة: ٣٠٩/٧، نـيل الأوطـار: ٢٣٥/٨، تهـذِيب الأَحْكَـام: ١٤٦/٦، الغَارات: ٧٧/١، أخبَار عُمَرَ بن الخَطَّاب للطنطَاوي: ١٢٢، فتُوح البُلدان للـبلاذري: ٤٣٥، الفَـخري للطَقطقي: ٦٠، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٢٣٣/٣، الخَرَاج لأبي يوسف: ٥١، الكَامِل لِابْـن الأثـير: ٢٤٧/٢، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد: ٢١٤/١٢، تَأرِيخ الطَّبَرِي: ٦١٤/٣، الأَحْكَـام السُّـلْطَانِية: ١٧٧، الأموال لأَبِي عُبَيْدَة: ٢٢٦، فَتح البَاري: ٦/١٢، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شيبة: ٥٨٠/٨ ح ١٤، شرح مَعَانِي الآثَار: ٣٠٩/٣، فِيض القَدير: ٦١٨/١، تَفْسِير القُرطُبِي: ٢٣٩/١٤، الفصُول فِي الأُصول للـجصَّاص: ٣٠٩/٣ و: ٥٤/٤، الأَحْكَام لِابْن حَزم: ٧٩٨/٦، أُصول السَّرخسي: ٣١٦/١، المُستصفىٰ للغزَالي: ٢٨٧، الأَحْكَام للآمُدي: ٢٨٧/٣ و: ٤١/٤، أُسد الغَابَة: ٧١/٤، الإِصَابَة: ٢٠٢/١.

بَل كَرْهاً لمَبدأ المُسَاوَاة، لأنّ التَّقسِيم مَعنَاه أنّ عَلِيّاً يُنفذ سُنّة النَّبيّ فِي تسَاوِي البَشر فِي جَمِيع الحقُوق، فلاَ فضَل لعَربِي، ولاَ لقُرشي، ولاَ لصحَابِي إلاّ بِالتَّقْوَىٰ[1]، وإلاّ يَوْم الْقِيَامَة حَيْث الحِسَاب، والجَزَاء، لاَ في الدُّنْيَا... وَهَذَا هُو الهَدم والتَّهدِيد لِنفُوذ طَلْحَة، والزُّبَيْر وغَيْرهما من «الشَّامخِين» وكَان عُمَرَ قَد خوّفهُم، وحـذّرهُم مـن وِلاَيَة عَليّ بقَوْله: «إنْ وَلِيها الأَجْلَح لِيحكُمَـنكُم عَلىٰ المحَـجّة البَيْضَاء، والصِّراط المُسْتَقِيم»[2]. وَقَالَ الأُستاذ أحمَد عبّاس صَالح «كَان عَليّ يَطلب مِن كلّ مُسلِم أنْ يَكُون عَلىٰ طُرَاز رَسُول الله، أو عَلىٰ طُرَازه هُو حَتَّىٰ يَتحقق الإِسْلاَم فِي صـورَته المُثلىٰ»[3].

(فَلَيْسَ لَكُمَا، وَ اللهِ، عِنْدِي وَ لاَ لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَىٰ). هَذَا إشَارة إلىٰ الْـعَدْل والمُسَاوَاة، والعُتْبىٰ الرّضا، والمَعْنَىٰ إنّ الإِمَام عَلىٰ بَصِيرة مِن دِينه يَمضِي فيهِ، ويَصّبر عَلَيْهِ، ولاَ يُسخط الله برضَا النَّاس مَهماكَانَتْ الظّرُوف والنَّتَائج (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا رَأَىٰ حَقّاً فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَىٰ جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَىٰ صَـاحِبِهِ). لاَ خَـير فِيمَن لاَ يُقاوم الْفَسَاد، والجَوْر، ولاَ يُناصر الحَقّ والعَدْل. قَال رَسُول الله ﷺ: «مَن

---

(١) أُنظر، تَأريخ اليَعقوبي: ٢/٩١، نيل الأوطار: ٥/١٦٤، حِلية الأَوْلِيَاء: ٣/١٠٠، فَتح البَاري: ٦/٥٢٧، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٣/٣٧٥ ح ٤٤٩٤، شُعب الإِيمَان: ٤/٢٨٩ ح ٥١٣٧، مُسْنَد أحمد: ٥/٤١١ ح ٢٣٥٣٦، المُعجَم الأوسط: ٥/٨٦ح ٤٧٤٩، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٩/١١٨، سُبل الهُدىٰ والرَّشاد: ٥/٢٤٢، بحَار الأَنْوَار: ٧٣/٣٥٠ ح ١٣، العقد الفَريد: ٢/١٨٥.

(٢) أُنظر، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٥/١٨، شَرح نَهج البَلاَغَة لاِبْن أَبِي الحَدِيد: ١٢/٢٥٩، الفَتْح المُبِين: ٢/١٨٠، الاِسْتِيعَاب: ٣/١١٥٤، الطَّبقَات الكُبْرىٰ: ٣/٣٤٢.

(٣) أُنظر، كِتَابه «اليَمِين واليَسَار فِي الإِسْلاَم»: ١٢٠، طَبعَة سَنَة (١٩٧٢م).

رَأىٰ مُنْكَراً فَلِيُغَيِّرهُ بِيده، فإنْ لَمْ يَستَطع فبقَلْبه، وذَلِكَ أَضْعَف الإِيمَان »[١].

وتَسْأَل: إنّ تَقدِيم اليَد عَلىٰ اللِّسَان يَتنَافىٰ مَع ما هُو مَعرُوف شَرعاً، وعَقلاً، وعُرفاً مِن تَقدِيم اللِّسَان عَلىٰ اليَد حَيْث يجب أوّلاً النَّهي عَن المُنْكَر، فإنْ لَمْ يُجدِ فالحَرْب؟

الجَوَاب:

فَرقٌ بَيْنَ تَغيير المُنْكَر، وبَيْنَ النَّهي عَنْهُ، فإنّ النَّهي فِي الغَالب يَكُون قَبل الوقُوع، فهُو أشبَه بالوقَايَة، أمّا تَغيير المُنْكَر فَيكُون بَعد وقُوعَه، ومَوْضُوع الحَدِيث الشَّرِيف تَغيير مَا وَقع بِالفِعْل مِن المُنْكَر، لا النَّهي عن اَرْتكَابه قَبل الوقُوع.

(١) أُنظر، صَحِيح أبن حبّان: ١/٥٤٠ ح ٣٠٦، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرىٰ: ٧/٢٦٥ ح ١٤٣٢٥، سُنَن أَبِي داود: ١/٢٩٦ ح ١١٤٠، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٤٦٩ ح ٢١٧٢، سُنَن النِّسائي: ٨/١١١ ح ٥٠٠٨ و ٥٠٠٩، سُنَن أبن ماجه: ١/٤٠٦ ح ١٢٧٥، مُسْنَد أحمد: ٣/٢٠ ح ١١١٦٦ و ١١٥١٠، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٢/٤١٤ ح ١٢٠٣، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣/٥٤٤ ح ٥٦٩٨، التَّمهيد لِابْن عبد البر: ١٠/٢٥٨، شَرح السّيوطي: ٨/١١١ ح ٥٠٠٨، نِيل الأَوطَار: ٣/٣٧٤.

الخطبة

-٢٠٦-

لا تكُونُوا سَبَّابِين:

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَ ذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَ أَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَ قُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: أَللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ، وَ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَ بَيْنِهِمْ، وَ اهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَ يَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَ الْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.

اللُّغَة:

ذَاتَ الشَّيء نَفْسَه، وذَاتَ الصَّدور بوَاطنهَا، وذَاتَ الشِّمَال جِهتهَا، وذَاتَ البِين الحَال، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ هُو الْمُرَاد هُنا أي أَصلح حَالَنا وحَالَهُمْ، ويَرْعَوِيَ عَن الشّيء: يَنْصَرف عَنْهُ ويَرجَع، ولَهِجَ بِهِ: وَلع بِهَ.

الإعْرَاب:

سَبِّكُمْ مِن اضَافة الْمَصْدَر إِلىٰ فَاعِل، وإِيَّاهُمْ مَفْعُول سَبِّكُمْ، وذَاتَ مَفْعُول بِـهِ

لأَصْلِحْ، لِأَنَّهَا بِمَعْنَىٰ الحَال كَمَا أشرنَا، وبَيْنِنَا مَجرُور بِالإضَافة، ويَعْرِف منصُوب بِأَنّ مُضمَرَة بَعْد حَتَّىٰ.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: سَمِع الإِمَام قوماً مِن أَصْحَابه يَسْبُّونَ أَهْل الشَّـام أَيَّـام حَرْبِهم بِصِفِّين فقَال: (إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ). قَال أَكْثَر الْعُلَمَاء: لاَ يَحِل لأحدٍ أنْ يَذكر آخر بِجَرِيمَة ٱقْتَرفَها إلّا إذَا أَعْلنهَا الْمُجرم، وجَاهر بِها غَيْر مُكتَرِث بِمَا قِيل ويُقَال[1]. وعَن الْإِمَام جَعْفَر الصَّادق عليه السلام: «إذَا جَاهر الْفَاسِق بِفُسْقه فَلا حُرمَة لهُ ولاَ غِيبَة»[2]. أمّا السَّب واللَّعن فهُو مُحرم بِالذَات، ومِن أكْبَر الكبَائر بخَاصَّة عَلىٰ الطَّيِّبِين الأَخْيَار... ولاَ يَحل عَلىٰ أحدٍ بحَال إلّا بالإذن والتَّرخِيص مِـن صَـاحب الدِّين والشَّرع، وقَد أَذن بِذَلِكَ فِي موَارد، مِنْهَا:

١ـ ٱللَّعْنَةُ عَلىٰ إِبْلِيسَ، قَال تَعَالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[3].

٢ـ كلّ مَن يَكتُم الْحَقّ، أو يُحَرفه عَن قَصدٍ، قَال سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ

(١) أُنظر، كِتَابنا: «الْغِيبَة هَدم لاَ بِنَاء» طَبعَة سَنَة ١٩٨١م.

(٢) أُنظر، السَّرائِر لِابن إدريس: ٣/٦٤٤، أمَالي الشَّيخ الصَّدُوق: ٩٣ ح ٨، وَسَائِل الشّيعَة: ١٢/٢٨٩ ح ٤، وفِي لفظٍ: «لَيْس للفَاسق غِيبَة»، كمَا فِي كنْز الْعُمَّال: ٣/٥٩٥ ح ٨٠٧١، الْمُعْجَم الْكَبِير: ١٩/٤١٨، الجَامع الصَّغِير: ٢/٤٦١ ح ٧٦٥٠، فَيض القَدِير شَرح الجَامع الصَّغِير: ٥/٤٨١، الكَامِل لعبدالله بن عَدي: ٢/١٧٤.

(٣) ٱلحِجْر: ٣٥.

وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[١].

٣ ـ كلّ مُنَافق دَجَال، قَال عزّ مَن قَائل: ﴿لَّـئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّـذِينَ فِـى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَـلِيلاً مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا﴾[٢].

٤ ـ المُفْسدُون، قَال عَظُمت كَلِمَته: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّـعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[٣]. وبِخَاصَّة إذَا كَان الْفَسَاد بِالظُّلْمِ حَيْث خَصّ سُبْحَانَهُ الظَّالمِين صَرَاحة: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٤].

ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ أهْل صِفِّين ظَلمُوا وأفْسَدُوا فِي الأَرْضِ، وقَد نَعتهُم النَّبيّ ﷺ بِالْفِئَة الْبَاغِيَةُ، ولذَا جَاز قِتَالهُم، فَيَجُوز سَبُّهُم بطَرِيق أَوْلَىٰ. وعَلىٰ هَذَا فَنَهيُ الإِمَام هُنا محمُول عَلىٰ أنّ التَّرك أَوْلَىٰ، وإنّ غَيْر السَّب أفضَل وأجدىٰ، وهُو مَا أَشَار إِلَيْهِ بقَوْله: (وَ لَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَ ذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْـقَوْلِ). وَهَذَا الَّذي ذَكَره الإمَام بَالغ الأهْمِية والأَثر وهُو مِن أَحدَث أسَـاليب الحَـرْب فِي العَصر الحَدِيث، ويُسمىٰ بِالحَرْب الدّعَائِية، وَهِي اقنَاع الرّأي العَام بِأنّ الخَصم هُو البَاغِي والمُتعدِي، وإنّه لا يُقِيم وَزناً لِلقوَانِين الدُّولِية، ولاَ لِلقِيم الإِنْسَانِية... وقَد ضَرب الْمُسْتَعمرُون والصَّهَاينَة الرّقم القِيَاسِي فِي الدّعَـايَات الكَـاذبة، وتَـلاعبُوا بِالأَلْفَاظ، والعُقُول، والحقَائِق... إنّهم يَعْتَقدُون وَيَقُولون: نَحْنُ المُـعتدىٰ عَـلَيْهِمْ،

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٥٩.

(٢) ٱلْأَحْزَاب: ٥٩ ـ ٦١.

(٣) ٱلرَّعْد: ٢٥.

(٤) هُود: ١٨.

وَيَقتلُون بالجُملة ويقُولُون : نَحْنُ أَنْصَار السِّلم ، والْعَدْل .

وقَد أثبَتَت التَّجَارِب أنّ أيّة قَضِيَّة مَهما كَانَتْ حـقّاً وَعَـدلاً فـإِنَّهَا تَحـتَاج إِلىٰ الدّعَايَة والدُّعَاة ، لأنّ التَّأثِير النَّفسي مِن قِوىٰ التَّنفِيذ لِلحَق ، وإِبْطَال الْبَاطِل ، وَهَذَا مَا أرَاد الْإِمَام بقَوْله : (وَ أَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ) أمّا قَوْله : (كَانَ أَصْوَبَ فِي الْـقَوْلِ) فـإنَّه يُشِير إِلىٰ وجُوب الأخذ بِالْعَدْل ، والإِنْصَاف حَتَّىٰ مَع أَعدىٰ الْأَعدَاء ، وإنّه لاَ يَحل الاِفْتِرَاء عَلَيْهِ بمَا هُو بَريء مِنْهُ عَملاً بقَوْله تَعَالىٰ : ﴿وَلَايَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّاتَعْدِلُوا۟ٱعْدِلُوا۟هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] .

(أَللَّهُمَّ ٱحْقِنْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ ، وَ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَ بَيْنِهِمْ) . الْمُـؤْمِن الْمُخْلص يَكظِم غَيظَه ، ولاَ يَشفِيه بِالاِنْتقَام مِن عَدُوّه ، والتَّنكِيل بِهِ ، ويَسأَل الله سُبْحَانَهُ أنْ يَصلح الحَال ، ويُزِيل مَا فِي نَفْس الْعَدُوّ مِن أوهَام وأضْغَان ، وأنْ يَهدِيه سَبِيل الْخَيْر والرَّشَاد . كَمَا قَال الرَّسُول الأَعظم ﷺ : «أَللَّهُمَّ آهْدِ قَومِي فإِنَّهُم لاَ يَـعْلمُون»[2] . وأيضاً هَذَا الدُّعَاء مِن الدّعَايَة الحَكِيمَة الْعَادِلَة ضِدَّ الْعَدُوّ الخَصم .

---

(١) ٱلْمَائِدَة : ٨.

(٢) أُنظر ، تَفْسِير ابن كَثِير : ٥٦٩/٣ ، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب : ٢٢٣/١ ح ٨٥٥ و : ٤٢٢/٣ ح ٥٣٢٦ ، فَتح البَاري : ٢٨٢/١٢ ح ٦٥٣٠ ، الأَحَادِيث المُختَارة : ١٤/١٠ ، تَأويل مُختَلف الحدِيث : ١٥٩/١ ، سُنَن آبن مَاجه : ٢٩١/١ ح ٤٠٢٧ ، مناقب آل أبِي طالب : ١٦٦/١ ، الشّفا بتعرِيف حقوق المُصطفىٰ : ١٠٥/١ ، الدُّر المنثُور : ٢٩٨/٢ ، تَفْسِير الثَّعالبي : ١٠٤/٢ ، فَتح القَدِير : ٦١/٢ ، تَأرِيخ آبن عساكر : ٢٤٧/٦٢ ، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ : ١٨٢/١ ، عِصمة الأنبِيَاء للفخر الرَّازي : ٧٨ ، عُيُون الأثر لِابْن سيّد النّاس : ٤٢١/٢ ، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد : ٤٨١/١ .

الخطبة

-٢٠٧-

نَسْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

آمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ بِهَذَيْنِ - يَعْنِي الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ عليهما السلام - عَلَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

اللُّغَة:

آمْلِكُوا عَنِّي: خُذُوا عَنِّي. وأَنْفَسُ بِهَذَيْنِ: أَبْخَل بِهِما.

الإِعْرَاب:

لَا يَهُدَّنِي - بِفَتح الدَّال - عَلىٰ نَصب المُضَارع، لأنّ الأصل لِئَلا يَهُدَّنِي.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: فِي بَعْض أَيَّام صِفِّين رأىٰ الإِمَام وَلدَه الْحَسَن عليه السلام: يُسرع إِلىٰ الْحَرْب فَقَالَ لأصحَابه: (آمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي). الْحَسَن والحُسَيْن

هُما آبنَا رَسُول الله شَرعَاً وعُرفاً، لقَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[1] ومَا دَعَا النَّبيّ ﷺ أحداً مِن الأَبْنَاء غَيْر الْحَسَن والحُسَيْن، ومِن ٱلنِّسَاء غَيْر فَاطِمَة، ومَا كَان مِن الأَنْفُس إلّا هُو وَالإِمَام بِاتفَاق الْمُفَسرِين[2]. وَقَالَ ﷺ: «لِكلّ نَبيّ عُصبَةٍ يَنتَمُونَ إليهِ إلّا وِلد فَاطِمَة فأنَا

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٦١.

(٢) تَقَدَّم آستخراج ذَلِكَ، وأُنظر، دَلاَئِل النُّبوَّة لأبي نعيم: ١ / ٢٩٧، فرائد السِّمطِين للحمويني: أوائل السّمط الثّانِي ح ٣٧١، السِّيرَة الحَلَبِية للحلبي الشّافعي: ٣ / ٢١٢ طَبْعَة البهية بمِصْر، السِّيرَة النَّبويَّة لزين دحلان بهامش السِّيرَة الحَلَبِية: ٣ / ٥، أحْكَام ٱلقُرآن للجصاص: ٢ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ طَبْعَة عبدالرَّحْمَان مُحَمَّد بمِصْر و ٢٩٥ الطَّبعة الثَّانِيَة تحقيق الفمحاوي، التّسهيل لعلوم التّنزيل للكلبي: ١ / ١٠٩، فتح البَيَان فِي مقاصد ٱلقُرآن: ٢ / ٧٢، زاد المسير لِابْن الجوزي: ١ / ٢٩٩، جامع الأُصول لِابْـن الأثـير: ٩ / ٤٧٠، تـفْسِير الحبري: ٥٠، المُسْتَدرَك لِلحَاكِم: ٣ / ١٥٠، تَأرِيخ دمشق لِابْن عساكر: ١ / ٢٥٥ الطّبعة الثّانِيَة، تَفْسِير الجلالين للسيوطي: ١ / ٣٣ طَبْعَة مِصْر و٧٧ طَبْعَة دار ٱلكِتَاب العَرَبِي بيروت.

أُنظر، فتح القدير للشوكاني: ١ / ٣١٦ الطّبعة الأُولىٰ و٣٤٧ الطّبعة الثّانِيَة طَبْعَة مصطفىٰ الحلبي بمِصْر، تَفْسِير أبن كثير: ١ / ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٦، و: ٢ / ٥٢ طَبْعَة بيروت. تَفْسِير الكشّاف للزمخشري: ١ / ٢٦٨ طَبْعَة قم و ٣٧٠ طَبْعَة بيروت، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٣ / ٢٩٧ ـ ٢٩٩ طَبْعَة دار الكتب العلمية بيروت وص ١٩٢ و ٣٣٠ و ٣٠١ طَبْعَة الميمنية بمِصْر، و: ٢٢ / ٦، خُلَفَاء الرَّسُول للعلّامة البحراني: ١٠٧، تَأرِيخ أبن كثير: ٥ / ٥٣ و ٥٤ طَبْعَة السّعادة سَنَة ١٣٥١، إمْتَاع الأَسْمَاع للمَقْرِيزِي: ٥٠٢.

وراجع أيضاً الرِّياض النّضرة للطبري الشّافعي: ٢ / ٢٤٨ الطّبعة الثّانِيَة، الإتْحَاف فِي نسب الأَشْرَاف للشبراوي الشّافعي: ٥، مَعَالِم التّنزيل للبغوي بهامش تَفْسِير الخازن: ١ / ٣٠٢، مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١ / ١٨ طَبْعَة النّجف، صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ٣٦٠ بشرح النّووي، و: ٧ / ١٢٠ طَبْعَة مُحَمَّد عليّ صبيح، و: ٤ / ١٨٧١ طَبْعَة مِصْر تحقيق مُحَمَّد فؤاد، و: ١٥ / ١٧٦ طَبْعَة مِصْر، خصائص الوحي المبين: ٦٨ الفصل ٧، صَحِيح التِّرمِذي: ٤ / ٢٩٣ / ٣٠٨٥، و: ٥ / ٦٣٨ / ٣٧٢٤ و ٣٠١ / ٣٨٠٨ فِي بَاب فَضَائِل أمِير ٱلمُؤمِنِين، مُسْنَد أحمد: ١ / ١٨٥ طَبْعَة الميمنية، و: ٣ / ٩٧ / ١٦٠٨ طَبْعَة دار المعارف، تَفْسِير القُرطُبِي: ٤ / ١٠٤، أحْكَام ٱلقُرآن لِابْن عربي: ١ / ٢٧٥ الطّبعة الثّانِيَة طَبْعَة الحلبي و ١٧٥ طَبْعَة السّعادة،

أبوّهُم، وأنَا عُصْبَتُهم»... وتَقَدَّم الكَلاَم عَن ذَلِكَ[١].

وَتَسْأَل: إنّ الإِمَام الحَسَن وِلِـد فِي شَهـر رَمـضَان المُـبَارك سَـنَة ثَـلاَث مِـن الْهِجْرَة[٢]، وَوَقْعَة صِفّين كَانَتْ سَنَة (٣٦) فَيَكُون عُـمُره الشَّرِيـف (٣٣) فَكَـيف

⇔ صَحِيح مُسْلِم: بَاب فَضَائِل عليّ بن أبي طـالب: ٢/ ٣٦٠ طَـبْعَة عِـيسَىٰ الحـلبي، و: ٤/ ١٨٨٣/ ٦١، الأَرْبَعِين المنتقاة: بَاب ٣٨، كفاية الطّالب: ٦٤١ بَاب ٣٢ و ٨٥٥٤ و ١٤٢ طَبْعَة الحيدرية.

ولاحظ أيضاً لباب النّقول فِي أَسْبَاب النّزول: ٧٥ الطّبعة الثَّانِيَة، شواهد التّنزيل: ١/ ١٢٠ و ١٢٩ ح ١٦٨ و ١٧٠ ـ ١٧٣ و ١٧٥، تَفْسِير الفخر الرّازي: ٨/ ٨٥ و ٨٦ طَبْعَة البهية بِمِصْر، و: ٢/ ٦٩٩ طَبْعَة دار الطّباعة العامرة بِمِصْر، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ١٢/ ٦٨/ ١٢١٤٢، ذَخَـائِر الـعُقْبَىٰ: ٢٥، تـذكرة الخواصّ للسبط ٱبن الجوزي الحنفي: ١٧ طَبْعَة النّجف، الدُّر المنثور للسـيوطي: ٢/ ٣٨ و ٣٩، تَـفْسِير البيضاوي: ٢/ ٢٢ طَبْعَة بيروت، فرائد السّـمطِين: ١/ ٣٧٨/ ٢٠٧، و: ٢/ ٢٣/ ٣٦٥ و ٢٥٠/ ٤٨٤ ـ ٤٨٦.

(١) أنظر، فِي شَرح ٱلخُطْبَة: «٢٠٢» فِقْرَة، فَاطِمَة. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر الْإِرْشَـاد للشّـيخ المُـفيد: ٢/ ٥ تَحـقيق مُـؤسّسة آل الـبَيْت عليهم السلام و: ٢٠٥ طَـبْعَة قـدِيم، البـحار: ٤٣/ ٢٥٠/ ٢٦، و: ٤٤/ ١٣٤/ ١، و: ٣، ٤٤/ ١٣٦/ ٤، ٤٤/ ١٦١/ ٣١، الكَافِي: ١/ ٤٦١، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣/ ١٩١ لكن فِيهِ زِيَادَة: وقيل سَنَة ٱثنَتين، وفِي التَّهذيب: ٦/ ٣٩ لكن بلفظ: ٱثنتين من الْهِجْرَة، ومثل ذَلِكَ روىٰ الدولابيّ فِي الذُّرية الطّاهرة والشّهيد فِي الدّرُوس: ١٥٢، وكَشـف الغُـمّة: ١/ ٥١٤ و ٥٨٣، ومثل ذَلِكَ ـ أي ثلاث من الْهِجْرَة ـ روىٰ الجنابذي، وٱبن الخشّاب.

وأُنظر دَلاَئِل الْإِمَامَة: ٦٠، وكَذَا فِي تُحفَة الظُّرفاء، وكتَاب الذَّخيرة وكتَاب المُجتبىٰ فِي النَّسب، وتَذكرة الخوَاص: ٢٠١، العدد القَوِيّة (مخطوط): ٤، البحار: ٩٨/ ١٩١، تَهذِيب تَأريخ دمشق لِابْـن عـساكـر: ٤/ ١٩٩، مطالب السّؤول: ٦٤، عُيُون المُعجزات: ٥٩، المصباح للكفعمي: ٢٢٥، الْإِصَـابَة: ١/ ٣٢٨، الاِسْتِيعَاب: ١/ ٣٦٨، المقاتل: ٥٩، تَأرِيخ الخُلَفَاء: ٧٣، دَائرة المعارف للبُستاني: ٧/ ٣٨ ذكر هَؤُلآء أَنّ ولادته عليه السلام كَانَتْ فِي السَّنة الثّالثة من الْهِجْرَة فِي النّصف من شهر رَمضان، وقِيل: إِنّ ولادته كَانَتْ فِي السّنة الثّانِيَة كَما وردت فِي بَعْض المصادر.

ولكن جَاء فِي شذرات الذّهب: ١/ ١٠ أَنّ ولادته كَانَتْ فِي الخَامس من شهر شَعبان وهُـو ٱشـتبَاه ⇔

أَطلق الإِمَام عَلَيْهِ كَلِمَة غُلاَم؟.

الجَوَاب:

جَاء فِي قوَامِيس اللُّغَة إنّ كَلِمَة غُلاَم لِلكَبِير والصَّغِير، وإنّ الْعَرَب يَطلقُونَهَا عَلَىٰ الذَّكر سَاعة ولاَدته، ويقُولُون: رُزق فُلاَن غُلاَماً، وعَلَىٰ مَن طَرَّ شَارِبُه، وعَلَىٰ الكَهل[1].

← ظاهر إذْ لَم يَنص أحد المُؤرّخين عَلى ذَلِكَ. ولعَله اشتبه بالإِمَام الحُسَيْن عليه السلام فإنّ ولادته كَانَتْ فِي الخَامس من شهر شَعبان، وقِيل فِي الثّالث. وورد اشتباه آخر من قبل الأُستاذ مُحمّد فَرِيد وَجدي فِي دَائرة المعارف: ٤٤٣/٣ حَيْث ادّعىٰ أنّ ولادة الإِمَام الْحَسَن عليه السلام كَانَتْ قَبل الْهِجْرَة بستِ سِنين... وهذا مُخالف لإجْمَاع المُؤرّخين حَيْث إنّه قَبل الْهِجْرَة لَمْ يَكُن الإِمَام عَليّ عليه السلام مُتزوجاً بِبضْعَة الْمُخْتَار صلى الله عليه وآله فَكيف يَكون ذَلِكَ؟!

وقَد عَلّق صاحب مرآة الْعُقُول: ٣٩٠ عَلىٰ الرَّأيين الأوّل، والثّاني أي أنّه وِلد سَنَة ثَلاث من الْهِجْرَة وقِيل سَنَة اثنتين من الْهِجْرَة بأنّه لاَ مُنَافاة فِي ذَلِكَ بنَاءً عَلىٰ أنّ مَبدأ التَّأريخ عِند البَعض فِي شهر رَبيع الأوّل لأنّ الْهِجْرَة كَانَتْ فِيهِ وبنَاء الصَّحَابَة عَلَيْهِ إلىٰ سَنة ستين ولذَا تَكُون ولاَدة الحَسَن سَنَة اثنتين من الْهِجْرَة، أمّا إذَا كَان مَبدأ التَّأريخ شَهر رَمضان السَّابق عَلىٰ شهر رَبيع الأوّل الَّذي وَقعت فِيهِ الْهِجْرَة لأنّه أوّل السَّنة الشَّرْعِيّة فتكُون ولاَدة الْحَسَن عليه السلام سَنَة ثَلاث من الْهِجْرَة... وَهَذَا الجَمع رَافع للتّعارض بَيْنَ الْقَوْلين... (بتصرّف).

(١) أنظر، الغَرِيب لابْن قُتَيْبَة: ٣٨٣/١، الغَرِيب للخطابِي: ٢٠٧/١، الفَائق: ٢٦٦/١، النِّهَاية فِي غَرِيب الحَدِيث: ٣٥٤/١، لِسَان الْعَرَب لاِبْن منظور: ١٢٤/٢ و: ١٠٦/٣.

الخطبة

-٢٠٨-

كُنْتُ أَمِيراً فَأَصْبَحْتُ مَأْمُوراً

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَىٰ مَا أُحِبُّ، حَتَّىٰ نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُونَ!

الْمَعْنَىٰ:

جَاء فِي كِتَاب «الإِمَامَة وَالسِّيَّاسَة» مَا نَصه بِالحَرف: «لمّا عَظُم الأَمْـر -أي فِي صِفِّين- وآسْتَحَر الْقِتَال قَال لِلإِمَام رَأس مِن أَهْل الْعِرَاق: إنّ هَـٰذه الْحَـرْب قَـد أَكلتنا، وأَذْهبَت الرِّجَال، والرّأي المُوادعَة، وَقَالَ بَعضهم: لاَ، بل نُقَاتِلهُم اليَـوْم عَلىٰ مَا قَاتلنَاهُم عَلِيهِ بِالأَمس، وكَانَتْ الجَماعَة قَد رَضِيت المُوادعَة، وجَنَحَت إِلىٰ الصُّلح، والمُسَالَمَة، فقَام عَليّ خَطِيباً، فقَال: (أَيُّهَا النَّاسُ...). وذكر آبن قُتَيْبَة هَذِه

ٱلْخُطْبَة كما هي في نَهْج ٱلْبَلاَغَة بِلا تَقْلِيم أو تَطْعِيم[1].

((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَىٰ مَا أُحِبُّ... إلخ). كُنْتُم صَفاً وَاحداً عَلىٰ حَرْب أهْل الشَّام، كما أَحْببت، وأَردت، وَمَضِيتُم فِي قِتالهُم علىٰ هُدىً، وبَصِيرَة مُخْتَارِين لا مُكرَهِين، ولمّا ٱشتَدَت نَار الحَرْب، وهنْتُم، وتخَاذلتُم، وَتفَرَقت كَلِمَتكُم... أبهَذا تكِيدُون عَدُوّ الله وعَدُوّكم؟ (وَ قَدْ، وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَ تَرَكَتْ). أجْل، لَقد ٱسْتُشْهِدَ مِنْكُم فِي هَذِه الْحَرْب من ٱسْتُشْهِدَ كأيّة حَرْب مِن الحُرُوب، ولكن بَقِي مِنْكُم مَا فِيهِ الكفَايَة وزِيَادَة، فٱمضُوا فِي الْجِهَاد قُدماً حَتَّىٰ النَّصر، ومَا هُو مِنْكُم بِبَعِيد (وَ هِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ) أي نَالت الْحَرْب مِنْهُ أَكْثَر مِمَّا نَالت مِنْكُم.

(لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً) تَسْمَعُون لِي وَتَطِيعُون قَبل حَرْب صِفِّين (فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ ـ أي بعد الْحَرْب ـ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً). كَان الإمَام يَنْصَح أَصْحَابه، ويُرشدهُم سوَاء السَّبِيل، ويَدَع الخَيَار لهُم فِيمَا يَرُون، وقَد نَهَاهُم عَن قَبُول التَّحكِيم، وبَيّن لهُم أنّ رَفع الْمَصَاحِف حِيلَةً، وَغِيلَةً، فأصرُّوا عَلىٰ الضَّلاَل، وسَكَت هُو دَفعاً للضَّرر الأشَد بالضَّرر الأخف. وسَبق الكلاَم عَن ذَلِكَ مِرَاراً[2].

(وَ قَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ) ومَا أَحبَّ ٱلْحَيَاة قَوْم إلاّ ذَلُّوا (وَ لَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُونَ!) لأنّ الْجِهَاد فَرِيضَة كَالصَّلاةِ وعَلىٰ الإِنْسَان أنْ يُؤدِيها بِمِلء إرَادَته. بِالاِضَافَة إِلىٰ أنّ الْقِتَال بِلا إِيمَان، وقنَاعة لا يُحقق الغَرض المَطْلُوب، ورُبَّمَا أدىٰ إِلىٰ

---

(١) أنظر، «الإمَامَة وَالسِّيَاسَة» لاِبن قُتَيْبَة: ١١٨، طَبعَة ١٩٥٧م. (مِنْهُ رحمه الله).

و: ١٣٨/١ تَحقِيق الشِيري، و: ١٠٤/١، تَحقِيق الزّيني، الْفُتوح لاِبْن أَعْثَمْ: ٣٠٨/٢، وَقْعَة صِفّين: ٤٨٤.

(٢) أنظر، الخُطبَة: ١٢٢. (مِنْهُ رحمه الله).

عَكسَه. وهَذِه هِي سِيرَة رَسُول الله ﷺ فِي جَمِيع حُرُوبَه، يُنَادِي مُنَادِيه بِالْحَرْب، فَمن ٱستجَاب لهَا فَقد ٱسْتجَاب لله، وَرَسُوله، ومَن تَخَلف عَنْهَا وأَعرَض فحِسَابَه عَلىٰ رَبّه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[1].

---

(١) ٱلأنفَال: ٦٤.

الخطبة
-٢٠٩-

الْعَلَاءُ وَأَخُوه عَاصِمَ:

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَ أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ ؟ وَ بَلَىٰ إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَة : تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَ تَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَ تُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَة.

فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ. قَالَ: وَ مَا لَهُ ؟ قَالَ: لَبِسَ الْعَبَاءَةَ وَ تَخَلَّىٰ عَنِ الدُّنْيَا. قَالَ: عَلَيَّ بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ:

يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَ وَلَدَكَ! أَ تَرَىٰ اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَ هُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ ذَلِكَ!

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَ جُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ!

قَالَ: وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!

اللُّغَة:

تُطْلِعُ: تُظْهِرُ، أو تُؤَدِّي. ومَطَالِعَهَا: مَوَاضِعَهَا. ويُقَدِّرُ: يُقِيسُ، أو يُشَبه. ويَتَبَيَّغَ:

يُهيج بِهِ.

الإِعْرَاب:

مَا للاِسْتفهَام مُبْتَدأ، وكُنْتَ زَائِدَة، وجُملة تَصْنَعُ خَبَرَ المُبْتَدأ، وَوَيْحَكَ كَلِمَة تَرَحّم، ونُصبت بِفعل مَحذُوف أي أَلزَمك الله وَيْحاً أي رَحْمَة، وتُستعمل للتَّوجع والتَّعجُب، وكَأَنْتَ الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثل خَبَراً لِلَيْسَ أي لَسْتُ مِثلك.

لاَ سَلْبِيَة فِي الإِسْلاَم:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: كَان الإِمَام بِالْبَصْرَة، فَدَخل عَلىٰ الْعَلاَء بن زيَاد الحَارِثِي يَعُوده، وهُو مِن أَصْحَابه، فلمّا رأىٰ سِعَة دَاره، قَال: (مَاكُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟). الإِنْسَان يُحبّ ٱلحَيَاة، والمَال بِطَبعه، والإِسْلاَم لاَ يَنهىٰ عَن الثَّرَاء المَشرُوع، ولاَ يَكْرَه الرّفَاهِية، والطَّيّبَات مِن ٱلرِّزْق: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1] شَرِيطَة أنْ يَكُون هَذَا الثَّرَاء عُوناً عَلىٰ الْحَقّ، ووَسِيلة لمَرضَاة الله، وثوَابه، لاَ لِلطُّغيَان، والمُضَاهَاة، والمُبَاهَاة. قَال رَسُول الله ﷺ: «مَن طَلب الدُّنيا مُكَاثِراً مُفَاخِراً لَقِي الله، وهُو عَلَيْهِ غَضْبَان، ومَن طَلَبهَا ٱستعفَافاً وصِيَانةً لِنَفسه جَاء يَوْم الْقِيَامَة، ووَجْهَه كالْقَمَر لَيْلَة البَدْر»[2]. وَقَالَ رَجُل لِلإِمَام جَعْفَر الصَّادق عليه السلام: «إنّا

(١) ٱلأَعْرَاف: ٣٢.

(٢) أنظر، مُسْنَد إسحاق بن رَاهويه: ١/٣٥٣ ح ٣٥٢، مُسْنَد عَبد بن حَميد: ١/٤١٨ ح ١٤٣٣، نوَادر ↔

لِنُحبّ الدُّنْيَا. فقَال لِي: تَصنع بِها مَاذا؟ قَلتُ: أَتزوّج مِنْهَا، وأحجّ، وأُنفق عَلىٰ عِيَالي وأُنِيل إِخْوَاني وأَتصَدق. قَال الْإِمَام: لَيْسَ هَذَا مِن الدُّنْيَا، هَذَا مِن الْآخِرَة»[1].

وأيضاً يَأمر الإِسْلاَم بِالعِلم، والْعَمَل، ومُمَارسة ٱلْحَيَاة بحلوهَا ومرها، ومُشاركة المُجتَمع فِي سَرَائِه وضَرَائِه، والتَّعاون مِن أجل حيَاة أفضل، وإقَامة العَلاقَات عَلىٰ هٰذَا الْأَسَاس، ومُقَاومة الْفَسَاد، والْمُنْكَر، قَال تَعَالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2]. والسَّعِي حَرَكَة لاَ جمُود، ونضَال لاَ اَعتزَال مِن أجل الْعِبَادَة، بل تَعَاون مِن أجْل الصَّالح العَام، ومُسَاهمة فِي تحمُل المَسْئُولِيَة. قَال رَسُول الله ﷺ: «الْمُؤْمِن لِلمُؤْمِن كَالبُنيَان يَشد بَعْضَه بَعضاً»[3]. وَقَالَ: «الدِّين

↩ الأصول فِي أحَاديث الرَّسول: ٢٧/٤، حلية الأَوْلِيَاء: ١١٠/٢، مُستَدرَك الوَسَائِل: ٣٢/١٣ ح ١٩، بحَار الأَنْوَار: ٢٨/٧٠، تَذكرة المَوْضُوعَات لِلفَتنِي: ١٧٤.

(١) أنظر، ذَلِكَ فِي شرح ٱلْخُطْبَة: (٩٩). (مِنْهُ ﷺ). والسَرائر لِابْن إدرِيس: ٥٦٤/٣، الكَافِي: ٧٢/٥ ح ١٠، تَهذِيب الأَحْكَام: ٣٢٧/٦ ح ٩٠٣، أمَالي الطُوسي: ٦٦٢، وَسَائِل الشِّيعة: ٣٤/١٧ ح ٣، بحَار الأَنْوَار: ١٠٦/٧٠ ح ١٠٤، مُستند الشِّيعة: ١٥/١٤.

(٢) ٱلنَّجْم: ٣٩.

(٣) أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ١٩٩٩/٤ ح ٢٥٨٥، الفِردَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٨٢/٤ ح ٦٥٦٣، صَحِيح البُخَارِيّ: ١٨٢/١ ح ٤٦٧ و: ٨٦٣/٢ ح ٢٣١٤ و: ٢٢٤٢/٥ ح ٥٦٨٠، صَحِيح اَبن حبّان: ٤٦٧/١ ح ٢٣١، سُنَن التِّرمِذي: ٣٢٥/٤ ح ١٩٢٨، مجْمَع الزَّوائد: ٨٧/٨ و ١٨٨، سُنَن البَيْهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ٩٤/٦ ح ١١٢٩١، سُنَن النَسائي: ٧٩/٥ ح ٢٥٦٠، السُّنَن الْكُبْرَىٰ: ٤١/٢ ح ٢٣٤١، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٨٩/٧ ح ٣٤٤١٣، مُسْنَد البزار: ١٦٠/٨ ح ٣١٨٢، مُسْنَد أحمد: ٤٠٤/٤ ح ١٩٦٤٠، مُسْنَد الحميدي: ٣٤٠/٢ ح ٧٧٢، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٦٨/١ ح ٥٠٣، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٢٧٩/١٣ ح ٧٢٩٥ و ٧٣٢١، مُسْنَد الشِّهاب: ١١٢/١ ح ١٣٣ و ١٣٤، مُسْنَد عبد بن حميد: ١٩٦/١ ح ٥٥٦، تَفسِير اَبن كَثِير: ٣٧٠/٢.

النَّصِيحَة.. . لله وَرَسُوله وَلعَامَة ٱلْمُسْلِمِينَ»[١]... «ومَن لاَ يَهـتَم بِأمـر المُسْـلِمِين فَلَيْسَ مِنهُم»[٢].

بهَذه التَّعالِيم وغَيْرها كَان لِلمُسْلِمِين تَأرِيخ وحضَارة.

قَالَ الْعَلاَءُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ. قَالَ: وَمَا لَهُ؟ قَالَ: لَبِسَ الْعَبَاءَةَ، وَتَخَلَّىٰ عَنِ الدُّنْيا. قَالَ: عَلَيَّ بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ الْإِمَام: (يَا عُـدَيَّ نَـفْسِهِ!) بِضَم الْعَيْن تَصغِير عَدُوّ (لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ!) أزَلّكَ الشَّيْطَان، وَجَعَلك هَائِماً لاَ تَهْتَدِي إِلىٰ رُشدٍ (أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَ وَلَدَكَ! أَ تَرَىٰ اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّـيِّبَاتِ... إلخ) كَيْفَ تَقْعد عَن السَّعي، والْعَمَل، وأَنْتَ مَسْئُول أَمَام الله عَن أُسرَتك ومُجْـتَمعك؟ وهل مَنْحَك سُبْحَانَهُ الْقُدْرَة، والْعَقْل، وأَوْدَع فِيكَ مَا أودَع مِن الطَّاقات لِمُجرد أنْ تَلْبَس الْعَبَاءَةَ وتُقِيم الصَّلاَة؟ وهل تَسْتَقِيم الْأُمُـور، وتَمْـتَلِىء البـطُون، وتَسكُـن النُّفُوس بهَذا الجُـمُود، وهَذِه السَّلبِية؟ وهَل تَدفَع مُنكراً، وتَـنْشر مَـعرُوفاً بهَـذا الخُمُول والانْزِوَاء؟

قَالَ عَاصِم: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ، وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ!

---

(١) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ١/٣٥١ ح ٣٢٨١، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٤/٢٥٩ ح ٢٣٧٢، مُعتصر الْمختصر: ٢/٢٨٨، الْمُعْجَم الأوسـط: ٢/٤٢ ح ١١٨٤، السُّـنَن الْكُـبْرَىٰ: ٤/٤٣٢ ح ٧٨٢٠ و ٧٨٢١، مُسْـنَد الشَّـافعي: ١/٢٣٣، مُسْنَد أبي داود: ٤/٢٨٦ ح ٤٩٤٣، مَجْمَع الزَّوائد: ١/٨٧، سُنَن الدَّارمي: ٢/٤٠٢ ح ٢٧٥٤، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٣٢٤ ح ١٩٢٦، صَحِيح ٱبن حبّان: ١٠/٤٣٥ ح ٤٥٧٤، صَحِيح البُخَاريّ: ١/٣٠ ح ٥٦، صَحِيح مُسْلِم: ١/٧٤ ح ٥٥.

(٢) أُنظر، الْمُعْجَم الأوسط: ٧/٢٧٠ ح ٧٤٧٣، مَجْمَع الزَّوائد: ١/٨٧ و: ١٠/٢٤٨، الْمُعْجَم الصَّغِير: ٢/١٢١ ح ٩٠٧، جَامع العلوم والحِكم: ١/٧٧، التَّرغيب والتَّرهيب: ٢/٣٦٢ ح ٢٧٢٣، تكملة الإكمَال: ١/٤٩٥ ح ٨٦٤، كشف الخفاء: ٢/٣٦٨ ح ٢٦١٧.

قَالَ الْإِمَام: (وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ... إلخ). عَلَىٰ القَائِد أعْبَاء قَاسِية وجَسِيمَة، وأوّلها إقَامَة الْعَدْل، والمُسَاوَاة بَيْنَ النَّاس فِي السّرَاء والضّراء عَلَىٰ أنْ يَبدأ بِـنَفْسه وأهْله... وإنْ وُجد فَقِير وَاحد فِي رَعِيتَه عَمل لدَفع المَضرَة عَنْهُ، وإنْ عَجَز شَاركَه فِي مكَاره العِيش لِئَلا يَزدَاد أَلماً عَلىٰ أَلم، أو يَعِيبه ويُعِيره بِبلوَاه عَائب ومُـعِير مَـا دَامت هَذِه هِي حَال ٱلخَلِيفَة ودُنْيَاه.

وإذَنْ فَخُشُونَةِ الإِمَام فِي عِيشَه جُزء مِـن جـهَاده وعَـمله مِـن أجـل الْـفُقَرَاء والمُسْتَضْعَفِين، وفَضِيلَة مِن فضَائِل القَادَة والحَاكِمِين، أمّا خُشُونَةِ عَاصِم وأمْثَال عَاصِم فَجمُود وٱنْهزَام.

وتَجدر الْإِشَارَة إلىٰ أنّ صَاحب «مِنْهَاج البرَاعَة فِي شَرح نَهْج ٱلْبَلاغَة» كَـتَب حَوْلَ هَذِه ٱلخُطْبَة (٣٦٥) صَفحَة بقِياس كتَابِي هَذَا!. وكَان الأَجْدَر أنْ يَفردها فِي كتَاب مُستقل عَن الصُّوفِيَة[1].

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاغَة لمحَمّد عَبْدَه: ٢/١٨٨، شَرح نَهْج ٱلْـبَلاغَة لِابْـن أبِي ٱلحَـدِيد: ١١/٣٤، تحت عنوَان (ذِكر بَعْض مقَامَات العَارفِين والزّهاد)، المِعيار والمَوازنة: ٢٤٣، الإمام جَعفَر الصَّادق لعَبد الحَلِيم الجُنْدي: ٣٤٩.

الخطبة

- ٢١٠ -

الأَحَادِيث:

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَ بَاطِلًا، وَ صِدْقاً وَ كَذِباً، وَ نَاسِخاً وَ مَنْسُوخاً، وَ عَامّاً وَ خَاصّاً، وَ مُحْكَماً وَ مُتَشَابِهاً، وَ حِفْظاً وَ وَهْماً. وَ لَقَدْ كُذِبَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ عَهْدِهِ، حَتَّىٰ قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١]. وَ إِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ، وَ لَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَ لَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَ لَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - رَآهُ، وَ سَمِعَ مِنْهُ، وَ لَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَ قَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَ وَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَىٰ أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ، وَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ النَّارِ بِالزُّورِ وَ الْبُهْتَانِ، فَوَلَّوْهُمُ الْأَعْمَالَ، وَ جَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَىٰ رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَ إِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَ الدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ، فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ[٢].

وَ رَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَ لَمْ يَتَعَمَّدْ

كَذِباً ، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ وَ يَرْوِيهِ وَ يَعْمَلُ بِهِ ، وَ يَقُولُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَ لَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ[٣] !

وَ رَجُلٌ ثَالِثٌ ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَىٰ عَنْهُ ، وَ هُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَىٰ عَنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَ هُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ ، وَ لَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَ لَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ .

وَ آخَرُ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللهِ ، وَ لَا عَلَىٰ رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ ، وَ تَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَ لَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَىٰ مَا سَمِعَهُ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَ حَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَ عَرَفَ الْخَاصَّ وَ الْعَامَّ ، وَ الْمُحْكَمَ وَ الْمُتَشَابِهَ ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ[٤] .

اللُّغَة:

لَا يَتَأَثَّمُ ، وَلَا يَتَحَرَّجُ : لَا يَتَجَنَّب الإِثْم والحَرَج . وَلَقِفَ : تَنَاول بِسُرْعَة . وَلَمْ يَهِمْ : من الوَهم لاَ الْهَيْمِ أي الجنُون . وَالْمُحْكَمَ : الوَاضح . الْمُتَشَابِهَ : الْمُشْكِل .

الإِعْرَاب:

خَطِيباً حَال ، ومِثله مُتَعَمِّداً ، ورَجُلٌ وَمَا بَعْدَه مِن الرِّجَال إِلىٰ الرَّابع بَدل مُفصل من مُجمل ، والمُبدل مِنْهُ أَرْبَعَة ، ومُبْغِضٌ صِفَة لرَابع ، وخَوْفاً مَفْعُول مِن أَجله لِلفِعل المَنفِي ، وهو لَمْ يَكْذِبْ .

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَ بَاطِلًا ، وَ صِدْقاً وَ كَذِباً) . ٱتَفَق السُّنَّة والشِّيعَة أنّ أَحَادِيثهُم المَروِيَة عَن الرَّسُول الله ـ ﷺ ـ فِيهَا الضَّعِيف والصَّحِيح ، ومِن هُنا وَضعُوا عشرَات الكُتب فِي عِلم الرِّجَال ، وهُو يَبحث عَن حَال كلّ وَاحد مِن روَاة الحَدِيث عَلىٰ حِدَة ، وإنّه هَل هُو ثِقَة فِي النَّقل ، أو غَيْر ثِقَة ؟ وأيضاً وَضعُوا كُتباً فِي عِلم الدّرَايَة ، ويَبحث هَذَا العِلم عَن صِفَة الحَدِيث مِن حَيْث المَتن ، والسَّند ، والتَّوَاتر وَعَدمه ، والإرسَال وغَيْره ... إِلىٰ غَيْر ذَلِكَ مِمَّا هُو مَذكُور فِي كُتب الدّرَايَة .

(وَ نَاسِخاً وَ مَنْسُوخاً ، وَ عَامّاً وَ خَاصّاً ، وَ مُحْكَماً وَ مُتَشَابِهاً) ذكرنَا تَحدِيد مَعَانِي هَذِه الْكَلِمَات فِي شَرح ٱلْخُطْبَة الْأُولَىٰ[1] . (وَ حِفْظاً وَ وَهْماً) . والمُرَاد بِالحِفْظ ضَبط الحَدِيث كمَا هُو عَن رَسُول الله ﷺ وَعَدم الخَطَأ فِيهِ والذّهُول ، والوَهْم ضِدّه «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2] . لَا رَيب فِي هَذَا الحَدِيث بِاتْفَاق الْمَذَاهِبُ . وكَان النِّفَاق ، والْكَذِب عَلىٰ الله ، ومَلَائِكَته ، وَرُسُله ، وعَلىٰ النَّاس ، بَل وَعَلىٰ نَفْس الكَاذِب ، كَان قَبل النَّبِيّ ﷺ ، وبَعدَه ... وإِلىٰ آخر يَوْم .

وَقَالَ قَائِل : «إن الإِنْسَان هُو ٱلْحَيَوَان الَّذي يَسْتَطِيع أَنْ يَكذِب» .

---

(١) أنظر ، شَرح ٱلْخُطْبَة الْأُولَىٰ : ١/ ١٢٠ وما بعدها . (مِنهُ ﷺ) .

(٢) أنظر ، صَحِيح مُسْلِم : ١/ ١٠ ح ٣ ، صَحِيح البُخَارِيّ : ١/ ٤٣٤ ح ١٢٢٩ ، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين : ١/ ١٤٩ ح ٢٥٨ ، الأَحَادِيث المُخْتَارة : ٣/ ٢٨٧ ح ١٠٨٨ ، موَارِد الظّمْآن : ١/ ٥٤٧ ح ٢٢١٤ ، سُنن التّرمِذي : ٥/ ٣٥ ح ٢٦٥٩ ، سُنن الدّارمي : ١/ ٨٧ ح ٢٣١ ، سُنن ابن ماجه : ١/ ١٣ ح ٣٠ ، مُسْنَد أبي حَنِيفَة : ١/ ١٢٥ ، مُسْنَد البزّار : ٤/ ١٠٠ ح ١٢٧٥ ، مُسْنَد الشّاشي : ١/ ٩٦ ح ٣٣ ، المُعْجَم الأوسط : ٤/ ٨٩ ح ٣٦٨٦ ، مُسْنَد أحمد : ١/ ٧٨ ح ٥٨٤ ، مُسْنَد أبي يَعلىٰ : ١/ ٧٤ ح ٧٣ ، تَفْسِير القُرطُبِي : ٤/ ١٨٥ ، صَحِيح ابن حبّان : ١/ ٢١٤ ح ٣١ .

ثُمّ قَسّم الإمَام روَاة الحَدِيث إلىٰ أَرْبَعَة أَقْسَام:

١ ـ (رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ، وَ لَا يَتَحَرَّجُ... إلخ). والمُتَصَنِّع هُو الَّذي يُظْهِر مِن نَفْسَه مَا لَيْسَ فيهِ، وكَان اَلْمُنَافِقُونَ يَكْفرُون بِالله وَرَسُوله، ويَسْتخفّون بِكُفرهم هَذَا، ويَقولُون بِألْسنَتِهم: لا إله إلّا الله، مُحَمّد رَسُول الله، وَلِيعَصمُوا دِمَاءهم وأَمْوَالِهم، وقَد أنزَل الله فِيهِمْ سُورَة خَاصَّة فِي كتَابه العزَيز، واَستَمَرُوا بَعد النَّبيّ ﷺ عَلىٰ النِّفَاق، وكَان الْمُسْلِمُون يُعَاملونَهم كسَائِر الْصَّحَابَة المُؤْمِنِينَ جَهلاً بِدَخِيلتِهم، ويَرجعُون إِلَيْهِمْ فِي الكَثِير مِن أُمور دِينِهم، ومِن اَرتَاب بوَاحد مِنْهُم يَسكُت ولاَ يَجرأ عَلىٰ الطَّعن فِيهِ، لأنّه يَتْحَصن بِصُحبة رَسُول الله ﷺ وبَقِيت هَذِه الحصَانَة لِجَمِيع الْصَّحَابَة عِند السُّنَّة إِلىٰ يَومنا هَذَا[1]. قَال الغزَالي: «والَّذي عَليهِ السَّلف وجمَاهِير الخَلف أنّ عَدَالتهُم مَعْلومَة بتَعدِيل الله عزّ وجلّ اِيَاهُم وثنَائه عَلِيهم فِي كتَابه وهُو مُعتقدنَا فِيهِمْ، إلاّ أنْ يَثبت

(١) تَعريف الْصَّحَابي عِند أَهْل السُّنَة: فهُو مَن لَقِي النّبيّ ﷺ مُؤمناً بِهِ، ومَات عَلىٰ الْإِسْلَام.

أنظر، الْإِصَابَة لِابْن حَجر: ١/١٠. ولَسْنَا بصدد مناقشة التَعريف هنا، بل نَاقشنَاهُ سَابقاً.

ثمّ ذَكر اَبن حَجر فِي ضَابطٍ يُستفاد من مَعْرفَته صُحبة جَمعٍ كَثِير، فقَال: إنّهم كَانوا فِي الْفُتُوح لا يُؤمرون إلّا الْصَّحَابَة. (وإنّه لَم يبقَ بمكّة، ولا الطّائف أحد في سَنَة عشرٍ إلّا أسلم وشَهد مِع النّبيّ حَجّة الوِدَاع. وإنّه لَم يبقَ في الأوس، والخزرج أحد في آخر عَهد النّبيّ ﷺ إلّا دَخل فِي الْإِسْلَام. ومَا مَات النّبيّ ﷺ وأحد مِنْهُم يَظهر الكُفر. (الْإِصَابَة: ١/١٣ ـ ١٦).

وهذا التّعريف هو الْمُخْتَار عِند أَكْثَر المحقّقين، إلّا من شذّ مِنْهُم ووضع شُرُوطاً أَرْبَعَة: من طَالت صُحبته، أو حفظت رِوَايته، أو ضُبط أنّه قد غَزا مَعه، أو اَسْتُشْهِدَ بَيْنَ يَدِيه. (أُنظر، الاسْتِيعَاب لِابْن عبد البرّ، أُسد الغَابَة، الإِصَابَة، تَقرِيب التّهذِيب).

ويرىٰ أَهْل السُّنّة: أنّ الْصَّحَابَة كلّهم عدُول، إذْ ثَبت أنّ الجَمِيع مِن أَهْل الْجَنَّة، وأنّه لا يَدخل أحد مِنْهُم النّار. (الْإِصَابَة: ١/٩ و ١٠).

بطريقٍ قاطع أرْتكاب واحد لفسق مع عِلمه بِهِ، وذلِكَ مِمَّا لَم يَثبت! فَلا حَاجَة إِلىٰ التَّعدِيل...»[(١)]. وتكرَّرت هَذه الجُملة فِي العَديد مِن كُتب أُصول الفِقْه للسُّنَّة.

(فَتَقَرَّبُوا إِلَىٰ أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَىٰ النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ). كَان الْمُنَافِقُونَ ومَا زَالوا يُكيِّفُون الدِّين وأحْكَامه وِفقاً لأهوَاء الأَقْوِيَاء والحَاكِمين، ويَقْبضُون الثَّمن وَظِيفَة فِي الدَّوْلَة، أو دَراهم مَعدُودَات.

٢ ـ (وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً... إلخ). قَال عُلَمَاء الْمُسْلِمِينَ: يَشترط فِي رَاوِي الحَدِيث مِن جُملة مَا يُشترَط أنْ يَكُون مِن الَّذِين يُحسنُون ضَبط مَا يَسمعُون، ويُؤدُونَه عَلىٰ وَجْهه، ولاَ ثِقَة بقوْل مَن لاَ يُحسن الضَّبط، وإنْ لَمْ يَكُن فَاسقاً[(٢)].

٣ ـ (وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَىٰ عَنْهُ... إلخ). كَان رَسُول الله ﷺ يُبلِّغ بَعْض الأحْكَام، فَيسمَعَه مَن كَان حَاضراً، وقَد يَكُون الْحَاضِر السَّامع صَادقاً وَاعياً لمّا سَمع، ولكن الرَّسُول قَد يَنهىٰ عمّا كَان قَد أمَرَ بِهِ مِن قَبل، لأنّ الْمَصْلحَة الّتي أوجَبَت الْعَمَل قَد أنتهَت وذَهبت بِذهَاب

(١) أنظر، المُسْتَصفىٰ: ١٣٠ و ٣٥٦، وبمَا أنّ عَدَالة الْصَّحَابَة مِن المواضِيع الحسَاسَة الّتي شَغلت جَانباً من أبْحَاث عِلم الحَدِيث، والرِّجَال، والدّرَاية، وسَبق مُناقشة ذَلِكَ، ولكن أنظر، الجُوهر النّقي: ٤٢١/١، أضوَاء عَلىٰ السُّنَّة المُحَمّدِية: ٣٣٩ الطّبعة الخَامسة دَار المعَارف بمِصْر، وشَيخ المُضِيرة أبو هُريرة: ٢٨٨ الطّبعة الثّالثة، وكلا الكتَابين للمُؤلف محمُود أبو ريه، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٤٩٥/١، عون المعبود: ١٣٢/٢، الكفَاية فِي عِلم الرّواية للخطِيب البَغدادي: ٦٣، نَصب الرَّاية للزَّيلعي: ٣٧٤/١، فتح البَاري: ٢/٣، الأحْكَام للآمِدي: ٩٠/٢، مَعرفة الثّقات للعِجلي: ٩٤/١، الإِصَابة: ٢٢/١ و ١٣١ و ١٦٢، نَظرات فِي الكُتب الخَالدة للدّكتور حَامد حَفني دَاود: ١١٣.

(٢) أنظر، مقبَاس الهِدَايَة: ٨٩/٣، الدّراية: ٨٤، تَدرِيب الرّاوي: ٢٣٩، علوم الحَدِيث: ١٣٢.

وَقتهَا، فَيسمَع النَّهي مَن حَضر غَيْر الَّذي سَمع الأَمْر، فِينقُل عَن النَّبيّ النَّهـي مَـن سَمعه، ويَنقل الأَمْر من سَمعه أيضَاً، والإحَاطَة بِجَمِيع أحَادِيث الرَّسُـول ﷺ أَمـرٌ عَسِير.

٤ ـ (وَ آخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَىٰ اللهِ، وَ لاَ عَلَىٰ رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ... إلخ). هَذَا الرَّابع عَالِم قَدِير كَمَا هُو رَاوٍ ثِقَة وخَبِير، ويُميز بَيْنَ المَوارد الحَقِيقَة والمجَاز، وبَيْنَ الحَدِيث الوَاضح الَّذي لا يَتجاوز تَأوِيله بحَال، والمُشكل الَّذي يُمكن تَأوِيله بمَا يَتفق مَع العَقل ومقَاصد الشَّرِيعة، ويَعْرِف العمُومَات والمُطْلقَات، ومَـا يُعارض المَعْنَىٰ الظَّاهِر مِن المُخصصَات، والمُطْلقَات، ويَجمع بَيْنَهَا بمَا يَـقتضِيه الفَـن والصِّنَاعَة، وأيضَاً يَعْرِف زَمن النَّاسخ وزَمن المـنسُوخ، ولاَ يَخـلط بَـيْنَ المُـتَقدِم والمُتأخر، ويَضع كلّ شَيء فِي مَوْضِعه ولاَ يَجُوز الأخذ والْعَمَل برِوَايَة الأَوَّل والثَّانِي إطلاَقاً، وأمّا الثّالثّ فَيُؤخذ برِوَايَتة نَظرِياً إذَا كَان صَادِقاً ضَابطاً، ولاَ يَجُوز الأخذ بهَا عَملِياً إلّا بَعد التَّتبُّع والْبَحْث عمّا يُعارض الرّوَايَة مِن الأدلَة والقَرَائِن، فإنْ لَم نَجد المُعَارِض عَلمنَا بهَا كمَا هِي، وإلّا قَارنَا بَيْنَهَا وبَيْنَ المُعارض، وعَلمنَا بمَا تَستَدعِية الأُصول والقوَاعد، والرّابع كَالثّالث، ولاَ أثَر لِـلعِلم وكَـثرَته فِي صِـحة الحَـدِيث وبِقُوّتِه.

كَلاَمٌ ذُو وَجْهِين...فِقْرَة ٥:

وَ قَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْكَلاَمُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلاَمٌ خَاصٌّ، وَ كَلاَمٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَىٰ اللهُ، سُبْحَانَهُ بِهِ، وَ لاَ مَا عَنَىٰ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَ يُوَجِّهُهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَ مَا قُصِدَ بِهِ، وَ مَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَ لَيْسَ

كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَ يَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّىٰ إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَ الطَّارِئُ ، فَيَسْأَلَهُ ﷺ حَتَّىٰ يَسْمَعُوا ، وَ كَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذٰلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَ حَفِظْتُهُ . فَهٰذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ ، وَ عِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ(٥) .

الْإِعْرَاب:

قَدْ كَانَ يَكُونُ «كَانَ» زَائِدَة ، وَ«يَكُونُ» تَامة ، والْكَلَامُ فَاعِلهَا ، ومِنْ الرَّسُولِ مُتَعَلِّق بِمحذُوف حَالاً مِن الْكَلَام ، ويَجُوز أنْ تكُون نَاقصَة ، والْكَلَامُ اسمها ، ومِنْ الرَّسُولِ خَبَرها ، ولَهُ وَجْهَانِ مُبْتَدأ وخَبَر ، والجُملة صِفَة الْكَلَام ، وحَتَّىٰ إِنْ كَانُوا «إِنْ» مُخَففة مُهمَلة ، واللاَّم بَعدها للفَرق بَيْنَهَا وبَيْنَ إِنْ النَّافِية .

الْمَعْنَىٰ:

(وَ قَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ ... إلخ) . رُبَّمَا يَكُون بَل كَثِيراً مَا يَكُون لِلجِسم الطَّبِيعِي جِهتَان تَختَلف إحدَاهُما عَن الأُخرىٰ أشد الْإِخْتِلَاف حَتَّىٰ لَو أَخذتَ لكلِّ جِهَة صورَة عَلىٰ حِدَة ، ثُمّ عَرضتَهما عَلىٰ أي إنْسَان لتَوَهَم إنَّهما صورَتَان لكَائِنين مُختلفِين ، ومَا هُما فِي الوَاقع إلّا لكَائِن وَاحد مِن جِهتِين ، ومِن الْكَلَام مَا هُو قَطعِي الدّلاَلَة مِثل لاَ إله إلّا الله ... وَقَضىٰ رَبُّك أنْ لاَ تَعْبدُوا إلّا إيَّاه . ولَيْسَ لهَذا النَّوْع إلّا وَجْه وَاحد . ومِن الْكَلَام مَا هُو ظَنِي الدَّلاَلَة ، وَهذَا النَّوْع يُمكن أنْ يَكُون لهُ وَجْهَانِ أو أَكْثَر ، كقَوْله تَعَالىٰ : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى

ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[1] فَقَد عَطَف السُّنَّةُ الأَرْجُلَ عَلىٰ الْوُجُوه فأوجَبُوا غَسلَها[2]، وَعَطفَها الشِّيعَة عَلىٰ الرُّءُوس فَأوجبُوا مَسْحَهَا[3]. وَلِكُلٍ دَلِيله، وَعرضنَا الدَّلِيلِين فِي كتَاب فِقْه الإِمَام الصَّادقعليه السلام[4].

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٦.

(٢) أنظر، بدَائع الصّنائع: ٦/١، أحْكَام الْقُرْآن للطّبري: ٤١/٣، أحْكَام الْقُرْآن لِابْن العَرَبِي: ٧٢/٢، غَرائب الْقُرْآن ورغَائب الفُرقان: ٥٣/٦، عُمدة القارىء: ٢٣٨/٢، فَتح القدِير: ٨/١، المجموع: ٤١٩/١، حَاشِية الصَاوي عَلىٰ الجَلالين: ٢٥٤/١، نَيل الأوطَار: ١٦٨/١، النَّهر المَاد: ٤٣٨/٣، لُباب التّأويل في مَعَاني التّنزيل: ١٦/٢، تَفْسِير القُرطُبي: ٩١/٦، التَّفْسِير الْكَبِير: ١٦١/١١، الْمُغْنِي: ١٥٠/١، فَتح البَاري: ٢٣٤/١، المُحلىٰ: ٥٧/٢.

(٣) أنظر، فِقْه الرّضا: ٧٩، الإِنْتِصَار: ١٠٦، النّاصريات: ١٢١، رَسائل المُرتضىٰ: ١٧٢/٣، غُنيَة النّزوع: ٥٦، الرّسائل التّسع للمُحقق الحلي: ٨٤، مُنْتَهىٰ المطلب: ٤٠/١، مدَارك الأحْكَام: ٢١٦/١، المسَائل الفقهية للسّيد شرف الدّين: ٧٦، مُستمسك الْعُرْوَة الْوُثْقىٰ: ٣٧٤/٢، الّثمر الدّاني الآبي الأزهري: ٥٥، كَنز الفوائد: ٦٥، أجوبَة مسائل جَار الله: ١٢٧، مَجْمَع الْبَيَان: ١٦٤/٣، مَسَالك الأَفْهَام: ٤٣/١. بالإضَافة إلىٰ جَمِيع التفاسِير.

(٤) والمُرَاد بِغَسل الوَجه إسَالة المَاء عَلَيْهِ، وهُو واجب مَرّة وَاحدة. وحدّه طولاً من قصَاص الشّعر إلىٰ مُنْتَهىٰ الذّقن.

أُنظر، تذكرة الْفُقَهَاء: ١٤٩/١ ـ ١٥٠، الكَافِي: ٢٧/٣، الْفَقِيه: ٢٨/١، التّهذيب: ٥٤/١.

وَقَالَ الشّافعية: يَجب غَسل مَا تَحت الذّقن أيضاً. أنظر، الأُم: ٤٠/١، مُختصر المزني: ٥، المَجموع: ٣٧٥/١، فَتح العزيز: ٣٤١/١، الفِقْه عَلىٰ الْمَذَاهِبُ الأَرْبَعة: ٦٣/١.

وحَدّه عَرضاً عِند الإِمَامِيَّة، والمَالكِية: مَا دَارت عَلَيْهِ الإِبْهَام، والوسطىٰ.

أُنظر، التّذكرة: ١٤٩/١، الْفَقِيه: ٢٨/١، التّهذيب: ٥٤/١، الخِلاَف: ٧٥/١، الاِسْتبصَار: ٦٧/١، مُقدمات ٱبن رُشد: ٥٠/١، تَفْسِير القُرطُبي: ٨٣/٦، الشّرح الصَّغِير: ٤١/١، المُنتقىٰ: ٣٥/١.

وعِند الْمَذَاهِبُ الأُخرىٰ، من شَحمة الأُذن إلىٰ شَحمة الأُذن. أُنظر، الأُم: ٢٥/١، مُختصر المزني: ٢، السِّرَاج الوهّاج: ١٥، الْمُغْنِي: ١٢٦/١، بدَاية الْمُجْتَهِد: ١١/١، المَبسوط للسّرخسي: ٦/١، اللُباب: ٦/١،

↔ نيل الأوطار: ١/١٨٨، الشّرح الكَبِير: ١/١٤٥.

وَذهب الإِمَامِيّة: إِلىٰ وجوب الابْتِدَاء فِي غَسل الوَجه من الأعلىٰ، وعَدم جواز النّكس.

أُنظر، التّذكرة: ١/١٥٦، رياض المسَائل: ١/١١٧، القواعد والفوائد: ١/٧٧، المدارك: ١/١٨٧، الذّكرىٰ: ٧٩.

وَقَالَ الأَرْبَعة: الوَاجب غَسل الوَجه كيف اتفق، والبدَاءة من الأعلىٰ أَوْلَىٰ. أُنظر، الفتاوىٰ الهندِية: ١/٩، الفِقه علىٰ المَذَاهِبُ الأَرْبَعة: ١/٧٢ ـ ٧٥، المجموع: ١/٣٨٠.

وأجمَع المُسْلمُون علىٰ أنّ غَسل اليَدين مَع المرفقِين مرّة واحدة واجب. أُنظر، تَذكرة الفُقَهاء: ١/١٥٧، رِياض المسائل: ١/١٢٦، الفَقِيه: ١/٣٠، التّهذيب: ١/٣٦٠، الوَسَائِل: ١/٤٧٩.

وذَهب الإِمَامِيّة إِلىٰ وجوب البداءة بالمرفقِين، وأبطلوا النّكس. كمَا أوجبوا تَقديم اليُمنىٰ علىٰ اليُسرىٰ. أُنظر، التّذكرة: ١/١٥٨، الكَافِي: ٣/٢٨، التّهذيب: ١/٥٧، الفَقِيه: ١/٢٤، رياض المسائل: ١/١٢٦.

أُنظر، التّذكرة: ١/١٥٨، الخِلَاف: ١/٧٩، التّهذيب: ١/٥٨، الكَافِي: ٣/٢٦، الفَقِيه: ١/٢٥.

وقَالت بقية المَذَاهِبُ: الواجب غَسلهما كيف اتفق، وتَقديم اليُمنىٰ، والابْتِدَاء من الأصَابع إِلىٰ المِرفق أفضل. أُنظر، النّاصريات: ١١٨، المجموع: ١/٣٨٣، الأُم: ١/٢٦، كفاية الأخيار: ١/١٦، فتح العزيز: ١/٢٤٠، السِّرَاج الوهّاج: ١٨، المُغْنِي: ١/١٢٠، الشّرح الكَبِير: ١/١٤٩، شَرح فتح القدير: ١/٣١، الشّرح الصَّغِير: ١/٤٨.

قَال الحنَابلة: يَجب مَسح جَمِيع الرّأس والأُذنِين، والغَسل عندهم يجزي عن المسح بشرط إمرار اليَد علىٰ الرّأس. أُنظر، المُغْنِي: ١/١١١ و١١٢، عُمدة القارىء: ٢/٢٣٥، المجموع: ١/٣٩٩، الإِنْصَاف: ١/١٦١، بدَاية المُجتَهِد: ١/١٢، مُختصر المزني: ٢، الشّرح الكَبِير: ١/١٦٦، نيل الأوطار: ١/١٩٢، فتح العزيز: ١/٣٥٤.

وَقَالَ المَالكِية: يَجب مَسح جَمِيع الرّأس دُونَ الأُذنِين. أُنظر، المُغْنِي: ١/٣٩٩، الشّرح الكَبِير: ١/١٦٦، وقد روىٰ مَالك ثَلاث روايات، إحداها: الجَمِيع، وَهِي إحدىٰ الرّوايتين عن أحمد، وهو محكي عن المزني: ٢، بداية المُجتَهِد: ١/١٢، المبسوط للسّرخسي: ١/٦٣.

وَقَالَ الحَنَفِيّة: يَجب مسح رُبع الرّأس، ويَكفي إدخَال الرّأس في المَاء أو صَبه عَلَيْهِ. أُنظر، المبسوط للسّرخسي: ١/٦٣، المجموع: ١/٣٩٩، الهِدَايَة: ١/١٢، أَحْكَام القُرآن: ٢/٣٤٣، اللُّباب: ١/٦.

↔

وفِي كلاَم الله وَرَسُوله الكَثِير مِن هَذَا النَّوْع (فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَ يُوَجِّهُهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ). ويَسْمَع الكَلاَمَ مِن المَعصُوم، ولاَ يَفْطَن لمُرَاده، لأَنّ لَهُ وَجْهين، فِيفُسره بغَيْر الوَجه المُرَاد، وكَان عَلَيْهِ أنْ يَتَهم نَفْسه، ويَسأل النَّبيّ ﷺ عمّا أرَاد من

⇐ وَقَالَ الشّافعية: يَجب مَسح بَعْض الرّأس، ولو قَلّ، ويَكفي الغَسل أو الرّش عن المَسح. أُنظر، الأُم: ٤١/١، المُهذب للشّيرازي: ٢٦/١، مُغني المُحتاج: ٥٩/١، المَجموع: ٢٦/١، شرح العنَاية: ١٥/١.

وَقَالَ الإِمَامِيّة: يَجب مَسح جُزء من مُقَدَّم الرّأس، ويَكفي أقل مَا يصدق عَلَيْهِ آسم المَسح، ولا يجوز الغَسل ولا الرّش، كما أوجبوا أنْ يكون بنداوة الوُضُوء. فلو آستأنف مَاءً جديداً، ومَسح به بطل وضوؤه.

أنظر، التّذكرة: ١٦٣/١ ـ ١٦٧، المبسوط للطّوسي: ٣١/١، التّهذيب: ٦٢/١، الاِسْتبصَار: ٦٠/١، الإنتصَار: ١٩.

أمّا المَذَاهِبُ الأَرْبَعة فقد أوجبت المَسح بمَاء جديد. أُنظر، المُغْني: ١٤٧/١، تذكرة العلاّمة الحليّ: ١٦٥/١، الأُم: ٢٦/١، الشّرح الْكَبِير: ١٦٩/١، فتح العزيز: ٣٥٥/١.

وَقَالَ الأَرْبَعة: يَجب غَسلها مَع الكَعبين مرّة وَاحدة. أُنظر، المُغْني: ١٥٠/١، الشّرح الْكَبِير: ١٤٧/١، تَفْسِير القُرطُبي: ٩٢/٦، المبسوط للسّرخسي: ٨/١، عمدة القاريء: ٢٣٦/٢، أَحْكَام الْقُرآن: ٣٤٥/٢، بدائع الصّنائع: ٥/١، مُغني المُحتاج: ٥٣/١، الأُم: ٢٧/١، الوجيز: ٤١٧/١.

وَقَالَ الإِمَامِيّة: يَجب مَسحها بنَدَاوة الوُضُوء من رُؤُوس الأَصَابع إِلىٰ الكعبين، وهُمَا قُبتا القدمِين. ويجوز تَقديم اليُسرىٰ علىٰ الْيُمنىٰ عند الجَمِيع، ولكنها خلاف الإحتياط عند الإِمَامِيّة. أنظر، المبسوط للطّوسي: ٢٢/١، الخِلاَف: ٨٩/١، تذكرة الْفُقَهاء: ١٦٨/١، تهذيب الاحْكام: ٦٣/١، الْعُرْوَة الْوُثْقَىٰ: ٣٦٦/٢، الخِلاَف: ٩٢/١ ـ ٩٣، جَامع المقاصد: ٢٢٠/١.

والخِلاَف في مَسح الرّجلين، أو غَسلها نَاشيء عن فَهم الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ حَيْث قُرِىء بخفض الأرجُل ونَصبها، فمن قَال بالمسح عَطف الأرجل حَال جَرها علىٰ لفظ الرُّؤُوس، وحَال نَصبها علىٰ المَحل: لأنّ كلّ مجرور لفظاً منصوب محلاً. ومن ذهب إِلىٰ الغَسل قَالَ: إنّ لفظ الأرجل خفضت بمجاورتها للرُّؤُوس، ونُصبت عطفاً علىٰ الأيدي. أُنظر، التّفْسِير الْكَبِير: ١٦١/١١، تفْسِير الطّبَرِيّ: ٨٢/٦، الدّر المنثور: ٢٦٢/٢، أَحْكَام الْقُرآن لاِبن عَربي: ٥٧٥/٢، بدَاية المُجْتَهد: ١٤/١، فتح البَاري: ٢٦٦/١، مُقدمات آبن رُشد: ٥٣/١.

قَوْله، ولَكن (وَ لَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَ يَسْتَفْهِمُهُ) هَيْبَة لِعَظَمَتِهِ، أو حِرصاً عَلىٰ رَاحته (حَتَّىٰ إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَ الطَّارِئُ، فَيَسْأَلَهُ عليه السلام حَتَّىٰ يَسْمَعُوا). أنّهم يَشعرُون بِالْحاجَة إِلىٰ تَعلُّم العِلم من النَّبيّ، ولَكِنَّهُم يَكفُون بَعْض الأحْيَان عَن سؤَاله لمَا أَشرنَا، وَيَتمنُون أنْ يأتِي مَن يَفْتَح لهُم البَاب.

عَلىٰ العَكس مِن الْإِمَام فإِنَّه كمَا قَال: (وَ كَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَ حَفِظْتُهُ). قَال الطَّبريّ: «إِنّ رَسُول الله، قَال: يَا عَليّ إنّ الله أمرنِي أَنْ أُدنِيك ولاَ أُقصِيك، وأنْ أُعلمكَ وأنْ تَعي، وَحَقّ عَلىٰ الله أنْ تَعي»[1]. فَنَزلت هَذِه الآيَة: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[2].

---

(١) أُنظر، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٣٥/٢٩ طَبعة بولاق بِمِصْر سَنَة ١٣٢٣ هـ. (مِنْهُ رحمه الله).

وتَفْسِير القُرطُبي: ٢٦٤/١٨، تَفْسِير ٱبن كَثير: ٤١٤/٤، مَجْمَع الزّوائد: ١٣١/١، مُسْنَد البزّار: ٢١١/٦ ح ٢٢٥٢ و: ٣٢٥/٩ ح ٣٨٧٨، كَشف الغمة: ٣٢٢/١، الكَشف والْبَيان: ٢٠٢، كنز الْعُمّال: ١٣٦/١٣ ح ٣٦٤٢٦ و: ٣١٩/١٥ ح ٣٤١ الطّبعة الثّانِيَة، شواهد التّنزيل: ٣٦٦/٢ ح ١٠١٢، مناقب الإِمَام عَليّ لمُحمّد بن سُليمان الصّنعاني: ٣٥/١ ح ٩٠ و: ٤٣/٢ ح ١٢١، تأريخ ٱبن عسَاكر: ٤٢٢/٢ ح ٩٣١، الطّبعة الثّانِيَة، و: ٣٦١/٤٢ و: ٢١٧/٤٨، جَمع الجَوَامِع: ٣٠٨/٢، أَنسَاب الأَشْرَاف: ١٢١/٢ ح ٨٢، المناقب لِابْن المغازلِي: ٢٦٥ ح ٣١٢، تَرجمة أَمير الْمُؤمِنين لأَبِي نَعيم: (مخطوط) ورق ٢٢/ب، تَفْسِير الثّعلبي (مخطوط): ٢٠١/٤ ب، أسباب النّزول للواحدي: ٣٢٩، كِفَاية الطّالب: ١٠٩، الفَتح المَلك العَلي: ٤٩، فَتح القدِير: ٢٨٢/٥، حلية الأَوْلِيَاء: ٦٨/١، نور الأَبْصَار: ٧٠، تَفْسِير الجَلالين: ٧٩٢، لُبَاب النّقول: ٢٠١، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٢٨٩/١١، سير أعلام النُّبلاء: ٢٣١/١٤.

(٢) ٱلحَاقّة: ١٢.

الخطبة

-٢١١-

حَوْلَ الكَوْنُ...فِقْرَة ١ ـ ٤:

وَ كَانَ مِنِ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَ بَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَ قَامَتْ عَلَىٰ حَدِّهِ. وَ أَرْسَىٰ أَرْضاً يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَ الْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَ أَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَ وَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ. وَ جَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَ نُشُوزَ مُتُونِهَا وَ أَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَ أَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا، فَمَضَتْ رُءُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَ رَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَ أَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَ مَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا. فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَ أَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَ جَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَ أَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً. فَسَكَنَتْ عَلَىٰ حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَ أَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَ بَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَ قَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَ تَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن

يَخْشَىٰٓ ﴾[1].

اللُّغَة:

الزَّاخِرِ: الملآن. والتَّقَاصُف: تَزَاحم الأمواج يقصِف بَعْضها بَعْضاً. اليِبْس: اليَابِس. وَفَطَرَ: خَلَقَ. والأَطْبَاق: الطَّبَقَات. والرَّتق: ضِدّ الفَتْق. والمُثْعَنْجِرُ: المَاء الكَثِير. والقَمْقَامُ: البَحر. وَجَبَلَ: خَلَقَ. والجَلاَمِيد: الصّخُور. والنُّشُوز: الارْتفَاع. وَأَنْهَدَ: رَفَعَ. وأَسَاخَ: أَدْخَلَ. والأَنْصَاب: جَمع نُصُب، وهُو المُنْتَصب. وأَشْهَقَ: جَعَلها شَاهِقَة. وقِلاَل: جَمع قُلّة، وقِلّة الجبَل أَعْلاَه. وأَرَّزَهَا: ثَبّتهَا. وتَميدَ: تَضْطَرِب. وأَكْنَافِهَا: جوَانِبها، أو أَقْطَارِها. والمِهَاد: الفُرُش. وتُكَرْكِرُهُ: تُحَرِكَه وتُرَدِدَه. والذَّوَارِفُ: مِن ذَرَف الدَّمع إذَا سَالَ.

الإِعْرَاب:

المَصْدَر من أَنْ جَعَلَ ٱسم مُؤَخَّر لِكَانَ، ومِنِ ٱقْتِدَارِ خَبَر مُقَدم، وأَوْتَاداً حَال مِن هَاء أَرَّزَهَا.

المَعْنَىٰ:

أَشَار الإِمَام فِي هَذِه ٱلخُطْبَة إِلىٰ خَلق الكَوْن، وتَقَدَّمَت هَذِه الإِشَارَة مِنْهُ أَكْثَر مِن مَرّة، والغَرَض مُجرد التَّنبِيه إِلىٰ قُدرَة الله وعَظَمَتِه، كَمَا هُو دَأب القُرْآن الكَرِيم..

---

(١) ٱلنَّازِعَات: ٢٦.

وَلستُ مِن عُلَمَاء الفَـلك، والطَّـبِيعَة كَـي أَشْرَح وأَجْـرِي المـُعَادلاَت كـمَا يَـفْعَل المُتَخَصصُون، وإِذَا ذَكَرتُ شَيْئاً مِن ذَلِكَ فإنّمَا أَلتَقطَه مِن أقوالِهِـم، وأَنـقُلَه عَـنْهُم للقَارِىء. وَفَعلت ذَلِكَ فِي شَرح ٱلخُطْبَة الأُولَىٰ وغَـيْرِها. ولذَا أَخْـتَصرُ هُـنا مـا أَمْكَن.

(وَ كَانَ مِنِ ٱقْـتِدَارِ جَـبَرُوتِهِ، وَ بَـدِيعِ لَـطَائِفِ صَـنْعَتِهِ). الجَـبَرُوت الْـقُدْرَة والسُّلطَة، والبَدِيع المُبتَدع والمُختَرع، ولَطَائِفِ الصَّنْعَة جَودَتها ودِقتهَا الّتي تَدل عَلىٰ قُدرَة صَانعها، وعَظَمَتِهِ (أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ... إلخ). يُشِير بِهَذا إلىٰ أنّ الكَوْن خُلق من المَـاء. وتَـقَدَّم الكـلاَم عـن ذَلِكَ[1]. (يَـحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ) أي وهُو أَخْضَر فِي رُؤيَة الْـعَيْن (وَ الْـقَمْقَامُ الْـمُسَخَّرُ) سَـخَّرَ سُبْحَانَهُ الْبَحْر لِمَنفَعَة النّاس وغَيْرِهم مِن الخَلق.

(وَ وَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ) الكَوْن بِكلِّ مَا فِيهِ مِـن بحَـار وظَـوَاهـر حـيَّة وجَامدَة يَسِير عَلىٰ مَبدأ النِّظَام الّذي أَوْدَعه الله فِيهِ، وقَد مرّت أُلوف السِّـنِين أو مَلايِينهَا، والكَوْن عَلىٰ نظَامه هَذَا، وتَمُرّ أيضاً ملاَيِين أُخرىٰ، وهُو عَلىٰ مَا كَان مِن ضَبط ودِقة وثَبات، ومِن هُنا ٱستطَاع الْعُلَمَاء أَنْ يَسْتَخرجُوا مِن ظوَاهـر الطَّـبِيعَة قَوَانِين رَاسخة ثَابتة إذْ لاَ قَانُون بِلا نظَام ثَابت (وَ جَبَلَ جَلاَمِيدَهَا... إلخ). خَـلق سُبْحَانَهُ الصّخُور والجِبَال، وجَعَل أُصُولهَا رَاسخة، وأَعاليهَا شَامِخة لتَكُون أَوْتَاداً لِلْأَرْض تَمْنعهَا مِن الانْهِيَار والاِضْطِرَاب[2].

(فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِـهَاداً، وَ بَسَـطَهَا لَـهُمْ فِـرَاشـاً! فَـوْقَ بَـحْرٍ لُـجِّيٍّ رَاكِـدٍ لاَ

---

(١) أُنظر، فِي شَرح ٱلخُطْبَة الأُولىٰ فِقْرَة «حَوْلَ الكَوْنِ». (مِنْهُ).

(٢) تَقدَّم مِثله مَع الشَّرح فِي ٱلخُطْبَة: (٩١). (مِنْهُ).

يَجْرِي ... إلخ). قَال أحمَد زَكي فِي كتَاب «مَع الله فِي السَّماَء» مَا يَتَلَخص بِأنّ فِي الأَرْضِ صَخرَاً، يَغمر أكْثَره طَبَقة مِن مَاء، وفُوق الصَّخر والْمَاء طَبقة مِن هـوَاء، وَنَحْنُ بَني الإنْسَان، وٱلْحيَوَان، والنَّبات نَعيش فِي أعْمَاق هَذِه الأَشْيَاء الثّلاثَة، فمِن الهَوَاء نَستَمد أنْفَاسنا، ويَبنِي النَّبَات جِسْمَه، ونَحْنُ نَأكل النَّبَات وٱلْحيَوَان الَّـذي يَأْكُل النَّبَات، ومِن كِلِيهمَا نَبنِي أجْسَامنا..... نَحْنُ مُـقيَدُون بِـالأَرْض، ولصَّـالح الإنْسَان كَان هَذَا القَيد، إنّ الإنْسَان لَو ذَهَب فِي الأَرْضِ سفلاً لِطَمَره الصَّـخر، أو ذَهَب فِي البَحْر نزُولاً أغرَقه الْمَاء، أو صَعَد فِي الهوَاء عِلواً تَعَذَر عَلَيْهِ التَّنَفُس. فَعَن حِكْمَة إذَنْ كَان رَبط الإنْسَان بهَذه الأَرْضِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَـخْشَىٰٓ﴾[1]. الله، وَسَطْوَته.

وبَعد، فَلا شَيء لَديَّ أَقُوله هُنا إلاّ أنْ أكَرر مَع الْقُرآن الكَرِيم، ونَهج ٱلْبَلاَغَة: إنّ هَذَا النّظَام الدَّقِيق الَّذي يَجرِي عَلَيْهِ الكَوْن مِن مَجرّاته إلىٰ الذَّرَّة، ومُنذ وجُوده إلىٰ نهَايته، والَّذي يَعلّم الإنْسَان مَا يَنْبَغِي أنْ يَتَعلم، إنّ هَذَا النّظَام العَلِيم الحَكِيم يَنطق بصرَاحَة، ويَقول بوضُوح لكلِّ ذِي قَلبٍ وسَمع: ﴿سَبِّحِ ـ معي ـ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[2].

---

(١) ٱلنَّازِعَاتِ: ٢٦.
(٢) ٱلْأَعْلَىٰ: ١ ـ ٥.

الخطبة

- ٢١٢ -

المَقَالَة الْعَادِلَة:

أَللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَ الْـمُصْلِحَةَ غَـيْرَ الْمُفْسِدَةِ ، فِي الدِّينِ وَ الدُّنْيَا ، فَأَبَىٰ بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَ الْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً ، وَ نَسْتَشْهِدُ عَـلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَ سَمَاوَاتِكَ ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ ، وَ الْآخِذُ لَـهُ بِذَنْبِهِ .

اللُّغَة:

أَيَّمَا «مَا» زَائِدَة ، وأَيُّ مُبْتَدَأ ، وَجُملة سَمِعَ صِفَة لِعَبد ، وَأَبَىٰ عَطف عَلىٰ سَمِعَ ، وَجُملة فَإِنَّا خَبَر أَيٍّ ، وبَعْدُ ظَرف بِمَعْنَىٰ الآنَ ، وهُو مَبني علىٰ الضَّم ، والْمُغْنِي خَبَر أَنْتَ .

الْمَعْنَىٰ:

(أَللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْـجَائِرَةِ ... إلخ) . وَهَـذِه

المَقَالَة هِي الدَّعْوَة إِلىٰ الحَرْب، والضَّرب لاَ إِلىٰ وَلِيمَةٍ، ولكلٍّ أَهْل، دَعْوَة إِلىٰ تَحطِيم الشَّرّ والْفَسَاد، وٱقْتلاَعه مِن الجذُور... ولكن مَن يَسمَع، وهَل يُداوىٰ الدَّاء بِالدَّاءِ، وتَستَخرج الشَّوْكَة بِالشَّوْكَةِ عَلىٰ حَد مَا قَال الإمَام عَليّ[1].

وقَضىٰ رَسُول الله ﷺ عَلىٰ الشّرك، والخرَافَات، والتّقَالِيد الفَاسدة، وحَطَم زعَامَات الْبَغْيِ، والضَّلاَل، ولكن بِمَعُونة الحوَارِيين الَّذِين وصَفَهُم سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]... أَبَداً لاَ عُلاَقَة لهُم إلاّ مَع الله، ولا يُحبُون ويُبغضُون إلاّ فِيهِ ومِن أجْله... لا يَحملُون ضِغناً عَلىٰ مُؤمِن، ولاَ يَشهرُون فِي وَجْهِهِ سَيْفاً. ودَعا الإِمَام دَعْوَة النَّبيّ إِلىٰ تَحطِيم قيَادَات الْبَغْيِ والْفَسَاد فِي الأَرْضِ، وهُو فِي مُستوىٰ الدَّعْوَة والنّهُوض بِأعبَائِها، وَلكن ٱلْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِه كَانوا يَتنَاحرُون عَلىٰ السُّطان، ويَقتل بَعْضهُم بَعضاً مِن أجْله، ومَا نَجحت دَعْوَة فِي التَّأرِيخ البَشرِي كلّه إلاّ إذاَ ٱتفقَت كلِمَة الأَنْصَار، وأحَاطوها بِقُلُوبِهِمْ ودَافعُوا عَنْهَا بِدمَائهم، وكَان أَصْحَاب الإمَام كَما خَاطبهُم فِي قَوْله: «يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ»[3].

(فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً). ضَمِير عَلَيْهِ يَعُود إِلىٰ مَن نَكص عَن دَعْوَة الإِمَام، وَقَالَ الشّيخ مُحمّد عَبْدَه: «أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ هُو النَّبيّ، أو

---

(١) أنظر، ٱلخُطْبَة: (١٢١). (مِنْهُ).

(٢) ٱلفتح: ٢٩.

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة ٱلخُطْبَة: (٩٧). (مِنْهُ).

الْقُرْآن»[1]. والْحَقّ إنّه الله تَعَالىٰ لقَوْله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[2].

(ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ). إنْ شِئت أنْ تَنصرنَا فَعلت، وإنْ نَكص مِن نَكص لأنّك القَائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3]. (وَ الْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ) تُعَاقبه عَلىٰ التّخلف عَن نُصرة الْحَق.

(١) أنظر، شَرح نَهج البَلاغَة: ٢/١٩٣.
(٢) الأَنعَام: ١٩.
(٣) البَقرَة: ٢٤٩.

الخطبة

-٢١٣-

تعظيم الله تعالىٰ:

الْحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ. الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، وَ الْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ. الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَ لَا ازْدِيَادٍ، وَ لَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَ لَا ضَمِيرٍ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَ لَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ، وَ لَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ، وَ لَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ.

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَ قَدَّمَهُ فِي الِاصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَ سَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ. وَ ذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَ سَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ، حَتَّىٰ سَرَّحَ الضَّلَالَ، عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ.

الإِعْرَاب:

لَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ: لَا يُدْرِكُهُ. والرَّتَقَ: ضد الفَتق. وَسَاوَرَ بِهِ: غَلَبهُ بِهِ. والْحُزُونَةَ: الْخُشُونَة. وسَرَّحَ: أَبْعَد.

الإِعْرَاب:

عَنْ شَبَهِ مُتعَلِّق بِالْعَلِيِّ، ولِمَقَالِ اللاَّم زَائِدَة لُمجر د التّوكِيد، ومَقَال مَفْعُول الْغَالِب.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ) أي العَالِي بذَاتِه، وصِّفَاته (عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ) لأنّ المَخْلُوق حَادث ومُمكن ومَحدُود بدَايةً ونهَـايةً، والله وَاجب أزلي أبـدِي (الْـغَالِبِ لِـمَقَالِ الْوَاصِفِينَ) لاَ ترقىٰ الأَفْهَام إِلىٰ الاْحَاطة بذَاته وصِّفَاته، لأنّ لِلأَفْهَام حَداً تَـنْتَهِي عِنده، والمَحدُود لاَ يَدرُك المُطلق الَّذي لاَ أوّل لأوّله، ولا آخر لآخِره، وإنّما يَدرك وجُودَه مِن خِلال آثَاره.

(الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ). الأَفْـهَام لاَ تَـدرك ذَات الله سُـبْحَانَهُ كـمَا أشرنَا، ولَكِنَّها تُدرك إنّه قَادر حَكِيم مِن خلال عَظَمة الكَوْن، ونظَامه المُحكم الَّذي يَسِير عَلَيْهِ مُنذ القَدِيم وإلىٰ أنْ يَشَاء الله، وأيضاً تَدرك الأَفْهَام إنّ الله رَحْمٰن رَحِيم، وجوَاد كَرِيم من خلال النِّعَم الّتي نَتَقلبُ فِيهَا، ونَعِيشُ عَلَيْهَا (وَ الْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ) كمَا عَجَزت الأَلْسُن عَن وَصف الذّات عَجَزت الأَفْكَار أيضاً عَن ٱدْرَاكـها والإِحَـاطة بِهـا، وحَسب هَـذِه أنْ تَسْـتَشعر قُـدرة الله، ورَحمَـته، وحِكْمَته، وحَسب تِلك أنْ تُسبح بِحَمده ومَجده.

(الْعَالِمِ بِلَا ٱكْتِسَابٍ وَ لَا ٱزْدِيَادٍ، وَ لَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ ...إلخ). بِلا درَاسة نَهَاراً، ومُطَالعة لِيلاً، وبِلا رُوىٰ فُلاَن عَن فُلاَن.

وتَسْأَل: إنّ الإِمَام يُطِيل ويُكرر فِي هَذَا المَوْضُوع، كقَوْله فِي هَذِه ٱلخُطْبَة: «بِلَا رَوِيَّةٍ وَ لَا ضَمِيرٍ... وَ لَا بِالْإِبْصَارِ، وَ لَا بِالْإِخْبَارِ»، وقَوْله: «لاٰ بِأَدَاةٍ»[1]، وقَوْله

(١) أُنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٥٢). (مِنهُ).

«لاَ بِجَوْلِ فِكْرَةٍ». إلىٰ أمثَال ذَلِكَ مَع أنّ الأَمْر فِي غَاية الوضُوح، ويَكفِي الْقَوْل: إنّه تَعَالىٰ عَالِم بذَاته، أو بِلا أكتسَاب؟.[1]

الجَوَاب:

كَان النَّاس فِي عَهد الإمَام جَدِيدِي عَهد بِالإِسْلاَم، وكَان البَعض مِنْهُم يَقِيس صِّفَات الْخَالِق بصِّفَات الَمخلوق... حَتَّىٰ اليَوْم يوجَد هَذَا النَّوْع. وروي عَن بَعْض الأَعرَاب أنّه نَادىٰ الله بقَوْله: «يَا عَرِيض الجَفْنَة، يَا أَبَا المكَارم، يَا أَبْيَض الوَجْه»[2]. فَدعت الْحَاجَة إِلىٰ التّكرَار، والتّوكِيد.

(أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَ قَدَّمَهُ فِي اَلِاصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ بِهِ اَلْمَفَاتِقَ، وَ سَاوَرَ بِهِ اَلْمُغَالِبَ). اَصْطَفىٰ الله مُحَمّداً ﷺ لِحَمل الأَمَانَة، وأَدَاء اَلرِّسَالَة. فقَام بِها علىٰ أكمَل وَجْه، جَمع شَمل الْمُتفَرقِين، وقَضَىٰ عَلىٰ الشِّرك واَلْمُشْرِكِين، ورَفَع رَايَة الأَمْن والْعَدْل، وحَرر النَّاس مِن العبُودِية والْجَهْل، وَجَعَلهُم «النّاس كُلّهم أحرَار، كُلّهم سوَاء تَمَاماً كأسنَان الْمُشط»[3].

(١) أنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلْخُطْبَة (١٨٦). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج اَلبلاَغَة لِابْن أبِي اَلْحَدِيد: ١٩١/٦.

(٣) أُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٢٩٨/٢، طَبعة بيروت، و: ٣٠٠/٤ ح ٦٨٨٢ و ٦٨٨٣، مِيزان الإعْتِدَال فِي نَقد الرّجَال: ٣٠٧/٣، تُحف العُقُول: ٣٦٨، لِسَان الميزان: ٤٢/٢ ح ١٥٣ و: ٩٨/٣، صَفوة الصّفوة: ٢٠٤/١، عِلل اَبن أبِي حَاتم: ١١١/٢ ح ١٨٢٩، نُزهة النّاظر وتنبيه الخَاطر: ٣٩ ح ١٢٠، كنز العُمّال: ٣٨/٩ ح ٢٤٨٢٢، تَفسِير الثّعالبي: ٤٢٢/٣، الشّفا بتعريف حقوق المصطفىٰ: ٧٨/١، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ٩٥/٢، كَشف الخفَاء: ٤٣٣٣/٢ ح ٢٨٤٧، سُبل السّلام: ١٢٨/٣.

الخطبة

-٢١٤-

إِنَّ لِلْخَيْرِ أَهْلًا...فِقْرَة١ ـ ٣:

وَ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَ حَكَمٌ فَصَلَ، وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، وَ سَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَ لَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلَا وَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَ لِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَ لِلطَّاعَةِ عِصَماً. وَ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَ يُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ. فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَ شِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ[1].

وَ اعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَ يُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَ يَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ، وَ يَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ، لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ وَ لَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ. عَلَىٰ ذَٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَ أَخْلَاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَ بِهِ يَتَوَاصَلُونَ. فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَىٰ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَ يُلْقَىٰ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَ هَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ[2].

فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَ لْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَ لْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي

قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَ قَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ حَتَّىٰ يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِـمُتَحَوَّلِهِ، وَ مَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ. فَطُوبَىٰ لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَ تَجَنَّبَ مَنْ يُـرْدِيهِ، وَ أَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَ طَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَ بَادَرَ الْهُدَىٰ قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَ تُقْطَعَ أَسْبَابُهُ، وَ اسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَ أَمَاطَ الْحَوْبَةَ. فَقَدْ أُقِيمَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَ هُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ[٣].

اللُّغَة:

نَسَخَ الْخَلْقَ: نَقَلهُم بِالتّنَاسُل مِن فَرِيقٍ إِلىٰ فَرِيقِين، أو كَما قَال ابن أَبِي الحَدِيد: قَسّم الأب الوَاحد إِلىٰ ابنين. والعَاهِر: الزَّانِي، ومِثله الفَاجِر. والعِصَم ـ بكسر الْعَيْن وفَتح الصَّاد ـ جَمع عِصمَة، وَهِي الحصَانة، والوقَاية مِن الذّنوب. والكِفَاء: الكِفَايَة. والْمُرَاد بِالْوِلَايَة هُنا الأُخوَة الصَّادقة. والرِّيَّة ـ بكسر الرّاء ـ من زوَال العَطش. والقَارِعَة: المُصِيبَة، والْقِيَامَة. وَطُوبَىٰ: الهنَاء والْخَيْر. والْحَوْبَة: الإِثْم.

الْإِعْرَاب:

أَنَّهُ عَدْلٌ الضَّمِير لِلْقَضَاءِ والْقَدَر، وكُلَّمَا نُصب عَلىٰ الظَّرفِيَة، لأنّ «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة، والْمَصْدَر المُنسبك مَجرُور بِإِضَافة كلّ أي فِي كلّ زَمان نَسَخ أو يـنْسَخَ اللهُ الخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ... إلخ، وعَوْناً اسم إِنَّ، وعِلْمَهُ مَفْعُول الْمُسْتَحْفَظِينَ، ونَهْجَ السَّبِيلِ مَنْصُوب بِنَزع الخَافض أي إِلىٰ نَهْجَ السَّبِيلِ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ). مَا مِن شَيء إِلّا وَرَاءه قَضَاء، وتَدبِير، وَهَذَا هُـو الدَّلِـيل:

﴿إِنْ هُوَ ـ أي الْقُرْآن ـ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(١). وكلّ قَضَاءِ الله عَدْلٌ، ثُمّ أَكَد الإِمَام ذٰلِك بِصِيغَة الفِعْل المَاضي وَقَالَ: «عَدَلَ» لاَ شَائِبَة فِي قضَائِه للظُّلم (وَ حَكَمُ فَصَلَ) بَيْنَ الْحَقّ والْبَاطِل.

(وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، وَ سَيِّدُ عِبَادِهِ) جَاء فِي كِتَاب «الصَّوَاعِق المُحرِقَة» وغَيْرِه: «إِنّ النَّبيّ ﷺ، قَال مُشِيراً إِلىٰ عَليّ: هَذَا سَيّد الْعَرَب. فقَالت لَـهُ عَائِشَة: أَلستَ أَنْت سَيّد الْعَرَب؟ قَال: أَنَا سَيّد ـ وِلد آدَمَ ـ العَالمين، وهُو ـ عَليّ ـ سَيّد الْعَرَب»(٢). (كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا). إِذَا تَشَعَب النّاس إِلىٰ فِرق وقَبَائل قَبل مُحَمّد ﷺ كَان هُو فِي خِيرها وأَفضلهَا أُمّاً وأَبَاً. وقَد جَـاء فِي الصِّحَاح، ومِنْهَا صَحِيح مُسْلِم، إِنّـه ﷺ قَـال: «إِنّ الله اَصْطَفىٰ كِنَانة مِن وِلد إِسْمَاعِيلَ، واَصْطفىٰ قُرَيْشاً مِن كنَانة، واَصْطفىٰ مِن قُرَيْش بَنِي هَاشم، واَصْطفَانِي

(١) اَلتَّكْوِير: ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) أنظر، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِابْن حَجر العَسْقلاَني، (مِنْهُ ﷺ). و: ١٢٢، تَأْرِيخ دمشق: ٢/٢٦١، كنز العُمَّال: ٦/١٥٧، و: ٦/٤٠٠، طَبْعَة أُخرىٰ، و: ١١/٦١٨ ح ٣٣٠٠٦، فَضَائِل الْصَّحَابَة لأَحْمَد بـن حـنبل: ١/٣٩٤ ح ٥٩٩، الرِّياض النَّضرة: ٢/٣١ ح ٤٤٤، كشـف الخـفاء: ١/٥٦١ ح ١٥١٣ و: ٢/٩٣ ح ١٧٧٩، المُصَنَّف لِابْن أَبي شَـيبة: ٦/٣٥١ ح ٣١٩٤٩، المُعْجَم الأَوسـط: ٢/١٢٧ ح ١٤٦٨، مُسْنَد الحَارث: ٢/٨٧١ ح ٩٣٣، المُعْجَم الْكَبِير: ٣/٨٨ ح ٢٧٤٩، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١/٤٣ ح ١٠٤، فيض القَدِير: ٣/٤٦، حُلية الأَوْلِيَاء: ١/٦٣ و: ٥/٣٨، مِيزَان الإِعْـتِدَال فِي نـقد الرِّجَـال: ٦/٤٣٠ ح ٨٥٥١، لِسَان المِيزان: ٦/٣٩ ح ١٥٥، تَأْرِيخ بَغداد: ١١/٨٩ رقم «٥٧٧٦»، العِلَل المُتَناهية: ١/٢١٦ ح ٣٤١، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحين: ٣/١٣٣ ح ٤٦٢٥ و ٤٦٢٦ و ٤٦٢٧، مَجْمَع الزَّوائـد: ١١٦ و ١٣١، المَناقب لِابْن المَغازلي: ٢١٣، مَجْمَع الزوائد: ٩/١١٦، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِابْن حجر: ٧٣ طَبْعَة أُخرىٰ، الرِّياض النَّضرة: ٢/١٧٧ طَبْعَة أُخرىٰ.

مِن بَنِي هَاشم »[١] . (لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ ، وَ لاَ ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ) . هُـو خَـير أَهْـل الأَرْضِ طُرّاً حَسَباً ونَسَباً ٱنْتَقل مِن أَصْلاَبٍ طَاهرة إِلىٰ أرْحَام مُطهرَة . هَٰذِه هِي عَقِيدة الشِّيعَة الإِمَامِيَّة فِي جَمِيع الأَنْبِيَاء دُونَ ٱسْتثنَاء[٢] .

(أَلَا وَ إِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا) وهُم مُوجُودُونَ فِي كلّ عَصر وَجِيل ، ومِن عَلاَمَة أَحَدهُم أَنّه يُحب الْخَيْر لكلِّ النّاس ، ولاَ يَضمر شرّاً لِمَخلوق ، ولاَ يَعِيش عَلىٰ حسَاب الآخرِين ، بَل مِن كَد اليَمِين وعَرق الجَبِين (وَ لِلْحَقِّ دَعَائِمَ) وهُم الْعُلَمَاء الَّذِين يُبينُون حُكم الله للنَّاس ، ولا يَشترُون بِهِ ثَمَناً قَـلِيلاً (وَ لِلطَّاعَةِ عِصَماً) مَـن أَرَاد الإِدمَان عَلىٰ طَاعة الله فِي كلّ شَيء ، ولاَ يَـعصِيه فِي شَيء فَـالطَرِيق إِلىٰ ذَٰلِكَ سَهلٌ يَسِير ، وهُو كتَاب الله ، قَال سُبْحَانَهُ : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَـعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٣] .

---

(١) أُنظر ، صَحِيح مُسْلِم ، كِـتَاب «الفـضَائِل» بَـاب : فَـضل نَـسب النَّـبِيّ ﷺ . (مِنْهُ ﷺ) . و : ١٧٨٢/١ و : ١٩٦٣/٤ ، ح ٢٥٣٣ ، وأخرج البُخَاريّ في صَحِيحه : ١٦٦/٤ ، وأَحمد فِي مُسْنَده : ٤١٧/٢ و : ١٠٧/٤ ، وكنز الْعُمَّال : ٤٢٧/١١ ، التِّرمذيّ كتَاب المناقب : ٥٨٣/٥ ، وأخرج البَيْهَقِيّ فِي دَلاَئِل النُّبوَّة : ١٧٤/١ ، عُيُون الأَثر لِابْن سيّد النّاس : ٢٤/١ ، دار الْمَعْرِفَة .

والسّيوطيّ في الخصائص : ٦٣/١ ، طَبْعَة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ : ٦٠/١ ، طَبْعَة دار الصّادر ، بيروت ، غَايَة السّؤول في سيره الرَّسُول : ٢٥ ، طَبْعَة دار الكُتب ، الحاوي للفتاوي : ٢١٠/٢ ، طَبْعَة دَار الكُتب العلمية ، سُنَن أَبِي داود : ٤٤/٥ ح ٤٦٥٧ ، والتِّرمذيّ في سُننه : ٥٠٠/٥ ح ٢٢٢٢ ، وسُنَن ٱبن ماجه : ٧٩١/٢ ، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ : ١٠ ، ٱنتشارات جهان ، مختصر تَأريخ دِمشق : ٢٧/٢ ، دَلاَئِل النُّبوَّة للبيهقي : ١٦٥/١ ، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد للصّالحي : ٢٧٥/١ ، سِيرة ٱبـن هشـام : ١١٠/١ ، تـراث الإِسْلاَم ، ٱبن كَثِير في سِيرته : ١٩٠/١ ، دَار إِحياء التّراث ، وغَيْر ذَٰلِكَ من الأَحَادِيث .

(٢) أُنظر ، الشَّرح فِي الْخُطْبَة : (٩٤) .

(٣) ٱلْبَقَرة : ١٨٧ .

(وَ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ). لكلّ عَمل جَزَاء غَداً عِند الله، وأيضاً لكلّ عَملٍ أثره فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا، فمَن فَتح قَلبه لِلشَّيْطَانِ فِي الذَّنب الصَّغِير اتخذه مَقراً لهُ ومَوْطِناً مَا دَام حَيّاً، ومَن أقبَل عَلىٰ الله فِي طَاعة ولَو مُقدار ذَرّة كَان الله فِي عونَه إِلىٰ غَيْرها، ودَفَع بِهِ إِلىٰ مَا هُو خَير وأَبقىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1]. (يَقُولُ عَلَى الأَلْسِنَةِ) أي أنّ مَا جَاء عَلىٰ أَلسِنَةِ الأَنْبِياء هو عُون لِلعَبد عَلىٰ طَاعة الله (وَ يُثَبِّتُ الأَفْئِدَةَ). إنّه تَعَالىٰ يُثَبِّتُ ٱلَّذِينَ أمَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِمَا وَعدَهُمْ مِن فَضْلِهِ وإِحْسَانِهِ.

(وَ اعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ). الْمُرَاد بِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ هُنا دِينَه، وبِالْمُسْتَحْفَظِين الْعُلَمَاء بِالدِّين، لأنّ مَن عَلِمَ بِدِين الله كَان الدِّين وَدِيعَة لله عِنده يَجب عَلَيْهِ أنْ يَحْفظهَا وَيَحرص عَلَيْهَا (يَصُونُونَ مَصُونَهُ) أي يَصُونُونَ دِين الله مِن التَّحرِيف والتَّزيِيف (وَ يُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ) يَنْشرُون الدِّين بَيْنَ النَّاس (يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَ يَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ.... إلخ). تَآخـوا فِي الله، وتَعَاونُوا عَلىٰ الصَّالِحَات، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ عَلىٰ تَحمُل المَشَاق مِن أجْله (لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ) لأنّهم عَلىٰ بَصِيرة مِن دِينهِم (وَ لَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ) لِأَنَّهَا تَنُم عَن الصِّغَار، وتَقُود إِلىٰ النَّار.

(عَلَىٰ ذَٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَ أَخْلَاقَهُمْ) هُم أَبْنَاء الإِنْسَان ظَاهِراً وَوَاقِعاً، وخَلقاً وَشِيماً بكلِّ مَا فِي الإِنْسَانِية مِن فضَائِل، وغَيْرهم حَيوَان فِي شكلِ إِنْسَان (فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَ بِهِ يَتَوَاصَلُونَ) أي عَلىٰ عَقَد الأَخلَاَق الرَّضِية وَبِهِ يَتبادَلُون الإِخْلاَص

(١) مُحَمَّد: ١٧.

والثِّقَة، والْبِرّ والرَّحْمَة (فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَىٰ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَ يُلْقَىٰ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَ هَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ). التَّمْحِيصُ وَالتَّخْلِيصُ: الغَرْبَلَةُ، والتَّمْيِيز بَيْنَ الجَدِيد والرَّدِيء، والْمَعْنَىٰ أَنّ الأخْيَار يَمْتَازون عَن سَائِر النَّاس كَمَا يَمْتَاز الْبَذْر الصَّالِح للزَّرع عَن الْبَذْرِ الفَاسد الَّذي لاَ يَصلُح إلاّ لِلطَرح مَع القُمَامَة.

(فَلْيَقْبَلِ ٱمْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا). يَأخُذ نَصِيحَتِي مَجَانَاً ومِن غَيْر ثَمَن إلاّ أنْ يَقْبَلها وَيَعمل بِهَا، وَسَيرىٰ أَنَّهَا تَعُود عَلَيْهِ بكُلّ خَير (وَ لْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا... إلخ). وَلِيَتَأَهَب وَيَسْتَعد لِلمَوْت قَبل أنْ يَأتِيه بَغْتَةً (فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَ مَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ) أي يَعْمَل لآخِرَته فإنَّه يَتَحَول وَيَنْقَلب إلَيْهَا عمّا قَرِيب (فَطُوبَىٰ لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَ تَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ... إلخ). يَسْتَمع الْقَوْل فَيَتبع أَحْسَنه أيَّاً كَان قَائِله، لأنّ: «ٱلْحِكْمَة ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ! فَخُذِ ٱلْحِكْمَة وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ»[1]، كَمَا قَال الإمَام.

(وَ بَادَرَ الْهُدَىٰ قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ) دونكُم بِالْعَجْز أو الْمَوْت، وأبوَاب الْهُدَىٰ هِي أَبْوَابُهُ تَعَالَىٰ، والله لا يَغلقهَا أَبداً، ولاَ يَصد أَحداً عَنْهَا. ولكن العَبد يَعْرِض وينْصَرِف، أو يَرْغَب بَعد فوَات الأوَان (وَ أَمَاطَ الْحَوْبَةَ) يَنْدَم عَلَىٰ مَا فَرط وَقَصّر، وَيَتضَرع إلَىٰ الله أنْ يَغْفر وَيَرحم (فَقَدْ أُقِيمَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَ هُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ). الأَدِلة قَائِمَة عَلَىٰ سَبِيل الرُّشد والْهِدَايَة، ومَن نَكَبَ عَنْهَا قَامت عَلَيْهِ الحُجّة، وحَقّت عَلَيْهِ كَلِمَة العَذَاب.

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٨٠).

الخطبة

-٢١٥-

لله الحُجَّة:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً، وَ لاَ سَقِيماً، وَ لاَ مَضْرُوباً عَلَىٰ عُرُوقِي بِسُوءٍ، وَ لاَ مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَ لاَ مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَ لاَ مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَ لاَ مُنْكِراً لِرَبِّي، وَ لاَ مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَ لاَ مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَ لاَ مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَ لاَ حُجَّةَ لِي. وَ لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَ لاَ أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي. أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَ الْأَمْرُ لَكَ. أَللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَ أَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي. أَللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ. أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَىٰ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ.

اللُّغَة:

عُرُوقِي: أَعْضَائِي. ودَابِرِي: نَسْلِي، ومُلْتَبِساً: مُخْتَلِطاً. والتَّتَايُعَ ـ بالياء ـ

التَّهَافُت فِي الشَّر، واللُّجَاجة، وفِي بَعْض النُّسَخ تَتَابَعَ بِالبَاء لاَ بِاليَاء.

الإِعْرَاب:

يُصْبِحْ تَامَة، وَمَيِّتاً حَال مِن يَاء المُتَكَلِّم، والمَصْدَر مِن أَنْ أَفْتَقِرَ، وأَنْ نَذْهَبَ مَجرُور بِمِنْ مَحْذُوفَة.

المَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً، وَ لاَ سَقِيماً). يَحْمد الإِمَامُ عليه السلام خَالِقه تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعَمِه الَّتِي لا تُحصىٰ، ومِنْهَا إِنّه أَصْبَحَ سَلِيماً مُعافىً فِي بَدنَه وَصحتَه. ومِن أَقْوَاله: نعْمتَان مَجْهُولتَان: الصِّحَة والأَمَان[1] (وَ لاَ مَضْرُوباً عَلَىٰ عُرُوقِي بِسُوءٍ) أي سَلِيم الأَعْضَاء.

لاَ إِيمَان بِلا خَوْف مِن الله:

(وَ لاَ مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي). حَقَّر الإِمَام الدُّنْيَا وصَغَّرها، وقوّمها كما قَال عليه السلام: «دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[2]، أو «إِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ»[3]، ونَعَتها بِالأَفعىٰ وبكلِّ سُوء ورَذِيلة، ولذَا قَطع مَعهَا

(١) يُنسب هَذَا الْقَوْل إِلىٰ الرَّسُول صلى الله عليه وآله كما في مُسْنَد الرّضا: ١٢٠، روضَة الوَاعظِين: ٤٧٢، التُحفَة السَّنية (مخطوط): ٦٧، شَجرة طوبىٰ: ٣٦٨.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الْخُطْبَةُ (٣).

(٣) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الْخُطْبَةُ (٢٢٤).

العُلاَقَات والصِّلات، ومَع هَذَا يَتهم نَفْسَه بِسُوء الْعَمَل، ويَحمد الله الَّذي لَمْ يَأخذه مِن مأمِنْه! . . . ولَيْسَ هَذَا مُجَرد تَوَاضع، ولا هُو دَرس وتَعلِيم للآخرِين ـ كَمَا يُقَال ـ كَلا، إنّه صِدق فِي الْإِيمَان ورسُوخ فِي الْيَقِين، ومِن بدَاهة الحقَائِق إنّ الْخَوْف مِن الله يُقاس بِمَعْرِفَته والفَهم عَنْه. وكَذَلِكَ الرَّجَاء.

وَمَهمَا شَككت فإنّي لاَ أشك إطلاَقاً إنّ مِن أكبر الكَبَائر أنْ يمتلىء قَلب الْمَرْء رُعباً مِن المَخلوق ولا يَخَاف الْخَالِق فِي شَيء، وإنّ مَن كَان هَذَا شَأنه يُعامل فِي الْآخِرَة مُعَامَلَة الْكَافِر المُلحِد إلاّ أنْ يَشَاء الله. وأنَا أعرف مَن يَعترف بِلسَانه لله بِالوحدَانِية ولِمُحَمّد بِالرِّسَالَة، ولكنْ لاَ أثر فِي تَصرفَاته لِلخَوْف مِن الله فِي كَثِيرٍ، أو قَلِيل.. أنَّهَا تَصدُر عَن مَصْلحَته، ولاَ شَيء وَرَاءها، فَكيف أُصدق إنّه مـن الله فِي شيء؟ حَتَّىٰ ولَو طَلب العُون مِنْهُ لْقَضَاءِ مَصْلَحة مِن مصَالح دُنْيَاه... أَبَداً لا دَلِيل عَلىٰ الإِيمَان الصَّادق إلّا الْخَوْف مِن الله عَملِياً لاَ نَظرِياً فَقط.

(أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَ لَا حُجَّةَ لِي). فَرق بَعِيد بَيْنَ الطَّاغِية والإِمَام الْعَادِل، فالأوَّل يُرِيد السِّيطرَة كغَايَة، والتَّحكم بِدمَاء النَّاس ومُقدرَاتهُم، ويَعمل جَاهداً لتَثبِيت السُّلْطَان ودَوَامَه فِي يَده وفِي نَسله، أو فِيمن يَشاء مِن بَعده، والوَسِيلة الوَحِيدة الّتي تَضمن لهُ هَذِه السِّيطرَة ودوَامها ـ كَمَا يُفكر ويَعتَقد ـ أنْ يَملأ الْقُلُوب رُعباً وهَلعَاً مِن بَطشه وهيبَته، ومِن أجْل هَذَا يَعتَبر القُوَّة هِي النِّظَام الحَكِيم لِسيَادته ورِئَاسته.

أمّا الْإمَام الْعَادِل فإِنَّه يَنظر إلىٰ الحُكم عَلىٰ أنّه تَحمُّل تبعَات ومَسْئُولِيَات بِتَأمِين الدِّعَة والْأَمْن لِلرَّعِيَّة، وإقَامة الْعَدْل والمُسَاوَاة بَيْنَ الجَمِيع، وإنّه لَو وُجد مَظلوم وَاحد فِي رَعِيتَه فهُو المَسْئُول الأوَّل عَن ظُلاَمته. ومِن أجل هَذَا الشّعور

بِالمَسْئُولِيَة، وإنّه أَجِير مُؤْتمن ـ يَرىٰ أَنّه قَد ظَلَم نَفْسَه بِالتَّصدِي لِـلحُكم وقَـبُول السُّلْطَان، ولذَا تَرك بوذَا ٱلْمُلْكِ، وَولىٰ هَارِباً... ولَو أَحْجَم الإِمَام عَن ٱلخِلاَفَة فِي مِثل الظّرُوف الّتي كَان عَلَيْهَا الْمُسْلِمُون آنْذَاك، والأَحْدَاث الّتي قُتل فِيها عُثْمَانَ ـ مَا آخضرّ لِلإِسْلاَم عُود، ولكنّ الإِمَام تَحمّل المَسْئُولية عَلىٰ ضخَامتها، وَظَلم نَفْسَه، لاَ لِشيء إلّا لأنّه عَبْد مَمْلُوك ـ كَمَا قَال ـ لله ولِلإِسْلاَم وصَالح ٱلْمُسْلِمِينَ.

(**أَللَّهُمَّ آجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي... إلخ**). أَرَاد بِالكَرَائِم عَقْلَه وَسَمْعَه وَبَصرَه، وكلّ شَيء فِيهِ يُعِينه عَلىٰ التّصرف والحَرَكة، والإِمَام عليه السلام يَـتوسَل إِلىٰ الله أَنْ يُبْقِيه سَالماً مِن الآفَات، ويُقْبضَه إِلَيْهِ قَبل أَنْ يُرد إِلىٰ أرذَل الْعُمُر، فَيَعِيش قَعِيداً لا يَقوىٰ عَلىٰ شَيء، فَيَضْجَر مِنْهُ القَرِيب، ويَنْفُر البَعِيد... والإِمَام أَخذ هَذَا الدُّعَاء مِن رَسُول الله صلى الله عليه وآله فَقَد سُمع مِنْهُ أَكْثَر مِن مَرّة (أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ. أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَىٰ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ). أي نَعُوذ بِالله أَنْ تَنْحَرف بِنا الأَهوَاء عَن الْهُدَىٰ إِلىٰ الضَّلاَل.

وَبَعد، فإنّ الدُّعَاء ضَرب مِن الْعِبَادَةِ، مَـا فِي ذَلِكَ رَيب، فَـقد حَثّ عَـلَيْهِ الله، وَرَسُوله والأَئِمَّة الأَطهَار، ولكنْ أَفضَل الدُّعَاء تَرك الذّنُوب.

الخطبة

-٢١٦-

الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّة ١ ـ ٢:

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَ لَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَ أَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَىٰ لَهُ. وَ لَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَ لَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً للهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَ لِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَ لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَ جَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ، وَ تَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ(١).

ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَ يُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَ لَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ. وَ أَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ، وَ حَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَىٰ الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ،! فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَ عِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَ لَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا

بِٱسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ(٢).

اللُّغَة:

التَّوَاصُفِ: تَفَاعُل يَكُون بَيْنَ ٱثْنَيْن أو أَكْثَر، وذَلِكَ بأَنْ أَصفُ لَك شَيْئَاً، ثُم تَصفَه أَنْتَ لِي بِمَا تَرىٰ. والتَّنَاصُفِ: إنْ أَنْصفك مِن نَفْسي، وتَنْصفِنِي مِن نَفْسك.

الْإِعْرَاب:

تَفَضُّلًا مَعْفُول مِن أجْله لجَعَلَ، ومِنَ الْمَزِيدِ مُتَعلِّق بـ«تَوَسُّعاً» وفَرِيضَةٌ بِالرَّفع خَبَرَ لِمُبْتَدأ محَذُوف أي هِي فَرِيضَةٌ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ) أي بِصفَتِي مُمثلاً للسُّلطة، لا بِصفَتِي الشَّخْصِيَة، أو بَأيّة صِفَة أُخرىٰ... وقد أتىٰ عَلىٰ النّاس حِين من الدّهر لَم يَعرفُوا فِيهِ حَاكمَاً ولا محَكُوماً، ولاَ شَيْئَاً مِن الحقُوق الْعَامَّة، وبَعد أَنْ ٱنتقَل الْإِنْسَان مِن حيَاة العُزلة والانْفرَاد إِلىٰ حيَاة الْجَمَاعَة. وخَضع الْفَرْد لشعُورهَا آمن بضَرورة الخضُوع للرَّئِيس والْحَاكِم وتَعظِيمه وتَقدِيسه دُونَ أي مُقابل... وهَكَذَا خَضَع أَهْل الصِّين للأَبَاطرَة أَبْنَاء السَّمَاء، وأَهْل مِصْر للفرَاعِنة أَبْنَاء الشَّمس... إلخ. وبمرُور الزَّمن عَرفت الجمَاعَات الحقُوق الْعَامَّة والمُتبادلة بَيْنَ الْحَاكِم والمحَكُوم، وأَصْبَحَ لهَا مُؤلفَات وعُلَمَاء وكُليات، وأَشَار الْإِمَام فِي بدَاية هَذِه ٱلخُطْبَة إِلىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ شَرّع أحْكَاماً حَدد فِيها حَقّ الرَّاعِيَ عَلىٰ الرَّعِيَّة،

وحَقّها عَلَيْهِ[1]. ثم قَالَ:

(فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَ أَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ). الْحَقّ مَيدَان وَاسع للوَصف والْقَوْل، والنَّاس يَصُولون فِيهِ ويَجُولون خطَابَةً وكتَابَةً وَمحاضرَات، ولَكِنَّهُم يَضِيقُون بِهِ صَدراً إذَا جَاء دور التَّطبيق والْعَمَل (لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَىٰ لَهُ). هَذِه قِسمَة عَادلة متُوَازنَة: لَكَ مِثل الَّذي عَلَيْكَ، وعَلَيْكَ مِثل الّذي لَكَ، وإنْ كُنت لاَ تَرىٰ حقّاً عَلَيْك لغَيْرك فَعَلَيْكَ أَنْ لا تَرىٰ حَقّاً لَكَ عَلَيْهِ، وقَدِيماً قِيل: «أَنْ تُحب لهُ مَا تُحب لِنَفسك، وأنْ تَكرَه لهُ مَا تَكره لِنَفْسك»[2]... هَذَا هُو مَبدأ الْعَدْل، والْإِنْصَاف، وقَانُون الطَّبيعَة أيضَاً، ولاَ أَحد فَوْق الطَّبيعَة إلّا خَالق الطَّبيعَة... ومن هُنا تَفجر الصّراع الرَّهِيب بَيْنَ الْأَقْوِيَاء الَّذين يَنكرُون التّوازن الْعَادِل، ويَصرُون عَلىٰ الاِمْتياز الظَّالِم، وبَيْنَ الضُّعفَاء الَّذين يَرفضُون الْاِسْتبْدَاد والْعُدْوَان عَلىٰ حقُوقهم، وحُريَاتهم، أمّا تَحدِيد الْحَقّ فهُو وَليد الرّوَابط بَيْنَ النَّاس، ويَختلف بِحَسبهَا.

الثَّوَاب تَفضُّل لاَ اَسِتْحقَاق:

(وَ لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ). لاَ حَقّ مُتبَادل بَيْنَ الْخَالِق والمَخلُوق، والوَاجب والمُمكن، وهَل يُقَاس النَّقص بِالكَمَال، والضَّعْف بِالاِقْتدَار؟.

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة: (٣٤). (مِنْهُ).

(٢) أُنظر، كتَاب المُؤمن: ٤٠، الكَافِي: ٢/١٦٩، المَحَاسِن: ٢/٥٩٥، الْفَقِيه: ٢/٦٢٥، الخِصَال: ٣٥٠، أمَالي الصّدوق: ٤٠١، مُنية المُرِيد: ١٩٠، الجَامِع للشَرائع: ٦٣٢، الدّعوات: ٢٢٦، رسَائل الشّهيد الثّاني: ٣٢٧، تُحف الْعُقُول: ٧٤، وَسَائِل الشّيعة: ١٢/٢٠٥ ح ٧.

إنّ الأَمْر كلّه لله، وعَلينا أنْ نَسمَع ونَطِيع، وهُو يُثِيبنا عَلىٰ الشُّكْر والطَّاعَة لاَ لشَيء إلّا لأنّه تَعَالىٰ كَتب عَلىٰ نَفسه الرَّحْمَة، كمَا قَال فِي الآيَة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وكَرر هَذَا القَوْل فِي الآيَة: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وإذَنْ فَلا ثَمرة وَرَاء النّزَاع فِي إنّ ثوَاب المُطِيع لله تَعَالىٰ هَل هُو لزُوم وٱستِحقَاق لِمبدأ العَدَالة الإلٰهِية، كمَا قَال المُعْتَزِلَة، أو هُو كَرَم وتَفضل، كمَا قَال الأَشَاعِرَة، والطَّاعَة مِن العَبد مُجرد وفَاء لأنعَم الله؟ لا جدْوىٰ من هذا النّزَاع مَا دَام سُبْحَانَهُ قَد كُتب عَلىٰ نَفْسَه أنّه لا جَزاء للإحسَان إلّا الإحْسَان.

«وقَوْل الإمَام: (وَ جَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَ تَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ المَزِيدِ أَهْلُهُ). يُومِىء إلىٰ أنّ الثّوَاب حَتمٌ بِإرَادَة الله لا بجَعل جَاعل سوَاه، وعَلىٰ هَذَا يُحمل قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[3] أي الّتي كَتَبها هُو عَلىٰ نَفْسَه.

(ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ... إلخ). لله عَلىٰ عِبَاده حُقُوق هِي لهُ وَحده لاَ صِلة لهَا بغَيْره عَلىٰ الإِطلاَق، مِنْهَا الإيمَان بِهِ وبِكُتبهِ، ومَلاَئِكتِهِ، وَرُسُلهِ، والتَّعبُد لهُ دُونَ غَيْره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ

---

(١) الأَنعَام: ١٢.
(٢) الأَنعَام: ٥٤.
(٣) ٱلنِّسَاء: ١٧٣.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(١).

ومِنْهَا حُقُوق للنَّاس، ولكنْ لاَ عَلىٰ سَبِيل الاِنْفرَاد والاِسْتقلاَل، بل عَلىٰ سَبِيل التّكافُؤ والتَّضامن بَيْنَ النّاس بَعْضهُم مَع بَعْض بِحَيث يَكُون أَحد الوَاجبِين بِالنِّسبَة للآخر كالجُزء المُتَمم لهُ، أي يجْبَان مَعاً وَيسقُطان مَعاً، ومِن هَذَا النَّوْع التَّعاون عَلىٰ الْبِرِّ والصَّالح العَام الَّذي يَتجَاوز مُسَاعدَات الْفَرْد بِسَد الحَاجَة مِن حَاجَاته الخَاصَّة، فإنّ هَذَا عَظِيم عِند الله، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، ولَكِنَّهُ عون مِن جَانب وَاحد، والتَّعاون مُشاركة بَيْنَ اثْنَيْن أو أَكْثَر. وأيضاً مِن هَذَا النَّوْع الحُقُوق الزّوجِية الّتي أشَار سُبْحَانَهُ إِلَيْهَا بقَوْله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(٢).

وأيضاً مِن هَذَا النَّوْع قَوْل الإِمَام: (حَقُّ الْوَالِي عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ) وهُو الوَلاَء للسُّلطة المَشرُوعة فِي شَخص الْوَالِي الْعَادِل لاَ الوَلاَء لشَخصه بِالذَّات، لأنّه وَكِيل لاَ أَصِيل (وَ حَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَىٰ الْوَالِي) وهُو تَأمِين حَاجَات الرَّعِيَّة وتَحقِيق أهدَافها، وهَذِه الحُقُوق الإِنْسَانِية المُتكَافِئة المُتبَادلة بَيْنَ الرَّاعِيَ والرَّعِيَّة هِي (فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ.!) ولأنّه هُو أصلهَا وَمَصْدَرهَا صَحَّ الْقَوْل فِيهَا: أَنَّهَا حُقُوق الله وحُقُوق النَّاس فِي آنٍ وَاحد.

(فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَ عِزّاً لِدِينِهِمْ) أي بِهَذَا التَّضامن، والتَّرابط بَيْنَ الحَاكِم والمَحكُوم تَستَقِيم الأُمُور، ويَعِيش الجَمِيع إِخْوَاناً مُتحَابِين، ومِن أجل هَذَا جَعَله سُبْحَانَهُ دستُور الحُكم وأسَاسه، والاِنْحرَاف عَنْهُ فَسَاد وضَلاَل يَؤول بِالمُجتَمع إِلىٰ الهلاَك والوبَال.

(١) الإِسْرَاء: ٢٣.
(٢) البَقَرَة: ٢٢٨.

(فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ). أَبَداً لاَ تَصْلُح الْأَوْضَاع، وَيَتِم الاِسْتِقرَار إلّا إذَا كَان الْوَالِي كَفُوءاً لِلقِيَام بِأعبَاء الحُكم: ومُخلصاً يُساوي نَفسَه وأهْلَه بأضْعَف ضَعِيف مِن رَعِيّتَه (وَ لا تَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلَّا بِٱسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ) وهَذِه الإسْتِقَامَة مَعنَاها الوَلاَء للسُّلطَة الْقَوِيَّة الْعَادِلَة، والتَّعاون مَعَهَا عَلىٰ أسَاس مَصلحَة الجَمِيع وتَأمِين حقُوقهم.

النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ الجُهْدِ... ٣ ـ ٤.

فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَىٰ الْوَالِي حَقَّهُ، وَ أَدَّىٰ الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَ قَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَ ٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَ جَرَتْ عَلَىٰ أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَ طُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَ يَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَ إِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَ ظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَ كَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَ تُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَىٰ، وَ عُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَ كَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَ لَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَ تَعِزُّ الْأَشْرَارُ، وَ تَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ[٣]. فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَ حُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ ـ وَ إِنِ ٱشْتَدَّ عَلَىٰ رِضَا اللهِ حِرْصُهُ، وَ طَالَ فِي الْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ ـ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَ لَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَ التَّعَاوُنُ عَلَىٰ إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَ لَيْسَ ٱمْرُؤٌ ـ وَ إِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَ تَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ـ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَىٰ مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ. وَ لَا ٱمْرُؤٌ ـ وَ إِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَ ٱقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ[٤].

اللُّغَة:

مَنَاهِجُ الدِّينِ: طُرقه الوَاضحَة. وَمعَالِمِ: جَمع مَعْلَم أي مَا يُستَدَل بِهِ عَلىٰ الطَّرِيق. وأَذْلَالِ بِفَتح الهَمزة ـ جَمع ذِل ـ بِكَسر الذّال ـ أي التَّعبِيد. وأَذْلَالِ السُّنن كَثرة الْعَمَل بِها أو الْعَمَل بِها عَلىٰ وَجهها وحَقِيقتها. والْإِدْغَالُ فِي الْأَمْر: أنْ يَدْخُل فِيهِ مَا يُفْسده. وَٱقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ: ٱحْتَقَرتْهُ.

الْإِعْرَاب:

فَصَلَحَ بِذَلِكَ جَوَاب إِذَا أَدَّتْ، فَهُنَالِكَ إِشَارة إِلىٰ الزَّمَان البَعِيد، وَمَحله النَّصب عَلىٰ الظَّرفِيَة أي فِي ذَلِكَ الزَّمَان، وبِبَالِغٍ ٱسم لَيْسَ والبَاء زَائِدَة، ومثله بِفَوْقٍ.

الْمَعْنىٰ:

(فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إِلَىٰ الْوَالِي حَقَّهُ، وَ أَدَّىٰ الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ). مَهمَا ٱجْتَهَدت الْقِيَادَة وأَخْلَصَت فِي عَملها ومَقَاصدها فإِنَّهَا لاَ تَأتِي بِخيرٍ إِلّا بِمَعُونة الْجَمَاعَة، تِلكَ تُخطط، وهَذِه تُنفذ، ومتىٰ تَمّ التّعاون بَيْنَ الطَّرفِين تَحققت الأَهدَاف (وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ) أي ٱستقَام النَّاس عَلىٰ الطَّرِيق الْقَوِيم (وَ ٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ) ومَعْنىٰ ٱعْتَدَالها الْعَمَل بِمُوجبهَا (وَ جَرَتْ عَلَىٰ أَذْلَالِهَا السُّنَنُ) جَمع سُنَّة، وَهِي قَوْل الْمَعصُوم أو فِعْله أو تَقرِيره[1]، والْمَعْنىٰ إذَا أَدىٰ كلّ مِن الرَّاعِيَ والرَّعِيَّة مَا عَلَيْهِ سَارت سُنَّة رَسُول الله ﷺ فِي مَجْرَاها الطَّبِيعِي بِلا تَحرِيف وتَزيِيف مِن أربَاب

---

(١) أنظر، فرَائِد الأُصول للشّيخ مُرتضىٰ الأنصَاري: ٣٦٥، كفَاية الأُصول للآخُوند الخرَاسَاني: ٨، أُصول الفقه للشّيخ مُحمّد رِضا المُظفر: ٢/٥٧.

الْأَهوَاء والْأَغرَاض.

(فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ) ذَلِكَ إشارة إلىٰ صِيَانَة الْحَقّ المُتبَادل بَيْنَ الرَّاعِي والرَّعِيَّة، ومِن البَدَاهة أنّ صَلاَح الزَّمَان بِصَلاَح أَهله (وَ طُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ) أي ثَبتَت وآستَمَرت، لِأَنَّهَا تَقوم عَلىٰ الْحَقِّ، والْعَدْل (وَ إِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، آخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ... إلخ). إنْ تَجَاوز الرَّاعِيَ حقّه المُقرر آنتَهىٰ إلىٰ الْاِسْتِبْدَاد، وإنْ تَجاوزَت الرَّعِيَّة الْحُدُود عَمّت الفُوضىٰ، وآنشقَت الصّفُوف، وأُمِيتت السُّنَّة، وكَثُرت البِدع، ولا زَاجر عَن مُنكر وآمر بِمَعرُوف (فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَ تَعِزُّ الْأَشْرَارُ) تبعاً للأَوضَاع القَائِمَة، والبِيئة الّتي يَعِيشُون فِيهَا (وَ تَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ). المُرَاد بِالتَّبِعَات المَسْئُولِيَات أو العِقَاب، ولاَ شَكّ فِي وجُود التَّرَابط بَيْنَ الجرَائِم والعِقَاب كمّاً وكيفاً.

(فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَ حُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ). أَشَار الْإِمَام أوّلاً إلىٰ أنّ أُمُور المُجتمع لاَ تَستَقِيم، ولاَ تَصْلح فِيهِ الْأَوْضَاع إلّا إذَا أدىٰ كلّ من الرَّاعِي والرَّعِيَّة مَا عَلَيْهِ، فَإنْ قَصّر أَحَدهُما أو كِلاهُما ظَهر الْجَوْر، وسَادت البِدع، وتَعطَلت الْأَحْكَام، ثُمّ أَشَار الْإِمَام إلىٰ الطَّرِيق السَّلِيم لِعلاَج الْأَوْضَاع الفَاسدَة، وهُو التَّنَاصُح والتَّعَاوُن بَيْنَ العُقْلاَء وأُولِي الشَّأن، وذَلِكَ بِأَنْ يَبحثُوا عَن السَّبب والْمَصْدَر، فإنْ كَان التَّقْصِير مِن الْحَاكِم نَصحُوه وقَومُوه، فإنْ آستقَام وإلّا عَزلوه، وإنْ كَان مِن بَعْض الرَّعِيَّة وفِئَاتها تَعَاونُوا مَع الْحَاكِم عَلىٰ إصْلاَحها، فإنْ فَاءَت وإلّا قَاتلوهَا حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللهِ.

(فَلَيْسَ أَحَدٌ ـ وَ إِنِ آشْتَدَّ عَلَىٰ رِضَا اللهِ حِرْصُهُ... إلخ). أَبداً مَا مِن أَحَدٍ بَالِغاً مَا بَلغ مِن العِلم والْعَمَل إلّا وهُو فِي حَاجَة إلىٰ النَّصِيحة والتَّعاون، لأنّه إنْسَان غَير

مَعصُوم، وَهَذَا الْإِنْسَان لاَ يَعْرِف أَخطَاءه وَعيُوب نَفْسَه، لِأَنَّهَا تَخدعَه عَن حَقِيقتها... وغَيْره أَعرف مِنْهُ بِهَا، وإِذَنْ فَعلِيه أَنْ يَتعَاون مَعَهُ لِمَعْرِفَتها... ومن الَّذي لاَ يُحابِي نَفْسَه، وَينحَاز إِلَيْهَا، ويُحاول بِشتىٰ الوَسَائِل أَنْ يُبرهن عَن صِّفَاتِها وصوَابها؟ ولاَ عِلاَج لهَذا الدَّاء إِلّا أَنْ نَعرف رَأي الآخرِين فِينا الَّذين يَنصفُون ولاَ يُبنُون أَقوَالِهم عَلىٰ الْهَوَىٰ والْجَهْل.

(وَ لَيْسَ ٱمْرُؤٌ ـ وَ إِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَ تَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ... إلخ). لِنَفتَرض ـ حَقِيقَةً لاَ جَدلاً ـ إِنّ إِنْسَاناً يَحتَاط لدِينه، ويَحترس مِن الْأَخْطَاء جَهد طَاقته فهَل يَجُوز لنَا أَنْ نَفترض ـ أيضاً حَقِيقَةً لاَ جَدلاً ـ إِنّه لاَ يخطىء فِي قَوْلٍ أو فِعلٍ مَع العِلم بأَنّه غَيْر مَعصوم؟. وإِذَنْ هُو دَائِماً فِي حَاجَة إِلىٰ العُون والمُسَاعدة (وَ لَا ٱمْرُؤٌ ـ وَ إِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَ ٱقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ... إلخ). وأيضاً مَا مِن أَحَدٍ ـ وإِنْ ٱزدرَتْه ٱلْأَعْيُنُ ـ إِلّا وَفِيهِ جِهة إِيجَابِية يَنْتَفع بِها الآخرُون مَع العِلم بأَنّ فِيهِ كَثِيراً مِن الجِهات السَّلبِية، وإِنّه فِي أَمَس الْحَاجَة إِلىٰ النَّصِيحَة والمُسَاعدة مِن أجلِها.

والخُلاَصة أَنّ الْإِنْسَان، أي إِنْسَان، لاَ يَسْتَطِيع أَنْ يَصنع نَفْسَه بِنَفْسَه، وإِنّه بِحَاجَة إِلىٰ مَعونَة الآخرِين مِن أَبْنَاء نَوْعَه حَتّىٰ ولو كَانوا دونَه بمرَاتب، والسِّر أَنّ طَبِيعَة النَّاس وَاحدة تَعلو عَلىٰ كلّ الفوَارق، وتَضم تَحت لوَائها كلّ مَن يَمشي عَلىٰ رِجلِين، والشّيء الوَاحد لاَ يَنفصل عَن نَفْسَه، وإِنْ تلونَت فرُوعَه، وتَنَوْعَت فِي شَكلها ولونَها.

كَرَاهِيَة الإِطْرَاء..٥ ـ ٧:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَ جَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ

يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذَلِكَ ـ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَ إِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَ لَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا ٱزْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً. وَ إِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَ يُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَىٰ الْكِبْرِ، وَ قَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَ ٱسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَ لَسْتُ ـ بِحَمْدِ اللهِ ـ كَذَلِكَ(٥). وَ لَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَ الْكِبْرِيَاءِ، وَ رُبَّمَا ٱسْتَحْلَىٰ النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَ فَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَ لَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَ لَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَ لَا تَظُنُّوا بِي ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَ لَا ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي(٦). فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَ لَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَ أَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَ أَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَىٰ مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَ أَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَىٰ(٧).

اللُّغَة:

السُّخف: ضَعف الْعَقْل. والمُرَاد مِن التَّقِيَّة هُنا الخرُوج مِن المَسْئُولية المُلقَاة عَلىٰ عَاتقه، والقِيَام بمَا يجب. والبَادِرَة: الحِدَة. والمُصَانَعَة: المُدَارَاة.

الإِعْرَاب:

مِنْ حَقِّ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف خَبَراً مُقَدمَاً لـ«إِنَّ» والمَصْدَر مِن أَنْ يَصْغُرَ ٱسمها، وَلَمَنْ اللاَّم للتَّأكِيد، ومَنْ خَبَر إِنَّ أَحَقَّ، والمَصْدَر مِنْ أَنْ يُظَنَّ ٱسم إِنَّ مِنْ أَسْخَفِ، وأَنْ يَكُونَ جَالَ «يَكُونَ» زَائِدَة، والمَصْدَر من أَنِّي أُحِبُّ فَاعِل جَالَ، وٱنْحِطَاطاً مَفْعُول مِن أجلهِ لَتَرَكْتُهُ، فَإِنَّهُ الضَّمِير للشَّأن، والمَصْدَر مِن أَنْ يُقَالَ بَدل ٱشتِمَال مِنْ الْحَقِّ، والمَصْدَر مِن أَنْ يُعْرَضَ بَدل ٱشتِمَال مِن الْعَدْل.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: فَأَجَاب الإِمَامَ عليه السلام رَجُل مِن أَصْحَابه بِكلاَم طَوِيل يُكثِر فِيهِ الثّناء عَلَيْهِ، ويَذكر سَمعَه وطَاعته. فقَال عليه السلام: (إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَـظُمَ جَـلاَلُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَ جَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ... إلخ). نَحْنُ نَقرَأ وَنَسمَع مَبهُورِين عَن الْعُقُول الالِكـتْرُونِيَة، وصـعُود الإِنْسَـان عَـلىٰ ٱلْـقَمَرْ، وغـيْر ذَلِكَ مِـن ٱبْـتكَار العِلم... أمّا الَّذي تَمكنت فِي نَفْسَه عَظَمَة الخَالِق وجَلاَله فإِنَّه لاَ يَرىٰ ذَلِكَ ولاَ الْعَقْل الَّذي هُو مَصْدَر العِلم والاِبْتكَار ولاَ الكَوْن بمَا فِيهِ ـ لاَ يرىٰ كلّ أُولاَء شَيْئاً مَذكُوراً إِلىٰ جَانب ذَرّة مِن عَظَمَة الله وَجَلاَله، بل يَزدَاد إِيمَاناً بِاللهِ وَفَهماً لعَظَمَتِهِ، لأَنّه هُو المَبدأ الأَوّل لكلِّ شَيء. وتَقَدَّم قَوْل الإِمَام عليه السلام فِي وَصف الْمُؤْمِنِينَ: «عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ»[1]. والإِمَام سَيِّد العَارِفِين بِاللهِ وكمَاله وَجَلاَله، وأَعْلَم الْعُلَمَاء بِأَنّ مَعْرِفَته هَذِه هِي مِن أَعْظَم نِعَم الله عَلَيْهِ، وإِنّه أَحَـق النَّـاس أَنْ

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٩٣). (مِنهُ).

يَشكرَه عَلَيْهَا، ومِن شُكره وتُوَاضعه لله أنْ يَرىٰ كلّ مَا سوَاه حَتَّىٰ نَفسَه لَيْس بِشيء، وإذَنْ كَيْفَ يَسمح ويَسمع للمَدِيح والإِطْرَاء.

(وَ إِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ) أي أنّ مَن صَغّر وحَقّر كُلَّ مَا سِوَاىٰ الله هُو الَّذي (عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَ لَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ) والإِمَام يَشعر مِن الأَعْمَاق بِعَظِيم نِعَم الله عَلَيْهِ، وَلَطِيف إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، وذَلِكَ بأَنّ أوّل مَن آمَن بِرَسُول الله مِن الذّكُور، وجَاهد بَيْنَ يَدِيه، وفدَاه بِنَفْسَه، وأَخذ العِلم عَنْه حَتَّىٰ قَال واثِقاً: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»[1]، ومَا دَامت نِعَم الله عَلَيْهِ كَثِيرة وَعَظِيمة فَحُقُوقه عَلَيْهِ كَذَلِكَ (فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا ٱزْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً). وقَدِيماً، قِيل: «وَكَمَا تَرَانِي يَا جَمِيل أَرَاك» نَقول هَذَا، ونَحْنُ نَعلم بِأَنّ أَحداً لاَ يَبلغ مِن شُكره تَعَالىٰ بَعْض مَا تَستَوجِبه نِعْمَة وَاحدة، فَكَيف بمَا لاَ يَبلغها العَد والإِحْصَاء!.

(وَ إِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ الْوُلاَةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ... إلخ). العُقلاَء يَسْخرُون مِن الحَاكِم الَّذي هُو مَظَنَة الْكِبْرِ، والْفَخر، ويَرُونَه سَخِيفاً وحَقِيراً فِي نَفْسَه وَوَاقِعه، قَال رَسُول الله ﷺ: «آفَة الحَسَب الافْتخَار[2]... حَسَب الْمَرْء دِينَه، وَمرُوءتَه خُلقه»[3]. والحَسَب فِي اللُّغَة كُل مَا

(١) تَقدَّم أستخرَاج ذَلِكَ.

(٢) أُنظر، السَّرائر لِابْن إدرِيس: ٦١٧/٣، الكَافِي: ٣٢٨/٢ ح ٢، من لا يَحضره الْفَقِيه: ٣٥٧/٤، وَسَائِل الشِّيعة: ٤٢/١٦ ح ٣، مكَارم الأخلاَق للطّبرسي: ٤٣٦.

(٣) أُنظر، النّهاية في غَرِيب الحَدِيث: ٣٦٧/١، الكَافِي: ٧٩/٨ ح ٣٤، كَشف الخفَاء: ١٠٩/٢، سُنن الدَّار قُطني: ٢١٠/٣، أمَالي الطّوسي: ١٤٧ ح ٥٤، كَنز الْعُمّال: ٢٦٥/١٦ ح ٤٤٣٧٩، كتَاب الْعَقل وفضله لِابْن أبِي الدُّنْيا: ٣٣، الأشعثيات: ١٥٠، الْمُصَنَّف لِابْن أبي شَيبة: ١٦٤/٦ ح ٥، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ١٩٥/١٠.

يُعدّ مِن المفَاخر فِي مَفهُوم الْعَامّة[1]. (وَ قَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ). كَيْفَ تَظنُون بِي حُبّ الثنَاء، وأنَا أكرهه، وأكره مَن يُحبّه، ومَن يَظنّ أنّي أُحِبّه، وأَحمد الله عَلىٰ هَذِه الكَرَاهِيَة (وَ لَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَ الْكِبْرِيَاءِ) الْإِمَام يَكْرَه المَدِيح، ولَو ٱفترَض أنْ حَدَثتهُ بِهِ نَفْسَه لزَجرَها تَأدُباً مَع الله وَرَسُوله، فإنّهما أَحق مِنْهُ بِذَلِكَ وَأَوْلَىٰ.

(وَ رُبَّمَا ٱسْتَحْلَىٰ النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ) أي بَعْدَ أَنْ أَجهَدُوا أَنْفسهمْ فِي الْعَمَل وأَحسنُوا فِيهِ، وَلَيس ذَلِكَ بِمُحَرم عَلَيْهِمْ مَا دَامُوا بَعِيدِين عَن الرِّيَاء، فَمَا مِن أَحَدٍ إلّا وهُو يُحِبّ أنْ يَظهر لهُ الْخَيرُ أَمَام النَّاس إلّا صَفوَة الصَّفوَة كالإِمَام الَّذي قَال لأصْحَابه: (فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ) لِخَيرٍ عَملته، وجُهدٍ بَذَلته، لأنّي مَا عَملت وٱجتهَدت لِلثنَاء والْإطْرَاء بل (لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا... إلخ). أي إنّما فَعلت الَّذي فَعلت لأُحَرر نَفْسِي مِن المَسْئُولِيَة الّتي تحملتها بولاَيَتِي عَلَيْكُم، وأَصْبَحَ عَليَّ بموجِبها حُقُوق وفَرَائِض لله ولَكُم، وأَعمل جَاهداً للوَفَاء بهَا، ومَا زُلت مُقصراً فِي هَذَا المِيدَان... وإذَنْ فَعلَامَ المَدِيح!... وهَكذا العَظِيم يَستَقل مِن نَفْسَه كلّ خَير يَفعله، وكلّ نوَال يَبذله مَهما غَزَر، وَكَثُرَ.

(فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ) الَّذين يُعَانُون مِن سرطَان العَظَمة والْكِبْرِيَاء. قَال الفَيلَفُوس الصِّينِي «لِين يوتَانج»: «كُلّما زَاد عَدد الدّجَالِين

---

(١) أنظر. لِسَان الْعَرَب: ١/٣١٠، النّهاية في غَرِيب الحَدِيث: ١/٣٨١، مُختار الصّحاح: ١/٥٧.

وٱلْمُنَافِقِينَ ٱزدَاد المُصفقين والهَاتِفِين»[1]. (وَ لاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ) وَهُم الأَقْوِيَاء الَّذِين إِذَا خوطبُوا بغَيْر مَا يَشتهُون مِن التَّفخِيم ثَاروا وَهددُوا، والْمَعْنَىٰ: خَاطبُونِي بمَا يُخاطب بِهِ بَعْضكُم بَعْضاً، فإِنِّي وَاحد مِنكُم... هَذَا هُو الْإِسْلاَم برُوحه وجُوهَره يُحطم التَّمييز بَيْنَ النَّاس مَهما كَانَتْ الأَنْسَاب والمَنَاصب. «دَخل عَلىٰ النَّبيّ ﷺ أعرَابِي غَرِيب، فَٱرتَجف مِن هِيبَته. فقَال لهُ: هوِّن عَلَيْكَ، فإنّي ٱبن ٱمرَأة كَانَتْ تَأكل القَدِيد بِمكَّة»[2].

(وَ لاَ تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ) أي بِالنِّفَاقِ والرِّيَاء، بل بصرَاحَة وعَلىٰ سَجِيَّتكُم (وَ لاَ تَظُنُّوا بِي ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَ لاَ ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي). أنَا للهِ ولِلْحَقّ ومَع الْحَقّ، وَقَد مَلَك عليَّ عَقْلِي، وقَلبِي، وٱخْتَلط حُبّه بِلَحمِي ودَمِي فَكِيفَ أتبرَم بِهِ، وأنْفر مِنْهُ؟ (فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَل بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ). هَذَا مِن الوَاضِحَات الَّتِي لاَ يَختلف فِيهَا عَالمَان، ولا جَاهِلان، ويُسمِيه عُلَمَاء الأُصول بِمفهُوم المُوافقة، وهُو إِعْطَاء حُكم المَنطُوق بِهِ لِلمَسكُوت عَنْه بِطرِيق أَوْلَىٰ، ومِن أمثلتِه ﴿فَلَاتَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَاتَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[3]. فَالمَنْطُوق بِهِ التَّأفِيف، وَحُكْمه ٱلتَّحْرِيم، فَيَثبت الحُكم لِلضَرب

---

(١) أُنظر، كتاب كَيْفَ يَحيا ٱلإِنْسَان للفِيلسُوف الصِّيني «لِين يُوتانج»: ٦٨ طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م.

(٢) أُنظر، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٥٠٦/٢ ح ٣٧٣٣ و: ٥٠/٣ ح ٤٣٦٦، مَجْمَع الزّوائد: ٢٠/٩، مصباح الزّجاجة: ١٩/٤ و ٢٠، سُنَن ٱبن ماجه: ١١٠١/٢ ح ٣٣١٢، المُعْجَم الأوسط: ٦٤/٢ ح ١٢٦٠، الزُّهد لهَناد: ٤١٣/٢ ح ٨٠٢، نوادر الأُصول في أحَادِيث الرَّسول: ١٠٤/٢، الفِردَوْس بمأثور الخِطَاب: ٣٢٤/٤ ح ٦٩٤٣، تَهذِيب الكَمَال: ٤٤/٣، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ٢٣/١، عِلل الدَّار قُطني: ١٩٤/٦ ح ١٠٦٣.

(٣) ٱلإِسْرَاء: ٢٣.

بِطرِيق أَوْلَىٰ، لأنّ عِلَّة ٱلتَّحْرِيم الإسَاءَة للوَالدِّين، وَهِي فِي الضَّرب أَشَد وأقوىٰ، وأَوضح مِثَال أو دَرس علىٰ الخضُوع لِكَلمَة الحَقّ هَذِه الرَّائِعَة: قَال أَعرَابِي لِرَسُول الله ﷺ: «يَا مُحمّد هَذَا المَال مَال الله، أو مَال أَبِيك؟. فَشَهر صحَابِي عَـلَيْهِ سَـيْفَه. فقَال لهُ نَبِي الرَّحْمَة: دَعْهُ، إنّ لِصَاحِب الحَقّ مَقَالاً»[١].

(فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي... إلخ). أَبَداً لاَ تَرىٰ عَظِيماً، ولَن تَرَاه إلّا وهُو مُتهِمٌ لِنَفْسه حَتَّىٰ ولَو كَان نَبياً، فَقَد شَهد شَاهد مِن أَهلها بِبَرَاءة يُوسُفَ، ومَع هَذَا قَال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] حَتَّىٰ الإِيمَان بِالله يَحتَاج إِلىٰ عَونه وتَـوفِيقِهِ: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٣] أي إلّا أنْ يوفّق ويُعِين (فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَـمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ... إلخ). والعَبد لاَ يَملك شَيْئَاً مَع سيّده (وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَىٰ مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْـعَمَىٰ). الله هَدَانا بِعنَايته إِلىٰ الإِسْلاَم، وَأَخْرَجَنَا مِن الظُّلُمَات إِلىٰ ٱلنُّورِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٦٢/٣، صَحِيح مُسْلِم: ٥٤/٥، سُنَن التِّرمِذي: ٣٩٠/٢، المُحلىٰ: ١١٢/٩، نيل الأوطار: ٣٤٨/٥، السُّنن الكُبْرىٰ: ٣٥١/٥، كنز العُمَّال: ٢٥١/٦ ح ١٥٥٦٠، مَجْمَع الزَّوائد: ١٣٩/٤، فَتح العَزِيز: ٣٤٦/٩، تَلخِيص الحَبِير: ٣٤٦/٩.

(٢) يُوسُفَ: ٥٣.

(٣) الإنْسَانِ: ٢٩ ـ ٣٠.

(٤) الشُّورَىٰ: ٥٢.

الخطبة
-٢١٧-

أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَ مَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَ أَكْفَئُوا إِنَائِي، وَ أَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَ فِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَٱصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَ لَا ذَابٌّ، وَ لَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَىٰ الْقَذَىٰ، وَ جَرِعْتُ رِيقِي عَلَىٰ الشَّجَا، وَ صَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَىٰ أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ، وَ آلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ.

اللُّغَة:

أَسْتَعْدِيكَ: أَسْتَعِينَك. أَكْفَئُوا إِنَائِي: قَلَبُوه. والرَّافِدُ: المُعِينُ. والذَّابُّ: المُدَافع. وضَنَنْتُ: بَخِلْتُ. وأَغْضَيْتُ: صَبَرْتُ. والْقَذَىٰ: مَا يَقع فِي الْعَيْن أو فِي الشَّراب مِن تِبْنَة ونحوها. الشَّجَا: مَا ٱعتَرَض فِي الحَلق مِن عَظمٍ ونَحوه. والشِّفَارِ: جَمع شَفْرَة أي حَد السَّيْف ونَحوه.

الإِعْرَاب:

حَقّاً مَنصُوب بِنَزع الخَافض أي مُنَازَعَتِي فِي حَقٍّ، ومَغْمُوماً حَال، ومِثله مُتَأَسِّفاً.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: «مَضىٰ هَذَا الكلاَم فِي أثنَاء خُطْبَة مُتَقدمَة إلاّ أنّي ذكرتَه هُنا لاخْتِلاَف الرِّوَايتِين». والْخُطْبَة المُتَقدِمة الّتي أشَار إِلَيْهَا الشَّرِيف[1].

وبِالإِيجَاز قَامت قُرَيْش عَلىٰ رَسُول الله ﷺ، وحَاول عُتَاتها جَاهدِين أنْ يَطمسُوا رِسَالَته، وقَالُوا عَنهُ: إنّه مَجْنُونٌ، وكَاهِنٌ، وَشَاعِرٌ، وطَالب مُلكٍ... وأبىٰ ٱللّهُ إلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُون... وبَعْد أنْ ٱنتَقل النَّبيّ إلىٰ الرَّفِيق الأعلىٰ ٱقتصُوا مِنْهُ بِشخص أَهْلَ بَيْتِه. قَال الكَاتب المِصْري الأُستَاذ عَبد الكَرِيم الخَطِيب: «إنّ عَلِيّاً كَان أَكْثَرَ ٱلْمُسْلِمِينَ شِدَة عَلىٰ مُشركي قُرَيْش، وأَكْثَرهُم تَنكِيلاً وإفجَاعَاً فِي الأَبْنَاء، والآبَاء، والأعْمَام، والأخْوَال -إلىٰ- أنْ قَال -: وسَنَرىٰ آثَار ذَلِكَ وشوَاهده حِين تَقف قُرَيْش فِي وَجْه بَنِي هَاشم، وحِين تَذُودهُم عَن ٱلْخِلاَفَة، ثُمّ تَنَاهُم بِسيُوفهَا، فَتَقتُل شِيبهَا، وشَبَابها، وصِبيَانهَا، وتُشرد بِعَقَائِلها، وحرَائِرها، وكَأنّمَا تَثأر بهَذا لِقتلاَها فِي بَدْر وأُحُد»[2]. وأشرنَا إلىٰ ذَلِكَ سابقاً[3].

(١) أُنظر، ٱلْخُطْبَة: رَقم «٢٦»، والْخُطْبَة رَقم «١٧٢» وأيضاً تَظلّم الإِمَام من قُرَيْش فِي ٱلْخُطْبَة رَقم «٣٣». (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبوّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ١٤٦، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٩٢). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٢١٨-

فَطَائِع أَصْحَاب الْجَمَل:

فَقَدِمُوا عَلَىٰ عُمَّالِي وَ خُزَّانِ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ، وَ عَلَىٰ أَهْلِ مِصْرٍ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَ عَلَىٰ بَيْعَتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَ أَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَ وَثَبُوا عَلَىٰ شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً، وَ طَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّىٰ لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ.

الْمَعْنَىٰ:

عَضُّوا عَلَىٰ السُّيوف كنَايَة عَن الصَّبر، والثَّبَات فِي الْحَرْب. دَخل عَسكَر الْجَمَل الْبَصْرَة، وأمّن قَادَة الْجَمَل، وعَسْكَره أَهْلها عَلَىٰ أَنْفُسِهِم وأَمْوَالِهِم... وسُرعَان مَا غَدرُوا، وَقَتلوا، ونَهبُوا، ونَكّلوا، ومَثّلوا، ووَقَف لهُم جمَاعَة مِن أَصْحَاب الإِمَام وشِيعَته، وقَاتلُوهُم حَتَّىٰ اسْتُشهِدُوا، وَإِلَيْهِمْ أشَار الإِمَام بقَوْله: (وَ طَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّىٰ لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ) وتَقَدَّم الكلاَم عَن ذَلِكَ[1].

---

(١) أنظر، شَرح الخُطْبَة: (١٧٢). (مِنْهُ).

وَقَالَ المُستَشرِق الأَلمَاني «فُلهُوزن»: «كَانَتْ لِعَليٍّ مكَانة أكبر مِن مكَانَة طَلْحَة، والزُّبَيْر، وحِين حُوصر عُثْمَانَ كَان الإِمَام يُصلّي بالنَّاس، وكَان فِي نَظر كَافة أَهْل المْدِينَة خصُوصاً الأَنْصَار هُو ٱلْخَلِيفَة الطَّبِيعي لِعُثْمَانَ، وَقَد تَلقَ الْبَيْعَة الْعَامَّة فِي المَسجد... وٱنْقَلب عَلَيْهِ طَلْحَة، والزُّبَيْر ٱنْقلاَباً مُخزِياً، لأنّه بِتَلقِيه الْبَيْعَة نَال دونَهُما نَجَاحاً قَانُونياً... وكَانَا فِي حيَاة عُثْمَانَ لَم يَألوا جُهداً فِي الكِيد لهُ، وكَان يَبدو أنّ ذَلِكَ مِن أجل عَليّ، فَقَد قَدمَاه عَلىٰ نَفْسِيهمَا، ولَكِنَّهُما الآن خَرجا عَلَيْهِ خرُوج المُنَافِسِين، وٱتهَمَاه بِأَنّه هُو الَّذي دَبر مَقتل عُثْمَانَ»[1].

---

(١) أُنظر، كِتَابه «تَأرِيخ الدّول العَرَبية»، تَرجَمَة أبو رِيدَة: ٥١ طَبعة سَنَة ١٩٥٨م، وأُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٧٣) فِقرَة: مَن هُو ٱلْخَلِيفَة؟. (مِنهُ).

الخطبة
-٢١٩-

قَتْلَىٰ قُرَيْشٌ:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً! أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَىٰ تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحَ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَىٰ أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ.

اللُّغَة:

الوَتْرِ: الثّأر، والمُرَاد بِهِ هُنا ٱلقِصَاص الشَّرعِي. وأَتْلَعُوا: رَفَعُوا أو مَدُوا. فَوُقِصُوا: ٱنْدَقت أَعْنَاقَهُم أو كُسِرَت.

الإِعْرَاب:

أَفْلَتَتْنِي، الأَصل أَفْلَت مِني، ولمّا حُذفت «مِن» تخفيفاً ٱتَصَلت اليَاء بِالفِعْل.

المَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: لمّا مَرَّ الإِمَام بطَلْحَة وعَبد ٱلرَّحْمَانِ بن عَتاب بن أَسيد،

وهُما قَتِيلان يَوْم الجَمَل قَال: (لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً!... إلخ).
وَأَبُو مُحَمَّد هُو طَلْحَة بن عُبَيْد الله، وكَان من الصَّحَابَة المعَرُوفِين، ولَكِنَّهُ أوّل مَن حَارب الصَّحَابَة، وشَهر عَلَيْهِمْ السَّيْف هُو، والزُّبَيْر، وأُمّ الْمُؤْمِنِينَ، وكَان طَلْحَة مِن بَنِي تَيْم ابن مُرّة، ويَنْتَسب هو وَالزُّبَيْر بِالأُمّ إِلىٰ عَبد مُنَاف، كَما قَال مِيثَم البَحراني، والَّذي قَتَل طَلْحَة مَرْوَان بن الحَكم، وكَانا مَعاً من أَصْحَاب الجَمَل يُقَاتِلان الإِمَام[1].

أمّا عَبد ٱلرَّحْمَان بن عَتاب فَلم يَكُن صحَابِياً بَل تَابعِياً مِن بَني عَبد مُناف، وحَارب الإِمَام فِي عَسكر الجَمَل، وقُتل، وبَنُو جَمح يَنْتَسبُون إِلىٰ لؤي بن غَالِب، وكَان مِنْهُم جَماعَة مَع الجَمَل، فَقُتل بَعْضهُم، وهَرَب آخرُون. والإِمَام يَكْرَه الْقَتْل والْقَتْلىٰ مِن قُرَيْش، وغَيْر قُرَيْش، وإنّما خَصهُم بِالذِّكر، لأَنّهم أُسرَة النَّبيّ ﷺ وأُسرَته، وَيتمنىٰ لو كَانوا أَنْصاراً لِلإِسْلاَم لاَ أَعْدَاء لهُ، يُقتَلون عَلىٰ تَنزِيل الْقُرْآن تَارةً، وعَلىٰ تَأوِيلهُ أُخرىٰ. ومُرَاد الإِمَام بقَوْله: (أَدْرَكْتُ وَتْرِي) أنّه اقترص برحذكم الْقُرْآن من قَتل أَصْحَاب الجَمَل مِن شِيعتهِ، ورَعِيتهِ ظُلماً وعُدْوَاناً.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِلبَحراني: ٱلخُطْبَةُ (٢١٩). وقَد تَقدَّم اَسْتخرَاج ذَلِكَ مُفصلاً.

الخطبة

-٢٢٠-

صَاحِبُ التَّقْوَىٰ:

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَ أَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّىٰ دَقَّ جَلِيلُهُ، وَ لَطُفَ غَلِيظُهُ، وَ بَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَ سَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَ تَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَىٰ بَابِ السَّلَامَةِ، وَ دَارِ الْإِقَامَةِ، وَ ثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَ الرَّاحَةِ، بِمَا ٱسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَ أَرْضَىٰ رَبَّهُ.

الْمَعْنَىٰ:

يَطلب الإِمَام أنْ يَكُون كلّ مُسلِم صورة مُثلىٰ لِلْإِسْلَام عَلىٰ طرَاز هَذَا الْمُسْـلِم الَّذي وَصَفه بقَوْله: (قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ) بِمَعرِفَة الله، وَدِينه، وشَرِيعته (وَ أَمَاتَ نَـفْسَهُ) بِكَبْحهَا عَن الشّهوَات، والْمُحرَّمَات (حَتَّىٰ دَقَّ جَلِيلُهُ) نَحَـل جِسْـمَه، لأنّـه يَأْكُـل لِيَعِيش، ولا يَعِيش لِيَأْكُل (وَ لَطُفَ غَلِيظُهُ) لاَ غَلاَظَة ولاَ فظَاظَة فِي أَخْلاَقه.

(وَ بَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ... إلخ). أطَال الشَّـارحُـون الكـلاَم حَـوْلَ هَـذِه

الجُملَة[١]، وَفسرُوها بِأَقْوَال الصُّوفِية فِي مُجَاهدة النَّفس وتَروِيضها!. والَّذي نَفْهَمه نَحْنُ أنّ الَّذي يَجمع بَيْنَ العِلم، والتَّقْوىٰ تَتَكَشف لهُ مسَالك الْهُدَىٰ إلىٰ الْحَقّ والْعَدْل، وتَظهر أَمَامه بوضُوح بِلا شُبهَات ولاَ عثرَات، وَقَد صَرح الْقُرْآن بِهَذا فِي أَكْثَر مِن آيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[٢]. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾[٣]، والعَكس بِالعَكس: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[٤]. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[٥].

(وَ تَدَافعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَىٰ بَابِ السَّلاَمَةِ... إلخ). قَال الشَّارحُون: الْمُرَاد أبوَاب الرِّيَاضَة وتَطوِيع النَّفس الأَمَارة، والانْتقَال مِن مَقَام إلىٰ مَقَام حَسبمَا حَدَده الصُّوفِية!... والصَّحيح ـ علىٰ فَهمنا ـ إنّ كلّ الأبوَاب الّتي يَدخل مِنْهَا هَذَا العَالم هِي أبوَاب الْهُدَىٰ وٱلْحِكْمَة والسَّلاَمة... أَبَداً لاَ سَفَه، ولا جَهل، ولاَ ضلال فِي أي شيء مِن أفعَاله وَتَصرفَاته، هَذَا هُو الْمُرَاد مِن أبوَاب الْمُتَقي، وَقَد ٱنْتَهَت بِهِ إلىٰ قَرَار مَكِين وَأَمِين[٦].

---

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٢/٢٠٤، شَرح مِئة كَلِمة لِابْن مِيثَم البَحراني: ٢٢٢، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ١١/١٢٧.

(٢) مُحَمَّدٍ: ١٧.

(٣) ٱلْكَهْفِ: ١٣.

(٤) ٱلْبَقَرَةِ: ١٠.

(٥) ٱلصَّفّ: ٥.

(٦) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٢/٢٠٧، شَرح مِئة كَلِمة لِابْن مِيثَم البَحراني: ٢٢٥، شَرح نَهْج ٱلبَلاَغَة: ١١/١٣٧.

الخطبة

-٢٢١-

ٱلتَّكَاثُرُ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[1].

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ! وَ زَوْراً مَا أَغْفَلَهُ! وَ خَطَراً مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ ٱسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَ تَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَىٰ يَتَكَاثَرُونَ! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَ حَرَكَاتٍ سَكَنَتْ. وَ لَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَ لَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَىٰ مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَ ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَ لَوِ ٱسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَ الرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً، وَ ذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ، وَ تَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَ تَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَ تَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَ إِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَ نَوَائِحُ عَلَيْكُمْ[1].

---

(١) ٱلتَّكَاثُر: ١ ـ ٢.

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَ فُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَ حَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَ سُوَقاً. سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَ شَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ، وَ ضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ، لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَ لَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَ لَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَ لَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَ شُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَ إِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَ آلَافاً فَافْتَرَقُوا، وَ مَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَ لَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَ صَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَ لَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَ بِالسَّمْعِ صَمَماً، وَ بِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ[٢].

اللُّغَة:

المَرَام: الْمُرَاد. وَالزَّوْر ـ بِفتح الزّاي ـ للزَّائِر مُفرداً أو جَمعاً أو مُثنىً.

ومَا أَفْظَعَهُ: مَا أَشْنَعَه. واسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ: وَجَدُوا الدِّيَار خَالِية مِنْهُمْ. ومُدَّكِرٍ: مِن الإدِّكَار بِمَعْنَىٰ الاعْتِبَار. وَتَنَاوَشُوهُمْ: وَتَنَاوَلُوهُمْ. ويَتَكَاثَرُونَ: يَتَغَالبُون فِي كَثْرة المَال الرِّجَال. خَوَتْ: سَقطتْ أو خَلَتْ. وأَحْجَىٰ: أَقْرَب لِلصَّوَاب. الْعَشْوَةِ: ضَعف الْبَصَر. والغَمْرَةِ: الحَيْرَة. قَال تَعالىٰ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾[١] أي فِي حَيرَة. وهَامِهِمْ: رُؤُوسِهِمْ أو أَعْلَاهَا. ولَفَظُوا: تَرَكُوا. وَفُرَّاطُ وَفَارِطُون: جَمع فَارط، وهُو الَّذي يَتَقَدَّم الْقَوْمِ إِلىٰ

(١) المُؤمِنُونَ: ٦٣.

الْمَاء أو الكَلأ. ومَنَاهِلُ: جَمع مَنْهَل أي مورِد. وحَلَبَاتُ: جَمع حَلْبَة ـ بِفتح الحَاء ـ الدُّفعَة مِن الخَيْل. والْبَرْزَخِ: مَا بَيْنَ الدُّنْيَا والآخِرَة، والحَاجز بَيْنَ شَيئين كَالقَبْر وَنَحوه. وفَجَوَاتِ: جَمع فَجْوَة كَالشَق ونَحوه. والضِّمَار ـ بكسر الضَّاد ـ غَيبَة بِلا رَجْعَة. ويَأْذَنُونَ: يَسْتَمعُون. ورَعْدٌ قَاصِفِ: شَدِيد الصَّوْت. والآلافِ: جَمع أَلِيف. وارْتِجَالِ الصِّفَةِ: الوَصْف عَلَىٰ البَدِيهَة. والسُّبَات ـ بِضم السِّين ـ النَّوْم.

الإِعْرَاب:

يَا لَهُ مَرَاماً «يَا» للنّدَاء، وقِيل لمُجَرّد التّنبِيه، وَمَرَاماً تَمْيِيز، وهُو بَيان للضَّمِير فِي «لَهُ» واللاَّم للتَّعَجُب، ومَا أَبْعَده «مَا» مُبْتَدَأ، وأَبْعَده فِعل مَاضٍ، والهَاء مَفْعُول، والجُملة خَبَر، وأَيَّ مُدَّكِرٍ حَال مِن ضَمِير «مِنْهُمْ» أي كَامِلين فِي الاعْتِبَار، مِثل: مَرَرتُ بِزِيدٍ أيَّ رَجُل، أيّ كَاملاً، ولأَنْ يَكُونُوا اللاَّم للاِبْتِدَاء، والْمَصْدَر مِن أَنْ يَكُونُوا مُبْتَدَأ، والخَبَر أَحق أَي كُونِهم عِبراً أَحق مِن كُونِهِم مُفْتَخَراً. ضُلَّالاً حَال، وَمِثله جُهَّالاً.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي تَلا الإِمَام قَوْله تَعَالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[1]. وَقَال: (يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ!). أَتُرِيدُون أَنْ تُثبِتُوا الفَضَائِل والمكَارِم لأنفُسكُم بِكَثرة الأَمْوَال والرِّجَال حَيْث يَقول بَعْضكُم لِبَعض: رهطِي أَكْثَر أَموالاً،

(١) ٱلتَّكَاثُر: ١ ـ ٢.

وَأَعَزُّ نَفَراً؟... هَيهَات، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ... إنّ الْغِنَىٰ وَالْفَقْر، والعِزّ والذّل بَعْض العَرض عَلىٰ الله (وَ زَوْراً مَا أَغْفَلَهُ!) يُشِير بهَذا إِلىٰ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، والمَعْنَىٰ عَجَباً مِن غَفْلَتكُم!. أَنْتُمْ فِي الطَّرِيق إِلىٰ زِيَارة المقَابِر، ومَع هَذَا تَتَلهُون بِالتُّرهَات، وتُبَاهُون بِعظَام الأموَات (وَ خَطَراً مَا أَفْظَعَهُ!) إنّ الَّذي تَنْتَهُون إِلَيْهِ شَيء فَظِيع وَخَطِير، وهُو المَوْت، والقَبْر، والحِسَاب، والجَزَاء.

مَالَكُم أَفلاَ تُبْصِرُون؟.

(لَقَدِ ٱسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ). تَمَادىٰ الأحيَاء فِي الإفْتخَار والاعْتزَاز بِالمَوْتىٰ مِن الأجْدَاد والآبَاء... وحِين زَار الخَلَف المُكَاثر الأجْدَاث مَا وَجد فِيها أحداً مِن السَّلف الدَّابر (أَيَّ مُدَّكِرٍ) إنّ هَذِه مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِين (وَ تَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ!) أي ذَكَرُوا المَاضِين بِالعزّ والمَجد، وَبَيْنَ الفَرِيقِين أَبْعَد مَا بَيْن الخَافقِين (أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَىٰ يَتَكَاثَرُونَ!... إلخ). أَتَفْخَرُون بِالأَجْسَامِ الفَانِيَة، والعِظَام البَالِيَة؟ (وَ لَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً). جَدِير بِالعَقْل أَنْ يَتعظ بِالمَوْتىٰ لاَ أَنْ يَفْخَر بِهِم (وَ لَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَىٰ مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ!). وأيضاً جَدِير بِهِ أَنْ يَذل وَيَخشع لاَ أَنْ يَتَعَالىٰ وَيَشْمَخ.

(لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ). نَظَرُوا إِلىٰ المَوْتىٰ بِعيُون غَيْر سَلِيمَة، فخَاضُوا مِن ذِكرِهِم فِي بَحرٍ مِن الجهَالَة (وَ لَوِ ٱسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَ الرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ... إِلىٰ أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً). لَو أَنّ الأحيَاء سَأَلوا المَقَابر عَن أَجْدَادهِم وآبَائِهِم ـ لأجَابَتهم بِلِسَان الحَال: أَنّهم فِي الضَّلاَلة والهَاوِيَة، وأَنْتُمْ فِي الجهَالَة والغوَايَة، ولاَحقُون بِهِم إِلىٰ أَسفَل سَافلِين (تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ). قَال ٱبن

أَبي ٱلْحَدِيد: أَخَذ هَذَا الْمَعْنَىٰ أبو الْعَلَاء المَعَرِّي فَقَال[1]:

خَفف الوَطء مَا أظن أَديم الأَرْ ضِ إلّا مِن هَذِه الأجْسَادِ

(وَ تَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ). تَسْتَحِيل أَجْسَادِهِمْ إِلىٰ تُرَاب، فَتغْرسُون فِيها الأشْجَار وَنَحوها (وَ تَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا) تَتَقلبُون فِي الَّذي تَركُوا مِن حُطام الدُّنْيَا ومَتَاعها (وَ تَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا) أي فِيمَا تَرَكُوا، تَقول: خَرِبت الدِّيار إذَا بَاد أهلُهَا، لأنّهم بِهِم تَحيَا وتُثمر (وَ إِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَ نَوَائِحُ عَلَيْكُمْ). بَكَت الأَيَّام أو الدِّيَار عَلىٰ الآبَاء وَنَاحت، وعمّا قَرِيب تَبكِي عَلَيْكُمْ وَتَنُوح (أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ) الْمُرَاد بِالسَلَف مَن مَضَىٰ وبِالْغَايَة الْمَوْت، والْمَعْنَىٰ هُم السّابقُون إِلىٰ المَقَابِر، وأَنْتُم اللاَحقُون.

(وَ فُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَ حَلَبَاتُ الْفَخْرِ). مَضَىٰ مَن كَان قَبْلكُم مِن الأجْيَال ملُوكاً وَمملُوكِين، وكَان لهُم فِي العِزّ دعَائِم، وفِي الفَخر سِبَاق، وأَنْتُمْ عَلىٰ آثَارِهم تَهرعُون، فلمَاذا تَعْمهُون؟ وَقَالَ الإِمَام مُخاطباً أَهْل الْقُبُور: «يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ وَ نَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ»[2]. (سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ) الْقُبُور (سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَ شَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ... إلخ). فَمَا أَبْقَت لَهُم جِلداً ولا لَحْماً، وَلا دَماً، ولاَ عَظماً... أَبداً لاَ شيء فِي القَبْر عَلىٰ الإطلاَق إلّا الظُّلمَات والآفَات.. وأَنْبَاء القَبْر عِند الإمَام كَثِيرة وَكَثِيرة، ولاَ يَمل مِن تكرَارهـا، وَقَـد مَرّت هَـذِه

(١) أُنظر، ديوَان سقط الزّند: ٩٧٤ ـ ٧٩٥، تَأريخ بَغدَاد: ٤/٤٦٤، شَرح نَهج البَلاَغَة لاِبن أَبي الحَدِيد: ١١/١٤٨.

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (١٣٠).

الصِّفَات[1].

وَقَالَ مِيْثَم البَحرانِي مَا مَعنَاه: إنّ قَوْل الْإمَام: «فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً... لاَ يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَ لاَ يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ» إنّ هَذَا يُشعر بِأنّه لا حِسَاب، ولاَ عَذَاب فِي القَبْر. وأجَاب البَحرَانِي: بأنّ مُرَاد الإِمَام إنّ الْمَوْتىٰ جَمَاد بِالنِّسبَة إلىٰ ٱلْحيَاة الدُّنْيَا، أمّا بِالنِّسبَة إلىٰ الآخِرَة فإنَّهُم يحسُون ويُشعرُون[2].

وبَعْد، فإنّ غَرض الإِمَام مِن كلاَمه عَن الْقُبُور وَأهلها هُو التَّنبِيه إلىٰ أنّ الْعَاقِل إذَا تَأمل وَتَدبر بِدَاية الْإِنْسَان ونهَايَته ـ يَنْتَهِي لاَ محَالَةَ إلىٰ الْإِيمَان بِأنّه مَغْلُوب لقُوَّة قَاهِرة تَتَصرف فِيهِ كَيْفَ تَشَاء، ولاَ لمَا تُرِيد، وإنّه لاَ نجَاة مِن غَضبها إلّا بِالسَّمع والطَّاعَة لأمرهَا ونَهيهَا.

ٱنْقَطَعَتْ الْأَسْبَاب...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

جِيرَانٌ لاَ يَتَأَنَّسُونَ، وَ أَحِبَّاءُ لاَ يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَ ٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَ هُمْ جَمِيعٌ، وَ بِجَانِبِ الْهَجْرِ وَ هُمْ أَخِلَّاءُ، لاَ يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَ لاَ لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَ رَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَىٰ مَبَاءَةٍ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَ الرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَ مَا عَايَنُوا.

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١١١ و ١٩٧) «والحَبْل عَلىٰ الجرَار». (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢٢١).

وَ لَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ[٣]. لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَ سَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَ تَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَ خَوَتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَ لَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَىٰ، وَ تَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَ تَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَ تَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَ تَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَ طَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَ لَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَ لا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً! فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَ قَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَ اكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَ تَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاَقَتِهَا[٤]، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَ عَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا، وَ سَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَ لا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَ أَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَ غَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي[٥].

اللُّغَة:

العُرَا: جَمع عُرْوَة أي مَقْبِض الكُوز وَنحوه. والجَدِيدَانِ: اللَّيْلِ والنَّهار.

والسَّرْمَد: الدَّائِم لاَ أَوّل لَهُ ولاَ آخر. والمَبَاءَة: مَكَان النّزُول والاِسْتقرَار.

والعِبَرِ: الأَحْوَال الّتي تَتَعِظ بِهَا. وكَلَحَتِ الْوُجُوهُ: عَبَسَت وَكَشَّرت. وَخَوَتِ الأَجْسَامُ: تَهَدَّمَت، وَمِثلها تَهَكَّمَتْ. والهَوَامّ: الحَشَرَات. وعَاثَ: أَفْسَد. وسَمَّجَهَا: قَبَّحهَا وشَوَّههَا. وأَقْذَاءَ الْعُيُون: مَا يَقَع فِيها فَيُؤذِيها.

الإِعْرَاب:

جِيرَانٌ خَبَر لمُبْتَدأ مَحذُوف أي هُم جِيرَانٌ، وَلَئِنْ الوَاو لِلقَسَم، واللاَّم للتَوطِئَة،

وجوَاب القَسَم لَقَدْ رَجَعَتْ، هُو سَاد مَسَد جوَاب إنّ الشَّرطِية، فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ «لَوْ» حَرف آمتناع كَمَا يَقول المُعربُون، أو حَرف شَرط، ومَثَّلْتَهُمْ فِعلَه، ولَرَأَيْتَ جوَابه، ومُسْتَسْلِمَاتٍ حَال مِن الضَّمِير فِي «إِلَيْهَا».

الْمَعْنَىٰ:

(جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَ أَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ... إلخ). لاَ عُلاَقَات ولاَ موَاصلاَت بَيْنَ أهْل الْقُبُور تَمَاماً كَمَا هُو الشَّأن بَيْنَ الأحيَاء والأموَات (فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ) فِي أَعْمَاق قَبْرٍ مُظلِم ومُوحِش (وَ هُمْ جَمِيعٌ) قُبُوراً لاَ أرْوَاحاً (أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً). أيُّ هُنا بِمَعْنَىٰ أَحد، والْجَدِيدَان هُما ٱللَّيْلِ والنَّهار حَيْث يَتَجَدَدَان ويَتَعَاقبَان بِآسْتمرَار، وضَمِير «فِيهِ» يَعُود إِلىٰ «أَيُّ» والْمَعْنَىٰ إنّ الْمَيِّت لاَ يَعْرِف لِيلاً ولاَ نَهاراً سوَاء أَفَارق ٱلْحَيَاة فِي ذَا أَم ذَاكَ، لأنّ حَاله وَاحدة دَائمة لا تَحول ولا تَزول مِن حَيْث القتَام والظَّلاَم.

(شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا... إلخ). كَانوا، وهُم أَحيَاء، يَخَافُون مِن وَحْشَة القَبْر، ولدىٰ العيَان رَأوا من الفْظَاعَة فُوق مَا تَصَورُوا (فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَىٰ مَبَاءَةٍ... إلخ). وهُما جَنَّة الْمُتَّقِين، وجَحِيم الغَاوِين، والْمَعْنَىٰ أنّ الْمُتَّقِين وجدُوا عِند رَبّهم أَفضل مِمَّا وَعدهُم بِه مِن الثَّوَاب، وكَذَلِكَ ٱلْغَاوُونَ وَجدُوا مِن العَذَاب فُوق مَا كَانوا يَتصورُون (فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا ـ أي بمبَالِغ الْخَوْف والرّجاء ـ لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَ مَا عَايَنُوا). كلّ فَرِيق مِن الْمُتَّقِين الَّذِين رَجوا الثَّوَاب، والْغَاوُونَ الَّذِين خَافوا العَذَاب ـ يَعجز عَن وَصف مَا هُو فِيهِ لو أَسْعَفَه النُّطق.

(وَ لَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ... إِلىٰ وَ لَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً!).
تَكَاءَدَنَا: شَقَّ عَلِينا وَصَعُب، وتَنَكَّرَتْ: تَغَيرَت، والْمَعْنَىٰ أنّ الْمَوْتىٰ لاَ يُعبرُون عَن أَحْوَالِهِم واخْتبَارَاتِهِم بِلِسَان المقَال، ولَكِنَّهُم نَطقُوا بِلِسَان الحَال، وَسمعنَاهُم نَحْنُ بآذَانُ الْعُقُولِ يَتَحدَثُون ويقُولُون: الْوُجُوهُ مِنا قَد تَشوهَت، والْأَجْسَام قَد تَهَدَّمَت، والْأَرْوَاح فِي شِدَةٍ وَضِيقٍ، ووَحْدَة ووَحْشَة، وقَد طَال عَلِينا الْأَمَد، وانْقَطع مِنا الْأَمَل... وَبِكَلِمَة أَجمع، وأَبلَغ قَالها الرَّسُول الْأَعْظمﷺ: «مَا رَأيتُ مَنظَراً إلّا والقَبْر أَفْظَع مِنْهُ»[1].

وَهَل مِن صَدمَةٍ أَفْظَع وَأعْنَف مِن الدَّس فِي التُّرَاب حَيْث لاَ عِدّة ولا قُوَّة؟.
(فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ... إِلىٰ وَ أَقْذَاءَ عُيُونٍ).
لَوْ اسْتَطَعت أنْ تَتَصَور الْمَوْتىٰ عَلىٰ حَقِيقَتِهم، أو تَكَشَّف لَكَ الغطَاء عَنْهَا ـ لَرَأَيْتَ عَجَباً، فالْأَسْمَاع لِلحَشَرَات، والْأَبْصَار للتُّرَاب، والْأَلْسُنُ لِلبَلىٰ، والْقُلُوب جمُودٌ، وهمُودٌ، ومَا مِن عُضْوٍ فِيهِمْ إلّا وأَفْسَدَته الآفَات... وأيّ شَيء أَكْثَر للقَلب شَجىً، ولِلعِين قَذىً مِن ذَلِكَ؟.

وَبَعد، فإنّ مَا ذَكَرَه الْإِمَامعليه السلام مِن أَحْوَال الْمَوْتىٰ لَيْس بِالشَّيء الجَدِيد، فإنّ الرّوح مَتىٰ خَرجَت مِن الجِسم صَار جِيفَة مُخِيفَة، سوَاء أَكَانَ الجِسم لإِنْسَان، أَم لحَيوَان، أَمَا شَقَاء الرّوح أو هَنَاؤها فيَرتَبط بِالْأَعْمَال لاَ بِالْأَبْدَان ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[2].

---

(١) أنظر، سُنن التِّرمِذي: ٥٥٣/٤ ح ٢٣٠٨، الأحَاديث المُختَارة: ٥٢٤/١، شُعب الإيمَان: ٣٥٢/٧ ح ١٠٥٥٣، الزُّهد لهنَاد: ٢١١/١ ح ٣٤٤، تُحفَة الأحْوَذي: ٤٩١/٦، إثبَات عَذَاب القَبْر للبيهقي: ٤٧.
(٢) الشُّعَرَاءِ: ٩٠ ـ ٩١.

لِلْمَوْتِ غَمَرَات...فِقْرَة ٦ ـ ٧:

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَ أَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَ رَبِيبَ شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَ يَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ.

وَ شَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَ لَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَ تَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَ نَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ، فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ، وَ نَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَ تَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَ تَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَ لَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَ لَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وَ ذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَ تَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ[٦]، وَ خَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَ تَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ وَ مُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَ مُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَ تَرْكِ الْأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَ يَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَ دُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا[٧].

اللُّغَة:

يَتَعَلَّلُ: يَظْهَر الْعِلَّة، أو يَشغل نَفْسه بِالْأَبَاطِيل، وَهَذَا هُو الْمُرَاد هُنا.

وَيَفْزَعُ: يَلجأُ. والسَّلْوَةِ: مَا يُسَلِيك وَيُنْسِيك عمّا يُزعِجَك. وضَنّاً: بُخْلاً.

وغَضَارَةِ العَيْش: سِعَته. وعَيْشٍ غَفُولٍ: يُوجِب الغَفْلَة والطُّغيَان. والحَسَك: نَبَات شَائِك. والحُتُوفُ: الْمَوْت الطَّبِيعي أو المُهْلكَات. والكثَب: القُرْب. والبَثّ: النَّشر والحَال وأَشَد الحُزْن، وهُو المُرَاد هُنا. والنَّجِيُّ: المُنَاجِىٰ.

وفَتَرَاتُ: مِن الضَّعْف والفُتُور لاَ مِن الفَتْرَةِ بِمَعْنَىٰ الهُدنَة. والْقَارّ: البَارِد.

ومُعَلِّلُهُ: مَن يُسَلِيه أو يُطَبِبه. ومُمَرِّضُهُ: مَن يَخْدِمَه فِي مَرَضه. وَتَعَايَا أَهْلُهُ: أَظهَرُوا العَي عِند السُّؤال. والأَسَىٰ: مَا يَتَأَسىٰ بِهِ. والغَمَرَات: الشَّدَائِد والأَهوَال.

الإِعْرَاب:

كَمْ خَبرِية، ومَحلها النَّصب مَفعُولاً لأَكَلَت، ومِنْ عَزِيزٍ تَمْيِيز «كَمْ» والتَّقدِير كَمْ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ أَكَلَتِ الأَرْضُ، وضَنّاً مَفعُول مِن أجله ليَفْزَع، وإِذْ فُجَائِية لوقُوعها بَعد بَيْنَا، وآنَسَ حَال مِن ضَمِير «فِيهِ» وَمَا بِمَعْنَىٰ شَيء، وَكَانَ زَائِدَة، وبِصِحَّتِهِ مُتَعَلِّق بِمحذُوف خَبَراً لمُبْتَدَأ مَحذُوف أي آنَس شَيء هُو بِصِحَّتِهِ مِثل مَرَرت بِرَجُلٍ هُو شَيء مِن الأَشْيَاء.

الْمَعْنَىٰ:

(فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنيَا غَذِيَّ تَرَفٍ.. إلخ). من أَجْسَادِنَا نَحْنُ الآدمِيين كِبَاراً وصِغَاراً حَتَّىٰ مَن تَقَلب فِي النَّعِيم، وعَاش عَلَىٰ الطَّيِّبَات طَوته الأَرْضِ فِي بَطْنَها، ومَا زَالت ضَامِرة تَطْلب المَزِيد تَمَاماً كَجَهَنم (يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ... إلخ). الضَّمِير المُستَتر فِي يَتَعَلَّلُ يَعُود إِلىٰ

المُتْرَف الَّذي كَان إذَا نَزَلت بِهِ نَازلة اَنْصرَف عَنْهَا إِلىٰ العُود والكَأس، وعَبَث ٱلْحَيَاة ولهوَها (فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَ تَضْحَكُ إِلَيْهِ... إِلىٰ بِصِحَّتِهِ). ٱغتَاله الدَّهـر بغوَائِله، وهُو آمن نشوَان مِن سَكرَات الفرَاغ والجِدة فتَحطمَ، وَذَهبت قـوَاه مَـع الرِّيح دُونَ إِشعَار وسَابق إنْذَار:

وَقَد يَسْلَم الإنْسَان مِن حَيْث يَتَقِي ... ويُؤتىٰ الْفَتىٰ مِن أمْنِه وهُـو غَـافِلُ

(فَفَزِعَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ... إِلىٰ بُرُودَةً). كَـان الأَطِبَّاء القُدَامىٰ يَقِيسُون صِحَة الجِسم بتوَازن اليبُوسَة مَع الرّطُوبَة، والحَرَارَة مَع البُرُودَة، فإذَا ٱختَل التُّوَازن وَزَاد أَحد العُنْصرِين المُـتَقابلين عَـلىٰ الآخـر ٱعـتَل الجِسم... وكَان العلاَج فِي نَظَرهم هُو الـعَمَل لإعَـادَة التُّـوَازن والتَّـعدِيل، فـإذَا ٱرتَفَعت الحَرَارة أَطفأوا حِدَّتها بِالبَارد، وإذَا طَغَت البُرُودَة قَهرُوهَا بِالحَار، ولكن تَطبِيب ذَاكَ المَرِيض المُترف الغَافل بهَذا العلاَج ـ جَاء عَلىٰ العَكس... فالبَارد يَرفع مِن حرَارته، والحَار يَزِيد فِي بُرُودَته! وهَل لدَاء المَوْت طِب أو علاَج؟.

(وَ لَا ٱعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ). كُلَّما بذَلت الجهُود والعنَايَة فِي ٱتقَان الدَّوَاء وتَركِيبَه، وعُولِج بِهِ هَذَا المَرِيض المُترَف لكِي يَعتَدل مَزَاجه ـ ترَاكمت أَسقَامه، وٱحتَدَمت آلاَمه، تَمَاماً كَمن يلقِي فِي النّار مَا يَزِيدها ٱشتعَالاً (حَتَّىٰ فَتَرَ مُعَلِّلُهُ) يَأساً مِن شفَائه (وَ ذَهَلَ مُمَرِّضُهُ) عَنْهُ وعَن أوجَاعَه (وَ تَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ). وحَارُوا فِي جوَاب السَّائِلِين عَن عَلِيلهم مَاذا يَقولون؟ (وَ تَـنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ). وَاو الجَمَاعَة يَعُود إِلىٰ أَهْل المَرِيض، وشَجِيَّ خَبَر أي خَبَر مُؤلم عَن ذِي حُزن وَأَلم، وهُو المَرِيض والمَعْنَىٰ إنّ أَهْـل المَـرِيض تَـنَاجوا فِي شَأنه، وحَاولوا جَهدَهُم أنْ يُخفُوا عَنْه مَا يَتشَاورُون فِيهِ مِن أَمْرِه حِرصَاً مِنهُم عَلىٰ

رَاحته.

(فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ) أي مَأيُوس مِنْهُ، أو مجهُول المَصِير (وَ مُمَنٍّ لَهُمْ) أي جَعَلهُم يَتمنُّون ويَأمَلون (إِيَابَ عَافِيَتِهِ) ورجُوع صِحته إِلىٰ سَابقِ عَهْدِها (وَ مُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَىٰ فَقْدِهِ) ويَقُول، إنْ هُو إلّا كَأجدَاده وآبَائه، وكُلنا عَلىٰ الأثَر (فَبَيْنَا هُوَ كَذٰلِكَ عَلَىٰ جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا... إِلىٰ لِسَانِهِ). إنّه ذَاهب إِلىٰ غَيْر رَجْعَة، ولَكِنَّهُ قَبل الودَاع الأَخِير فُوجِىء بِغُصة وحَشرَجَة فِي أنْفَاسه، قَبَضت لِسَانه، وأَطَارت صوَابه (فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ) يَسأَله السَّائِل، وهُو فِي حَالِه تِلك، عَن أشيَاء تَهمَه وتَهم الوَارث، فَيفهَم السُّؤال وَيَعرِف الجَوَاب، ولَكِنَّهُ يَعجز عَن النُّطق بِهِ.

(وَ دُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ). المُرَاد بِالدُّعَاء النّدَاء أي أنّ بَعْض أحبَائِه يُنادِيه بِاْسمه، فَيَسمَع النّدَاء ومَع هَذَا يَتجَاهل عَجزاً عَن الجَوَاب (مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ) كوَالِده الحَنُون (أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ!) كَطفلِه وفَلَذة كَبَده (وَ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَىٰ عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا). وَسَكرَات يَعجز الوَصف عَن اَستِيعَابها أو أنّ الوَصف يُحِيط بحَقِيقَة المَوْت وأهوَاله كَما لَو كَان بِعِلم الإمَام وبلاَغته، ولكن العُقُول لاَ تَهضم، ولا تُصدق، لأنّه فُوق مَا تَدرك وتَتصَور.

وَبَعد، فإنّ الإِنْسَان يَمتَلك مِن الطَّاقَات مَا اَرتَفعت بِهِ إِلىٰ اَلْقَمَرْ كَخُطوَة أُولىٰ إِلىٰ غَيْره مِن الكوَاكِب... ومَع هَذَا يَعجز العُلَماء مُجْتَمِعِين أنْ يَردُوا الرّوح إِلىٰ مكَانها بَعد أنْ تَنطَلق مِنْهُ، أو يَمْنعُوها مِن الاِنْطلاَق، ويَحْبسُوها حَيثُ هِي.. وَقَد تَحدىٰ سُبْحَانَهُ بِذَلِك كلّ جَاحد وَمُعاند حَيثُ قَال فِي كتَابه العَزِيز: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ

ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1] بِأَنَّه لاَ بَارىء ولاَ خَالق... تأمل فِي هَذَا التَّحدِي بِلا جَهل وعنَاد... فإِنَّه حُجّة دَامغَة كمَا هُو مَوْعِظَة بَالِغَة.

(١) ٱلْوَاقِعَة: ٨٣ ـ ٨٧.

الخطبة

-٢٢٢-

ذِكْر الله سُبْحَانَهُ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْأَصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[(١)].

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَ تُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَ تَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَ مَا بَرِحَ للهِ ـ عَزَّتْ آلَاؤُهُ ـ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَ فِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَ كَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَ الْأَسْمَاعِ وَ الْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ. مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَ مَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَ شِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَ حَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَ كَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَ أَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ[(١)]. وَ إِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ،

---

(١) ٱلنُّور: ٣٦ ـ ٣٧.

وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ. فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى ٱلآخِرَةِ وَ هُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ. فَكَأَنَّمَا ٱطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَ حَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا. فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَىٰ النَّاسُ، وَ يَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ(٢).

اللُّغَة:

الْوَقْرَةِ: ثقل السَّمع. والْعَشْوَةِ: ضَعف الْبَصَر. والْبُرْهَةِ: المُدة الطَّويلة.

والْفَتَرَاتِ: جَمع الْفَتْرَة أي الهُدنَة. والْقَصْدَ: الإِعْتِدَال. والْبَرْزَخِ: الحَاجز مَا بَيْنَ الْمَوْت والبَعث.

الْإِعْرَاب:

مَا بَرِحَ مِن أَخوَات كَان تَرفع الإِسم وتَنصب الخَبَر، ولله آسمها، وعِبَادٌ خَبَرها، ومَصَابِيحَ بَدل مِن كَذلِكَ، وبَدلًا حَال من الهَاء فِي أَخَذُوهُ، والأَيَّام مَفعُول بِهِ لِيَقْطَعُونَ، لِأَنَّهَا مِثل قَطَعْتُ الخيط.

الْمَعْنَىٰ:

تَلا الْإِمَامعليه السلام قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١). وَقَالَ: (إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً

(١) ٱلنُّور: ٣٦ ـ ٣٧.

لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَ تُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَ تَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ). قِيل الْمُرَاد بِالذِّكْر هُنا الْقُرْآن، لقَوْله تَعَالىٰ مُشيراً إِلَيْهِ: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[1]. وَهَذَا بَعِيد عَن سِياق الكلاَم الظَّاهِر فِي كلّ ذِكْر يَكُون جَلاءً لِلْقُلُوبِ، وَيقظة للأَسْمَاع والأَبْصَار... وَلَيْس مِن شَكٍّ أَنّ أَفضل الذِّكْر النِّضال فِي سَبِيل الْحَقّ، وجِهَاد الْمُعتَدِين عَلَيْهِ، ولَيْسَ هَذَا رَاجِحاً فَحسب، بَل هُو فَرض لاَ يُغنِي عَنْه صُوم، ولا صَلاَة، ولا حَجّ، وزَكَاة.

(وَ مَا بَرِحَ للهِ ـ عَزَّتْ آلاَؤُهُ ـ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَ فِي أَزْمَانِ... إِلىٰ الْأَفْئِدَةِ). قَوْله: «عَزَّتْ آلاَؤُهُ» أي عَظُمت وكَرُمت نِعَمه، وقَوْله: «فِي أَزْمَانِ الْفَتَرَات» أي الْأَزْمِنة الخَالية مِن وجُود الْأَنْبِيَاء، والْمَعْنَىٰ أَنّ الْأَرْض قَد تَخْلُوا مِن رَسُولٍ، ونَبِيٍّ حِيناً مِن الدَّهر، ولَكِنَّها لاَ تَخْلوا إطلاَقاً مِن العَارِفِين بِالله العَامِلِين بِخَير، وهُم الَّذِين رَأوا بِحَواسهم اليَقِيظة، وأَدركُوا بعقُولِهِمْ النَّيِّرَة أنّ هَذَا الكَوْن هُو مِن صِنع الله سُبْحَانَهُ، وَٱستوحوا مِنْهُ حِكْمَته وعَظَمَتِهِ، فَخَافُوه وَٱتقَوا بَطشَه وَغَضبه. وأَسند الإِمَام هَذَا الإِدرَاك الْمُصِيب إِلىٰ الله، لأَنّه مُستوحىٰ من الكَوْن، وهُو مِن خَلق الله وآثَاره، وإِلَيْهِ وَحدَه تَنْتَهِي سِلسِلة الْأَسْبَاب مَهما تَعدَدت وتَنَوْعت.. حَتَّىٰ الصُّورة الّتِي يَستوحِيها الشَاعِر، والرَّسَام مِن أشيَاء الطَّبِيعَة وجَمَالها هِي وَحي مِن الله بِالاِعْتِبَار الَّذِي أَشرنا إِلَيْهِ.

(يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ). أي بِعَذَابه الَّذِي صَبَّه عَلىٰ مَن طغىٰ فِي البلاَد فأَكْثَر فِيها الْفَسَاد، والْمَعْنَىٰ أَنّ العَارفِين يُذَكِّرُونَ

---

(١) الأَنْبِيَاء: ٥٠.

وَيهدُون الخَلق إِلىٰ طَرِيق الحَقّ، والذّكرىٰ تنفع الضّمائِر الحيَة تَمَاماً كما تنفع عَلاَمَات الطَّرِيق السَّلِيم فِي الصَّحارىٰ والقِفار (مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ... إلخ). مَن سَلك طَرِيق الْهِدَايَة شَجعُوه وأثنُوا عَلَيْهِ، وَبَشرُوه بِرضوَان الله وثوَابه، ومَن ٱنحرَف يَمنَة وَيَسرَة ذمُوه، وأَنذَرُوا بِعَذَاب يُخزِيه ويُردِيه (وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ... إلخ). أَئِمَة يَهدُون إِلىٰ الحَقّ، وبِهِ يَعمَلون، والْمُرَاد بِالظّلمات والشُّبهات الشّرك وعِبَادة الأَصنَام وَنحوها مِن التّقالِيد الّتِي سَادت فِي عَصر الْمُتَّقِين القلاَئل.

(وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلًا) وهُم الَّذِين وَصَفهم الإِمَام بِيَقَظَة الحوَاس والأَفئِدَة، وبِالأَدِلة فِي الْفَلَوَاتِ (أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ... إلخ). أَدرَكُوا أنّ الدُّنيَا إِلىٰ زَوَال، وأنّ الآخِرَة خَير لِمن قَدّمت يَدَاه مِن الْخَيْر، فَسَعُوا لهُ سَعيَه، لاَ تُلْهِيهِمْ عَنْهُ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ، أو قِيلٍ وَقَالَ (يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ) لاَ يَقْتلُون الوَقت بِاللّغو والأَبَاطِيل، لأنّ الأَيّام تَأخذ مِن الإِنْسَان أَثمَن مَا يَملك، فَعَليه أنْ يَأخذ مِنْهَا أَغلىٰ الأَثمَان وأَعلاَها. قَال الإِمَام: «أَلَا حُرٌّ يَدَعُ هَذِهِ اللُّمَاظَةَ لِأَهْلِهَا، إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّة، فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا»[1]. وَقَالَ: «وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَىٰ الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً»[2].

(وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ... إِلىٰ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ). يَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ، ويَأْتَمِرُونَ بِهِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَتنَاهُون عَنْهُ، كَما هُو شَأن الْمُؤْمِنِينَ حَقّاً لاَ شَأن مَن يُتَاجر بِالدِّين (فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: الحِكمَة (٤٥٦).
(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: الخُطبَة (٣٢).

فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... إلخ). هُم فِي الدُّنْيَا بأجْسَامِهم، وفِي الآخِرَة بأَزْوَاجِهِمْ وَأَهْدَافِهِم، نَظرُوا إلىٰ هَذِه عَلىٰ أَنَّهَا دَار البقَاء والخلُود، فَأَسَّسُوا لهَا وَبَنُوا، ونَظرُوا إلىٰ تِلك نَظرَة المُسَافر العَابر، فَتَركُوها لِمَن شَاءَها وأَرَادها لاَ يُنَافسُونه فِي شَيء مِن حطَامها (فَكَأَنَّمَا ٱطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ... إلىٰ عِدَاتِهَا). الْبَرْزَخ عَالم مَا بَيْنَ الْمَوْت ويَوْم الْقِيَامَة، والْمَعْنَىٰ أَنّ العَارِفِين بِالله يَنظرُون بِعَين الْيَقِين والْإِيمَان إلىٰ عَالم الْبَرْزَخ، فيَرُون كلّ مَا وَعَد الله بِهِ مِن ثوَابِ الْأَخْيَار، وعَذَاب الْأَشرَار، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً؟.

(فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا). أَخْبَرُوهُم بِمَا يَحدث لَهُم بَعد الْمَوْت لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون (حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَىٰ النَّاسُ، وَ يَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ) يَتحدث العَارفُون بِالله عَن عَالم الْبَرْزَخ كَأَنَّهُم فِيهِ بِجَمِيع حوَاسِهِم، وشُعُورهم بَصَراً، وَسَمعاً، وَعَقلاً، وقَلباً، أمّا أَهْل الدُّنْيَا فَهُم مَع الآخِرَة بِالسَّمع لاَ بِالعَيَان ولاَ بشَيء من الشّعُور والاتْعَاظ... وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: كَأَنَّ الْإِمَام يَشرَح هُنَا مَا قَاله فِي مَكَانٍ آخر: «لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءِ مَا ٱزْددتُ يَقِيناً»[1].

حَاسِب نَفْسك...فِقْرَة٣:

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَ مَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَ قَدْ نَشَرُوا

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ١١/١٨٠، شَرح مِئة كَلمة للبحرَاني: ٥٢، إرشَاد القُلُوب للدّيلمي: ٣٧، جوَاهر المطَالب فِي منَاقب عَليّ بن أَبِي طالب لِابْن الدِّمَشقِي: ٢/١٥٠، نَهج الْإِيمَان لِابْن جَبر: ٢٦٩، حَاشية السّندي عَلىٰ النّسائي: ٨/٩٦، يَنابيع المَوَدَّة: ١/٢٠٣، المنَاقب للخوَارزمي: ٢٧٥ ح ٣٩٥، عُيُون الحِكم والموَاعظ: ٤١٥، عَين العَبرة لأَحْمَد آل طاووس: ٢٢، شَرح كلمَات أَمير المُؤْمِنِين لعبدالوَهاب: ٣، مَطلوب كلّ طَالب لرَشيد الوطواط: ٣، الطّرَائف: ٥١٢، كَشف الغُمة: ١/١٧٠، المنَاقب لِابْن شهر آشوب: ٢/٣٨.

دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَ فَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَ كَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فيهَا، وَ حَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الِاسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وَ تَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَ اعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدىً، وَ مَصَابِيحَ دُجىً، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَ فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَ أُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَ حَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ. رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَىٰ فَضْلِهِ، وَ أُسَارَىٰ ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَىٰ قُلُوبَهُمْ، وَ طُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَ لَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ[٣].

اللُّغَة:

مَقَاوِمُ: جمع مَقَام. ويَتَنَسَّمُونَ: يَتَنَفَّسُون أو يَشمُّون. والْمَنَادِحُ: المَنْدُوحَة أي السَّعَة والفُسْحَة.

الإِعْرَاب:

نَحِيباً مَفْعُول مُطلق لتجَاوَبُوا مِن غَيْرِ لَفْظِه، ولَرَأَيْتَ جواب لَوْ مَثَّلْتَهُمْ، رَهَائِنُ خَبَر مُبْتَدأ مَحذُوف أي هُم رَهَائِنُ، ولِكُلِّ بَابٍ خَبَر مُقَدَّم، ويَدٌ مُبْتَدأ مُؤَخَّر.

الْمَعْنَىٰ:

(فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَ مَجَالِسِهِمُ... إِلَىٰ أَعْلَامَ هُدىً).

لأَهْل الله مجَالس وخلَوات يحَاسِبُون فِيها أَنْفُسُهم : هَل تَركتْ وَاجباً ، أو ٱرْتَكب مُحَرماً ؟ . ويَشْهَدُون عَلَيْهَا بِالكَسَل والتَّقْصِير فِي جَنب الله والحَقّ ، وَيُعَنفُونَها بِكلّ جَارح ومُؤلم . . . ومَا أَخَذت الْمِسْكِينة مِن الدُّنْيَا شَيْئاً ، ولكن مَطَامح الأَتقِيَاء إِلىٰ الفُوز برِضْوَانه تَعَالىٰ لَيْسَ لهَا حَد محْدُود ، ومِن أجل هٰذَا يَستَجِيرُون بِكَرم الله أنْ يَرحَم وَيَغفر ، ولاَ شَكَّ أنّ هٰذَا الطّمُوح والحِسَاب الدَّقِيق مَصْدَره الخَوْف مِن سوَاد الوَجْه عِند الله ، ولاَ مَصْدَر لهٰذا إلّا العِلم بِالله وعَظَمَتِهِ .

ولعِلمِهم باللهِ وخوفِهم مِنْهُ (قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ) . هَذا كِنَايَة عَن عَظِيم مَنزلتِهِم عِند الله ومَلَائِكَتِه ورُسُله وخَالص الْمُؤْمِنِينَ (تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَ فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ . . . إلخ) . الْمُرَاد بِالسَّكِينَة هُنا الاِطْمِئنَان ، والرَّحْمَة ، والْكَرَامَة ، والنِّعْمَة وبِكَلِمَة وَاحدة : السَّعَادة كمَا هِي عِند الله ، والْمَعْنَىٰ أنّ من يَعِيش ويَحيا فِي الْإِيمَان بِالله وَحده ، ويَلتَزم بهَذا الإِيمَان فِي جَمِيع أَقْوَاله ، وأَفعَاله كَهؤُلآء العَارفِين ، أنّ مَن كَان كَذٰلِكَ لاَ بُدّ أنْ يَنتهِي إِلىٰ السَّكِينَة بِالْمَعْنَىٰ الَّذي أشرنَا إِلَيْهِ (فَرَضِيَ) الله (سَعْيَهُمْ) لأنّه خَالِص لوَجهه الكَرِيم (يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ) عَن تَقصِيرهم فِيمَا كَانُوا يَطمحُون إِلَيْهِ مِن طَاعة الله ومَرضَاته .

(رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَىٰ فَضْلِهِ) أي يشعرون بالحَاجَة إلى رَحْمَة الله تَعَالىٰ مهما عملو واجتهدوا (وَ أُسَارَىٰ ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ) لا يرون لهم حولاً ولا قُوَّة إلّا بالله وحده (جَرَحَ طُولُ الْأَسَىٰ قُلُوبَهُمْ . . . إلخ) . يحزنون ويبكون خوْفاً من الحِسَاب والجَزاء (لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ) . يقرعون كل بَاب ، ويسلكون كل سَبيل يوصلهم إلى الله سُبْحَانَهُ (يَسْأَلُونَ مَنْ لاَ تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ . . . إلخ) . يَسْأَلُونَ مَن عِندَهُ خَزَائِن الأَرْضِ وٱلسَّمٰوَات ، ونَيل المطَالب والحَاجَات ، ويُسْتَغنىٰ بِهِ ، ولاَ

يُسْتَغنىٰ عَنْهُ، وتَقَدَّم مِثله[1].

(فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ). مَا لَكَ وَلعِيُوب النَّاس وأَخْطَائهم؟. وهَل أَنْتَ فِي عِصمَة مِن الخَطَأ والخَطِيئَة، أو أَنْتَ وَكِيل عَلىٰ غَيْرك وَحَسِيب؟ والله سُبْحَانَهُ يَقول لسَيِّد الكَونين: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[2]. عَلَيْكَ أنْ تُرَاقب وتُحَاسب نَفْسَك بِنَفْسك، لتَقِف بَيْنَ يَدِي الله طَاهِرَة مِن دَنَس الذّنُوب والآثَام، وأنْ تَكُون لهَا قَائِداً لاَ مَقُوداً، وَمُدرباً لاَ مُستَعبَداً، ولاَ تَتَغَافل عَنْهَا أَدنىٰ تَغَافُل... وإلّا جَمَحَت بِكَ مِن حَيْث لاَ تَشعر. وَتَقَدَّم مِثله[3].

---

(١) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (٩١). (مِنْهُ ﷺ).
(٢) الأنْعَام: ١٠٧.
(٣) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٤٠). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة
-٢٢٣-

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[1].

أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً، وَ أَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَىٰ ذَنْبِكَ، وَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَ مَا أَنَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَىٰ الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَىٰ الْمُبْتَلَىٰ بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَىٰ دَائِكَ، وَ جَلَّدَكَ عَلَىٰ مُصَابِكَ، وَ عَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَ هِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ ! وَ كَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ ! فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَىٰ الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ[1]. وَ كُنْ للهِ مُطِيعاً، وَ بِذِكْرِهِ آنِساً. وَ تَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَىٰ عَفْوِهِ، وَ يَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَ أَنْتَ مُتَوَلٍّ

---

(١) ٱلإِنفِطَارِ: ٦.

عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَتَعَالَىٰ مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَ تَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ! وَ أَنْتَ فِي كنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَ فِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ. فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَ ايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَ مَسَاوِئِ الْأَعْمَالِ[٢].

اللُّغَة:

أَدْحَضُ: أَشَدُّ دَحْضاً أَي بطلاَناً. وأَقْطَعُ: أَشَدُّ قَطعاً أي بُعداً وإِبَانَةً.

وأَبْرَحَ: أَعْجَب أو أَشَد. وآنَسَكَ: ضِد أَوْحَشَك. والبُلُول: الشِّفَاء مِن المَرَض. والضَّاحِيَ: مَن أَصَابَته الشَّمس. ويُمِضُّ: يُؤلِم ويُوجِع. وجَلَّدَكَ: صَبَّرَك أي جَعَلك صَابِراً. وتَوَرَّطْتَ: وَقَعتَ فِيما لاَ خَلاص لَكَ مِنْهُ. الكَرَىٰ: النُّعَاس، وَلَيْس النَّوْم كما ظَنّ بَعْض المُعلقِين. والكَنَفِ: الظِّل والجَانِب.

الْإِعْرَاب:

أَدْحَضُ خَبَر لِمُبْتَدأ مَحذُوف أي الإِنْسَان أَو هُو أَدْحَض، وحُجَّةً تَمْييز، ومِثلها مَعْذِرَةً، وجَهَالَةً. ومَا جَرَّأَكَ «مَا» للإِسْتفهَام مَع الإِنْكَار، ومحلها الرَّفع بِالابْتِدَاء، وجُملة مَا بَعدها خَبَر، فَلَرُبَّمَا اللاَّم زَائِدَة، و«مَا» كَافة، ورَحْمَةً مَفْعُول مِن أجْله لِتَبْكِي، وكَيْفَ حَال أي عَلىٰ أي حَال لاَ يُوقِظك خَوْف، ومَطْرَفَ نُصب عَلىٰ الظَّرفِيَة، لأَنّ الأَصل قَدر مَطْرَف.

الله يُمْهِلُ وَلاَ يُهْمِل:

تَلا الْإِمَام عليه السلام قَوْله تَعَالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[١]. وَقَالَ: (أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً، وَ أَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ) أَبَداً لا حُجَّة ولاَ عُذر لَكَ أَيُّها المُتجَرىء عَلىٰ مَعْصِيَة الله، ومَا أَنْتَ إلّا جَاهِل مَغرُور... وَقَال قَائِل: إنّ الَّذي أَغْرَاه بِالمَعْصِيَة قَوْله سُبْحَانَهُ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾. حَيْث أَلْهَمَه الجَوَاب وَعلَّمَه أَنْ يَقول غَداً إِذَا سُئل عَن ذَنبه: غَرَّنِي حِلمُك وكَرَمُك!. وَهَذَا خَطأ، لأنّ الله سُبْحَانَهُ لاَ يَنْهىٰ عَن المَعْصِيَة، ثُمّ يُغرّي بِها.

أمّا الْإِمَام فإِنَّه يُفسر الكَرَم فِي الآيَة بِالحِلْم والإِمهَال، وإنّه تَعَالىٰ يُمْهِل ولا يُهْمِل أي لاَ يُعَجل العُقُوبَة، وإلّا مَا تَرَك عَلىٰ ظَهرها مِن دَابَة... إنّه يُمد للعَاصِي، وَيُنعم عَلَيْهِ، وعَسىٰ أنْ يَؤوب إِلىٰ رُشده، وَيَرجع عَن غَيِّه، وعَلَيْهِ يَكُون مَعْنَىٰ الآيَة: لاَ تَغتَرّ أَيُّها الإِنْسَان بِحِلم الله وَسكُوته عَنْكَ، فإنّ هَذَا تَأنيب لَكَ وَاختبَار.

وأَجلُّ مَا قَرأت فِي هَذَا البَاب مُنَاجَاة للإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام، قَال فِيها مِن جُملَة مَا قَال:

«سُبْحَانَكَ مَا أَعْجَبَ مَا أَشْهَدُ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِي، وَأُعَدِّدُهُ مِنْ مَكْتُومِ أَمْرِي، وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَاتُكَ عَنِّي، وَإِبْطَآؤُكَ عَنْ مُعَاجَلَتِي، وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِنْ كَرَمِي عَلَيْكَ، بَلْ تَأَنِّياً مِنْكَ لِي، وَتَفَضُّلاً مِنْكَ عَلَيَّ؛ لأَنْ أَرْتَدِعَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ المُسْخِطَةِ، وَأُقْلِعَ عَنْ سَيِّئَاتِي المُخْلِقَةِ، وَلِأَنَّ عَفْوَكَ عَنِّي أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ عُقُوبَتِي»[٢].

---

(١) الْإِنفِطَار: ٦.

(٢) أنظر، الصَّحِيفَة السجَّاديَّة شَرح العلاّمَة الشّيخ مُحمّد جَوَاد مُغنيَة: ٢١٦، الدُّعاء السّادس عشر، دُعَاؤُهُ فِي الاسْتِقَالَة، بتحَقيقنا.

(يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَىٰ ذَنْبِكَ، وَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَ مَا أَنَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ ؟). الإِمَام يَشعر بِآلاَم النَّاس، وَيتوَجع هَا وَلَهُم، حَتَّىٰ عذابهم فِي الآخِرَة يَشفق عَلَيْهِمْ مِنْهُ، بَل تُوجعه لَهُم مِن أجل هَذَا أَشَد وَأعظَم، لأَنَّه أقسىٰ وَآلم... ومِن أجل هَذَا خَاطب مَن يَستَهين بِمَعْصِيَة الله، خَاطَبه بِلسَان الشَّفِيق النَّاصح، ونَهَاه بأُسلوب السُّؤال والاِسْتفهَام: كَيْفَ أَعْرَض عَن خَالقه، وَصَرف وَجْهَه عَن دَعْوَتِهِ، وَطَلَب النّوال مِن غَيْره ؟. ومَا الَّذي جَرَأه عَلىٰ هَذَا الضَّلاَل والاِسْتسلاَم للتَّهلُكة ؟.

(أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ؟). إلىٰ مَتىٰ هَذَا التَّمادي فِي الغَي ؟ إلّا تُفِيق مِن نَشوتَك ؟ (أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ؟... إِلىٰ وَ هِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ !). عَجَباً مِنك !. تَرىٰ غَرِيقاً فَتَسْعفه، أو مُتَأَلِماً مِن لَفحَة الهَجِير فَتَظلله، ثُمّ لاَ تَقِي نَفْسَك مِن عَذَاب الحَرِيق، وأَنْت تَملك القُدْرَة عَلىٰ خلاَصها وسَلامتها ؟ مَا شَأنك ؟ هَل رَان عَلىٰ بَصَرك وَبَصِيرتك، أم أَنْت فِي غَنىٰ عن نَفْسك ؟ ولَو كُنت عَلىٰ شَيء مِن الوَعي لبَكِيت عَلَيْهَا دَماً (وَ كَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ) ومَن الَّذي يَعصمك مِن الله إنْ أَرَاد بكَ سُوءاً ؟ وهَل أَخذت مِنْهُ عَهداً وأَمَاناً ؟: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[1]. (وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ !). أي تَصدِيت لِغَضب الله وَعَذَابه، فَادْفَعه عَنْكَ إنْ كُنت ذَا قُوَّة وَطَول.

(فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ). المُرَاد بِالْفَتْرَةِ هُنا الفُتُور وَعَدَم العَزم

(١) الأعْرَاف: ٤.

والنَّشاط بِقَرِينة قَوْله «بِعَزِيمَةٍ» والْمَعْنَىٰ كُنْ يَقظاً وَنَشِيطاً، ولاَ تَكسَل فِي طَاعة الله، وَتَستُوحش مِن ذِكرِه (وَ تَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ). أَنْتَ تعرض عَن الله لاَهِياً بِلذَاتك وَشهَوَاتك، وهُو يُقبِل عَلَيْكَ بِفَضله وإحْسَانه... تَصور حَالَك ووَضعَك هَذَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفسَك عَسىٰ أَنْ تَكُف وَتَهْتَدِي (يَدْعُوكَ إِلَىٰ عَفْوِهِ) أي إِلىٰ اَلتَّوْبَة وَطَلب الْعَفُو، لأنّ عَفوَه تَعَالىٰ عَن ذَنبَك أَحب إِلَيْهِ مِن عذَابَك: ﴿مَّا يَفْعَلُ اَللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اَللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[1].

(وَ يَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَ أَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ). أَهَذَا جَزَاء مَن غَمَرَك بِالْإحسَان: تَأكل رِزقَه، وَتعبد غَيْره؟. فَأين الوَفَاء والْحَيَاء؟ (فَتَعَالَىٰ ـ الله ـ مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ!). نُقَصّر فِي طَاعته عَمداً، ونَنتَهِك حُرمَاته قَصداً، ومَع هَذَا يَحْلَم ولاَ يُعَاجل... رَبَّنا إنّا كُنّا ظَالمِين (وَ تَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ! وَ أَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَ فِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ... إِلىٰ أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ) الخطَاب لِلْإِنْسَان، وَتَوَاضَعْتَ: مِن الضَّعَة والحقَارة، والْمَعْنَىٰ مَن أَنْت أَيُّها الجَاهِل الوَضِيع حَتَّىٰ تجرأ عَلىٰ الله، وتُخَالفه فِي أَمْرِه وَنَهيَه؟ فكَم مِن نِعمَة أَسدَاها إِلَيك، وَخِزي سَتَره عَلَيْكَ، وَمَكرُوه دَفَعه عَنك، كلّ هَذَا، وأَنْتَ مُتَمَادٍ فِي الغَي والضَّلاَل (فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!) وَطَلبت مِنْهُ الرّضوَان والْأَمَان، فإِنَّه يُعطِيك مَا أَملت، وَيَزِيدك مِن فَضله... إنّه وَاسع رَحِيم.

(لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ) هِي الإِسَاءَة لِلمُحسن (كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ... إلخ). قُوَّة وَقُدرَة، (لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَ مَسَاوِئِ الْأَعْمَالِ)

---

(١) اَلنِّسَاء: ١٤٧.

لأنّك أَسَأت لِمَن أَحْسَن إِلَيْك، فَكِيف والَّذي أَحْسنَ إِلَيْك خَالقك، وَخَالق الكَائنَات؟. وقِيل: أنّ الْقُدْرَة أَشد وَأعظم مِن القُوَّة، ولذَا جَاء فِي الْقُرْآن الكَرِيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. ولَيْس فِيهِ عَلىٰ كلّ شَيء قَوي. وفِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

أُسْلُوب أَهْل الْبَيْت عليهم السلام فِي التَّربِيَة:

وَبَعد، فهَذا هُو أُسْلُوب أَهْل الْبَيْت عليهم السلام فِي التَّربِيَة والتَّعلِيم، ومُكَافحَة الضَّلاَل والْفَسَاد... إنّهم يَخْلقُون الشّعُور بِالمَسْئُولِيّة فِي نَفْس الإِنْسَان لِيكُون لَهُ رَداع مِن الدَّاخل لاَ مِن الخَارج فَقط، وكُلنا يَعْلَم أنّ المَسْئُولِيَة هِي الّتي تَدفعنا إِلىٰ العِلم والْعَمَل، وبِنَاء الحضَارَة لصَالح الجَمَاعَة، والتَّعاون عَلىٰ الْخَيْر ودَفع الشَّر، وصِيَانة الحُقُوق واحترَامها، ومِن أَقْوَال الإِمَام: «مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ»[3] أي مِن الفُوضىٰ ومُجَاوزَة الحُدُود. وقَد اختَلف الْعُلَمَاء والفَلاَسِفة فِي تَعرِيف الإِنْسَان وَتحدِيد هَوِيتَه، وفِي رَأينا أنّه الْحَيَوَان الوَحِيد الَّذي يَشعر بِالمَسْئُولِيَة، أو الَّذي يَنْبَغِي أنْ يَشعر بِهَا.

رُبَّ نَاصِح مُتَّهَم... فِقْرَة ٣ ـ ٤:

وَ حَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَ لَكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَ لَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ،

---

(١) ٱلبَقَرَة: ٢٠.

(٢) ٱلحَدِيد: ٢٥.

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغة: ٱلحِكمَة (٨٩).

و آذَنَتْكَ عَلَىٰ سَوَاءٍ. وَ لَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَ النَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَ أَوْفَىٰ مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكَ. وَ لَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَ صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ. وَ لَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَ الرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَ بَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَ الشَّحِيحِ بِكَ! وَ لَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَ مَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا! وَ إِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ[٣].

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَ حَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَ لَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَ بِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَ بِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَ قِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَ لَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَ تَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَ خُذْ مَا يَبْقَىٰ لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَىٰ لَهُ، وَ تَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ، وَ شِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ، وَ ارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ[٤].

اللُّغَة:

آذَنَتْكَ عَلَىٰ سَوَاءٍ: أَعْلَمَتْكَ عَلَىٰ عَدلٍ. وتَعَرَّفْتَهَا: طَلَبت مَعْرِفَتها. ويُوَطِّنْهَا: وَيَتَّخِذهَا وَطَناً. والرَّاجِفَةُ: النَّفخَة الّتي تَمُوت مِنْهَا الخلائق. وحَقَّتْ: وَقَعَت.

جَلَائِلِهَا: عَظَائِمِهَا. ومَنْسَكٍ: مَوضع النُّسك أي العِبَادَة. والْعَلَائِقِ: جَمع الْعَلَاقَة. وتَحَرَّ: ابْحَث، واطلب مَا هُوَ أَحْرىٰ بِكَ. وَشِمْ: مِن شَام البَرق إذَا نَظَر إِلَيْهِ. وَارْحَلْ المَطَايَا: إذَا شَدَّ عَلىٰ ظَهرها للرَّحِيل. والتَّشْمِيرِ: الجِلد.

الإِعْرَاب:

حَقّاً صِفَة لِمَفْعُول مُطلق مَحذُوف أي أَقُول قَولاً حَقّاً، والْعِظَاتِ بِالرَّفع فَاعِل كَاشَفَتْكَ، وبالنَّصب عَلىٰ حَذف الخَافض أي بالْعِظَاتِ، والفَاعِل ضَمِير مُستَتر يَعُود إِلىٰ الدُّنْيَا، ولَرُبَّ اللاَّم للتّوكِيد، ومَحَلَّا مَفعُول ثَانٍ لِيُوَطِّنْهَا، لأَنّ الفِعْل مُتَضَمِن مَعْنَىٰ يَتَّخِذهَا، وقِيل مَحَلَّا تَمْيِيز ومِثلها دَاراً. وكَم خَبَرِية، وَمَحلها الرَّفع بِالاِبْتِدَاء، ودَاحِضَةٌ خَبَر، ويَوْمَ ذَاكَ مُتَعَلِّق بدَاحِضَة.

الْمَعْنَىٰ:

(مَا الدُّنْيَا غَرَّتْك، وَلَكِنْ بِهَا اَغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ). لأَنّ كلّ مَا فِيها عِظات وَعِبر، ولاَ يعمىٰ عَنْهَا إِلّا أعمىٰ، ولاَ يَغتر بِها إِلّا ضَال عَن الْهُدَىٰ (آذَنَتْك عَلَىٰ سَوَاءٍ) أي أَعْلَمتك بِحَقِيقتهَا صِدقاً وَعَدلاً، وَهَذَا مِن الأَسَالِيب الْقُرْآنِية، قَال تَعَالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[1] أي أَدَّيْت مَا عَليّ بِأَمَانَة، وَمَا تَرَكت لَكُم مِن عُذرٍ (وَ لَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ... إِلىٰ أَوْ تَغُرَّكَ). كلّ مَا أَصَابك وَيُصِيبك مِن مَرض وَفَقر وَنَكبَات فَقَد أَنْبَأَتك بِهِ سَلَفَاً بِمَا رَأَيْت وَسَمِعت مِمَّا حَدث لِغَيْرك مِن العِبر، ولكنّك لَم تَعتَبر، وَأَخَذَتك ٱلْعِزَّة بِالإِثْمِ، وَظَنَنتَ إِنّك قَوّي لاَ يُضَام.

(وَ لَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ). الْمُرَاد بِالنَّاصح هُنا مَا يَحدث فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا

(١) الأَنْبِيَاء: ١٠٩.

مِن عِبرٍ وَعِظات، وضَمِير لهَا يَعُود للدُّنْيَا، واللاَّم فِي «لهَا» للاِخْتِصَاص مِثل هَـذَا الشِّعر لفُلان، والمُرَاد بِالتُّهمَة الاِعرَاض عَن النَّصِيحة، والمَـعْنَىٰ أنّ الدُّنْـيَا تَـنصح وأَنْتَ لا تَسمع. ومِن أَقْوَال الإمَام: «الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، وَالِاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وَكَفَىٰ أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ»[1]، أي مَا يَحدث لِغَيْرِك هُو خَير مُرشِدٍ لَك (وَ صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذِّبٌ) عَطف تَفْسِير، لأنّ المَعْنَىٰ لاَ تُصدّق مَن صَدّقَك (وَ لَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ... إِلىٰ وَ الشَّحِيحِ بِكَ!). لَو دَرَست أَحْوَال المَاضِين بِإمعَان، واتْعَظت بمَا أَصَابهُم ـ لوَجَدت الدُّنْيَا أَشْفَق عَلَيْكَ مِن أُمّك وَأَبِيك بمَا أَلقت عَلَيْكَ مِن درُوسٍ نَافعَة لَو كُنت مِن الَّذِين يَعْقلُون.

(وَ لَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً) أي نِعم الدَّار غَيْرها، وَهِي الآخِرَة، أمّا الدُّنْيَا فَبِئست الدَّار هِي (وَ مَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا!) عَـطف تَـفْسِير (وَ إِنَّ السُّـعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ) أي العَامِلُون للآخرَة لاَ للدُّنْيَا فقط (إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَ حَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَ لَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ... إِلىٰ إِلَّا بِحَقِّهِ). قَوْله: «فَلَمْ يُجْزَ» جوَاب إِذَا رَجفَتِ، والمُرَاد بِخَرق الْبَصَر وَهَمس القَدم أنّ مَا مِن شَيء لَهُ فِي ٱلْحيَاة الدُّنْيَا إلاّ وَيجري عَلَيْهِ الحِسَاب والجَزَاء عِند الله حَتَّىٰ وَلو كَان طَرفَة عَين أو وِطء قَدم، والمَعْنَىٰ إِذَا قَامت الْقِيَامَة بِأهوَالها، وَلَحِق كلّ عَابد بِمعبُوده، وكلّ تَابع بِمتبُوعه ـ فَلا يَسُوغ إلاّ الحَقّ، ولاَ يَجرِي إلاّ الْعَدْل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

(فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ) كمَا قَال سُبْحَانَهُ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٦٥).
(٢) ٱلزَّلْزَلَة: ٧ ـ ٨.

مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[1]. لأنّهم ظَلَمُوا وَأَفْسَدُوا بَعد قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِمْ بِالْبَيَان والنَّهي عَن الْفَسَاد والإِفسَاد (وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!). العُذْر هُنا بِمَعْنَىٰ الحُجَّة، وانْقطَاع العَلاَقَة بَيْنَه وَبَينَ أَفعَال الغَاوِين مَعنَاه إِبْطَال عُذْرهم وَدَحضَه، وعَلَيْهِ يَكُون العَطف لِلبَيَان والتَّفْسِير.

(فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَ تَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ). عَلَيْكَ أَنْ تَنسَجم فِي أَقوَالك وأَفْعَالك مَع الصِّدْق، والْعَدْل، لِتَكُون الحُجَّة فِيما عَلَيْكَ تَقول وَتَفعل (وَ خُذْ مَا يَبْقَىٰ لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَىٰ لَهُ). البَاقِي الدَّار الْآخِرَة، والفَانِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا. فَخُذ مِن هَذِه مَا يَنْفَعك فِي تِلك. وَمِثله فِي ٱلْخُطْبَة: «فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ»[2]. (وَ تَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ) هَيِء لَهُ الأَسْبَاب بصَالِح الأَعْمَال (وَ شِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ). ٱستَضِيء بِنُور الْهِدَايَة لِتَبلُغ دَار السَّلاَم (وَ ٱرْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ). تَزَوَد لِلرَّحِيل بِالإِخلاَص لله، والنُّصح لِعبَاده.

وَمرَّة ثَانِيَة نَقول: إنّ غَرض الإِمَام مِن هَذِه ٱلْخُطْبَة وَأَمثَالها ـ أَنْ يَكُون لِلإِنْسَان مِن نَفْسَه عَلَىٰ نَفْسَه حَسِيب، وَرَقِيب فِيما يَفعل، أو يَدع، لأنّ هَذَا الرّقِيب أو هَذَا الشُّعُور بِالمَسْئُولِية هُو شُعلَة مُبَاركة تَهدِي لِلّتِي هِي أَسْلَم وأَقوَم.

(١) ٱلرُّوم: ٥٧.
(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكمَة (٢٠٣).

الخطبة

- ٢٢٤ -

الْإِمَام وَأَخُوه عَقِيل...فِقْرَة ١ ـ ٢:

وَ اللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ اللهَ وَ رَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَ غَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَ كَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَىٰ الْبِلَىٰ قُفُولُهَا، وَ يَطُولُ فِي الثَّرَىٰ حُلُولُهَا؟!

وَ اللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَ قَدْ أَمْلَقَ حَتَّىٰ اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَ رَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَ عَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَ كَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَ أَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَ تَجُرُّنِي إِلَىٰ نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَىٰ وَ لَا أَئِنُّ مِنْ لَظًى[1]؟! وَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَ مَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ

قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَىٰ! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ(٢).

اللُّغَة:

السَّعْدَانِ: نَبتٌ لَهُ شُوك. ومُسَهَّداً: سَاهِراً أَرِقاً. ومُصَفَّداً: مُقَيَّداً.

وقُفُولُهَا: رجُوعها أو فَنَاؤُهَا. وأَمْلَقَ: ٱفْتَقَر. وٱسْتَمَاحَنِي: طَلَب مِني مُنْحَة، وشُعْثَ الشُّعُورِ: شُعُورهم مُتَلبدَة بِالْأَوسَاخ. وبِالْعِظْلِمِ: صِبغَة النِّيل. والْقِيَاد: حَبْل يُقَاد بِهِ. والدَّنَف: المَرَض. والمِيْسَمِ ـ بِكَسر الميم وسكُون اليَاء وفَتح السِّين ـ المكْوَاة. وثَكِلَتْكَ: فَقَدَتْكَ. والثَّوَاكِلُ والثَّاكِلَات: ٱلنِّسَاء. وشَنِئْتُهَا: كَرِهْتُهَا. والصِّلَة العَطِيَّة أو الرِّشْوَة. وهَبِلَتْكَ: ثَكِلَتْكَ. والْهَبُولُ: الثَّاكِلَة. ومُخْتَبِطٌ: تَتَصَرف بِغَيْرِ هُدىً. وتَهْجُرُ: تَهْذُو. وجُلْبَ الشَّعِيرَة: قِشْرَتها. وتَقْضَمُهَا: تَكسرها بِأَسْنَانها.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ أَبِيتَ مُبْتَدَأ، وأَحَبُّ خَبَر، وظَالِماً حَال، وَمِثله شُعْثَ الشُّعُورِ، لأَنّ رَأَيْتُ هُنا بَصَرِية لَا تَتعدىٰ إِلىٰ مَفْعُولين، وَكَذا غُبْرَ الْأَلْوَانِ ومُؤَكِّداً، وَمُرَدِّداً

ومُفَارِقاً، وصِلَةٌ خَبَرَ لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي أَهَذِه صِلَةٌ، ومَا لِعَلِيٍّ؟ مُبْتَدأ وخَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ اللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً... إلخ). كلّ إِنْسَان إذَا خُيّرَ بَيْنَ التَّقَلُّب عَلَىٰ الأشوَاك والجَرّ فِي الحبَال والْأَغْلَالِ، وَبَيْنَ عَذَاب الحَرِيق ـ يَخْتَار الحَال الْأُولَىٰ لِأَنَّهَا أَهوَن الشَّرين، سوَاء أَكَان المُخَيَّر عَلِيّاً أَم مُعَاوِيَة... والفَرق أنّ عَلِيّاً لو خُيِّرَ بَيْنَ المَبِيت عَلَىٰ الْأَشوَاك مَع الجَرّ بِالْأَغْلَال والْأَصْفَاد، وَبَيْنَ أَنْ يَملك الكَوْن بِأَرْضِه وَسَمَائِه، ورِجَالِه وَنِسَائِه عَلَىٰ أَنْ يَظْلم نَمْلَة فِي قِشْرَة شَعِيرَة ـ لِفَضَّل عَذَاب الدُّنْيَا وَمرّها عَلَىٰ ظُلم النَّمْلَة فَمَا دُونهَا ومَا ذَاكَ إلّا لِعِلمه بِالله، وإِيمَانه بِالْعَدْل، وزُهده فِي الدُّنْيَا، وخُوفه مِن عَاقِبَة الظُّلْم.

أَمّا مُعَاوِيَةَ فَحُبّ الدُّنْيَا والسّيطَرَة جُزء مِن طَبِيعتِهِ، وكِيَانه، والنَّاس كُلّهُم قَطِيع لعَظَمَتِهِ، ولِسُلطَانِه، ولاَ شَيء لِمن يَعترض وَيُقاوم إلّا السَّيْف أو السُّم فِي العَسَل، أَمّا حَدِيث الآجِلَةِ فَخرَافَة، أو لاَ يَهُم مَا دَامت العَاجِلَة تَاج وَعَرش... وبِكَلمة أنّ مُعَاوِيَةَ لاَ يَرىٰ فِي الوجُود إلّا مُعَاوِيَةَ وَٱبْنِهِ يَزِيد، ومَن رأىٰ غَيْرَ هَذِين فَلَهُ الْمَوْت، وحكَايَة «إِنْ مَاتَ هَذَا فهَذَا، ومَن أَبىٰ فَهَذَا» أَشْهَر من تُذكر، والْإِشَارَة الْأُولَىٰ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ، والثَّانِيَة إِلىٰ يَزِيد، والأخِيرَة إِلىٰ السَّيْف[1].

---

(١) قد ٱتضح ذَلِكَ عِندمَا أَرسل إِلَيْهِمْ فِي أخذ الْبَيْعَة لِيَزِيد وَلِياً لِلعَهد قَام يَزِيد بـن المُقَنع فـلخص المـوقف الأُموي مِن الخِلاَفة بِعبَارة وَجِيزَه ولكنّها بَلِيغه قَال: «أَمِير الْمُؤْمِنِين هَذَا، وأَشَار إِلىٰ مُعَاوِيَةَ... فإِنْ هَلك ↔

وقَد يَكُون مُعَاوِيَةَ مُهذَباً مَع الآخرِين، بَل وَسَخِياً، ولكنْ عَلىٰ شَرطه، وهُو أنْ تَتفق أعْمَاهُم مَع أهدَافه، أو لاَ تَتَصَادم مَعَهَا ـ عَلىٰ الأقَل ـ قَال العَقَّاد: «كلّ دهَاء يُذكر لمُعَاوِيَةَ فإنَّمَا يُذكر إلىٰ جَانبِهِ رَفدٌ أو عَطَاء ووِلاَيَة يستَفِيد مِنْهَا يَنصره، ولاَ يَنْخَدع عَنْهَا فِي مُبَادلة النَّفع بَيْنَه وبَيْنَه، ولاَ جَرم كَان الْعَطَاء عماد هَذَا الدَّهاء، وكَان نَقش الخَاتَم الَّذي تَخَتَم بِهِ بَعدُ ولاَيتَه: «لكلّ عَمل ثوَاب»»[1]. وَتَقدَّم الكلاَم عَن سِيَاسَته[2].

(وَ اللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَ قَدْ أَمْلَقَ حَتَّىٰ ٱسْتَمَاحَنِي... إِلىٰ وَ لَا أَئِنُّ مِنْ لَظَىً).

قِصَّة الإِمَام مَع أَخِيه عَقِيل يَعرفها القَاصي والدَّانِي، وَقَد حكَاها الإِمَام هُنا بوضُوح، والمُفردَات الّتي تَحتَاج إلىٰ تفْسِير ذَكرناها فِي فِقْرَة: اللُّغَة. وإذَنْ فَلا دَاعي للتَّطوِيل بِلا طَائِل، وأَكْثَر الَّذِين كَتَبُوا عن الإِمَامِ أو الكَثِير مِنْهُم ٱسْتُشهِدُوا عَلىٰ صلاَبته فِي الحَقِّ بِمُوقِفه مَع عَقِيل، وآخر مَن ذَكر هَذَا المُوقف وأَشَاد بِهِ مِن المُؤلفِين الكَاتِب المِصْري الأُستاذ عَبد الكَرِيم الخَطِيب ـ فِيما نَعلم ـ قَال:

«فِي مُوقف عَليّ مِن أَخِيه عَقِيل مَا يُغنِي عَن كلّ مَثل يُورَد، وعَن كلّ قَوْل يُقَال، فَعَقِيل هُو شَقِيق عَليّ الأَكبَر... وبَيْنَهما أُخوّة صَادِقة خَالِصة، لاَ تَشوبَها كَدَر، أو

فهَذا، وأشَار إلىٰ يَزيد... فَمَن أبىٰ فهَذا، وأشَار إلىٰ سَيفه!... فقَال لهُ مُعَاوِيَة: «إجْلس فإنّك سَيِّد الخُطَباء». أنظر، العقد الفريد: ٥/١١٢، طَبعة سَنَة ١٩٥٣م، دَار الكُتب العِلمِية بَيرُوت. (مِنْهُ ﷺ). و: ٢/٣٠٢ ـ ٣٠٤، الكَامِل لاِبن الأثِير: ٣/٢١٤ ـ ٢١٦ و ٥١١، الإِمَامَة والسِّيَاسَة تَحقِيق الشِّيري: ١/١٩٣، البَيَان والتَّبيِين: ١/٣٠٠.

(١) أنظر، كتَابه «مُعَاوِيَة»: ٥٧ طَبعَة سَنَة ١٩٦٦م. (مِنْهُ ﷺ). وأنظر، تَأرِيخ مَدِينة دِمشق لاِبْن عَسَاكر: ٥٩/١٤٧، البدَايَة والنّهَاية: ٨/١٤٠.

(٢) أنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (١٢٢)، فِقْرَة: عُشَاق الكَرَاسِي. (مِنْهُ ﷺ).

جَفوَّة، وبِتِلك الأُخوّة وبِحقهَا جَاء عَقِيل إِلىٰ أخِيه يَسأله بَعْض المَال الّذي ٱقْتَضَته ٱلحَيَاة مِنْهُ، وَقَصُرَت يَده عَنْهُ... فقَال لَهُ: مَرحباً بِكَ وَأهلاً. مَا أَقدَمك عَلينا؟. قَال رَكبنَا دَين عَظِيم، فَجِئتُ لِتَصلنِي. فقَال لهُ عَليّ: واللهِ مَا لِي مِمّا تَرىٰ شَيئاً إلّا عطَائِي، فإذَا خَرَج فهُو لَكَ. فقَال عَقِيل: أَتَرىٰ شخُوصِي إِلَيْك مِن أجْل عَطَائك؟[1].

فَقَال الإِمَام: أتُرِيد أنْ يحرقنِي بنَار جَهَنم فِي صِلتك بِأَمْوَال ٱلمُسْلِمِينَ؟..

ثُمّ أشَار الخَطِيب إِلىٰ قِصَّة ٱلحَدِيدة... فقَال عَقِيل: واللهِ لأخرُجَن إِلىٰ رَجُل هُو أوصَل لِي مِنك... يُرِيد مُعَاوِيَةَ. فقَال لهُ الإمَام: رَاشِداً مَهدِياً»[2].

«وَلمّا قَدِم عَقِيل عَلىٰ مُعَاوِيَةَ وَصَله بِثلاثمئَة أَلف دِرهَم... وَقَالَ لهُ: أنَا أَحسن أَم أَخُوك؟ قَال عَقِيل: أَنْتَ خَيرٌ لِي فِي دُنيَاي، وأَخِي خَيرٌ لِي فِي دِينِي... هَذِه بَعْض أَمثلة لمُوقف عَليّ مِن رِجَالِهِ وأَنْصَاره... وقَد تَحوّل كَثِير مِنهُم إِلىٰ جَبهَة مُعَاوِيَةَ بِفعل هَذِه السِّيَّاسَة»[3].

الإِمَام وَالْوَافِدُون عَلىٰ مُعَاوِيَةَ:

كَان الْإِمَام عليه السلام يَعْلَم أنّ أَصْحَابه مِن أهْل الدُّنْيَا لَنْ يَسْتَطِيعوا مَعَه صَبراً، وإِنّهم

---

(١) أنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبوَّة، وخَاتَم ٱلخِلافَة: ٤٣٩، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أنظر، الإمَامَة والسِّيَّاسَة: ١/ ٧٥، نَظرَات فِي الكُتب الخَالدة للدّكتور حَامد حَنفي دَاود: ١٤٦، مَجلة الإِسْلَام العَدد: (١٤) السَّنَة (١٣)، تَنظِيم الصَّدَقَة فِي الإِسلَام، للدّكتور حَامد.

(٣) أنظر، العقد الفَرِيد: ٤/ ٩٠ طَبعة بيرُوت، جوَاهر المطالب فِي مَنَاقب الإِمَام عَليّ لِابْن الدِّمَشْقِي: ٢/ ٢٢٩.

تَاركُوه إِلىٰ مُعَاوِيَةَ... ولعَل هَذَا مِن جُمْلَة الأَسْبَاب الّتي دَعَت الإِمَام أنْ يُحقر الدُّنْيَا ويُطنِب فِي بيَان مَسَاوِيهَا، وَيُحذر الرَّاغبِين فِيها مِن سُوء المُنقَلب وكآبَته... ومَهمَا كَان فإنّ الإِمَام لَمْ يَستَكره أحداً عَلىٰ البقَاء مَعَه، أو يُرضِيه ويُحابِيه عَلىٰ حسَاب دِينه وحسَاب ٱلْمُسْلِمِينَ... وكَان يَتوجَه إِلىٰ العُقُول، والْقُلُوب، ويُخَاطبها بمَنطِق الدِّين والضَّمِير، ويُبَالغ فِي الوَعظ والنَّصِيحَة، ويُنذر ويُحذر مِن عذَاب الله وغَضَبه، كمَا رَأينا فِي خُطَبِه، ثُمّ يَدع النّاس ومَا يَختَارُونه لأَنْفُسهم، وهَذِه هِي طَرِيقة الرَّسُول العَظِيم ﷺ، والْقُرْآن الكَرِيم: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(١).

وعَلىٰ هَذَا الطَّرِيق سَار الإِمَام مَع أَهْلِه، وَجَيْشَه، وأَنْصَاره، لا يُمارس ضَغطاً، ولاَ يَرشِي ضَمِيراً، ولاَ يَتنَازل عَن حَقٍّ أيّاً كَانَتْ الظّرُوف والنَّتائج... قِيل لَهُ: إنّ جَمَاعَة مِن أَصْحَابه، أو رَعِيته لَحقُوا بمُعَاوِيَة، فمَا زَاد عَلىٰ قَوْله: «وَاللهِ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحقُوا بِعَدْلٍ»(٢). هَذَا هو الإِمَام لاَ يَبتَغِي مِن دُنيَاه شَيْئاً ولاَ يُقِيم عُلاَقة مَع قَرِيبٍ أو بَعِيد إلّا عَلىٰ أَسَاس الْعَدْل والْحَق... ولَو أنّ أَهْل الأَرْضِ كَانوا فِي جَانب، والْحَقّ فِي جَانب، لكَان وَحده مَع الْحَقّ غَيْر خَائفٍ ولاَ مُستَوحش، وبهَذَا سَطّر الإِمَام صَفحَات جَليْلَة فِي تَأريخ الإِسْلاَم والمُسْلِمِين، وصَدَق مَن قَال: «لَو لَم يَسرُ عَليّ سِيرَته المثَالية أكَانَتْ تَبقىٰ تِلك الجَذوَة مُشتَعلة وكَامنة فِي النُّفُوس؟ إنّ عَلِيّاً لَعِب دَوره الجَلِيل كَأعظم مَا يَلعَب الإِنْسَان الفَائِق دَوره فِي التَّأرِيخ».

(وَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ) وهُو الأَشْعَث بِن قَيس رَأس ٱلْمُنَافِقِين فِي أَصْحَاب

---

(١) الأَنْعَام: ١٠٤.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لَهُ ﷺ، إِلىٰ سَهل بن حُنَيف عَامله عَلىٰ المَدِينَة رَقم (٧٠).

الإِمَام تَمَاماً كَعبد الله بن أُبيّ بِن سَلُول فِي أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ . (طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ") مِن الحَلوىٰ (فِي وِعَائِهَا) وضِعَت فِي وعَاء مُغطىٰ، كمَا هُو المُعتَاد (وَ مَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا) المَعْجُونَة هِي المَلْفوفَة، وشَنِئْتُهَا كَرِهْتها (كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا). هَذَا بيَان لشِدَة الكَرَاهِيَة والنُّفرَة مِن حَلوىٰ الأَشْعَث، وأَنَّهَا تَمَاماً كَالسُّم النَّاقع فِي جُوف الأَفعىٰ.

(فَقُلْتُ: أَ صِلَةٌ) ورِشْوَة تَتوَصل بِهَا إِلىٰ غَاية دَنِيئَة وَخَبِيثَة مِن غَايَاتك (أَمْ زَكَاةٌ) مَفرُوضَة عَلَيْكَ (أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ!). الرِّشْوَة يَحرُم عَطَاؤها وأَخَذُوها إِطلاَقاً عَلىٰ أَهْل البَيْت وغَيْرهم، والزَّكَاة حَرَام عَلىٰ كلّ هَاشِمِي إلّا إِذَا كَانَتْ مِن هَاشِمِي مِثله، والمُرَاد بِالصَّدَقَة هُنا مَا كَان نَدباً لاَ فَرضاً بِدَلِيل مُقَارنتهَا مَع الزَّكَاة المَفرُوضة. وللفُقهَاء فِي هَذِه الصَّدَقَة قَوْلاَن: الأَوَّل: أَنَّهَا تَحل لكلّ هَاشِمِي سَوَاء أَكَانَ مِن أَهْل البَيْت، أَم مِن غَيْرهم. القَوْل الثَّانِي: أَنَّهَا تَحرُم عَلىٰ أَهْل البَيْت فَقَط، وهُم: (مُحَمَّد، وَعَليّ، وَفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن عليهم السلام). أَمّا غَيْرهم مِن الهَاشِميين فَلا تَحرم عَلَيهِمْ صَدَقَة النَّدب. والظَّاهِر قَوْل الإِمَام هُنا يُعزز هَذَا الرَّأي ويُؤيدَه. وعَلىٰ أَيّة حَال فَلا جَدوىٰ مِن النِّقَاش فِي هَذَا المَوْضُوع، لأَنّ أَهْل البَيْت الآنْ عِند الرَّفِيق الأَعلىٰ[1].

(فَقَالَ: لاَ ذَا وَ لاَ ذَاكَ، وَ لَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ) وَهِي حَلال لِجَمِيع النَّاس (فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ

---

(١) أنظر، شرَائع الإِسْلام: ١/١٢٤، الأُم للشَّافعي: ٢/٨١، مُنْتَهىٰ المَطلب: ١/٥١٥، إرشَاد السَّاري: ٧/١٧٦، التَّهذِيب: ٤/٥٨ ح ١٥٦، المُغني لِابن قُدَامة: ٢/٥٢٠، مسَالك الأَفهَام: ١/٤٢٤، شَرح الأَزهَار: ١/٥١٩، الإِسْتبصَار: ٢/٣٥ ح ١٠٧، المُحلىٰ: ٦/١٠٧، مُسْنَد أَحمَد: ٦/٨، الكَافِي: ٤/٥٩ ح ٥، شَرح الأَخبَار: ٢/٤٨٥، السُّنَن الكُبْرَىٰ: ٧/٣٢.

الْهَبُولُ !) ثَكِلَتْكَ أُمُّك (أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي ؟) فِيهِ إِيمَاء إِلىٰ أنّ الأَشْعَث كَان قَد طَلِبَ مِن الإِمَام أمرَاً لاَ يَحل لهُ، وإنّه حَاول أنْ يَستَميله بِحَلوَاه، فَزَجَرَه الإِمَام وَوبخَه بقَوْله: (أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ). تَخَبط خَبْط عَشوَاء أي تَصَرف عَلىٰ غَير بَصِيرة (أَمْ ذُو جِنَّةٍ) بِكَ مَسٌّ مِن الْجنُون (أَمْ تَهْجُرُ ؟) تَقول بِلا خُبرَة، وتَهرف بِما لاَ تَعرف.

(وَ اللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا). يَزهَد الإِمَام فِي الكَوْن بِجَمِيع أقَالِيمه طَلباً لمَا هُو أَكْثَر وَأعظَم، وَرَغبة فِي ثوَاب الله ورِضْوَانه، وَيَدل عَلىٰ ذَلِكَ بوضُوح قَوْله: (عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ) لأنّ الكَوْن بمَا فِيهِ مَع غَضب الله مَا هُو بِشيء، والمَبِيت عَلىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ وَالجَرّ بِالأَغْلاَل مَع مَرضَاته تَعَالىٰ هُو كلّ شَيء.

أَلَيْس هَذَا عَين الطّمُوح والرَّغبَة فِيما هُو أجَل وأَعظَم مِن الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ ؟. وهَل تُقدَر مَرضَاة الله بِشيء ؟... أَبَداً لاَ وَزن لِشيء عِند الإِمَام، ولاَ يَصدَع رَأْسه فِي التَّفكِير بِشيء إلّا بِرضَا الله، فهُو وَحده المَثل الأَعلىٰ، والغَرض الأَسمىٰ، وفِيهِ وَحده وهَنَاؤه وَسَعادته... ومَا أَبعد مَا بَيْنَ فَلسَفة الإِمَام هَذِه، والفَلسفَة البرَاجمَاتِية الأَمريكِية الّتي تَقول: لاَ حَقّ ولاَ خَير ولاَ جمَال فِي الوجُود، ولاَ مُجتَمع ومُجتمعَات، وإنْسَان وإنسَانيات... أَبَداً لاَ شَيء عَلىٰ الإطلاَق إلّا مَا يُحقق لَكَ النَّفع والنَّجاح بزِيَادَة الدَّخل فِي هَذِه ٱلْحيَاة.

الحكمة
-٢٢٥-

أعوذ بِاللهِ مِن الفقْر:

أَللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَ لَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَ أَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَ أُبْتَلَىٰ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَ أُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَ أَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ. «إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

اللُّغَة:

صُنْ: احفظ واستر. واليَسَارِ: الْغِنَىٰ. وبِالْإِقْتَارِ: الْفَقْر. وَأَسْتَرْزِقَ: أطلب الرِّزْق. وأُفْتَتَنَ: أُبْتَلَىٰ.

الْإِعْرَاب:

أَسْتَرْزِقَ مَنصُوب بِأنْ مُضمرَة بَعد الفَاء، ونُصب الفِعْل الَّذي بَعدَه لِلعَطف عَلَيْهِ، وَوَلِيُّ خَبَر أَنْتَ، وَمِنْ وَرَاءِ مُتَعَلِّق بِهِ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ). صِيانَة الوَجه حِفظه مِن التَّعرض للسُّؤال، وقَدِيماً، قِيل: السُّؤال ذُل ولَو أين الطَّرِيق. وبَذل الجَاه السّقُوط عَن الاِعْتِبَار والاِحتِرَام. وَلَيْس مِن شَكٍّ أَنّ الْفَقْر سَبَبٌ للمَزِيد مِن هَذَا السّقُوط والاِنْهيَار. وفِي الحَدِيث: «الْفَقْر الْمَوْت الْأَحْمَر»[1]. وَقَالَ الْإِمَام: «الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ»[2]. «الْغِنَىٰ فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ»[3]. «الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»[4]. «الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ»[5]. وَقَالَ الإِمَام جَعفر الصَّادق: مَا ٱفتَقَر أَحد قَطّ إلّا أَصَابَه ثَلاث خصَال: رِقَة فِي دِينه، وضَعف فِي عقْلَه، وذِهَاب فِي مرُوءته»[6]. ولذَا كَان النَّبِيّ ﷺ، يُكرر الْقَوْل فِي دُعائِه: «أَللَّهُمَّ ٱرزق مُحَمَّداً وَآل مُحَمَّد الكَفَاف، والْعَفَاف»[7].

وإنَّمَا كَان الْفَقْر رِقَة وَمنقَصَة فِي الدِّين لأنّ النَّفس إذَا ٱحتَاجت تَعَرضت لمَا لاَ يَجُوز، ودَخلَت مدَاخل الشَّر والسُّوء، وإذَا أَحرزَت قُوتها سَكَنت وٱطْمَأَنَّتْ. ومِن

(١) أُنظر، الكَافِي: ٢/٢٦٦ ح ٢، مَعَاني الأَخْبَار للشَّيخ الصَّدوق: ٢٥٩، شَرح نَهج البَلاَغَة لاِبن أَبِي الْحَدِيد: ٦/٢٧٣، كَنز الْعُمَّال: ٦/٦١٨ ح ١٧١١٢.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٥٦).

(٤) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٦٣).

(٥) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣١٩).

(٦) لَمْ أَعْثَر عَلَيْه.

(٧) أُنظر، الكَافِي: ٢/١٤٠ ح ٢ ـ ٣، كَنز الْعُمَّال: ٦/٤٨٣ ح ١٦٦٤٧، تَأرِيخ دِمشق: ٤/١١٦.

هُنا كَان السَّعِي للرِّزق دِيناً، والتَّدبِير عَقْلاً. وتَقَدَّم الكلاَم عَن أدوَاء الْفَقْر وَأثَره فِي المُجتمع[1].

(فَـأَسْتَرْزِقَ طَـالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْـتَعْطِفَ شِـرَارَ خَـلْقِكَ... إلخ). الإِمَـام لاَ يَسْتَرْزِق، ولاَ يَسْتَعْطِف مَخْلُوقاً عَلىٰ الإطلاَق، ومَهما كَانَتْ الظرُوف وتكُون، ولاَ يمدح مَن لاَ يَسْتَحِق المَدح، وإنْ أعطَاه الدُّنْيا بِكَاملها، ولاَ يَذم مَن هُو أَهْل لِلمَدح، وإنْ أَسَاء لِشَخصه... ولَكِـنَّهُ أَرَاد التَّـعرِيض بِمَـن يَمْـدَح عَـلىٰ أَسَـاس المَـنْفَعَة، والْمَصْلَحَة الْخَاصَّة.

والجَدِير بِالْإشَارَة أنّ هَذَا الدُّعَاء وَرَد بِالحَرف الوَاحد فِي الصَّحِيفَة السَّـجّادِيَة للإِمَام زَين العَابدِين حَفِيد الإِمَام أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، وهُو قطعَة مِن الدُّعَاء المَـعرُوف بمكَارِم الأَخْلاق[2].

وبَعْد، فإنّ الإِسْلاَم يَرىٰ الْفَقْر مَوْتاً، وكُفراً، وبُؤرة لِكُلِّ رَذِيلة وَجَـرِيمَة، ولذَا أَعْلَن الثَّورَة عَلَيْهِ وَعَلىٰ الإِحْتِكَار، وَعَلىٰ كُلّ نظَام أو عَمل يُؤدي إِلىٰ الاِسْتغلاَل والإِفْقَار.

---

(١) أنظر، شَرح الْخُطْبَة: (١٢٦ و ١٢٩). (مِنْهُ).

(٢) أنظر، الصَّحِيفَة السَجّاديَّة شَرح العلاّمَة الشَّيخ مُحمّد جَوَاد مُغنيَة: ٢٤٦، الدُّعاء العشرُون / دُعَاؤُهُ فِي مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، بتحَقيقنا.

الخطبة

-٢٢٦-

الدُّنْيَا:

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَ بِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَ لَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا .

أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَ تَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَ الْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ ، وَ إِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا ، وَ تُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا .

وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَىٰ سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَىٰ قَبْلَكُمْ ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً ، وَ أَعْمَرَ دِيَاراً ، وَ أَبْعَدَ آثَاراً ، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَ رِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَ أَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَ دِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَ آثَارُهُمْ عَافِيَةً . فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشَيَّدَةِ ، وَ النَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ ، الصُّخُورَ وَ الْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ ، وَ الْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا ، وَ شُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ ، وَ سَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ ، وَ أَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ ، وَ لَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ ، عَلَىٰ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ ، وَ دُنُوِّ الدَّارِ . وَ كَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَ قَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَىٰ ، وَ أَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَ الثَّرَىٰ !

وَ كَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَ ٱرْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَ ضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ . فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ ، وَ بُعْثِرَتِ الْقُبُورُ : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[1] .

اللُّغَة:

تَارَاتٌ : جَمع تَارَة ، وَهِي الحِين والمَرَّة . والنَّمَارِقِ : الوسَائِد يَستَند إِلَيْهَا ، وتُـعَلَق النَّمرَقَة عَلىٰ البِسَاط . واللَّاطِئَة : اللَّاصِقَة ، والمُـلْحَدَة : جُـعلوا فِي الْـقُبُور لِحُـوداً . وفِنَاؤُهَا ـ بِكَسر الفَاء ـ سَاحتها . والكَلْكَلِ : صَدر البَعِير . والجَنَادِلُ : الصُّخُور .

الإِعْرَاب:

دَارٌ لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هِي دَارٌ ، وأَحْوَالٌ أي هِي أَحْوَالٌ لاوعَـلَىٰ سَـبِيلِ خَـبَر أَنَّكُم ، وأَعْمَاراً تَمْيِيز ، وَمِثْله دِيَاراً ، وَآثَاراً ، ومُوحِشِينَ صِـفَة أَهْـلِ مَحَـلَّةٍ ، وَكَـأَنْ مُخَفَّفَة ، وٱسمها مَحذُوف أي كَأَنْكُم ، وكَيْفَ بِكُمْ «كَيْفَ» خَبَر مُقَدَّم ، والبَـاء زَائِـدَة و «كُمْ» مُبْتَدَأ لِأَنَّهَا قَائِمَة مَقَام أَنْتُمْ ، وٱشتَبَه بَعْض الشَّارِحِين فِي قَـوْلِهِ : إِنَّ المُـبْتَدَأ مَحذُوف .

الْمَعْنَىٰ:

(دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَ بِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ ... إلخ) . كلّ مَا فِي هَـذِه ٱلخُـطْبَة هُـو

---

(١) يُونُس : ٣٠.

تكـرَار وإعَـادة لَمـا جَـاء فِي الخُـطَب السَّـابقة مِـن ذَمِ الدُّنْـيَا وبـيَان كـوَارثـها ومآسِيها... ولاَ نهَاية لكلاَم الإمَام عَن الدُّنْيَا مَا دَام حُبّها والتَّعلق بِها عِلَّة الْـعِلَل للوِيلاَت، والمُشْكِلاَت... وأيضاً لاَ يَنتهِي حُبّ النَّاس للدُّنْيَا وَتمَسكُهم بِعرُوتها إلّا مَن شَذَّ أيّاً كَان النَّاهي، والزَّاجر. فَقَد نهىٰ الْقُرآن الكَرِيم عَـن الغُش، والنِّـفَاق، والْـفِتْنَة، والْـبَغْي، وَأمَـر الْمُـؤْمِنِينَ بِـالاْتِحَاد، والاِعـتصَام بـاللهِ جَمِـيعاً. وَقَـالَ الرَّسُول ﷺ: «لاَ تَردّوا بَعدِي كِفارَاً يَضرِب بَعْضكُم رِقَاب بَعْض»[1]، ومَع هَـذَا يَغش الْمُسلِمُون بَعْضهُم بَعضاً، وَقَد ضَرَب بَعْضهُم رِقَاب بَعْض بِـالأمس البَـعِيد والقَرِيب، والآنْ تَقُوم الْحَرْب، والمذَابح بَيْنهُم فِي بَاكستَان، والأُردن[2]، واليَمن.. ولَكنْ هَذَا لاَ يَمنع مِن النَّهي عَن الْفَسَاد فِي الأَرْضِ، لقِيَام الحُجَّة مِن جِهَة، وَعَسىٰ أنْ يَفِيء البَاغِي إلىٰ رُشدَه مِن جِهة، وإنْ ضَعُف الأمَل.

هَذَا فِيما يَعُود إلىٰ تكرَار الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ والنَّهي عَن الْمُنْكَر، أمّـا فِـيما يَـعُود إليَّ شَخصِياً كشَارح ومُفسر فَلا جَدِيد لَدَيَّ أشرَح بِهِ هَذِه ٱلْخُطْبَة بَعد الَّذي قُلته فِيما سَبق أَللَّهُمَّ إلّا أنْ أُلَخص مَا جَاء فِي بَعْض الشّرُوح بمَا يَلي:

ذكَر الإمَام فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة العَدِيد مِن مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا:

أوّلهَا: إنّ الْبَلاَء يَحِفُّ بِهَا مِن كلّ جَانب.

وَثَانِيهَا: إنَّهَا مَعرُوفة بِالْغَدْر.

---

(١) أنظر، صَحِيح البُخاريّ: ٢٥٩٤/٦ ح ٦٦٦٨ و: ٩١/٨، مَجْمَع الزّوائد: ٢٨٣/٦، المُعجَم الأوسط: ٢٦٩/٤ ح ٤١٦٦، تَغلِيق التَّعليق: ٢٤٥/٥، مُسْتَدرَك سَفِينة البحَار: ١٧٥/٦.

(٢) أحد أجْنَاد الشَّام الخَمْسَة، وَهِي كُورة وَاسعة مِنْهَا: الغُور، وطَبرِية، وصُور، وعَكا، ومَا بَيْن ذَلِكَ. أنظر، مُعجم البُلدان: ١٧٧/١.

وثالثهَا: إنَّ أَحْوَالها مُتقَلبَة.

وَرَابعهَا: إنَّ أَهْلَها يمُوْتُون.

وَخَامسهَا: إنَّهَا تتغير مِن حَالٍ لآخر.

وَسَادسهَا: إنّ عَيشهَا مَذمُوم.

وَسَابعهَا: إنّه لاَ أَمَان فِيها.

وَثَامِنْهَا: إنَّ أَهْلهَا هَدف لِلبَلاَيَا والرَّزَايَا... إِلىٰ غَيْر ذَلِكَ. ويُمكن تلخِيص هَذَا التَّلخِيص بِكَلِمَة وَاحدة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

(فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ، وَ بُعْثِرَتِ الْقُبُورُ... إلخ). قَال أَهْل العِلم بِالله وَعدَالته: إنّ لِلإِنْسَان قِيامتين: صُغرىٰ، وكُبرىٰ، والأُولىٰ عَالم الْبرْزَخِ، ويَبتَدىء بِالْمَوْت، ويَنتَهِي بِالبَعث، وفِي هَذَا العَالم نَوْع مِن الثَّوَاب، والعقَاب، ولكنْ لاَ عَلىٰ سَبِيل التُّوفِية الكَامِلة والحُكم النَّهائِي المُبرَم، أمّا الْقِيَامَة الْكُبْرَىٰ فَتبتَدىء حَيْث تَنْتَهِي الْقِيَامَة الصُّغرىٰ أي فِي البَعث الَّذي يَرد الله فِيهِ الأَرْوَاح إِلىٰ الأَجْسَاد، وَيبعثها إِلىٰ جَنَّةٍ أو إِلىٰ نَارٍ، وَهَذَا البَعث أو المَعَاد هُو دَار القَرَار، وفِيها يَتم الحِسَاب وتُوفِية الثَّوَاب، أو العقَاب، وَيَنتَهِي كلّ شَيء.. قَال سُبْحَانَهُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2] أي أَنَّكُم فِي الْبَرْزَخِ، وَغُرفَة الاِنْتظَار تُعَامَلون بِمَا كُنتُم تَعْملُون فِي الدُّنْيَا، ولكنْ كَعَرَبُون أو بِشَارة.. أَمَّا التُّوفِيَة الكَامِلَة، والجَزَاء التَّام فيَوْم القِيَامَة.

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥.

وَقَد حَثَّ الْإِمَام فِي هَذِه ٱلخُطْبَة عَلىٰ الْعَمَل والاِسْتعدَاد للقِيَامة الْكُبْرَىٰ الَّتي: ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ﴾[1]. وَتَسَاءل الْإِمَام: مَاذا تَصْنَعُون آنْذَاك إِذَا كُنْتُم عُزلاً مِن كُلّ سِلاح... أَنْتُمُ الآنْ عَلىٰ مُفتَرَق الطُّرق، وَعَلَيْكُم أنْ تَختَارُوا لأَنْفُسكم السَّلاَمة والنَّجَاة. وَتَقَدَّم قَوْله: «آعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِر، وَ تُبْلَىٰ فِيهِ السَّرَائِرُ... وَآتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ»[2]. وَنَختم هَذِه الكَلِمَة بقَول الرَّسُول الْأَعظم ﷺ: «إِنّ الرَّجُل لَيَعمَل عَمل أَهْل الْجَنَّة فِيمَا يَبدُو للنَّاس، وهُو مِن أَهْل النَّار، وإِنّ الرَّجُل لَيَعمَل عَمل أَهْل النَّار فِيمَا يَبدُو للنَّاس، وهُو مِن أَهْل الْجَنَّة»[3].

---

(١) ٱلبَقَرَة: ٢٨١.

(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٢٠). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٣/١٠٦١ ح ٢٧٤٢ و: ٤/١٥٣٩ ح ٣٩٦٦ و: ٦/٢٤٣٦ ح ٦٢٣٣، صَحِيح مُسْلِم: ١/١٠٦ ح ١١٢ و: ٤/٢٠٤٢، مَجْمَع الزّوائد: ٦/١١٦، مُسْنَد الشَّاشي: ٢/١٤٢ ح ٦٨٢، مُسْنَد الرّوياني: ٢/١٩٥ ح ١٠٢٦ و ١٠٥٢، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ١/٣٨ ح ٢٩٨، مُسْنَد أَبِي يعلىٰ: ١٣/٥٣٩، مُسْنَد عَبد بن حميد: ١/١٦٨ ح ٤٥٧ و ٤٥٩ و ١٥٠٠، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٦/١٤٣ ح ٥٧٨٤، الإِيمَان لِابْن مُنده: ٢/٦٦٣ ح ٦٤٤ و ٦٤٥ و ٦٤٦، السُّنَّة لِابْن عَاصم: ١/٧٧ ح ١٧٥، التَّرغِيب والتَّرهِيب: ٣/٢٠٧، تَفْسِير القُرطُبي: ١٨/١٣٢.

الخطبة

-٢٢٧-

الأُنس بالحَبِيب:

أَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ، وَ أَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَ تَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَ تَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَ قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ. وَ إِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَئُوا إِلَىٰ الاِسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَ مَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

أَللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَىٰ مَصَالِحِي، وَ خُذْ بِقَلْبِي إِلَىٰ مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَ لَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

أَللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَىٰ عَفْوِكَ، وَ لَا تَحْمِلْنِي عَلَىٰ عَدْلِكَ.

اللُّغَة:

آنَسُ: أَشد أُنساً. وَتَلَهُف عَلَيْهِ: حُزْن وَتَحَسُر، وَبِهِ اَستغَاث، وإِلَيْهِ اشْتَاق.

وفَهِهْتُ: عَيِيتُ وَعَجِزْتُ عَن الْبَيَان.

الإِعْرَاب:

عِلْماً مَفْعُول مِن أَجْله لِلَجَئُوا، والْمَصْدَر المُنسَبك مِن أَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ... إلخ. مجرُور بِالبَاء، وَمُتَعَلِّق بـ«عِلْماً» وَبِنُكْرٍ خَبَر لَيْس، والبَاء زَائِدَة.

الْمَعْنَىٰ:

(أَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ). إنّ أَوْلِيَاء الله سُبْحَانَهُ يرتَاحُون وَيَأنَسُون بِطَاعتَه تَعَالىٰ وَمُنَاجَاته، وهُو أيضاً يَزِيدَهُم أُنْسَاً بِذَلِكَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1]. (وَ أَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ). وَأيضاً يُغني وَيَكفِي مَن تُوكل عَلَيْهِ، لأنّه خَير مَن كَفىٰ وَأغنىٰ. (تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَ تَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَ تَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ)، هُو سُبْحَانَهُ أَعْلَم بِهِمْ مِن أَنْفُسهم، ولمَا رَآهم أَصْفِياء أَتْقِيَاء شَمَلهُم بِبِره وإحْسَانه (وَ قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ). وإذَا ٱلتَّهَفَت الْقُلُوب وأَخْلَصت أُذعِنَت الجَوَارح، وَخَلُصت الأَعْمَال مِن الشّوَائب، لأنّ الْقُلُوب هِي المَصْدَر والمَنبَع، ومِن هُنا أَسْنَد سُبْحَانَهُ طَاعته، وَتَعظِيم شعَائِره إلىٰ تقوىٰ الْقُلُوب حَيْث قَال: عزَّ مَن قَائِل: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2].

(إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ. وَ إِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ... إِلىٰ قَضَائِكَ). إنَّهم يَعْلمُون وَيُؤْمِنُون بِأنّ كلّ شَيء فِي الكَوْن مِن الذَّرَّة الصَّغِيرة إِلىٰ المَجَرَات الكَبِيرَة ـ تَسِير عَلىٰ أَسَاس وقَانُون، وإنّ المُسببَات تُناط بِأسْبَابها،

---

(١) مُحَمَّد: ١٧.

(٢) الحَجّ: ٣٢.

والنَّتَائج بِمُقدمَاتها، ولَكِنَّهُم إِلىٰ جَانِب هَذَا العِلم، والإِيمَان المَادي يُؤْمِنُون بِأَنّ الله هُو المُبدأ لكلّ شَيء، وإِلَيْهِ يَنتَهي كلّ شَيء، وإنّه خَلق الكَوْن وَأودَع فِيهِ الطَّاقَات والأَسْبَاب... ولذَا يَلتَجئون إِلَيْهِ، وَبِهِ يَتَوسلُون فِي المُهمَات وَعِند المُلمّات (أَللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي... إلخ). أَنْتَ أَعْلَم مِني بِحَالِي، وَقَد عَجَزت عَن بيَان حَاجَتِي إِلَيْك، فَاخْتَر لِي مَا فِيهِ خَيرٍ وَصَلاح لدُنْيَاي وآخِرَتِي (فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ) كَيْفَ وَأَنْتَ خَير مَرجُو، وأَكرَم مَدعُو؟ (وَ لَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ) بَعد أَنْ تَتَابع بِرك، واتَصل خَيرك، وَعَظُم فَضلك.

(أَللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَىٰ عَفْوِكَ، وَ لَا تَحْمِلْنِي عَلَىٰ عَدْلِكَ). إِذَا كَان الإِمَام يَسأَل الله العَفُو، ولاَ يُطِيق العَدْل فَكَيف بِغَيْره؟ ومَا مِن شَكٍّ أَنّ الله غَني عَن العَالمِين يَعفو وَيَرحم إِلّا الوَحش الكَاسر الَّذي يَظلم عِبَاد الله، وَيَقْسُو عَلَيْهِمْ بِلا رَحْمَة، وفِي الحَدِيث: «مَن لاَ يَرحم لا يُرحم»[1]. وقِيل للإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام: «إِنّ الحَسَن البَصرِي يَقول: لَيسَ العَجب مِمَّنْ هَلك كَيْفَ هَلك، وإِنّمَا العَجب مِمَّنْ نَجا كَيْفَ نَجا. فقَال الإِمَام: أَمّا أنَا فَأَقُول: لَيسَ العَجب مِمَّنْ نَجا كَيْفَ نَجا، وإِنّمَا العَجب مِمَّنْ هَلك كَيْفَ هَلك مَع رَحْمَة الله الّتِي وَسِعت كلّ شَيء»[2].

---

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٧/٧٥، صَحِيح مُسْلِم: ٧/٧٧، مُسْنَد أحمد: ٢/٢٢٨، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٢٦، المَجمُوع: ٤/٦٣٩، المُحلىٰ: ٦/٢٦٣، سُنن أبي داود: ٢/٥٢٢، الأدَب المُفرد: ٣٢، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ١٠/٢٩٧، المُصَنّف للصَّنعاني: ٣/٥٥٣، فَتح البَاري: ١٠/٣٦٠.

(٢) أُنظر، أَمَالي المُرتضىٰ: ١/١١٣، بحَار الأنْوَار: ٧٥/١٥٣ ح ١٧، إعلاَم الوَرىٰ بأعلاَم الهُدَىٰ: ١/٤٨٩، شَرح مِئَة كَلمة للبَحرَاني: ١٨٣، شَرح الصَّحِيفة السَّجادِيَة لمُحَمَّد جوَاد مُغنِيَة: ١٧٧، بتحقيقنا.

الخطبة

ـ ٢٢٨ ـ

للهِ فُلَانٍ:

للهِ بَلَاءُ فُلَانٍ، فَلَقَدْ قَوَّمَ الْأَوَدَ، وَ دَاوَىٰ الْعَمَدَ، وَ أَقَامَ السُّنَّةَ، وَ خَلَّفَ الْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَ سَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّىٰ إِلَىٰ اللهِ طَاعَتَهُ، وَ اتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَ تَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَ لَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي.

اللُّغَة:

الْأَوَد: الاِعْوِجَاج: والْعَمَدَ ـ بِفَتح الْعَيْن والمِيم ـ المَرَض. وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ: مَات قَبل حدُوثها. وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ: أَدىٰ الْحَقّ لصَّاحِبه وقَايَة لمُطَالبَته. وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ: مُخْتَلفِين. وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي: يَجْهَل مَصِيرَه لكَثْرَة الإِخْتِلَاف.

الْإِعْرَاب:

للهِ خَبَرَ مُقَدم، وبَلَاءُ أو بِلَادَ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، والْقَصْد المَدح.

الْمَعْنَىٰ:

(لِلهِ بَلاَءُ فُلاَنٍ، فَلَقَدْ قَوَّمَ الأَوَدَ، وَ دَاوَىٰ الْعَمَدَ.... إلخ). قِيل: الْمُرَاد بِفُلان أَبِي بَكْر. وقِيل: عُمَرَ، وهُو الأَشهر، وأيّاً كَان فإنَّ النَّاس كَانوا سُعدَاء مَع رَسُول الله ﷺ، ومَا سَدّ فرَاغه أبو بَكْر ولا عُمَرَ، ولكن عَهْدهُما كَان أَفضَل مِن عَهد عُثْمَانَ الَّذي فَتَح عَلىٰ أُمَّة مُحَمَّد ﷺ بَاب «الْقَتْل والْقِتَال إِلىٰ يَوْم الْقِيامَة». فلاَ فِتْنَةٌ فِي عَهد الشَّيخِين، ولاَ خلاَفة مُورُوثة، ولاَكَسرُوِية وقِيصَرِية، ولاَ طَاغِية يَتَّخِذ مَالَ الله دُولاً، وعِبَاده خُولاً.

وأي مُسلِم يُفضل عَهد الأمُوِيين والْعَبَّاسِيين وأَمثَالهم عَلىٰ عَهد الشِّيخِين؟ فَلَقد ٱستطاعَا بِسِيرتهُما فِي ٱلخِلاَفة أنْ يحظِيا عبر التَّأرِيخ بِالرّضا مِن أَكْثَر ٱلْمُسْلِمِينَ، ولاَ يَختلف ٱثنَان فِي أنّ الإِمَام كَان يرىٰ أنّه الأَوْلَىٰ والأحَق مِنْهُمَا بِالخِلاَفةِ، وأيضاً لاَ ٱختلاَف فِي أنّه كَان يَرَاهُما أَفضل مِن عُثْمَانَ، وَقَد صَارحه بِذَلِك حِين قَال لَهُ: «وَ مَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَ لاَ ٱبْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ»[1]. وإِذنْ فَأية غَرَابَة فِي قَول الإِمَام: «لِلهِ فُلاَنٍ»: وَكَتَبَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد حَوْلَ هَذِه ٱلْخُطْبَة (٨٧) صَفْحَة بِالقِيَاس الْكَبِير.... وٱختَصر شَارح آخر مُكتَفِياً بِأَرْبَعِين صَفْحَة[2].

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٦٤). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، شَرح نَهْج البَلاَغَة: ٣/١٢. ومِمَّا يَجدر ذِكره، يُشير بَعْض الشَّارحِين إِلىٰ أنّ هذا الْقَوْل هو صِيحَة لبنت حَنتمه بِقولها «واعُمَرَاه فَقد قَوم الأود، وداوىٰ العَمد، وخَلف الْفِتْنَة... فقَال ﷺ: صَدَقت بِنت حَنْتمه»، وعَن أوفىٰ بن حَكِيم قَالَ: (لمّا كَان اليَوم الَّذي هَلك فِيهِ عُمَرَ قلت: والله لآتين بَاب عَلي بن أَبِي طالب! فأتِيت بَاب عَليّ فإذَا النَّاس يَرقبونَه فمَا لَبث أنْ خَرج عَلينا فأَطم ثُمّ رَفع، فقَال: لله دَر بَاكية عُمَرَ قَالت: واعُمَرَاه، قَوم الأود، وأبد العَمد، واعُمَرَاه! مَات نَقِي الثّوب قبل العِيب، واعُمَرَاه! ذَهب بِالسُّنة

⟺

وَبَعد، فإنّ المُهم فِي مَنْطِقِي وَمَنطق أَمثَالِي، لَيس لأحـد أنْ يَحكُـم مَـع وجُـود الْإِمَام... والْأَهم فِي مَنْطق عَلِيّ ﷺ أنْ يَرضىٰ النَّاس عَن الْحَاكِم، ولاَ يَشكو مِـنْهُ فَقِير أو ضَعِيف، وَقَد أَعْلن ذَلِك بقَوْله: «وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَـلَيَّ خَـاصَّةً، ٱلْتِمَـاساً لِأَجْـرِ ذَلِك وَفَـضْلِهِ، وَزُهْـداً فِـيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ، وَزِبْرِجِهِ»[1].

⇐ وأبقىٰ الْفِتنَة، قَاتلها الله مَا ذَرب!) أُنظر، كنز الْعُمَّال: ٧٠٠/١٢ ح ٣٦٠٨٥. وقَد جَاء فِي النّهاية: ٥٦/٢ (ذَرَب بِالتَّحريك: هو الدَّاء الَّذي يَعرض للمَعِدة فَلا تَهضم الطَّعام، ويفسد فِيها فَلا تَمسكه. ومِنْه حَدِيث الْأَعْشىٰ: أنّه أَنشد النَّبيّ ﷺ، أبياتاً فِي زَوجته مِنْهَا قَوله:

إِلَيْك أَشْكُو ذَرِبَة مِـن الذَّربِ

وهُنا كَنىٰ عَن فَسَادها وخِيَانتها بِـالذَّربَة، وأَصْـله مِـن ذَرَب المَـعِدة وفَسـادها. أُنـظر، تَأرِيخ دِمشـق: ٤٥٧/٤٤، ولكن بِلفظ: (مَا قَالت ولكنّها قولت) وكَذلك فِي تَأرِيخ الْمَدِينَة لِابْن شَبه النّمـيري: ٩٤١/٣، بِلفظ آبنة أَبِي خُثيمة، وقُولته. وفِي الرّياض النَّضرة: ١٠٣/٢، بِلفظ لله دَر بَاكِـية عُـمَرَ. وفِي البـدَايـة والنّهاية: ١٥٨/٧ بِلفظ: (مَا قَالت ولكن قولت) وفِي الطَّبَرِي: ٢١٨/٤ طَبعة دَار المعَارف، و: ٢٨٥/٣ طَبعة أُخرىٰ (بِنت أَبِي حَثمة).

(١) أُنظر، نَهْج البَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٧٤).

الخطبة

-٢٢٩-

حَوْل بَيْعَة الإِمَام:

وَ بَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا ، وَ مَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا ، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَىٰ حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ، حَتَّىٰ انْقَطَعَتِ النَّعْلُ ، وَ سَقَطَ الرِّدَاءُ ، وَ وُطِىءَ الضَّعِيفُ ، وَ بَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَ هَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ ، وَ تَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَ حَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ .

اللُّغَة:

تَدَاكَكْتُمْ: تَزَاحَمْتُم . والْهِيمِ : العِطَاش . وَهَدَجَ : مَشىٰ مَشياً ضَعِيفاً لِكِبَر سِنّه . وتَحَامَلَ : تَكَلَّف عَلىٰ مَشَقَة وإعِيَاء . والْعَلِيلُ : المَرِيض . وَحَسَرَتْ : كَشَفَت عَن وَجْهِهَا . والْكِعَابُ والكَاعب : الجَارِيَة النَّاهِد ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[1] .

---

(١) النَّبَأ : ٣٣.

الإِعْرَاب:

فَاعِل بَلَغَ مَحذُوف، ومِـنْ سُرُورٍ بـيَان لهُ أي بَـلَغَ الحَـال مِـنْ سُرُورٍ... إلخ، والْمَصْدَر من أَنِ ٱبْتَهَجَ مَجرُور بِمَحذُوف أي إِلىٰ ٱبْتهَاج الصَّغِيرُ.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ بَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُها، وَ مَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا... إلخ). قَال الشَّرِيف الرَّضِي: تَقَدَّم مِثله بِأَلفَاظ مُختلفة... يُشِير إِلىٰ مَا جَاء فِي خُطْبَة الشِّقشِقِيَّة، وٱلْخُطْبَة (٩٢) وغَيْرهُما. وفِي شَرح هَاتِين ٱلْخُـطْبَتِين عَرضت بِالتَّفصِيل مَا أَشَار إِلَيْهِ الإِمَام هُنا، ولاَ جَدِيد لَديّ أَعْطفه عَلىٰ مَا سَبَق سِوىٰ أَنّي قَرَأت اليَوْم كَـلِمَة مُـطولَة بِـعنوَان «شَرخ فِي خِلاَفَة ٱلْمُسْلِمِينَ» بِقَلم الأُستاذ سَامي مَحمُود، وهو قَوْله:

«عِندمَا تَوَلَّىٰ عُثْمَانَ أَسرف عَلىٰ النَّاس وَعَلىٰ أَهْله مِن بَنِي أُمَيَّة الَّذِين طَغوا فِي البلاَد وأَكْثَروا فِيهَا الْفَسَاد، فٱنْتَشر التَّذَمر، وشَاعَت الْفِتْنَة، وقُتل عُثْمَانَ، أَمّا عَليّ هُو وأَبْنَاؤه أَحْفَاد رَسُول الله، فكَان طَرِيقهُم مَعرُوفاً وَاضحاً مُستَقِيماً لَمْ يَـتَرَدَدُوا فِيهِ، وَلَم يُفكرُوا لَحْظَة وَاحدة فِي دُنْيَا يَصِيبُونها، أو ٱمرَأة يَتَزوجُونهَا، وإِنَّمَا كَانَتْ هجرَتهُم إِلىٰ الله وَرَسُوله.. أَمّا مُعَاوِيَةَ فَقَد تَكَالب عَلىٰ ٱلْمُلْكِ، وَجعَله فِي ذُرّيته مِن بَعدَه، وَخَالف أَحْكَاماً كَثِيرة مِن تَعَالِيم الإِسْلاَم، وَلْم يُبَال مُعَاوِيَةَ وَبَنُوه مِن بَعده بِقَتل حَفِيد رَسُول الله ﷺ، وٱستبَاحَة مَكَّة والكَعْبَة، وإِحـلاَل الْمَـدِينَة لجـنُودهم ثَلاثَة أَيَّام»[1].

---

(١) أَنظر، جَرِيدة «أَخْبَار اليَوْم» المِصْرِية تَأرِيخ: ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٢م. (مِنهُ ﷺ).

أَنظر، الْفُتُوح لِابْن أَعْـثَمْ: ٣٥٣/٣ و٣٥٤ و٣٥٥ و٣٥٦ و٣٥٧، تَأرِيخ الطَّبري: ١٧٩/٦ و١٨٠، الإِصَابَة: ١٦٩/٤، تَهذِيب التَّهذِيب: ١٧٤/٦، المقتل للخوارزمـيّ: ١٧/١، الْـبَيَان والتَّـبِيين: ١٠٧/٢، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٤/٤.

الخطبة
- ٢٣٠ -

الْعَمَلُ يُرْفَعُ...فِقْرَة ١:

فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَ ذَخِيرَةُ مَعَادٍ ، وَ عِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَ نَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ . بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَ يَنْجُو الْهَارِبُ ، وَ تُنَالُ الرَّغَائِبُ .

فَٱعْمَلُوا وَ الْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَ التَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَ الدُّعَاءُ يُسْمَعُ ، وَ الْحَالُ هَادِئَةٌ ، وَ الْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ . وَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً ، أَوْ مَرَضاً حَابِساً ، أَوْ مَوْتاً خَالِساً . فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ ، وَ مُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ ، وَ مُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ . زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَ قِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَ وَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ . قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ ، وَ تَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ ، وَ أَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ ، وَ عَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ ، وَ تَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ ، وَ قَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ . فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ ، وَ ٱحْتِدَامُ عِلَلِهِ ، وَ حَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ ، وَ غَوَاشِي سَكَرَاتِهِ ، وَ أَلِيمُ إِرْهَاقِهِ ، وَ دُجُوُّ أَطْبَاقِهِ ، وَ جُشُوبَةُ مَذَاقِهِ . فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ ، وَ فَرَّقَ نَدِيَّكُمْ ، وَ عَفَّىٰ آثَارَكُمْ ، وَ عَطَّلَ دِيَارَكُمْ ، وَ بَعَثَ وُرَّاثَكُمْ ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ ، وَ قَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ ، وَ آخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ[1] .

اللُّغَة:

الْمُرَاد بالمَلَكَة هُنا الرِّق بِقَرِينَة قَوْله: «عِتْقٌ». ونَاكِساً: رَاجِعاً إِلىٰ أَرْذَل الْعُمُر لاَ إدرَاك ولاَ حرَاك تَمَاماً كَالطِّفل فِي المَهد. وحَابِساً: مَانِعاً عَن الْعَمَل.

وخَالِساً: خَاطِفاً. وطِيَّاتِكُمْ: مَنَازل سَفركُم، وقِيل: نِيَاتكُم وَمَقاصِدكُم.

والقِرْن ـ بِكسر القَاف ـ الكُفوْ، وَالواتِر: الجَانِي، والمُوتُور مَن وَقعت عَلَيْهِ الجنَايَة. وتَكَنَّفَتْكُمْ: أَحَاطَتكُم. وغَوَائِلُهُ: مصَائِبَه. ومَعَابِلُهُ: جَمع مَعْبَلة أي حَدِيدَة السَّهم والرّمح. وعَدْوَتُهُ: عُدْوَانه. وظُلَلِهِ: سحَائِبه وغُيُومه. والاِحْتِدَامُ: الاِشْتِدَاد. والحَنَادِسُ: الظُّلمَات. وغَمَرَاتِهِ: شَدَائِده. والغَوَاشِي: الطَّامَات الغَامرَات. الإِزْهَاق: الهَلاَك. والإِرْهَاق: حَمل مَا لاَ يُطاق. والدُّجُوُّ: الظَّلاَم.

والجُشُوبَةُ: الغِلظَة. والنَّجِيّ: مَن تُنَاجِيه. والنَّدِيّ: المَكَان يَجتَمع فِيهِ الْقَوْم.

الْإِعْرَاب:

فَكَأَنْ مُخَفَفة، وأَصلها فكَأَنَّه، وبَغْتَةً مَصْدَر فِي مَوضع الحَال أي مُبَاغتاً.

وآخَرَ لاَ يَنْصَرف، ولِذَا جُر بِالفَتحَة.

الْمَعْنَىٰ:

(فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ) وهُو الصَّوَاب فِي الْقَوْل والْعَمَل (وَ ذَخِيرَةُ مَعَادٍ) حَيْث الْحِسَاب والْجَزَاء (وَ عِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ) تَحرِير مِن رِقّ الشَّهوات و(بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ) وَيَفُوز بِثوَاب الله وَمرضَاته (وَ يَنْجُو الْهَارِبُ) مِن العَذَاب والعقَاب (وَ تُنَالُ الرَّغَائِبُ) عَطف تَفْسِير عَلىٰ يَنْجَح الطَّالب. وَتَقدَّم الكَلاَم عَن التَّقْوَىٰ مرَّات،

وَتحدثنَا عَنْهَا بِشيء مَن التَّفصِيل[١].

(وَ الْعَمَلُ يُرْفَعُ) إِلىٰ الله سُبْحَانَهُ، فَيَقْبَلَه ويُثِيب عَلَيْهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٢]. (التَّوْبَةُ تَنْفَعُ) لأنّ التَّائِب مِن الذَّنب كَمن لاَ ذَنبَ لَهُ. وَتَقَدَّم الكلاَم عَن ٱلتَّوْبَة[٣].

(وَ الدُّعَاءُ يُسْمَعُ) مَا دُمتُم أَحْيَاء فَتَستَطِيعُون أنّ تَتَضَرعُوا لله وَتَسألوه الرَّحْمَة (وَ الْحَالُ هَادِئَةٌ) أي أَنْتُمْ فِي حَالٍ تُمْكنَكُم مِن الْعَمَل لآخِرتكُم (وَ الْأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ) تَكتُب لَكُم ثوَاب مَا تَعْملون من الصَّالحَات.

(وَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً... إلخ). ٱستَبقُوا الخَيْرَات قَبل أنْ تَهرمُوا وتُردوا إِلىٰ أَرذَل الْعُمُر، أو يَمْنعكُم المَرض مِن الحرَكَة أو يَخْطفكُم الْمَوْت بَغْتَةً، وَيحُول بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مَا تَقْصدُون. وَقَال فِيلسُوف: إنّ الْإِنْسَان يُدفَن أجزَاء نَفْسَه بٱستمرَار مُنذ ولاَدته إِلىٰ يَوْمه الأخِير، لأنّ كلّ يَوْم يَمر فَهُو فِي عَالم الأموَات، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ الْإِنْسَان يَشرَع بالْمَوْت بِمُجَرد مَا يُوْلَد، وإنّ الْفَتْرَة الّتي يَحيَاها إنّمَا هِي المُدة الّتي تَستَغرق عَملِيَة الوَفَاة. وَقَال آخر: إنّ وجُود الْإِنْسَان كَآثَار أَقدَام فُوق الرّمَال. وَسُئل حَكِيم عَن أَخِيه؟ فقَال: مَات. قِيل لهُ: ومَا سَبب مَوْته؟

فقَال حَيَاته. أي إنّ الْإِنْسَان لاَ يَمُوْت لأنّه يَمرَض أو يَهرَم، بل لأنّه حَيّ.

فَسُبْحَانَ الحَيّ الّذي لا يَمُوْت.

(وَ قَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ). الهَاء فِي نَبْوَتُه تَعُود إِلىٰ المَوْت. ونَبَا السَّيْف: لَم يَقْطَع،

---

(١) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (١٩١). «التّقْوىٰ». (مِنْهُ).

(٢) فَاطِر: ١٠.

(٣) أنظر، شَرح ٱلخُطْبَة: (٩٤ و ١٨٣). «ٱلتَّوبَة». (مِنْهُ).

والْمَعْنَىٰ إِنّ دَلاَئِل المَوْت إِذَا ظَهَرت عَلىٰ الْإِنْسَان فإِنَّهَا لا تخطىء إلّا قَـليلاً ولكـنْ سُرعَان مَا يُصَحح الْمَوْت خَطأه، وبِكَلمة الْإِمَام: «فَإِنَّ الْمَوْتَ غَالِب غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ» أي أنّ الْمَوْت يَقْتل دُونَ أنْ يُطَالب بِدِيةٍ أو قَصَاص.

(فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ، وَ ٱحْتِدَامُ عِلَلِهِ... إلخ). إنّ سَـيْف الْمَـوْت مُصلت فَوق رِقَابكُم يُهددكُم بِهِ فِي كلّ لَحـظَة (فَكَأَنْ قَـدْ أَتَـاكُـمْ بَـغْتَةً فَـأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ... إلخ). وَجَعَلكُم جُثَثاً هَامِدَة بَارِدَة لاَ تَصلح إلّا للدَّفن والْطَمْر، وَبَـعده تَخلو الدِّيَار، وَتُقَسم الْأَمْوَال.. وقَائِل يَقول: رَحِمَه الله، وآخر يَقول: أَبْـعدَه الله!. هَذِه هِي لُعبَة الْمَوْت مَع الْإِنْسَان. وطُوبىٰ لِمَن أَعد لهُ عِدَته.

وَبَعد، فإنّ كلّ وَاحد منّا يَتنَارعه أمرَان: لَذَة ٱلْحَيَاة الدُّنْـيَا وَرُوعـتها، وهُـول الْمَوْت وَمَا بَعدَه مِن ظُلُمات وآفَات. ومَن يَحرص عَلىٰ سعَادته فِي الحَال والاِسْتقبَال فَعليه أنْ يُدخل فِكرة الْمَوْت فِي حيَاته كِيلا يَطغىٰ وَيتجَاوز الْحُدُود، وأيضاً يُدخل فِكرَة ٱلْحيَاة بَعد موْته كِي يَستعد لهَا ويُقبل عَلَيْهَا آمناً مُطمئناً. ولذَا قَال الْإِمَـام: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ وَالِاسْتِعْدَادِ». إِلىٰ آخر المَقطع الآتِي:

مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَتىٰ وأَين تَمُوت؟

وَلِمُناسَبة الحَدِيث عَن الْمَوْت أُشِير إِلىٰ أمرٍ لاَ يُحسن السُّكُوت عَلَيْهِ بحَالٍ، وهُو أنّ الصّهيُونيَة تَعمَل جَاهدة عَلىٰ التَّشكِيك بِالْقِيَم الْإِنْسَانِية، وبكلّ دَعْوَة تَقُوم عَلىٰ الصِّـدْق، والْعَدْل، وتُـنْكر الزُّور والْـبَغْي، وَتُسـاوي بَـيْنَ النَّـاس فِي الحُـقُوق والوَاجِبَات.

ذَلِكَ بِأَنّ لِليَهُود ـ بوجْه العمُوم ـ عَقِيدة عُنصرِية أنَّهم شَعب الله المُخْـتَار، وإنّ

غَيْرهم مِن النّاس مُسَخر لِخدمَتهم وَمَصالحهم، وإنّ لِليَهُودي كلّ الحَقّ أنْ يمتلك أي إنْسَان فِي الشّرق والغَرب، وَيفْعَل بِهِ مَا يَشَاء تَماماً كَما يمتلك آلْحيَوان... وعَلىٰ هَذَا نَصت التّوراة بوضُوح وصَرَاحة فِي سِفر التَّثنِية الإصْحَاح السّابع، وَسِفر العَدد الإصْحَاح (٣١).

أمّا كِتَاب التَّلمُود فَيقول: «نَحنُ شَعب الله المُختَار إلىٰ نَوْعَين مِن آلْحيَوَان: نَوْع أَعْجَم كَالدَّوَاب، والأَنْعَامِ، والطَّير، ونَوْع آلحيَوَان الإِنْسَانِي، وهُم سَائر مِن أهْل الشَّرق والغَرب».

ولمّا كَان الْقُرْآن، والإنْجِيل حَرْبَاً عَلىٰ هَـذِه الوَحشِـية الكَـاسِرَة، وعَـلىٰ كـلّ عُنصرِية قَرر اليَهُود قَتل عِيسَىٰ وَمُحَمَّد... ولمّا عَـجَزُوا عَـن آغْـتِيال رَسُـول الله بِالسُّم، والْقَضَاءِ عَلىٰ رِسَالَته دَسُوا الأَحَادِيث المَكذُوبة عَلىٰ لِسَانه، ثُمّ طَبعوا أُلوف النُّسخ مِن الْقُرْآن بَعد أنْ حَرفوا الكَثِير مِن آيَاته، وآشتَروا بَـعْض المُـزيفِين مِـن أرْبَاب العَمَائم للتَّشوِيه والتَّضلِيل بآسم الدِّين.

وَحِين ظَهر أَمْرَهُم وآفْتَضح مَكـرَهُم سَـلكوا سَـبِيلاً آخـر أَدْهـىٰ وَأحْكَـم، آكتَشَفتَهُ، وهُو: «أنّ اليَهُود ـ بِحُكم مَا لَهُم مِن سَيطَرة وَنُفُوذ عَلىٰ أَجهزَة الإعلاَم ـ نَشَروا فِي الصُّحف الغَربية أنّ الكلاَب فِي جَزِيرة «بَاربَادوس» إذَا قَـاربت الوفَـاة تَذهب إلىٰ مَقبَرة خَاصَّة لِتَمُوت فِيها... حَتَّىٰ كلاَب الجُزر الأُخرىٰ المُجَاورة تَسبح المُحِيط وتَتَجه إلىٰ هَذِه المَقبَرة دُونَ مَعرفة سَابقة بِهـا، وتَمُـوت هُـناك كـما أَحَـبت وأَرَادت.

وأيضاً إنّ القِطَط فِي جَزِيرة «أُوزِيل» حِين تَشعر بِدنو الأَجَل تُسرع إلىٰ مَقبرة مُعينة لِتَمُوت فِيها بِهدُوء، وإنّ القِطَط فِي هَذِه المَقبرة تَتَعايش مَـع فِـيرَانها بَأمـن

وَسَلام، لأنّ القِطَط فِي شُغلٍ بِالتَّفكِير فِي الْمَوْت وأهوَاله عَن الفِئرَان !»[1].

تَنشُر الصَّهيُونِية هَذِه الأبَاطِيل والأضَالِيل فِي صُحف غَربِية، وبِلُغَة أجنَبِية ٱبعَاداً للشُّبهَة، وإحْكَاماً لِلخُطَة، ثُمَّ تَصل هَذِه الصُّحف بِطَرِيقٍ أو بِآخر إلىٰ الكَاتِبِين وَمُحرِري الصُّحف فِي مِصْر وغَيْر مِصْر، وَيَتلقفهَا بَعضهُم وَيُترجمهَا ويَنشرهَا عَن قَصدٍ أو غَيْر قَصد، وَهَذَا مَا تُرِيده الصّهيُونِيَة وتَهدف إِلَيْهِ عَسىٰ أَنْ يُصَدق جَاهل أو ذَاهل فيشُكك فِيما نَطَق بِهِ الْقُرْآن وأكدَه بقَوْله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسُۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[2].

وَنَسأل: لمَاذا ٱختَصت بِهَذه المَنْقَبة والفَضِيلة كلاَب (بَاربَاديس، وقِطَط ٱوزِيل) دُونَ غَيْرها مِن القِطَط والكلاَب، ودُونَ العَالم كلّه مُنذ وُجدَ إِلىٰ اليَوْم؟. وَقَالَ أَهْل الاِخْتِصَاص والعَارِفُون بطبَائِع ٱلحيَوَانات: أَنَّهَا لاَ تَخَاف الْمَوْت إطلاَقاً لِأَنَّهَا لاَ تَشعر بِهِ، وإنّ الإِنْسَان هُو ٱلْحَيَوَان الوَحيد الَّذي يَعْرِف أنّه سيَمُوْت، أمّا غَيْره مِن ٱلحيَوَانات فإِنَّه يَشعر بذَاته كموجُود وَكفىٰ.

وبَعد، فَهل نَحْنُ فِي حَاجَة إلىٰ الحَدِيث عَن قِطَط ٱوزِيل، وكلاَب بَاربَادوس، أو الحَدِيث عَن توحِيد الكَلِمة وإعدَاد العِدة لتَّحرير أرضنَا المُحتَلة.

بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ...فِقْرَة ٢:

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَ الِاجْتِهَادِ، وَ التَّأَهُّبِ وَ الِاسْتِعْدَادِ، وَ التَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ. وَ لَا

(١) أنظر، جَرِيدة «أخبَار اليَوم» المِصْرية: بتَأرِيخ ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٢م، وأَحسب أنّ أحداً مِن القُرَاء لَم يَتنَبه إِلَيهِ... (مِنْهُ ﷺ).

(٢) لُقمَان: ٣٤.

تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَ أَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَ أَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَ أَخْلَقُوا جِدَّتَهَا. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَ أَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً. لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَ لَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَ لَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَ لَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا، وَ لَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا.

كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَ بَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانِهِمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَ يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَ هُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ[٢].

اللُّغَة:

الدِّرَّة ـ بِكَسر الدَّال ـ اللَّبَن. والغِرَّة ـ بِكَسر الغِين ـ الغَفْلَة. والأَجْدَاث: القُبُور. وظَهْرَانِيهم: وَسَطَهُم.

الإِعْرَاب:

عَلَيْكُمْ بِالجَدِّ «عَلَيْكُمْ» اسم فِعل أي الزَمُوا. وَفِيهَا خَبَرَ كَانُوا، وكَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا الكَاف بِمَعْنَىٰ مُمَاثِلِين حَالاً مِن الوَاو فِي «كَانُوا» أي كَانُوا موجُودِين فِي الدُّنْيَا مُمَاثِلِين لَيْسُوا مِن الدُّنْيَا، وإِعْظَاماً تَمْيِيز.

الْمَعْنَىٰ:

(فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَ الاِجْتِهَادِ، وَ التَّأَهُّبِ وَ الاِسْتِعْدَادِ... إلخ). بَعد أَنْ أَشَار إِلَىٰ الْمَوْت قَال: أَعِدُّوا لَهُ عِدَته (وَ لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ... إلخ). كَيْفَ تَركنُون إِلَيْهَا، وَقَد رَأيتُم مَكْرَهَا وَغَدْرَهَا بِالسَّابِقِين واللاَحِقِين (وَ أَصَابُوا غِرَّتَهَا) ذَهَلت الدُّنْيَا عَنْهُم، أو هَادَنتهُم بَعْض الوَقت ٱنْتَهبُوا فِيهِ المَلذَات وأَشبَعُوا الشَّهوَات (وَ أَفْنَوْا عِدَّتَهَا) أي متَاعَها مِن طَعَامٍ، وَشَرابٍ، وجِنس، والْمُرَاد بِالإِفْنَاء مُجرد الاِسْتعمَال والاِنْتفَاع (وَ أَخْلَقُوا جِدَّتَهَا) كَثوب جَدِيد، أو سيَارَة من طِرَاز حَدِيث (وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَ أَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً). تَركوا مَا جَمعُوا للوَارِث، وَذَهبُوا إِلىٰ الْقُبُور لاَ يَحملُون مَعَهُم إلّا السَّيِّئَات والْمُهلكَات.

(مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ) تُعْطِي الخَسِيس، وَتَمنَع الشَّرِيف، وَكَثِيراً مَا يَكُون الْغِنَىٰ سَبَباً لِلفَسَاد فِي الأَرْضِ. فَعَن السَّيِّد المَسِيح: لِيَحذَر مَن يَستبطىء الله فِي ٱلرِّزْق أَنْ يَغضَب عَلَيْهِ فَيَفتَح الدُّنْيَا عَلَيْهِ (مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ) قَد تُعطِي صِحَةً، أو مَالاً، أو جَاهاً، ولكنْ سُرعَان مَا تَنزَعه وَلو بِالْمَوْت (وَ لا يَرْكُدُ بَلاؤُهَا) أي لاَ يُهادن، وإنْ جَانَب مِنْهَا ٱعْذَوذَب فَٱحْلُولىٰ أَمرَّ مِنْهَا جَانَب فَأوبَىٰ كمَا قَال الإِمَام. وَتَقدَّم ذَم الدُّنْيَا مَرَّات، وَمَن أَبْلَغ الخُطَب فِي هَذَا المَوْضُوع، ٱلْخُطْبَة (١١١).

(كَانُوا ـ أي الزَّاهدُون والْمُتَّقُون ـ قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا... إلخ). هُم فِي الدُّنْيَا يَأكلُون، وَيَعملون، ويَلتَذُون، ولَكِنَّهُم أَدركوا بِصفَاء عُقُولِهِمْ أَنَّ أَحَقّ اللَّذَات بِالطَلب مَا كَان خَيراً وأَبقىٰ، فَأنْفقُوا الْعُمُر فِي اللَّذَة الْبَاقِيَة بقَاء الأَبَد، وبِهَذا ٱفْتَرقُوا عَن غَيْرِهِم مِن أَبْنَاء الدُّنْيَا، وكَانُوا مَعَهُم بِالأبدَان، وفِي الآخِرَة بِالأَعْمَال

والأَرْوَاح.

(وَ يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَ هُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً... إلخ). المُرَاد بيُعَظِّمُونَ يَسْتَعْظِمُون، وضَمِير «هُمْ» يَعُود إِلىٰ أَهْل الآخِرَة، والمَعْنَىٰ أنّ المُهم عِند أهْل الدُّنْيَا هُو الجِسم ومَلذَاته، أمّا العَقْل والقَلْب فَحَدِيث خرَافَة، ولذَا يَرَوْنَ مَوْت الجِسم أو حِرمَانه مِن اللّذَات أَمراً فَظِيعاً، أمّا أهْل الآخِرَة فَعَلىٰ النَّقِيض يَرَوْنَ مَوْت العَقْل والقَلْب بِالجَهْل والضَّلالَة هُو الغَرِيب الفَظِيع، أمّا مَوْت الشَّهوَات أو كَبْحَهَا فَلَيْسَ بِغَرِيب ولاَ بِفَظِيع.

الخطبة

- ٢٣١ -

الرَّسُول:

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَ بَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَ رَتَقَ بِهِ الْـفَتْقَ، وَ أَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَ الضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

اللُّغَة:

صَدَعَ بِالْحَقِّ: تَكَلَّم بِهِ جِهَاراً. والصَّدْعَ: الشَّق. والرَّتَقَ ـ بِفَتح الرّاء ـ ضِد الفَتق ـ بِفَتح الفَاء ـ. والْوَاغِرَةِ: المُـتَوَقِدَة، مِن أَوْغَر صَـدرَه غَـيظاً، وَمِـثلها الْـقَادِحَةِ. وَالضَّغَائِنِ: الأَحْقَاد.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: خَطَبهَا بِذِي قَار، وهُو مُـتوجه إِلىٰ الْـبَصْرَة، وذَكَـرها الوَاقدِي فِي كِتَاب «الجَمَل». وذُو قَار مَوضع قَرِيب مِن الْبَصْرَة، (فَصَدَعَ بِمَا أُمِـرَ

بِهِ، وَ بَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ). الضَّمِير لِرَسُول الله ﷺ، وٱمتَد تَبْلِيغَه ٱلـرِّسَالَة الإِلَهِـية مَدىٰ (٢٣) سَنَة، وَهِي مُدة نبُوَّتَه حَيْث نَزَل عَلَيْهِ الوَحي، وهُو فِي الأَرْبَعِين مِـن عُمره الشَّرِيف، وٱنْتَقل إِلىٰ الرَّفِيق الأعلىٰ، وهُو فِي سِن الثَّالِثة والسِّتِّين، مِنْهَا (١٣) سَنَة بِمَكَّة، وفِيهَا نَزَل (٨٢) سُورَة مِن الْقُرْآن، ومِنْهَا (١٠) سَنوَات بِالْمَدِينَة، وَفِيهَا نَزَل بَاقِي الْقُرْآن الكَرِيم[١].

(فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ). أَلَّف الرَّسُول الأْعظم ﷺ بَيْنَ الْقُلُوب القَاسِية المُـتَنَافِرَة، وَهَدَاها إِلىٰ الْحَقِّ والْخَيْرِ بِالمَوْعِظَة الْحَسَنَة، وَالسِّيَاسَة الحَكِيمَة، والشَّرِيعَة السَّهلَة السَّمحَة. وحُسن المَوْعِظَة أنْ تَكُون بِالرِّفْق واللِّين، وحِكْمَة السِّيَاسَة أنْ تُخَاطِب الْعَقْل والضَّمِير، أمّا سَمَاحَة الشَّرِيعة الإِسْلاَمِية وسهُولة الْعَقِيدَة فَندع الكَلاَم عَنْهَا للفَرَنسِي الشَّهِير (غُوستَاف لوبُـون) الَّـذي قَـال فِي كـتَابه «حـضَارَة الْـعَرَب»: «لِلإِسْلاَم وَحدَه كلّ الفخَار فِي أنّه أوّل دِين أَدخَـل التـوحِيد الخَـالص إِلىٰ العَـالم وسهُولة الإِسْلاَم العَظِيمَة تَشتَق مِن التّوحِيد الخَـالص، وَهـذَا هُـو السّر فِي قُـوَّة الإِسْلاَم»[٢]. وَتَقدَّم الكَلاَم حَوْلَ الرَّسُول ورِسَالَته مَرّات[٣].

---

(١) أنظر، شرح صَحِيح مُسْلِم: ١٥/٢١، شرح أُصول الكَافِي: ١١/٤٧٨، مُسْنَد أَحمد: ١/٢٣٦ و: ٢٤٩ و: ٣٦٣ و: ٣٧٠، الخِلاَف للشَّيخ الطُّوسي: ٢/٢٤٨، من لا يحضره الْفَقِيه: ١/٢٧٤، صَحِيح البُخَارِيّ: ٤/٢٣٨ و٢٥٣، تَفْسِير أبن كَثِير: ٤/٣٣٧، صَحِيح مُسْلِم: ٧/٨٧، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣/٢، السُّنن الْكُبْرَىٰ: ٦/٢٠٧ و٢٠٨، كَنز الْعُمَّال: ٧/٢٢٤ ح ١٨٧٢٨ و ١٨٧٣٠، شَرح الأَخْبَار: ١/٢٦١، مَنَاقب آل أَبِي طالب: ٣/٩١، الْهِدَايَة الكُبْرَىٰ: ٣٨، بِحَار الأَنْوَار: ٢٢/٥٠٣ و: ٣٥/٢٥٦، عون المَعبود: ١٣/٢٤٦، فَتح البَاري: ٩/٣٣.

(٢) أُنظر، حضَارة الْعَرَب. نَقَله إِلىٰ اللُّغَة العَرَبِية عَادل زعيتر. طَبع مِصْر سَنَة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

(٣) أُنظر، شَرح ٱلنَّهج: الْخُطْبَة (١ و ١٠٥ و ١٨٥). (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٢٣٢-

حَوْلَ الْمَال:

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَ لَا لَكَ، وَ إِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَ جَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَ إِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

اللُّغَة:

الْفَيْءُ فِي اللُّغَة الرُّجُوع، وَعِند الْفُقَهَاء الْخَرَاج.

الْإِعْرَاب:

وَجَلْبُ عَطف عَلىٰ الْفَيْء، وجَنَاةُ مُبْتَدَأ، وجُمْلَة لَا تَكُونُ خَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: كَلَم الإِمَام بِهَذا عَبدالله بن زَمعَة، وهُـو مِـن شِـيعتَه[1]،

---

(١) عبدالله بن زَمعَة بن الأسود بن المُطلب بن عبدالعُزىٰ بن قُصي. أُمّه قَرِيبة بِنت أَبي أُمَيّة بن الْمُغِيرَة بـن

وذَلِكَ إنّه قَدِم عَلَيْهِ فِي خِلاَفَته يَطلب مِنْهُ مَالاً، فَقَال ﷺ: (إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَ لاَ لَكَ، وَ إِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ). كَان فِي سَالف الأَزمَان لِلْمُسْلِمِينَ دَولَة وسُلطَان آستولَت بِالحُسنىٰ حِيناً، وبِالسَّيْف أحيَاناً علىٰ كَثِير مِن البُلدَان يَوْم كَان لِلإِسْلاَم سيُوف ورِجَال... ثُمّ قُدّر لأُمّة الإِسْلاَم مَا قُدر لِغيرِهَا مِن الأُمَم المُتحَضِرَة: شَبَاب، ثُمّ كهُولَة، ثُمّ شِيخُوخَة فَهرم. وبِكَلِمَة: آبْتلَعَت الحضَارَة الإِسْلاَمِية مَن كَان قَبلهَا فآبتَلعهَا مَا جَاء بَعدها مِن الحضَارَات.

والْمَال الَّذي أَشَار إِلَيْهِ الإِمَام هُنا هُو مَال الغَنِيمَة الَّذي حَازَه الْمُسْلِمُون بِالجِهَاد، وأَوجَفُوا عَلَيْهِ بِخَيلٍ ورِكَاب[1]. وقَوْله: (وَ جَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي

⇐ عَمْرُو بن مَخزوم. أنظر، رِجال الطّوسي: ٢٣، مَجْمَع الزَّوائد: ١٣/١٠، تَهذِيب التَّهذِيب: ١٩٢/٥، تَهذِيب الكَمَال: ١١٥/٣٣.

(١) أَفرَد الإِمَامِيَّة، بَاباً خَاصاً للخُمس فِي كُتب الفقه ذَكروه بَعد بَاب الزَّكَاة، والأَصل فِيهِ الآيَة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. ٱلأَنفَال: ٤١. أُنظر، العُرْوَة الوُثْقىٰ: ٣٧٤/١١، التّذكرة: ٤٠٩/٥، الخِلاَف: ١١٦/٢، السّرائر: ٤٨٥/١، المُنْتَهىٰ: ٥٤٥.

ولَم يُخَصصُوا الغَنِيمَة بِمَا يَحصل فِي أَيْدِي المُسْلِمِينَ مِن أمْوَال غَيْرهم بِإيجَاف الخَيْل والرّكَاب، بَل عَمّمُوهَا إِلىٰ سَبعة أصنَاف، نَذكرها فِيما يَلي مَع مَا أطلعنَا عَلَيْه مِن آرَاء المَذَاهِبُ الأُخرىٰ فِي كلّ صِنف:

١ ـ الغَنَائِم المَأْخُوذة مِن دَار الحَرْب، فإنّ فِيها الخُمُس بِإتفَاق الجَمِيع. أُنظر، المَبسوط للسّرخسي: ٢١١/٢، شَرح فَتح القَدِير: ٥٣٧/١، مسَالك الأَفهَام: ٤٥٧/١، التّذكرَة: ٤٠٩/٥.

٢ ـ المَعدَن، وهُو كلّ مَا خَرج مِن الأَرضِ، وكَان مِن غَيْر جِنسها مِمَّا لهُ قِيمَة، كَالذَّهب، والفضَة، والرّصَاص، والنُحاس، والزّئبق، والنّفط، والكِبريت، ومَا إِلىٰ ذَلِكَ. أُنظر، الخِلاَف: ١١٦/٢، التّذكرة: ٤٠٩/٥، المُغني: ٦١٦/٢، فَتح العَزِيز: ٨٨/٦.

قَال الإِمَامِيَّة: يَجب إخرَاج الخُمُس (٢٠ بِالمئة)، من المَعدَن إِذَا بَلَغ ثَمنه نصَاب الذّهب، وهُو عشرون ⇐

⇐ دِيناراً، أو نصَاب الفضّة، وهو مِئتا درهم، ولا خُمس فِيا دُونَ ذَلِكَ. أنظر، الْعُرْوَة الْوُثْقَىٰ: ١١/٣٨٩، تبصرة المُتعلمِين: ٥٠، التّذكرة: ٥/٤١٠، الخِلاَف: ٢/١١٧.

وَقَالَ الْحَنَفِيّة: لا يُعتبر النّصاب فِي المَعدن، بَل يَجب الخُمُس فِي قَلِيله وَكَثِيره. أنظر، المبسوط للسّرخسي: ٢/٢١١، المجموع: ٦/٩٠، حلية الْعُلَمَاء: ٣/١١٢.

وَقَالَ المَالكِية، والشّافعِية، والحنَابلة: إذَا كَان المَعدن دُونَ النّصاب، فلاَ شيء فِيهِ، وإذَا بَلَغ النّصاب فَفِيه الزّكَاة رُبع العُشر، أي آثنان وَنصف بِالمِئة. المجموع: ٦/٩٠، المدونة الْكُبْرَىٰ: ١/٢٨٧، بدَاية المُجْتَهِد: ١/٢٥٨، حلية الْعُلَمَاء: ٣/١١٢. الأُم: ٢/٤٣، مُختصر المزني: ٥٣، كفَاية الأخيَار: ١/١١٧، مُغني المُحتاج: ١/٣٩٤، المُغني: ٢/٦١٩، و: ٤/٦٣٦ و ٥: ١١٢، الشّرح الكَبِير: ٥/١٨٧، بدَائع الصّنائع: ٢/٦٧، و: ٧/٩٧.

٣ ـ الرّكَاز وهُو المَال المَدفُون تَحت الأَرْض، وقَد بَاد أهْله، ولَم يُعرف لَهُم مِن أثر، كَالآثار الّتي تُنقب عَنْهَا اللّجان المُختصة لهَذه الغَاية.

قَال الأَرْبَعَة: يَجب الخُمُس فِي الرّكاز، ولا يُعتبر فِيهِ النّصاب، فقَلِيله وَكَثِيره سوَاء فِي وجُوب الخُمُس. أنظر، المَبسوط للسَّرخسي: ٢/٢١١، المدونة الْكُبْرَىٰ: ١/٢٩١، المُغني: ٢/٦١٢، المجموع: ٦/١٠٢.

وَقَالَ الإِمَامِيّة: الرّكاز كَالمعدَن فِي وجُوب الخُمُس وآعتبَار النّصاب. أنظر، الرّوضة البَهية: ٢/٧٠، التّذكرة: ٥/٤١٤، الخِلاَف: ٢/١٢١، المَبسوط للطّوسي: ١/٢٣٦، المُعتبر: ٢٩٢.

٤ ـ قَال الإِمَامِيّة: مَا يَخرج مِن البَحْر بِالغُوص، كَاللؤلؤ والمَرجان فِيهِ الخُمُس إذَا بَلغت قِيمته دِيناراً فصَاعداً بَعد إخرَاج التّكاليف. أنظر، الْعُرْوَة الْوُثْقَىٰ: ١١/٤٠٤، التّذكرة: ٥/٤١٩، السّرائر: ١١٣، المَبسوط للطّوسي: ١/٢٣٧.

ولاَ شَيء فِيهِ عِند المَذَاهِبُ الأَرْبَعَة بَالغاً مَا بَلَغ. أنظر، المَبسوط للسَّرخسي: ٢/٢١٢، الأُم: ٢/٤٢، المدونة الْكُبْرَىٰ: ١/٢٩٢، المُغني: ٢/٦١٩.

٥ ـ قَال الإِمَامِيّة: يَجب الخُمُس فِي كلّ مَا يفضل عن مؤونة سَنَة الإِنْسَان وعِيَاله مَهما كَانَتْ مِهنته، ومن أي نَحو حَصلت فَائدته، سوَاء أكَانَتْ من التّجارة، أو الصّنَاعَة، أو الزّرَاعَة، أو الوَظِيفة، أو العَمَل اليَومي، أو من الأملاك، أو من الهبة وغَيْرِها، ولو زَاد عن مؤونة سَنَته قِرش وَاحد، أو ما يُعادله، فَعليه أنْ يخرج خُمسه. أنظر، الرّوضة البَهية: ٢/٧٦ ـ ٧٧، الكَافِي في الْفَقِيه: ١٧٠، المُعتبر: ٢٩٣، التّهذيب: ⇐

حَرْبِهِمْ) وَاضح وَصَرِيح فِي ذَلِكَ.. والْمُسْلِمُون الآنْ فِي طور الهَرَم، يَأخُذ مِنْهُم الأَقْوِيَاء والطَّامعُون كلّ شَيء، وهُم لاَ يَأخذُون شَيْئَاً... وإذاً فَالحَدِيث عَن مَال الغَنِيمَة تَمَاماً كَالحَدِيث عَن حُكم العَبِيد والإِمَاء لاَ جَدوىٰ مِنْهُ. ومَن أرَاد مَعرفَة التُّرَاث لمَعَالِمِ الأَثَرِية فَليَرجَع إلىٰ كُتب الفِقْه للمذَاهب الإِسْلاَمِية.

أمّا سِيَاسَة الإِمَام فِي الْمَال ـ بوجَه الْعمُوم ـ فَهِيَ أَشهر مِن أَنْ تُذكَر، ومَع هَذَا تَحدثنَا عَنْهَا مِراراً، مِنْهَا فِي شَرح اَلْخُطْبَة (٢٢٤)، واَلْخُطْبَة الّتي قَال فِيهَا الإِمَام: «لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ، وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ»[1]؟.

⇔ ١٣٣/٤.

٦ ـ قَال الإِمَامِيّة: إذَا أَصَاب الإِنْسَان مَالاً مِن الحرَام، ثُمّ اَختَلط بِالمَال الحَلال، ولَم يَعلم قَدر الحرَام، ولاَ مَن هو صَاحبه، فَعليه أنْ يخرج من خُمس مَاله كلّه فِي سَبِيل الله، فإذَا فَعل حَلّ لَهُ البَاقِي، سوَاء أكَان الحرَام أَقَل مِن الخُمُس أو أكثَر، أمّا إذَا عَلِم الحرَام بِعينَه فَعليه أنْ يَرده بالذّات. وإذَا جَهل عَين الحرَام، وَعَلم مقدَاره ومَبلغه فَعليه إخرَاج المَبلغ غَيْر مَنقُوص، ولو اَستغرَق جَمِيع المَال. وإذَا عَلم الأشخَاص الّذين اَختلس مَنهم، ولَم يَعلم مَبلَغ حَقهم ومقدَاره فعَليه أنْ يُرضِيهم بطرِيق المُصَالحة والمُسامحة. وبِكَلمة: أنّ إخراج خُمس جَمِيع المَال إنّمَا يُجدي مَع الجَهل بمقدَار المَال الحرَام، وبصَاحبه. أُنظر. الرّوضة البَهية: ٦٧/٢، التّهذيب: ١٢٤/٤ و١٣٨، التّذكرة: ٤٢٢/٥، الحَدَائِق النَاضرة: ٣٥٣/١٢.

٧ ـ قَال الإِمَامِيّة: إذَا اَشترىٰ الذّمّي أرْضَاً مِن مُسلمٍ، وَجَب عَلىٰ الذِّمّي بالذّات أنْ يخرج خُمسها. أُنظر. الْعُرْوَة الْوُثْقىٰ: ٤٢٢/١١، التّذكرة: ٤٢٢/٥، التّهذيب: ١٢٣/٣، الْفَقِيه: ٢٢/٢، رياض المسائل: ٢٣٦/٥، كتب الْمَذَاهِبُ الأَرْبَعة، مِثل: المَبسوط للسّرخسي: ٦/٣، المُغني: ٥٩٠/٢، الشّرح الكَبِير: ٥٧٩/٢.

(١) أُنظر. نَهج اَلبَلاَغَة: اَلخُطبَة (١٢٦).

الخطبة

-٢٣٣-

حَوْل اللِّسَان:

أَلَا وَ إِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ ، وَ لَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ . وَ إِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ ، وَ فِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ ، وَ عَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ .

وَ اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَ اللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَ اللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ . أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِدْهَانِ ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَ شَائِبُهُمْ آثِمٌ ، وَ عَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَ قَارِنُهُمْ مُمَاذِقٌ . لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ ، وَ لَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ .

اللُّغَة:

البَضْعَة : القِطْعَة . وتَنَشَّبَتْ عُرُوقُ الشَّيء : عَلِقَت وتَمَكَنت . وتَهَدَّلَتْ : تَدلَّت . والعَارِم : الشَّرس المُعَاكِس . ولَبَن مَذِق : مَمزُوج بِالْمَاء ، وفُلَان مُمَاذِق أو مَذِق : لَا يَخلص فِي وُدِّه .

الْإِعْرَاب:

مِنَ الْإِنْسَانِ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف صِفَة لِبَضْعَةٌ، اللاَّم فِي لَأُمَرَاءُ للتَّأْكِيد، وبِٱصْطِلاَح النُّحَاة للاِبْتِدَاء، وعَنِ الصِّدْقِ مُتَعَلِّق بكَلِيلٌ.

الْمَعْنَىٰ:

قَالُوا: هَذَا الكَلاَم جُزء مِن خُطْبَةٍ طَوِيلة، قَالها الإِمَام لِمُنَاسَبة، وَهِي أَنّه أَمَر ٱبن أُخته أُم هَانِي جَعْدَة بن هُبَيْرَة المَخْزُومِيّ القُرَشيّ[1]، أَمَرَه أَنْ يَخْطُب بِالنَّاس، ولمّا صَعد المِنْبَر أُرْتج عَلَيْهِ، فَصَعد أَمِير الْمُؤْمِنِينَ المِنْبَر، وَقَالَ: (أَلاَ وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا ٱمْتَنَعَ). للتَّعبِير صُور عَدِيدة، مِنْهَا التَّصوِير، والتَّمثِيل، والخَط، والْإِشَارَة، والحَرَكة، وأَهمهَا وأَوسعهَا جَمِيعاً الصُّورة الكَلاَمِية، لِأَنَّهَا تُعبر نثراً، وشِعراً عَن الله وصِّفَاته، وعَن الكَوْن وعَجَائِبه، وعَن الْإِنْسَان وحَقِيقَته، وعمّا كَان وَيَكُون... بِالاِضَافة إِلىٰ أَنَّهَا الوَصل بَيْنَ أَفرَاد المُجتَمع، ولذَا ٱمتَن سُبْحَانَهُ عَلىٰ الْإِنْسَان بِمُوهبَة البَيَان حَيْث قَال، عزَّ مَن قَائِل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2].

وهَذه الصُّورة الكلاَمِية أَرْكَان لاَ بُدّ مِن توَافرهَا:

---

(١) كَان فَقِيهاً، فَارساً، شجَاعاً، ذَا لِسَان، وعَارضَة قَوِيَة. وهو الَّذي قَال لهُ عُتْبَة بن أَبِي سُفيان: إِنّمَا هَذِه الشِّدَّة فِي الْحَرْب مِن قِبل خَالك! فقَال لهُ جَعْدَة بن هُبَيْرَة: لَو كَان لَك خَال مثل خَالي لنَسِيت أَبَاك. وهُو الَّذي وَلاَّهُ خَاله عَليّ بن أَبِي طَالب عَلىٰ خراسان. أنظر، وَقْعَة صِفِّين: ٤٦٣، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٣/١٧٨، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٨/٩٨، الْمُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحِين: ٣/١٩٠، الاِخْتِصَاص للشَّيخ الْمُفِيد: ٧٠، موَاقف الشِّيعة: ١/١٣٨.

(٢) ٱلرَّحْمَـٰنِ: ٣ ـ ٤.

الأَوَّل: اللِّسَان.

الثَّانِي: مَعرفَة اللُّغَة.

والثَّالث: حضُور الْمَعَانِي فِي الذّهن، لأنّ الإِنْسَان يَسْتَطِيع التَّفكِير بِلا تَعبِير، ولاَ يَسْتَطِيع التَّعبِير بِلا تَفْكِير... أَللَّهُمّ إلّا إذاكَان مجْنُوناً.

الرَّابع: عَدَم المَانِع والصَّارف عَن الكلاَم، فإنْ لَم تَحْضَر الْمَعَانِي فِي ذِهن الإِنْسَان، أو حَضَرت ولَم يَرغب فِي الكَلاَم، أو رَغَب ولكنْ وُجد المَانِع، إنّ كلّ شيء مِن ذَلِكَ سَكَن اللِّسَان وجُمّد، وإِلىٰ هَذَا أَشَار الإِمَام بقَوْله: (فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا ٱمْتَنَعَ) أي أنّ اللِّسَان أو الإِنْسَان يَعجَز أو يمْتنع عَلَيْهِ الكَلاَم إذَا غَابت عَنهُ الْمَعَانِي، أو حَضَرت ولاَ مُقتضٍ لِبَيانهَا، أو وُجد المُقتَضي مُقارناً لوجُود المَانع، وإذَنْ فَلَيْسَ مِن الضَّرُوري أنْ يَكُون الصَّمت عَجزاً عَن الكلاَم، بَل قَد يَكُون لأمرٍ عَارض وخَارج عَن الذَّات... وفِي هَذَا إيمَاء إلىٰ الاِعْتذَار عمّا أَصَابَ جَعْدَة مِن الحَصر.

(وَ لَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا ٱتَّسَعَ). إذَا حَضَرت الْمَعَانِي، ووُجد المُقتَضِي بِلا مَانع ٱتَّسَعَ المجَال أَمَام اللِّسَان، وتَحرَك بِسُرْعَة، وٱنطَلق بِسُهولة، حَيْث تَترَاكم الْمَعَانِي وتَتَدَافع للخرُوج والاِنْطلاَق فِي صُورة كَلاَمِية (وَ إِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ). وجَعْدَة ٱبن أُخْتنا، وفِيهِ مَن شمَائِلنا، ورُوي أنّ جَعْدَة أَبدىٰ شَجَاعَة وثَبَاتاً فِي حَرْب صِفِّين، فقَال لهُ قَائل: هَذِه الشَّجَاعَة مِن خَالك. فقَال لهُ جَعْدَة: «لَو كَان خَالك كَخَالِي لنَسِيت أبَاك»[1]. وتَقَدَّم الكلاَم حَوْلَ النَّاس[2].

---

(١) تَقدَّم ٱستخراج ذَلِكَ، وأُنظر، ٱختيَار مَعْرِفَة الرِّجَال للطُّوسي: ١/٢٨١، مُعجَم رِجَال الحَدِيث للسَّيِّد الخوئي: ١٥/٢٤٢، وَقْعَة صِفِّين لنَصر بن مزاحم: ٤٦٤.

(٢) أُنظر، شَرح ٱلْخُطْبَة: (٧٦ و ١٧٦). (مِنْهُ ﷺ).

(وَ فِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَ عَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ) والشَّاهد الحِسِي عَلىٰ ذَٰلِكَ السُّنَّة النَّبَوِيَّة، ونَهْج ٱلْبَلاَغة، والصَّحِيفَة السَّجَادِية وغَيْرها.

قِيل لرَسُول الله ﷺ: «مَا رَأينَا أَفْصَح مِنك.

فقَال: ومَا يَمنَعنِي مِن ذَٰلِكَ، وبِلسَانِي نَزَل الْقُرْآن؟»[١].

وَقَالَ: «أنَا أَفْصَح مَن نَطق بِالضَّاد[٢]...،وأُوتِيت جَوَامع الكَلِم، وَقَد اُخْتصر لِي الكَلاَم اُختصاراً»[٣]. أي الْمَعَانِي فِي كَلمَات قِصَار يَحتَاج شَرحَها إِلىٰ مُجلدَات.

(وَ اَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ). لاَ يَختَص هَذا بِزَمَان دُونَ زَمَان، ذَلِكَ: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ»[٤]، كَمَا قَال الإمَام، وَقَالَ غَاندِي: «إنّ طَرِيق الْحَقِيقَة ضَيق مِثلمَا هُو مُستَقِيم»[٥]. (وَ اللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ) أي قَاصر وَضَعِيف، لأَنّ الْكَذِب والنِّفَاق هُو السَّائِد

(١) أنظر، الْبَيَان والتَّعريف: ١/١٨٤، فَيض القدِير: ٢/٣٢٤ ح ١٧٧٩، الإخْتصَاص للشّيخ المُفيد: ١٨٧، بحَار الأَنْوَار: ١٧/١٥٨.

(٢) أنظر، شَرح أُصول الكَافِي: ٩/٣٣٢، نور البَراهِين: ١/١٢٠، تَذكرة المَوْضُوعَات للفَتنِي: ٨٧، كَشف الخفَاء: ١/٢٠٠، وقيل: الحَدِيث لا أَصل له، كمَا جَاء فِي البدَاية والنّهاية: ٢/٢٧٧، تَفْسِير اَبن كَثير: ١/٣٢، تَفْسِير المنَار: ١/١٠٠، الأسرَار المرفُوعة: ٢٤٦، سُبل الْهُدىٰ والرَّشاد: ٢/١٠٣.

(٣) أنظر، مُسْنَد أحمد: ٢/٢٥٠، صَحِيح مُسْلِم: ١/٥ ح ٥ ـ ٨، كنز الْعُمّال: ١١/٤٤٠ ح ٣٢٠٦٨، مَجْمَع الزّوائد: ١/١٧٣، المَبسوط للسَّرخسي: ١٦/٦١، فَتح البَاري: ١٣/٤٣٨، المُصنَّف لابْن أبي شَيبة: ٧/٤٣١ ح ٩٧، كَشف الخفَاء: ١/١٥ ح ٨ و٢٦٣ ح ٨١٩، الأَحَادِيث الْمُخْتَارة: ١/٢٤، إروَاء الغَلِيل: ٦/٣٦، تَفْسِير القُرطُبي: ١٢/٢٩٥، تَفسِير اَبن كَثِير: ٢/٤٨٤، البُرهَان للزَّركشي: ٣/٢٢١، الدُّر المَنثور: ٤/٣، المَحصول للرَّازي: ١/٣٥٧، البدَاية والنّهَاية: ١/٢٢٨، سُبل الْهُدَىٰ والرَّشَاد: ٢/٩٨، الاحْكام للآمِدي: ٤/٩.

(٤) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: اَلْحِكْمَة (٣٧٦).

(٥) أنظر، غَاندِي والحَرَكة الهندِية: ١٦٢، تَرجَمة سَلاَمة مُوسىٰ القِبطي المِصْري.

والمُسيطر (وَ اللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ) وهَل يَكُون المُحِق عَزِيزاً فِي بِيئَة الْبَاطِل والْفَسَاد (أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَىٰ الْعِصْيَانِ.... إلخ). الضَّمِير فِي أَهْلُه يَعُود إِلىٰ الزَّمَان الَّذي يُعَانِي الْفَقِير فِيهِ مِن آستغلاَل الْغَنِيّ، والمَحكُوم مِن جَوْر الحَاكِم. والضَّعِيف مِن طَمَع الْقَوِيّ.

(مُصْطَلِحُونَ عَلَىٰ الإِدْهَانِ) وهُو الرِّيَاء والمُرَاوغَة (فَتَاهُمْ عَارِمٌ) شَرِس مُعَاكس، وجَاهِل تَسْتَخفَه صُور الانْحلاَل «والتَّقَالِيع» تَحُوكها الصِّهيُونية لتُسِيطر عَلىٰ عَقْله كَمَا تُريد أنْ تُسِيطر (وَ شَائِبُهُمْ آثِمٌ) لاَ يَردعَه عَقل ولاَ دِين (وَ عَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ) الدِّين عِندَه صكُوك بَيع وشَرَاء (وَ قَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ) وكَم قَارىء لِلْقُرْآن، والْقُرْآن يَلْعَنه[1]، لِكَذِبه ورِيَائه.

(وَ لَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ). إنّ الله سُبْحَانَهُ جَعل لِلْفُقَرَاء حَقّاً مَعلومَاً وَمَحدُوداً فِي أَمْوَال الأَغْنِيَاء، وآعتَبرهُم فِيهِ شُركاء، ولاَ فَرق أَبَداً فِي نَظَر الإِسْلاَم بَيْنَ أنْ يَمسك الْغَنِيّ هَذَا الحَقّ عَن الْفَقِير، وبَيْنَ أنْ يَسلبه ثَوبَه أو قُوته وقُوت عِياله... هَذَا، إِذَا كَان الْغَنِيّ قَد آكتَسب أَمْوَاله مِن حلٍّ، أمّا إِذَا آكتَسبها مِن حَرَام فَعلِيه أنْ يَرد كلّ مَال حَرَام إِلىٰ أَهْله إنْ عَرَفَهُمْ بِالذَات، وإنْ تَعذر عَلَيْهِ ذَلِكَ كَان الْمَال الحَرَام بِكَامله، لِلْفُقَرَاء، وفي سَبِيل الله، ومِن المصَالح الْعَامَّة، ولاَ شَيء مِنْهُ لِمَن هُو فِي يَده.

(١) أُنظر، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٤/ ٢٥٠ ح ٤٦٢١/ ٧ـ، مَجْمَع البحرين: ٣/ ٤٧٨.

الحلبة

-٢٣٤-

الطَّوِيل وَالقَصِير:

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ طِينِهِمْ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَ عَذْبِهَا، وَ حَزْنِ تُرْبَةٍ وَ سَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَىٰ حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَ عَلَىٰ قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ. فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَ مَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَ زَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَ قَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَ مَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ، وَ تَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَ طَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ.

اللُّغَة:

طِينِهِمْ: جَمع طِينَة. والفِلْقَة -بِكسر الفَاء- القِطعَة، وسَبَخ: أَرْض ذَات نَزٍّ وَمِلح. وَالْحَزْنِ: ضِد السَّهل. والرُّوَاءِ -بِضَم الرَّاء- حَسَن المَنظَر. وَمَادُّ الْقَامَةِ: طَوِيلَها. وَقَرِيبُ الْقَعْرِ: قَصِيرَها. وَالضَّرِيبَةِ: الطَّبِيعَة والسَّجِيَة، يُقَال: هَذِه ضَرِيبَتَهُ الَّتِي ضُرب عَلَيْهَا أي طَبِيعَته الَّتي طُبع عَلَيْهَا. والجَلِيبَة: التَّصنُع أي يَسْتَجلِب لِنَفْسه مَا لَيس فِيها. واللُّبّ: الْعَقْل. والجَنَانِ -بِفَتح الجِيم- القَلْب.

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنَّهُمْ كَانُوا خَبَر ذَلِكَ، أي ذَلِكَ كَونهم، ويَجُوز جَره بِبَاء مَحذُوفة، والمَجرُور خَبَر، ومِنْ سَبَخٍ مُتَعَلِّق بِمَحذُوف صِفَة لِفلْقَة.

الْمَعْنَىٰ:

حَضَر جَمَاعَة فِي مَجْلِس الْإِمَام عليه السلام فَٱنْتَهىٰ بِهِمْ الحَدِيث إِلىٰ ٱخْتِلاَف النَّاس فِي طَبَائِعهم، وغَرَائِزهم[1]. فَقَال: (إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ طِينِهِمْ... إلخ). وَهَذَا الكَلاَم يَدلُ بِظَاهره عَلىٰ أَنّ النَّاس يَتفَاوتُون نَقْصَاً وَكَمالاً فِي عُقُولِهِمْ، وَغَرَائِزهِم عَلىٰ حَسب الطِّينَة الّتي خُلقوا مِنْهَا خُبثاً وطِيِّبَةً... وأيضَاً عَلىٰ حَسب الشَّكل والصُّورة قُبحَاً وجَمَالاً، وطُولاً وقُصراً. فالطَّوِيل قَصِير فِي طُمُوحه، والقَصِير طَوِيل فِي هِمتَه، نَاقص فِي إدْرَاكه، والقَبِيح زَارٍ فِي عَمله. ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ الْإِمَام لاَ يُقرر هَذَا كقَاعدَة تَعم وتَطرد عَلىٰ كلّ قَصِيرٍ وطَوِيلٍ، وكلّ قَبِيح وجَمِيلٍ فِي شَكله وهِيبتَه، لأنّ الوَاقع عَلىٰ خِلاف ذَلِكَ، بل ذكره عَلىٰ سَبِيل الأَعَم الأَغلَب، وإنّه تَرك عَلىٰ سَجِيتَه لتَرتُب عَلَيْهِ الأثَر المَذكُور، ولكنْ التَّربِية والبِيئَة والإِيحَاءات تُهَذِب الكَثِير مِن مشَاعِره وغَرَائِزه تَماماً كالْحَيَوَان الأَلِيف يَتَكِيف بِالرّيَاضة والتَّدرِيب.

وعَلىٰ أيّة حَال فَمَا أنَا مِن أهْل هَذَا الفَن فِي شَيء، ولذَا رَجعت إلىٰ كَثِيرٍ مِن المَصَادر الّتي تَبحث عَن الإِنْسَان، وأصلَه، وطَبِيعته... حَتَّىٰ مَا يَزعم مِنْهَا أننا أَحفَاد الْقِرْد... وَبَحَثتُ ونَقبتُ لِعَلِّي أرْتَضي شَيْئَاً أشرح بِهِ كَلمَات هَذِه ٱلْخُطْبَة، أو

(١) رَوَىٰ ذَلِكَ ثِعْلَبُ الْيَمَامِيُّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ قُتَيْبَة عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِحْيَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ ٱخْتِلاَفُ النَّاسِ.

أَجد مَا يُناسبهَا، فَرأيتُ أَكْثَر الآرَاء أو الكَثِير مِنْهَا مُجرد خَيَالات لاَ تَقُوم عَلىٰ أَسَاس، وٱحتمالات لاَ تركنُ إِلَيْهَا النَّفس، وَيَقتنع بِها الْعَقْل... أجَل، قَرأتُ فِي بَعْض المصَادر الشَّهِيرة مَا يَتفق مَع بَعْض كَلِمَات الإِمَام فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة.

وَأعنِي بِبَعْض المصَادر كِتَاب «الإِنْسَان ذَلِكَ المجهُول» الَّذي بَلغ ذَروَة الشُّهـرَة والاِنْتشَار، وتُرجم إِلىٰ العَدِيد مِن اللُّغَات، وطُبعت مِنْهُ مَلاَيِين النُّسـخ، ومُـؤلفه العَالِم الفَرنسِي الدّكتور «أَلكسِيس كَارِيل» الحَاصل عَلىٰ إِجَـازة الطّب، وإِجَـازة العُلوم. قَد تَرجم الكتَاب إِلىٰ العَرَبِية شَفِيق أَسعد فَريد. جَاء مَا نَصه بِالحَرف.

«إنّ طَبَائع الإِنْسَان خَاضعَة لِشَكلَه، وطَرِيقَته فِي شَدّ قَامَته، وَشَكل وَجْهَه»[1].

وَيَتفق هَذَا مَع قَول الإِمَام: (فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ... قَبِيحُ الْمَنْظَرِ... إلخ). يَتَفق هَذَا مَع قَول الإِمَام فِي إِنَاطَة الطَّبِيعَة بِالشَّكل وخُضُوعها لهُ. وأيضاً جَاء فِي نَفس الصَّفحة: «العبَاقِرَة لَيْسُوا طِوَالاً، فقَد كَان نَابلِيُون قَصِيراً». هَذَا عَين قَـول الإِمَام: (وَ مَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْـهِمَّةِ... وَ قَـرِيبُ الْـقَعْرِ بَـعِيدُ السَّـبْرِ) أي الغَـور والاِخْتبَار. وفِي الصَّفحَة (٨٠) من الكـتَاب المَـذكُور: «إنّ طُـوال القَـامَة أَكْـثَر ٱستعدَاداً للإِصَابة بِالجنُون المُطبق فِي حِين أنّ قِصَار القَامَة أَكْثَر ٱستعدَاداً لِلجنُون الأدوَاي».

وإِذَا أَثبَت العِلم مَا قَاله الإِمَام فِيمَا يَعُود إِلىٰ الشَّكل وأَثَره فِي السّلوك ـ فَمن الجَائِز أَنْ يُثبت فِي يَوْم مِن الأَيَّام ـ ولَو بَعد مَلاَيِين السّنِين ـ أَنّ أَفرَاد الإِنْسَان يَختلفُون عَلىٰ حسَاب طِينِهِمْ وأَرْضِهم تَمَاماً كَمَا قَال الإِمَام. ومَا يُدرِينا أَنّ بَعْض الْعُلَمَاء فِي هَـذَا

(١) أُنظر، الكتَاب المَذكُور أعلاَه: ٧٩، طَبعَة سَنَة ١٩٦١م. (مِنْهُ ﷺ).

العَصر قَد أَدرَك وقَرَر ذَلِكَ، ولَم يَصل إلينَا قَوْله بَعدُ. مَهمَا يَكُن فإنّ كلّ مَا فِي الإنْسَان يَنْطُق وَيُسَبح بِحَمد خَالِقه، وخَالق الأكوَان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

(وَ مَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ). إنّ الّذي يَعرفه النّاس بِطَبِيعَةٍ خَاصَّة يَتصَنع وَيتكَلف بِغَيْر مَا تَعرفه مِن طَبعه، وَيَظهر ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَيُسْتَنكر مِنْهُ (وَ تَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ) مَن ضُرب قَلْبه يَتَشَتت عَقْله فِي أجوَاء لاَ تَمت إلىٰ حيَاته بِسَبب (وَ طَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ) وذُو الحِدَة فِي ذَكَائه، أو غَضَبه يَنْطَلق لِسَانه بِسُرعَة البَرق.

الإِنْسَان وَالعُلُوم:

وبَعَد، فإنّ الإِنْسَان يُبحَث عَنهُ فِي عِلم التّأريخ لمَا يَترُك مِن آثار، وفِي عِلم الطَّبِيعَة لأنّه كَائن طَبِيعِي، وفِي عِلم ٱلْحَيَوان لأنّه مِن صنُوفه، وعِلم الاِجْتَماع بِٱعتبَاره عُضْواً مِن الْمُجتَمع، وعِلم النَّفس لمَا فِيهِ مِن غَرائز وَمَلكَات، وَعِلم الأَخْلاَق بِالنَّظر إلىٰ سلُوكه بِعَقلٍ وإرَادَة، وعِلم الطّب، وعِلم وظَائِف الأعضَاء كَائناً حيّاً وعُضْوِياً، وَعِلم الْفِقه بِالنَّظر إلىٰ مَا يَحلّ لهُ وَيَحرم عَلَيْهِ مِن الْأَفْعَال والتّرُوك، وعِلم الفَلسفَة لإدرَاكه، ونَظرِيَاته وكُونه أَدَاة لِمعرفَة نَفْسَه بِنَفْسه، وغَيْر ذَلِكَ. وَيَكفِي الْقَوْل: إنّ الإِنْسَان هُو مَصدَر لِلعُلوم حَدّ ولاَ عَدّ.

---

(١) ٱلتَّغَابُن: ٣.

الخطبة

-٢٣٥-

تأبين الرَّسُول الأعظم:

بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَ الْإِنْبَاءِ وَ أَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَ عَمَّمْتَ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَ لَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَ نَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّئُونِ، وَ لَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا، وَ الْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَ قَلَّا لَكَ! وَ لَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَ لَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَ اجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!

اللُّغَة:

الشُّئُونِ: عرُوق الدَّمع. والمُمَاطِل: المسُوف. والمُحَالِف: الملَازم.

الإعْرَاب:

أَنْتَ مُبْتَدَأ، وبِأَبِي مُتَعَلِّق بِمحذُوف خَبَراً، وَأُمِّي عَطف عَلىٰ أَبِي، والمَصْدَر مِن

أَنَّكَ أَمَرْتَ مُبْتَدَأ أي لَوْلاَ ثبُوت أَمْرك.

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي: إنّ الإِمَام قَال: وَهُوَ يَلِي غُسْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَجْهِيزَهُ: (بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ!). كلّ النَّاس يَحْزَنُون وَيَتَأَلَمُون لِفَقد عَزِيز أو قَرِيب، وَيَسكبُون الدّمُوع أَيَّاماً، ثُمّ يَنتَهِي كل شَيء كَأَنْ لَم يَكُن إلّا إذَا كَان لِلفَقِيد صِلَة وثقىٰ بِالثَّاكل، أوكَان عَظِيم الخَطر فِي نَفْسه، فَحُزن الوَلد عَلىٰ الوَالد ـ مَثلاً ـ يَكُون عَلىٰ قَدَر عَطفه عَلَيْهِ، وَبِرّه بِهِ، وَفَائدته مِنْهُ. فإذَاكَان هٰذَا الوَالد البَار شَأن وَخَطر تَضَاعف الحُزْن وتَرَاكم.

وَكَان الرَّسُول الأَعظم ﷺ أباً لِعَليّ، ولزُوجَته، وأَبْنَائه، وفِي الوَقت نَفْسه كَان أَخَاً لهُ بِالمُؤاخَاة... وأيضاً كَان أُستاذه طوَال (٣٠) عَاماً حَتَّىٰ النُّبُوّة آتت أُكلها فِي نَفْس الإِمَام عِلمَاً وخُلقاً، ومِن هُنا كَان لِعَليّ خصَائِص لَمْ تَكُن لأحدٍ سِوَاه، وإذَا عَطفنَا عَلىٰ ذَلِكَ خَطر الرَّسُول، وإنّه سَيّد الأَوّلِين والآخرِين ـ أدركنَا إِلىٰ أي مَدىٰ بَلَغ الشَّجن والأسىٰ فِي نَفْس الإِمَام لِفَقد سَيّد الكَائِنَات.

(لَقَدِ ٱنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّة وَ الإِنْبَاءِ وَ أَخْبَارِ السَّمَاءِ). يُشِير إِلىٰ أنّ النُّبُوّة خُتِمت بِرَسُول الله ﷺ وإنّه لاَ خَبَر بَعدَه مِن السَّماء، لأنّ الله سُبْحَانَهُ قَد بَيّن كلّ مَا أَرَاد أنْ يقَوْله، بَيّنه كَاملاً ووَاضحاً عَلىٰ لِسَان مُحَمّد ﷺ وإلىٰ هَذا أَشَار خَاتم النَّبيين بقَوْله: «إنّما مَثلي فِي الأَنْبِيَاء كَمَثل رَجُل بَنىٰ دَاراً، فَأكملها وحَسّنهَا إلّا موَضع لَبِنَة، فكَان مَن دَخل فِيها وَنَظر إِلَيْهَا قَال: «مَا

أَحْسَنَها إلّا موْضع هَذِه اللَّبِنَة ، فَأنَا موْضع اللَّبِنَة ، خَتم بِي الْأَنْبِيَاء»[١] .

(خَصَّصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ) . الخطَاب لرَسُول الله ﷺ . قَال الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه : «النَّبيّ ﷺ خَصّ أقَاربه ، وأَهْل بَيْتَه حَتَّىٰ كَان فِيهِ الْغنيٰ والسّلوَة لَهُم عَن جَمِيع مَن سوَاه ، وهُو بِرسَالتة عَام لِلخَلق ، فالنَّاس بِالنِّسبَة إِلىٰ دِينه سوَاء»[٢] .

(وَ لَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَ نَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّئُونِ) أَنْتَ يَا رَسُول الله أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وقُلت عِند مِوْت وَلدك إِبْرَاهِيمَ : «تدمعُ الْعَيْن ، ويحزنُ ٱلْقَلْب فلا نقول ما يُسخِط الرّب ؛ ولَوْلاَ أَنّهُ قولٌ صَادق ، ووعدٌ جَامع ، وسَبِيل نَأتِيه ، وأنّ آخرنا سيُتبعُ أوّلنا ؛ لوجدّنا عَلَيْكَ أشدّ من وجدّنا بِكَ ، وإنّا عَلَيْكَ يا إِبْرَاهِيم لمحزُونُون»[٣] . ونَحنُ عَلىٰ سُنتَك يَا رَسُول الله وَطُوع إرَادتك ، وقَد رُؤي النَّبيّ ﷺ أَكْثَر مِن مَرَّة يَبكي لِمِيت ، ولحَزِين بَائس ، وخَوْفاً مِن الله ، وعَلىٰ أُمته ، وعِند سماَع الْقُرْآن .

---

(١) أنظر ، مُسْنَد أحمد : ٢٥٦/٢ ح ٧٤٧٩ و : ١٣٦/٥ ح ٢١٢٨١ و ٢١٢٨٢ ، سُنن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ : ٥/٩ ح ١٧٤٩٧ ، مُسْنَد الحميدي : ٤٤٨/٢ ح ١٠٣٧ ، مُسْنَد الشَّاميين : ٩٠/١ ح ١٣٠ ، مُسْنَد الطَّيَالِسِي : ٢٤٧/١ ح ١٧٨٥ ، مُسْنَد عَبد بن حميد : ٩٠/١ ح ١٧٢ ، أمثال الحَدِيث : ١٠/١ ، شُعب الإِيمان : ١٧٨/٢ ح ١٤٨٥ ، الفِرْدَوْس بمأثور الخطّاب : ١٢٨/٤ ح ٦٣٩٧ ، الأَحَادِيث المُخْتَارة : ٣٩٢/٣ ح ١١٩٠ ، تَفْسِير أبن كَثير : ٤٩٢/٣ .

(٢) أنظر ، شَرح نَهج ٱلْبلاغَة : ٢٢٨/٢ .

(٣) أنظر ، صَحِيح البُخَاريّ : ٢/ ٨٤ و ٨٥ ، كنز العُمّال : ح ٤٠٤٧٩ ، السُّنن الْكُبْرَىٰ لِلبيهقي : ٤/ ٦٩ ، الذِّكرىٰ : ٧٠ ، دَعَائِم ٱلْإِسْلَام : ٢٢٤/١ ، بدَائع الصَّنائع : ٣١٠/١ ، المُغْنِي : ٤١١/٢ ، المحلىٰ : ١٤٦/٥ ، مُسْنَد أحمد : ١٩٤/٣ ، صَحِيح مُسْلِم : ٧٦/٧ ، سُنن أبن ماجه : ٥٠٧/١ ، سُنن أبي داود : ٦٤/٢ ، مُسْنَد أبي يعلىٰ : ٤٣/٦ ، المُصَنَّف : ٢٦٧/٣ ، الإحكام للإمَام يحيىٰ الهَادي : ١٥٠ ، الكافي : ٢٦٢/٣ ، ذَخائِر العُقبَىٰ : ٢٢٤/١ .

(وَ لَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا) أي لاَ تَبرَح الكَآبَة مِـن الْـقَلْب بِحَـال تَمَـاماً كَـالمَدِين المُمَاطِل ، إنّه يُسوِّف ويُؤجل ، ولاَ يَفِي بمَا عَلَيْهِ و (وَ الْكَمَدُ مُحَالِفاً) عَـطف تَـفْسِير و (وَ قَلَّا لَكَ !) قَلّ فِعل مَاض والأَلْف ضَمِير التَّثنِية ، يَعود إلىٰ مُمَاطِلة الدَّاء وَمُحَالفة الكَمَد ، والْمَعْنَىٰ أنّ هَذِين قَلِيلاَن لِفَقدك يَا رَسُول الله (وَ لَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ ، وَ لَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ !. . . إلخ) . ضَمِير الغَائِب لِلمَوْت ، ويُمْلَكُ مَبنِي لِلمَجهُول ، والْمَعْنَىٰ أنّ الْمَوْت حَتمٌ ، والجَـزَع لاَ يُرجِع مَا فَات ، وإذَنْ فَالصَّبر أَوْلَىٰ وأجدىٰ . ومِن حِكَـم الإِمَام : «إِنْ صَبَرْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَىٰ عَـلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ »[1] .

(١) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : ٱلحِكْمَة (٢٩١) . عَزَّىٰ فيها الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ عَنِ ٱبْنٍ لَهُ .

الخطبة

ـ٢٣٦ـ

حَوْلَ الْهِجْرَة:

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّىٰ ٱنْتَهَيْتُ إِلَىٰ الْعَرَجِ.

الْمَعْنَىٰ:

(فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّىٰ ٱنْتَهَيْتُ إِلَىٰ الْعَرَجِ) بِفَتح الْعَيْنِ والرّاء، وهُو مَوضع بَيْنَ مَكَّة والْمَدِينَة[1]. قِيل: إنّ هَذَا مِن كلاَمٍ ذَكر فِيهِ الإِمَام خُرُوجه مِن مَكَّة إِلىٰ الْمَدِينَة لاَحِقاً بِالنَّبيّ ﷺ بَعد أنْ بَأت عَلىٰ فِراشه، وسلَّم وَدَائِعه إِلىٰ أَهْله كمَا أَمَرَه رَسُول الله ﷺ. وَقَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» مِن الكَلاَم الَّذي رُمِي بِه إِلىٰ غَايَتي الإِيجَاز والفَصَاحة، أَرَاد أَنّي كُنت أُعْطَىٰ خَبَره ﷺ مِن بِدء خُرُوجِي إِلىٰ أَنْ ٱنْتَهيت إِلىٰ الْعَرَجِ.

وَتَقَدَّم الكَلاَم عَن الْهِجْرَة، وقِصَّة المَبِيت عَلىٰ الفرَاش فِي شَرح ٱلْخُطْبَة (١٩١)

(١) أُنظر، النّهاية في غَرِيب الحَدِيث: ٢/٢٥٧، لِسَان العَرَب: ١/١٩٦.

فِقْرَة «الإِمَام عَليّ»، وفِي شَرح ٱلْخُطْبَة (٢٣١) أشرنَا إِلىٰ مُدة النُّبُوَّة، وكَم قَـضىٰ مِنْهَا النَّبيّ ﷺ فِي مَكَّة والْمَدِينَة، وإِلىٰ عُمره الشَّرِيف. ونَعطف عَلىٰ مَا أَسلفنَا قَول المُستَشرق الفَرَنسِي «جَان بورا» فِي كتَابه «مُحَمّد نَابِليُون السَّماَء» تَرجمَة مُحَمّد صَالح البِنْدَاق طَبعَة سَنَة ١٩٤٧م.

قَال حَوْلَ الْهِجْرَة: «حِين وَصَل النَّبيّ ﷺ إِلىٰ الْمَدِينَة أرَاد كلّ وَاحد مِن الزُّعمَاء أَنْ يَزدَاد مَنزلةً بَضيَافته... والنَّبيّ ذُو الخلُق الْكَبِير تَرك القِيَاد للنَّاقة كِي يسَاوي بَيْنَ الجَمِيع، ومَا زَالت تَقطع طُرقَات الْمَدِينَة حَـتَّىٰ أنَـاخت أَمَـام دَار أَبِي أَيُـوب الأَنْصَاري». وَقَال أيضاً: «أَفْلَت النَّبيّ مِن مُؤامرَة قُرَيْش الفَتَاكَـة، وتَـرك عَـلىٰ فرَاشه نَهباً لسِيُوف المُؤامرَة البَطل المُضحِيّ والْمُؤْمِن الشَّاب ٱبن عمّه وَرَبِيبَه عَليّ ٱبن أَبِي طَالب»[1].

---

(١) أُنظر، كتَابه «مُحَمّد نَابِليُون السَّماَء»: ٤٦، تَرجمَة مُحَمّد صَالح طَبعَة سَنَة ١٩٤٧م. (مِنْهُ ﷺ).

الخطبة

-٢٣٧-

فَٱعْمَلُوا وَ أَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ، وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَ التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَ الْمُدْبِرُ يُدْعَىٰ، وَ الْمُسِيءُ يُرْجَىٰ، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ، وَ يَنْقَطِعَ الْمَهَلُ، وَ يَنْقَضِيَ الْأَجَلُ، وَ يُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَ تَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَ أَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَ مِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَ مِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ. ٱمْرُؤٌ خَافَ اللهَ وَ هُوَ مُعَمَّرٌ إِلَىٰ أَجَلِهِ، وَ مَنْظُورٌ إِلَىٰ عَمَلِهِ. ٱمْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَ زَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللهِ، وَ قَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ.

اللُّغَة:

فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ ـ بِفتح الفَاء ـ أي فِي سِعتِه وفُسحته. والْمَهَلُ: من الْإِمْهَال.

ومُعَمَّرٌ إِلَىٰ أَجَلِهِ: عَاش إِلَىٰ أَجَلِهِ. وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا: قَادهَا بِقِيَادها.

الْإِعْرَاب:

فَٱعْمَلُوا الفَاء لتَرتِيب الكلاَم عَلَيْهَا، وَأَنْتُمْ الوَاو للحَال، فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ فِي صِيغَة المَاضِي، وٱمْرُؤٌ خَافَ بَدَل مِن ٱمْرِىء فِي قَوْله: «فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ» وَيَجُوز أَنْ يَكُون

خَبَراً لِمُبْتَدأ محذُوف أي النَّاجي ٱمْرُؤٌ خَافَ، وَمِثله ٱمْرُؤٌ أَلجَمَ نَفْسَه.

حَوْلَ الْعَمَل والبَطَالَة:

(فَٱعْمَلُوا وَ أَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ). لِـلإِنْسَان أَعـضَاء وَمَـلكَات، وَفِـيهِ قِـوىً وَطَاقَات: مَادِية كَالسَّمع، والْبَصَر، واليَدِين، والرُّجـلِين، ورُوحِـيةٌ كَـالإدرَاك، والحُبّ والكَرَاهِيَة، وَهِي بِمجمُوعها تُشكل مَصنعاً هَائلاً يَعمل وَيَنتج، وَقَد يُبدع، وَيبتَكر بِمُجرد أنْ يوطّن النَّفس عَلىٰ الجِد والكفَاح، ومِـن أَهْمـل، وآثَـر الرَّاحـة وَالبطالة عَلىٰ الْعَمَل فهُو تَماماً كَمن أَقـفَل مَـصنعَاً يَـنتج الْخَـيْرَ ويَـنفع صَـاحبه، والنَّاس... هَذَا إِلىٰ أنّ البَطالبة سَرطان يَقتل الرّوح والجِسم، ويُسـلُب الإِنْسَـان إِنْسَانِيته، وَيَجعل ٱلْحَيَوَان خَيراً مِنْهُ وأَفضل، لأنّه يَعمل وَيَنتج. حَتَّىٰ الحَـجر قَـد يُنْتَفع بِه، أمّا البَطال فَموته خَير مِن حيَاته، وَعَدمه خَير مِن وجُوده.

ويَقُول الإِمَام: بَادرُوا الْعَمَل النَّافع الصَّالح مَا دُمـتم مُـزودِين بأدوَات الْـقُدْرَة وآلاَتها، وٱغْتَنمُوا الْفُرْصَة قَبل الأوَان، وٱعْتَبرُوا بِمن أضَاعها، وعمّا قَرِيب يَجري الْقَدَرُ عَلَيْهَا وَعَلَيْكُم، وَيَذهب كلّ شيء، فَتتحَسرُون وَتَندمُون حَـيْث لاَ تُجـدي الحَسَرَات والآهَات (وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ) تُسطّر مَا فَعلتُم بِتلك الثّروَة وَالطَّاقة الّتي أَنْعَم الله بِها عَلَيْكُم: هَل أَسَأتُم ٱستعمَالها، أو وَضَعتم كلّ شيء مِـنْهَا فِي مَـوْضِعه، وَحَقَقتُم الهَدف الَّذي وُجد مِن أجْله.

(وَ التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ). فَمن أَخطَأَ واعترَف بِخَطِيئته، وَطَلب مِن الله يَـقْبَل مِـنْهُ وَيَصفح عَنْه، لأنّه صَدَق مَع الله والنَّاس ومَـع نَـفْسَه أيـضاً، ورَفـض الْكَـذِب،

والخِدَاع، وفِي الحَدِيث: «التَّائِب مِن الذَّنب كَمِن لاَ ذَنب لَهُ»[١]. (وَ الْمُدْبِرُ) عَن الْحَقِّ (يُدْعَىٰ) إِلَيْهِ بِٱلْحِكْمَة والمَوْعِظَة الْحَسَنَة (وَ الْمُسِيءُ يُرْجَىٰ) مِنْهُ أَنْ يَقلَع عَن إِسَاءته (قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَل... الخ). هَذِه الجُملة ومَا بَعدها تَفْسِير وبَيَان لقَوْله فِي أوّل ٱلْخُطْبَة: «فَٱعْمَلُوا وَ أَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ» وَتَقَدَّم الشَّرح.

(فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ) عَلىٰ الإِنْسَان أَنْ يَجدّ ويَجتَهد ويَصبر مِن أَجْل مَصِيرة، ومُسْتَقْبَله، وحُرِيته، وكرَامته. وَتَقَدَّم قَول الإِمَام، وهُو يَصف الْمُتَّقِين: «صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»[٢] (وَ أَخَذَ مِنْ حَيّ لِمَيِّتٍ، وَ مِنْ فَانٍ لِبَاقٍ... إلخ). كلّ إِنْسَان يَعْرِف أَنّه سيَمُوْت، لاَ مَحَالَة، ولكنْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِف عَلىٰ أي شَيء يَمُوْت؟ ومَاذا يَترك بَعد مَوْته لِنفْسَه، وأُمته، وَوَطنه، ولَيْس لأَبْنَائِه، ووَارثه، وَكفىٰ؟ وَقَد يَعِيش وَاحد مِن النَّاس نَكرة لاَ أَحد يَعبأ بِهِ، أو يَعْرِف عَنْهُ شَيْئاً، ولَكِنَّهُ يَجعل مِن موته تَأرِيخاً، ومَجداً لهُ، ولوَطنه كمَا لَو مَات مَوتاً شجَاعاً يَصنع الإِنْتصَار عَلىٰ الطُّغاة المُعتدِين، وَقَد يَمُوْت أَغنىٰ الأَغْنِيَاء، وأَقْوىٰ الرُّؤسَاء، وَيَختَفِي أَثَره بِسُرعَة تَمَاماً كَموت الحَشرَات وٱلحيَوَانات.

وَيَقول الإِمَام لِكُلّ حَي: «إِنَّك ستَمُوت عَلىٰ أَيّة حَال، وفِي مَقدُورك أَنْ تَجعَل مِن مَوتك حيَاة لَكَ وللآخرين، فَلا تَحرم نَفْسَك وغَيْرك مِن حيَاة لاَ ذُل فِيهَا وهوَان، ولا خَوْف وآلاَم (ٱمْرُؤٌ خَافَ اللهَ وَ هُوَ مُعَمَّرٌ إِلَىٰ أَجَلِهِ، وَ مَنْظُورٌ إِلَىٰ عَمَلِه... إلخ). فَسيطَر عَلىٰ أَهوَائه، وَتَغلب عَلىٰ أَطمَاعه، وَحَررها مِن كلّ شَائِبة، وَبَذها أو بَذل مِنْهَا فِيمَا ٱفتَرض عَلَيْهِ لرَبّه، وَوَطنِه، ومُجتمعِه.

(١) أُنظر، الكَافِي: ٢/٤٣٥ ح ١٠، مُغني المحتاج: ٣/٣٧٢، وَسَائِل الشّيعة: ١١/٣٥٨ ح ٨ و ١٤، الإقناع لمُوسَىٰ الحجَاوي: ٢/١٨٥، إعانة الطّالبين: ٤/١٠٧، كشف القناع: ٦/١٩٦.
(٢) أُنظر، شَرح ٱلخُطبَة: (١٩٣). (منهُ).

الخطبة

-٢٣٨-

جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَ عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَ تُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَ يُؤَدَّبَ، وَ يُعَلَّمَ وَ يُدَرَّبَ، وَ يُوَلَّى عَلَيْهِ، وَ يُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ، وَ لَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ.

أَلَا وَ إِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَ إِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَ إِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَ شِيمُوا سُيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ. وَ إِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَ خُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ، وَ حُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَ إِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى.

اللُّغَة:

جُفَاةٌ: غِلَاظ فِي العِشرَة. طَغَامٌ: أوْغاد فِي الدَّنَاءة والحقَارة. وأَقْزَامٌ: أرَاذِل فِي اللُّؤم والخَسَاسة. والأَوْب: النَّاحِية. الشَّوْب: الخَلط. وتَبَوَّؤُا الدَّارَ: سَكَنُوها،

والإِيمَانَ: ثَبَتُوا عَلَيْهِ. شِيمُوا: أَغْمَدُوا. والقَوَاصِيَ: الأَطرَاف. والمُرَاد بِصِفَاتكُم هُنا قوّتكُم.

الإِعْرَاب:

جُفَاةٌ لِمُبْتَدَأ مَحذُوف أي هُم جُفَاةٌ، والمَصْدَر مِن أَنْ يُفَقَّهَ فَاعِل يَنْبَغِي، أي يَنْبَغِي تَفقِيهَه وتَأدِيبه.

المَعْنَىٰ:

(جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَ عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَ تُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ) المَقصُود بِالذَّم جَيش مُعَاوِيَة، فَقَد كَانوا أوبَاشاً رُعَاعاً تَجَمعُوا خَلِيطاً مِن هَهُنا وهُنا، مَا فِيهِمْ مَن لهُ بِالدِّين عِلم، ولا بِالجِهَاد سَابقة، ولاَ مِن الخُلق نَصِيب (مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَ يُؤَدَّبَ) يَحتَاج الوَاحد مِنْهُم إلىٰ مَن يُعلمَه الضَّرورَات مِن أحْكَام الدِّين، وآدَاب الإِسْلاَم (وَ يُوَلَّىٰ عَلَيْهِ) يُحجَر عَلَيْهِ لِسَفهِهِ (وَ يُؤْخَذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ) يُمْنَع مِن التَّصرف فِي أَمْوَاله، يُقام عَلَيْهِ قَيِّم يُدَبر شُؤُونَه (وَ لَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ) أي مَدِينة رَسُول الله ﷺ الّتِي كَانَتْ آنذاك عَاصمة الإِسْلاَم وَعلُومَه (وَ الإِيمانَ) أي ما عَمَّر قَلْبَه بِالإِيمَان، ولاَ تَمَسَّك بِعرُوته... هَكذا كَان جَيش مُعَاوِيَة، ولَو كَان عَلىٰ شَيء مِن الدِّين والوَعِي لمَا حَارَب الصَّحَابَة الأَبرَار... أَمّا الإِمَام فَقَد كَان فِي جِيشة أَلفَان وثَمانون مِن المُهَاجِرِينَ، والأَنْصَار، مِنْهُم ثَمانُون بَدْرِيًّا[1].

---

(١) أُنظر، أعيَان الشِّيعة: الجزء ٣ عَن المَسعُودي. (مِنْهُ ﷺ). وأُنظر تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٦/٢٨، مروج الذَّهب: ⇔

(أَلَا وَ إِنَّ الْقَوْمَ اَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ). الْمُـرَاد بِـالْقَوْم هُـنا جَيش مُعَاوِيَةَ، والتّكرَار للتُّوكِيد، والَّذِين اَختَاروا للتَّحكِيم هُـو آبـن العَـاص، والشَّيء الَّذي يُحبُون هُو الإِنْتصَار عَلىٰ أَهْل الْعِرَاق، وقَد حَقَق لَهُم عَمْرُو مَا يَبْتَغُون بِمكره وأَلَاعِيبه وَخُدَاعه للأَشْعرِي المُغفل (وَ إِنَّكُمْ اَخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ) الخطَاب لأَهْل الْعِرَاق، والْمُرَاد بِالْقَوْم هُنا عَامَة النَّاس، والشَّيء الَّـذي يَكْرَهُونه خُذْلَانهم وآنكسَارهم الَّذي حَدث بِالفِعْل.

(وَ إِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ) وهُو أَبُو مُوسىٰ الْأَشْعَرِيّ (بِـالْأَمْسِ) أي فِي وَقْعَة الْجَمَل، وكَان أَبُو مُوسىٰ آنذَاك وَالِياً عَلىٰ الْكُوفَة، وَقَد نَهىٰ أَهلها عَن المَسِير إِلىٰ الْحَرْب مَع الْإِمَام، وَقَالَ مِن جُملة مَا قَال: (إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَ شِيمُوا سُيُوفَكُمْ) أي لاَ تَطلقُوا فِي هَذِه الْحَرْب سَهماً، ولاَ تَشهَرُوا سَيْفاً[1].

(فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ. وَ إِنْ كَانَ كَـاذِباً فَـقَدْ لَـزِمَتْهُ التُّهَمَةُ). كَيْفَ تَخْتَارُون الْأَشْعَرِيّ للتَّحكِيم، وَقَد أَقَام الدَّلِيل مِن نَفْسه عَلىٰ نَفْسه أَنّه لاَ يَصلح لِشَيء، ولاَ يُوثق بِهِ فِي شَيء، فبِالأَمْسِ القَرِيب نَهىٰ عَن السَّير مَـع الْإِمَام، ثُمّ سَار مَعه مُختَاراً وعَن طِيب نَفْس، وأَظـهَر الحُبّ والْإِخْـلَاص لِـلْإِمَام وَجيش الْإِمَام، ولذَا أَصر أَهْل الْعِرَاق عَلىٰ إِخْتِيَاره... فإِنْ كَان مُؤمِناً بِما نَهىٰ عَنْهُ مِن قَبل فَقَد خَالف إِيمَـانه وَيَقِينه عَن إِرَادَة وَقَصد، وإِنْ كَان كَاذِباً فِيما نَهـىٰ عَـنْهُ،

⇐ ٢ / ٤٣٤، شَرح النَّهج لِابـن أَبي اَلْحَـدِيد: ٤٣٣/١، الكَـامِل: ١٦٢/٣، البـدايـة والنّـهاية: ٢٧٥/٧، و: ٤٧٤/١ الطبعة الأُولىٰ، و: ١٩١/٥ تحقيق أَبو الْفَضْل، وَقْعَة صِفِّين لنصر بن مزاحم: ٢٣٨ الطّبعة الثَّانِيَة بِمِصْر.

(١) أُنظر، شَرح نَهج اَلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي اَلْحَدِيد: ٣١٢/١٣.

وَعَالِماً بأنّه يَنهىٰ عَن المَعْرُوف لاَ عَن المُنْكَر فهُو مُجرِم فَاسق . . . وفِي الحَالين لاَ يَجُوز الوثُوق بِهِ والرّكُون إِلَيْهِ .

وَقَالَ ٱبن عَبد البَرّ فِي «الاِسْتِيعَاب» ، وهُو يُترجم لأَبِي مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ مَا نَصه بِالحَرف : «رُوي فِيهِ كَلاَم كَرِهت ذِكره ، والله يَغْفر لهُ»[1] . وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد المُعْتَزلِي فِي شَرح هَذِه ٱلْخُطْبَة : «روىٰ أَبُو مُوسىٰ الأَشْعَرِيّ عَن النَّبيّ ﷺ أنّه قَال : «كَان فِي بَني إِسْرَائِيلَ حَكْمَان ضَالاَن ، وسَيَكُون فِي أُمتِي حَكْمَان ضَالاَن ، وضَالٌّ مَن ٱتبَعهُما»[2] . فَقِيل لهُ : ٱحْذَر أنْ تكُون أَحدهُما . فقَال : كلاَ . فَلَمّا بُلي بِهِ ، قِيل فِيهِ : الْبَلاءُ مُوكل بِالمَنْطِق .

(فَٱدْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ . . . إلخ) . قَال الكَاتِب الإِسْلاَمِي المِصْري عَبد الكَرِيم الخَطِيب : «كَان الإِمَام قَد أَعد ٱبن عبَّاس لِيَلقىٰ عَمْرُو بن العَاص : ولكنْ أَصْحَاب الإِمَام ٱختَلفوا عَلَيْهِ ، وكَان الأَشْعَث بن قَيْس رَأس الجَمَاعَة الّتي نَازعت فِي ٱختيَار ٱبن عبّاس ، والأَشْعَث هو الّذي مَهّد

(١) أَبُو مُوسىٰ ، عبدالله بن قَيس بن سُليم بن حصار بن حَرب الأَشْعَرِيّ . روىٰ عَن النَّبيّ ﷺ ، وعليّ عليه السلام ، وٱبن عبّاس ، وعمّار وغَيْرهم ، ولد فِي زُبيد (اليَمن) وقَدم مَكّة فأَسلم ، وهَاجر إِلىٰ الحَبشة ، وٱستعمله رَسُول الله عَلىٰ زُبيد ، وَعَدن ، والأَهوَاز ، وأَصْبَحَ وَالياً عَلىٰ الكُوفَة . وكَان مَولده (٢١) قَبل الهِجْرَة ، ولهُ فِي الصَّحِيحين (٣٥٥ حديثاً) . أُنظر ، الاِسْتِيعَاب بِهَامش الإِصَابَة : ٢/٣٦٣ ، الإِصَابَة : ٤/١١٨ ، أسد الغَابَة : ٣/٢٥٤ و ٥/٣٠٨ ، الطَّبَقَات الكُبْرىٰ : ٤/٧٩ ، صفْوة الصَفوة : ١/٢٢٥ .

(٢) أُنظر ، شَرح نَهْج اَلْبَلاَغَة : ١٣/٣١٦ ، كَنز العُمَّال : ٥/٧٩٤ ح ١٤٤٠٧ ، سُبل الهُدىٰ والرَّشاد : ١٠/١٥٠ ، النَّصائح الكَافِية لِمن يَتَولّىٰ معَاوية : ١٤١ . وذَكر المُعْتَزلِي فِي شَرحه أنّه لَم تَثبت تَوبته ، مَا ثَبتت تَوبَة غَيْره ، وإنْ كَان الشَّيخ أَبو عَليّ ، قَد ذَكر فِي آخر كتَاب الحَكَمَيْن إنّه جَاء إِلىٰ أَمِير المُؤمِنين عليه السلام فِي مَرض الحَسَن بن عَليّ فقَال لهُ أجئتنَا عَائداً ، أَم شَامتاً ، فقَال : بل عَائداً ، وَحَدث بِحَدِيث فِي فضل العِيَادة . فقَال ٱبن مَتويه ، وهَذِه إِمَارة ضَعِيفة فِي تَوبته .

لِلتَّحكِيم، وأكرَه هُو وقَوْمه عَلِيّاً عَلىٰ قبُوله... ولاَ شَكَّ أنّ الصِّلة كَانَتْ قَد توثقت بَيْنَ مُعَاوِيَةَ والأَشْعَث»[١]. وَهَذَا الَّذي سَجله الخَطِيب يَتفق تَماماً مَع مَا نَقلنَاه عَن طَه حسين: «مِن أنّ الأَشعَث، وآبن العَاص قَد دبرا رَفع المَصَاحِف، واَختَارا الحَكمِين سَلفاً»[٢].

ثُمّ قَال عَبد الكَرِيم: «كَان آبن العَاص صَاحب مَصلَحة مُحققة فِي أي خَير يُصِيبه مُعَاوِيَةَ مِن التَّحكِيم لأنّ الصَّك بِملك مِصْر فِي يَدَه... وَلَيْس لِابْن عبّاس شَيء إنْ خَلصُت آلخِلاَفَة لِعَلِيٍّ، وهَل لأحد مَع عَليّ مَطمَع؟. إنّ كلّ الَّذِين يَعْملُون مَع عَليّ يَعْملُون لله لا لَهُ، فَلَيْس هُم عِنده يَد يَرجُون المَثُوبَة عَلَيْهَا إلاّ مِن الله. فَماذَا يَخشىٰ الْقَوْم مِن آبن عبّاس إذَنْ؟ أنّهم لاَ يَخشُون إلاّ أنْ يَدفع آبن العَاص عَن كَيدِ مُدبر لاَ يَفطن إلَيْهِ إلاّ رَجُل أُوتي مِثل مَا أُوتي آبن عبّاس مِن ألمعِيّة وَذكَاء»[٣].

(وَ خُذُوا مَهَلَ الأَيَّام). لَقَد بَذَلتُ لَكُم النُّصح فاَقبَلوه قَبل أنْ تَفُوت الفُرْصَة، وَتَقُولوا: يَا لِيتَنا سَمِعنَا وَأَطعنَا... وبِالفِعْل نَدمُوا عَلىٰ مَا فَرّطوا حَيْث لاَ يَنفع النَّدم (وَ حُوطُوا قَوَاصِيَ الإِسْلَامِ) آحفظُوا أَطْرَاف المَملَكَة الإِسْلاَمِية ونَواحِيها مِن غَارَات أَعْدَاء الإِسْلاَم (أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ بِلَادِكُمْ تُغْزَىٰ)؟ وَلا بُدّ مِن الإِشَارَة أنّ الغَزْو كَان مِن مُعَاوِيَةَ، وَزَبَانِيته بَعد التَّحكِيم لاَ قَبله، وعَلَيْهِ فهَذا الفَصل مُلحق بِهَذه

---

(١) أُنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبوّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ٤٩٧، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﴿رحمه الله﴾).

(٢) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عَليّ وبَنُوه للدّكتُور، طَه حُسين: ١٥٢. وأُنظر، شَرح الخُطْبَة: (١٩) (مِنْهُ ﴿رحمه الله﴾).

(٣) أُنظر، كِتَابه «عَليّ بن أَبِي طَالب بَقِيَة النُّبوّة، وخَاتَم الخِلاَفَة: ٤٩٨، ومَا بَعدَها طَبعَة سَنَة ١٩٦٧م. (مِنْهُ ﴿رحمه الله﴾).

ٱلْخُطْبَة، وَلَيْسَ مِنْهَا. والْمَعْرُوف عَن الشَّرِيف الرَّضِي أنّه كَان يَخْتَار مِن خُطَبِ الإِمَام فصُولاً، وَيَجْمَعها فِي كَلامٍ وَاحد (وَإِلَىٰ صَفَاتِكُمْ تُرْمَىٰ). الْمُرَاد بصِّفَاتِهم هُنا قُوَّتِهم، لأنّ أصْل الصَّفَاة ٱلْحَجْر الصَّلد، والْمَعْنَىٰ أنّ الْعَدُوّ ٱتّخَذ قُوّتَكُم مَرمىً لِسَهامَه، وَغَرضاً لهجُومه.

الخطبة

-٢٣٩-

أهْل الْبَيْت:

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَ مَوْتُ الْجَهْلِ . يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَ ظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ، وَ صَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ . لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَ لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . وَ هُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ ، وَ وَلَائِجُ الِاعْتِصَامِ . بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَىٰ نِصَابِهِ ، وَ انْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ ، وَ انْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ . عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَ رِعَايَةٍ ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَ رِوَايَةٍ . فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَ رُعَاتَهُ قَلِيلٌ .

اللُّغَة:

عَيْشُ الْعِلْمِ : حيَاته . . وَوَلَائِجُ : جَمع وَلِيجَة ، وَهِي المَوضع الَّذي يُعتَصَم بِهِ . وعَادَ إِلَىٰ نِصَابِهِ : إِلَىٰ أَصْلِه وَمُستَقَره . الْمُرَاد بانْقَطَاع اللِّسَان هُنا انْقَطَاع الحُجَّة . وعَقْلَ الوِعَايَة : حِفْظ فِي فَهمٍ . وَعَقْلَ الرِّعَايَة ، دَعم الدِّين ودَفع الشُّبهَات عَنْهُ بِمنطق الْعَقْل والبَدِيهَة .

الإِعْرَاب:

عَقْلَ وِعَايَةٍ مَفْعُول مُطلق، لأنّ الْمَعْنَىٰ أَدركُوا إدرَاك وِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ «لاَ» حَرف عَطف مِثل: هَذَا زَيد لاَ عَمْرُو.

الْمَعْنَىٰ:

(هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَ مَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ... وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ). ضَمِير «هُمْ» لأَهْل الْبَيْت، وَتَقَدَّم الثَّنَاء عَلَيْهِمْ فِي العَدِيد مِن الخُطَب، والصِّفَات الّتِي ذَكرها الإِمَام هُنا هِي تكرَار لمَا جَاء فِي آخر ٱلْخُطْبَة (١٤٧)[١]. (وَ هُمْ دَعَائِمُ الإِسْلَامِ) أي قُوَّتِه وسَلاحَه، وَحُجَّتَه ولِسَانه، فولاَؤهم والإِخْلاَص لهُم وَلاَء وإخلاَص لِلإِسْلاَم بِالذَات، ومِن هُنا قَال الرَّسُول الأَعظمﷺ: «مَن صَلّىٰ صَلاَة لَم يُصلّ فِيها عَليَّ، ولاَ عَلىٰ أَهْل بَيْتِي لَم تُقبَل مِنْهُ»[٢].

وإذَا عَطفنَا هَذَا الحَدِيث عَلىٰ حَدِيث «الصَّلاَة عَمُود الدِّين»[٣]. كَانَتْ النَّتِيجة أنّ الصَّلاَة عَلىٰ أهْل الْبَيْت عَمُود الدِّين. «أَللَّهُمَّ صلِّ عَلىٰ مُحمّد وآل مُحمَّد

---

(١) أُنظر، شَرح ٱلنَّهج ٱلْخُطْبَة (١٤٧): ٢/٤٦٠. (مِنْهُ).

(٢) أُنظر، سُنَن الدَّار قُطني: ١٣٦ مَطبَعة الأَنْصَاري بِدهلِي عَاصمَة الهِند. الفضَائِل الخَمْسَة. (مِنْهُ). و: ٣٣٥ ح ٦. نَيل الأوطَار: ٣٢٢/٢، مُستَدرَك الوَسَائِل: ١٥/٥ ح ٥٢٥٦، سُنَن البَيْهَقيّ: ٣٧٩/٢، عِلل الدَّار قُطني: ١٩٧/٦، سُبل الهُدَىٰ والرَّشاد: ١٠/١١، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٩، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٤٦، حقوق آل البَيْت: ٤٢.

(٣) أُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ١٩٩/٢ ح ٢٩٨٧، فَيض القَدير: ٢٤٨/٤، علل أَبِي حَاتم: ١٥٦/٢ ح ١٩٦٢، كَشف الخفاء: ٤٠/٢ ح ١٦٢١، تلخِيص الحَبير: ١٧٣/١ ح ٢٤٢، تعظِيم قَدر الصَّلاة: ٢١٩/١ ح ١٩٤، جَامع العلوم والحِكم: ٤٥/١.

وَسَلم »(١).

وفِي «الصَّوَاعِق المُحْرِقَة» لِابْن حَجر وغَيْرِها أنّ الشَّافِعِي قَال(٢):

يا أهلَ بَيْت رسولِ اللهِ حُبُّكم ... فَرْضٌ مِنَ اللهِ في الْقُرْآن أَنْزَلَهُ
كَفَاكمُ من عَظِيم الْقَدْرِ أَنَّكمُ ... مَنْ لَمْ يُصلِّ عَلَيْكُم لاَ صلاةَ لَهُ

(وَ وَلاَئِجُ الاِعْتِصَامِ) لِمَن أَرَاد مَعرفَة الإِسْلاَم عَلىٰ حَقِيقَته أُصُولاً وَفرُوعاً (بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَىٰ نِصَابِهِ) أي إذَا تَولوا الشُّؤوُن الْعَامَّة يُصَان لكلِّ ذِي حَقّ حَقه،

---

(١) إنّ التَّصلية والتَّسليم عَلىٰ الآل ثَابتة فِي كِتَاب الله وقَول رَسُول الله ﷺ وقَول الأصْحَاب الكرَام. قَال تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ الأَحْزَاب: ٥٦، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله كَيْفَ نُصلّي عَلَيْكَ؟ فقَال ﷺ: «قُولُوا أَللَّهُمَّ صلِّ عَلىٰ مُحَمّدٍ وعَلىٰ آل مُحَمّدٍ كمَا صَلّيت عَلىٰ إِبْرَاهِيم وعَلىٰ آل إِبْرَاهِيم، وبَارك عَلىٰ مُحَمّدٍ وعَلىٰ آل مُحَمّدٍ كمَا بَاركتَ عَلىٰ إِبْرَاهِيم وعَلىٰ آل إِبْرَاهِيم. (صَحِيح البُخَاريّ: ٦/ ٢١٧ و ٢٩١).

وَقَد ذَكر الفَخر الرَّازي فِي تَفْسِيره: ٧/ ٣٩١ أنّ أَهْل الْبَيْت سَاووا النَّبيّ ﷺ فِي خَمسَة أشيَاء: فِي الصَّلاةِ عَليهِ وعَلِيهم فِي التَّشهد، وفِي السَّلام، وفِي الطَّهارة، وفِي تَحرِيم الصَّدَقة، وفِي المَحبّة.

وَقَالَ ﷺ: مَعرفة آل مُحَمّدٍ بَرَاءَة مِن النَّار، وحُبّ آل مُحَمّدٍ جوَاز عَلىٰ الصِّراط، والوِلاَيَة لآل مُحَمّدٍ أمَان مِن العذَاب. (يَنابِيع المَوَدَّة: ١/ ٢١ فِي المُقَدّمة نَقلاً عَن ذَخِيرة المَآل طَبْعَة ٧ قُم).

وَقَالَ ﷺ: لاَ تصلّوا عَليّ الصَّلاَة البَتْرَاء، قَالُوا: ومَا الصَّلاَةِ البَتْرَاء يَا رَسُول الله؟ قَال: تَقُولون: أَللَّهُمَّ صلِّ عَلىٰ مُحَمّدٍ وتَسكتُون، بَل قُولوا: أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلىٰ مُحَمّدٍ وعَلىٰ آل مُحَمّد. (الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِابْن حَجر: ١٣١، فَتح القَدِير للشُّوكاني: ٤/ ٢٨٠ نَقله عَن صَحِيح مُسْلِم، تَفْسِير الخَازن: ٥/ ٢٥٩).

(٢) القَائل هُو الإِمَام الشَّافِعِي، أنظر، دِيوَان الشَّافِعِي: ١٥٠، وفِيهِ (يَكفِيكُم) مكَان (كَفَاكُم)، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٤٦ الطّبعة المُحمّدية، نُور الأَبْصَار: ١٠٥، إِسعَاف الرّاغبِين: ١١٨، شَرح المَوَاقِف للزّرقَاني: ٧/ ٧، إعَانة الطَّالِبين: ١/ ٢٠٠، شَرح الأَخْبَار: ٢/ ٤٨٩، الشّرف المُؤبد للنّبهاني: ٩٩، يَنَابيع المَوَدَّة: ٢/ ٤٣٤، الإِتحَاف بِحُبّ الأَشْرَاف: ٢٠٣، بِتَحقِيقنا، نُظم دُرر السّمطين: ١٨، شَرح المَوَاهب للزّرقَاني: ٧/ ٧، شَرح الشّفا للخفَاجي: ٣/ ٤٥٣، تَذكرة الخَوَاص: ٣٢٧، سُبل الهُدَىٰ والرّشَاد: ١١/ ١١، طُرُز الوَفَاء فِي فَضَائِل آل المُصطَفَىٰ: ١٥٦، بِتَحقِيقنا.

ويَجُوز أنْ يَكُون المُرَاد بِالحَقِّ هُنا الدِّين، وأنّ أهْل البَيْت يَأخذُونه مِن مَنبَعه وَمصدَره لاَ مِن الشّيوخ وَالرُّواة. وَهَذَا المَعْنَىٰ أَقرَب إِلىٰ السِّيَاق، وأَنْسَب بِقول الإمَام: (عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَ رِعَايَةٍ) فَهمُوه وعَمَلُوا بِهِ وأَرشدُوا إِلَيْهِ كما هُو عِند الله (فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَ رُعَاتَهُ قَلِيلٌ) تَمَاماً كَعمَائِم القَاشلِين المُرتَزقة فِي عَصرنا... كَذِب وتَزوِير، وتَكوِير بِلا تفكِير.

الخطبة

- ٢٤٠ -

مَا يُرِيدُ عُثْمَانَ إِلَّا أَنْ أَكُون جَمَلًا:

يَا ٱبْنَ عَبَّاسٍ ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحاً بِالْغَرْبِ : أَقْبِلْ وَ أَدْبِرْ ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ ، ثُمَّ هُوَ ٱلآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ! وَ اللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّىٰ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً .

اللُّغَة:

النَّاضِح : البَعِير يُحمل عَلَيْهِ لِسَقِي الزَّرع . الْغَرْب : الدَّلو العَظِيمَة .

الْإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ يَجْعَلَنِي مَفْعُول يُرِيد ، وأَنْ أَخْرُجَ «أَنْ» مُفسَرَة بِمَعْنَىٰ أي ، وَمِثلها أَنْ أَقْدُمَ .

الْمَعْنَىٰ:

قَال الشَّرِيف الرَّضِي : قَال الْإِمَام هَذَا لِابْن عَبَّاس ، وَقَد جَاءَه بِرِسَالَة مِن عُثْمَانَ ،

وَهُو مَحْصُور يَسأَلَه فِيْهَا الخرُوج إِلىٰ مالِه بِيَنبُع لِيقل هَتَف النَّاس بِٱسمِه لِلْخِلاَفَة بَعد أنْ سَأله مِثل ذَلِكَ مِن قَبل. وَقَالَ الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «كَان النَّاس يَهتفُون بِٱسم أَمِير الْمُؤْمِنِينَ لِلْخِلاَفَة، وَيُنَادُونَ بِهِ، وعُثْمَانَ مَحصُور، فَأَرسَل إِلَيْهِ يَأْمُره أنْ يَخرُج إِلىٰ يَنْبُع، وكَان فِيها رُزق لإمِير الْمُؤْمِنِينَ، فَخَرج ثُم ٱستدعَاه لِينصُره فَحَضر، ثُمّ عَاودَ الأَمْر بِالخرُوج مَرَّة ثَانِيَة»[1]. فقَال الإِمَام: (مَا يُرِيدُ عُثْمَانَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحاً بِالْغَرْبِ).

يَنْبُع - بِفَتح اليَاء وسكُون النُّون وَضم البَاء - هِي أَرْض مِن خرَاج الْمَدِينَة[2].

قَالُوا: إنّ النَّبِيّ ﷺ قَسّم ٱلأَنفَالِ، فَكَانَتْ هَذِه مِن نَصِيب الإِمَام، فٱحتَفر بِها عَيناً فخَرَج مَاء يَنْبُع كَعُنق البَعِير. فَسمَاها الإِمَام يَنبُع، ثُمّ أَوْقَفهَا عَلىٰ الْفُقَرَاء والمَسَاكِين.

وَتَلخِيص الحكَاية أنّ الثّورة ٱشتعلت عَلىٰ عُثْمَانَ فِي كلّ نَفس بَعد أنْ كَان مِنْهُ مَا كَان تَلاقت جمُوع ٱلْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَة، وتَرَاكمت حَتّىٰ سُدت الطُّرق والمَسَالك، وَهِي تُطالب بِعَزل عُثْمَانَ أو بِرَأسه، ودَافع الإِمَام عَنْهُ بِلسَانه، وَيَده، وسَوطه، وكَان يَرسل الْمَاءِ فِي القُرَب إِلىٰ عُثْمَانَ وَأهْله، وطَلْحَة يَمنَع وصُوله إِلَيهِمْ... وكَان الثّوَار يَهتفُون بِٱسم الإِمَام لِلْخِلاَفَة، وَعُثْمَانَ يَسمَع وَيَغضَب، وَيَرسل إِلىٰ الإِمَام أنْ يَخرج مِن الْمَدِينَة فَيستَجِيب ولكن الثّورَة تَزدَاد غَضَباً ولَهَباً، فَيرسل عُثْمَانَ إِلىٰ

---

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٢٣٣/٢، العقد الفَرِيد: ٢٧٤/٢، الأَنسَاب لِلبَلاذُري: ٩٨/٥، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢٩٧/١٣، وشَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن مِيثَم البَحرَاني: ٣٢٣/٤.

(٢) عَين مَاء لآل عَليّ بن أبِي طالب عليه السلام، وَهِي مَوضع بَيْنَ مَكّة والْمَدِينَة. أنظر، لِسَان الْعَرب: ٣٤٥/٨ و٣٤٦، الفَائق: ٤٠١/٣، النّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث: ١٥١/١.

الْإِمَام أَنْ أَقْدِم ودَافع، فَيَأْتِي ويُحَاول جُـهده أَنْ يُـفرق الحَشـد بِـالسَّوط تَـارة، وبِالتَّقرِيع أُخرىٰ حَتَّىٰ يَخشىٰ أَنْ يَكُـون آثماً فِي ذَلِكَ، كَـمَا قَـال لأَنّـه رُبَّمَـا ضَرب بِسُوطه مِن الجمُوع المُحتَشِدة مَن لاَ يَسـتَحق الضَّرب، وأَهَـان مَـن لاَ يَسـتحِق الإِهَانة... وأَخيرَاً جَرىٰ المُقدَّر الَّذي يَعرفه القَرِيب والبَـعِيد. وأَشرنَـا إِلَـيْهِ فِـيما سَبق[1].

(١) أَسبَاب الثورَة عَلىٰ عُثْمَانَ بن عَفَّان:

لَسنَا بِصَدد بَيَان ودرَاسة أَسبَاب الثّورَة عَلىٰ عُثْمَانَ بن عَفَّان، بَل نُشِير إِلىٰ مَا يَتعَلق بِمَوضُوعنا وهو كَيف أنقض أَصحَابها عَلىٰ صَاحبهم الَّذي بَايعُوه؟

قُتل بَعد أَنْ أَشتد الطَّعن عَلَيْهِ بِسبب مُخَالفَاته الَّتي لا تُحصىٰ، ولكنْ نَذكر طَرفاً مِنْهَا للـتَّعرُف عَـلىٰ مُخلفَات الفَلتة فِي بَيعة أَبِي بَكْر، وعُمَرَ، كمَا أَعترفَا هُما بذَلك، وكَذَلِك عَلىٰ عقَابِيل الشُّورىٰ... والبَاب الَّذي فَتحه عُثْمَانَ لِبَني أُمَيَّة... ثُمّ كَيف أنقضُوا عَلَيْهِ وَبَتَرُوه بَعد أَنْ تَبرءوا مُنْهُ؛ لأَنّ المُنَافِق لاَ يُؤْمِن شَرّه...

ودَولَة عُثْمَانَ ظَهر فِيها النِّفَاق وَبَلغ أَوج عَظمته إِنْ كَانَتْ لَه عَظمة ـ إِنْ صَح التَعبِير ـ لأَنّ العَظَمة لله وَحده سُبحانه وَتَعَالىٰ.

مَنع كِتَابة الحَدِيث لَيْس مِن درَاستنا هَذِه، ولكن نَذكرها أَستطرَاداً؛ لأَنّ عُثْمَانَ هُو أَيضاً مَـنع كـتَابة الحَدِيث، وأَوّل خُطوة بَدأ بِها قَوله: «لاَ يَحل لأَحد يَروي حَدِيثاً لَم يُسمع بِهِ فِي عَهد أَبِي بَكْر ولاَ فِي عَهد عُمَرَ بن الخَطَّاب». أَنظر، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٢/٣٣٦، كنز الْعُمَّال: ١٠/٢٩٥. أُنظر، الطَّـبَقَات الْكُـبْرَىٰ: ٢/٣٣٦، كَنز الْعُمَّال: ١٠/٢٩٥.

إِذَنْ هُو لاَ يَختلف عَن صَاحِبيه، بَل زَاد عَلَيهم وأَتسَعت الطَّبَقَة الارِستقرَاطِية العُثْمَانِيَة وزَادت قَـائِمَة النُّبلاء. ومِن هُنَا ظَهرت الحرَكَات المُضَادة الّتي تَئن تَحت العَبَاءة الأُمويّة، ولذَا نَرىٰ عُثْمَانَ يَقف ويَـقول: «أَيّها النَّاس إِنّ أَبَابَكْر، وعُمَرَ كَانا يَتأَولان هَذَا المَال ظِلف أَنفسهما وذَوِي أَرْحَامهما، وإِنّي تَأَولت فِيهِ صِلة رَحمي». أُنظر، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣/٦٤، كَنز الْعُمَّال: ٥/٦٢٧.

ويقول...لَو أَنّ بِيدي مفَاتِيح الجَنَّة لاعطِيتُها بَني أُمَيَّة حَتَّىٰ يَدخلوا». أُنظر، الفَتح الرَّبانيّ: ٢٢/٣٣٢.

وَتَرك عُثْمَانَ نَفسه يَوم قَتله، ثَلاثِين أَلف أَلف دَرهم. وَخمسمئة أَلف دَرهم، وخمسُون ومئة أَلف دِينار

↔ وتَرك أَلف بَعير. أنظر، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٧٦/٣.

كَمَا أَنّ عُثْمَانَ سَار عَلَىٰ سِيرة عُمَرَ بن الخَطَّاب فِي إِخْتِيار الأُمرَاء. فَقد عَين أَبَا زُبيد النَّصراني، وإيَاس بن جبيح ـ من أَصْحَاب مُسيلمة الكَذَّاب ـ وطَلحة بن خُوَيْلد ـ الَّذي آدعىٰ النُّبوَّة ـ فَسار عُثْمَانَ عَلَىٰ مَنهج صَاحبه فَعينَ الوَليد بن عُقْبَة حَتَّىٰ ظَهر مِنْهُ شُرب الخَمر وهو الَّذي نَزَلت فِيهِ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ ٱلْحُجُرَاتِ: ٦، ونَزلت فِيهِ: (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ). ٱلسَّجْدَةِ: ١٨. فَالمُؤمِن عَليّ بن أَبِي طالب والْفَاسِق هُو الوَليد بن عُقْبَة، وَهَذَا مَا عَلَيْهِ المُفسرُون. أنظر، الدُّر المنثور: ١٧٧/٥.

وكَانَ يُصلي حَال إِمَارته وهُو سَكران حَتَّىٰ تَكَلَّم فِيها وٱلتفت إِلىٰ مَن خَلفه وَقَالَ: أَزِيدكُم فِي الصَّلاة؟ فقَالُوا: لاَ قَد قَضينا صَلاتنا.أُنظر، الجرح والتعديل: ١٢/٩، معجم رجال الحديث: ١٩٧/١٩، تهذيب الكَمَال: ١٦/٣١.

وٱستعمل سَعد بن العَاص عَلىٰ الْكُوفَة وظَهر مِنهُ أشيَاء مُنكرة حَتَّىٰ قَالَ: «إِنَّما السَّواد بُستان لقُرَيْش تَأخذ مِنْهُ مَا شَاءت وتَترك مِنْهُ مَا شَاءت» أُنظر، تَأرِيخ الطَّبريّ: ٨٨/٥، أبن الأثير فِي الكَامِل: ٦٧/٣. حَتَّىٰ إِنّه لَم يَعزله بٱختيَارة بَعد أَنْ أُبلغَ بِأفعَاله، بل رَده أَمِيراً عَلىٰ الْكُوفَة وأَمره بِالتَّضيِيق عَلىٰ أَهْلها، فَلما جَاء ليدخُل الْكُوفَة خَرج أَهْلها عَلَيْهِ بِالسّلاح فَتَلقُوه فَردُوه وكَتبُوا إِلىٰ عُثْمَانَ: «لاَ حَاجَة لنَا فِي سَعِيدك ولاَ وَلِيدك». أُنظر، الطَّبريّ: ٩٤/٥، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٧٣/٣، الإِسْتِيعَاب: ٦٢١/٢..

وَجَعل عبدالله بن أَبِي السّرح أَخَا عُثْمَانَ من الرَّضَاعة وَالياً عَلىٰ مِصْر بَعد أَنْ عَزل عَمْرُو بن العَاص عَنْهَا ـ وعبدالله كَان كَاتباً للوَحي كمَا يَدعُون، ثُمّ آرتد مُشركاً وأَمَر النَّبيّ ﷺ بِقَتله ولَو وُجد مُتَعلّقاً بِأستَار الكَعبَة لكَن عبدالله ٱختفىٰ عِند عُثْمَانَ إِلىٰ أَنْ جَاء دوره وَأمره أَنْ يَغزو بِلاد أفريقيا فإِنْ فَتحها فَلَهُ خُمس الْخُمُس مِن الغَنِيمَة، فَسَار إِليها فِي عَشرة آلاف فٱفتتحها، وَقَتل خَلقاً كَثِيراً مِن أَهْلها. أُنظر، البداية والنّهاية: ١٥٢/٧، أبن الأثير: ٤٣/٣، الطَّبريّ: ٤٩/٥.

وسيّر أَبَا ذر إِلىٰ الرَّبَذَة...وسيّر عَامر بن عَبد قَيْس، من الْبَصْرَة إِلىٰ الشَّام. وطَلب مِنْهُ عبدالله بن خَالد بن أُسيد صِلة فأعطَاه أربعمئة أَلف...وٱفتتح أفريقيا وأَخذ خُمسها فَوهبه لمَرْوَان». أُنظر، العقد الفريد: ٧٧/٣.

وَقَالَ ٱبن هُشَام فِي السِّيرَة الحَلبية: «وسَبب هَذِه الْفِتْنَة أَنّهم نَقمُوا عَلَيْهِ أُموراً مِنْهَا عَزله لأكَابر ↔

⇐ الصَّحَابَة بِمَنْ وَلَّاهُ رَسول الله ﷺ، ومِنهم مَن أوصىٰ عُمَرَ بِأنْ يبقىٰ علىٰ ولايته وهُو أبُو مُوسىٰ فعزَله عُثْمَانَ وولىٰ ابن خَالد عبدالله بن عَامر مَحله، وَعزَل عَمْرُو بن العَاص عن مِصْر وَوَلَّاهَا ابن أبِي سَرح، وعزَل المُغِيرَةَ عَن الكُوفَة، وعَزَل ابن مَسعود عَنْهَا وأشخَصه إلىٰ المَدِينَة، وعزل سَعد بن أبِي وَقَّاص عن الكُوفَة وولىٰ أخَاه لأُمّه الوَليد بن عُقْبَة الَّذي سمّاه الله تَعالىٰ فَاسقاً... وَمِنْهَا أنّه أدخل عَمّه الحَكم وكَان يُقَال لهُ طَرِيد رَسُول الله ﷺ وَلَعِينه... وأنّه حَبس عَطاء عَبدالله ابن مَسعود وهَجره، وحَبس عطاء أبِي بن كَعب، ونَفىٰ أبَا ذَرّ إلىٰ الرَّبَذَة، وأشخَص عبَّادة بن الصَّامت من الشَّام لمّا شكَاه معاوية...وضَرب عَمّار بن يَاسر، وكَعب بن عُبَيْدَة، ضَربَه عشرين سوطاً ونَفَاه إلىٰ بَعْض الجِبَال، وَقَالَ لِابْن عُوف إنّك مُنَافق...وأنّه أحرق الصّحف الّتي فِيها القُرْآن، وأنّه أتم الصَّلَاة بِمنىٰ...وأنّه تَرك قَتل عُبَيْد الله وقَد قَتل الهرمزَان...» أنظر، السِّيرَة النَّبَوِيَّة: ٨٢/٢، طَبْعَة ٢ مِصْر، شرح النّهج: ٦٦/١ و ٢٣٣، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣٣٧/٣ و ٣٤٥، ابن الأثير: ٦٥/٣ و ٧٣، الطّبريّ: ٨٠/٥ و ٩٤، مُسْنَدأحمد: ١٥٥/٥ و١٦٦، و ٦: ٤٥٧، كنز العُمّال: ١٧٠/٦، العقد الفريد: ٩١/٣، المارف لِابْن قُتَيْبَة: ٨٤، ابن كثير: ٤٥٢/٧، تَأريخ أبِي الفداء: ١٦٨/١، الإِصَابَة: ٦١٩/٣، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٦١/٨، الطَّبَقَات لِابْن سعد: ٨/٥، أنْسَاب الأشْرَاف: ٢٨/٥، مرآة الجنان: ٨٥/١، كلّ هَذِه المصادر وغَيْرها نقلت لنا هَذِه المَساوئ العُثْمَانِية بشكل مفصل. فمن أرَاد المزَيد فليرَاجع.

وَقَد أخرَج صَاحب الأغَاني قَول عُثْمَانَ:«... أمَا يَجد مُرّاق أهْل العراق وَفُسَاقهم مَلجأ إلّا بَيت عَائِشَة؟ فَسَمعت عَائِشَة فَرفَعت نَعل رَسُول الله وقَالت: تَركتَ سُنَّة رَسُول الله صَاحب هَذَا النّعل. فتسَامع النّاس فجَاءوا حَتَّىٰ مَلأوا المَسجد فمَن قَائِل: أحسنتِ، ومَن قائِل: مَا لِلْنِّسَاء ولهَذا؟ حَتَّىٰ تحَاصبوا وتضَاربوا بِالنّعَال... وَقَد وَاجهه جُنْدُب ومَا أدرَاك مَا جُنْدُب، وزيد بن صُوحان. فزيد هُو القَائل لعُثْمَانَ: «مِلتَ فَمَالت أُمتك أعتدل تعتدل أُمتك». أنظر، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ: ١٢٤/٦.

وتَجري الأحدَاث يَوماً بَعد يَوم ضِد عُثْمَانَ عندما كَشر عَن نَوَايَاه السَّيِّئَة وأظهرها فِي خُطْبَته حِينَ قَال: «فَقَد والله عِبتُم عَليَّ بمَا أقررتُم لِابْن الخَطَّاب بِمثله، ولكنّه وَطَئكم بِرجله وضَربكُم بِيده وقَمعَكُمْ بلِسَانه...» أنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٩٧/٥، البداية والنّهَاية: ١٦٩/٧، الإمَامة والسِّيَاسة: ٣٤/١ ـ ٣٨، الكَامِل لِابْن الأثير: ٣/ مقتل عُثْمَانَ.

ولذَا عِندما طُلب من عُثْمَانَ أنْ يَستقِيل من مَنصب الخِلافَة قَال: «لا أنزع قَمِيصاً ألبسنيه الله عزّ

⇐

↔ وجلّ...»، أنظر، تَاْرِيخ الطّبري: ٣٧١/٤ و٣٧٢ و٣٧٥، الكَامِل لِابْن الأثير: ١٦٩/٣، بيروت، شرح النّهج: ١٥٠/٢.

وَقَال أيضاً: «... أمّا أنْ أتبرأ من خِلاَفَةِ الله، فَالْقَتْل أحبُّ إليَّ من ذَٰلِكَ». تَاْرِيخ الطّبريّ: ٣٧٧/٤ ابن الأثير: ١٧٠/٣، شرح النّهج: ١٥٠/٢.

ومِن هَذَا وغَيْره من الأَسْبَاب هي الّتي جَعلت الثّوار يَقتحمُون بَاب الجُاهد وَيرَدُونه قَـتيلاً بَـعد أنْ أستنَجد بِمُعَاوِيَةَ حَلِيفه وصَاحب بِطَانته، ولكنّه تَبَاطأ عَنْه كَمَا يَذكر الطّبريّ. تَاْرِيخ الطّبريّ: ١١٥/٥

وأمّا السَّيِّدة عَائِشَة فإنّها أوّل من كَفرته وقَالت: «أقتلوا نَعثلاً فَقد كَفر»، أُنظر، تَاْرِيخ الْفُتُوح لِابْن أعْثَمْ: ١٥٥، النّهاية لِابْن الأثير: ٨٠/٥، شرح النّهج: ٧٧/٤.

أمّا طَلْحَة بن عُبَيْد الله فكان يَوم قُتل عُثْمَانَ مُقنعاً بثُوب أُستتر بِه عَن أعيُن النّاس، وكَان يَرمي دَار عُثْمَانَ بالسّهام كما ذكر شرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد، ولطَلْحَة قِصَّة مشهورة مع عُثْمَانَ عندما أشرف من الخَوْخَة عَلىٰ الثّوار. أنظر، شرح النّهج لِابْـن أبي ٱلْحَـدِيد: ٤٠٤/٢، الفـتح الرَّبـانيّ: ١١٢/٢٢، تَأْرِيخ الطّبري: ١٢٢/٥.

وأمّا عَمْرُو بن العَاص المُستشار السّياسِي السّابق لهُ فقَد نَاداه يَوم الْقَتْل من نَاحية المَسجد: أتق الله يَاعُثْمَانَ فإنّك قَد رَكبت نَهابِراً ورَكبناها مَعك فَتُب إلىٰ الله نَتُب. فنَاداه عُثْمَانَ: وإنّك هُناك يا أبن النّابغة قَملت جُبتك مُنذ تَركتك من الْعَمَل... فنَاداه النّاس... ياعُثْمَانَ تُبْ إلىٰ الله وأظهر التّوبة يَكف النّاس عَنك. أُنظر، تَأْرِيخ الطّبريّ: ١٠٨/٥، ١١١.

وأمّا مَرْوَان بن الحَكم فقد كَانَتْ مُهمته تَصعِيد المَوقف وهُو الْعُنف من قِبل الثّوار ضِد الجُاهد عُـثْمَانَ بكتَابته الكتُب المُزورة والمَختُومة بِختم ذِي النّورين فِي قَتل مُحَمّد بن أبي بَكْر وأصحَابه من أَهْل مِصْر، حَتّىٰ نَائلة زَوّج عُثْمَانَ حَذرته من مَرْوَان وقَالت لعُثْمَانَ: «إنّك إنْ أطعت مَرْوَان قَـتَلك». ومَـرْوَان هـو القَـائل للنّاس: «شَاهت الوجُوه إلّا مَن أُريد..» أُنظر، البداية والنّهاية: ١٧٣/٧، الطّبريّ: ١١٢/٥.

لَم يَكن عُثْمَانَ يَتحمل حَتّىٰ النّقد البَسِيط، فحِين سَخر أبوذَرّ الغفاري عِندما تَساءل عُثْمَانَ: أَترُون بَأساً أنْ نَأخذ مَالاً من بَيْت الْمُسْلمِين فَننفقه فِيما يقوِينا من أمرنا ونُعطيكمُوه؟ قَال لهُ عُثْمَانَ: «مَا أَكْثَرَ أَذَاكَ لِيّ! غَيب وَجهك عَني فقَد آذِيتنا». فخَرج أبو ذَرّ إلىٰ الشّام، فَكتب مُعَاوِية إلىٰ عُثْمَانَ أنّ أبَا ذَرّ تَجتمع إليه الجمُوع، ولا آمن أنْ يُفسدهم عَلَيْكَ. فَكتب إليه عُثْمَانَ لِيحمله عَلىٰ بَعير عَلَيْهِ قَتب يَابس ويَرسله إلىٰ
↔

وفِي كتَاب «عَبقَرِية الإسْلاَم» لِلعقَاد فَصل الْـبَيْعَة: «كَـانَتْ حَـيرَة عَـليّ بَـيْنَ التَّقرِيب والإبعَاد أَشد مِن حَيرَته بَيْنَ ٱلْخَلِيفَة والثّوَار، فكَان يُؤمر تَارَة بِمُبَارحـة الْمَدِينَة لِيكف النَّاس عَن الهتَاف بِٱسمه، وَيُستدعىٰ إِلَيْهَا تَارَة لِـيَردع النَّـاس عَـن مُهَاجمَة ٱلْخَلِيفَة.

⇐ المَدِينَة، وَقَد تَسلخت بوَاطن أَفْخَاذها». وقَد قِيل له: «أتقِ الله يَاعُثْمَان، فـإنَك قَـد رَكـبت أُموراً، ورَكبناها مَعك، فَتب إِلىٰ الله نَتُب مَعك...». أُنظر، مروج الذّهب: ٣٤٤/٢.

الخطبة

- ٢٤١ -

حَوْلَ الْجِهَاد:

وَ اللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَ مُوَرِّثُكُمْ أَمْـرَهُ، وَ مُـمْهِلُكُمْ فِـي مِـضْمَارٍ مَـحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ ٱلْمَآزِرِ، وَ ٱطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَ وَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَ أَمْحَىٰ الظُّلَمَ لِتَذَاكِيرِ ٱلْهِمَمِ!

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ، وَعَلىٰ آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَىٰ وَالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً.

اللُّغَة:

مُسْتَأْدِيكُمْ: يَطلب مِنْكُم الأَدَاء. وأَمْرَهُ: أَرْضَه وَسُلطَانه. والمِضْمَار: السِّبَاق والمَجَال، والمُرَاد بِهِ هُنا المُدَة والفُسحَة... لِتَتَنَازَعُوا: لِتَتَنَافَسُوا فِي الخَيْرَات.

والعُقَد ـ بِضم الْعَيْن ـ جمع العُقْدَة. وٱلمَآزِرِ: جمع المِئْزَر، وشُدُّوا العُقَد هُنا كنَايَة عَن الجِد. وفُضُولَ الخَوَاصِرِ: مَا يَتَدلىٰ من الثَّوب واللِّبَاس عَلىٰ القَدَمِين.

والْعَزِيمَة: مِن الْعَزْمِ، والصَّبر، والثَّبَات. وَالوَلِيمَـة: لِمَـد «الصّحُون» وٱمـتلاء

البطُون.

والظُّلَمَ ـ بِفَتح اللاَّم ـ جَمع ظُلمَة. والتَّذَاكِيرِ: جَمع التَّذكِرَة، وَهِي الّتِي تُذكّرك بِالشَّيء.

الْإِعْرَاب:

شُكْرَهُ مَفْعُول مُسْتَأْدِيكُمْ، وأَمْرَهُ مَفْعُول مُورِّثُكُمْ، والْمَصْدَر مِن لِتَتَنَازَعُوا مُتَعَلِّق بِمُمْهِلُكُمْ، ومَا أَنْقَضَ «مَا» بِمَعْنَىٰ شَيء مُبْتَدَأ وأَنْقَضَ فِعل مَاضٍ، والفَاعِل مُستَتر يَعُود إِلىٰ مَا، والجُملَة خَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ اللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ). يَطلب سُبْحَانَهُ مِنكُم أَنْ تَشكُرُوهُ، والْمُرَاد بِالشُّكْر الطَّاعَة، وأَفضَل الطَّاعَات عَلىٰ الإطلاَق الْجِهَاد، والتَّعَاون لِرَدع الطُّغَاة عَن الْبَغْي (وَ مُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ). بِالأَمْر هُنا أَرْض الله وَسُلطَانه، والْمَعْنَىٰ لَيس لَكُم ـ بِمَشِيئَة الله وإِرَادتَه ـ شِيء مِن الدُّنْيَا والآخِرَة إلّا بالْعَمَل والكِفَاح، ومِن البَدَاهَة أنّ القُوَّة شَرط أَسَاسِي لكلِّ جِهَاد وَنضَال... وأَيضاً مِن البَدَاهة أنّه لاَ قُوَّة إلّا بِتُوحِيد الصُّفُوف والتَّضامن فِيمَا بَيْنَهَا، وهَل قَام لِلْإِسْلاَم، والْمُسْلِمِينَ دولَة وكِيَان إلّا بِالْوَحْدَةِ والتَّوحِيد؟. وهَل ذَهَبت الأُنْدلس مِن قَبل، وفِلسْطِين مِن بَعد إلّا مِن تَفرِيق الكَلِمَة وتَصدِيع الصُّفُوف؟.

(وَ مُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ) أو مَمدُود كمَا فِي بَعْض النُّسخ، والْمَعْنَىٰ لاَ تَيأَسُوا وتَسدُّوا كلّ النّوافذ وتَقُولوا فَات الأَوَان... كلاَّ فإنّ الطَّرِيق أَمَامكُم، والأَمَد يَتسع

لِحَل مَا تَعَانُون مِن مُشكلاَت، ولاَ يَنْقصكُم شَيء إلاّ الإِخْلاَص وَصِدق النِّيَّة والعَزم عَلىٰ التَّضحِيات (فَشُدُّوا عُقَدَ ٱلْمَآزِرِ، وَ ٱطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ) هَذَا هُو حَجَر الزَّاوِية: لاَ نَصر بِلا جِهَاد وَصَبر عَلىٰ آثَاره المَرِيرَة، وخسَائِره القَاسِية (لاَ تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَ وَلِيمَةٌ). هَيهَات أنْ تَجمع بَيْنَ الْكَرَامَة وحُبّ ٱلْحَيَاة! أَبَداً لاَ حيَاة لقَوْم لاَ يَستَقبلُون الْمَوْت فِي سَبِيل حُرِيتهم بِثَغرٍ باسم، كَمَا قَال السَّيِّد الأَفْغَانِي.

نِعْمَة النَّوْم:

(مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَ أَمْحَىٰ الظُّلَمَ لِتَذَاكِيرِ ٱلْهِمَمِ!). قَال الشَّارِحُون فِي تَفْسِيره: قَد يَعزَم الإِنْسَان، وهُو فِي سَاعَة مِن سَاعَات النَّهَار أنْ يَعمَل فِي ٱللَّيْلِ كَيت وَكَيت... حَتَّىٰ إذَا جَاء ٱللَّيْلِ آثرَ النَّوْم، وتَبَخَر الْعَزم... وهَكذا هِمَمُ النَّهَار يَمْحُوها ٱللَّيْلِ، وقَالُوا: إنّ غَرض الإِمَام أنْ يَبْقَىٰ الإِنْسَان عَلىٰ عَزمِه، ولاَ يَخلُد للرَّاحَة والكَسَل[1].

وظَاهر الكَلاَم يَتَحمل هَذَا الْمَعْنَىٰ، ولكنْ خَير مِنْهُ أنّ الإِنْسَان فِي حيَاته يوَاجه الكَثِير مِن المتَاعِب والْمَصَائِب الّتي لاَ صَبر لهُ عَلَيْهَا، فَيَنْتَهِي بِهِ الْعَجْز إِلىٰ العَزم عَلىٰ الخَلاَص مِنْهَا بِالهَرَب والفِرَار، أو ٱرتكَاب رَذِيلة كَٱنْتِحَار وَنَحوه... فإذَا نَام وَأَخذ قِسطاً مِن الرَّاحَة هَدَأت نَفْسَه، وَخَفَت أَثْقَاله، وَعَدل عَزْمَه ومَا مَضىٰ مِن أفْكَاره. قَال الفَيْلَسُوف الفَرنسِي «فولتِير»: «إنّ السَّمَاء أرَادت أنْ تُعوض عمّا بُلِينا بِهِ مِن مِحَن ٱلْحَيَاة، فَمنحتنَا الأَمَل مِن جِهَةٍ، والنَّوْم مِن جِهَةٍ ثَانِيَة».

(١) انظر شرح هَذِه الفِقْرَة فِي شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمّد عَبْدَه: ٢/٢٣٤ و: ٤/١٠٢، وشَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لابْن أبِي ٱلْحَدِيد: ١١/١٤٢ و: ٢٠/٨٩.

وَقَالَ الكَاتب الانْجليزِي الشَّهِير: «هـ. ج وِيلز»: «إنّ النَّوْم نِعْمَة لاَ تُقَدَّر».

وفِي بَدْرٍ خَاف الْصَّحَابَة مِن كَثْرة ٱلْمُشْرِكِين، فعَالَجَ سُبْحَانَهُ خُوفهم بِالنَّوْم ومَا ٱستَيقظوا إلّا وأَنْفسهُم تَغمرهَا السَّكِينَة: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً﴾[1] أي أنّـه تَعَالىٰ أَلقىٰ النَّوْم عَلَيْهِمْ لِيَحل الأَمْن فِي نفُوسِهِم مكَان الْخَوْف[2].

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ ٱلأُمِّيِّ، وَعَلىٰ آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَىٰ وَالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً.

---

(١) ٱلأَنفَالِ: ١١.

(٢) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٧٢/٧، الدُّر المَنثور: ١٦٧/٣، جَامع البَيَان لِابْن جرِير الطَّبَرِيّ: ٩/... زاد المَسير: ٢٢٢/٣، تَأْريخ آبن عسَاكر: ٤٠٥/١٩، صَحِيح البُخَاريّ: ٤/٥، فَتح البَارِي: ٢٧٩/٧.

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٦١٦٧